

تاريخ المغرب العربي

٤

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملتزمون
في المغرب والسودان والأندلس

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

تاريخ المغرب العربي

٤

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملتزمون
في المغرب والسودان والأندلس

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

الطبعة الأولى ١٩٩٥

الناشر / منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ

«فَرَّانِ كَرِيمِ» سُورَةُ يُوسُفَ
آيَةُ ١١١

تقديم

وبعد سنوات أخرى من الجهد والتعب يخرج الجزء الرابع من كتابنا فى تاريخ المغرب العربى ، فى موضوع المرابطين ، من : بربر صنهاجة المثلثين ، وحركة الاحياء التى قاموا بها فى الصحراء والسودان والأندلس - فكان لهم دورهم فى توجيه الغرب الاسلامى بعامة الى ما آل اليه فى العصر الحديث ، وحتى أيامنا هذه .

اننى أتذكر تعليق أستاذنا الدكتور/محمد مصطفى زيادة على بحث عرضته عليه ، اذ قال (يرحمه الله) : « اننا ننحت فى الصخر » . كما أتذكر رهبتى عندما كان يسألنى أستاذنا عزيز سوريال (له الرحمة) عن باكورة أعمالى .

اننى لا أمل تكرار الشكر لكل من عاوننى فى انجاز هذا العمل واخص بالذكر :

- مكتبة كلية الآداب بجامعة الكويت وقاعة دورياتها الجديدة (وقتئذ) .
- مكتبة كل من قسمى التاريخ واللغة العربية ومكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية .
- الزملاء الأساتذة والأبناء الطلبة الذين قدموا لى كل عون .
- رفاق الدرب على مسيرة اخراج كتابى فى تاريخ المغرب : د/نبيلة حسن ، والأستاذ/يوسف شكرى .
- وأرحب بالرفاق الجدد : محمد الجمل ، ابراهيم سلامة ، أحمد اسماعيل - طلبة الدراسات العليا ، علماء المستقبل .

- ٨ -

- أما عن افتقدناهم : د/محمد عبد العال ، د/محمد عبد العزيز ،
د/مصطفى أبو ضيف - فلهم الرحمة وخالد الذكرى .

ولا أنسى شكر الناشر السكندري الأستاذ جلال حزي ، والعاملين
بمؤسسته « منشأة المعارف بالاسكندرية » .

وأرجو أن يتيسر لنا عما قريب اخراج الجزء الخامس فى تاريخ
الموحدين .

وعلى الله التوفيق .

سعد زغلول عبد الحميد

الاسكندرية فى ١١/٩/١٩٩٤

الفهرست

المرابطون : صنهاجة الصحراء المثلثون

في المغرب والسودان والأندلس

- المقدمات : في أهمية الكتاب ومصادره ومحتوياته والتمهيد ص ٢٥
- الفصل الأول : في البلاد والسكان ص ٤٥
- الفصل الثاني : قبائل الجمالة المثلثين بالصحراء الكبرى قبل قيام دولة المرابطين ص ١٠١
- مقدمات الحركة المرابطية : خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ص ١٣٤
- الفصل الثالث : عمالية النهضة المرابطية : أبو عمران الفاسي وحركة التجديد الثقافية في صحراء المثلثين ص ١٥٧
- الفصل الرابع : قيام دولة المرابطين - القواعد التأسيسية والسياسة المدنية ص ١٩٩
- الفصل الخامس : دولة يوسف بن تاشفين - استكمال فتوح المغرب الشمالية ص ٢٣٣
- الفصل السادس : المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس - على عهد يوسف بن تاشفين ص ٢٨٣
- الفصل السابع : على بن يوسف بن تاشفين - الذروة وبداية الانحلال ص ٣٧٥

الخرائط والأشكال

الصفحة

- خريطة رقم ١ - الصحراء الافريقية الكبرى - المواضع التاريخية
في التقسيمات السياسية الحديثة ٤٧
- شكل رقم ٢ - موجات الكثبان الرملية الصغيرة - جنوب
ورجلة (الجزائر) ٤٩
- شكل رقم ٣ - أشكال هلالية (رملية) قرب الحاريجة - الوادي
الجديد (مصر) - مع صورة المؤلف ٥١
- شكل رقم ٤ - كروكي الصحراء الغربية ٥٣
- شكل رقم ٥ - كروكي الصحراء الشرقية ٥٥
- خريطة رقم ٦ - التقسيمات المناخية وموارد المياه الجوفية ٦٧
- خريطة رقم ٧ - توزيع الطوارق وغيرهم من الجماعات العرقية
في الصحراء والساحل والسودان ٧٢
- شكل رقم ٨ - طارق ملثم (اللثام من النوع الصغير) ٧٩
- شكل رقم ٩ - قناع من غينيا الفرنسية - يوجد فيه السمات
الانسانية ورأس التمساح وجسم الثعبان ٨٢
- شكل رقم ١٠ - وادي سوف - المدينة في المقدمة وغابات
النخيل بين كثبان الرمل ٨٧
- شكل رقم ١١ - اللمط (الوعل) النموذج الأخير في صحراء
الجزائر - منطقة الراوى غرب سواره (حيث
تم القضاء عليه تماما) ٩٣

الصفحة

- شكل رقم ١٢ - امرأة بربرية (مغربية) وبصحبتهما خادمتها
(أسيرتها)
١٢٧
- شكل رقم ١٣ - كف امرأة (عروس) مزوق بحنة الزرافة في
أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية
واضحة
١٣٣
- خريطة رقم ١٤ - المغرب الأقصى مع بلاد السوس وواحات
الصحراء
٢٠٥
- خريطة رقم ١٥ - شبه جزيرة أيبيريا بطوائفها الاسلامية
والمسيحية - مع غزو ألفونسو المحارب في
الشرق (٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٢٥ - ١١٢٦ م)
٢٩٨
- شكل رقم ١٦ - نقود مرابطية ، مجموعة وليم قازان الخاصة ،
المسكوكات الاسلامية ، بيروت ١٩٨٤
٣٧٣
- خريطة رقم ١٧ - المواقع التاريخية ومحطات الطرق النجارية
عبر الصحراء الافريقية
٤٢٠

محتويات الكتاب

الآية الكريمة ص ٥

تقديم ، ص ٧ - الفهرست ، ص ٩ - الخرائط والأشكال ، ص ١٠ ،
١١ - المحتوى التفصيلي للكتاب : المرابطون : صنهاجة الصحراء الملثمون ،
ص ١٢ .

المقدمة في أهمية الموضوع ومصادره : الأهمية ، ص ٢٥ - المصادر
والمنهج ، ص ٢٦ - البكري ، ص ٢٧ ، الادريسي وصاحب الاستبصار وليون
الافريقي ، ص ٢٨ - ابن شداد الزيري - ابن الأثير - النويري - ابن
القطان ، ص ٢٩ - ابن عذاري ، ص ٣٠ - ابن أبي زرع ، ص ٣١ - ابن
خلدون ، ص ٣٢ - الحلل الموشية ، ص ٣٣ - الأوراق الرسمية والوثائق -
بروفنسال ، ص ٣٤ - مؤنس ومكي وعنان - مذكرات الأمير عبد الله ، ص
٣٥ - أعمال الاعلام لابن الخطيب ، ص ٣٦ - الذخيرة لابن بسام ، ص ٣٧ -
ابن بسام وابن حيان ، ص ٣٨ - عبد الواحد المراكشي ، ص ٤٠ - التراجم ،
ص ٤٢ .

التمهيد : ص ٤٣ .

الفصل الأول البلاد والسكان

البلاد : الصحراء الغربية ، ص ٤٥ - الاقليم الصحراوي : السمات
العامة ، ص ٤٦ - الطرق - بحار الرمل : مكوناتها النوعية - الكسوة
الرسوبية ، ص ٥٠ - الطقس ، ص ٥٤ - رياح الحرمتان والأمطار ، ص ٥٤
- التصحر ، ص ٥٧ - اقليم الساحل ، ص ٥٨ - بلاد النخل ، ص ٥٩ -
الأرض الرسوبية والأرض السوداء ، ص ٦٠ - توزيع المياه الجارية ، ص ٦١ -
آبار الصحراء - الطرق الكبرى ، ص ٦٢ - مياه السودان الجارية ، ص
٦٣ - السنغال والنيجر ، ص ٦٤ .

السكان : صنهاجة الصحراء : الملثمون - القبائل وتوزيعها ، ص ٦٨

- لتونة - لمطة ، ص ٦٩ - جدالة وجزولة ، ص ٧٠ - ميسوفة ، ص ٧١ -
السمات انعامة لقبائل المثلثين ، ص ٧٣ - الجمالة رعاة الابل ، ص ٧٤ -
الزى - اللثام ، ص ٧٧ - انتقاب ، ص ٧٨ - وظيفة اللثام ، ص ٧٩ - ديانة
السودان ، ص ٨١ - تطور اللثام ، ص ٨٣ .

الثروات الطبيعية : النباتات ، ص ٨٤ - النخلة ، ص ٨٥ - اقليم
النخل ، ص ٨٦ - نباتات الساحل ، ص ٨٩ - الحيوان : الجمل ، ص ٩٠ -
حيوانات البرية - اللمط ، ص ٩٢ - صيد البحر - الجراد ، ص ٩٤ -
قدييات الساحل - البقر ، ص ٩٥ - ثروات السودان ، ص ٩٦ - الثروات
المعدنية : الملح - الحديد والنحاس ، ص ٩٧ - الاحجار الكريمة ، ص ٩٧ -
العنبر ، ص ٩٨ - الاسبيستوس ، ص ٩٨ .

الفصل الثاني

قبائل الجمالة الصحراوية قبيل قيام دولة المرابطين النظم السياسية والحياة الاجتماعية

التمهيد : مجتمعات البربر والجماعات السودانية ، ص ١٠١ - وسائل
المواصلات في الصحراء ، ص ١٠٢ - ظهور البدو الجمالة ، ص ١٠٣ -
اهمية ظهور الجمل ، ص ١٠٣ - توغل صنهاجة جنوبا الى حدود السودان ،
ص ١٠٤ - الهجرة الى غانة ، ص ١٠٥ - العلاقات التجارية والحضارية مع
السودان ، ص ١٠٦ .

القبائل والمواطن وطرق المواصلات : ص ١٠٧ - امبراطورية لتونة
القديمة ، ص ١٠٨ - مدينة ترغا الطوارقية ، ص ١٠٩ - بداية دولة
المثلثين - الملك تلجاجون وتيلوتان ، ص ١١٠ - الملك يلمان ، ص ١١١ -
بداية نشر الاملام جنوب الصحراء ، ص ١١١ - ملوك الطوائف الصنهاجية ،
ص ١١٢ - النهضة على عهد نارشت الى ظهور يحيى بن ابراهيم الجدالى ،
ص ١١٢ - التجارة مع السودان وازدهار مدينة سجلماسة ، ص ١١٣ -
مسالك التجارة وطرقها ، ص ١١٤ .

الخريطة السياسية الاجتماعية للصحراء الكبرى في القرن ٤ هـ / ١٠ م
- صنهاجة الصحراء في القرن الك ٤ هـ / ١٠ م - الاسرة ، ص ١١٥ -
المسكان الصحراوي والمسكن السوداني ، ص ١١٦ - أودغست ومملكة
غانه ، ص ١١٦ - دويلات الطوائف ما بين صنهاجة والسودان ، ص ١١٧ -

ازدهار أودغست ، ص ١١٨ - انتشار الاسلام فى التكرور ، ص ١١٩ -
النظم الاجتماعية عند الملثمين ، ص ١٢٠ - النظام الأموى ، ص ١٢٠ ، ١٢٥ -
أودغست تحت حكم تنبروتان ، ص ١٢٠ - ملكية انتخابية ، ص ١٢١ -
اتحادات القبائل ووحدة المقر ، ص ١٢١ - طبقات المجتمع ، ص ١٢١ -
السمات الطبيعية (الفيزيائية) ، ص ١٢٢ - بربر صنهاجة والسودان ،
ص ١٢٣ - الوحدة العرقية الصغرى : الأسرة أو البيت ، ص ١٢٤ - النظام
الأموى ، ص ١٢٥ - حرية المرأة ، ص ١٢٦ - كتابة التيفيناغ ، ص ١٣٠ -
الحفاظ على اللغة البربرية ، ص ١٣١ - نقوش الحناء ، ص ١٣٢ .

الحركة المرابطية ، المقدمات : خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن
الـ ٥ هـ / ١١ م : بقايا ثقافات قديمة وضغوط المذاهب المخالفة ، ص ١٣٤ -
النشيع الاسماعيلى والحارجية الصغرى ، ص ١٣٥ - التنظيمات الاجتماعية
والأنساق العرقية ، ص ١٣٦ - النبذ ، ص ١٣٦ - انقار على القوافل ،
- حياة الصيد والسرقة - المتعة عند السودان وعدم العفة عند البربر ، ص
١٣٧ - الجهل بنعاليم الاسلام ، ص ١٣٧ - أودغست وتادمكة من مراكز
التجارة لا النعافة ، ص ١٣٨ - فاس وانفيروان وحركة الاشماع الاسلامى
فى مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١٢ م ، ص ١٣٩ - الرحلة الأندلسية الى المشرق ،
ص ١٣٩ - القيروان والفسطاط مركزان علميان فى طريق الحجاز ، ص ١٤٠ -
المدرسة المكية - رحالة العلم الأندلسيون - مكة مركزا علميا - شيوخها ،
ص ١٤١ - المدرسة المصرية وأشهر علمائها ، ص ١٤٥ - مدرسة القيروان ،
وأشهر علمائها ، ص ١٤٩ .

الفصل الثالث

**عملية النهضة المرابطة : أبو عمران الفاسى وحركة التجديد
الثقافية فى صحراء الملثمين**

القيروان العاصمة الثقافية للمغرب والأندلس ، ص ١٥٧ - أبو عمران
الفاسى (منشأ) القيروان (وطنا) ، ص ١٥٧ - رحلته العلمية ، ص ١٥٨ -
العودة الى المغرب ، ص ١٥٩ - أستاذيته فى الفقه المالكى ، ومعرفته
بالكلام والفلسفة ، ص ١٦١ - مدرسة أبى عمران وأشهر أعلامها ، ص ١٦٣ -
صلاته الوثيقة بعامة القيروان ، ص ١٦٤ .

أبو عمران الفاسى والتنظيم الايديولوجى للدولة الصحراوية الدينية ،
ص ١٦٤ - تلميذه وباج بن زلوا ، ص ١٦٥ - التنازع فى وفاة أبى عمران

وشخصية الزعيم الصنهاجى ، ص ١٦٥ - محاولة ترتيب الأجيال ، ص ١٦٦ - تصحيح وفاة أبى عمران وتأخيرها الى ٤٣٩ - ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩ م ، ص ١٦٨ - وتوثيقها ، ص ١٦٨ - مشكلة الزعيم الجدالى ، ص ١٦٩ - اللقاء بين أبى عمران ويحيى الجدالى (١٠٤٨ / ٤٤٠) ، ص ١٧٠ - اختيار المعلم ، ص ١٧١ - دور محمد وجاج السوسى ، ص ١٧٢ - عبد الله ابن ياسين محتسبا ، ص ١٧٤ - رباط وجاج ، ص ١٧٥ - الطريق الى جدالة ، ص ١٧٦ - أصول الاحتساب عند عبد الله بن ياسين : فى أرض جدالة ، ص ١٧٧ - فى أرض لتونة ، ص ١٧٩ - حدود القطع والرجم ورفض لتونة ، ص ١٧٩ - معسكر أهل الحق : مدينة ابن ياسين الفاضلة ، ص ١٨١ - ثورة لتونة بقيادة الجوهر - وانتهاء مشروع المدينة الفاضلة ، ص ١٨٢ .

الرباط : رباط عبد الله بن ياسين - أهمية رواية البكرى - الهدف من الرباط فى المغرب ، ص ١٨٣ - أرتنى رباط ابن ياسين الأول ، ص ١٨٤ - مكان الرباط - تاريخ اقامته (١٠٤٨ / ٤٤٠) ، ص ١٨٥ - الموضع واحتمالاته المختلفة ، ص ١٨٦ - جزيرة ايونى - رباط ماسة - مصب السنغال الأوفى ، ص ١٨٧ - نظام المراقبة ، ص ١٨٩ .

الجماعة الأولى من المرابطين : أهل الحق - التوابون - المرابطون ، ص ١٨٩ - شروط الالتحاق بالرباط ، ص ١٩٠ - التوبة والتطهر ، ص ١٩١ - الحدود ، ص ١٩٢ - الخروج من الرباط والعمل الايجابى : بداية دولة الرباط : دولة أهل الحق ، ص ١٩٣ - الدعوة السلمية قبل الأعمال الحربية ، ص ١٩٤ - غزو جدالة ، ص ١٩٤ - غزو الصحراء ، ص ١٩٥ - خضوع لتونة ، ص ١٩٥ - خضوع مسوفة ، ص ١٩٦ .

دخول بقية قبائل صنهاجة الصحراء فى دعوة الرباط - والتخلص من بقايا المعارضين ، ص ١٩٦ .

الفصل الرابع

قيام دولة المرابطين - القواعد التأسيسية والسياسة المدنية

القيادة المشتركة وتقسيم العمل ، ص ١٩٩ - الجيش ، ص ٢٠٠ - الحطط الحربية ، ص ٢٠١ - بيت المال ، ص ٢٠٢ - تزكية المال ، ص ٢٠٣ .

التوسع الاقليمي خارج الصحراء - فتح درعة وسجلماسة : الأسباب
- ما بين طلب الزكاة والشكوى من الحكام ، ص ٢٠٤ - النوازل الكونية والانفجار السكاني ، ص ٢٠٦ - فتح أودغست ، ص ٢٠٧ - غدر سجلماسة ، ص ٢٠٨ - الفقيه رئيسا ، ص ٢٠٩ - انشقاق الملتزمين والحرب الأهلية - بدء ظهور أبي بكر بن عمر ، ص ٢٠٩ - هزيمة تبفريلي ومقتل يحيى بن عمر ، ص ٢١١ - اتحاد قبائل الرباط اللمتونية تحت قيادة عبد الله بن ياسين ص ٢١٢ - جدالة قبيلة حليفة ، ص ٢١٢ .

قيادتان : شمال الصحراء وجنوبها - تدرج الفتوح الشمالية من اغمات الى برغواطة ، ص ٢١٣ - فتح اغمات ، ص ٢١٤ - أول ذكر ليوسف ابن تاشفين ، ص ٢١٥ - القضاء على اماراة البجليين الشيعية ، ص ٢١٥ - فتح السوس الأقصى ، ص ٢١٦ - نفيس - ايجلي - نول لمطة (٤٥٠ / ١٠٥٨) ، ص ٢١٧ - الغاء المظالم ، ص ٢١٨ .

فتح تامسنا : بلاد برغواطة - السمات العامة للحركة البرغواطية ، ص ٢١٨ - هرطقة برغواطة ، ص ٢٢٠ - فيما بين التشدد الخارجي والتساهل الشيعي ، ص ٢٢١ - الصلاة - الزكاة - عيد الأضحى ، ص ٢٢٢ - الزواج والطلاق وغيرها من المعاملات ، ص ٢٢٢ - الجرائم والعقوبات ، ص ٢٢٣ - ترجمة القرآن ، ص ٢٢٤ - ملوك آل صالح ، ص ٢٢٥ - ضم تامسنا لدولة الرباط ، ص ٢٢٦ - معالم حرب تامسنا ، ص ٢٢٧ - سمات حرب المطاولة مع زناته ، ص ٢٢٧ - موقعة كريفلة ومقتل عبد الله بن ياسين ، ص ٢٢٨ - وصية ابن ياسين واتخاذ منظر بديل ، ص ٢٢٩ - أسار لمقتل الفقيه وكسر آخر معادل برغواطة ، ص ٢٣٠ .

الفصل الخامس

دولة يوسف بن تاشفين

يوسف بن تاشفين واستكمال فتوح المغرب الشمالية وتصفية دولة زناته المغراوية ، ص ٢٣٣ - دور أبي بكر بن عمر في فتح المغرب قبل الرحيل ، ص ٢٣٥ - من توقيت رحيل أبي بكر الى توقيت فتح المغرب ، ص ٢٣٦ - مناقب الرجال الثلاث ، ص ٢٣٦ - رحيل أبي بكر والعهد الى يوسف ، ص ٢٣٧ - اغمات قاعسة مرابطية - زواج أبي بكر بن عمر من زينب النفزاوية ، ص ٢٣٨ - بناء مراکش : التوقيت ، ص ٢٣٩ - اختيار موضع مراکش ، ص ٢٤٠ - أهمية الموقع وبدء البناء ، ص ٢٤١ - أعمال أبي بكر

فى البناء ، ص ٢٤٢ - أعمال يوسف بن تاشفين فى بناء مراکش ، ص ٢٤٣ - جامع الكتبية فى موضع جامع القصبة ، ص ٢٤٤ .

يوسف بن تاشفين أميرا لدولة المرابطين : الأرجل - نفسه وصفاته ، ص ٢٤٧ - معاشه ، ص ٢٤٨ - يوسف نائبا لولاية المغرب ، ص ٢٤٩ - العهد الى يوسف بالولاية ، ص ٢٤٩ - شروط الاتفاق على النيابة ، ص ٢٥١ - تركة الأمير الخاصة : نوع من توريث الزوجة ، ص ٢٥١ - تقسيم الجيش - تنصيب يوسف والعمليات العسكرية فى المغرب ، ص ٢٥٢ - التمهيد للأعمال العسكرية - مراکش ، ص ٢٥٣ - زينب النفزاوية ، ص ٢٥٤ .

أعمال يوسف بن تاشفين فى عهد النيابة ، ص ٢٥٥ - الحرب فى المغرب : تهديد القبائل ، ص ٢٥٦ - فتح فاس ، ص ٢٥٧ - ما بين فتح غمارة ، وردة فاس وطاعة مكناسة ، ص ٢٥٧ - إقامة نظم الدولة وتراثيمها - الدواوين - ديوان المال والحراج ، ص ٢٥٩ - الحرس الأميرى من العبيد السود والصفالية البيض - دار السكة ، ص ٢٦٠ - دولة ابن تاشفين فى مهب الريح : عودة أبى بكر بن عمر من الصحراء ، ص ٢٦٢ - اعتزال أبى بكر لصالح يوسف ، ص ٢٦٤ - ما بين الجهاد جنوب الصحراء والمطالبة بمملكة المغرب ، ص ٢٦٥ - محاولة ابراهيم بن أبى بكر المطالبة بمك أبيه ، ص ٢٦٦ - وفاة أبى بكر بن عمر ، ص ٢٦٧ .

عهد يوسف بن تاشفين - الاستقلال والتقسيم ، ص ٢٦٨ - المرابطون والسودان الغربى - دولة أبى بكر بن عمر الصحراوية ، ص ٢٦٨ - استشهاد أبى بكر فى غانه ، ص ٢٦٩ - الثورة على لمتونة فى السودان - وتأسيس تومبوكتو محل غانه ، ص ٢٧١ - التوسع الاقليمى فى عهد يوسف بن تاشفين - استكمال فتوح المغرب ، ص ٢٧٢ - فتح الأقاليم البحرية فى شمال المغرب - خضوع منطقة سلا ، ص ٢٧٣ - التوسع فى

السوس الأدنى : فتح مكناسة ، ص ٢٧٤ - فتح فاس ، ص ٢٧٥ - فتح
تلمسان ، ص ٢٧٧ - تهدين البلاد والتقسيم الإداري ، ص ٢٧٩ - غزو
الصدوة الإفريقية : سبتة وطنجة ، ص ٢٨٠ - فتح طنجة ، ص ٢٨١ .

الفصل السادس

المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس

على عهد يوسف بن تاشفين

فتح الأندلس حتمية تاريخية ، ص ٢٨٣ - الموقف العام في الأندلس
- تهديد فرناندو الأول ، ص ٢٨٤ - الصراع بين رؤساء الطوائف -
تهديدات الفونسو السادس ، ص ٢٨٥ - سقوط طليطلة - وحتمية التدخل
المرابطي ، ص ٢٨٦ - (أمراء الطوائف) ما بين الوعي والغيوبة ، ص ٢٨٨
- الصراع بين أصحاب طليطلة وبطليوس وأشبيلية ، ص ٢٨٩ - بلاد الثغر
تحت حماية دويلات الاسترداد بشكل تبادلي ، ص ٢٩١ - الفتنة في طليطلة ،
ص ٢٩٢ - فرار ابن ذي النون ودخول الفونس السادس طليطلة - التدخل
المرابطي في الأندلس - عملية الانقاذ المرابطية ما بين الأمانة والواقع ، ص
٢٩٣ - طاب النجدة من يوسف بن تاشفين ما بين القبول والرفض ، ص
٢٩٤ - التفكير في الاستعانة بالعرب ، ص ٢٩٥ - رعى الجمال أفضل من
رعى الخنازير ، ص ٢٩٦ - فتح سبتة وعبور يوسف إلى الأندلس - سبتة ،
ص ٢٩٧ - العبور ، ص ٢٩٩ - التحالف الأندلسي المرابطي ورد الفعل
الأسباني - التمهيد لمعركة فاصلة ، ص ٣٠٠ - ثقة الفونس السادس في
النصر ، ص ٣٠١ - موقعة الزلاقة في بطليوس - ميدان المعركة ما بين
التلقائية والاختيار ، ص ٣٠٢ - موقعة الزلاقة ، ص ٣٠٤ - إدارة المعركة
في الجانب الإسلامي ليوسف ، ص ٣٠٦ - أخبار الجواسيس ، ص ٣٠٧ -
تباطؤ حركة المرابطين ، ص ٣٠٨ .

الكمين : الحرس الأميري يحسم المعركة ، ص ٣٠٩ - الربيع والخسارة

فى المعركة الفاصلة ، ص ٣١٠ - التقييم الحتامى للزلافة . ص ٣١٢ - حرب
الاحلال والتجديد المرابطية ، ص ٣١٣ - يوسف بن تاشفين أميرا
للمسلمين ، ص ٣١٤ - لقب شرفى بعد النصر ، ص ٣١٦ - امارة المسلمين
تنهى نظام الطوائف ، ص ٣١٦ - مشكلة التوقيت ، ص ٣١٦ - الحامية
المرابطية الأولى ، ص ٣١٧ .

العبور الثانى وحصار لييط - استيلاء الاسبان على حصن لييط ،
الهيمنة المسيحية فى الشرق ، ص ٣١٩ - حصار حصن لييط ، ص ٣٢١ -
دور الفقهاء فى تقرير مصير أمراء الطوائف ، ص ٣٢٢ - وقوف أمير المسلمين
الى جانب ابن عباد ضد صاحب مرسية ، ص ٣٢٣ - الفونس السادس
يحاول نجدة الحصن - حرب سجال دون نصر ، ص ٣٢٤ - توحيد قياده
الجهة الأندلسية تحت رايات أمير المسلمين - انتهاء نظام الطوائف ، ص
٣٢٥ - سمات التغيير ، ص ٣٢٦ - الأسباب العامة ، ص ٣٢٦ - الأسباب
المباشرة ، ص ٣٢٨ - غرناطة أولا ، ص ٣٢٩ .

استسلام بقية الأمراء فى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م - سير بن أبى بكر
نائباً ، ص ٣٣٢ - سبته رباطا جديداً ، ص ٣٣٣ - مسار الأحداث -
تمهيد منهجى ، ص ٣٣٣ - الوحدة بداية لعملية الانقاذ ، ص ٣٣٤ - خطة
شاملة لغزو الطوائف ، ص ٣٣٥ - مملكة العباديين الهدف الأول - مسار
الأحداث ، ص ٣٣٨ - قيادة الحامية المرابطية - مقر نيابة الأندلس ، ص
٣٣٩ - الشروع فى غزو أشبيلية ، ص ٣٤٠ - أخذ المرية ، ص ٣٤١ -
سقوط جيان وقرطبة ، ص ٣٤٢ - تهدين أعمال قرطبة وهوقف المعتمد من
الفونس ، ص ٣٤٣ - تحييد انقشسنايين : هزيمة البرهانس - النفر
الأقصى : قلعة رباح - نهاية العباديين فى أشبيلية ، ص ٣٤٤ - ازدواجية
الفتح : الصلح والعنوة ، ص ٣٦٦ - نهاية المعتمد فى اغمات ، ص ٣٦٧ .
غزو بطليوس : آخر ممالك الوسط والغرب ، ص ٣٤٩ - المرابطون

فى شرق الأندلس ، ص ٣٥١ - تمهيد منهجى ، ص ٣٥٢ - أخذ قبره
ومرسیه (شعبان ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م) ، ص ٣٥٣ - دخول دانية وشاطبه ،
ص ٣٥٤ - غزو بلنسية - نهاية القادر بن ذى النون - بلنسية تحت حماية
السيد ، ص ٣٥٥ - ابن جحاف رئيسا تحت الحصار ، ص ٣٥٦ - عودة
السيد الى بلنسية ، ص ٣٥٧ - أمير المسلمين يشرف على العمليات الحربية
من بعيد ، ص ٣٥٩ - الجيش الاسلامى صيد سهل ارجلى الريبكونكستا
(الفونس والسيد) ، ص ٣٥٩ - السيد أميرا لبلنسية ، ص ٣٦٠ -
استرجاع بلنسية (٤٩٥ هـ / ١١٠١ م) بعد تحريقها بالنار ، ص ٣٦١ .
اعلان ولاية العهد فى غرناطة : مقر النيابة (٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م) ،
ص ٣٦٣ .

العودة الى مراکش ونهاية يوسف بن تاشفين ، ص ٣٦٥ - الموقف
فى شرق الأندلس ، ص ٣٦٦ - مرض يوسف والتطاول على الغرب من قبل
ألفونس السادس ، ص ٣٦٨ - وفاة يوسف نهاية مرحلة القوة المرابطية ،
ص ٣٧٠ - صورة يوسف ، ص ٣٧٠ - الدينار اليوسفى ، ص ٣٧١ .

الفصل السابع

على بن يوسف بن تاشفين - ذروة العصر المرابطى

بداية الانحلال ، ص ٣٧٥

صورة على بن يوسف : أمير المسلمين وناصر الدين ، ص ٣٧٦ -
ما بين صورة كل من يوسف وولى عهده على ، ص ٣٧٧ - وصية يوسف
فى أصول الحكم ، ص ٣٧٨ - مبايعة رؤساء القبائل وتوزيع الحكم ، ص
٣٧٩ - الادارة المدنية ، ص ٣٨٠ - أحوال الأندلس تثير اهتمام على بن
يوسف منذ ولايته ، ص ٣٨٢ - العبور الأول لـ على بن يوسف ، ص ٣٨٣
- محاولة اكتساب رضا الجميع - فى حملة التفقد الرادعة ، ص ٣٨٤ -

فتح أقليمش ، ص ٣٨٥ - قيادة الأمير تميم (أخى أمير المسلمين) والى
غرناطة ، ص ٣٨٦ - هزيمة الاسبان ومقتل ولى عهد ألفونس السادس ،
ص ٣٨٧ - العبور الثانى الى الأندلس (٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م) ، ص ٣٨٨ -
فتح طليبة واجتياح منطقة طليطلة ، ص ٣٨٩ - سرقسطة ما بين المرابطين
والاسبان المسيحيين - الدخول تحت المظلة المرابطية ، ص ٣٩٠ - هزيمة
مروعة لجيش سرقسطة واستشهاد المستعين بن هود ، ص ٣٩١ - استنجد
عماد الدولة بن المستعين بالاسبان المسيحيين ، ص ٣٩٢ - زعماء سرقسطة
يستدعون المرابطين ، ص ٣٩٢ - وعماد الدولة يستدعى ملك أراجون -
هزيمة المرابطين ومقتل يحيى بن محمد بن الحجاج (آخر ٥٠٣ هـ / صيف
١١١٠ م) ، ص ٣٩٣ - ذروة الصراع بين المرابطين والاسبان ، ص ٣٩٣ -
سرقسطة وساحتها ميدان قتال ، ص ٣٩٤ - أمير المسلمين يغير القيادة
ويعين الأمير مزدى قائدا أعلى ، ص ٣٩٥ - مزدى يجتاح منطقة طايطنة
(٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) ، ص ٣٩٦ - وفاة مزدى واستشهاد ابنه بعده : من
علامات الهبوط ، ص ٣٩٧ - مظاهر الهبوط والتردى ، ص ٣٩٩ - مصاعب
الحرب الاسبانية - اضطراب الزناتية فى العدو - غارات ردعية للجنوبيين
على ميورقة وبرقة ، ص ٤٠١ - وقعة قرطبة واستشهاد محمد بن مزدى ،
ص ٤٠٢ - الهياج الشعبى على المرابطين : ثورة قرطبة (٥١٤ / ١١٢١) ،
بداية النهاية للمرابطين ، ص ٤٠٣ - حدث فردى يثير العاصفة على القائد
المرابطى ، ص ٤٠٤ .

الموقف الدينى والثقافى فى الأندلس والمغرب - فى أوائل عهد الأمير

على بن يوسف ، ص ٤٠٥ - المالكية المرابطية - تمهيد منهجى ، ص ٤٠٦ -
ما بين الدراسة التقليدية ، والاتجاهات الصوفية المستجدة ، ص ٤٠٧ -
غريب الحديث والتسامح الدينى ، ص ٤١٠ - اتجاهات أخلاقية فى دراسة
الحديث ، ص ٤١١ - اتجاه نحو التسامح الدينى ، ص ٤١٣ - اتجاهات

مالكية متشددة على المستوى الرسمي ، ص ٤١٤ - من مظاهر الفتور في
علاقة أمير المسامين بالشعب الأندلسي - نبوءة قرب وفاته ، ص ٤١٥ -
احراق كتب الغزالي بشارة قيام مذهب التوحيد لمحمد بن تومرت ، ص ٤١٥
- احياء علوم الدين ومشروع التوحيد الاسلامي آثار الخلاف بين فقهاء
الأندلس والغزالي (حجة الاسلام) ، ص ٤١٦ - فتوى ابن راشد (الجد)
بتغريب جماعات المعاهدين آثار خسواطر أصحاب الاسترداد على الوجود
الاسلامي في الأندلس ، ص ٤٢٠ .

- فهرس المصادر والمراجع الواردة في الهوامش ص ٤٢٣
- أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات ص ٤٣٥
- أسماء المدن والجبال والأنهار والأماكن والمواضع ص ٤٥١

المقدمة

في أهمية الموضوع ومصادره :

الأهمية :

يعتبر تاريخ المرابطين في المغرب من موضوعات التاريخ الاسلامي الهامة لأكثر من سبب ، ربما لا يكون أهمها تلك العملية التي قام بها يوسف بن ناشفين لانقاذ المسلمين في الأندلس من السقوط تحت ضغط حرب الاسترداد المسيحية المعروفة باليكونكيستا . هذا ، وان كان لدخول الأندلس تحت حكم المرابطين في مراكش آثار عظيمة من حيث الربط بين طرفي الغرب الاسلامي شمال المضيق وجنوبه ، في وحدة سياسية - حضارية واحدة ، بنيت علاماتها المميزة ، في كل من غرب أوروبا وغرب أفريقيا الى اليوم .

ومثل هذا يقال عن أهمية دخول المرابطين مملكة غانة السودانية قبل ذلك ، ونشر الاسلام في المناطق التي لم يكن قد دخلها بعد ، جنوب الصحراء ، الأمر الذي كانت له آثاره الحاسمة فيما آلت اليه حدينا الأوضاع السياسية والمظاهر الحضارية في غرب أفريقيا حتى أيامنا هذه .

والمهم بشكل عام أن دولة الرباط انشأت قامت في صحراء المغرب في منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، تأسس قيامها على عملية احياء للاسلام ودولته مثل غيرها من عمليات التجديد التي كان يحاولها بعض الموهوبين من رجال الاصلاح المسلمين من أهل السياسة والدين بين حين وآخر ، بغرض تنقية الاسلام مما لحق به من الشوائب أو محاولة تقويم ما لحق بالمجتمعات الاسلامية ودولها من اعوجاج عن الطريق المستقيم أو انحراف . وذلك في ضوء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بدعوة العودة الى عصر النقاء الأول : عصر النبوة والرشاد .

وهكذا بدأت الحركة المرابطية تقليدية هدفها نشر الاسلام السني في الصحراء ، ولكن تمدها جنوبا في السودان وشمالا في أسبانيا حولها مع مرور الوقت ، الى امبراطورية متعددة الثقافة والأعراق ، الأمر الذي عرضها

الى زلزلة أسقطتها بعد حوالى ٦٠ (ستين) سنة فقط من ضم الأندلس ،
لكى تحل محلها فى كل من المغرب والأندلس حركة اصلاح جديدة ، أكثر
تطورا ، قامت باسم دولة الموحدين - موضوع دراستنا القادمة - ونجحت
فى دمج بلاد المغرب بطابعها المميز الذى تعيشه الآن .

المصادر والمنهج :

التاريخ للدولة المرابطية هو التاريخ للجيل الثانى من قبائل صنهاجة
المغربية ، وهم المثلثون من بربر الصحراء . فكأنه تسجيل لحياة بعض
الشعوب البدوية ، تماما مثل التاريخ للعرب فى رمال جزيرتهم وواحاتهم
أو تسجيل لحياة الترك والمغول فى سهوب بلادهم فى أواسط آسيا وفيافياها .
فهو اذن تاريخ لم يدون بشكل منتظم الا بعد وقت من بداية الحركة المرابطية
واستقرار قواعد دولتها . وبناء على ذلك فهو يعتمد فى بداياته على الرواية
الشفوية التى كثيرا ما تطور وتتحوّر ما بين الحقيقة الواقعة والاسطورة
المتخيلة . وهذا ما يعانى منه تاريخ المرابطين فى بداياته الاولى ، تماما كما
هو الحال بالنسبة لتاريخ العرب والاسلام فى بداياته الاولى ، وكذلك الامر
بالنسبة لتاريخ الترك والمغول فى مراحلهم الاولى حيث تغلب القصص
الشعبية المعروفة بالفلكلور على كثير من أطرافه .

وهنا يمكن ان نجد بديلا لذلك القصص الشعبى فى التاريخ المدون
لدى بعض الشعوب المدنية المجاورة . والمال لذلك تاريخ العرب المسلمين
عند البيزنطيين ، وتاريخ الترك والمغول عند الصينيين . ومثل هذا يقال عن
تاريخ المرابطين حيث تتمثل بداياته الاولى فى روايتين ليسا محليتين من
بنات الصحراء . اولاهما أندلسية ، وهى رواية البكرى المعاصرة ، وثانيتها
أفريقية تونسية للأمير الزيرى الصنهاجى : عبد العزيز بن شداد المتوفى
فى أواخر القرن السابع الهجرى/ ١٣ م . والمهم أن هذين الاتجاهين :
الأندلسى والأفريقى سيستمران كعلامتين مميزتين فى التاريخ للمرابطين ،
وخاصة بعد نزولهم فى الأندلس وضمها الى دولتهم باسم الاسلام والدفاع
عن دياره ، وذلك فى مقابل النزعة الأندلسية فى التاريخ المرابطى التى
تجمل من الضم افتئاتا على حقوق الأندلسيين فى حكم بلادهم والدفاع
عنها ، وان كان بمعونة من الأخوة المسلمين وأميرهم فيما وراء العدو (أو
المضيق) . فكأنها نزعة من الشعوبية بين العرب والعجم ، أو نزاعا طائفا
اقليميا ، مما ساد فى ذلك الوقت على المستوى الاسلامى والطائفى الاقليمى

أيضا ، مما تاتى الاشارة اليه فى هذا التعريف بالمصادر أو فيما يتطدء
النوئيق المنهجى فى العرض التاريخى .

والمهم فى التاريخ المربطى أنه يعانى كثيرا من نقص المصادر على
مستوياتها المختلفة ، من الوثائق والأدب التاريخى والجغرافى والثقافى
بعامة ، والأثرى بخاصة - حيث لم يبق لنا شئ من بقايا المربطين أو
لقاياهم وآثارهم ، وهى الآفات التى يعانى منها التاريخ الاسلامى ، نتيجة
طبيعية لآفات المجتمعات الاسلامية المتمثلة فى عدم الاستقرار السياسى
وتوابعه من الاضطرابات الاجتماعية أو العكس من ذلك .

البكرى :

والبكرى هو أبو عبيد عبد الله (القرطبى ، ت ٤٨٧ هـ) ، وكتابه
الذى يهمننا هو الجزء من المسالك والممالك المعروف باسم « المغرب فى ذكر
بلاد أفريقية والمغرب » ، والذى نشر بمعرفة البارون دسلان (De Slane)
بالجزائر سنة ١٨٥٧ م ، تحت عنوان « وصف أفريقيا الشمالية » ،
بالفرنسية ، مع تعريف بالبكرى وبيان بأهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ
المغرب اسنادا الى تقييم محتوياته .

ووصف أفريقيا للبكرى يعتبر وثيقة معاصرة (٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م)
من الطراز الأول بالنسبة للعصر المربطى الأول فى بلاد المغرب ، من حيث
التعريف بالبلاد الصحراوية وطرقها ومفاوزها ، وأهلها الجمالة المنتمين
وحياتهم القاسية فى الصحراء - التى كان لها سحرها أيضا - وخصوصية
عاداتهم وتقاليدهم النابعة من طبيعة تفردهم فى القفار ، وكيف تهيأ لهم
النيام بحركة الاصلاح الدينية المربطية التى غيرت الشمال الأفريقى (فى
القرن الـ ٥ هـ / ١١ م) من حال الى حال ، بفضل فريضة الحج التى ربطت
بين المشرق الاسلامى والمغرب فى دائرة ثقافية واحدة - مما نعرض له فى
الدراسة - متجددة مع توالى المواسم والأعوام .

ومع أهمية الرحلة ورحلة الحج بصفة خاصة كمصدر حى للأخبار ،
فان المعلومات الدقيقة التى يقدمها البكرى عن البلاد والطرق والناس
والتراتب والعادات والتقالييد ترقى الى المستوى الوثائقى بمعنى رجوع
البكرى الى وثائق أرشيف قرطبة الاستعلامية التى كان يزخر بها الديوان
هناك منذ أيام الناصر والمنصور ، والتى استفاد منها البكرى من غير شك ،

كما يرى دسلان في تقديمه للكتاب بالفرنسية (ص ١٣ - ١٥) ، وهو الأمر المقبول حقا .

والمهم أن معلومات البكرى الفريدة عن أحوال المرابطين من بربر صنهاجة الصحراء الملتئمين كانت موردا نهل منه القدامى ، من الادريسي (قرن ٦ هـ / ١٢ م) الى الحسن الوزان (ليون الأفريقي : قرن ١٠ هـ / ١٦ م) والمحدثون ، من كولى :

(W.D. Cooley, Early History and Geography of Central Africa, 1841 الى جوتييه : (E.F. Gautier, Le Sahara, 1940)

الى حد اعتماد البعض بحق ، عليه فى عمل الدراسات المتعمقة ، كما فعل جان ميشيل ليسار (J.-M. Lessard) فى دراسته عن سجلماسه (هسبيريس ، ١٩٦٩ فصل ١ - ٢) ، وهو ما نصدى به من غير تردد .

ومن المهم الاشارة هنا الى أننا استفدنا من توقيت البكرى الدقيق للأحداث فى تصحيح بعض التواريخ الخاطئة عند غيره من المتأخرين ، الأمر الذى ساعد على تحديد مسار التاريخ المرابطى فيما بعد عصره بشكل منطقى مقبول ، الأمر الذى يكرس مرجعية البكرى من غير شك .

الادريسي ، وصاحب الاستبصار ، وليون الأفريقي :

ومن الواضح أن الادريسي (القطعة الخاصة بالمغرب ، دراسة محمد حاج صادق) استفاد من تأليف البكرى فى أخبار قبائل المرابطين من صنهاجة لمثونه ولمطة ، الرحالة الذين ليس لهم مدينة الا نول لمطة وأزقى ، حيث محطات خدمة قوافل الابل الصحراوية (ص ٧٤ - ٧٥) ، الى جانب ما يقدمه من معلومات عن بناء مراکش على عهد يوسف بن تاشفين ، واستكمال بنائها على عهد على بن يوسف ببناء قصر الحجر ، وجلب الماء من العيون خارجها (ص ٨٣ - ٨٤) .

أما صاحب الاستبصار (أواخر قرن ٦ هـ / ١٢ م) فجعل اعتماده فى أخباره على البكرى - فى هذا الموضوع . كما يظهر أثر البكرى أيضا عند الحسن الوزان (القرن ١٠ هـ / ١٦ م : ليون الأفريقي ، وصف أفريقيا ، الترجمة العربية عن الفرنسية - السعودية) الى جانب مشاهدات القرن الـ ١٦ م التى يمكن الاستفادة منها عن طريق القياس والمقارنة مما يظهر فى الدراسة .

ابن شداد الزيرى (ت حوالى منتصف القرن ٦ هـ / ١٢ م) :

ونحمل الرواية الأفريقية التونسية فى تاريخ المرابطين فى كتاب « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » لعبد العزيز (أبو محمد عز الدين) بن شداد بن (الأمير) تميم بن المعز بن باديس (الزيرى الصنهاجى) المنوفى حوالى منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م . فبسبب انتماء ابن شداد الى الزيريين فى أفريقية يمكن اعتبار كتابه هذا نوعا من التاريخ الوطنى او القومى الصنهاجى ، وان أصبح بحكم الاقتباس والنقل يمثل وجهة نظر المشاركة لتاريخ المرابطين .

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) :

فابن الأثير - بما له من رسوخ فى التاريخ الاسلامى - يعطى وزنا عظيما من غير شك ، لرواية ابن شداد عندما يعرضها فى تاريخ المرابطين بعد عرضه لرواية الرقيق فى الهلالية وسقوط خلافة قرطبة التى يتق فيها بصفها رواية « رب البيت الذى هو أدرى بما فيه » - وان كانت رواية ابن شداد قد تعرضت مع مرور الوقت ، لأخطاء النساخ وربما للتحوير والتزييف - خصوصا بعد قيام دولة الموحدين المعادية للمرابطين . والمثل لذلك قصة الفيل الذى ركبه الفونس ، وقصة اخفاق أمير المسلمين فى التخلص من شيخ جبل كزوله ، والكف عنه بعد ما انكشف سره ، الى جانب قصة الرجال الثلاث الذين اشتهى أحدهم زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين .

النويرى (ت ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) :

وهى من الآفات التى تعاني منها رواية ، النويرى (تاريخ الغرب الاسلامى : أفريقية والمغرب والأندلس ، تحقيق كل من مصطفى أبو ضيف - الدار البيضاء - وحسين نصار - القاهرة) الذى رجع الى رواية ابن شداد فنقلها أو لحصها مع ما هو معروف عنه من النقل من ابن الأثير .

ابن القطان (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) :

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا من الجزء الذى وصل إلينا من كتاب « نظم الجمان » لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، لابن القطان ، الا قطعة صغيرة متناثرة عن أواخر عهد المرابطين (٥٠٨ هـ / ١١١٤ م - ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م : تحقيق محمود مكى ، الرباط) . وهذه القطعة من تاريخ المرابطين

فى الأندلس خاصة بفترة المطاولة (الصراع) بين المرابطين والموحدين .
ومن أهم ما تقدم تلك القطعة من تاريخ المرابطين فى الأندلس وقعة أفليش
(سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م) ، وغزو اقليم طليطيرة (٥٠٣ هـ / ١١١٠ م) ،
وهى السنة التى يضع فيها احراق كتاب الأحياء للغزالي ، الى جانب أخبار
محمد بن تومرت الأولى .

ابن عذارى (يكتب حوالى ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) :

ويرجع الفضل لابن عذارى الذى تعتبر حولياته فى « البيان المغرب »
العمود الفقرى لتاريخ المغرب الاسلامى فى كل المصور ، الأمر الذى يتأكد
من عرض مصادره فى الجزء الاول الذى نشر بمعرفة بروفسال وكولان .
ومن حسن الحظ أن أسفرت جهود الباحثين عن استكمال أجزاء هامة من
الكتاب بعد الجزئين اللذين نشرهما دوزى ، مثل الجزء الثالث فى تاريخ
الطوائف الذى أخرجه بروفسال ثم الجزء الرابع فى تاريخ المرابطين ، قبل
القسم الخامس فى تاريخ الموحدين ، مما كان لوينى ميراندا جهده فى اخراجه
الأمر الذى ساعده على اخراج كتابه فى « تاريخ امبراطورية الموحدين » .

وتتأكد أهمية أخبار ابن عذارى فى تاريخ المرابطين بمقارنتها بغيره
من روايات المتقدمين عنها والمتأخرين ، اذ تثبت المقارنة أن ابن عذارى مؤرخ
موهوب ، يعرف كيف يوازن بين مختلف الروايات ، ويميز الغث من
السمين ، الأمر الذى يؤكد التوقيت الصحيح للأحداث - حسب التاريخ
الرئيسى - الأمر الذى يساعد حتما فى تحديد المسار السليم للوقائع عندما
تضطرب فيما بينها وتختلف لسبب أو لآخر .

ورغم ما يعترى القطعة من البيان الخاصة بالمرابطين والتى تمتد على
طول مائة عام تقريبا وتمثل الجزء الرابع من الكتاب حسب نشرة احسان
عباس (بيروت ١٩٦٧) ، من النقص فى البداية والنهاية الى جانب بعض
الخروم مثلما يشير اليه المحقق فى ص ٣٠ (عن أحداث ما بين ٤٦٩ -
٤٩٥ هـ / ١٠٧٦ - ١١٠١ م) ، فانه زاخر بالموضوعات والمعومات الوفيرة ،
من : حركة الأمير أبى بكر بن عمر الى الصحراء ، وتسمية يوسف بأمير
المسلمين ، وعبوره الى الأندلس ، وثورة ابن جحاف بلنسية ، وأخبار
البلاد الشرقية ، وحرق الأحياء ، الى ولاية على بن يوسف ، وتاشفين بن على .
ومما يحمد للمحقق محاولته استكمال تلك القطعة بتزويدها ، بالملاحق

الحمسة في : ترجمة يوسف وبعض أعماله ، الى جانب المعلومات عن القادر ابن ذي النون ، والقاضي ابن جحاف في بلنسية .

ابن ابي زرع (ت حوالى ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) :

وكتاب ابن ابي زرع الذى يعتبر من نوع كتب التاريخ المحلى ، من حيث انه يحمل عنوان « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » (الرباط ١٩٧٣) فكأنه من كتب تاريخ المدن ، حتى شبهه جوتييه بكتب الارشاد السياحى ، من حيث عنايته العائقة بمعالم مدينة فاس القديمة ، التى ما زالت باقية الى اليوم ، لتجعل من فاس بحييها « البالى » و « الجديد » تحفة فى متحف « المغرب » الحديث ، من تحف العصور الوسطى التى تعتز بها بحق مديرية الآثار هناك ، وقد يكون ذلك من مبررات ترجمة الكتاب الى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة ، من الألمانية والبرتغالية والأسبانية ، بل والقديمة مثل ترجمة تورنبرج اللاتينية .

ورغم ذلك فروض القرطاس يعتبر بحق أيضا مصدرا لا غنى عنه بالنسبة لتاريخ « المغرب » (الحديث) من : الأدارسة وحتى العصر المرينى فى أوائل القرن الثامن الهجرى / ١٤ م . والمؤلف يعرض بشكل عام لتاريخ دول المغرب دون توثيق أو اسناد ، ودون اتباع منهج الحوليات التاريخى . وان كان قد عوضه بأسلوب شبيه آخر ، وهو انتهاء تاريخ الدولة بعرض لأهم الأحداث ، من اجتماعية واقتصادية وظواهر كونية مع وفيات الأعيان . وهو فى ثمايا عرضه يلجأ الى استكمال تواريخ آثار فاس وخاصة جامع القرويين حيث يعالج أعمال الدول المختلفة حتى أيامه ، مثلما يتكلم عن أعمال يوسف بن تاشفين فى الجامع المرقى بعد أعمال العامين (سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م) (ص ٥٩) ، ويتبع ذلك بأعمال الموحدين والمرينيين .

وفيما يتعلق بتاريخ المرابطين فهو يشغل قسما معتبرا من الكتاب ، تحت عنوان الخبر عن ظهور الدولة المرابطية اللمتونية ، وقيامها بالمغرب والقبلة ، وبلاد الأندلس ، وذكر ملوكهم ومدة أيامهم الى انقضائها وذهابها . وهكذا تتوالى على دولة المرابطين بعد عبد الله بن ياسين ٤ (أربعة) عهود تسمى بالدول ، وهى دولة كل من : الأمير أبى بكر بن عمر (ص ٣٣) مع وفاة زينب النفزاوية سنة ٤٦٤ هـ (؟) ، والأمير يوسف بن تاشفين ثم ابنه على وحفيده تاشفين - دون اعتبار للمراهق : ابراهيم بن تاشفين - آخرهم .

ورواية البكرى واضحة المعالم ، فى الفترة المرابطية الأولى ، وكذلك

رواية القاضي ابن جنون (قنون) (ص ١٦٦) الذي يعتبر من مصادر
ابن شداد .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) :

يعالج ابن خلدون دولة المرابطين عرضا في أكثر من موضع ، فهـ
يعرض لها في المقدمة ، كما يعالجها في تاريخ البربر على مستوى الدولة ،
وعلى مستوى القبيلة من : لمنونة الى غيرها ، مثل : مسوفة . وهكذا يعرض
للمرابطين تحت عنوان : الطبقة الثانية من صنهاجه ، وعم الملثمون ، وما
كان لهم بالمغرب من الملك (ج ٦ ص ١٨١ ، من ط . بولاق المصورة
بيروت) . ويتناول هذا القسم العناصر الآتية : المشمون من صنهاجه
(ص ١٨١) ، وتاريخهم الأول من بداية اسلامهم ، وفيه يظهر أثر البكرى ،
كما تأتي الاشارة أكثر من مرة الى ابن أبي زرع ، (١٨١ - ١٨٢) ، والخبر
عن دولة المرابطين من لمنونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك (١٨٢) . وهو
في عرضه لحرب يوسف بن تاشفين لغراوة وبنى يفرن في فاس وتلمسان
وغیرها من مدن المغرب الأوسط يذكر ما حدث به المؤرخون بشكل عام ،
ويخصص عندما يذكر قول صاحب : نظم الجواهر (ص ١٨٤) الذي لا نعرف
ان كان يقصد به صاحب نظم الجمان (ابن القطان) أم لا ، قبل أن يوجه
أنظاره ، نحو الأندلس والعبور الى الفونس الـ ٦ (ص ١٨٦) ، وسوء
العلاقة بملوك الطوائف والفتوى بخلعهم (ص ١٨٧) ، ومخاطبة الخلافة
العباسية ، ومخاطبة الغزالي له (ص ١٨٨) ، ومالك علي بن يوسف ،
والصراع مع الفونس الـ ٦ الى ظهور المهدي محمد بن تومرت (ص ١٨٩) .

ونص ابن خلدون ما زال في حاجة الى تحقيق ، فكثير من الأسماء بل
والتواريخ محرفة نتيجة لأخطاء النساخ وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من
التواريخ ، وهذا ما يظهر في ترجمة دسلان وتصحيحاته التي يمكن أن
تساعد كثيرا في إعادة تحقيق النص . فـ « تاوكا » صحتها « تاركا »
(طارق ، تارغه) على سبيل المثال ، وبنو « صولان » : بنو مولان ، وكاكرم :
كاكدم (قاقدم) ، و « بشولوثان » : « يتلوتان » (ج ٦ ص ١٨١) ، « وتيزاو
بن وانشق بن بيزا » : تينزوا بن وانشق بن بيزار ، و « ناشرت » : زارشت ،
و « الكندالي » : الكدالي (الجدالي) (ج ٦ ص ١٨٢ د والترجمة ج ١ ص ٦٥) .
وتأتي (في ص ١٨٣) قراءة اسم « لقوط » (البرغواطي - صاحب سبته
وأغمات) ليعتمد صحتها دسلان في شكل «Laghout» بدلا من «سكوت»

التي تأتي في ابن خلدون في مواقع أخرى ، والتي أصبحت دارجة عند غير ابن خلدون من القدامى والمحدثين بدلا من لقوط .

ومثل هذا يقال عن بعض التواريخ مثل : استيلاء الفونس الهـ ٦ (الطاغية) على بلنسية سنة ٨٥ (١٠٩٢/٤ م بدلا من ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) وجواز يوسف الثاني سنة ٨٦ (٤) هـ / ١٠٩٣ م بدلا من ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م (ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٩) .

والمهم في رواية ابن خلدون أنه استطاع أن يقابل بين الروايات المتضاربة ، وأن يختار الصحيح منها ، وأن يستبعد الروايات القصصية ، ويقدم رواية سليمة وإن كانت مختصرة . والمهم أن يتها من ينقيها مما شابهها من تحريفات النسخ والنقل .

« الحلل الموشية » في الأخبار لمراكشية (لمجهول انجزها في ربيع الأول سنة ٧٨٣ هـ / ماية ١٣٨١ م) :

ورواية الحلل رغم تأخرها النسبي وسرعتها تعتبر من المراجع الهامة بالنسبة لتاريخ الدولة المرابطية ، من حيث أنه يمكن عن طريقها سد بعض الفراغات في تاريخ المرابطين سواء في المغرب أو الأندلس ، أو اكمال ما تعاني منه بعض الروايات من الحروم أو القطع . هذا ، كما تميزت هذه الرواية المجهولة المؤلف بتوازنها من حيث العناية بكل من المغرب والأندلس بنفس القدر ، وكذلك الأمر بما فيها من توازن في تقييم العمل المرابطي بالأندلس دون تحيز لأي من موقفي الأندلسيين والصحراويين الملتزمين ، بما يمثله كل طرف على المستويات الحضارية والانسانية .

وصاحب الحلل يذكر بعض الكتب التاريخية التي أخذ عنها ، مثل : البكري ، وأبي يحيى بن اليسع ، صاحب كتاب المغرب في محاسن المغرب (ص ٦٢) ، وكذلك محمد بن الحلف (ص ٦٦) ، إلى جانب روايات المعاصرين من شهود العيان ، ذوى المناصب الاعتبارية ، مثل : محمد بن عبد العزيز بن الامام : أحد خواص المعتمد بن عباد (ص ٥٧) .

والمهم أن صاحب الحلل ينفرد ببعض المعلومات التفصيلية ذات الشكل الديواني ، من حيث العناية بالعدد والوصف الدقيق ، مثل : قائمة الهدية الذي قدمت من قبل يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه الأمير الأكبر : أبي بكر ابن عمر ، عند عودته من السودان ، والتي احتوت دنانير الذهب ،

والأفراس والسيوف المحلاة بالذهب وأنواع الملابس الثمينة ، من العمائم المنصورة والأثواب السوسية ، والبرانس الملونة ، وقباطى الشاش الملونة ، والجوارى الأبيكار ، وأرطال العود الغالى والمسك الطيب والعنبر والند ٠٠ الخ والحقيقة أن النص على أن يوسف كتب الى أبى بكر كتابا يعتذر فيه عن قلة الهدية (ص ٢٨) ، ربما تعنى أن مصدر تلك المعلومات التفصيلية المدهشة هى تلك الرسالة ، على ما نظن .

هذا الى جانب ما يعرضه صاحب الحلل من خطابات رسمية بمناسبة اتخاذ لقب أمير المسلمين (ص ٢٩) ، أو بمناسبة استصراخ المتوكل بن الأفتس بأمير المسلمين (ص ٣٤) ، وكذلك المعتمد (ص ٤٥) وهو ما يعنى الثقة فى الأصول الديوانية (الوثائقية) فى الحلل الموشية ، بصرف النظر عن سرعتها واضطراباتها أحيانا .

الأوراق الرسمية والوثائق :

والحقيقة أنه كان للأندلس بحضارتها الديوانية العريقة التى كانت قرطبة ما زالت تحتفظ ببعض بقاياها ، أثرها على الكتابة التاريخية للدولة المرابطية والموحدية ، وهما الدولتان العريقتان فى أصولهما الصحراوية « الجبلالية » ، من حيث طغيان المادة الوثائقية المتمثلة فى الرسائل الرسمية الصادرة من دواوين الطوائف . وانه لما يؤسف له أنه لم تصلنا - بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التى عمت كلا من الأندلس والمغرب فى القرون التالية - أية نماذج أصلية من تلك الرسائل . فالذى وصلنا منها هى نماذج مشوهة نقلها الهواة من : كتاب أدباء أو مؤرخين هواه بعضهم عن بعض ، حتى وصلت إلينا مشوهة الصورة والنسخ . ولما كان كتاب هذه الرسائل من الأدباء والشعراء أصلا ، كانت غلبة الطابع الأدبى على تلك النسخ من الرسائل الى جانب الاسراف فى استخدام المحسنات اللفظية ، والتشبيهات والاستعارات ، مما يحد ان لم يمنع الاستفادة منها الى حد كبير .

بروفنسال :

ويرجع الفضل للأستاذ بروفنسال فى الكشف عن مجموعة مخطوطة من الرسائل الرسمية المرابطية والموحدية ، اكتفى بنشر الأخيرة منها لأنها كانت أحدث وأوثق (نشر الرباط ، ١٩٣٤) . أما بقية الرسائل المرابطية

«الأقل قيمة وفائدة فقد كان من حسن الحظ أن لقيت من عكف على دراستها من المختصين اقتداءً بـبروفنسال» .

مؤنس ومكى وعنان :

فكان حسين مؤنس نشاطه في هذا المجال حيث نشر بعض الرسائل في المجلة المصرية للدراسات التاريخية (١٩٤٩) ، وفي صحيفة المعهد المصري بمديرية (١٩٥٤) ، وخاصة تلك الرسائل التي نشرها في دراسته عن التفرغ الأعلى أي مملكة سرقسطة (مصر ١٩٩٢) ، وتحتوى على ٤ (أربع) رسائل ، أولاها عن موقعة أقليمش (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م) ، والثانية عن سقوط سرقسطة (٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) ، والثالثة والرابعة عن هزيمة اقلعة (٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) . هذا ، كما قام محمود مكى بتحقيق ونشر ما كان قد بقى من رسائل بروفنسال (المرابطية) ، وهي ٢٢ (اثنان وعشرون) رسالة مرابطية في موضوعات مختلفة ، منها : لقاء ابن رشد بيوسف بن تاشفين ، بمناسبة مسألة المعاهدين ، وغزو منطقة طليطلة على عهد علي بن يوسف (٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) ، ورسالة موجهة سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م الى قاضي ريه عن زيادة اختصاصات القضاة ، ووصايا علي بن يوسف الى رعيته الأندلسيين (٥٠٠ - ٥٠٨ هـ / ١١٠٦ - ١١١٤ م) ، ورسالة من مراكش سنة ٥٠٦ هـ / ١١٠٢ م عن مركز الفقهاء المتميز لدى المرابطين ، وعن أحوال بلنسية التي استنقذت من السيد (٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) ، واستدعاء الكاتب ابن أزرق سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م لاستخدامه في ديوان انشائه ، وتولية شخص على ميورقة ربيع ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، ورسالة في قتل الجراد (لابن القبطرنة) . هذا كما نشر محمد عبد الله عنان بعض الرسائل المرابطية في ملحق كتابه عن المرابطين والموحدين .

أما عن أهم الأدب التاريخي الخاص بالمرابطين في الأندلس ، فهو ذلك النوع الذي يأخذ شكل المذكرات الشخصية ، سواء كانت معاصرة أو متأخرة ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله الصنهاجى ، وأعلام ابن الخطيب ، ومعجب عبد الواحد المراكشى ، وأخيرا ذخيرة ابن بسام .

مذكرات الأمير عبد الله (٤٦٩ - ٤٨٣ هـ / ١٠٧٦ - ١٠٩٠ م) :

تعتبر مذكرات الأمير عبد الله المعروفة « بكتاب التبيان » من المصادر الهامة بالنسبة للتدخل المرابطى في الأندلس . ففي مقدمتها ينص الأستاذ بروفنسال (ذخائر العرب ، رقم ١٨ ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨) على أن تلك

المذكرات التي دونت أثناء الإقامة الجبرية لمؤلفها في أغمت ، تمثل اعظم مجموعة وثائق وصلت إلينا في تاريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويرا .

والحقيقة أن المؤلف يستهل مذكراته تلك بمقدمة يقرر فيها الطريقة التي اتبعها في الكتابة ، وهي التي تمثل منهجا معتبرا في أسلوب التأليف ، من : جودة الصياغة ، والأمانة في النقل ، ومراعاة ترابط الأحداث ، واستخدام العقل في القياس ، مع مقارنة الماضي بالحاضر من حيث أن الـ « أنا : آن الآن » ، بمعنى أن إدراك الوجود هو ذات الزمان ، كما نظن . وهو إذ يعرف أن التجربة مهمة في التعليم ، فإنه يدرك أيضا أن : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما هو نور يضعه الله في القلوب ، بمعنى أن العلم لا يعنى بالتكرار والاعادة ، بل بالكشف والتجديد ، وهو ما يشبه الاستنارة العقلية لدى الماوردي في باب العقل من أدب الدنيا والدين .

وينص الأميرالغرناطي وطننا الصنهاجي أصلا ، على أهمية التمرس بالتجربة السياسية بالنسبة لأمثاله من الأمراء المستقلين بالحكم والادارة . وهو في ذلك يأخذ بمقالة كل من الفارابي والماوردي في أن صناعة الحكم والرئاسة هي أشرف الصناعات ، الأمر الذي يتطلب أن يكون صاحبها فيلسوفا عالما ، شبه معصوم من الخطأ (١) .

ولا ينسى الأمير عبد الله في مذكراته التنبيه إلى الاستفادة بتجارب الماضي التاريخية ، حيث الإشارة إلى ذاتية الأحداث التاريخية ، وأهمية الصدفة في المسار التاريخي ، كما في قصة تسلم المنصور بن أبي عامر لقمة السلطة في قرطبة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لهم في غرناطة (المذكرات ، ص ١٨) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) :

وهذا الكتاب هو الآخر من روائع الأدب التاريخي المتخصص في عصر ملوك الطوائف رغم تأخره بشهادة مؤلفه لسان الدين ابن الخطيب ، أحد كبار رجال السياسة والأدب في القرن الثامن الهجري / ١٤ م ، مثل معاصره وصديقه ابن خلدون .

(١) انظر للمؤلف . الماوردي بين التاريخ والسياسة ، جامعة الاسكندرية (الموسم الثقافي) ١٩٧١ ، ص ٦٢ .

فلقد جمع ابن الخطيب مادة تاريخية غنية عن تلك الفترة ، جعلت روايته ترقى الى مستوى المصدر الاصيل ، تماما كما هو الحال بالنسبة لروايته المتأخرة عن غرناطة القرن (الـ ٨ هـ / ١٤ م) الموسومة بالاحاطة حقا ، الى جانب كونها أساسية بالنسبة لأصول نظام الطوائف وجذوره التي عرف في رجل السياسة والأدب كيف يكشف عن مظانها المعتمدة ، كما كان لديه الذكاء والخبرة الميدانية التي تمكنه من بيان عللها ومعرفة خباياها .

فنشأة نظام الطوائف كان نتيجة طبيعية لسقوط خلافة قرطبة التي أعلنها شيخ الجماعة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور عندما اتفق على خلع هشام المؤيد ، وإبطال رسم الخلافة جملة ، حيث تقسم بعدئذ رؤساء الطوائف البلاد والأقطار (أعمال اعلام، نشر بروفنسال ، ص ١٣٩) ، تماما كما كانت الدكتاتورية العامرية من الأسباب المباشرة لسقوط الخلافة ، من حيث أجهدت البلاد في إقامة آلة حربية ضخمة ، واستئناف نظام الصوائف السنوية ، في وقت كانت الأوضاع قد استقرت فيه على طول الثغور الشمالية ، وكأنها حدود نهائية .

والمهم هنا هو أن قرطبة العاصمة المدنية العملاقة ، المكونة من ٢١ (واحد وعشرين) حيا والتي بلغ محيطها ٢٥ كم ، وعدد سكانها أكثر من نصف مليون نسمة كانت المدينة الوحيدة القادرة على ربط أطراف الأندلس بعضها الى بعض ، وفرض سلطانها تحت رايات حكومتها المركزية (ص ١٣ وما بعدها) . فبعد أن سقطت قرطبة في مستنقع الفتنة تحولت من عاصمة حامية الى ساحة قتال مفتوحة لا يغشاها المتنافسون على السلطة من العرب والبربر والصقالبة فقط ، بل والحلفاء المسيحيون من ممالك الشمال (ص ١١٣ - ١١٤) . هذا ، كما كان استيلاء العباديين على قرطبة يحقق لهم التفوق على غيرهم من رؤساء الطوائف (ص ١٥٤) .

كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) :

يعتبر ابن بسام من شهود عصر الطوائف ، وتتلخص أهمية كتابه « الذخيرة » في أنه كتاب أدب وتاريخ ، اذ يرجع ابن بسام فيه الى تاريخ ابن حيان المعروف بالمقتبس والذي يعتبر بدوره كتاب تاريخ وأدب ، الأمر الذي ينفث فيه شيئا من الحياة رغم الاختلافات المنهجية بين العلمين (١) .

(١) عن كتاب ابن حيان ، انظر احمد مختار العبادي ، مجلة عالم الفكر (الكويت) ،

والكتاب الذى يأخذ بشكل السير أو تراجم الرجال مقسم جغرافيا الى ٤ (أربعة) أقسام ، ثلاثة منها حسب تقسيم بلاد الأندلس ، الى : الوسط وتمثله قرطبة والغرب حيث اشبيلية وما يتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط ، ثم الشرق وما يتصل به من الجزر والثغور ، حيث يعالج أهل كل اقليم على حدة بينما يخصص القسم الرابع والأخير للطائفتين على البلاد من الشعراء والكتاب الى جانب بعض المشاهير من المعاصرين من أهل أفريقية والشام والعراق .

ابن بسام وابن حيان :

والحقيقة أن ما يعطى الكتاب شكله التاريخي المميز بالنسبة لبلاد الأندلس فى عصر الطوائف بخاصة أنه يعالج فى كل من الأقسام الثلاثة الأولى عددا من رجال الدولة والكتاب الى جانب الأدباء (المقدمة ، ص ٥) ، كما أنه يعول فى معظم ذلك على تاريخ أبى مروان ابن حيان (المقدمة ، ص ١٨) .

واذا كان ابن بسام قد عدل فى تقوله من أبى مروان بن حيان ، سواء من التاريخ الكبير المعروف بالمتين أو من تاريخ ملوك الطوائف الذى عده المعاصرون من « فرص العمر وغرره » حيث حسن التصرف فى المادة المقتبسة ، من الاختصار أو التخفيف حسب مقتضى الحال ، الى جانب التمسك الواضح بأصول منهج البحث التاريخي ، من : التثبت من صحة النص المكتوب بخط المؤلف الى سلامة طريقة البحث وهدفه ، والنقد لما يعرض له ابن حيان فى المقدمة . هذا ، وان قرر فى الحتام « أن المؤرخ متهم على كل حال » (٢) .

وأغراض البحث كما يعرضها ابن حيان تتلخص فى الآتى :

- الاعتبار بدروس الماضى ، الأمر الذى يقضى باستقصاء الأخبار ، والعناية بتقييد شاردها وواردها .

- وإذا كان اضطراب الأحداث بسقوط الخلافة ، وفتنة الطوائف قد

(٢) الذخيرة . ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٣ - حيث التمثل ببيت الشعر الذى يقول فيه ابن الرومى :

مهما ثقل فسهام منك مرسله وفوك قوسك والأغراض أغراض

جعلت ابن حيان يتوقف عن جمع الأخبار أو يتعذر عليه متابعتها لبعض الوقت ، فانه يعود الى استئناف تقييد الأحداث من لدن أهل العلم والأدب ، وان كان بشكل لم يرض نهم الباحث المجتهد ، اذ يقول : « لزهد من قبلنا قديما وحديثا في هذا الفن ، ونفيهم له عن أنواع العلم » (ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٦) .

والمهم أنه نجح في وصل ما كان قد انقطع من أخبار بداية فتنة الطوائف ، وأخبار أبطالها وشهود حروبها ، مما أسعفته به الذاكرة أو أخذه عن أهل الثقة ، أو ما سمحت بمشاهدة الأحداث التي ظل بعضها يأخذ بخناق بعض حتى اكتمل نظمها وانتشرت مطاويها ، وأعلنت خوافيها دون محاباة لها أو خوف عليها من سطوة الحق أو صرامة الصدق (ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٧) .

والظاهر أن مؤرخ الأندلس ابن حيان انتابته أزمة نفسية منعتة من متابعة دورة تاريخ الطوائف أشبه بذلك التي انتابت ابن الأثير عندما توقف لفترة من الوقت عن التاريخ لغزو جنكيز خان لدولة خوارز مشاه ، على اعتبار أن اعلان مثل هذا النبأ الخطير كان في رأيه بمثابة نعي للإسلام في تلك الجهات الشرقية من أواسط آسيا . والحقيقة أن ابن حيان بعد أن توقف عن اعلان أخبار عصر الطوائف في الأندلس ، على اعتبار أنه نعي لخلافة قرطبة المروانية ، رأى أن التاريخ لدويلات المشرق الإيراني - التركي التي ظهرت بشكل قوى ، الى جانب خلافة بغداد الضعيفة ، اعتبارا من القرن الثالث الهجرى / ٩ م ، هي النموذج الذي يمكن أن يقتدى به في التاريخ للأندلس اعتبارا من مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م) (١) .

(١) انظر الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ص ٥٧٧ - ٥٧٨ حيث النص على أنه استمر في التاريخ لعصر الفتنة الطائفية ، أسوة بالتأخرين من أصحاب التاريخ بالمشرق كالحصنى وابن القواس والفرغانى (ت ٣١٢ هـ / ٩٣٤ م ، الذي له صلة لتاريخ الطبرى) ، ونظرائهم من أعلام الفقهاء الذين عاصروا الفتنة التي لحقت بالمشرق اعتبارا من أول القرن الهـ ٤ / ١٠ م ، حيث تصرّحهم بأخبار أمرائهم المتوثبين على المملكة عند ومن متقلدى الخلافة منهم . فالأمر ما اعتنوا بذكر أخبار الأعاجم هناك من الديلم والأتراك ، مع عدم الفائدة فيها ، وتفشى العار بوجوهها . وبعدها ما كتبه من قبلهم من أخبار ملوك العرب في صدر الإسلام لفظا ومعنى ، وعقدا ومبنى ، حتى توسعوا في ذكرها وتناهاوا في التنقيب عنها - وان ذلك لا محالة كان لاستغرابهم من شأنها ... وأشار لهم الى انها طرقت هادئة لما منه الدنيا ، ومفيرة لحاسنها مزهدة فيها ، مؤذنة بانقطاعها ، لكى يكون البقاء لمن تفرد بجبروته ، ويدام اليها لمن لا تتسلط =

وبناء على ذلك استكمل ابن حيان تاريخه الكبير بتاريخ رؤساء الطوائف ، وكان له رأيه الخاص في أولئك الملوك الصغار الذين حملوا الألقاب الملوكية التي حملها الخلفاء ، الأمر الذي كان يثير استنكار البعض أو سخريه الآخرين . وهذا ما أخذ به الجمهور العريض من الناس ، وإن لم يمنع ذلك أصحاب المآرب الخاصة من قبول نظام الطوائف كنوع من نظام حكم المتغلبين الذي يعتبر ظاهرة سياسية تاريخية في حالة عجز الحكومة المركزية عن ضبط الأمور في الأصقاع البعيدة ، فكأنه نوع من الحكم المؤقت الذي ينتهي بنهاية أسباب وجوده . وفي هذا الشأن توجد مادة متنوعة في ذخيرة ابن بسام تعبر عن مختلف وجهات النظر من عامة شاملة أو خاصة محدودة .

عبد الواحد المراكشي (أنجز مؤلفه سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) :

يعرف عبد الواحد المراكشي بمؤلفه في تاريخ المغرب والأندلس الذي يحمل عنوان « المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب » الذي ألوه في المشرق في أواخر شهر جمادى الثاني ٦٢١ هـ / يونيو ١٢٢٤ م . وتتلخص أهمية الكتاب في أهمية صاحبه عبد الواحد الذي يعتبر واحدا من كتاب الدولة الموحدية ، من حيث صلته بالأمير اسحق بن يعقوب المنصور الذي كان حاكما لاشبيلية على أيام أخيه الناصر .

ورغم أن عبد الواحد كتب المعجب في بغداد فالكتاب يعتبر ، بسبب مركز صاحبه الاجتماعي ، وثيقة هامة بالنسبة لتاريخ المرابطين رغم اهتماماته الأدبية الخاصة ، حيث التعريف بكثير من الشخصيات الأدبية السياسية من ملوك الطوائف وكتاب دواوينهم - وهو من هذا الوجه له رأى يميل فيه بشدة الى المعتمد بن عباد ولكنه لا يتعد بنفس القدر عن يوسف ابن تاشفين .

هذا ولعبد الواحد الذي يعتمد كثيرا على الحميدى (ص ٦٩) رغم

= العبر على ملكوته . فركبت سفن من تقدمنى فيما جمعت من ملوك هذه الفتنة البربرية ، وانظمت وكشفت عنه ، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة وسبب انتقاض دولهم وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى ، وخباء لولدى ، والفضن بفوائده الجمة على من تنكب احمادى به الى ذمى ومنقصتى . . . الى ان رايت زفافه الى ذى خطبة سنية أتتني على بعد الدار الأمير المؤئل الامارة ذى المجدين ، الكريم الطرفين : يعين ذى النون .

تصريحه بتشتت الذاكرة واعتذاره بغياب كتبه ، نظرات عميقة فى السياسة
وشئون الحكم . فالأندلس كانت كرسى المملكة الى أن تغلب عليها يوسف بن
تاشفين فصارت اذ ذاك تبعا لمراكش من بلاد العدو (ص ٥) ، وأهم سمات
طليطلة التى زلزلت أخبار سقوطها أهل ذلك العصر ، هو القرب من وسط
الأندلس (ص ٧) ، تماما كما يلح على ذلك الحميرى صاحب الروض
المعطار . وهو بالنسبة لعصر الطوائف فى الأندلس يقدم روايات وثائقية
جيدة ، مثل : قرطبة التى تحولت على عهد ابن جهور الى جمهورية شعبية ،
جنودها أهل الأسواق وان كان ابن جهور يدير أمورهما بأسلوب الملوك
المتغلبين (ص ٥٩ - ٦٠) الذين حملوا القاب الخلافة (ص ٧٠) .

واذا كانت اطماع « الروم » (الأسبان) قد قويت فى بلاد المسلمين
فقد انقطع هذا الطمع بيمين نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقوب
يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ، ثم استمر على ابنه على ذلك
(ص ٩٢ - ٩٣) .

ورغم نقده لرؤساء الطوائف بعامة فهو يعرف للخيرين منهم قدرهم .
فعلى بن مجاهد الذى خلف والده فى دانية وميورقة : مصون النفس
طاهرها لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، مؤثر للعلوم الشرعية ، توفى
قبل فتنة المرابطين بيسير « لا أتحقق تاريخ وفاته » (ص ٧٤) . والمتوكل
عمر بن الأفطس ناظم نائر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، قتله المرابطون
وولديه الفضل والعباس ، ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ هـ / فبراير
١٠٩٢ م . وفيهم قال ابن عبدون قصيدته الغراء ، ومطلعها :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| الدهر يفجع بعد المين بالائر | فما البكاء على الأشباح والصور |
| أنهاك أنهاك لا آلوك موعظه | عن نومة بين ناب الليث والظفر |
| | (ص ٧٥ وما بعدها) |

وهكذا كان عبد الواحد الأديب يرى فى المعتمد بن عباد صنوا لهارون
الرشيد : ذكاء نفس وغزارة أدب الى فضائله الذاتية من الشجاعة والسخاء ،
وهو على الجملة ، اذا عدت حسنات الأندلس فهو أحدها ، بل أكبرها
(ص ١٠١) . وهذا لا يمنع من اعترافه ليوسف بن تاشفين بقدره ويمن
نقيبته التى قطع الله بها طمع العدو فى بلاد المسلمين .

التراجم :

وبذلك نكون قد انتهينا من عرض أهم مصادر تاريخ المرابطين في المغرب والأندلس فلا يبقى إلا الإشارة إلى كتب التراجم التي استفدنا منها في الدراسة ، مثل صلة ابن بشكوال وصلتها لابن الأبار ، وهي التي خصصنا لها صفحات داخل الدراسة ، وحاولنا الاستفادة منها في حل بعض المشاكل المتعلقة بضبط التواريخ ، مما يظهر في صميم العمل . وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات الحديثة التي أشرنا إليها في كثير من المواضع ، مع اعتذارنا لمن سقط ذكره - عن غير قصد .

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملتهمون في المغرب والسودان والأندلس

التمهيد :

إذا كان قيام دولة بنى زيرى خلفاء الفاطميين فى أفريقية والمغرب ، اعتبارا من النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، قد حقق غلبة قبائل صنهاجة أفريقية أنصار الفاطميين المتأخرين على الكتامين أنصارهم الأولين السابقين الذين انتقلت بقاياهم مع قوات الخلافة الى القاهرة ، فان الهيمنة الزيرية لم تلبث أن تزعزعت من أصولها عندما رنت أبصارهم الى الاستئثار بالسيادة دون الخلفاء المصريين ، اعتبارا من منتصف القرن الخامس الهجرى (١١ م) .

ومن المهم الإشارة الى أن القرن الخامس الهجرى (١١ م) له أهمية خاصة فى تاريخ عالم الاسلام من حيث كان قرن سيادة البدو الرحالة ، سواء فى المشرق حيث ظهر الأتراك السلاجقة رعاة الخيل فى بلاد التركستان بأواسط آسيا ، ونجاحهم فى الغلبة على الخلافة فى بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، أو فى المغرب حيث كان العرب الهلالية يندفعون من صحراوات مصر نحو بلاد القيروان ، الأمر الذى كانت له ردود فعل عنيفة ليس فى أرض الاسلام فقط ، بل وفى العالم المسيحى المعاصر ، سواء فى بيزنطة التى كانت هزيمتها فى ملازكرد ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ايذانا بتحويل أرض الروم (الأناضول) الى تركستان جديد ، أو فى شبه جزيرة أيبيريا حيث انتهت هزيمة قشتاله ، أقوى الممالك المسيحية على أيدي المغاربة الصحراويين فى الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م الى دخول أسبانيا الاسلامية تحت الهيمنة المغربية فى عصر المرابطين وخلفائهم من الموحدين ثم المرينيين .

فلقد تسببت الهجرة الهلالية التى تمت تحت رعاية الخلافة الفاطمية - وان كان ذلك فى ظروف اقتصادية صعبة بالنسبة لكل من مصر والخلافة وعرب الهلالية مع من كان يصاحبهم من بنى سليم - فى قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية (العرقية) فى أفريقية التونسية رأسا على عقب ، مما كانت له آثاره الهامة على مستقبل البلاد الى قرون عديدة ، بل وبشكل نهائى حتى أيامنا هذه ، وخاصة فيما يتعلق

بالتركيبة السكانية لكل الشمال الأفريقي بدءا من برقة على تخوم مصر ،
وانتهاء بالصحراء الغربية وموريتانيا حتى سواحل الأطلنطي ، وربما على
بعض مجتمعات السودان الغربي أيضا . فمن الآثار السلبية للهجرة الهلالية
ضعف الزيريين في المهدية وبنى عموماتهم الحماديين في القلعة وبجاية ، الأمر
الذي كانت له أصداؤه في ضعف أوضاع المسلمين في صقلية في مقابل
ازدياد التهديد النورمندي . كذلك خرج الصفار من أبناء زيري بن مناد على
أبناء عموماتهم ، ملوك المهدية وبجاية ، وانضموا الى خصوم العائلة من زعماء
زناتة ، حلفاء الامويين في الأندلس . وإذا كان بعضهم قد مد نشاطه
الجهادي في ثغور الأندلس ، كما نجح البعض في اقتطاع مملكة هناك في
غرناطة ، فالمهم انهم شاركوا في زيادة تفتيت الأندلس في نظام ملوك
الطوائف ، الذي أصبح وكأنه حتمية تاريخية مقدرة ، ليس على الأندلس
فقط ، بل وعلى أفريقية والمغرب أيضا .

وهكذا انتهى الأمر بانحسار النشاط الفردي للزعماء الزيريين ،
مصحوبا بعجز الدولة عن مدافعة الهلالية أو مواجهة الخطر النورمندي .
وتوالى النذر تبشر بزوال النظام الصنهاجي في أفريقية ، وإذا ببوارق الأمل
تظهر في الأفق البعيد بالمغرب ، في شكل عملية انقاذ على أيدي جماعات
صنهاجية أخرى ، لم يكن أفسدها الملك والترف بعد ، وهم صنهاجة
صحراوات المغرب الأقصى من « الجمالة الكبار » ، طوارق العصور الوسيطة ،
جوابة الصحراء الكبرى .

الفصل الأول

في البلاد والسكان

البلاد :

وطن المرابطين الأصلي اذن ، هو الصحراء الغربية من الشمال الافريقي وامتداداتها : جنوبا ، حتى أوليل ومصب نهر السنغال على ساحل المحيط ، وشمالا في موريتانيا حيث بلدة اطار ، على طريق نواكشوط - مراكش ، حتى مدينة نول ونخوم السوس الأقصى . وشمالا بشرق في صحراوات الجزائر الجنوبية حيث مرتفعات الحجار (الأحجار) على سمت وارجلان (ورفلة) وغدامس (شرقا) - وحيث مدينة توات (عين صالح حاليا) ، موطن الطوارق الحاليين ، أسلاف الملتمين من المرابطين ، وصحراوات ليبيا الجنوبية ، حيث مدينة « زويلة » القديمة جنوب فزان على الطريق الى هضبة تيبستي ، التي كانت بابا مفتوحا بين كل من السودان (الأوسط) وطرابلس ومصر . وشرقا ، من موريتانيا حتى بحيرة تشاد ، مرورا بصحراء مالي حيث بلدة تساليت في منطقة أدرار افوراس ، من حيث يؤدي الطريق الجنوبي الى تومبوكتو غربا ، والى نيامي في جمهورية النيجر ، جنوبا بشرق . وفي صحراء النيجر الشمالية الشرقية المتاخمة لتشاد ، تقع هضبة آير التي تمتد بحيرة تشاد ببعض المياه الموسمية - وحيث تقع مدينة (أجاديس) ، غير بعيد من تادمكة القديمة ، شرق أوغست . وبحيرة تشاد تعتبر همزة الوصل بين النيجر ونيجيريا والكاميرون وتشاد التي تقع عاصمتها «نجامينا» على نهر شارى (Chari) الذي يمد البحيرة بالقدر الأكبر من المياه(١) .

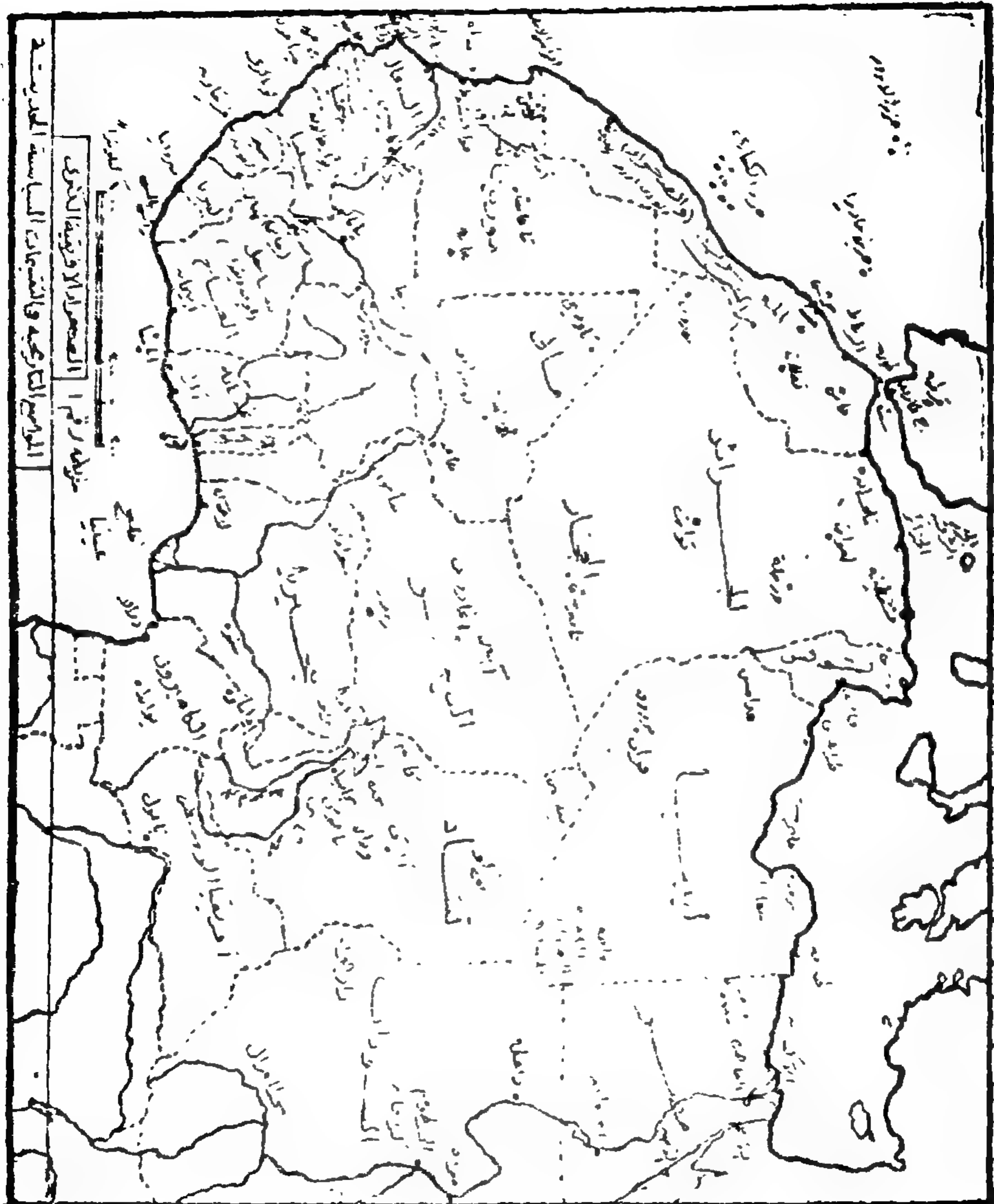
(١) أنظر أطلس مصر والعالم ، جيوبروجكنس ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، وقارن ، كولن ماكيفيدي ترجمة مختار السويقي ، ص ٧٩ وخريطة سنة ٩٠٠م ، ص ٨٥ وخريطة سنة ١٠٥٥ م . وقارن تحديد ابن أبي زرع ، الترطاس ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٢٠ (عن بلاد قبائل صنهاجة) حيث النص على أنها صحراوية كلها : مسيرة ٧ (سبعة) أشهر في القبلة (الجنوب) طولاً ، ٤ (أربعة) أشهر عرضاً ، من نول لمطة (على تخوم السوس الأقصى البحرية) الى قبلة القيروان ، ما بين بلاد البربر وبلاد السودان . ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث تعداد قبائلهم ، ثم النص على انهم كلهم ما بين البحر المحيط (الأطلنطي) بالمغرب (الغرب) الى غدامس من قبلة (جنوب) طرابلس وبرقة . وقارن ليون الافريقي ، الترجمة =

الاقليم الصحراوي : السمات العامة :

بلاد المرابطين تعادل اذن ، في وقتنا الحالى ، صحراوات موريتانيا والسنغال ومالى وأكثر النيجر ، ويحدها جنوبا الخط الفاصل بين الاجناس الصراوية البيضاء والاثيوبية السوداء ، امتدادا من مصب السنغال الى منحني النيجر ، وحتى بلاد تشاد . اما الحد الشمالى فيتمثل فى سفوح جبال أطلس (الصحراوية) الجنوبية التى تنتهى غربا على ساحل المحيط ، وهو الحد الغربى للصحراء الكبرى ما بين مصب وادى السوس شمالا الى مصب السنغال جنوبا .

وتظهر أهم خصائص الصحراء فى بنيتها الرملية الجدية ، التى قد تضطرب سطوحها بفعل الرياح كموج البحر ، فتتقل من موضع الى آخر ، وتجلب معها التصحر والبوار . وهى عديمة الأمطار ، قليلة الرطوبة ،

= ص ٥١٧ وما بعدها ، حيث أقسام صحارى ليبيا الخمسة وهى : ١ - صحراء زناقة (صنهاجة) الجافة القاحلة ، من المحيط غربا حتى ملاحات تغازة شرقا . وشمالا تخوم نوميديا وجنوبا حتى بلاد السودان ومملكتى ولاته وتومبوكتو ، ٢ - صحراء قنزيفة (ونزيفة) عند ابن خلدون (ص ٥١٩) وتمتد شرقا من تخوم تغازة حتى تخوم آيبر ، وشمالا حتى سجلماسة (تافللت) ، ٣ - صحراء الطارقة (ص ٥٢١) من تخوم آيبر شرقا حتى صحراء يفيدى غربا وشمالا حتى الزاب ، ٤ - صحراء لمتة (لمطة - لمتونه - ص ٥٢٢) حتى صحراء برداوة (شرقا) ، وشمالا حتى ورقلة (ورجله) وغدامس ، وجنوبا حتى كانو (مملكة الزنج) ، ٥ - صحراء برداوة (ص ٥٢٤) ، وتمتد شرقا حتى أوحله وشمالا حتى فزان وبرقة ، وجنوبا حتى بلاد البرنو ، وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى (ص ١٩٢) حيث الاشارة الى تقسيم الحسن الوزان ، وحيث زناقة ؟ بدلا من زناقة (زناجة : صنهاجة) ، وأنظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٤٤ - ٤٦ - حيث الاشارة الى الاعتماد على البكرى (ق ١١/٥) والادريسي (ق ١٢/٦) ، وفيه تعريف بالوطن العام : ويمتد من غدامس (جنوب طرابلس) الى المحيط ، ومن درن (جبال أطلس - شمالا) حتى مصب السنغال والى منحني النيجر والى تاد مكة والوطن الخاص الذى يمتد بين ترغه فى وادى درعه . وتلى بلاد لمتونه منطقة لمطه وجزوله ، من وادى نول حتى رأس هوجادور الحالية . وشرقا الى مدينة ازكى (على ٧ ايام من نول) وهى حصن لمتونه ، وجنوبا يمتد وطن لمتونه الى صحراء نيسر الممتدة الى المحيط ، وقارن لنفس المؤلف ، الرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين المجلة التاريخية المصرية مجلد ١١ ، ح ٦ ، ١٩٦٥ ، ص ١١٢ - حيث تحديد مناطق الطوارق ، وتوزيع قبائل المثلثين عن ابن خلدون . وقارن شعيرة ، المرابطون ، ص ١٥ - حيث يقابل مهد المرابطين : موريتانيا ، ومالى ، وغانا ، وأكثر النيجر . وانه يحده من الجنوب الخط الفاصل بين الاجناس اللبية ، والاجناس السودانية ، من مصب السنغال وحوضه الأدنى ، الى منحني النيجر وحتى بحيرة تشاد . اما الحد الشمالى فيتمثل فى المرتفعات (السفوح) الجنوبية من جبال أطلس - وأنظر الخريطة رقم ١) .



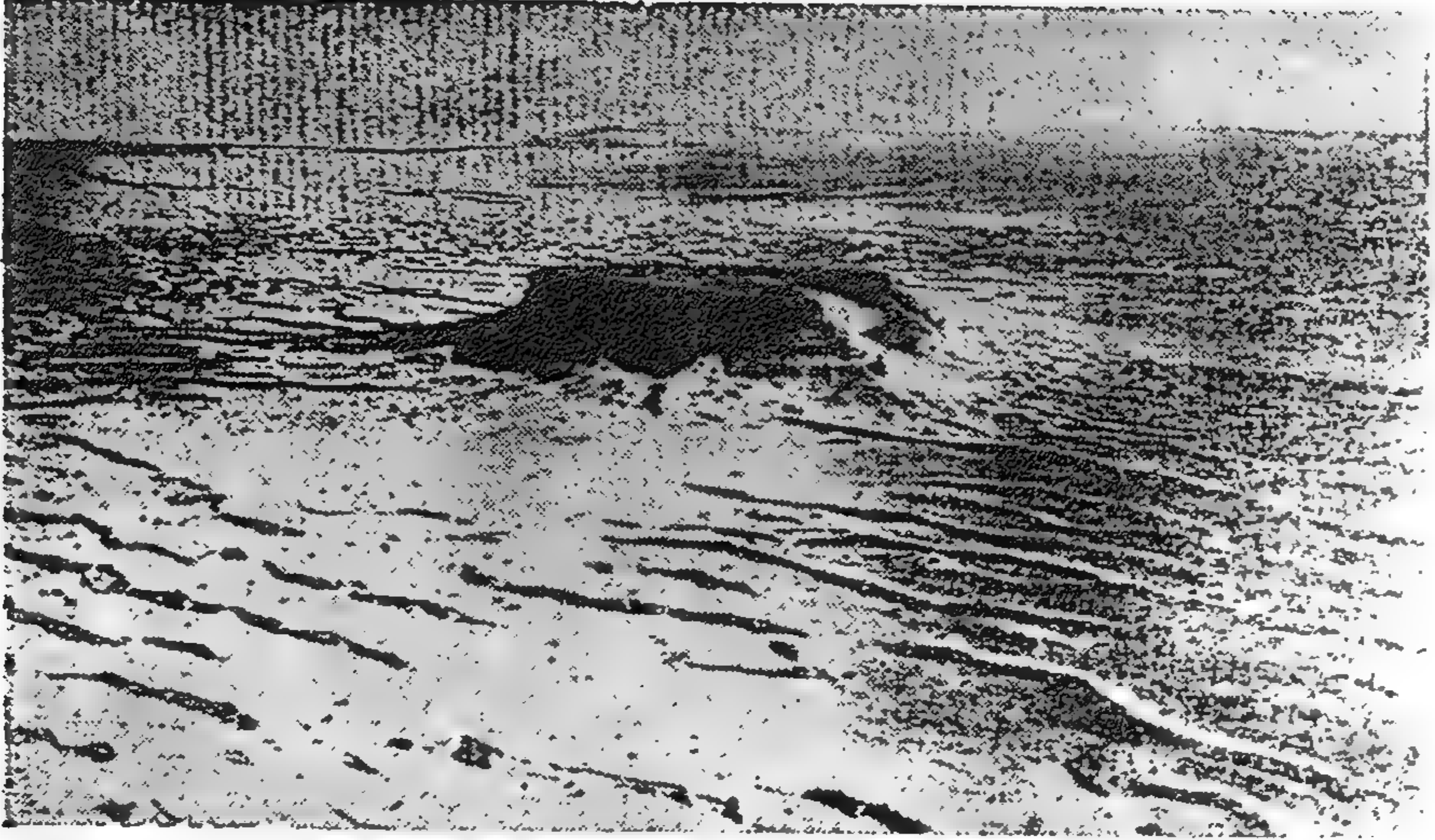
خريطة رقم ١ الصحراء الأفريقية الكبرى - المواقع التاريخية في
التقسيمات السياسية الحديثة

شديدة الحرارة التي قد تتعدى الـ ٥٠ درجة مئوية نهارا . وتتميز الصحراء بالمسافات الشاسعة التي كانت تقاس قديما ، ليس بمسيرة الأيام ، بل بالشهور طولا وعرضا ، بمعنى آلاف الكيلو مترات في جميع الاتجاهات . ويترتب على كل ذلك ندرة في السكان وقلة في التجمعات العمرانية ، وبالتالي ضعف المستوى الحضارى بسبب الانفلاق القارى ، والبعد عن البحار رغم واجهة المحيط ، الذى كان يعرف أيضا ببحر الظلمات بمعنى المجهول .

وبطبيعة الحال لم يستطع بدو الصحراء الا اقامة جسور ضعيفة بين حضارات البحر المتوسط والحضارات السودانية المدنية ، الامر الذى ترتب عليه بقاء طريق الشرق التاريخى مفتوحا للانسان والحيوان والنبات ، من حيث لا يتغير التواتر فيه الا عند تغير الارتفاع (٢) .

(٢) أنظر جاك ريشار - مولارد ، افريقية العربية العرسية ، بالعربية ، المقدمة ، ص ١١ - ١٤ . لارنود ، الجزائر ، باريس ، ١٩٥٠ (بالعربية) ، ص ٩٨ - ٤٩ ، وقارن حوتيه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٥٤ - ٥٥ ، حيث التركز على امبراطورية قرطاجنة التجارية قديما ، فى الربط بين حضارتها وبلاد السودان العربى حتى قلب خليج غينيا الذى اكتشفته عن طريق البحر عبر مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) ، وانه بعد سقوط قرطاجنة حلت محلها لبدة (لبتيس ماجنا : طرابلس) التى أصبحت مركزا لتجارة ما وراء الصحراء برا عن طريق فزان ، وبعد ذلك استخدم تجار العرب نفس طريق القوافل القديمة . وهكذا ظهرت التأثيرات ، القديمة لحوض البحر المتوسط فى افريقيا العربية السوداء ، الامر الذى يشرح توزيع السكان . وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٣ - حيث المعنى اللغوى للصحراء الذى يشدد على صفة الاستواء والفضاء دوما أشجار أو حبال . اما الصحراء الكبرى فيجدها من الشمال الشرقى البحر فى برقة ، ومن الجنوب امتداد هضاب البحر الذى يتفق مع انتشار النبتة التى تسمى « كرام - كرام » (cram - cram) ، ص ١٤ - حيث الاشارة الى زحف الرمال نحو الشمال ، والمثل لذلك منطقة الأغوار فى جنوب الجزائر ، والتى كانت صحراء فى أواخر القرن الماضى ، ص ١٧ حيث الرياح العاتية فى توات (بلاد الطوارق) . وقارن ابراهيم بن محمد الساسى العوامر ، الصرف فى تاريخ الصحراء وسوف ، تونس ١٩٧٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ - حيث النص على أن اسم منطقة سوف (جنوب شرق الجزائر) نسبة الى « السيوف » التى تعنى كثران الرمل ذات القمة الحادة ، والممتدة كالنصل ، ص ٤٦ - حيث النص على أن الرمل يأتى من الصحراء الكبرى من جهة الجنوب . وأنظر اسماعيل العربى ص ١٧ - حيث النص على أنه بسبب الرياح وتحرك كثران الرمل عرف أهل الواحات نظام التسقيف بالنقبة المخروطية فى عمارة مبانيهم ، اذ هو يمنع تراكم الرمال عليها ، وتهديد المبنى بالسقوط .

وعن اشكال الكثران الرملية شديدة الانحدار ، ذات الحجة الحادة كنصل السكين ، والمعروفة فى الجزائر باسم السف ، والتى يمكن ، عن طريق التقاطع أن تشكل هضات هرمية =



شكل رقم ٢ - دوجات الكتبان الرماية الصغيرة - جنوب ورجلة (الجزائر)

هكذا ظهر منذ القرن الـ ٣ هـ / ٩ م ، الى جانب الطريق الغربى المؤدى من المغرب الاقصى - عبر مستنقعات ايجلى (مولار ، المقدمة ص ١٤) - الى غانة ومالى ، طريقان آخران ، هما : الطريق المؤدى من غرب الجزائر الى انيجر الاوسط (بلاد السونغاى) والطريق المؤدى من طرابلس الى بحيرة

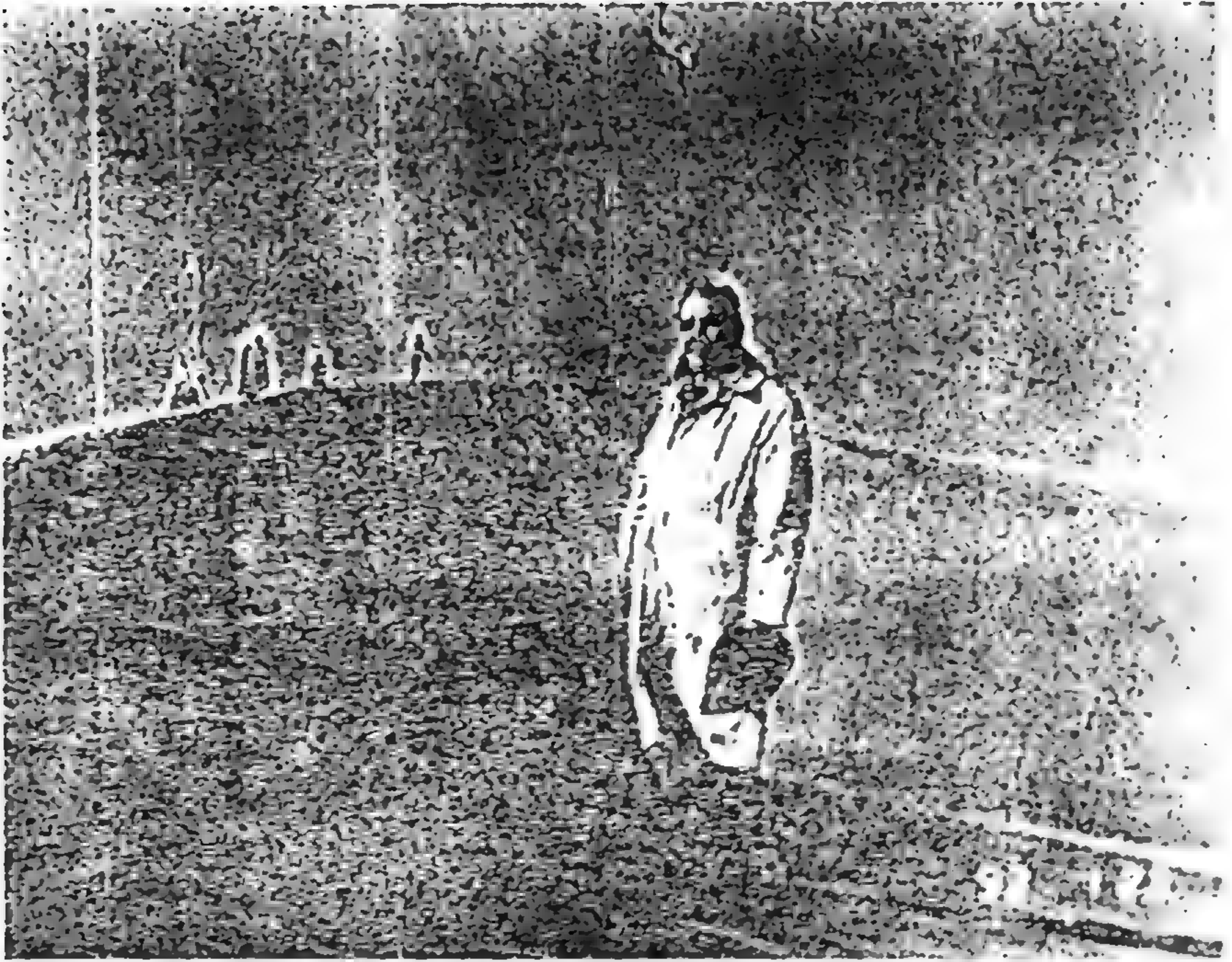
= ونجمية ، انظر والطون ، الاراضى الجافة ، ترجمة على شاهين ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، وعن الكتبان الهلالية الشكل (الفرود) ، حيث بعض النماذج فى موريتانيا والى الشمال من ثنية النيجر ، انظر ص ١٢٣ ، وقارن جودة حسنين ، حسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ١٩٦٨ ، ص ٣٢٠ ، ص ٣٢٩ . كما توجد نماذج منها فى واحات مصر ، كما فى الخارجة - انظر شكل ٢ عن اشكال هلالية قرب الخارجة - صورة للمؤلف بتاريخ يناير ١٩٩٣ .

تشاد (بلاد كانم شرقى البحيرة) (٣) .

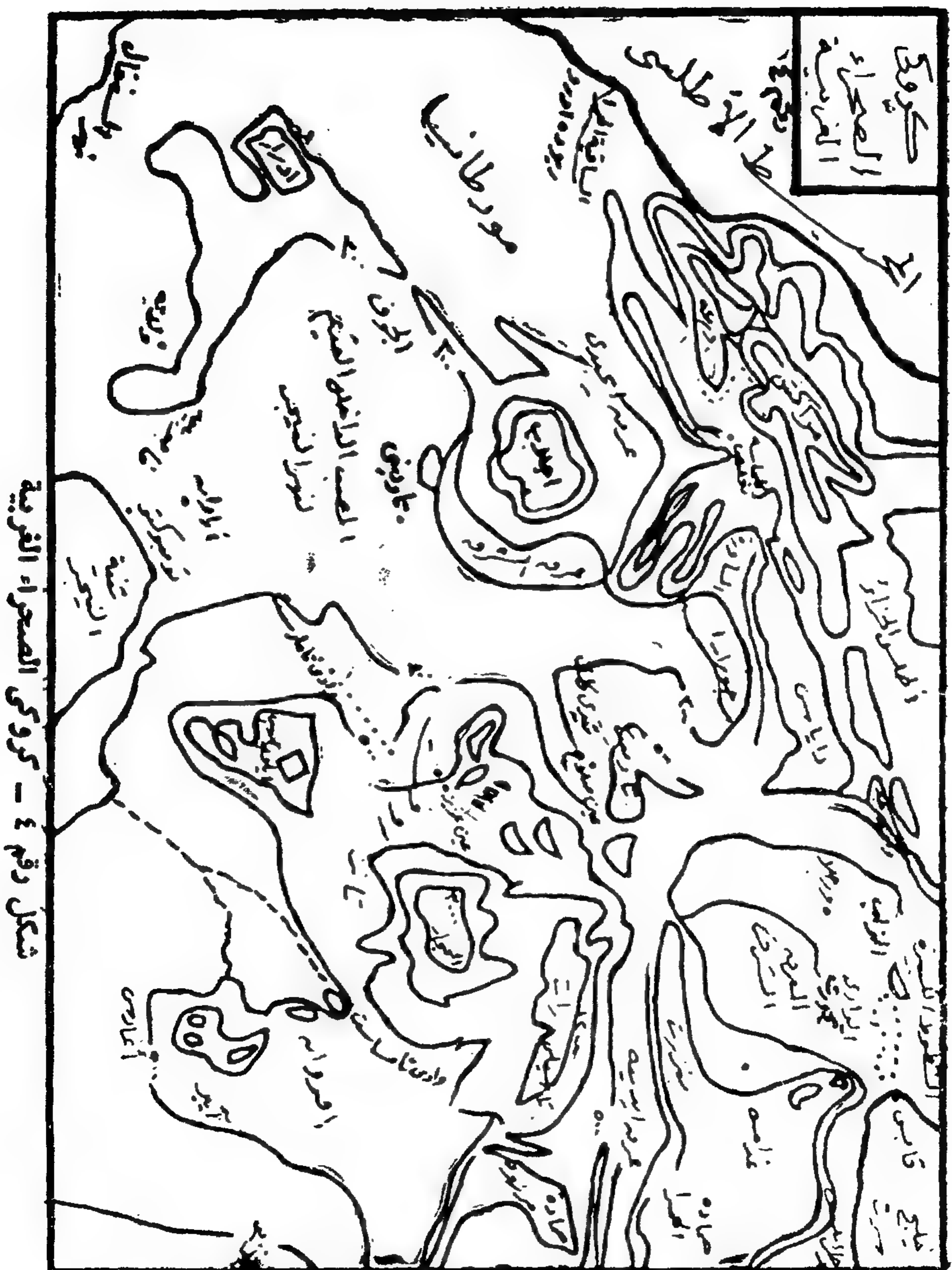
بحار الرمل : مكوناتها النوعية :

تتكون رمال الصحراء المنتشرة على السطح نتيجة لثنت صخور الكنتة القارية المكونة من الجرانيت والدولوريت (dolorite) مع صخور بللورية ، وأنواع من الصوان والعروق الصحراوية التى تنشطر وتتفتت نتيجة للتغيرات الجوية ، من الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ، بين الصيف وشتاء ، والليل والنهار ، وما الى ذلك من هبوب الرياح وهطول الأمطار ، وجريان الأودية والسيول . هذا الى جانب طبقات رسوبية تكونت على طول الأزمنة من أصول بحرية ، من : الأصداف والأعشاب والطحالب والقواقع ، كما فى السنغال والنيجر والصحراء الوسطى ، وغيرها من النقاط

(٣) ن . ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٩ ، وقارن لبون الافريقى ، الترجمة ص ٨٦ - حيث الاشارة الى صعوبة الرحلة فى الصحراء التى لا ماء فيها من حيث هى رملية برمتها ، ووحوب التروء فيها بالماء ، وخاصة على طريق فاس - تومبوكتو وطريق تلمسان - أعادس ، الى جانب الحديث بعد ذلك عن صعوبة الرحلة المفتحة مؤخرا بر فاس والقاهرة ، عبر صحارى ليبيا ، مع المرور بجوار بحيرة تشاد . وقارن شعيرة ، المراتلون ص ١٦ ، ٢٠ ، ٢٣ - حيث الاشارة الى ٣ (ثلاثة) طرق اولها : الطريق القديم الذى يعادل طريق المتاجم الحديث عبر موريتانيا ، من : تارودانت (شرقى اعادير) الى نول (تدوف حدينا) الى أولبل (سانت ايتين - ص ١٦) . والطريق الثانى الى مالى وغانة وهو الأوسط . من : سجالماسة (نافيللت) ، الى النيجر ، عبر درعه او عبر أودعشت - وهو يقابل الدوم طريق كولبشار - ادرار - منحنى النيجر من الشرق (ص ٢٠) . أما الطريق الثالث ، فمن : نفوسه وطرابلس الى السودان الأوسط (تشاد) ثم الغربى (ص ٢٣) . وانظر حسن محمود ، المرحلة الاريقية من تاريخ المراتلون ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ - ١٩٦٥ ص ١١٦ - حيث الاشارة الى ان انتشار الاسلام كان يتم شرقا عبر منحنى النيجر وتشاد وبلاد الكانم ودارفور .



شكل رقم ٣ - أشكال هلالية (رملية) قرب الخارجة - الوادي الجديد (مصر)



وتظهر الكسوة الرسوبية بما فيها من مطمورات طبقات الحجر الرمل العظيمة ، متجمعة مع طفح بركاني في موريتانيا في مرتفعات ادرار ، وفي حوض تاوديني وفي غينيا الفرنسية (في فوطه : فوتا) وفي السودان . وبسبب اتجاه جبال درن (أطلس) من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ابتداء من منطقة السوس ، تكون الحوض الرسوبي الواسع في صحراء جنوب مراكش ، والذي يعرف بتندوف ، حيث الطبقة المتفحمة في اقليم درعه بالجنوب المراكشي . وفي مرتفعات تيبستي تتداخل الصخور البركانية في الطبقات الرسوبية (الكسائية) ، وكلما قل الارتفاع كلما ازداد النحل الكيماوي للصخور .

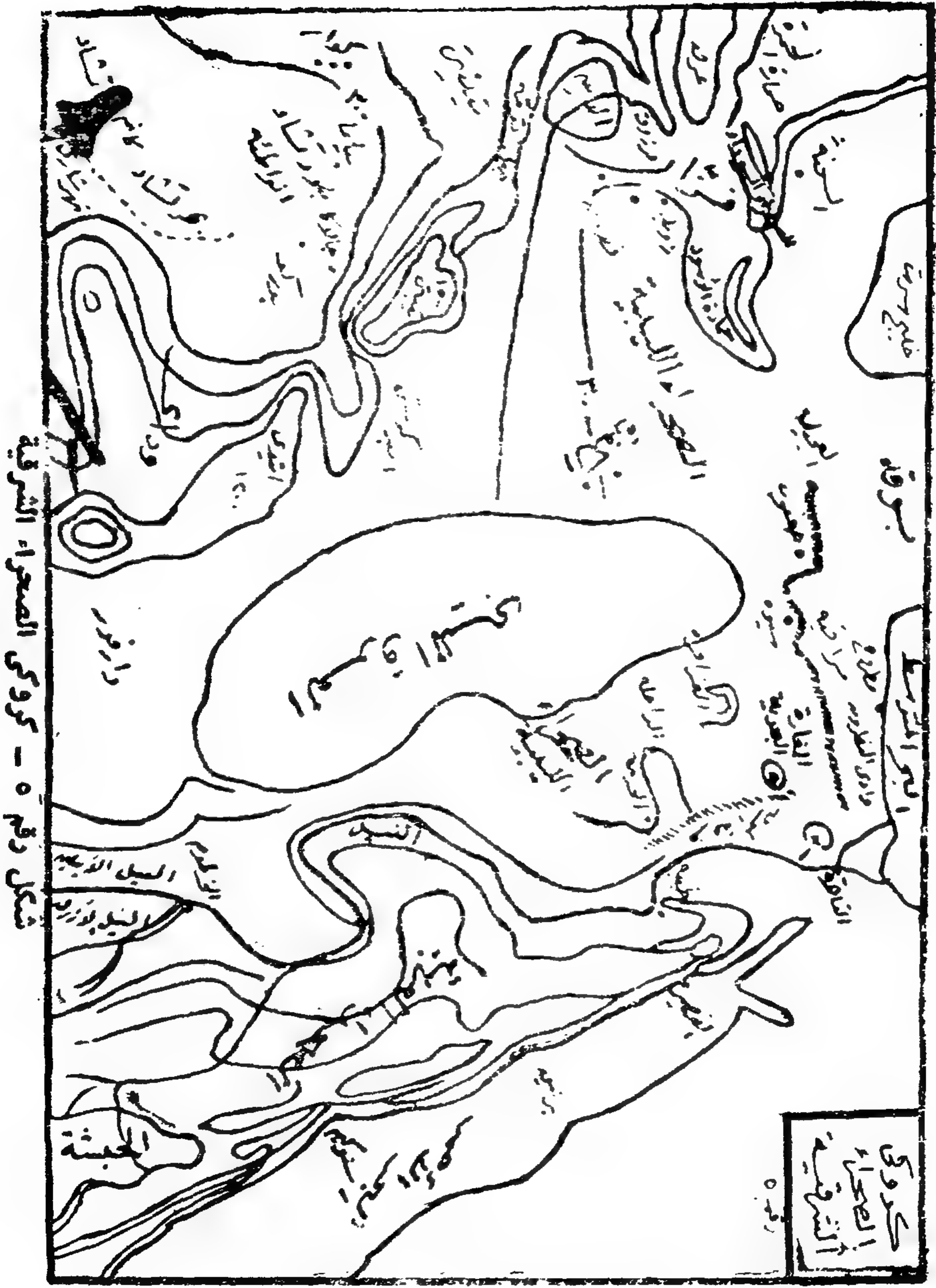
واذا كان السطح الصحراوي الرمل بما يتداخل فيه من القمم الصخرية والطفوح البركانية له شكل متواتر حزين ، فان مجارى المياه والقمم الجبلية في الجنوب الصحراوي تقدم تغيرا ملفتا للنظر في منطقة الشريط على تخوم السودان المعروفة « بالساحل » (٥) .

الطقس :

والحقيقة ان ما تتسم به الصحراء من جفاف يفسر ارتفاع الحرارة يرجع الى طبيعة الرياح السائدة وأهمها الريح الشرقية الحارة المعروفة بالحرمتان (Harmattan) والتي لها آثار حاسمة من حيث توزيع الأقاليم النباتية ، وبالتالي الظواهر الانسانية والاقتصادية .

ففي اشتهاء تأتي رياح الاليزيه (Alizé) اللطيفة الرطبة من المحيط الأطلنطي ، ولكنها لا تؤثر الا في الأقاليم الساحلية حتى الرأس الأخضر وداكار ، وذلك انها تتجه غربا تحت تأثير اندفاع الحرمتان الشرقية . وفي الصيف تتحول رياح الاليزيه الجنوبية الى رياح موسمية جنوب خط

(٥) مولار ، ص ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٦٤ . وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٤ - حيث ارتفاعات تيبستي والهقار (الهجار) تصل الى ٤٤٠٠ م و ٣٠٠٠ م ، وان المناطق الشرقية منخفضة بالنسبة للمرتفعات الغربية ، وان الصحراء الوسطى تخترقها سلسلة من البراكين من المشرق الى المغرب ، بين تيبستي وعين زير عبر الهجار (الهجار) ، مكونة ٣ (ثلاث) سلاسل جبال صخرية وهي : اغلب التي تكون امتدادا لجبال موريتانيا في الغرب ، والهجار في الوسط ، ومنها ادرار وايفورا (غربا) وآير (شرقا) ثم تيبستي (على حدود ليبيا وتشاد) .



شكل رقم ٥ - كروكي الصحراء الشرقية

الاستواء ، عندما تصطدم برياح الحرمان ، وكذلك الأمر في الربيع عندما تنزل تحت الحرمان ، مما يؤدي الى اعصارات وأمطار رعدية ، وفي وسط الصيف تتغير الظروف الجوية تبعا للارتفاع ، ففي الأقاليم السودانية الشمالية تصطدم الرياح الموسمية مع الحرمان وتكون العواصف والأمطار التي تقل كلما صعدنا شمالا . وفي الحريف تنعكس الأوضاع فلا تصيب الرياح الموسمية أفريقيا الغربية الا نادرا (٦) .

وهكذا يكون لرياح الحرمان السودانية أو الاستوائية القارية أهميتها بالنسبة لأفريقيا الغربية ، من حيث الأمطار ونزول درجة الحرارة والرطوبة ، وخصوصا في المناطق الساحلية في دكار وحتى كاييس (Kayes) في الداخل . وبذلك تكون الحرمان أكثر أهمية من رياح السيروكو (Sirocco) المحملة بالرمال والغبار ، والتي تهب لأيام قليلة في شمال أفريقيا ، مقابل هبوب الحرمان لعدة شهور جنوبا ، في الأقاليم السودانية ، وجنوب الصحراء (٧) .

(٦) أطر مولار ، ص ١٥ - ١٧ ، وقارن لارود ، الجزائر ، ص ٤٩ - حيث يفسر ان حفاف الصحراء بسبب قلة الأمطار يتعلق بمسألة فلكية خاصة بدوران الرياح حول الكرة الأرضية ، اذ ان الصحراء تتبع النظام الذي تتجمع فيه في الطبقات العليا كتل من الهواء تصل من خط الاستواء عن طريق الرياح المضادة للاليزيه ، والتي تتجمع قرب خط العرض ٣٠ درجة لكي تكون مراكز ضغط عال ، مصاد للعواصف . وبذلك لا تقلت الاليزيه الا على طبقات السطح السفلية ولا تسقط مطرا الا حيث المرتفعات . وقارن ايضا جوتيه ، الصحراء (بالفرنسية) ، ص ١٢ - حيث مناطق الضغط المنخفض الخاصة بالرياح العرمة ورياح الاليزيه (Alizés) ، وحيث المنخفضات العاصفة التي تأتي من امريكا وأوروبا ولا يصل الا القليل منها الى افريقيا شتاء ، بينما تكون معظم رياح الارورسي (Açores) في اقصى جنوب الاطلنطي بينما تستمر الأمطار الاستوائية متتبعه الشمس في شكل عواصف شديدة ، وهي لا تصمد شمالا بعد من السنغال .

(٧) مولار ص ١٧ - ١٨ ، وقارن ليون الافريدي ، ص ٨٧ - ٨٩ - حيث الاشارة الى ٣ (ثلاثة) أنواء : الشرقية (الحرمان) و (السيروكو) والجنوبية ، وهي صارة بالمحاصيل ، وانظر جوتيه ، الصحراء ص ٢١ - حيث يختلف اسم هواء الصحراء الملتهب عادة ، والمشهور بالحرمان ، أو السموم ، من مكان الى آخر . فهو السيروكو في الجزائر ، والشهلي بمعنى الجنوبي في الصحراء ، وهو الخماسين (أي ريع الخمسين يوما) في مصر ، فهي اختلافات محدلة لنفس الريح تقريبا ، وص ٢٢ - حيث ارتباط رياح الخماسين ببعض الظواهر المغناطيسية أو الكهربائية التي تؤثر على الانسان والحيوان ، من حيث التهاب المخاط التنفسي ، أو الاصابة بضربة الشمس القاتلة ، بسبب توقف عمل الغدد المنظمة للحرارة ، فترتفع حرارة الجلد الى حرارة الهواء - مع الاشارة الى ان حرارة الرمل قد تصل الى ٧٠ دلحة مئوية ، وص ٥٠ -

وبذلك لا يتأتى الانتقال من الطقس السواحل الى الطقس الصحراوي
الا عندما ينعدم سقوط المطر لسنة أو أكثر فى موضع معين ، ويكون ذلك
عادة جنوب الصحراء . أما عن سقوط المطر فيكون فى فصل الصيف ، فهو
مطر موسمي . وبالنسبة لمطر اقليم البحر المتوسط فهو أكثر ندرة ،
ودرجة الحرارة تتعدى فى شهر يونيه الـ ٥٠ درجة ، أحيانا ، أما عن برد
يناير فهو قاس يصل الى درجة التجمد (٨) . وبفضل رياح الاليزيه
(Alizé) القارية الباردة ، ورياح الحرمتان الشرقية الحارة ، التى تظل
تعصف طوال ٦ (ستة) أشهر ، فان بقاء المزروعات الجافة يصبح غير أكيد
بسبب عدم انتظام المطر الذى تتراوح نسبته من سنة لأخرى من ١ الى ٥
أمثال ، الأمر الذى يتسبب فى التصحر ، اذ تتحول الأرض شيئا فشيئا الى
أرض رملية بسبب الحريف من ناحية ، وبسبب الرمال التى تلقىها رياح
الاليزيه القارية على الأرض الصالحة للزراعة ، وهو ما يدفع الفلاحين السود
من الولوف الى الهجرة نحو الجنوب ، الى حياة البداوة فى فصل الشتاء ،
والتجمع صيفا على الحواشى والأطراف حيث الماء ، وهجر منطقة

= حيث الاشارة الى ان عناصر الخماسين مأخوذة من طمى النيل الناعم . الذى قد يكون سبب
النهاب الجهاز التنفسي وليس المغناطيسية الكهربائية (٩) .
وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٦ - ١٧ حيث : تؤدى شدة الحرارة
عند خط الاستواء الى ضغط جوى منخفض يجذب تيارات الهواء من الجانبين ، فى مقابل ضغط
مرتفع على مستوى القطب نتيجة للهواء المتجمع المائد من خط الاستواء ، والمتوقف بسبب
دوران الأرض ، فى طريقه الى القطب . ومن هذه الحركة تتكون منطقتان رئيسيتان لاعصار معاكس
على المحيط فى منطقة الاصور (الازورس) وفى الصحراء الوسطى ، وهذا الاعصار المعاكس
هو السبب ، الى حد كبير فى عدم نزول الأمطار فى الصحراء . وعن الرياح فالجنوبية فى
الصحراء تسمى « الشهل » ، « والسيروكو » جنوبية شرقية حارة ، مثقلة بالرمال والغبار ،
أما ريع الخمسين (الخماسين) المصرية ، فهى رياح عاتية جنوبية غربية . وقارن ابراهيم
العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ - حيث الرياح السوم ، ومنها : الشهل وهى جافة
حارقة ، وضد السوم : ريع الصبا البحرى ، وهى معتدلة يتلذذ الانسان بها .
(٨) مولار ص ٢٥ ، ٢٦ ، وقارن لارنود ، ص ٥٠ - حيث النص على ان الصحراء أكثر
بلاد العالم حرارة ، وهى فى الصيف أنون ملتهب مع الاشارة الى ان الحرارة قد تصل فى
تندوف بصحراء الجزائر الى ٥١ درجة . وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ،
ص ١٥ - حيث المطر قليل لا يتجاوز على ساحل المحيط ، ٢٠ ملم . أما فرق درجة الحرارة
فيصل ما بين ٥٠ نهارا و ٢٠ ليلا . وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ -
حيث الجو منتهى الحار حرا (صيفا : أكثر من ٥٠ درجة) ، ومنتهى البرودة برذا (شتاء :
اقل من الصفر) .

الوسط (٩) .

الأرض الطيبة - منطقة « الساحل » :

والحقيقة أن هذه المناطق الجنوبية من صحراء شمال أفريقيا الكبرى ، ذات طبيعة جغرافية خاصة اذ تمثل منطقة انتقال من الصحراء العطشى الى بلاد السودان الجنوبية ، المغمورة بالأمطار الموسمية الأمر الذى أعطاها اسم « الساحل » ، من حيث تبدأ فيها الحضرة العشبية التى يراها القادم من بلاد الشمال الصحراوية ، وكأنها ساحل البحر تماما ، كما كان الحال بالنسبة لغابات الزيتون فى منطقة صفاقس التى اشتهرت « بالساحل » حسبما كان يراها القادم اليها من الصحراء (١٠) .

واقليم الساحل هذا ، يمثل نطاقا يمتد من ساحل المحيط الموريتانى غربا حتى تشاد شرقا ، عبر منحنى نهر النيجر ، الأمر الذى يحدث نوعا من التداخل بين شريط « الساحل » والاقليم السودانى ذى الفصل المطير الواحد الذى يطول ما بين ٧ أشهر جنوبا و٥ أشهر شمالا ، والذى يجمع بين الأمطار الشتوية العادية والأمطار الموسمية التى تقل كلما صعدنا شمالا نحو « الساحل » والصحراء . هذا ، كما يطول فصل الجفاف لمدة ٥ أشهر ، ويكون تأثيره السلبي أشد فى اقليم الساحل الذى قد يعانى أحيانا من التصحر (١١) .

(٩) مولار ص ٤٧ . أما فى سان لوى وداكار ، وعلى طول كل الشاطئ السنفالى حتى الرأس الأخضر فيسود طقس خاص جدا ، يسمى شبه الكانارى (Sub-canarien) حيث يكون لرياح الأليزيه هناك تأثير يجعل الجو هناك أشبه بطقس الكانارى ، بل وشواطئ الأطلنطى المراكشية ، وهو ما يناسب البيض من سكان البحر المتوسط (كالسوريين الذين لهم نشاطهم الاقتصادى) . ولكن هذه الظروف الجوية المناسبة لا توجد فى الجنوب أبدا من ذلك ، اذ الرأس الأخضر هو الحد الأقصى فبعد ذلك يتحول الطقس مباشرة الى استوائى يتطلب الاحتياط (جوتيه ، ماضى شمال افريقية ص ٥٠ - ٥٢) .

(١٠) أوظر البكرى ، ص ١٩ (حيث ساحل الزيتون ، ص ٨٥) حيث «أهل الساحل» ، وقارن فيدج (Fage) تاريخ غرب افريقية (بالانجليزية) ص ٢ - حيث ملاحظة انه مع الانتقال من الشمال جنوبا تتنحى الصحراء وتظهر النباتات الشوكية التى نتحول بلطف الى أرض العشب الذى تزداد كثافته مع ظهور الأشجار شيئا فشيئا حتى أرض الغابات الحقيقية . وان هذا النمط لا يتغير من الشرق الى الغرب بسبب الارتفاع غير المحسوس .

(١١) أنظر مولار ، ص ٩ ، ٢٥ - حيث الطقس السواحل الشمالى الذى يتميز ، غن الصحراوى بالمطر صيفا . ففى ولاته تصل نسبة المطر الى ١٠٨ ململيم ، بينما هو فى تندا ١٣٠ ململيم ، مع احتمالات فروق شاسعة من سنة الى أخرى ، وقارن ص ٤٧ - حيث من الصعب تحديد اقليم «الساحل» الشمالى بمعنى الخط الفاصل بين الصحراء والسودان (افريقيا =

وهنا تجدر الإشارة الى أن حزام بلاد النخل الذى يحف شمالا ببلاد المغرب الحصبية كما يحف نطاق الساحل جنوبا ببلاد السودان ، اذ يمتد من تارودانت فى أقصى السوس حتى واحات مصر الشرقية ، عبر واحات وارجلان ، وبلاد الجريد وفزان (١٢) . والفرق بين الاقليمين انه بينما يعتمد اقليم الساحل فى حياته على المطر ، يكون اعتماد بلاد النخل على مياه الواحات الجوفية التى تأتى عادة من سفوح أطلس (درن) الجنوبية مثل نهر الساورة (ج ١ ص ٧٤) أو من بعيد ، من هضاب الصحراء الوسطى أو تخوم بلاد السودان (انظر فيما بعد ، ص ٥١ ، هـ ١٥) .

والمهم أن منطقة الساحل بصفتها منطقة انتقال بين الصحراء العطشى والسودان الجنوبي المغمور بالمطر مهددة بالتصحّر ، ليس بسبب الجفاف ، بل عن طريق تيبس الأرض الرملية التى تنبت الأعشاب فى فصل الشتاء ، ولكنها عندما تعود رملية متحركة فى فصل الصيف ويصيبها المطر تتعرض للتيبس « الأسمنتى الحديدى » ، أى « للبوار » الذى ربما كان أصلا لكلمة البوال (bowal) ، وهى الكلمة السواحلية التى عرف بها ، على ما نظن ، وذلك بشكل لا رجعة فيه . ومن الواضح أن عملية التصحر هذه تتم كيميائيا فى جو « الساحل » حيث المطر والحرارة ، بينما تقل شمالا فى الصحراء بسبب الجفاف ، وكذلك جنوبا فى السودان المطير (الجنوبي) بسبب رياح الحرمتان التى تحمى الأقاليم الاستوائية الغينية عندما تهب باردة فى فصل الشتاء فلا تكون لها خاصية التيبس ، فيندر البوار

= المدارية) بسبب وجود عامل طرد من المنطقة الصحراوية ، عن غير قصد ، وهو الأمر الذى جعل ٢ الساحل بلدا يقطنه البدو البيض من المغاربة (Maures) فى الغرب ، والطوارق فى الوسط (حتى مصب النيجر) . فمع ان هؤلاء هم سادة الصحراء حقيقة ، الا انهم كانوا عبيد مطالب حيواناتهم ، وقارن محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ١٧ - حيث الإشارة الى منطقة السهول والمراعى الفسيحة التى تسمى (أزواغ) والممتدة من أعالي نهر السنغال غربا الى بحيرة تشاد شرقا ، ومن أطراف المناطق الرملية الى غابات السفانا جنوبا . وتضم هذه المنطقة : الواحات والوديان التى تشق جبال تاسيلي (فات - جانت) والهقار (تمنغست) وآير (أقدر) واضفاغ (كيدال) .

(١٢) أنظر ج ١ ص ٧٣ وهـ ٦٤ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٨٢ - حيث تقسيم الأقاليم الطبيعية فى افريقيا من الشمال الى الجنوب كالآتى : ساحل المتوسط ، السهول الجبلية ، والتلول ، وسهول النخل فى نوامديا ، صحارى ليبيا الرملية حتى بلاد السودان ثم السودان .

(البوال) (١٣) •

الأرض الرسوبية والأرض السوحة :

أما الأرض الجيدة فتتجمع على ضفاف الأودية ، وفي الوهاد ، وعلى طول مجارى المياه ، من بركانية ورسوبية رملية وطفلية ، وهي محمية من حرارة الشمس ورياح الحرمتان الحارة بكسوة من الحضرة النباتية ، وطبقة رقيقة من التربة ، الأمر الذى قد يؤدي وقتيا وبسرعة الى التيبس أو التصحر (bowalisation) •

والأرض الحصبة السوداء ، وهي التى تترسب على الشواطئ الواطئة عند مصبات أنهار الجنوب ، حيث يلتقى المد بمجرى الماء العذب ، وتتكون عادة من بقايا عضوية ، من الوحل والطين مع الرمل والحصى ، كما فى أسافل السنغال والسين (Sine) • وهي نتيبس فى وقت الجفاف وتصبح صلاحيتها محدودة للزراعة ، وهي تسمى عندئذ التان (tann) •

وفيما وراء جامبى (Gambé) حيث الأمطار الغزيرة تغمر الأراض ، يمكن اقامة زراعات الأرز التى تفيدها أيضا الفيضانات الشتوية • وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأراضى التى تغمرها مياه السنغال والنيجر الأعلى

(١٣) انظر مولار ، ص ٢٨ - ٣٠ - حيث الاشارة الى انه ربما كانت أرض الساحل من رمال العرق ، وهو من شواهد عصور الجفاف ، وتصل فى انتشارها غربا الى جامبيا وشرقا الى اقليم نيورو (Nioro) وشمال سجو (Ségou) وواجادو (Ouagadou) فى الحوض (Hodh) ، وشمالا الى نيجيريا • وهناك طبقات من الدروع الحديدية الاخمدودية - وهي شواهد على فترات اكثر رطوبة - وتمتد من الفرلو (Ferlo) الشرقى وجيد مكة (Guidmeka) الى شمال شرق جاور (Gao) ، بينما الكهوف واودية الأنهار الكبيرة مكسوة بالصلصال والتربة الطفلية الرملية وغيرها ، وذلك فى أرض والو (Walo) ونهر السنغال وحوض سجو - موبتى (Ségou - Mipti) واسافل تشاد (ص ٢٨) • وبعد منطقة انتقال ذات امكانات متنوعة هي منطقة الامبراطوريات السودانية من : غانة الى مالي وغيرها (ص ٢٩) ، ينتشر البوال - وهي الأرض القبيحة بالنسبة للزراعة - فى أعالي جامبيا وغينيا الفرنسية وجنوب السودان (ص ٣٠) ، وانظر دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال (Lexicon Universal) نيويورك ، ١٩٧٥ ، ج ١ ص ١٤١ (افريقيا Africa) ، - حيث الاشارة الى ضعف الحصونة فى الأراضى الحارة وهي أراضى الأعشاب (الساحل : (Steppes)) التى ينقصها البوتاس والمغنسيوم ، والفسفور والمواد العضوية ، والأراضى البركانية قليلة فهي لا توجد فى غرب افريقيا الا فى السنغال • أما أراضى المتوسط فى الشمال فهي حمضية ضميعة الحصونة •

والأوسط والأدنى (١٤) .

توزيع المياه الجارية في الصحراء والساحل :

يعتمد تقسيم المياه الجارية على طبيعة الطقس وأحوال السطح والتربة . وهكذا يكون الاعتماد على الأودية النهرية ، من : دائمة ومؤقتة في شمال الصحراء حيث جبال أطلس ، من غربية عليا أو شرقية صحراوية ، ومطر البحر المتوسط اشتوى ، أو في جنوب الصحراء حيث المطر الموسمي الصيفي الذي يميز أنهار غرب أفريقيا التي تخترق الصحراء ومنطقة الساحل ، أو أنهار هضاب أفريقيا الوسطى الجارية من مرتفعات الحجار (الهقار) وادرار وآير (بلاد الطوارق) وتيبستي (بلاد التبو) - من حيث تهبط أودية تافساسيت وتامنرست ، ووادي اغرغار ، والتي قد تلتقي مع بعضها البعض في الصحراء . فبفضل أمطار أطلس الصحراوية ، وبعض مياه أفريقيا الوسطى الموسمية تتجمع المياه تحت سطح التربة ، وتنفجر في شكل مياه جارية من العيون والآبار الارتوازية ، في الواحات الشمالية ، في وادي ريغ وبلاد الجريد وورجلان (ورقلة) وصحراء وهران ، وفي توات ، حيث يكون الري حسب نظام دقيق متعارف عليه بين أهل البلاد ، يقنن حصص الماء بينهم حسب الوقت أو الحجم ، بوسائل تقنية محلية (١٥) .

(١٤) مولار ، ص ٣٠ ، ٣١ - حيث الإشارة الى أن تيس (البوان) و (التان) لم يكن وحده آفة الأرض في أقاليم الساحل والسودان الجنوبي ، بل يضاف اليه تضاؤل عناصر الخصوبة فيها ، من : الأزوت والبوناس والفوسفور على مر الزمن ، وقلة الصخور الجيرية ، وكثرة صخور لافاواتز الحديدية من الحجر الرمل والجرانيت والجنيس (gneiss) والصوان حتى كاد الأمر ينتهي بإهمالها على أنها أرض مجردة . ومن جهة أخرى فإن هطول الأمطار الشديدة والساخنة كان يتسبب في تذويب الأزوت ، وبالتالي تهديد الأراضي ، حتى الخصبة (بالتيس - والتصح) .

(١٥) انظر جوتييه ، الصحراء ، ص ٧٤ - حيث نهر شارى الذي يعادل النيجر وبحيرة تشاد ، ص ٤٣ - حيث وادي ساوره ، ص ٩٤ - وادي ايفار غاره الذي ينبع من الحجار في جنوب شرق الجزائر ، ص ١١٥ وما بعدها - حيث الواحات المحصنة وحياء الاستقرار في الصحراء الصعبة والعرق ، بلا دائطوارق ، ما بين الحجار وبلاد السودان ، ص ٣٨ - حيث الري الشرقي في واحات النخيل عن طريق الفجارات التي ترجع الى القرن ٣ هـ / ٩ م وهي القنوات التي توجه فيها مياه العيون الجوفية الارتوازية . وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٩ - ٢٣ - حيث الإشارة الى العيون والآبار والفجارات ، ص ٢٢ - التي تمنى قنوات تحفر في الأرض وتلتظ الماء الجوفية التي تجري الى منحدر الواحة ، ص ٢٥ - حيث نهر شارى (Chari) الذي ينبع من الجبال الاستوائية ، وينصب في بحيرة تشاد المذبة والتي تبلغ =

آبار الصحراء :

أما في قلب الصحراء حيث لا يتجاوز متوسط المطر ١٢٥ ملليمتر في السنة الا في حالات استثنائية ، فيكون الاعتماد على ماء الآبار ، من : أحساء ، سطحية أو حفائر عميقة ، من عذبة حلوة أو ملح أجاج (١٦) .

وهكذا يعدد البكري ١٠ (عشرة) موارد للماء على طول الطريق من سجلماسة الى فاس ، بعدد مراحل الطريق العشرة ، فكان طول هذا الطريق حوالى ٤٠٠ ك . م . وأول هذه الموارد : حمة أى ماء حار كبريتى ، وثانيها أحساء يصل عمق الماء فيها حوالى ذراع ، بينما المواقف التالية على جداول وأنهار ومياه سائحة (نازلة من سفوح أطلس) (١٧) . والطريق من درعه الى سجلماسة يمتد ٦ (ست) مراحل ، محطات مائها ما بين ملح (تيسن) ، ومنسوب الى بعض حيوان المنطقة ، مثل بثر الأيائل ، وماء النعام ، فكأنه ملح أيضا (ص ١٥٦) .

أما الطريق الكبير من تامدلت الى أودغست ، وطوله ٤٠ (أربعون) مرحلة ، فيعدد محطات مياهه ، من : بير الجمالين وعمفها ٤ (أربع) قامات فى أرض محجرة ، يتبعها (شعب) طريق جبلى ضيق ، ينتهى بعد ٣ مراحل (١٢٠ ك . م) بأرض رملية رخوة ، فيها آبار ماء (تندفس) تنهار وتندفن بمجرد حفرها . أما الماء الوافر الذى لا يستنزف فى بثر ويطوفان ، فهو زعاف يصيب من يشربه من الانسان والحيوان بالاسهال . وماء الأرض الزرقاء فى أوكازيت - أصعب مراحل الطريق (٣ أيام) - وانزمين ، القريبة من السطح (٤ أيام) يصنف ما بين العذب والزعاف . وهذا الموضع يمثل تقاطع الطرق الى بلاد السودان - فهو مجمع القوافل ، وهو مستهدف من قطاع الطريق . ومثل هذا يقال عن بثر بنى عبد الوارث (على ٥ مراحل) .

= ماحتها ٢٥٠٠٠ ك . م . ، والتي ربما كانت لها موارد أخرى تحت الأرض ، كما قد تشرب مياهها من جهة الجنوب الشرقى فى اتجاه بحر الفزال ، ص ٢٧ - حيث التعريف بوادى الساورة الذى تتجه مياهه جنوبا حتى أعالي واحة توات ، ص ٢٨ - ٢٩ - حيث وادى اغرغار الذى ينبع من مرتفعات تيبستى ويتجه شمالا لمسافة ١٠٠٠ ك . م ، لكى يفوص فى شط (تلال رملية) غير بعيد من بسكرة أى عند أقدام جبال الأوراس التى تأتىها مياه سفوح الأطلس التى تتفجر فى وادى ريغ والجريد والزاب .

(١٦) أنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٤٥ - حيث تصنيف مياه الآبار الى : عذب ، وسائخ ، وممزج ، وملح ، وأجاج ، ومر .
(١٧) البكري ، ص ١٤٧ .

وآبار أغرف التالية الملحة لا تصلح الا لشرب الابل . واذا كانت المياه في آبار اقرتندى على ٥ أيام من سجلماسة جيدة الماء الوفير حيث أصناف الشجر ، فان بئر وازن في منتصف المسافة ، مالح الماء (١٨) .

وعلى عكس هذا يقال عن مياه الطريق المحازى لساحل المحيط من نول لمطة الى أوليل ، حيث يستنبط الماء العذب من الآبار القريبة من الشاطئ المالح ، بسبب رياح الاليزيه (Alizé) الرطبة ، والأرض الصخرية (انصفاه) التي تكون مصايد حسنة لمياه المطر العذبة (١٩) .

أما عن الآبار على الطريق الصحراوي من درعه الى السودان ، ففي المراحل الخمسة الأولى يوجد الماء العذب حتى الوصول الى بئر تزامت في بداية الصحراء حقيقة ، وماؤها معين أقرب الى الملوحة ، رغم انه محفوظ في طبقات الحجر الصلد (البكرى ص ١٦٣) ، وهي في شرق بئر الجمالين ، على أول طريق تامدلت - أودغست ، التي تقع في مثل تلك الأرض الحجرية (ص ١٥٦) ، فيكون ماء الجمالين معيناً هو الآخر ، ربما بسبب معدن الحديد (ص ١٦٤) وغيره . والظاهر أن آبار تلك الصحراء التي تعتبر موطناً لقبائل صنهاجة كلها معينة تصلح لسقيا الابل وحيوانات الصحراء فقط ، الأمر الذي يفسر كيف كانت أموالهم الأنعام ، وعيشهم من اللحم واللبن ومنلها (٢٠) .

مياه السودان الجارية :

وهكذا فرغم طول المجابات القاحلة والمفاوز الجرداء التي قد تطول الى ست مراحل وثمانية ، فلا ذكر بعد ذلك للماء المعين والمالح أو الزعاف حتى بلاد السودان القريبة من موطن جداله ، على ٦ (ست) مراحل ، وهي بلاد صنفانة (٢١) .

وواضح من وصف صنفانة أنها مدينتان على ضفتي النيل ، وأن

(١٨) البكرى ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(١٩) البكرى ، ص ١٧٢ ، وأنظر فيما سبق ص ١٠ ، هـ ٩ وهامش جوتييه عند الجوشبه

الكاناري والشاطيء المراكشي على طول ساحل السنغال .

(٢٠) البكرى ، ص ١٦٤ .

(٢١) البكرى ، ص ١٧٢ - حيث أرض جدالة آخر بلاد الاسلام في الصحراء ، وأقربها

الى بلاد السودان .

عمارتها متصلة الى البحر المحيط وان المقصود النيل هنا هو نهر السنغال ، وليس النيجر ، وان المقصود منغانة هو غانة المسبوقه بكلمة صن التى هى صفة لغانة فكأنها بلاد ملوك السونينك (Soninke) . وبذلك تكون غانة منتصف القرن الخامس الهجرى / ١١ م عند البكرى ، هى مدينة السنغال الدارسة التى تحدد أطلالها بموضع كومبى صالح (كومبى بيشار) ، فى الركن الجنوبي الشرقى من جمهورية السنغال ، حاليا (٢٢) .

وهكذا بوصف كل من نهر السنغال ونهر النيجر بأنه « نيل » ، بمعنى النهر الصحراوى الموسمى الأصل ، والذي يفيض حتى الطوفان ، ويجف بعد ذلك حتى القاع - والذي قد يتواتر طوفانه أو جفافه لعدة سنوات متتالية ، وهى سمات الأودية والأنهار الصحراوية (٢٣) .

ففى الصحراء كما فى اقليم الساحل ، تكون الوديان جافة عادة الا لفترات قليلة عقب هطول زخات المطر . ومثل هذا يحدث لبعض روافد السنغال أو النيجر حيث الأودية التى تسمى دلول (dellol) والتى يمكن أن تجرى كالأنهار بشكل مؤقت ، وهى قوية عنيفة تحمل المواد المختلفة لكى تنتهى ناشرة الأوحال والرمال والحصى (٢٤) .

السنغال والنيجر :

هذا ويحتفظ كل من نهري السنغال (١٧٠٠ ك . م) والنيجر (٤٢٠٠ ك . م) ببعض مياهه فى فصل الجفاف . وفى اقليم الساحل الجنوبي تجرى مياه الأودية لمدة شهرين أو ثلاثة وتجرى أنهار المناطق السودانية

(٢٢) أنظر فيدج (Fage) تاريخ غرب افريقيا (بالانجليزية) ، ص ٢٠ - حيث النص على انها على بعد ٢٠٠ ميلا شمال باماكو (Bamako) عاصمة مالى الحالية . وأنظر اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ - حيث النص على ان دولافوس كان أول من حدد خرائط كومبى صالح موضعا لغانة القديمة .

(٢٣) أنظر جوتيه ، الصحراء ص ٧٢ - ٧٤ - حيث الاشارة الى ان نهر النيجر ينتمى الى الصحراء من عند ثنيته قرب تومبوكتو . فهو بعد أن ينزل من مرتفعات فوتا - جالون على شاطئ خليج غينيا يدير ظهره الى الخليج ثم يدب مباشرة شمالا ، حتى الاقليم الصحراوى . وبذلك يختلف النيجر الأعلى منذ الثنية عن النيجر الأسفل .

(٢٤) مولار ، ص ٣٣ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ص ٤٩٠ - ٤٩١ - حيث يكون الأمر كذلك بالنسبة للوادي الذى يرفد واحات درعه فى الشمال المراكشى ، والذي قد يفيض كانه البحر ، فينشر الطين والأوحال بشكل مزعج خلال فصل الشتاء .

خلال فصل الشتاء ، ولكن الضعيفة منها لا يتجاوز جريانها شهر مارس ، بينما أصبحت بعض أنهار السنغال مثل الفرلو (Ferlo) والسين (Sine) والسالون (Saloun) خنادق ومطامير . مثلما تغير مجرى أنهار أخرى مما ينحدر سريعا على الهضاب ، كما في النيجر وفولتا ، لأسباب مختلفة من تغير الطقس . والتحول التركيبي الصحراوي ، كما في تشكيل الحمادة أو العرق ، الذي يؤدي الى تحول بعض الأنهار الداخلية نحو شاطئ البحر . هذا ، كما يسند نهر السنغال من منطقة الحوض في تشاد أنهارها ، مثلما تحولت أنهار الفولتا ، مثل : السورو (Sourou) نحو المحيط (٢٥) .

ويستثنى كل من نهري السنغال والنيجر من هذه الظواهر . فنهر السنغال الذي يقع في منطقة الجفاف الطويل ، وينطبق عليه نظام المناطق الحارة ، ينبع من مستنقعات الشمال الشرقي ، وهو ضعيف التدفق في شهر مايو بينما يعظم فيضانه ، وخاصة عند المصب في أغسطس وسبتمبر . وهذا يفسر الفيضان السنوي لكل سهل الوالو (Walo) في الحوض الذي يصل عرضه الى حوالي ٢٠ كم . فيصبح بلدا خصبا (٢٦) .

(٢٥) مولار ، ص ٣٣ ، وقارن والطون ، الأراضي الجافة ، ص ١١٤ (الترجمة) حيث النص بشكل عام على ان الأنهار الصحراوية صالحة للملاحة والنقل وقت الفيضان ولكنها كثيرا ما نقل ماء ، بل وقف عن الجريان كلية ، وهي في المناطق المستوية تضطر الى ارساب حملتها بدءا بالمواد الحشنة ثم الناعمة بعيدا من حضيض التل ، الأمر الذي يؤدي الى نشأة السبخات والعروق والحمادات .

(٢٦) مولار ، ص ٣٣ - ٣٤ - حيث الإشارة أيضا الى ان النهر يجري أمام داجاتا بين التلال ويملا بحيرتي ركي (Rkiz) وجير (Guier) على ضفتيه اليمنى واليسرى . اما عن دلتا السنغال فهي محاطة بحزام ساحلي لا يستطيع النهر اختراقه الا بصعوبة ، الأمر الذي أدى الى تغير المجرى كثيرا على مر العصور التاريخية . وهو مفتوح جنوب سان لوى (Saint Louis) بعد جريانه بحذاء الساحل خلف لسان البربرى ، وهو كتلة من الرمل المتحرك الذي تغطيه سيول الطين المتدفقة فوقه . وقارن أيضا ص ٣٦ - حيث وصف الساحل شمال دكاك بأنه منخفض كثيرا مع وجود نطاق من الصبار (صبار المور Sbar des Maures) الذي ينتشر كالأنداء الصغيرة مقابل أمواج المحيط التي تندفق موجاته في سلاسل متوالية ، وحيث يوجد منخفض طبيعي بموازة الساحل ، كان في السابق بحيرة ، فهو حاليا مغطى بالقواقع ، وفيه يندفع فيضان نهر السنغال بعيدا لمسافة ٣٥ كم . حتى المصب . وعلى طول الساحل جنوب لوجا الى دكاك ، وبسبب الرطوبة ، تنتشر الزراعة شبه الغينية التي يسميها الولوف (Oulouf) نيايس (Niayes) . وقارن جوتييه ماضى شمال افريقيا (بالفرنسية) ، ص ٤٧ - حيث يصلح نهر السنغال للملاحة من المحيط حتى كاييس (Kayes) عند انهاء النهر برافدة الغاليم (Falémé) حيث يكونان مثلثا من الأرض أحسن =

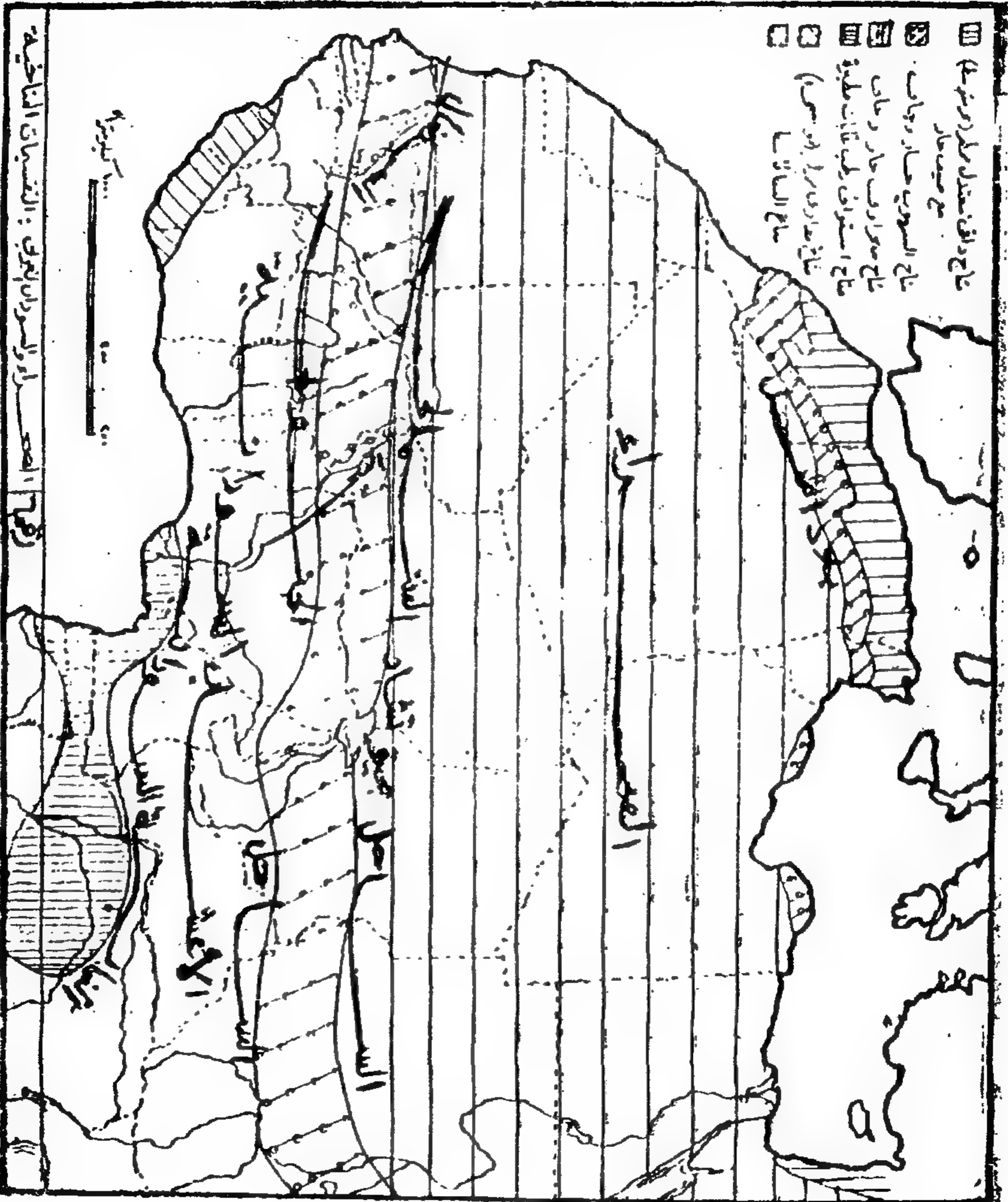
أما نهر النيجر فله نظام معقد يتمثل في مجريين ، الأعلى منهما (١٦٠٠ كم) له روافد قوية ذات فيضانات مهمة ما بين يوليه وديسمبر ، وذروتها في أكتوبر وديسمبر (٢٧) .

وفي الجزء الأخير ينتظم جريان النهر في حوض يتسع ما بين ١ - ٢ كم . وأخيرا يأخذ المصب شكل شبكة من المياه الفسيحة ، حيث يتسع الغمر وبالتالي يفقد نسبة من الماء بالبخر والرشح ، وننتهي الدلتا في شكل مزدوج (شبه حرف W) ، وعدد من الأذرع الفرعية . أما المجرى الداخلي من النهر ، وهو الكوارا (Kouara) ، وخاصة في نيجيريا فيظهر في شكل نهر محلي ، اذ يجري قليل المياه حسب نظام البلاد الحارة في نيجيريا الشمالية ، بينما تكون له طبيعة استوائية في الجنوب ، حيث زمن الأمطار في نهاية الصيف وفي بداية الخريف ، وبعد عدة أشهر في الفترة من يناير الى إبريل يضعف المجرى ، فلا يبلغ عمق الماء أكثر من نصف قدم (١٥ سم) (مولار ، ص ٣٥) . وهكذا فبسبب الطبيعة الموسمية لكل من السنغال والنيجر وكذلك نهر جامبيا ، والعقبات التي تعترض مصباتها في البحر ، كان الوصول الى غرب أفريقيا عن طريق البحر من الصعوبة بمكان ، مقارنة بالدخول اليها من الصحراء (٢٨) .

= استغلاله منذ العصور القديمة ، وهو ولاية بامبوك (Bem bouk) . اما عن السنغال الأسفل فانه يجري وسط سلسلة من المستنقعات ، ويصبح نهرا مفتتا في مجرى غير محدد . وبذلك يصبح مصبه غير أكيد ، حتى انه وجد مجرى ميت للنهر شمال سان لوى (Saint Louis) وشواطئ النهر الرملية لها شكل الجزيرة أو الخلجان غير الثابتة ، ومجرى النهر ينحرف فيها دائما ويغير هذه الأشكال .

(٢٧) مولار ، ص ٣٥ - حيث روافد القسم الأعلى ، وهي : ميلو (Milo) ، ونياندان (Niandan) وسانكاراني (Sankarani) من ناحية ثم تينكسو (Tin kisso) واني (Bani) من الناحية الأخرى ، وقارن جوتييه ، الصحراء ، ص ٧٢ - حيث النص عن ان النجر ينتمي الى الصحراء منذ ثنيته قرب تمبكتو ، اذ ينزل من مرتفعات فولتا - جالون على شاطئ خليج غينيا ، ويدير النيجر ظهره الى الخليج ثم يدب مباشرة شمالا ، حتى الاقليم الصحراوي . والنيجر الأعلى يختلف من الشية عن النيجر الأسفل .

(٢٨) انظر فيدج ، ص ٢ - ٣ - حيث مدخل النيجر الطيني ، ومجرى ضيق في المستنقعات ، فلا يمكن عبوره الا في القوارب ، وكذلك الحال بالنسبة للسنغال الذي يصلح للملاحة في موسم الأمطار الى كاييس (Kayes) فقط (٥٦٠ ميلا) ، ومثل هذا يقال عن نهر جامبيا الذي يصلح للملاحة الى شلالات باراكوندا (Barracunda) (٥٣٠ ميلا) . وانظر شكل ٣ .



شكل رقم ٦ - الصحراء والسودان الغربي وموارد المياه الجوفية

السكان :

صنهاجة الصحراء : المثلثون ، القبائل وتوزيعها :

قبائل الصحراء التي أقامت دولة المرابطين ، والتي تقيم في الصحراء الغربية ما بين ساحل المحيط الأطلنطي ، جنوب جبال درن (أطلس الغربية) (٢٩) ، عند خط التماس مع بلاد السوس الأقصى بالمغرب وحتى غدامس جنوب طرابلس ، تنتسب الى قبائل صنهاجة التي تعد من مجموعة قبائل البرانس الحضرية ، كما هو الحال بالنسبة لصنهاجة أفريقية الذين أقاموا دولة بني زيري في تونس ، ودولة بني حماد في شرق الجزائر (٣٠) .

ولكنه اذا كان صنهاجة الصحراء هنا يمثلون واحدا من الاستثناءات البارزة لقاعدة تقسيم البربر الى قبائل بدوية مثل زناته ، وقبائل حضرية مثل صنهاجة ، فانه استثناء يؤكد القاعدة ، كما يقال أحيانا . فالحقيقة أنه اذا كانت صنهاجة الصحراء تمثل البداوة في أجلى مظاهرها ، من حيث انهم جمالة ، رعاة ابل ، يسكنون القفر وراء الرمال ، ويبعدون في مجالات النجاة التي لا يعرف لها حدود ثابتة حتى صاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حزا كما ينص ابن خلدون (٣١) . فان انشاءهم لدولة المرابطين الكبرى التي ضمت البلاد من السودان جنوبا الى الأندلس شمالا ، تعنى أنهم مدوا جسورا متينة بين حضارات الأندلس والمغرب والسودان ، وتجعل

(٢٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ وعن تسمية جبل درن أنظر درش (J. Dresch) مجلة الدراسات الاسلامية ، كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ (بالفرنسية) ، ص ٢٢ - حيث « ادرارن درن » (Adraren Dren) تعنى «جبل الجبال» ، فادرار تعنى جبل والجمع ادرارن (جبال) - وان كانت كلمة (درن) تعنى أيضا جبل الزنير من الفعل ندر أى زار الذى يتغير مصدره الى درن .

(٣٠) عن البرانس والبر ، أنظر ج ١ ص ٨٦ وما بعدها ، وعن صنهاجة افريقية ، أنظر أيضا ج ٣ ص ٢٨٩ وما بعدها .

(٣١) العبر ج ٦ ص ١٨١ ، وأنظر ليون الأفريقي ، ص ٥١٨ وهـ ١٢٣ - حيث يمتد البربر جنوبا بازاء السودان في شكل حزام يسير من الغرب الى الشرق تبعا لمواطن : جداله ، ولتونه ولطه (لته) ، وتارغه ، ويقابله حزام العرب على امتداد السوس الأقصى ، والمغرب الأوسط والزاب مع برارى بجاية وقسنطينة ، ثم افريقية ، وحيث توحد على التوالى مواطن العرب ، من : ذور حسن ، وذور منصور مع « ذور » عبد الله ، وبنوريح ثم بنوسليم وأنظر الخريطة أو الشكل رقم ٢ .

من بداوتهم استثناء يصحح من وضعهم فى جماعات البربر أهل الحضرة ،
مثل اخوانهم صنهاجة أفريقية (٣٢) .

واذا كان الشائع أن قبائل لتونة هى أشهر قبائل المرابطين حتى
عرفت « الامبراطورية » المرابطية بأنها دولة لتونة المثالية (٣٣) ، فمن المقبول
ضم قبائل لمطة الى لتونة على اعتبار انهما تحملان اسما واحدا ، بصرف النظر
عن كتابته أو نطقه بالطاء أو التاء ، حيث تكون لتونة تفخيما للمنة على
الطريقة المغربية الأندلسية كما فى خلدون وعبدون (٣٤) .

(٣٢) وهنا لا بأس من الإشارة الى ما ينص عليه أوليفر وفيج من أن أثر مدنية البحر
البحر المتوسط ظهرت فى تقوية الفروق بين البربر فى الشمال وبين البربر الرعاة فى نطاق
السافانا والصحراء ، وأن هذه الفروق زادت بدخول الجمل ثم الاسلام - موجز تاريخ إفريقيا ،
الترجمة ص ١٩ .

(٣٣) وفى رثاء دولة لتونة المرابطية يقول الشاعر المعاصر محمد امبارك اللمتونى ، وهو
ينقد أوصاع النساء على أيامه :

ولم تبين من بعد لتون دولة ولم يك فى بنيانه بعدهم ظل
أولئك لتون الألى قد سما بهم أساس الهدى اذ مست الضعف والحدل
أنظر ، محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ليبيا ، ١٩٨٩ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣٤) أنظر ليون الأفريقى ، ص ٥١٨ ، هـ ١٢٣ - حيث لمطة فى شكل لته ، وقارن
الأدريسي ، المغرب تحقيق صادق ، ص ٧٣ - ٧٤ حيث يجعل لمط صنوا أو أخالصنهاج اللذين
كثر نسلهما ، وتسلطوا على الأمم حتى اجتمعت عليهم قبائل البربر فأزعجهم الى الصحراء
المجاورة للبحر المظلم فنزلوها الى الآن - كما يصفهم باصحاب ابل ونجب عتاق ، وأنهم رحالة
(لا يستقرون) . ص ٧٢ - حيث النص على أن بلاد الصحراء تتضمن نول لمطة ، وتازا
كاغت ، وأغرنا كما يضيف إليها (ص ٧٥) بلدة أزقى على أنها للمطة أيضا ، ويعدد من
قبائل لمطة : مسوغة ، وشان ، وثمالة ، ويجعل من قبائل صنهاجة : جدالة ولتونه مع بنى
منصور وتميه ، وبنى ابراهيم ، وبنى تاشفين . ويجعل نهر مدينة نول ، على طول امتداده
من الشرق الى الغرب ، من مواطن لتونه ولمطة ، ص ٧٦ - حيث أزقى - من بلاد مسوغة .
ولمطة ، واسم المدينة البربرية أزقى ، وبالجنائوية أى السودانية قوقدم (جوجدم) وقارن
ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ حيث النص على كثرة المثلثين وتعدد قبائلهم ، ثم البسده بتقديم
كدالة « جدالة » على لتونه ومسوغة ، ثم ذكر وتزيلة (وتريكة) وتاركا (تاوكا) وزغاوة
ثم لمطة ، وحيث النص على أن بطون لتونة ، هم : بنو ورتنطق (أشرافهم) وبنى زمال ،
وبنو صولان ، وبنى تاسجة ، وأن لتونة كان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف بـ « كاكدم »
(قوقدم) وأنهم لم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم بعد فتح الأندلس .
وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٥ - حيث تصحيح وتزيلة وتالكا (وأنظر هـ ٥ - حيث
تاركا = تارجا وجمعها طوارق - وحيث ذكر بنى ورتنطق (Ourtentac) وهو الاسم الذى
ما زال باقيا فى موضع بورتنتيك (Portentic) على ٤٠ مرحلة شمال السنغال - وبنى نبال =

ولا بأس من الإشارة الى انه لما كان اللمط اسم لنوع من الأيائل الصحراوية ذات القرون الحادة (انظر فيما بعد : ص ٩٣) فالمفترض أن قبائل بدو الصحراء هؤلاء عرفوا العبادة الطوطمية ، قديما وأنهم اتخذوا « لمط أو لمت » جدا أسطوريا لهم ، كما هو الحال في قبائل أسد ونمر وعجل العربية . وبذلك يكون « لمت » هو الأصل ، « ولمتون » - الذى يؤنث فى العربية الى لمتونة - هو الاسم المستحدث فى شكل التفخيم « انظر شكل ١١ ص ٩٣ » .

وبعد ذلك تأتى قبائل جداله (كداله) وجزوله (كزوله) العديدة ، التى يجعل البكرى مساكنها (عمارتها) مجاورة لمساكن لمطة على طول مسيرة ٣ (ثلاثة) أيام (مراحل) من عاصمة السوس : ايجلى الى مدينة تول لمطة (٣٥) ، الأمر الذى يسمح بأن تكون جزوله تحريفا لاسم جداله أو العكس . وهذا ما يؤيده الحسن الوزان الذى يضم جداله الى لمتونة تحت اسم « زناقة » (زناجة) الذى يعتبر تحريفا لصنهاجة أو النطق الأصيل للاسم قبل تعريبه (٣٦) .

« (زمال) وبنو صولان (مولان) وبنو ناشجه ، وموطنهم يعرف بـ « كاكدم » (Kakdem) وقارن حسن أحمد محمود ، ص ٣٩ - ٤٠ ، حيث تجميع قبائل الملثمين دون نقد ، بحيث تأتى لمتونة فى رقم ٥ بين جزولة وجدالة ، وحيث تأتى مسوفة فى رقم ١١ ، وقبلها رقم ٩ قبيلة كاكدم (Kakdem) ، والاسم فى الحقيقة موضع لبعض قبائلهم (كما فى ترجمة دسلان حنا) . وفى النهاية يأتى تقرير ان الزعامة للمتونة وتنازعها باستمرار جدالة (ص ٤٠ الاستنادا الى الحلل الموشية) . وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث النص على ان تول لمطة آخر بلاد السوس . وانظر القرطاس ، ص ١٢٠ - حيث النص على ان صنهاجة ٧٠ (سبيعون) قبيلة ، من أصيلة ، مثل لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة ، وفرعية ، مثل مسراتة ، وتكلاته ، ومنداسة وبنى وارث - وفى كل قبيلة بطون وأفخاذ لا تحصى .

(٣٥) البكرى ، ص ١٦١ (وقارن الاستبصار ، ٢١٢) ، وانظر أيضا البكرى ، ص ١٦٤ - حيث جدالة تجاور البحر المحيط ، وص ١٧١ - حيث يقع منجم الملح فى أولل فى بلادهم ، ص ١٧٢ - حيث يصاقبون بلاد السودان ، على بعد أيام من صنفانة . وانظر حسن محمود ، المرباطون ، حيث جدالة جنوب صحراء نيسر حتى مصب السنغال ، وان مركزها أولل : مركز نجم الملح المشهور . وانها قريبة من غانة وشعب صنفانة على الضفر اليسرى للنيجر (منحنى النيجر) .

(٣٦) ج ٣ ص ٢٩١ ، وانظر ليون الافريقى ، ص ١٥٥ - حيث تحديد منطقة جزلة بأنها متاخمة لجبل هلاله من السوس ، ومن الشمال أطلس (درن) ، والشرق درعة ، مع النص على أنها منطقة جدالة أيضا ، وانظر ص ١٨ هـ ١٢٣ . وهو ما أخذ به شعيرة ، المرباطون ص ٢٩ - ٣٠ من وحدة القبيلتين - عندما وحد بين نسب يعقوب بن ابراهيم الجدالى ، وعبد الله بن ياسين الجزولى .

أما قبائل مسوفة فتأتى مواطنها فى المنطقة ما بين سجلماسة وغانة ، وتوصف بأنها مسيرة شهرين (حوالى ٦٠ مرحلة : ٢٤٠٠ كـ م) فى رمال وجبال غير عامرة ، قليلة الماء ، ولذلك فهم بدو رحل ليس لهم مدن ولا عمارة ، باستثناء وادى درعه على مسيرة ٥ (خمس) أيام (٢٠٠ كـ م) (٣٧) ، وفيما بين درعه وسجلماسة تقع مواطن قبيلة سرطة (أو شرطة) ، المحدودة وقتئذ من قبائل صنهاجة الصحراء (٣٨) .

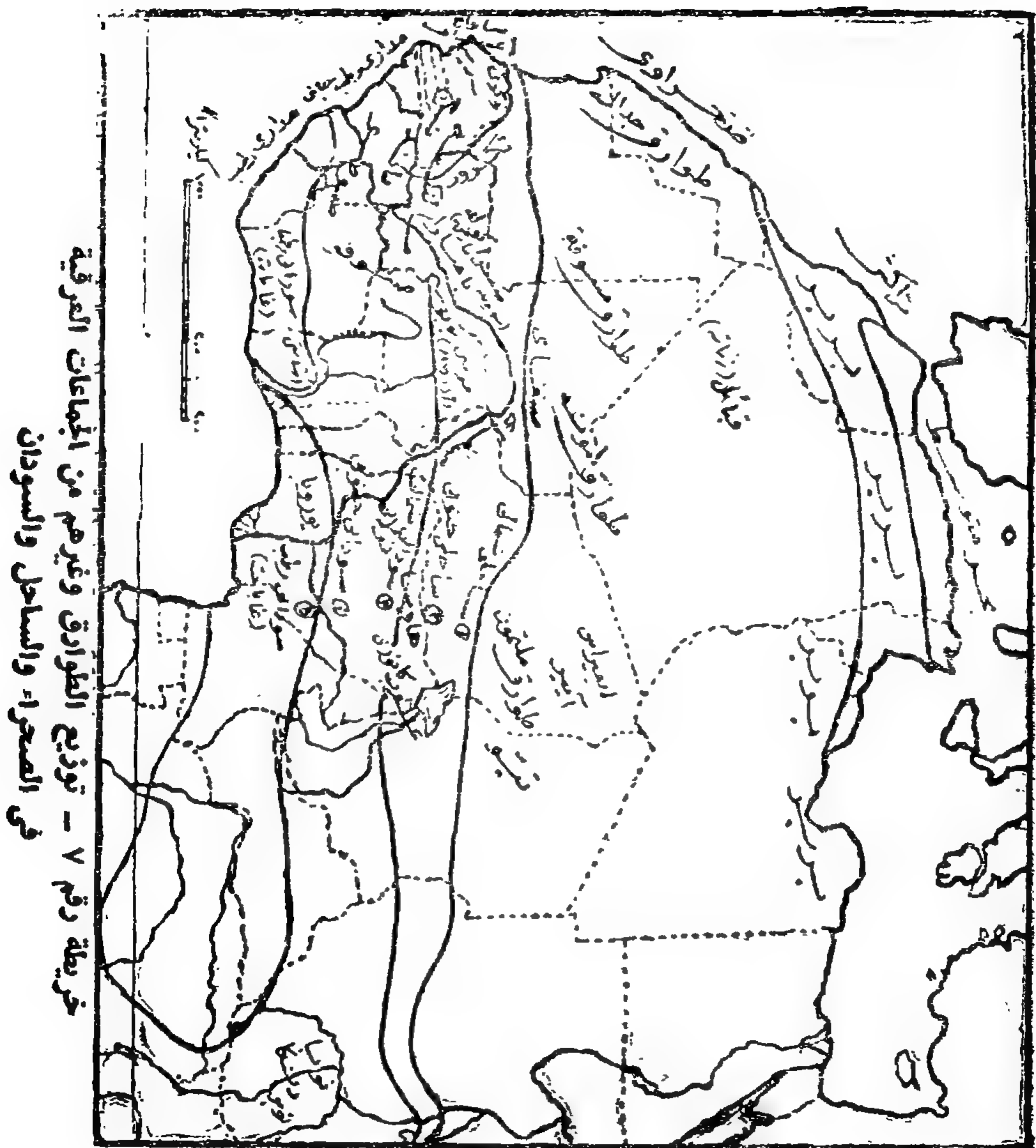
وعن قبائل ترغه (كما فى البكرى) أو تارجا (كما فى الاستبصار) التى يمكن أن تتحرف الى طارغة وطارجة وطارقة بمعنى قبائل الطوارق (Touareg) وهم المثلثون حقيقة ، فكانت مواطنهم على مسافة يومين (٨٠ كـ م) من سجلماسة (٣٩) . ومن المهم أن ليون الافريقى (قرن ١٦ م) يقدم قبائل الطوارق على لتونة ، ويجعلهم فى صحراء آيير (مرتفعات وسط النيجر حاليا) ، ويفسر الاسم (طوارق) بمعنى الساقية أو القناة ، كناية عن خبرتهم فى رى بسايتينهم بتقنية اقتصادية عالية فى الماء ، كما يوصف بذلك أهل الجريد ، وخاصة فى واحات قفصة (٤٠) .

(٣٧) البكرى ، ص ١٤٨ ، ١٥٥ ، وانظر الأدريسى ، تحقيق صادق ، ص ٧٥ - حيث يجعل مسوفة من قبائل لمطة الأمر الذى يؤيد فكرة الطوطمية فى لمطة وانها الأصل للمتونة . وقارن الاستبصار ، ص ٢٠١ - حيث النص على ان قاعدة درعة (مدينتها المركزية) تسمى بتومتين .

(٣٨) البكرى ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣٩) البكرى ، ص ١٤٨ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث المسافة ٥ (خمسة) مراحل : ٢٠٠ كـ م ، من وادى درعه - حيث ينص البكرى على ان مدينة ترعة خربت بعد بناء سجلماسة وعمرانها وذلك فى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، وهو ما لا نجده فى الاستبصار . والظاهر ان الترغيين انتقلوا الى سجلماسة ، اذ يوصف أهل سجلماسة الذين بقوا على ما كانوا عليه وقتئذ حتى أيام البكرى ، بأنهم « يلتزمون النقاب ، فاذا حسر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله » .

(٤٠) ليون الافريقى ، ص ٥٢١ وهـ ١٢٥ - حيث الطارقة اسم بربرى- يعنى الساقية والقناة وذكر صحراوات آيير (المعتدلة الهواء الكثيرة الماء والكلأ) وايغيدى وتوات وأغادس ، وانظر هـ ١٢٦ - حيث تصحيح المواضع وتعريف ايغيدى بأنها عرق رملى من كنيان عالية ، الأمر الذى ينطبق على صحراء لمطة جنوب اقليم الزاب - وعن تقنية السقيا فى واحات جنوب الجزائر ، انظر فيما سبق ، ص ٦١ ، وقارن محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ٢٧ - حيث معرض كثيرا من احتمالات أصل تسمية الطوارق ، منها ما هو منقبى كالنسبة الى طريق الهداية وطارق ابن زياد ، أو مهنى لطروق الصحراء ، ومنها ما هو جغرافى مثل النسبة الى الاسم اللاتينى لمدينة سجلماسة ، أو ظهور لاسم حديث فى منطقة أزواغ بجوار ممالك السونفاى =



السمات العامة لقبائل الملثمين الصحراوية :

لما كانت قبائل صنهاجة الصحراء تحيط ببلاد السودان الجنوبي ، كان طبيعيا أن يتم الامتزاج بينهم وبين الأجناس الحبشية السودانية في منطقة التماس هذه ، حيث غلبت البشرة السوداء على أهلها ، وإن ظهروا منتمين الى الجنس الأبيض^(٤١) ، ولا بأس أن تكون قاعدة التفسير لغوية حيث تكون كل من اللغة العربية والبربرية ، وخاصة لهجة اليميناع الطارقية ، سمة لببيض^(٤٢) ، وتكون اللهجات السودانية للهوسا وانسونغاي وافولان سمة لـسود ، فكان الجغرافية السياسية مبنية على التقسيم العرقي^(٤٣) .

= والهوسا ، والنسبة الى وادي درعه او الى قبائل تارغه (تارجا) وهو ما نأخذ به ، ولكن على اساس ان قبائل ترعه هي التي اعطت اسمها لوادي درعه (انظر فيما بعد ص ٨٨) . هذا ولو ان المؤلف يهمل كل ذلك بترجيح أن يكون الاسم قد جاء من اسم « الوادي » أي وادي الآجال (الأمل والحياة) بليبيا ؟

(٤١) عن أجدر شعوب شمال افريقيا البيضاء أنظر ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الافريقي ، ترجمة السويقي ، ص ٣٥ ، حيث التقسيم الأولي الى (أربعة) أجناس ننمي الى : الساميين في شبه جزيرة العرب ، والحاميين في شمال افريقية (البربر) والمصريين في وادي النيل ، والكوشيين في الصحراء الشرقية « البجاه » . وهنا توصف الشعوب النيلية الصحراوية بضخمة الأجسام وسواد البشرة ، وإن كانت أجسامهم ووجوههم أنحف من الزنوج .

(٤٢) عن اللغة البربرية أنظر ج ١ ص ١١٠ وما بعدها ، وقارن ليون الافريقي ، الترجمة ص ٤٧ - حيث الإشارة الى ان اللغة الافريقية (البربرية) تسمى عادة (أوام أهاريغ) أي اللغة النيلية ، مع النص على أنها تحوى بعض الكلمات العربية ، وإن هذا سبب انتساب البربر الى العرب الحميرين ، والصحيح ان القرابة مع اللغة العربية أتت عن طريق عملية التعريب . وأنظر ص ٧٩ - حيث الإشارة الى ان كتابة الأفارقة (البربر) ضاعت في أعقاب الحكم الروماني لبلاد البربر ، ص ٨٠ وه ١٨٨ - حيث النص على انها الكتابة المستعملة حديثا لبربر الطوارق واسمها الفيناغ ، ص ٨١ و ١٩١ - حيث حلت الحروف العربية محل الكتابة الافريقية وإن كتابة التفيناغ كانت منتشرة حتى جزر كناري (الخالدات) ، وفي أواسط الصحراء الكبرى وغربيها ، وإن كتابة الطوارق مشتقة منها ، وأنظر جوتييه ، الصحراء ص ٢١٠ - حيث النص على ان الطوارق هم الوحيدون الذين يكتبون الأبجدية اللبية (البربرية) .

(٤٣) أنظر ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الافريقي ، الترجمة ، ص ٥٥ - ٥٦ - حيث النص على انه منذ قضاء الرومان على قرطاجنة والاستيلاء على الشمال الافريقي من بداية التاريخ الملائى وقع حدث هام تمثل في تدفق هجرات قبائل الزنوج من غرب القارة الى وسطها في تيارين متوازيين من قبائل الزاندي (Zande) والانتو (Bantu) ، وإن الطريق : من جبال =

وأهم سمات أهل الصحراء أنهم جمالة ، رعاة ابل يجوبون الصحارى الشاسعة لآلاف الكيلومترات وراء الكلاً والماء لابلهم ، والتماسا للدفء اللين شتاء لنتائجها ، وسميا وراء الرزق ، بدلالة القوافل ، أو حمل المتاجر ، وحتى الغارة على الجيران . وبذلك يصبح الجمل هو السيد الحقيقى للصحراء . فعلى الابل بخاصة معاشهم ، اذ يأكلون لحومها طازجة مطهية ، وقديدا مجففة ودقيقا مطحونا - كما كان يفعل العرب قديما ، أيام التشريق فى موسم الحج - ويشربون من ألبانها ويأتممون ، وينسجون من وبرها الملابس كما يتخذون النعال والأدوات المنزلية من جلودها كالسفر للطعام والسطول لرفع الماء من الآبار ، الى غير ذلك من أدوات الركوب كالسروج واللجم والاقتاب - وان كان الجيد منها من اختصاص أهل المهن فى المراكز الحضرية (٤٤) . فكأنهم اكتفوا اقتصاديا فى معاشهم بفضل ابلهم ، وان كان اقتصادا بدويا يكتفى بالضرورى من أسباب المعاش ، ولا يتعدى درجة الحاجى منها الى الكمال . وهكذا فهم قلما عرفوا الحبز عن طريق قوافل التجار بباديتهم ، حيث كانوا يتحفون به رؤساء العشائر والقبائل منهم (٤٥) .

الكاميرون الى حوض زائير الى منابع النيل الأبيض والاختود الغربى المحيط ببحيرة فكتوريا . وقارن دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال (Africa) Lexicon Universal ، ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٣ - حيث النص على ان سكان اقليم الساحل (السافانا) العشبي ، الممتد جنوب الصحراء من الغرب حتى أعالي النيل يحوى عددا من الجماعات العرقية ، معظمهم من الزراع المستقرين ، منهم : الوالوف (Wolof) والسيرير (Serer) السنغاليون ، والفلوانى (Fulanic) الفينيون (فى غينيا وشمال نيجيريا) ، السونسكى (Soninki) والمالينكة (Malinka) والبامبار (Bambara) والدوجون (Dogon) فى مالى ، والسنوfo (Senufo) فى ساحل العاج ، والموسى (Mossi) فى فولتا العليا ، واليوربا (Yoruba) والهوسا (Hausa) فى نيجيريا ثم السارا (Sara) فى جنوب تشاد .

(٤٤) انظر الأدريسى ، صادق ، ص ٧٥ ، اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢١٠ .

(٤٥) ابن حوقل ، ص ٩١ - حيث الاشارة الى ان قبائل البربر فى برارى سجلماسة وأودغست ونواحي لمطة وتادمكة الى الجنوب ، ونواحي فزان ، فهم مهملون لا يعرفون الطعام ولا راوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب ، وقوام حياتهم اللبن واللحم ، وقارن ، البكرى ص ١٦٤ ، والادريسي ، تحقيق صادق ص ٧٤ - حيث النص على ان عيشهم من ألبان الابل ولحومها متعددة ومطحونة ، مع الاشارة الى انه ربما جلبت اليهم الحنطة والزبيب وان أحفل طعامهم تلك الوجبة التى تسمى « اسلوا » ، والتى تعد من الحنطة المنلوة المجروشة ، ممزوجة بالسل والسن ، مطبوخة على النار . وقارن القرطاس ، ص ١٢١ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ - ٢١٥ - حيث الاشارة الى انه رغم طعامهم القليل من اللحم واللبن والسن ، فانهم فى صحة جيدة ، بل وفى منتهى القوة ، وان أمكن تفسير ذلك بأنه تعبير عن حالة نفسية تتمثل فى نظرة =

وهؤلاء الجمالة فرسان بحكم النشأة ، فهم الرعاة الكبار ، الذين يعتنون بحيواناتهم الضخمة فى المرعى والسقيا ، وهم الذين يسوسونها وقت النتائج (٤٦) . وعلى الطرق الصعبة ، فى الرمال المتحركة ، والمستنقعات السبخة ، والصخور التى تحفى لها اخفاق الابل (٤٧) . وهم الغزاة بفضل ابلهم الكريمة المعروفة بالنجب ، ومفردها نجيب ، التى كانت تسابق الخيل التى عرفوها فى الواحات حيث يتوفر الشعير والماء . وقطعان الابل التى كانت ترعى بالآلاف قرب ديارهم كانت تستخدم كدروع رادعة للأعداء

= الخوف من قبل اهل الحضر بالنسبة لاهل البادية الذين ربما ظهوروا فى أعينهم بمظهر الوحوش الكاسرة حسبما ينص ابن خلدون فى المقدمة ، فى الباب الثانى فى العمران البدوى ، الفصل الثانى فى ان جيل العرب فى الحلقة طبعى (ط . التجارية ، القاهرة ، ص ١٢١) - حيث النص : واما من كان معاشهم فى الابل فهم اكثر ظمنا ، وأبعد فى السفر مجالا . فرارا من اذى البرد الى دفء هوائه طلبا لماخض النتائج فى رماله . . وايضا . . نفرة عن الضعة منهم ، فكانوا بذلك أشد الناس توحشا ، وينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه . . وهؤلاء هم العرب ، وفى معنهم ظعون البربر وزناتة المغرب والأكراد والتركمان والترك بالشرق . . . ومن صنهجة الملثمين . وأنظر ، العبر ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على أنهم المواطنون بالغفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب . . . منذ دهور لا يعرف أولها . اصحروا عن الأرياف وهجروا التلول وجفوها ، واعتاضوا عنها البان الأنعام ولحومها ، انتبازا عن العمران وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر ، فنزلوا من ريف الحبشة (السودان) جوارا ، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا . وقارن ليون الافريقى ، ص ٦٧ - حيث النص على أنهم بصبرون على الجوع ، وانهم يأكلون الخبز أو الوجبة المجهزة ، بل يفتنون بحليب النوق واللحم المقدد المغلى فى الحليب . وفى الربيع حيث يتوفر الحليب لا يهتمون بشرب الماء أو استخدامه لقلته فى مناطق العشب وقتئذ ، وكذلك ص ٦٩ - حيث يصف مادبة أمير زناقة (صنهجة) فى مضاربه ، حيث ذبحت الجمال والحراف وطير النعام ، وقدمت اللحوم مشوية ومسلوقة فى شرائح متبلة بالأعشاب وبهارات بلاد السودان مع خبز الذرة الناعم والتمر مع الحليب - هذا ، مع النص على أن الداعين أكلوا وحدهم وبدون خبز .

(٤٦) أنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٢١٧ وما بعدها - حيث تقسيم البربر الى رعاة صفار هم رعاة الشاة والماعز ورعاة كبار ، هم رعاة الابل ، وهى نظرية ابن خلدون الذى يقسم البربر تبعا لأحوال معاشهم الى قسمين هما ، المستضعفون ومعاشهم فى الفلج ودواجن السائمة ، والمعتزون ، وهم : « أهل الانتجاع والاطعان » فى نتاج الابل وظلال الرماح - العبر ج ٦ ص ٨٩ .

(٤٧) البكرى ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٧ - حيث النص على أنهم لا يركبون سوى الابل ، ويستخدمون لهذا سرجا يضعونه بين السنام وبين عنق الجمل ، يسمى الرحلة (هـ ١٣٤) وانهم قد يضعون ساقا فوق ساق على عنق الجمل الذى يثقب منخاره ويوضع فيه سير يمكن بواسطته تدوير الجمل وتوجيهه ، كما يقاد الحصان باللجام .

عندما تطبق عليهم دفعة واحدة فتدهسهم دهننا (٤٨) .

ومن قوة الجمال التي كانوا يتعاملون معها ، استمد الرجال قواهم وعزمهم ، ورغم خفة وزنهم فهم كالرماح السمهرية في قوامهم ، وفي شدة بأسهم ، والرمح فعلا سلاحهم المفضل قبل انقوس والنبل ، وهذا ما يظهر في خطط معاركهم (بعد تأسيس دولتهم) وما يؤيده انتشار حمل الرماح بين أهل البلاد المتاخمة لصحرائهم ، كما في السوس (٤٩) . وهم فوق ذلك يعرفون أوضاع البر واقتفاء الأثر ، واكتشاف مواضع الماء - ولهم في ذلك الحس الذي لا يدانيهم فيه غيرهم (٥٠) .

واذا كانت روايات القرن (٣ وال ٤ هـ / ٩ - ١٠) عندما تتكلم عن خشونة حياتهم ، تنص على أنهم يتشحون بثيابهم ولا يلبسون القميص (٥١)

(٤٨) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث النص على أن ملك صنهاجة كان يملك من الإبل ما يسمح له بالقضاء على أعدائه بمجرد الاعتماد على هيج بعضها ونفارها على الخصوم بفته . وقارن البكري ، ص ١٥٩ - حيث يقول أن ملك أودغست ، في منتصف القرن الرابع الهجري / ١٠ ميلادي ، كان يستطيع أن يجيش مئة ألف نجيب ، وأن يمد حليفه ملك ماسين (من ملوك السودان) ب ٥٠ (خمسين) ألف نجيب . وعن دخول الجمل إلى المغرب وغزو الصحراء (ج ١ ص ١٠٥) ، وقارن ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الإفريقي ، الترجمة ، ص ٧٥ - ٧٦ - حيث النص على أن صنهاجة اخترقت الصحراء بفضل الجمال التي دخلت شمال إفريقيا منذ غزا الفرس البلاد في القرن ال ٦ ق م ، وانها وصلت إلى المغرب في القرن الأول ق م ، وشاع استعمالها في القرن ال ٤ م ، ويفضل استخدام الجمل كسفينة لاجتياز الصحراء ، عرفت صنهاجة الدولة الزنجة التي أسستها قبائل الميوندنكي (Soninke) وهي مملكة غانة في شمال حقول الذهب في بومر (Bambuk) .

(٤٩) أنظر الادريسي ، صادق ، ص ٧٨ - حيث النص على أن أهل تارودانت ، لا يمشي الرجل منهم ، إلا وفي يده رمحان قصار العصي ، طوال الأسنان رفاقها ، الأمر الذي يعنى مهارة بالغة في استخدام الرماح ، والذي يذكر بمهارة الترك في الضرب بالنبال حتى كان الفارس منهم يحمل قوسين ، ويضرب من أمام ومن خلف ، فكان له عينان في قناه أيضا كما ينص الجاحظ في رسالة مناقب الترك ، وأنظر جوتيه ، الصحراء ، ص ١٣٤ - حيث النص على أن سكان فزان الجرمنيتين ، على عهد اليونان ، واللاتين ، كانوا لا يستخدمون السهام والقوس في الرمي ، بل كان سلاحهم الوحيد هو الحربة . وأن الطوارق في تومبوكتو عند ثمة النيجر ما زالوا يرمون بالرماح ، وهم يرمحون بالحبل بدقة مدهشة . وأنظر ص ٢١٠ حيث النساء الطوارق يحملن الحنجر في الذراع ، وقارن شعرة ، المراتلون ، ص ٢٨ - حيث لا يمشي الرجل من أهلها إلا وفي يده رمح أو رماح طوال الأسنان من أطيب الحديد .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ٩٧ .

(٥١) اليعقوبي ، ص ٣٥٩ ، وقارن ابن حوقل ، ص ٨٣ - حيث النص على أنهم يتشحون =

خالرأى ان الزى المناسب لهم ، بصفتهم جمالة (فرسان) هو السراويل المناسبة للركوب ، مثلهم مثل « الأحدين » المتصلين بالمغرب من جهة الشرق ، وهم أصحاب زى كزى المغاربة ، وفيهم جند يلبسون السراويلات المفتحة الطوال^(٥٢) ، ولا بأس أن تكون ثيابهم قد تطورت مع مرور الوقت ، وتعلم بعضهم ركوب الخيل^(٥٣) .

اللتام :

أما أهم ما يميزهم من الكساء فهو اللتام ، المتخذ من فضل العمامة لتغطية الفم والأنف معا ، فلا يظهر من الوجه الا العينان ، فكأنه من الفعل لثم بلثهم ، وهو الذى أعطاهم اسم المئمين^(٥٤) ، الأمر الذى يذكر بطبقة

= بالكساء ، وقارن الادريسي ، المغرب العربى ، تحقيق صادق ، ص ٧٤ - حيث النص على ان لباس الرجال والنساء لدى لمونة الصحراء (لمط وصنهاج) « الأكسية الصوف » ، فكان الأوصاع ظلت مستقره - فى مجال الثياب - دون تغيير يذكر حوالى ٤ (أربعة) قرون وأكثر .
(٥٢) ابن حوقل ، ص ٥٥ .

(٥٣) أنظر ليون الافريقى (قرن ١٦ م) - حيث يقرر ان لباس جزولة عبارة عن صدرية قصيرة من الصوف دون أكمام ، ملتصقة بأجسامهم (الترجمة ، ص ١١٥) وهذا يعنى انهم يلبسون ذلك فوق السراويل ، على ما نظن . وعن ثياب الطوارق قارن أيضا ، ص ٦٦ - ٦٧ حيث ثياب العامة : كساء كفوطة ضيقة من الصوف الخشن ، وعلى الرأس قطعة قماش سوداء ملفوفة حول الوجه كالعمامة . أما الوجهاء فيلبسون قميصا كبيرا له أكمام عريضة ، من قماش القطن الأزلق الذى يشترونه من التجار القادمين من بلاد السودان . وعن ثياب الطوارق حاليا ، أنظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ليبيا ١٩٨٩ ، ص ١٧ - حيث الزى عبارة عن النمص الفضفاض والسروال الواسع ، والحذاء العريض من جلد البعير .

(٥٤) أنظر لسان العرب : ط . بيروت ، ج ١٢ ، ص ٥٣٣ ، لثم - حيث اللتام من الفعل لثم يلثم بكسر التاء ، وربما بفتحها يعنى رداء المرأة وهو قناعها على « أنفها » وهو اللتام عندما يكون على الفم (بحيث تظهر العينان والأنف) وهو « اللتام » اذا كان على الأنف (فلا يظهر الا العينان) ، وأنظر اليعقوبى ، ص ٣٥٩ - حيث النص على ان صنهاجة السودان الغربى يلبثون بعمائمهم ، سنة فيهم ، وقارن ابن حوقل ، ص ٩٧ حيث النص على انه لا يرى لأحد من صنهاجة منذ عرفت ، من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يتلثمون وهم أطفال ، ويتششئون على ذلك ، وقارن الادريسي ، المغرب العربى تحقيق صادق ، ص ٧٤ - حيث النص على لمونة (لمط وصنهاج) يربطون على رؤوسهم عمامة الصوف المسماة بالكرازين . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على انهم اتخذوا اللتام خطاما تميزوا بشعاره ابن الأمام ، وقارن ترجمة دسلان (DeSlane) ج ١ ص ٦٤ - حيث النص على ان اللتام هو نوع من شريط أو رباط القماش ، وقارن ج . مارسيه ، المغرب الاسلامى والمشرق فى العصور الوسطى ترجمة هيكل ، ص ٢٦٥ - حيث اللتام عند الطوارق الحاليين ، قطعة من القماش =

« الاستاذين المحنكين » فى الدولة الفاطمية بمصر والشام (٥٥) .

هذا كما عرفت صنهاجة مثل بربر انصحراء بوضع النقاب على وجوههم فلا يرى منها غير العينين - وبذلك فهم « المنقبون » (٥٦) .

والنقاب أشبه بالقناع الصغير يوضع فوق اللثام فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين وكذلك الأمر بالنسبة للبرقع، وهى مما عرفه العرب أيضا قديما وحتى الآن . وأغلب الظن أن اللثام (على الفم وحده) تطلب ظهور النقاب (أو القناع) الذى يوضع على العينين فوق اللثام - زيادة فى التحفظ - فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين (٥٧) .

ورغم ما يقال من أن سبب وضع اللثام أو النقاب هو باعتبار الفم ، بصفته مدخل الطعام عورة يجب سترها مثل المخرج (٥٨) ، أو أنه من أجل

= يغطون بها وجوههم من أسفل الى أعلى ، وقارن حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٥١ - ٥٣ - حيث اللثام المعاصر . قطعة من القماش تصنع فى السودان ، وتحمل الى الطوارق ، وهو على لونين : أسود للنبلاء (ولهم القيادة) وأبيض للعبيد (أصحاب الأعمال اليومية الدارجة) وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ص ٦٨ - حيث النص على او اشرافهم يلبسون فوق رؤوسهم لثاما أسود يغطون وجوههم كلها بقسم منه ، فلا تظهر سوى عيونهم ، ويكونون هكذا عندما يأكلون . فكشف الفم عند تناول اللقمة فقط ثم ستره فى الحال ، وانظر هـ ١٤١ - حيث يدعى اللثام بالبربرية : « تاغلموست » .

(٥٥) أنظر صبح الأعشى للقلقشندي ، ج ٣ ص ٤٧٧ - حيث النص أنهم أجل طبقات « الاستاذون » ، وهم الذين يدورون عماثمهم على أحناكمهم كما تفعل العرب والمغاربة (وهو ما يمثل أثرًا مغربيا وفد الى مصر مع الفاطميين . وقارن جمال الشيال ، اعلام الاسكندرية ، ص ١١٠ ، هـ .

(٥٦) الاستبصار ، ص ٢٢٣ - حيث النص على أن أهل تادمكة على تخوم السودان ، مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء .

(٥٧) أنظر لسان العرب ، ج ١ - أ ب ، ص ٧٦٥ - نقاب (وقناع) - حيث النقاب فى أى شيء كان والنقاب = القناع على مارن الأنف ، ويقال تنقب وانتقب . والأصل فى النقاب انه من رداء المرأة ، وهو مستحدث من الحمار ، لسان العرب ، ج ١ - أ ب ، ص ٧٦٨ (نقب) . اما البرقع فهو لباس الدواب ونساء الأعراب (ج ٨ - ع ، غ ، ص ٩) . وانظر أوليفر وفيج ، موحز تاريخ افريقية ، الترجمة ، ص ٧٠ - حيث النص على ان اللثام كان رداء الطبقات النبيلة من الأحرار ، دون العبيد من الزراع والصناع .

(٥٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث أنهم يزعمون ان الفم مسوء تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه ، اذ ما يخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من العورة ، وقارن البكرى ص ١٦٨ ، الذى يفهم من روايته أنهم يفعلون ذلك حرصا على أفواههم أن يصيبها الذباب ، ذلك أنهم =



شكل رقم ٨ - طارقى ملثم (اللثام من النوع الصغير)

التخفى عند انقيام بأعمال النصوصية - التى كثيرا ما يضطرون اليها بسبب القحط والجفاف - أو لمدفاع عن الوطن^(٥٩) ، كما يفعل المسمون من شباب المناضلين الفلسطينيين ضد الاحتلال الاسرائيلي ، حاليا .

ولا بأس أيضا فى أن يكون ارتداء اللثام لأغراض دينية سحرية محضة ، كأن نكون هناك علاقة بين الأقنعة ذات الأشكال العجيبة والألوان انصاخبة التى يرتديها أهل السودان الغربى فى احتفالاتهم الآن ، وبين استخدام اللثام قديما عند بربر الصحراء^(٦٠) .

= يسمون من لا يضع اللثام من غيرهم « أفواه الذبان » بلغتهم ، وقارن حسن أحمد محمود ، ص ٤٩ - حيث يعتبر ان اللثام لستر الوجه كله ، لأن الوجه كالعورة ، وهو ما لا يدم له سندا .

(٥٩) أنظر ، ابن الأثير ، ح ٩ ص ٦٢٢ - حيث قصة ارتداء النساء السادرات عادة ، لثام تشبها بالرجال من أجل تخويف القراصنة المهاجمين عندما يرون كثرة عدد المدافعين عن مساكنهم ، ولو أن المعركة انتهت بأن كان من قتل من النساء أكثر . فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلزمونه ، فلا يعرف الشيخ من الشاب ، إذ لا يزيلونه ليلا ولا نهارا . أما بداية النص فيفهم منها ان لمتونة كانوا مثل العرب يتلثمون من الحر والبرد ، ولكنهم بعد أن ملكوا ضيقوا اللثام ، فكانه أصبح رمزا لحالة ثقافية معينة ، عبر عنها الشاعر العربى بأنها الحياء .
 قوم لهم درك العلى فى حمير
 لما حذوا احرار كل فضيلة
 وإن أنتموا صينهاجة فهم هم
 غلب الحياء عليهم فتلثموا
 وقول الآخر :

إذا التثموا بالربط خلت وجوههم
 أو التأموا بالساييرة أترزوا
 أزهى تبدو من فتوق الكمام
 عمون الأفاعى من جلود الأرافم
 وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٣ - ٣٨٥ ، نصار ح ٢٤ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ - مع اصابة بعض الطرائف عن مسك لمتونة باللثام الى الحد الذى يسمح للرحل منهم بأن يقدم ستر وجهه على ستر عورته - وذلك فى دمشق بعد انتضاء دولة المثلثين .

(٦٠) أنظر جوليان (ش ١٠) ، تاريخ افريقيا الشمالية ، الترجمة العربية ، ح ٢ ص ١٠٤ - حيث النص على ان لمونة كانوا يجوبون واحات جنوب المغرب الأقصى الى بلاد الزنوج ، ولعلهم كانوا يضعون اقنعة من العين لثاما يحجب أسفل وجوههم فسموا بالمثلثين ، وقارن أحمد مختار العبادى ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ٦٧/٢١ - ٦٨ ص ٤٩ - حيث النص على ان ارتداء اللثام عادة أخذت من زنوج افريقيا المحاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة عنهم ، مع الإشارة الى جوليان (تاريخ شمال افريقيا ، ١٩٥٢ ، ص ٧٧) ، وهو مختلف عنه إذ يمكن أو يكون العكس هو الصحيح - والأمر احتمال على كل حال . وأنظر لبون الافريقى ، هـ ١٤١ ص ٦٨ - حيث الإشارة الى كثير من الأساطير غير المقنعة مما يتعلق باللثام ، منها : انه لدفع أمر محرم (Taboo) حقيقى . وهو الفم أمام المائة والأشخاص المحترمين . وهو ما لا يشير اليه المؤرخون .

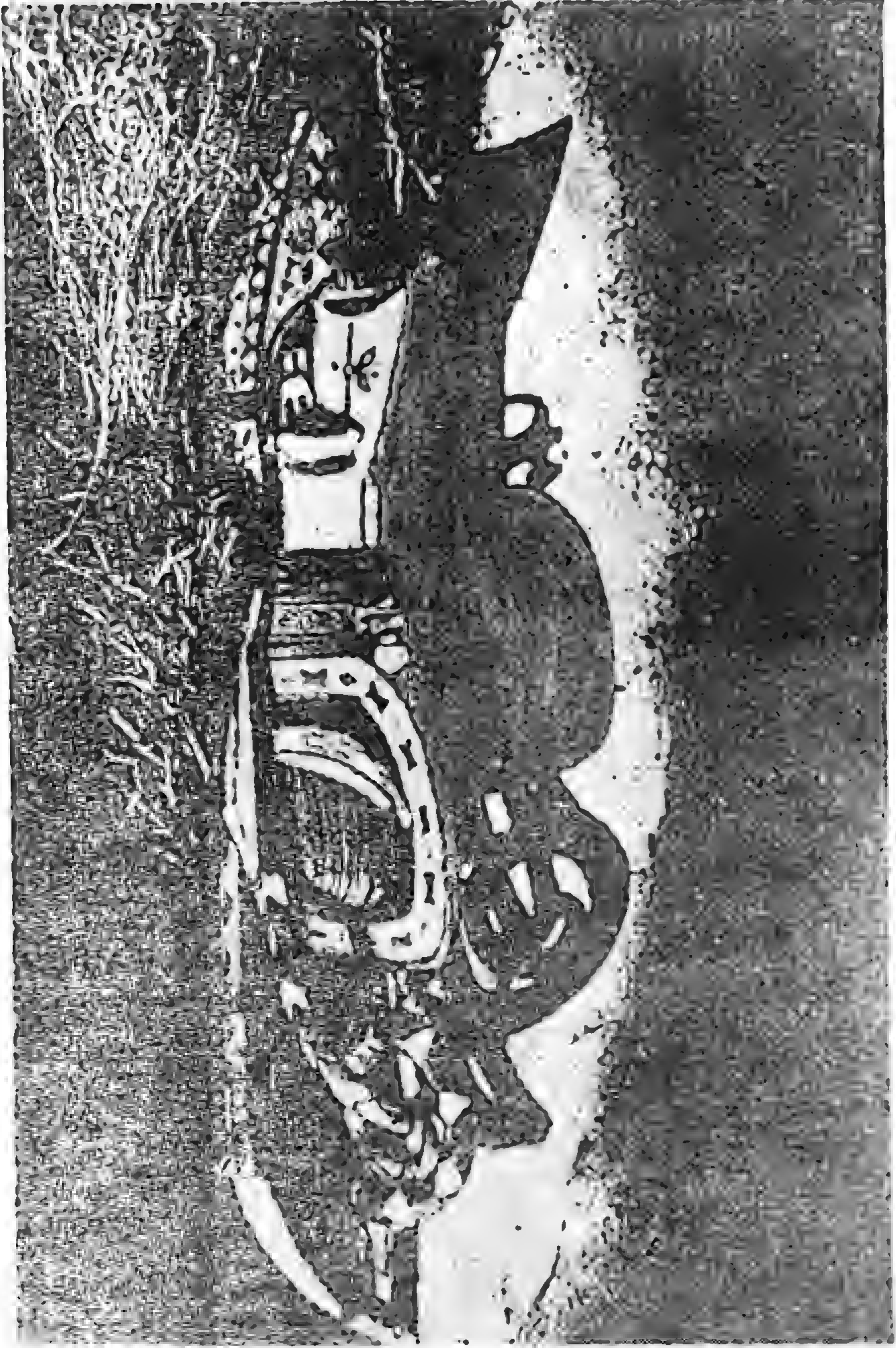
والحقيقة أن ما يأخذ به البعض من رفض فكرة ارتداء اللثام من أجل اتقاء عوارض الجو المختلفة من الغبار والبرد والحر ، وترجيح فكرة الحشية من تسرب الأرواح الحبيثة الى الجسد عن طريق الفم والأنف له علاقة بالمعتقدات السودانية التقليدية في جنوب الصحراء ، والتي تتمثل في أساطير وقصص عن الله والبشر والطبيعة . ويظهر ذلك في الفن التقليدي في وسط أفريقيا وغربها في الأقنعة بشكل أساسي ، وفي الرؤوس ذات المعنى الديني السحري والتي تستعمل في القيام بالشدائد الدينية وانضرب على الطبل وقص الحكايات . وبدون ذلك لا يمكن للفن المرئي القيام بوظيفته في المجتمع الافريقي التقليدي ، والتي تتمثل في الصراع من أجل السيطرة على القوى المختلفة ، من : طبيعية وعلوية لكي تنتهى الأمور على ما يرام ويشتهى ، فكان الفن هو وسيلة العلاج (٦١) .

هذا وتعرف ديانة السودان عند الباحثين بـ « الاحيائية » (animisme) ، من حيث أنها تركز على تقديس الأرواح أيا كانت ، لاجتذاب الحيرة منها وتقريبها ، ودفع الشريرة منها وطردها - فكانها من الديانات الذنوية ، مثل : السمنية (Chamanisme) : ديانة المغول والتتر . وهي تعتنى بأرواح الموتى الباقية مع الاحياء وهى الأكثر عددا ، الى جانب أرواح مظاهر الطبيعة المختلفة ، من : الماء والأرض والشجر والحيوان وغيرها من الكائنات ، الأمر الذى يعبر عن وحدة المجتمع والبيئة حيث يفنى الفرد في سبيل الجماعة (٦١ م) .

= القدامى : وان كان من الممكن أن يكون القناع لاختفاء قبح الوجه أحيانا ، أو أن يكون ارتداء اللثام الذى يتم في حفل عائلى صغير بالنسبة للغلام (المراهق) دلالة على أنه بلغ مبلغ الرحال ، وأنه يستطيع المشاركة فى الغزو وكذلك التردد على النساء .

(٦١) دائرة المعارف ليكسبيكون يونفرسال ، ط ١٩٧٥ ، ج ١ ص ٤٦ (عن الدين) وص ١٦٠ (عن الفن) ، وص ٦٤٦ (عن قناع للتأمل مصنوع من الخشب والليف (من زائير الكونغو) وهو فى الحقيقة لباس للرأس دقيق النحت والتلوين ، ويقوم بارتدائه شاب أثناء احتفال الختان أو الرقص ، وانظر شكل ٧ - حيث قناع من غينيا الفرنسية يجمع بين القسمات الانسانية ورأس التمساح وجسد الأسد .

(٦١م) عن السمنية أنظر للمؤلف ، الاسلام والترك ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، عدد ٢ سنة ١٩٧٩ ، ص ١٦٦ . وعن ديانات السودان ، أنظر مولارد ، افريقيا الغربية الفرنسية ، ص ٧٧ (عن الديانات) - حيث يتطلب فناء الفرد فى مصلحة الجماعة اعدادا شافا للشخص منذ نعومة أظفاره ، مما يشبه الاعداد فى الجمعيات السرية ، كما يتطلب احتفالات سرية تستخدم فيها الأقنعة المزينة الخاصة بتلك الديانة ، ص ٨٠ والصحة المتعاقبة حيث صورة =



شكل رقم ٩ - قناع من غينيا الفرنسية - يجمع بين السمات الانسانية
ورأس التمساح وجسم الثعبان

والمهم انه رغم كل ما يقال عن العلاقة بين اللثام والديانات السودانية المشار اليها ، فان المتعارف عليه ابتداءً أن استخدام اللثام بالصحراء ، بل وفي كل مكان مفتوح كالريف والبحر والفضاء ايا كان ، أمر مطلوب لحماية الوجه وجهاز التنفس ، بل والعينين أيضا ، مما قد يتهدها من أذى الرياح المحملة بالرمال والأتربة ، والتي تسفوق عاصفة على طول الطريق - وخصوصا في مواسم انتفخات الجوية (٦٢) .

ومن المهم الإشارة هنا الى أن اللثام انصحراوى تنطور في مملكة جنيد التي خنفت تومبوكتو كالعاصمة التجارية ، وانتهى عرفت عند المغاربة باسم جنيوه ، وهو الاسم الذي أصبح عند تجار المغرب كناية عن بلاد السودان حيث جادت صناعة نسيج القطن فأصبح اللثام (في القرن ١٦ م) كبير الحجم ، أسود اللون أو أزرقه ، ويتغطون به حتى الرأس ، بينما تميز لثام العلماء والفقهاء باللون الأبيض (٦٣) .

وهكذا يصبح اللثام نوعا من عوامل الربط بين بربر الصحراء وقبائل

= قناع خاص بجماعات النالو والباجا من غينيا الفرنسية ، وتظهر فيه مسحة الوجه الانساني ، وشكل رأس التمساح مع جسم الأفعى (شكل ٩ ص ٨٢) . وقارن كولن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٢٣ - حيث تحفة فنية تمثل مقعدا من النحاس للأغراض السحرية ، قائمه حية ضخمة ملتفة ، وقاعدته مزينة بالضفادع والأقنعة البارزة ، بينما المقعد (ص ٧١) مزخرف برموز بارزة ، من الصليب البيزنطى الى القناع والسيف وبعض الأدوات الحرفية . وانظر أيضا ص ٨١ - حيث قناع من العاج يمثل رأس ملكة افريقية مزين بافريز كالمقرنص (كورنيش) من رؤوس البرتغاليين الأوائل الذين وصلوا الى افريقيا (من محفوظات المتحف البريطانى بلندن) . وقارن فيدج (Fage) ، مقدمة لتاريخ غرب افريقية (بالانجليزية) ، ص ٧ - حيث تتلخص عقائد الزنوج فى ان لكل جماعة رئيس كهنوتى ، وانهم يعتقدون فى اله أعلى هو خالق الكون وأعداد من الآلهة لهم علاقة بالاشياء الأرضية ، مثل : الصخور والأنهار والبحيرات وهم أقرب الى الانسان منهم الى الاله الخالق ، وهناك اعتقاد فى الحياة بعد الموت ، وهناك عالم الأرواح ، ومنها أرواح الموتى ولهم تأثير قوى على الناس والاشياء .

(٦٢) أنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٤١ وه ٦ - حيث النص على انه اذا ثارت الرياح أطارت رمل « سوف » الناعم كالذق ، فى الجو أعمدة قد تفشى القوافل فتدفعها (فكانها عواصف الثلج فى ممرات أطلس وجبال الريف على تخوم الصحراء . كما ينص لبون الافريقى ، الترجمة ، ص ٨٥) . ولذلك فانه فى زمن الرياح لا يستطيع الانسان السير فى « أرض سوف » من غير ستر عينيه بزجاج هو فى الحقيقة منظار يستخدمه أهل الصحراء - الامر الذى يعنى ان المناظر (النظارات) الزجاجية تعتبر نوعا من النقاب ، وان الأقمشة المعقمة التى يتخذها الأطباء على الأنف والفم أثناء الكشف على المرضى نوع من اللثام أيضا .

(٦٣) لبون الافريقى ، الترجمة ، ص ٥٣٧ .

السودان الشمالى الذين امتزجوا بهم بحكم الهجرة والجوار منذ القديم ، حتى أصبح الجميع ملثمين ، فكان السمة المميزة لدولة المرابطين هى انها دولة السمر أصلا ، أى أهل الوسط المهجنين بين الجنسين الأبيض والأسود ، وهى طبيعة الوطن فى اقليم الساحل ، حيث التماس بين الجنسين الذى ربط امتزاج الدم بينهما عرقيا ، كما ربط اللثام بينهما حضاريا وثقافيا .

وتظهر تلك التفرقة فى تقسيم الزنوج فى أفريقيا الى عرقين ، هما : السود فى غرب أفريقيا ، وهم « السودان » وحدهم ، نسبة الى مجموعة اللغات التى يتحدثونها ، وهى اللغات السودانية ، وهؤلاء يختلفون عن العرق الآخر الذى يمثله السود فى شرق ووسط وجنوب أفريقيا ، ولهم لغاتهم الخاصة بهم ، فهم البانتو (Bantu) أهل الغابات ، نسبة الى اللغة ، وهم الزنوج الحقيقيون(٦٤) .

وثمة سمة ثالثة زادت فى تميز ذلك المجتمع الصحراوى السودانى الملثم ، تتمثل فى مركز السيادة الذى تمتعت به المرأة ، فالأسرة فيه من النوع الأموى (الماترياركى matriarcale) . وفى الامبراطوريات السودانية كانت الوراثة لابن الأخت ، وفى دولة المرابطين كان الانتساب الى الأم اذا كانت من الأسرة المالكة ، كما يأتى .

(٦٤) أنظر فيدج ، مقدمة لتاريخ غرب أفريقيا ، ص ٤ - حيث كلمة بانتو تعنى الرجال (men) ، وص ٥ - حيث الهجرات والاختلاط بين السود والبعض خلال الـ ٢٠٠٠ سنة الماضية ، الأمر الذى يوضح ان دولة غانة كانت أكثر شمالا مما يظن وكذلك الأمر بالنسبة لجماعات الهوسا فى الغرب . وأنظر ص ٩ - حيث الإشارة الى ذوبان الغزاة من البربر فى المجتمع الزنجى الذى تعلم تقنياتهم وأقام الامبراطوريات .

الثروات الطبيعية

النبات :

الصحرا بطبيعة الحال ، قليلة الحيرات تبعا لقلّة الماء ، وبالتالي قلة النباتات التي عليها معاش الحيوان والانسان . ولما كانت صحراء الملثمين هي الصحراء بالامتياز أى قلبها المقفر ، كانت النباتات فيها من النوع الابرى أو الشوكى ، الذى يدافع عن وجوده ضد الحيوان من أجل البقاء ، ربما باستثناء الجمل، المهيا خلقيا للتعامل مع هذا اللون الصعب من الطعام(٦٥) .

النخلة :

واذا كان الجمل هو الرمز الأول للصحراء حسبما هو معروف ، فان النخلة هي اشعار الثانى للصحراء . والحقيقة أنه اذا كان الجمل معروفا يتحملة للعطش سمة الصحراء الأولى ، فان النخلة ليست كذلك ، اذ لا تصبر طويلا عن الماء مثل نباتات الصبار وهي لذلك لا توجد فى الصحراء الا فى الواحات حيث تتوفر المياه الجوفية ، كما فى أحساء الرمل والبطائح والسبخ والشطوط ، أو غير بعيد من موارد الماء على طول الأودية والأنهار أو حول العيون والآبار(٦٦) .

(٦٥) الى جانب النباتات الشوكية عرفت الصحراء النباتات التي تقاوم الحرارة والجفاف عن طريق الأوراق الصغيرة المضادة للننح ، والجذر الكبير للحفاظ على الرطوبة ، ومنها القصر العمر (مثل : *Baerhavia repens* على الحواف الجنوبية للصحراء ، والتي تزهر وتموت فى ٨ (ثمانية) أيام فقط . وهي عادة تستهلك كميات قليلة من الماء ، وتهىء بذورها للانتشار الواسع وساعدها فى ذلك حيوانات الرعى ، من الجمل والغزال والماعز حيث تساعد أشواك البذور على التعلق بأرجل الحيوانات وشعرها ووبرها والرحلة معها - أنظر والطنون الأرضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٤٧ - ١٥١ .

(٦٦) وفى غرس النخيل نشير دراسة أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر ،

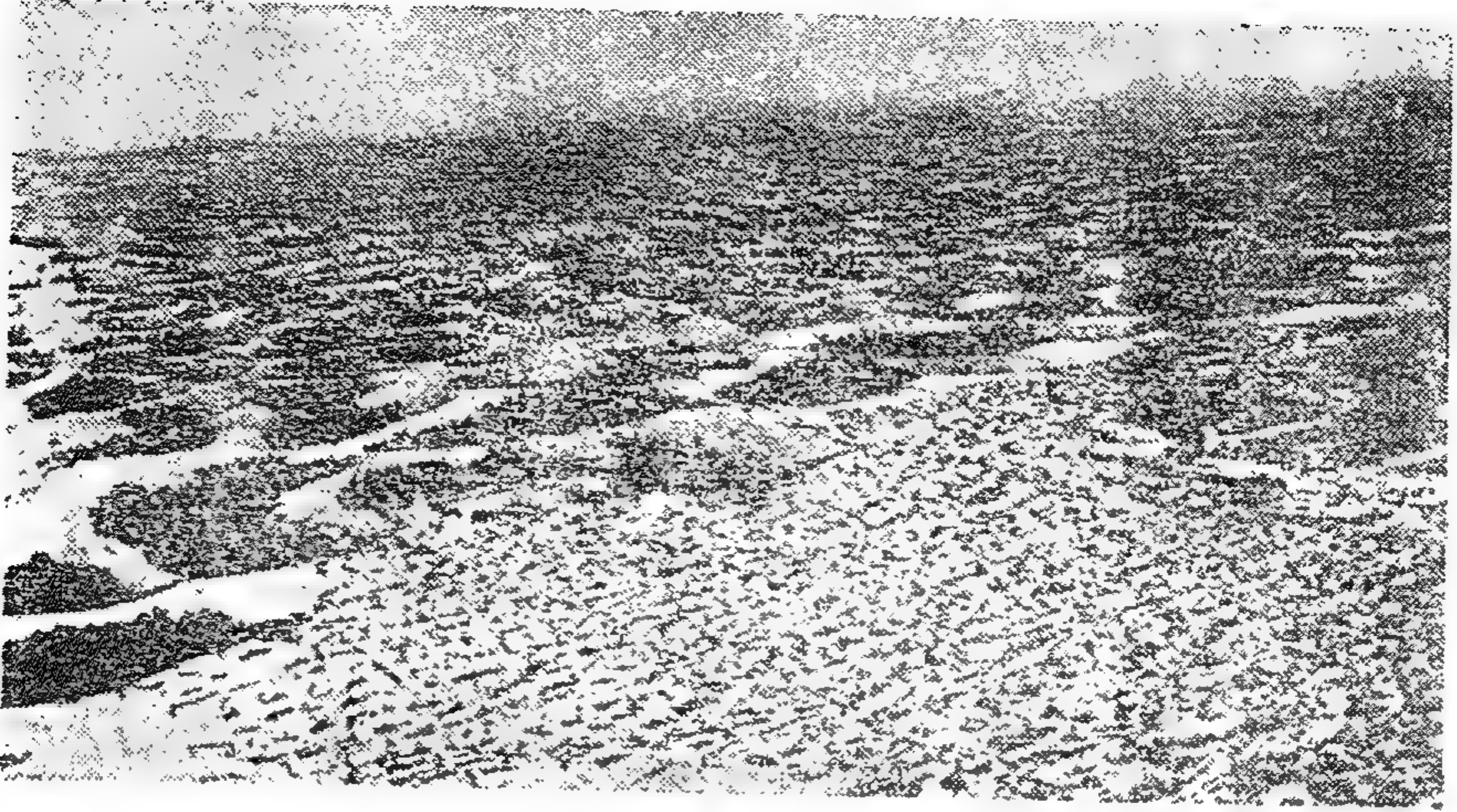
وهكذا تكون النخلة رمزا للصحراء شراكة مع عائلة الصبار والنباتات الشوكية الأخرى ، حيث أن أوراق سعفها الابرية وتحملها للحرارة الشديدة ، الى جانب ارتفاعها المستمر مع مرور الوقت ، تجعل منها شارة حقيقية في قلب الصحراء : تهدي الى مواضع الماء ، وتدل على الطريق . هذا ، الى جانب أهميتها الاقتصادية الكبيرة ، من حيث أن ثمرها مصدر الطعام الطبيعي في الصحراء والواحات . ولما تقدمه أيضا من خدمات عامة للإنسان والحيوان ، كالفىء عند لفح أشعة الشمس وحرارة الجو ، والطراوة عند اجفاف الجفاف ، الى جانب المنظر الجميل الذى أوحى للبنايين اقامة السوارى السامقة ، والأساكيب (المعمارية) الرائقة (٦٦ م) .

ولتوطن النخلة فى صحراء افريقيا الشمالية قصة اشبه ما تكون بقصة توطن الجمل فيها وان كانت أحدث منها ، كما تدل الشواهد . فالنخلة وافدة من المشرق ، بوابة عمران المغرب . ولا بأس أن تكون قد دخلت البلاد فى العصر الرومانى رغم افتقاد الأدلة على وجودها وقتئذ - على الأقل بالكثافة المعروفة الآن فى غابات النخيل . وهذا الأمر يدعو الى قبول فكرة أن غرس الواحات بالنخيل ، مثل سكنها بالجنس الأبيض ، وتطور أساليب الري فيها بتقنية متقدمة انما كانت تتم شيئا فشيئا فى العصور الوسيطة والحديثة ، منذ انتشار الجمل الذى جعل الوصول الى الصحراء أمرا ميسرا ، كما جعل استقلالها الاقتصادى شيئا ممكنا (٦٧) .

شمال مسينا ١٩٩١ ص ١٥٦ ، الى أنه يتم غرس الفسائل فى حفر يصل عمقها الى الماء السطحي ، أو الرمال المشبعة بالماء وان النخل يثمر عادة بعد ٦ (ست) سنوات بعد التسميد والتذكير . مع النص على ان النخلة نحتاج الى رعاية واکرام من صاحبها حتى تكرمه بالمحصول الوفير .

(٦٦م) عن الأسكوب (فى المقد) وهو العنصر المعمارى فى الجامع الذى يعادل البلاطة المعترضة ، عند أحمد فكرى (المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها) ، انظر للمؤلف ، العمارة والفنون فى دولة الاسلام ، ص ٢٩٤ وهـ ١ .

(٦٧) أنظر جوييه ، ماغى شمال افريقيا ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ - حيث النص على ان غابات



شكل رقم ١٠ - وادي سوف (الجزائر) - المدينة في المقدمة وغابات النخيل
بين كثبان الرمل

اقليم النخل :

والمنطقة المقابلة « للساحل » شمالا ، هي حزام النخل الذي يحد الصحراء ابتداء من السوس الأقصى غربا ، مما يتاخم مواطن قبائل جزوله ، ويمتد شرقا عبر سفوح درن (أطلس) الجنوبية وبلاد درعة وسجلماسة الى وارجلان والجريد حتى غدامس (جنوب طرابلس) ، وهي مناطق شبه صحراوية ، يتوفر فيها الماء والخصب . فايجلى عاصمة السوس ، على نهر

النخيل الجميلة في وادي ريغ - جنوب بسكرة (بالجزائر) لم يكن لها ذكر في النصوص الرومانية ، ولا يوجد له أثر في البقايا الرومانية (الاثرية) ، وانظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٦٤ - ٦٥ ، حيث التركيز على ما للنخلة - شجرة سوف بالامتياز في العصر العربي الاسلامي - من أدب خاص بها . فهي الشجرة المباركة التي خلقت من فضلة طينة آدم ، وهي تشبه الانسان من عدة وجوه ، من : الاستقامة ، وتمييز جنسها ، والاثمار بلباق الذكر ذى الرائحة الانسانية ، والهلاك اذا قطع رأسها أو أصيب جمارها (منخها) ، وعدم رجوع غصنها اذا قطع (كالعضو الآدمي) ، وكسوة الألياف (أشبه بشعر الجسد) ، ثم انها تمى عندما تهدد بالقطع اذا لم تثمر فتعود الى الاثمار . أما عن أسمائها فيعدد أكثر من ١٠٠ (مائة) نوع . والمهم بعد ذلك أن النخلة ليست شجرة صحراوية عنيدة ، فهي وان تحملت الحر الشديد لا تصبر كثيرا على العطش ، فهي لذلك شجرة الواحات التي تحتاج الى الرعاية ، مما سبقت الاشارة اليه .

ماست ، شهيرة بكثرة النخيل ورخص التمر (٦٨) . والمهم أن ايجلى على ٣
(ثلاث) مراحل فقط من مدينة نول لمطة ، من حيث يبدأ الدخول في
الصحراء (٦٩) .

وبلاد درعه التي يمكن أن تكون قد أخذت اسمها من قبائل ترغه (أو
الطوارق) التي سكنتها قديما (٧٠) ، اشتهرت بكثرة بساتين الفاكية
والنخيل (٧١) .

وتعتبر سبجلماسة (تافلات) القريبة من درعه من بلاد النخل هي
الأخرى الى جانب بساتين الفاكية ، وان تميزت على غيرها من الواحات
بزراعة القمح (٧٢) .

وفي الطريق الى المشرق كانت ورجلان النى امتدت في شكل ٧ (سبعة)
واحات أو حصون من بلاد النخل ، تمثل محطات رئيسية على طريق القوافل

(٦٨) البكري ، ص ١٦٢ (والاستبصار ، ص ٢١٢) - حيث وبرة قصب السكر أيضا ،
وسجر الهرجان الذي يستخرج منه زيت الطعام الشائع الاستعمال ، والمستخدم أيضا في علاج
الكلبي وادرار البول .

(٦٩) الاستبصار ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٧٠) عن برعة أنظر . ما سبق ص ١٤ وهـ - اما عن وادي درعه فهو عده فرى متصلة
على طول المهر الذي ينبع من جبال أطلس (درن) ويجرى بقلبها من الشرق الى الغرب .
وتسميه ملك العرب التي كانت يسكنها قبيلة سرطة أيام البكري (منتصف القرن الـ ٥ هـ /
١١ م) هي « يوميين » (البكري ص ١٥٥ - ١٥٦) .

(٧١) هذا كما اشتهرت درعه بالزيتون والأعشاب شبه الطبية التي سمو في ظل النخيل
كلحاء خاصة ، والكرابية أو الصناعة مثل النيلج (المستخدم في صباغة اللون الأزرق) -
أنشر الادريسي المغرب ، تحقيق صادق ، ١٩٨٣ ، ص ٧٧ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٦ -
٢٠٧ - حيث الانفراد بالمعلومات التي ربما سقطت من نسخة البكري ، والتي ننص بخاصة على
حوده الحناء التي عظم استاجها حتى كانت تؤخذ منها لدور الحناء الى سائر البلاد ، وقارن شعيرة ،
المرايطون ، ص ٢١ . هذا كما يوجد بدرعه شجر الساكوت الذي يستخدم ورقه في دباغة الجلد
الفداسي ، كما كان ورق شجر البامحلث يستخدم كصحاف الطعام ، لمطبخه وقبه ، كما كان
الحال في سبجلماسة - البكري ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢٠٧ .

(٧٢) البكري ، ص ١٤٨ ، والاستبصار ، ص ٢٠١ - حيث سبج المصح من النهر الذي
ينبع من إحدى العمون الارتوازية ، وكذلك الشعير . بينما يذهب الادريسي الى الحناء والكرابية
والكمون زراعة القطن (المغرب العربي ، تحقيق صادق ، ص ٧٦) .

الى واحات مصر (٧٣) . أما قسطنطينية (القلاع) وقاعدتها توزر الشهيرة بهندسة الرى الدقيقة ، فكانت مع بلاد الجريد القريبة ، بلاد التمر بالامتياز (٧٤) . وفى جنوب شرق الجريد عرفت غدامس بكثرة تمرها ، وشهرة جلودها - وهى آخر مواطن الطوارق فى ليبيا حاليا (٧٥) .

وهكذا امتدت بلاد النخل من تارودانت بالسوس غربا الى واحات مصر شرقا . والى جانب النخلة وفى ظلالها حيث تتوفر الرطوبة وجدت النباتات والأعشاب الطبية والعطرية ، من الحناء والحبق وأصناف الأشجار من الاهليلج وشجر الصمغ وغيرها مما كان يستخدم فى الغذاء والدواء وفى الصناعات من الصباغة والدباغة وغيرها (٧٦) .

نباتات الساحل :

أما عن منطقة الساحل (حزام أعشاب السافانا الجنوبية) ، شبيهة الصحراوية ، فتوجد بها الى جانب الأعشاب الأبرية ، شجيرات الدوم ، كما تنتشر فيها شجيرات الطلح (الأكاسيا : *Acacia*) ، والسكرام كرام (*Cram - cram*) الى نخلة الرونييه النمينه : (*Roniez Barassus*) (*Flabe llifer*) (٧٦) .

(٧٣) الاستبصار ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ١٠٠ - ١٠١ - حيث بلاد النخل تمثل اقليما طبيعيا فى شمال الصحراء يمتد من السوس الى مصر ، وأنظر ج ١ ص ٧٥ - ٧٧ . والشكل ٨ - عن غابات النخيل فى وادى سوف بالجزائر .
(٧٤) البكرى ، ص ٤٧ - ٤٨ ، والاستبصار ، ص ١٥٥ ، ١٥٠ .
(٧٥) البكرى ، ص ١٨٢ ، الاستبصار ، ص ١٤٥ - ١٤٦ - وعن طوارق غدامس الآن ، أنظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ، عرب الصحراء الكبرى ، ص ١٧ - حيث تمتد مواطنهم من غدامس الى تمنغست بالجزائر وتيمياوين على الحدود مع مالى ، الى تينبكتو بمالى وطاوه بالنيجر ، وابشة شرق تشاد .
(٧٦) البكرى ، ص ١٥٧ - حيث موضع اقترندى على طريق تامدلت - أودغست ، وهو بئر عطية فى حد بنى وارث ، من صنهاجة وأنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٢ وما بعدها ، حيث نباتات منطقة سوف ، مع النص فى ص ٥٣ - على ان شجر الصحراء الحطبى فقط ، هو : الأزال والأرضى والعلندة والبليال والباقل والمرخ ، مع الاهتمام بذكر اشجار الدواء ، من : الدعار (للسعال والبواسير) والطرفاء (وجع السنان) والأثل (شدة الشعر) .

(٧٧) مولارد ، ص ٤٦ - ٤٧ ، وأنظر دائرة معارف ليسيكون نينفيرسال ، افريقيا ، ج ١ ص ١٤١ - حيث الاشارة الى ان منطقة الأعشاب (سافانا) تمثل $\frac{1}{4}$ (ثلث) مساحة افريقيا بما بين الغابات والصحراوات ، وأنها تتدنى كلما اقتربت من الصحراء حيث بعض الشجيرات التى تتحدى الجفاف ، وبعض الحضرة المتباعدة التى تتحمل بعض الرعى .

وتعتبر مدينة أودغست أول مناطق هذا الحزام جنوب الصحراء ، حيث تتوفر الحياة الحضرية بتوفر الماء ، من : البساتين والنخيل ، بل وزراعة القمح عن طريق الحرث (بالفؤوس) والسقيا الصناعية بالدلاء ، فكأنها نظيرة سجلماسة ودرعه (شمال الصحراء) ، ويؤكد شهرتها في انتاج الحناء أيضا (٧٨) .

وبعد أودغست تكون النقلة الى البيئة السودانية الموسمية ، حيث يزرع القمح وكذلك الأرز الذي يسمى « الرشيد » ، وهو يحتاج الى الغمر في الماء ، الأمر الذي توفره مياه نهري السنغال والنيجر (٧٩) . أما الغابات الجنوبية فأكثرها شجر الأبنوس من اسود (غالبا) ومجزع ، والذي يكون منه الوقيد (٨٠) .

الحيران :

الجمل :

الجمل الذي دخل الى صحراوات المغرب في القرون الميلادية الأولى ، هو بحق سفينة الصحراء ، فبفضله أمكن التوغل في قلب بحار الرمل ، وارتداد أطرافها جنوبا حتى بلاد السودان حيث أصبحت الصحراء همزة الوصل ، وطريق المواصلات الذي يربط شمال افريقية بوسطها ، وشرقها بغربها بشبكة من الطرق أحدثت في المنطقة ثورة اجتماعية سياسية ، كما يقول جوتييه ، أشبه بما أحدثته خطوط السكك الحديدية ، وظهور السيارة ثم الطائرة (٨١) . ويرجع ذلك لضخامته وقدرته على حمل الأثقال ، وتحمله الجوع والعطش ، وتأقلمه مع البيئة بفضل الأخفاف المضادة للغوص في الرمال ، واعتياده على أكل شجيرات الصحراء الشوكية ، وشرب ماء العيون

(٧٨) البكري ، ص ١٥٨ - حيث النص على انه لا يأكل دقيق القمح الا الميسور ، اما العامة فاكلهم الذرة وغيرها ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ (حيث سقطت الحناء ، وعن درعه ص ٢٠٦ - ٢٠٧) .

(٧٩) مولار ، ص ٣٠ .

(٨٠) البكري ، ص ٧٣ ، وانظر دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ - حيث النص على ان الغابات الاستوائية تنتج حاليا نخلة الحمر الثمينة ، ونخلة الزيت ، والأبنوس وخشب الماهوجني .

(٨١) انظر ماضى شمال افريقية لجوتييه ، ص ٢٠٩ ، وقارن شعيرة ، المرابطون ، المقدمة

• المناقشة (٨٢) •

والجمل الكريم يسمى نجيب (والجمع نجب) ، وهو سريع العدو يسابق الخيل ، فراكبه فارس محارب مثل راكب الفرس وأشد (٨٣) •

والخيل التي دخلت المغرب عن طريق المشرق عبر مصر ، ربما منذ عصر الهكسوس أو الفرس (٨٤) ، لا توجد في الصحراء الا في الواحات حيث الماء

(٨٢) ما سبق ، ص ٦٢ ، وانظر والتون ، الاراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٦٢ - ١٦٨
- حيث الاشارة الى ان الجمل هو الحيوان الاساسى من بيئة آكلات العشب في البيئة الصحراوية والجمل الآسيوى ذو السنامين أشد من الأفريقى ذو السنام الواحد ، وأقدر على تحمل الجوع والعطش والحر والبرد ، وعن خصائصه الفسيولوجية ، فالخف الكبير يساعد على توزيع الوزن فوق مساحة كبيرة من الرمل ، وسمكه يحصن ضد الاشعاع الحرارى من السطح الصخرى الحار .
أما عن تحمله للحرارة والبرودة فلأنه لا يعرق قبل درجة حرارة ٤١° ، بينما يبرد جسمه ليلا الى درجة حرارة ٣٤° ، وهو يعوض ما يفقده من الماء مما هو مخزون في سنامه ، وذلك عن طريق أكسدة الشحم فيه . والحقيقة انه ليس للجمل خزان مياه في جسده ، وأقصى ما يجده المرتحل عند ذبح بعيره وقت الظلما ، هو المصارة الهضمية المضراء في تلافيف معدته .
وعن دورة حياة الجمل ، أنظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية في مصر وشمال سيناء ، ص ٨٠ - ٨١ ، حيث الاشارة الى الثقافة الكبيرة عن دورة حياة الجمل حيث المولود (حوار) والمقطوم (لبنى) ، والطلق (مفروط) ، والمنظم الاستخدام (مربوط) ، وذلك قبل مرحلة التطبيع . والجمل « صايم » عندما يطلب الأنثى في الشتاء ، والحمل ١٢ شهرا ، وفترة الرضاعة فرصة طيبة لأصحاب الناقة لأخذ شيء من لبنها •

(٨٣) وانظر جوتيه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٢٠٩ - حيث قراء شارحا لنظريات ابن خلدون ، اذ يقول ان الجمل لا ينفصل عن الرجل الذى يستخدمه ، وهو البدوى الكبير ، راعى الابل الذى يتجمع فى قبائل مخيفة ، كل واحدة منها اشبه بكتيبة مقاتلة منذ مولدها ، فهى سريعة الاتصال ، ويمكن أن تظهر ككارثة طبيعية ، غير متوقعة ... وهو بسبب الفقر وافتقار الشعب والمتع والنقود يصبح وحشا آدميا ، ينزع الى النهب والسيطرة . وقارن اسماعيل العربى ، الذى يأخذ بمتولة دخول الجمل الى صحراء المغرب عن طريق مصر ، منذ عصر الهكسوس ، وعلى طول عدة قرون ، فكان الهكسوس الخيالة جلبوا معهم الجمل أيضا من آسيا - بصرف النظر عما هو معروف من أن الجمل الآسيوى ذو سنامين - وهو يشير أيضا الى ان حيوان الاثقال فى الصحراء المغربية ، قبل الجمل كان الثور ذا القتب (السنامة) . وقارن أوليفر ، وفيج ، مقدمة تاريخ افريقية الغربية ، الترجمة ، ص ٦٧ ، - حيث النص على أنه قبل مجيء الجمل الى شمال افريقيا كان هناك نوع من العربات التى تجر الواحدة منها ٤ (أربعة) خيول تجوب الصحراء فى طريقين ، من فزان وجنوب مراکش الى ثنية النبحر العظيم ، حيث كان يوجد الذهب - وهو الأمر المستغرب - وان ذلك بناء على الرسوم الموجودة على الصخور الأثرية فى الصحراء •

(٨٤) أنظر جوتيه ، ماضى ، شمال افريقية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ (عن الحصان المغربى) •

والعلف ، من الشعير أو من ردىء التمر - بينما يكون النوى أحيانا غذاء الماعز^(٨٥) .

حيوانات البرية :

أما عن حيوانات البرية فمنها اللمط (اللمت) وهو نوع من الأيائل الشبيهة بالبقر الوحشى ، مثل الرنة^(٨٦) ، والذي كان يصنع من جلده دروع الدرق اللمطية ، آلة الحرب الشهيرة لحقتها ومتانتها ، ليس بين انصحراويين فقط ، بل وفي كل بلاد المغرب ، وكذلك بالأندلس^(٨٧) .

ومع اللمط عاشت فى الصحراء أنواع من الكباش التى تسمى (الدمانية) وهى شبيهة بتلك الأيائل أيضا ، وان كانت أكبر حجما ، وشعرها مسترسل كشعر الماعز^(٨٨) . ووجد بنفس الصحراء الثعلب وخاصة النوع الأبيض الصغير الحجم ، كبير الأذنين ، المعروف بالغنك والمطلوب لفرائه الجميل ، الثمين^(٨٩) ، كما « الفيزون » (القندس) فى أيامنا هذه .

(٨٥) انظر ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٩٢ - عن درعه حيث التمر علف الحيل والنوى المجروش غذاء الماعز .

(٨٦) انظر فيما سبق ، ص ٧٠ - حيث اعتبار اللمط الجذ الأسطورى الذى تسمى به بعض القبائل الصحراوية ، من لمتة (لمطة) أو لمتونة ، وانظر ليون الافريقى ، ص ٤٨٩ وهـ ٤ ، هـ ٦ - حيث اللمت نوع من الوعل (Addas أو Oryx) ، وحيث النص على ان كلمة « ودان » فى ليبيا (غير ودان موريتانيا) تعنى نوعا من المها البرى بحجم العجل ، وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٦٧ - حيث تقرير ان البقر الوحشى (اليعفور بالعربية والكوزن بالفارسية) كان بصحراء سوف الجنوبية الى عهد قريب ، وانظر ص ٦٨ - حيث النص على ان الغزال يأكل الحنظل والحديج فيستحليه ، ويشرب ماء البحر الملح فيستعذبه .

(٨٧) انظر البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ . وانظر شكل ١١ - النموذج الأخير للتمط فى الجزائر .

(٨٨) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ . وانظر دائرة معارف لكسيكون، يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ - حيث تحوى اراضى العشب الافريقية حاليا معظم ما بقى فى العالم من قطعان الحيوانات البرية من : الأيائل والزراف والحمار الوحشى فى شرق افريقيا والحيوانات الوحشية التى ترعى عليها .

(٨٩) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر جوثيه ، ماضى شمال افريقيا ، ص ١٩١ - ١٩٢ حيث الاشارة الى ان هيرودوت الذى ذكر مثل هذه الحيوانات وبضمنها الحيل لا يذكر الجمل الذى سيكون دخوله المغرب فى القرون الميلادية الاولى .



شكل رقم ١١ - النامط (الوعل) - النموذج الأخير في صحراء الجزائر -
منطقة الراوى غرب سواره (حيث تم القضاء عليه تماما)

وغير ذلك لا تعرف الصحراء الا بعض الزواحف ، من الحيات والأفاعي غير السامة ، من صغيرة وضخمة ، ومن ذات القرون . كما عرف الجرذون الذى يعرف فى اللغة البربرية باسم « اقزيم » ، وكان يؤكل فى سجلماسة^(٩٠) ، هذا ، وكان الجراد الذى كانت تحمله رياح الحرمتان من اقليم الساحل بشرق أفريقيا ، رغم هجماته انخريرية^(٩٠ م) طعاما محببا لأهل الصحراء فى السوس ، حيث يأكلونه بكثرة مقلوا ومملوحا^(٩١) . وأغلب الظن أنهم كانوا ينتظرونه ، كما كانت تنتظر طيور السمان المهاجرة فى تنيس ودمياط بشمال الدلتا^(٩٢) .

وفى منطقة صحراء جدالة على شاطئ الأطلس ، ما بين السوس والسنغال ، عرف صيد البحر . وهناك ذكر للسلاحف البحرية الضخمة التى تكثر فى منطقة جزيرة أيونى ، قرب الساحل ، حيث كان معاش أهلها على لحومها^(٩٣) .

(٩٠) الادريسي ، المغرب العربى ، تحقيق صادق ، ص ٧٧ - وهنا لا بأس من الإشارة إلى أنه جرت العادة على أكل الكلاب فى بعض الواحات ، حتى كان يعنى بتسميتها فى سجلماسة وبلاد الجريد ، فى قصص وقصصيلية .

(٩٠ م) وانظر مولار ، ص ٥٠ ، ووالتون الأراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٥٥ - حيث الجراد أعظم خطر يهدد البيئة لأنه مستهلك للنباتات الخضراء ، وص ٣٥٦ - حيث تركيب الجراد الفسيولوجى غير ملائم لظروف الجفاف نظرا لحاجته الى قدر من الرطوبة لدورة حيرته القصيرة ، ولكن الذى يساعده على البقاء هو قدرته على الترحال .

(٩١) الادريسي ، ص ٧٨ ، وانظر شعيرة ، المرباطون ، ص ١٨ .

(٩٢) الاستبصار ، ص ٨٨ - حيث كانت تنصب الشباك لصيدها ، كما هو الحال فى الصحراء غرب الاسكندرية الآن ، وكما كان ينتظر موسم الجراد فى بعض المواضع بالخليج (العربى) الى عهد قريب .

(٩٣) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ - ولما كان النص يهمل طريقة صيدها مكتفيا بالإشارة الى أن درقتها الكبيرة قد يستخدمها صياد السمك كزورق ، فربما كان اصطيد السلاحف البحرية بكثرة ، موسميا عند خروجها الى البر فى موعد وضع البيض^(٩٤) . وهنا لا بأس من الإشارة الى أن لحم « الترسمة » وهى السلحفاة البحرية فى الاسكندرية ، كان يباع كلحم البتر (عبد اللطيف البغدادي ، وكتاب الافادة والاعتبار ، ص ٨٤) . وانظر عن السلاحف البرية التى تبالغ الروايات فى ضخامتها على طريق ترقى بالسودان ، والتى ينبغى التفرقة بينها وبين سلاحف جزيرة أيونى البحرية ، وان كانت رواية الاستبصار تشير إلى أنها كانت تؤكل أيضا - البكرى ، ص ١٨٠ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٢ - حيث الإشارة إلى أكلها وهو ما لا يذكره البكرى ، ولا تعرف ان كان الخطأ قد وقع استنادا الى أكل لحرم السلاحف البحرية فى أيونى وساحلها أم لا^(٩٥) .

تدييات اقليم الساحل :

واقليم الساحل العشبي (السافانا) هو اقليم الحيوانات الشديدة بالامتياز ، ومنه يمكن أن يتسرب بعضها شمالا الى الصحراء أو جنوبا الى السودان ، بل وحتى الغابة الاستوائية . ومن تلك التدييات : السنور والذئب ، وافهد والفظط الوحشية ، والأسود والنمور ، الى الفأر والخنزير الوحشي وأنوعل ، والقردة والفيل (الافريقى) ، وفرس النهر ، والبقر .

ونموذج البقر هو الثور الذى يوجد منه فى المنطقة ٣ (ثلاثة) أنماط ، أولها : الثور ذو القتب ، من حيث انه تعود على الجفاف وأصبح سـاحلى الموطن ، بل وأمكنه الاستقرار خارج النطاق العشبي (المستقر) وذلك فى جنوب الصحراء (٩٤) .

وهكذا يمكن أن نفهم كيف كانت الماشية من الغنم والبقر كثيرة فى أودغست ، رخيصة الثمن كما كانت أيائل اللط كثيرة بالمنطقة (٩٥) .

والنوع الثانى من البقر ، هو الثور الحامى ذو القرنين الكبيرين ، وهو أصلا من وادى النيل من سلالة الأوروك (Aufocks) الذى اندفع جنوبا الى السودان وأعلى النيل وغربا الى شمال أفريقية حتى مراکش - انه العجل أبيس (apis) الذى انقرضت سلالته من أوروبا بعد أن كان يعيش هناك فى العصور الوسطى .

أما النوع الثالث فهو الذى يعرف بـ « الأزواق » كما يعرف أيضا بـ « العربى » فى شرق جوره وفى النيجر ، وهو أصغر حجما من ذى القتب ، ويعطى اللبن ، ويستخدمه الطوارق بالصحراء والهوسا بالسودان فى

(٩٤) مولار ، ص ٥٣ . هذا ، ولا بأس من الإشارة الى ان هذه القائمة من الحيوانات ، من متوحشة ومستأنسة توجد فى تقارير القدماء من القرطاجنيين (هنونون) الى اليونان (هيرودوت) والرومان (أميان مارسلان) ، وأنظر جوتيه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٤٨ - ٤٩ (عن التماسيح وفرس النهر) ، وص ١٩١ - ١٩٢ - حيث التماسيح البرية (الورل : Lezards) ، والفنك واللمط والبقر والحيل ، ص ١٩٤ - حيث أول ذكر للجمل عند بليني (Pline) ، وص ١٩٤ - ١٩٥ - حيث انتشار الجمل فى طرابلس ، الذى استعمله الرومان فى حمل المؤن حسب رواية مارسلان .

(٩٥) البكري ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ .

الركوب (٩٦) ، كما كان يستخدم في السودان الشرقي في القتال أيضا كالحيل والجمال (٩٧) .

وفي عالم الطير لا يلفت نظر البكرى الا نوع من الحمام واليمام صغير الرأس ، غليظ المناقير قرب أودغست (ص ١٥٧) . أما عن النعام ، أكبر الطيور وأسرع الدواب ، والذي كان يصاد في الصحراء ، بل ويربى في الواحات في القرن الـ ١٠هـ / ١٦ م حسبما ينص الحسن الوزان (٩٨) ، فلا ذكر عند البكرى لشيء من ذلك ، ولا يأتي اسمه الا عابرا . والمعروف حاليا أن بأفريقيا حوالي ٢٣٠٠ نوع من الطيور (٩٨ م) .

أما عن السودان فعالم مختلف تماما ، حيث الخيول القصيرة جدا في غانة (٩٩) ، الى جانب فرس النهر الذي يشبه الفيل في ضخامته وأنيابه ، وفي خروجه من النهر للرعى ثم العودة الى الماء . وكان يتم اصطياده بالمزاريق والحبال لآكل لحمه واستخدام جلده في عمل السياط المبرومة ، المعروفة بذب الفأر ، والتي كانت مطلوبة في جميع البلدان (٩٩ م) .

واشتهرت بلاد السودان بالأفاعى الضخمة ذات الجلود المبرقشة ، التي كانت تتخذ منها بعض الملابس ، كما كان بعضها موضع التبجيل ، بل والتقديس ، مثل الكبش حسب عقيدة الطوطمية ، كما قد يظن ، وان رأى البعض أن الكبش رمز لعبادة آمون (١٠٠) .

ومن الطيور عرف في السودان ذلك الطائر الذي يشبه الحطاف ، والذي كان يطير في مدينة بوغرات وهو يصوت بـ : « قتل الحسين ، قتل



(٩٦) مولار ، ص ٥٣ .

(٩٧) أنظر المسعودي ، ج ٤ ، ص ٤ - ٥ .

(٩٨) ليون الأفريقي ، الترجمة ، ص ٤٨٩ وهـ ٤ - حيث صيد اللبث والنعام بالاشراك في موريتانيا ، وص ٤٩٢ حيث تربية طيور النعام في درعه ، ووصف لحمه بأنه قاس له رائحة منفرة لا سيما الفخذ اللزج .

(٩٨ م) دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال ، افريقيا (Africa) ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(٩٩) البكرى ، ص ١٧٧ .

(٩٩ م) البكرى ، ص ١٧٣ .

(١٠٠) البكرى ، ص ١٧٣ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٨ ، (عن تبجيل الحية بالسودان) ، وعن عبادة الكبش . أنظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٩٥ - حيث النص على أن عبادة الكبش التي عرفت قديما في توات تعني عبادة صنم له رأس كبش يمثل الإله المصري آمون .

الحسين ، عدة مرات ثم يقول « بكر بلاء » مرة واحدة ، الأمر الذى قد يعنى وجود جالية عربية شيعية لاجئة فى ذلك الموضع (١٠١) .

الثروة المعدنية :

وأول معادن الصحراء الشهيرة فى القرون الوسطى ، هو الملح الصخرى الذى كان يستخرج من المناجم ، كما تستخرج سائر المعادن ، فى كتل شبيهة بالحجارة . وأشهر مناجم الملح اثنان : أحدهما فى قلب الصحراء فى تانتال ، بأول ايجابة (المفازة) فى أول الطريق الى سجلماسة ، على بعد ٢٠ (عشرين) مرحلة (٨٠٠ كم) منها . والمنجم الثانى الذى يقع على شاطئ الأطلس فى موضع أوليل من بلاد جدالة ، غير بعيد عن جزيرة أبونى (جزيرة السلاحف البحرية) (١٠٢) .

وكان معدن الحديد فى جبل أزور ، على طريق تامدلت - أودغست (١٠٣) وربما كان أيضا فى جبل الحديد المعروف بـ « أدرار » ان وزال (١٠٤) .

أما النحاس فمنجمه غير بعيد من ايجلى التى كان يسبك فيها على سفوح جبال أطلس (درن) (١٠٥) ، وكانت الفضة فى أرض تامدلت ، حيث اشتهر منجمها بوفرة الانتاج (١٠٦) .

هذا ، كما وجدت فى جبل هزرجه ، فى أول طريق أغمات - أودغست ، أنواع من الياقوت الجيد ، الحسن اللون ، الشديد الصلابة حتى يكمل حجر السنادج عن ثقبه (١٠٧) . وفى طريق تادمكه - غدامس كان يوجد حجارة

(١٠١) البكرى ، ص ١٨١ ، وانظر أيضا ص ١٨٣ - حيث النص على ان اهل مملكة لولوا سموا بهذا الاسم لأن ذلك ما يفهم من نعمة طبلهم .

(١٠٢) البكرى ، ص ٧١ - ٧٢ - حيث الاشارة الى أن المسافة من نول لمطة على ساحل السوس الجنوبى الى أوليل تقدر بـ ٦٠ (ستين) يوما (٢٤٠٠ كم) ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر فيدج (Fage) مقدمة لتاريخ غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٩ - حيث الاشارة الى موجودات الملح الصخرى فى الصحراء ، فى مواضع تغازى (Taghaza) وناودينى (Taodeni) ، وتاوتك (Taotk) - وذلك بعد العصر المرابطى .

(١٠٣) البكرى ، ص ١٥٦ - حيث يوجد فى شكل قضبان لا تذيبها النار .

(١٠٤) البكرى ، ص ١٦٤ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث النص على « جبل الحديد » ، وان لم يحدد ان كان به حديد أم لا .

(١٠٥) البكرى ، ص ١٦٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(١٠٦) البكرى ، ص ١٦٣ .

(١٠٧) البكرى ، ص ١٥٣ ، وانظر جودة حسنين وحسن ابو العينين ، سطح هذا =

شبيهة بالعقيق تسمى « تاس النسمة » ، ربما كان في الحجر الواحد عدة ألوان ، من : الحمرة والصفرة والبياض . وهي الى جانب جمالها تتميز بالصلابة الشديدة لا تتأثر بالحديد ، اذ لا تجلى ولا تثقب الا بحجر « تنتواس » (١٠٨) . وفي هذه الصحراء يوجد الشب الأبيض الطيب ، اذى يصدر الى كثير من البلاد (١٠٩) .

والى تلك الحيرات الطبيعية يضاف عنبر جزيرة أيوني ، على ساحل المحيط فى بلاد جداله (١١٠) ، كما وجدت بوادى درعه حجارة التامضفيت (الاسبيستوس) التى تفزل خيوطا كالكتان ، وتصنع منها الأمرسنة والقيود للدواب ، مثلما تنسج منها الثياب والمناديل التى لا تؤثر فيها النار (١١١) .

هذا عن معادن الصحراء ، أما السودان فعالم وحده ، فهو بلاد الذهب بالامتياز حيث التبر جزافا فى تناول الجميع بلا حساب ، بينما الحديد وأنواع من الصدف والحرز هى حلى النساء التى ترتفع أثمانها الى ما يوازي وزنها من الذهب ، ومثل هذا يقال عن الملح الذى كان عزيزا الى حد التعامل بقطعه أحيانا ، بدل النفود .

أما عن نسيج الاسبيستوس المتخذ من حجارة وادى درعه ، والذي

= الكوكب ، ص ٩٩ - حيث مقياس صلابة الصخور الذى يتدرج الى ١٠ (عشر) درجات اولها : ١ وهى صلابة التلك (Talk) ، وآخرها ١٠ (عشرة) وهى صلابة الماس . (١٠٨) البكرى ، ص ١٨٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٥ - حيث اسم الحجر « تنتواس » وانظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ص ٨٤ - عن الألوان حيث النصر على أن ألوان الصخور تتوقف على التركيب الكيماوى الأسمى ، وعلى نظام الأيونات والذرات فى البلورة .

(١٠٩) البكرى ، ص ١٨٣ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٥ .

(١١٠) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ .

(١١١) البكرى ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٧ - ولا بأس من الإشارة الى أن مثل هذا النسيج المضاد للحريق كان يستخدم فى صنع بقايا مقدسة تنسب للسيد المسيح ويتقرب بها الى بعض ملوك القسطنطينية أو غاليسية (الخلاقة) بالاندلس - حيث الضريح المبجل لسان جان دى كويمبستل . وعن معدن الاسبيستوس . انظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ص ١٢٢ - ١٢٣ - حيث يصنف معدن الاسبيستوس الصخرى ، ضمن أنواع صخور السيلكات التى تمثل ١/٢ المعادن فى الطبيعة (ص ١١٦) ، وهى من النوع المعروف باسم (الثعبانية) (Serpentine) من حيث تأخذ شكل كتل حبيبية أو صفائحية فى هيئة ليفية ، والنوع الأخضر منه هو المسمى اسبيستوس (Asbestos)

«لا تؤثر فيه النار» فكان يديله في السودان يستخلص من نبتة في بلاد
«الدمدم» توصف بأنها شجرة ذات ساق طويل تسمى تويريرى ، لها ثمرة
كبيرة منتفخة ، داخلها صوف أبيض يغزل وتصنع منه الثياب والأكسية
«التي لا تؤثر فيها النار» فكانه قطن معدنى - وهى من العجائب (١١٢) .

من هذا العرض لثروات الصحراء الافريقية الكبرى من بشرية
وطبيعية ، تصح مقولة شعيرة (محمد عبد الهادى) التى يرددها بقوة
عن جوتييه (Gautier) الذى كان يستوحى ابن خلدون (فى العمران) ،
والتي تتلخص فى أن الصحراء الافريقية فى العصور العربية الاسلامية
الوسطى كانت تنبض بالحياة والثراء ، على غير ما عليه الصحراء البائسة
التي نعرفها اليوم .

فقوافل الجمال العظمى التى كانت تجوب الصحراء واردة وصادرة من
أقصاها الى أقصاها ، كانت تقوم بنفس الدور الحضارى الذى قامت به
«السكك الحديدية الحديثة» والتى تقوم به خطوط الطيران الحالية بين أطراف
«العالم لتضخ فيها الحركة والحياة» . كذلك كان الامر بالنسبة لقوافل الجمال :
«سفن الصحراء المهددة - شىء من المبالغة - لسفن الفضاء» .

(١١٢) الاستبصار ، ص ٢٢٥ ، وأنظر دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال ، ١٩٧٥ ،
ج ١ ، افريقيا : (Africa) ، ص ١٤٢ - حيث تعتبر افريقيا الجنوبية الشهيرة بمعادنها من الماس
والذهب ، ثانى أكبر منتج لالاسبيستوس فى العالم .

الفصل الثانى

قبائل الجمالة الملتهمين بالصحراء الكبرى
قبيل قيام دولة المرابطين

النظم السياسية والحياة الاجتماعية :

تقديم :

المعروف أن أقاليم شمال أفريقيا العامرة كانت تقطنها مجتمعات البربر - الآسيوية الأصل - منذ العصور القديمة ، بينما كان يسكن الصحراء جماعات السود ، الأفريقيون حميفة ، الذين عرفوا عند قدامى الكتاب من اليونان والرومان باسم الأثيوبيين أى الأحباش ذوى البشرة السوداء ، وانذين كانوا يقعون تحت ضغط اهل الشمال البيض (١) .

والحقيقة أنه منذ بدأت هجرات شعوب البحر المتوسط ، من فينيقيين (قرن ٨ ق م) ، ويونان (قرن ٥ ق م) ، ورومان (قرن ٣ - ١ ق م) ثم واندال (قرن ٥ - ٦ م) وبيزنطيين قبل العرب ، سواء للاستيطان أو التجارة أو الغزو فى شمال أفريقيا ، ازدادت حركة زحزحة السودان من الشمال الى الجنوب ، فحل البربر المغاربة مكان السود الأفارقة فى الصحراء بشكل مضطرد ، تبعا لضغط المستعمرين الجدد فى الشمال أو من دخل فى خدمهم من البربر الذين كانوا يطلبون العبيد السود ، عماد الطبقة العاملة

(١) هاينز (Haynes) طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ١٥ - حيث ينص هيرودوت على ان الجرمنثيين فى فزان كانوا يستخدمون عربات تجرها الخيل فى صيد الأثيوبيين من التبو (Tibbou) - اهل تيبستى . وأنظر ماكيفيدى ، اطلس التاريخ الافريقى ترجمة السويفى ، ١٩٨٧ ، ص ٣٥ - حيث الاشارة الى وجود ٥ (خمسة) أجناس متميزة فى افريقيا ، منها ٤ (أربعة) لا مثيل لها فى القارات الأخرى ، وهم :

الزنوج ، والشعوب النيلية الصحراوية ، والأقزام ، ثم البوشمن : وأنظر فيدج ، تاريخ غرب افريقية بالانجليزية ، ص ١٤ - حيث الاشارة الى رأى ديلافوس الذى يقول أن الهجرة البربرية الى بلاد السودان بدأت بعد ثورات اليهود ضد الامبراطورية الرومانية فى برقة (Cyrenaica) فى القرنين ١ ، ٢ م ، وفى الجنوب والغرب كان الاستقرار بين جماعات السونينك (Soninké) بين موقع تيمبوكتو ومسينا .

في تلك المصور (٢) .

ولكن حلول البربر البيض مكان الأحباش السود ومزاحمتهم لهم في الصحراء ، ظل محدودا في نطاق الشمال حيث حزام الواحات (في بلاد النخل) ، عند أقدام جبال أطلس الصحراوية بشكل عام . وهكذا كانت قبائل الصحراء متناثرة في جماعات صغيرة ، تبعا لتناثر الواحات وموارد الماء ، وصعوبة وسائل الاتصال التي كانت تعتمد على العربات التي تجرها الثيران (٣) .

والمهم أن وسائل المواصلات في الصحراء ظلت محدودة المدى ، وباهظة التكاليف إلى ما بعد دخول الحصان الوافد من المشرق في الألف الأول ق م تقريبا ، والذي لا يستطيع العيش إلا في الواحات حيث العلف والماء (٤) . أما عن دخول الجمل إلى بلاد المغرب والصحراء اعتبارا من أوائل التقويم المسيحي ، فقد كان بمثابة انقلاب ، ليس في وسائل المواصلات بالصحراء فقط ، بل وفي تكوين جماعات عرقية كبيرة العدد ، أشبه باتحادات قبلية ضخمة من أصحاب الجمال الذين استطاعوا إخضاع غيرهم من ضعفاء الفلاحين ، ورعاة الشاة والماعز ، وإقامة الامبراطوريات الكبرى ، اعتمادا على قطعان جمالهم التي صارت وقتئذ بمثابة فرق العربات المدرعة والسريعة

(٢) أنظر ، هاينز ، طرابلس في المصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ٢٥ - ٢٦ (عن الفينيقيين واليونان) ، ص ٣١ - ٣٤ (عن روما وقرطاجنة) ، ص ٣٦ (عن الحدود الرومانية) ، ص ٦١ - ٦٣ (عن الوندال والبيزنطيين والانتصار على الليبيين ، وإقرار الأمور حتى الفتح العربي) ، وقارن ماكيفيدى أطلس التاريخ الأفريقي ، الترجمة ، ص ٥٥ ، وقارن ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٠ - حيث النص على أن صنهاجة الصحراء (في منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م) في كثير منهم ألوان حسنة ومحاسن فائقة حتى يأخذوا في جهة الجنوب فتستحيل ألوانهم وأبشارهم (إلى السواد) ، وأنظر ص ١٠١ - حيث الإشارة إلى ما يقال من أن بني تانماك ، ملوك تادمكة (شرق أودغست) والقبائل المنسوبة إليهم ، أصلهم سودان أبيضت أبشارهم - كناية عن تأثير البيئة في لون البشرة .

(٣) أنظر فيما سبق ، ص ٩١ هـ ٨٣ ، والهامش على ص ١٦ وشكل ١ عن هاينز - حيث العربات التي تجرها الخيل .

(٤) أنظر فيما سبق ، ص ٩١ هـ ٨٤ ، هاينز ، طرابلس في المصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ١٥ - حيث الإشارة إلى صور عربات الخيل المرسومة على الصحراء قديما ، مع المقارنة مع تقرير الكابتن ليون - رحالة القرن الـ ١٩ - الذي يشير إلى متاعب الخيل في الصحراء حيث كان كل حصان في حاجة إلى جمل ليحمل له الماء فقط ، دون العلف من الشعير والتمر .

الجرقة ، حديثا ، فحققت لهم تفوقا ساحقا على غيرهم من أهل الواحات وصغار البدو .

وهكذا كان الجمالة من صنهاجة قد حققوا النصر على السودان في الصحراء ، ووصلوا في القرن الرابع الميلادي جنوبا حتى ثنية النيجر ، وغربا حتى نهر السنغال حيث أقاموا مدينة غانة التي ستتحوّل الى مركز مزدهر لتجارة السودان ، وذلك غير بعيد من الموضع الذي ستحل فيه كل من جنه (Jenne) وتيمبوكتو ، فيما بعد(٥) .

أما عن أول ظهور لهؤلاء المحاربين من بربر البدو الجمالة في شمال أفريقيا ، فكان أثناء الصراع ضد البرابرة (الآخر) من الوندال . فلقد تحصن المغاربة (الموريتانيون) داخل دائرة من الجبال مكونة من ١٢ (اثني عشرة) صفا من الابل ، في وسطها النساء والأطفال والأموال ، بينما وقف المقاتلة منهم بين أرجل الجبال العالية ، وانتهت المعركة بخسارة الوندال الذين فزعت خيولهم خوفا من الجبال الغريبة المظهر . ومثل هذا حدث فيما بعد عندما التقى المغاربة مع جيوش بيزنطة بقيادة سولومون . فلقد فزعت خيول الروم ، وشبت على قوائمها ليقع الفرسان من على ظهورها ، وللا ينقذهم من الهزيمة الا ما لجأ اليه القائد البيزنطي من الأمر بنزول الفرسان عن ظهور الخيل لكي يحاربوا رجالة ، حيث نجحوا في اختراق صفوف الجبال . وعن هذا الطريق تحقق لهم النصر على الموريتانيين(٦) .

وهكذا كان دخول الجمل الى صحراوات المغرب بمثابة ثورة اقتصادية واجتماعية وفي النهاية سياسية . فلقد قصر الجمل المسافات ما بين الواحات في أطراف الصحراء وأدى الى سهولة التبادل التجاري ما بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، كما أدت سهولة المواصلات الى نشأة قبائل بدوية كبيرة ، مثل : البتر والبرانس وصنهاجة وزناتة وهي في الحقيقة اتحادات قبلية تنتشر في كل البلاد ، وتصل الى مستوى الشعوب ، كما يقول ابن خلدون ، وتؤسس العصبية قاعدة قيام الدولة كما يرى(٧) .

(٥) مولار ، غرب افريقيا ، بالفرنسية ، ص ٦٠ .

(٦) أنظر ج ١ ، ص ٨٦ ، وقارن جوتييه ، ماضي شمال افريقية بالفرنسية ، ص ١٩٥ .

(٧) المقدمة ، فصل ٨ في أن العصبية إنما تكون من التحام النسب ، ط التجارية ،

ص ١٢٨ وما بعدها .

هذا ولو انه منذ دخل العرب بلاد المغرب وصحراواتها في مطلع القرن السابع الميلادي لم يعرفوا لهم خصوما من البدو الجمالة ، وان طالت المقاومة على غير ما حدث في الفتوح الأخرى ، الأمر الذي يفسره ان لقاءات الفتح في المغرب وقعت على طول الطريق التاريخي ، في مواطن العمران ما بين برقة وفاس في المغرب الأقصى . وهذا يعنى أن الجمالة من رعاة الابل المغاربة كانوا قد انسحبوا جنوبا الى الصحراء أمام قوات الامبراطورية البيزنطية منذ حملة بليزاريوس واسترداد البلاد من أيدي الوندال . ومن الواضح أنهم كانوا قد رضوا بحياة العزلة جنوبا وراء رمال الصحراء ، مجاورين لبلاد السودان ، شبه الصحراوية ، مكتفين بأعمالهم السلمية في خفارة الطريق ونقل المتاجر على جمالهم . واذا كان ابن خلدون ينص على أن جمالة صنهاجة المثلثين تركوا الأقاليم الحصبة الشمالية الى ما وراء الرمال ، وأبعدوا في القفر جنوبا مجاورين لريف الحبشة (السودان) ، منذ دهور لا يعرف أولها ، فان ذلك لا يعنى أكثر من عدم معرفة : كيف ومتى حدثت تلك الهجرة (٨) . والحقيقة أن هناك رواية أخرى في الادريسي ، تقول ان قبائل « لمط وصنهاج » ، كثر نسلهم (في المغرب) وتسلطوا على الأمم ، فاجتمع عليهم قبائل البربر فأزعجهم الى الصحراء المجاورة للبحر المظلم (المحيط الأطنطى) فنزلوها الى الآن . وتفسر هذه الرواية امكانية هذه الهجرة على أساس أن قبائل صنهاجة : « أصحاب ابل ونجب عتاق ، رحالة » (٩) . والحقيقة أن الجمالة المثلثين في صحراوات شمال أفريقيا ينقسمون الى جماعتين كبيرتين أولاهما : غربية تتكون من صنهاجة اللثام على شواطئ المحيط ، والثانية شرقية ، تتمثل في جمالة اقليم الحجار (الهقار : الأحجار) وتيبستي وادرار وتشاد (١٠) . وهؤلاء الآخرون يتميزون عن الصنهاجين بطول القامة وسواد البشرة ، بمعنى أن نسبة أكبر من الدم الأسود تجري في عروقهم ، ولهذا فهم ينسبون الى جماعات التبو (Tebbou) السودانية ، حيث يعتبر وجودهم في تلك المناطق المنعزلة من الصحراء الكبرى ، دليلا على سكنى الصحراء بجماعات السودان ، قبل سيادة الجمل

(٨) أنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨١ .

(٩) المغرب العربي ، نشر محمد صادق ، ص ٧٤ .

(١٠) جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، بالفرنسية ، ص ٢٤٠ (عن المثلثين من شرقيين وغربيين) ، وقارن مولار ، ص ٦٠ - عن أجداد صنهاجة البيض المختلطين بالأسود من القديم ، وسلاطهم من المغاربة (المور : Maures) ومن الطوارق في الوسط .

على الصحراء الكبرى اعتبارا من القرن الثالث الميلادي (١١) .

والمهم أن سيادة الجمل في أول الأمر كانت على طرق التجارة التي ترفد بلاد المغرب بخيرات بلاد السودان ، وخاصة العبيد السود والذهب ، مما كان ينعش دويلات المغرب المستقلة ، اعتبارا من بداية العصر العباسي . فلا شك أن خيرات السودان هي التي دفعت القوات الأموية من أهل الشام الموجودين على حدود بلاد المغرب ، الى الهجرة نحو غانة ، عندما تأكدوا من سقوط دولتهم في المشرق . فهناك رواية للدريسي تقول ان ذرية هذا الجيش الأموي كونت جالية عربية في غانة ، عرف أهلها باسم « الهنيهين » الذين اشتهروا ببياض البشرة وبأنهم يحافظون على نقائهم العرقي فلا يتزاوجون مع أهل البلاد السودان الا بحساب (١٢) . ولاشك أن دخول عرب الشام الأمويين الى غانة في ذلك الوقت المبكر ، يعتبر من الأحداث الهامة في طريق نشر الاسلام في تلك البلاد . وتبع ذلك اهتمام دول المغرب المستقلة منذ العصر العباسي بالمعاملات التجارية مع السودان الغربي . فبنو حبيب (الفهريون) اهتموا برعاية الطرق التجارية وتمهيد الوعر منها ، وحفر الآبار - وهي محطات المياه التي يمكن أن تشبه بمحطات البنزين حاليا ، على طول تلك الطرق (١٣) . أما الأغالبة (التميميون) ، خلفاء بني حبيب في تونس (المالكية) فلقد اعتمدوا على فرق المماليك السودان ، منذ بداية أمرهم (ج ٢ ص ٣٣) بينما أخذت امامة بني رستم (الأباضية) في الجزائر شكل جمهورية تجارية كان الأئمة يشاركون في نشاطهم مع بلاد السودان من حيث كان يتدفق الذهب حتى صارت عاصمتها تاهزت مدينة عالمية يؤمها التجار من كل البلاد (ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١) . هذا ، كما كان لدولة الأدارسة (الزيدية) في فاس اهتمامات خاصة بذهب السودان (فيما بعد ، ص ١١٣) وكذلك الأمر بالنسبة لدولة بني مدرار (الصفرية) في سجلماسة (ج ٢ ص ٤٠٩) التي بلغ الأمر بأمرائها الى حد اتخاذ اللقب

(١١) اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٨ (عن التبو من ازمنة غابرة في جبال تيبستي) ، ص ٣٤ (عن الرجل البدوي ، ضامر الجسم ، مرتفع القامة ، ذي القدرة على تحمل العطش والجوع والتعب) .

(١٢) البكري ، ص ١٧٩ ، الاستبصار ، ص ٢٢٢ .

(١٣) انظر فيما سبق ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث الاشارة الى ان الطريق الوعر الذي يسير في الصخر من درعه الى وادي ترجا ، على طول ٥ (خمسة) مراحل (حوالى ١٧٥ كم) انما هو اعجوبة من عمل القدماء (الاوائل) ، ولو ان البعض يزعم انه من عمل ملوك بني أمية (أى الأندلسيين على ما نظن) .

الحلافى وكانهم مناقسون جدد لخلافة الفاطمية ، حتى أصبحت دنانيرهم « الشاكرية » مضرب المثل بين النقود المغربية من حيث : دقة السك وعتار الذهب (ج ٣ ص ٢٢٣) .

والى جانب التنافس فى جلب ذهب السودان وماليكه كان لتجار دول المغرب هذه ، جهودهم فى نشر الاسلام على مذاهبهم المختلفة فى بلاد السودان ، فكان طرق التجارة الصحراوية كانت فى نفس الوقت طرق الحضارة والثقافة ، وكان التاجر المسلم ، بصرف النظر عن مذهبه ، كان الداعى الى نشر مبادئ الاسلام دون تفريعات مذهبية . وهكذا يسجل ابن حوقل (حوالى منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م) أنه كان من قبائل صنهاجة الصحراء من يعتنق التشيع كأهل السوس ، ومنهم من كان يأخذ بأراء المعتزلة وينهج نهجهم فى العلم مثلما كان يفعل الحوارج (الشراة) أيضا ، الذين تميزوا بقوة الدين والتمسك بأهداب العقيدة (١٤) . والذى يلفت النظر هنا ، أنه اذا كان الأدب التاريخى والجغرافى يمكن أن يكون مفيدا فى تتبع أخبار انتشار الاسلام فى بلاد السودان منذ وقت مبكر ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة لانتشار الاسلام فى الصحراء المغربية ، وهو ما يفهم بسبب قلة المراكز العمرانية فى الصحراء ، الى جانب طبيعة الحياة البدوية الصعبة ، وهموم مشاكلها اليومية التى لا تفسح الوقت لكثير من التأمل فيما وراء الطبيعة . وهكذا تنص رواية لابن خلدون على أن موطن قبائل لمتونة كان يعرف باسم كاكدم (قاقدم - جاجدم) فكانه فى الصحراء السودانية ، حيث عرفوا الاسلام بعد فتح العرب الأندلس ، أى اعتبارا من القرن الثانى الهجرى (١٥) . هذا ، ولو أنه توجد رواية أخرى لابن خلدون تنص على أن دخول المثلثين فى الاسلام كان فى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، حيث بدأوا يجاهدون جيرانهم ممن لم يسلموا ، الأمر الذى تؤيده تفصيلات تاريخ ملوك المثلثين حتى القرن الرابع الهجرى (١٠ م) (١٦) .

(١٤) صورة الأرض ، ص ٩٩ - ويظهر اثر الفكر الشيعى المنتشر فى بعض اقاليم السودان فيما يقال عن احدى مدن السودان ، وهى بوغرات التى كانت تسكنها قبيلة مراسة الصنهاجية ، من ان بعض الطير فيها كان يفهم من صوته « قتل الحسين » بايقاع متكرر بينما كانت تأتى « بكرىلاء » بعدها فى نقرة (مرة) واحدة (انظر الاستبصار ، ص ٢٢٤ - حيث تنسب تلك الرواية الى « الفقيه عبد الملك » الذى ربما كان يتشيع) .

(١٥) العبر ، ج ٦ ص ١٨١ ، الأمر الذى تؤيده أعمال ابن حبيب فى اصلاح طرق التجارة الصحراوية ، وانظر ما يأتى ، ص ١٠٩ .

(١٦) العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٩٦ .

ومنذ ذلك الوقت وحتى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، كانت جماعات من البربر المسلمين تستقر في اقليم ادرار وناجنت (Tagent) والحوض (Hodh) وتستخدم الزنوج في استغلال مناجم الملح (١٧) ، فكان أحداث الصحراء الجنوبية لم تعد تنفصل عن وقائع السودان منذ استقرار الفتوح في الشمال الأفريقي .

النظم الاجتماعية - السياسية :

القبائل والمواطن وطرق المواصلات :

فيما يتعلق بالتراتب الاجتماعية والسياسية لا تسعفنا المصادر الا بالقليل من المادة الاولى اللازمة لرسم صورة تقريبية لما كانت عليه قبائل الصحراء من حيث : التقسيمات الاجتماعية ، ابتداء من الوحدة الصغرى المثلة في البيت أو الأسرة أو العائلة ، وما يتلوها من تراكيب اجتماعية أخرى مما يعرف عند العرب بالعشائر والأفخاذ والبطون ، وانتهاء بالتجمع الأكبر وهو القبيلة ، وما قد يتلوها من اتحادات بين القبائل المختلفة ، التي تحمل عادة اسم القبيلة صاحب القيادة والهيمنة . وفي ضوء هذا الترتيب المنهجي الذي عرفته قبائل العرب ، والذي يظهر بوضوح في ذلك النسق من التاريخ العربي المعروف باسم علم الأنساب ، الذي اقتدى به نسابة البربر ، بلغت عدة قبائل صنهاجة من الملمثين ، حسب احصاء ابن أبي زرع (قرن ٧ هـ / ١٣ م) الذي أخذ به ابن خلدون (قرن ٨ هـ / ١٤ م) ، ٧٠ (سبعين) قبيلة (١٨) ، بينما كان المشهور منها عند قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م خمسة : هي لتونة ولمطة ، ومسوفة ، وجداله وجزولة ، يمكن أن تختصر الى ٣ (ثلاثة) فقط ،

(١٧) أنظر فيدج ، غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ١٤ .

(١٨) القرطاس ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، العبر ، ج ٦ ص ، وقارن ابن حوقل (منتصف

القرن ٤ هـ / ١٠ هـ) الذي يعدد منهم ٤٥ قبيلة ، منها ١٩ (تسعة عشر) من القبائل الخلص و٢٦ (ست وعشرين) قبيلة يشتبه في صحة نسبها الصنهاجي ، وأنظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٣٩ - ٤٠ - حيث تجميع أسماء قبائل الملمثين ، من قدامى الكتاب والمحدثين - دون التزام بالترتيب الزمني (التاريخي) أو القيمة الوثائقية - من كل من : ابن حوقل ، والمدمشقي (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) ، وباسية (Basset) ، والنويري ، والبكري ، وابن خلدون ، والادريسي ، والبيدق ، وكولان ، وجوليان ، وديمومين ، والحلل .

اذ اندمجت كل من الأولى والنانية تحت اسم ملتونة ، والرابعة والخامسة تحت اسم جدالة (ما سبق ، ص ٦٩) . هذا ، كما يمكن أن تندرج القبائل الخمسة تحت اسم ملتونة ، دون غيرها (ما سبق ، ص ٧٠) وان كان الدارج فى تأسيس دولة المرابطين الحاق مسوفة بملتونة ، تماما كما يلحق - فى التغريبة الهلالية - عرب بنى سليم بعرب بنى هلال ، وان كان الذكر فى « التغريبة » للهلالية دون غيرهم .

وهنا لا بأس من الإشارة الى أن من بين غزوات العرب للمغرب كانت الهجرة الهلالية أشدها تأثيرا فى قلقلة القبائل المغربية ، وتوجيه الجمالة منها نحو الجنوب حيث ضربوا نطاقا حول سهوب السودان ، جنوب الصحراء ، فى مقابل النطاق الذى صار للعرب الهلالية الخيالة حول بلاد النخل فى شمال الصحراء ، وان تطلب هذا الأمر عدة قرون لكى تؤول خريطة المغرب العرقية الى ذلك الشكل فى القرن الثامن الهجرى/ ١٤ م على عهد ابن خلدون (١٩) .

وهكذا فعن طريق اتحاد قبائل الجمالة الملتمين تحت هيمنة احدهما : ملتونة كانت أو مسوفة ، كان يمكن لرئيسها اقامة امبراطورية كبرى على طول البلاد وعرضها ، ما بين المغرب والسودان ، أشبه ما تكون بامبراطوريات السهوب الآسيوية ما بين الصين شرقا وايران غربا (٢٠) . وكان من الطبيعى أن تكون امبراطورية الملتمين الافريقية ، دولة تجارية تنقل المتاجر وأسباب الحضارة ، وتجنى الأموال ما بين الجنوب السودانى والشمال الأفريقى ، تماما مثل امبراطوريات فرسان آسيا الوسطى ، حيث طريق الحرير الذى كان عامرا بفضل الجمل الآسيوى ذى السنامين .

واذا صحت رواية ابن خلدون عن أن ملتونة كانت تقطن منطقة كاكدم (السودانىة) عندما دخلت فى الاسلام فى مطلع القرن الـ ٢ هـ / ٨ م ، بعد

(١٩) العبر ، ج ٦ ص ٧ .

(٢٠) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث ينص على انه كان لقبائل الملتمين فى قلب البر فى أواخر القرن الـ ٣ هـ / ٩ م ، « ملك يملكهم تكبره صنهاجة » وسائر تلك الديار ، لالهم يملكون تلك الطرق (ما بين أودغست وسجلماسة) وحيث انهم أهل « البسالة والجرأة والفروسية على الابل ، والحفة فى الجرى والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله ، والدلالة على مياهه ، وقارن عن الترك والمغول فرسان السهوب ، ريتيه جروسية ، امبراطورية السهوب (R. Grousset, L'Empire des Steppes) ، بالفرنسية ، المقدمة ، ص ٧ وما بعدها .

فتح الأندلس (ما سبق ، ص ١٠٦) ، فلا بأس أن يكون ذلك قد تم عن طريق حملات عبد الرحمن بن حبيب ، أمير أفريقية التونسية ، الوافد من الأندلس (١٢٦ - ١٣٧ هـ / ٧٤٤ - ٧٥٥ م) ، الذى يذكر له الاهتمام بطريق التجارة الى السودان ، من تمهيد وامداد بمحطات المياه (٢١) . وعلى العكس من أعمال عبد الرحمن بن حبيب التى نشطت تجارة السودان ، وأفادت قبائل المثلثين ، كان لبناء مدينة سجلماسة (الصفرية) قريب ذلك الوقت (١٤٠ هـ / ٧٥٨ م) آثار سلبية على مدينة ترغا (طرقا) الطوارقية من حيث تحول طريق القوافل الى سجلماسة ، مما أدى الى خراب ترغا التى هجرها أهلها وأقاموا فى المدينة الجديدة (٢٢) ، التى أصبحت أهم محطة فى الطريق الى بلاد السودان خلال القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، قرن سيادة القيروان ، عاصمة أفريقية التى غلب ملوكها من الأغالبة على عقد المواصلات إليها (٢٣) .

(٢١) انظر فيما سبق ، ص ٦٢ - حيث يذكر لعبد الرحمن بن حبيب حفر ٣ (ثلاثة) آبار فى الطريق الصخرى الى أودغست ، أشهرها بئر الجمالين (ما سبق ، ص ٦٣ وعن ولاية عبد الرحمن بن حبيب ، أنظر ج ١ ، ص ٣١٣ ، وقارن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٥ - حيث خريطة المغرب سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) على عهد ابن حبيب ، والنص على أهمية فتح العرب لمناطق الجنوب المغربى حيث قبائل مسنهاجة الحيرة بخبايا الصحراء ، الأمر الذى أدى الى اكتشاف طريق بلاد السودان ، وقارن الحبيب الجناحاني ، المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٦٢ - حيث النص على ان علاقة القيروان بتجارة السودان ترجع الى القرن ٢ هـ / ٨ هـ ، وفى سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م على وجه التحديد ، عندما وجه الى المغرب : عبد الله بن الحبحاب قائده حبيب بن أبى عبيدة (والد عبد الرحمن) الى المغرب الأقصى ففزا السوس الأقصى ، وبلغ أرض السودان (؟) - مع الاشارة الى ابن عذارى .

(٢٢) البكرى ، ص ١٥٨ .

(٢٣) انظر الاصطخرى ، ص ٣٤ - حيث النص على انه بين المغرب والسودان مفاوز منقطعة لا تسلك الا من مواضع معروفة كان يغلب عليها ملوك افريقية من اولاد الأغلب - أما عن القيروان فهى أول المحطات وأكبرها على الطريق ، ليس الى السودان الغربى فقط ، بل عن طريق السودان الأوسط (تشاد وكانم) أيضا ، وكانت المسافة بينها وبين سجلماسة تعادل ٨٠ مرحلة فى الطريق الصحراوى (حوالى ٢٨٠٠ كم) ، وهى ثلث المسافة فى طريق العمارة التى تبلغ ١٢٠ مرحلة (حوالى ٤٢٠٠ كم ، بينما المسافة ما بين تاهرت وسجلماسة ٥٠ مرحلة (حوالى ١٧٥٠ كم) فقط . أما المسافة بين القيروان وزويلة (على طريق تشاد ، فهى ٣٠ مرحلة (حوالى ٢٠٥٠ كم) .

بداية دولة المثلثين :

وفى هذا الوقت من مطلع القرن الثالث الهجرى يبدأ التاريخ الحقيقى لدولة المثلثين وأسررتها الحاكمة جنوب الصحراء ، حسبما يقدمه ابن أبى زرع ، ويأخذ به ابن خلدون مع ما أضافه اليه من مواد أخرى . وهكذا يكون أول البارزين من ملوك صنهاجة هو الثانى منهم واسمه تيلوتان (Tiloutan) المتوفى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م . ولما كان ابن خلدون يربط ما بين نشأة دولة المثلثين المسلمة وبين قيام دولة عبد الرحمن الداخل فى الأندلس (سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) فإنه يجعل تلكاكون (تلجاجون) : (Telgagoun) والدتيلوتان أول ملوك صنهاجة الصحراويين (٢٤) . فكان الفارق الزمنى بين ولاية تلجاجون الأول وبين وفاة ابنه تيلوتان ، وهو الثانى ، تبلغ حوالى ٨٥ سنة . ولما كان روض القرطاس يقول ان حكم تيلوتان بلغ ٦٥ (خمسة وستين) سنة ، يكون حكم تلجاجون ٢٠ (عشرين) سنة .

بداية نشر الاسلام جنوب الصحراء :

وبناء على هذه الرواية تكون بداية نشر الاسلام فى الصحراء الجنوبية وفى بلاد السودان قد تمت حوالى سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، وراء جيوش المثلثين ، وذلك قريب الوقت الذى كان خوارج الصفرية يعتزلون مواطنهم فى بلاد الريف الحصبية لكى يبنوا سجلماسة (سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) على مشارف الصحراء ، ويستخدمونها موطنًا (ج ٢ ص ٤٠٩) . واذا كانت الرواية لا تخصص دورا محددا لتلجاجون فى هذا المجال ، فيمكن أن يكون المفهوم من سياق النص انه أول من ترك دين المجوسية ليدخل بكل حماسة المسلم الجديد ، المنبهر بدينه ، فى ميدان نشر الاسلام . أما عن تيلوتان ولدى عهده وثانى الملوك (ت ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م) ، فهو فارس الاسلام الذى يجوب،

(٢٤) انظر روض القرطاس ، ص ١٢٠ - حيث أول ملك بالصحراء تيلوتان بن تلاكاكين الصنهاجى اللمتونى ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على ان الرياسة كانت فى لتونة ، وانه استوثق لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن ميناوية. الداخل (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) وانه توارثه ملوك منهم تلاكاكين وورتكا (اوراقن) بن ورتنطق ، حد أبى بكر بن عمر أمير لتونة ، وانظر ترجمة دسلان (De Slane) ، ج ١ ص ٦٥ - حيث التصحيح الى تلاكاكون (تلجاجون) بن أوركوت أو أراكن بن ورتنطق (Ourtentac) جد أبى بكر بن عمر ، أمير لتونة المعروف - وحث الإشارة الى ان اسم ورتنطق ما زال باقيا فى موضع (Portendic) على مسافة ٤٠ مرحلة شمال السنغال .

البلاد على رأس جيوشه الذي بلغت عدته ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) نجيب
(فارس هجان) ليفرض الهيمنة على كل الصحراء ، كما يفرض الجزية التي
كانت تميز خزائنه بالأموال على ٢٠ (عشرين) ملكا من ملوك السودان ،
حتى امتدت مساحة إمبراطوريته التي تكوَّنت على طول ٦٥ سنة ، حوالى ٣
(ثلاثة) أشهر طولا فى مثلها عرضا ، أى على امتداد أكثر من ٣٠٠٠
(ثلاثة آلاف) كم (٢٥) .

أما ثالث الملوك فهو يلتان (Ilettan) الذى توفى سنة ٢٨٧ هـ /
٩٠٠ م فكانه حكم ٦٥ (خمسة وستين) عاما هو الآخر . ويخلفه فى الملك
ابنه تميم (ابن يلتان) ، فكانه أول من حمل اسما عربيا من ملوك الملثمين ،
ولا يمنع ذلك من أن يكون له اسما بربريا آخر ، كما كانت العادة فى حمل
اسم قومى الى جانب الاسم العربى أو اللقب عند بربر المغرب ، وعند الترك
فى المشرق . وحكم تميم ٢٠ (عشرين) سنة (مثل تكلكاكون) ، اذ كانت
وفاته غدرا على أيدي مشايخ لتونة ، سنة (٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) (٢٦) .

(٢٥) القرطاس ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، العبر ج ٦ ص ١٨٢ - حيث الاسم يتيلوتان
فكانه ايت (بنو) يلونان والتصحيح من ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٦ - حيث النص على ان
الخطاء فى الاسماء فى النص العربى ، يرجع الى جهالة النساخ ، وخاصة فى روض القرطاس ،
وأطر الفلقسندى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث النص على أسماء الملوك نقلا عن ابن أبى زرع -
والإشارة الى أولهم بتلوتان الذى كان يركب فى ١٠٠٠ (ألف) نجيب بدلا من ١٠٠٠٠٠ ،
وتوفى فى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٢٧ م .

(٢٦) انظر القرطاس ، ص ١٢١ - حيث الثالث هو حفيد تيلوتان واسمه الأثير بن قطر
ابن تيلوتان بدلا من يلتان ، اما عن تميم فهو ابن الأثير . هذا ، ولقد أخذنا برواية ابن خلدون
على أساس ان نسخة القرطاس التى كانت بين يديه أصبح من التى بين أيدينا اليوم ، وهو
الأمر المقبول بناء على البعد الزمنى ، الى جانب انه حصل على معلومات اضافية أخرى استفاد
منها فى نظريته الى القرطاس . وقارن العبر : ج ٦ ص ١٨١ - حيث توجد رواية أخرى تقول
ان من أشهر ملوك صنهاجة هؤلاء : تينزوا (Tinezwa) بن واشنق (Ouechenic) ، وهو فى
الأصل واشنق بن بيزار (Bezar) وقيل يرويان (Berowian) وهو فى الأصل : يرويان
ابن استولى بدلا من واشنق بن بزار : (Izar) . فكان الأول : (تيزاو ابن واشنق بن
بيزا كما فى نص بولاق المصور) يقوم مقام تلجاجون ، وكان الثانى (يرويان بن واستولى بن
يزار ، كما فى نص بولاق) بدلا لتيلوتان ونجبه اليه ١٠٠٠٠٠ ، على ان يقابل ملكه عهد
عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر فى القرن الرابع الهجرى (١٠ م)
فى الأندلس بدلا من عهد عبد الرحمن الداخل سنة ١٢٨ هـ / ٧٥٥ م قبل أن يفترق أمرهم
طوائف . وقارن الفلقسندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث يلتان (ت ٢٨٧ هـ /
٩٠٠ م) و تميم بن يلتان الذى قتلته صنهاجة ، ثم افتراق اليه ١٢٠ سنة الى ملك أبى عبد الله
مكيافوت ثم قيام صهره يعقوب بن إبراهيم الجدالى الذى حج سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م .

ملوك الطوائف الصنهاجية :

وبعد تميم يفترق أمر امبراطورية الملثمين الصنهاجية الى عدد من ملوك الطوائف يستمر ملكهم لمدة ١٢٠ (مائة وعشرين) سنة ، حاول ابن خلدون أن يملأها بروايات أخرى ولكنه لم يوفق بسبب تصوره أن تلك الروايات الجديدة تتعلق بملوك آخرين لنفس الفترة السابقة (كما أشرنا في الهامش السابق) . وربما كان له الحق في ذلك بسبب تكرار بعض المعلومات الاحصائية التي تتعلق بأعداد عسكر الملك أو أعداد التابعين له من أمراء الأقاليم السودانية .

والحقيقة أن الروايات التكميلية التي يقدمها ابن خلدون دون الإشارة الى مصدرها ترجع الى البكري الذي يوثقها بتواريخ أكيدة تنهى فترق الطوائف هذه - وان ظلت اختلافات قراءة أسماء الملوك بسبب أخطاء النساخ . والرأى ان دسلان (De Slare) استخدم روايات البكري في محاولته تصحيح أسماء ملوك السودان الملثمين ، في ترجمته لابن خلدون .

والمهم انه بفضل رواية البكري نعرف أن دولة صنهاجة نهضت من كبوتها بعد أقل من ٥٠ (خمسين) سنة ، ولكن لفترة وجيزة ، بفضل تين بروتان (الملك) الذي هجم على أودغست وفرض سلطانه على غانة خلال حكمه الذي امتد من ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م الى ٣٥٩ هـ / ٩٧١ م ، وكأنه كانت النهضة الثالثة لدولة صنهاجة الصحراء (٢٧) .

النهضة على عهد نارشت الى ظهور يحيى بن ابراهيم :

والمهم أن تلك النهضة الثانية لصنهاجة انتهت بعد فترة غامضة ثانية على عهد أبي عبيد الله بن تيفاوت (Tifaout) المعروف بنارشت (Naresht) الذي تم اختياره ملكا سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م ، لما عرف به من صفات الرئاسة ، من : التدين والورع وأداء فريضة الحج والجهاد . ولم تطل ولاية المجاهد المنتخب (أبي عبد الله نارشت) الا ٣ (ثلاث) سنوات فقط ، إذ

(٢٧) أنظر فيما بعد ، ص ١١٧ ، ١٢٠ - والمهم هنا هو ان معلومات البكري عن يرويانر في منتصف القرن الرابع الهجري (١٠٠م) هي نفس المعلومات الخاصة بتيلونات المتوفى في أوائل القرن ال ٣ هـ / ٩م ، الأمر الذي قد يشكك في نهضة صنهاجة الصحراء في تلك الفترة المبكرة .

سقط شهيدا في ميدان الجهاد في السودان (سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) في موضع غربي مدينة بانكلايين حيث بنو عبد الوارث الصنهاجيين ، اسمه فنقارة (جنجارة) ، نسبة الى سكانه من السودان الذين كانوا من اليهود « الفلاشة » (٢٨) .

وبعد نارشت (أبى عبد الله محمد) ظهر يحيى بن ابراهيم الجمدالى (الكدالى) (٢٩) ثم ابنه ابراهيم بن يحيى ولى عهده ، وهو الذى مر بالقروان (٣٠) .

النشاط التجارى لدول المغرب عبر الصحراء :

اما عن أعمال الإدارة في سبيل تنشيط التجارة مع السودان فيرجع الفضل الى الامام عبد الله بن ادريس (العلوى : ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) (٣١) ، في بناء مدينة تامدلت (أو تامدلت) ، التى اشتهرت بمنجم فضتها الغزير الانتاج ، غربى مدينة درعة ، وعلى الطريق الى سجلماسة ، طريق القوافل التجارية الى غانة والسودان (٣٢) .

ومع ازدهار تجارة السودان ونشاط دول المغرب المستقلة الاولى ، ظهر

(٢٨) أنظر القرطاس ، ص ١٢١ - حيث النص على ان المدينة (تاتا كلاتين) كانت لبنى وات (هكذا) من أوائل مسلمى المغرب الذين أسلموا على يدى عقبة بن نافع ، والذين عرفوا بالصلاح وبأنهم يجاهدون السودان غير المسلمين ، وحيث موضع استشهاد نارشت هو بغاره بدلا من ونقارة ، وقارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، والبكرى ، ص ١٦٢ (حيث تارسنى بدلا من تارشت) وقنقارة (بدلا من بغارة) وبانكلايين (الذى أخذنا به بدلا من تانكلانين) ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٦ - حيث ملك أوغست فيما بين (٣٥٠ - ٣٦٠ / ٩٦١ - ٩٧١) صنهاجى يعتد فى ١٠٠٠٠٠ نجيب ، ومسيرة بلاده شهرين فى مثلها فى عمارة متصلة .

(٢٩) القرطاس ، ص ١٢٢ - حيث النص على انه بقى فى الولاية الى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م - الأمر الذى يعتبر متقدما بعض الشيء عما وصلنا اليه فى الدراسة ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ .

(٣٠) أنظر القرطاس ، ص ١٢٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ ، الذى يضع مكان ابراهيم بن يحيى ، يحيى بن عمر بن تلاكاكين (Telagaguin) ولا ندرى ان كان قد وقع فى الخطأ بسبب اسم مدينة تانكلاتين التى استشهد بقربها أبو عبد الله نارشت .

(٣١) وكانت مملكته تشمل أغمات وبلاد المصامدة وبلاد السوس الأقصى مع بلاد لمطة

- ج ٢ ص ٤٥٩ ، وقارن زامباور ، الترجمة ص ١٠٣ .

(٣٢) البكرى ، ص ١٦٣ ، وهى فى اليعقوبى ، ص ٣٥٩ ، تامدلت - حيث تعتبر مهداة

لجماعات الطوارق (بنى ترجا) حيث مناجم الذهب والفضة .

في مطلع القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، مع قيام الدولة الفاطمية ، طريقان جديدان الى السودان الغربي ، أحدهما غربي وهران وتلمسان الى النيجر الأوسط وبلاد غانة ، والثاني الى بلاد السودان الأوسط من طرابلس الى بلاد كانم وتشاد(٣٣) .

والحقيقة أن ازدهار تجارة السودان ، في القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، يظهر في ازدهار مدينة سجلماسة ، أهم محطة في طريق السودان ، وهم أسواق الصحراء وقتئذ حسبما يروي ابن حوقل الذي زارها في سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م ، وسجل رواج تجارتها وكثرة أرباح أهلها الذين ظهرت عليهم النعمة في الأفعال والكمال في الأخلاق ، كما كانت سجلماسة مركزا علميا مرموقا ، حيث تفوقت على غيرها من مدن المغرب بكثرة المشايخ والعلماء . وفي تلك الزيارة تكلم ابن حوقل عن ذلك الحسك الشهير الذي حرره لأحد تجار سجلماسة بعض عملائه من تجار أودغست السجلماسيين بمبلغ ٤٢ ألف دينار(٣٣ م) ، الأمر الذي لم يعرف الرحالة العراقي له نظيرا في المشرق ، أي في مرافئ تجارة الهند والصين وطريق الحرير ، في الخليج ، من : البصرة الى سيرا ف وهرمز(٣٤) .

مسالك التجارة وطرقها :

هكذا تمثلت خريطة التجارة في أفريقيا الشمالية في ٤ (أربعة) خطوط طولية وخطين عرضيين . والخطوط الطولية هي :

١ - طريق الساحل الغربي ، الممتد على طول شاطئ المحيط الأطلنطي ، وعقدة مواصلاته الشمالية ، هي نول لمطة (أونون) .

٢ - الطريق الغربي الأوسط الذي يعبر الجزائر ، وعقد مواصلاته : توات شمالا ثم سجلماسة وأودغست .

٣ - طريق المغرب الأدنى وبدايته القيروان (فهو طريق القيروان) ، وعقدتا مواصلاته : سجلماسة وأودغست .

(٣٣) ماكفدي ، أطلس التاريخ الإفريقي ، الترجمة ، ص ٧٩ .

(٣٣ م) صورة الأرض ، ص ٩٦ .

(٣٤) صورة الأرض ، ص ٣٤ ، وأنظر لـ (J-M. Lessard) سجلماسة ، المدينة

وعلاقاتها التجارية في القرن الحادي عشر ، عن البكري
(La ville et ses relations commerciales au XIe siècle)

، مجلة هسبيريس ، ١٩٦٩ ، ص ٥ - ٣٦ .

٤ - الطريق الشرقى وبدايته طرابلس ، وعقد مواصلاته الى السودان الغربى (غانة) : سجلماسة وأودغست ، والى السودان الأوسط : فزان الى تشاد وكانم ، وتادمكة الى السودان الشرقى والواحات الشرقية الى مصر .

أما الخطان العرضيان : فالشمالى منهما هو الطريق التاريخى الشمالى الآتى من مصر والمنتهى عند تازا وفاس ، ومدنه ، من برقة الى طرابلس ، فالقيروان ، وتونس ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفاس ، واغمات ، هى نهايات للخطوط الطولية . وأما الجنوبى فهو طريق التجارة الأعظم عبر واحات بلاد النخل وهو طريق الحج أيضا ، الذى يستوعب القوافل العظمى التى تحوى آلاف الجمال مثلما تستوعب طرق الملاحة عبر المحيطات حاليا ، سفن النقل العظمى التى لا تعرفها موانئ البحار الداخلية والقنوات بين القارات - كما أنه الطريق الأقصر (ما سبق ، ص ٦٢ ، ٨٩ ، ٩٩) .

الخريطة السياسية والاجتماعية للصحراء الكبرى فى القرن ٤ هـ / ١٠ م :

والمهم انه فى هذا الوقت من منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، كانت سجلماسة تابعة اسميا للدولة الفاطمية ، خاضعة فعليا لأسرة آل مدرار (الصفريه) وهم من البتر ، بدو زنانة الجمالة الذين يصعب التفرقة بينهم وبين صنهاجة الصحراء الذين يتميزون باللثام والنقاب على الوجه والعينين .

أما الصحراء حيث قبائل صنهاجة المثلثون ، فكان لها ملكها ، معاصر ابن حوقل ، الذى كان يحكم منذ سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وذلك فى عصر الفرقة (الطوائف) قبل يروتان (ما سبق ، ص ١١٢) (٣٥) . وينص ابن حوقل على أن رعية الملك الصنهاجى وقتئذ بلغوا نحو ٣٠٠٠٠ (ثلثمائة ألف) بيت أى أسرة ، بمعنى حوالى ١٥٠٠٠٠ (مليون وخمسمائة ألف) نسمة وأكثر ، على أساس أن متوسط ٥ (خمسة) أفراد للأسرة ، بمعنى زوجين وثلاثة أبناء ، يعتبر معدلا قليلا بالنسبة لأفراد الأسرة فى المجتمعات البدوية والريفية - حيث الزواج الداخلى وتعدد الزوجات . والمهم أن المليون ونصف المليون وأكثر من قبائل صنهاجة - يعنى بلغة العصر نوعا من أزمة التضخم السكانى التى تبشر بالانفجار . والمهم أن تلك الكثرة

(٣٥) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٧ .

السكانية يفسرها نوع البيوت المستخدمة للسكنى والنسبة كانت حسب ابن حوقل ما بين نواله (خيمة من الجلد) أو خص (كوخ من الأعشاب والعصى) ، الأمر الذى يعنى أن مساكن صنهاجة فى منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، كانت فى منطقة الساحل (أعشاب السافانا) الفاصلة بين جنوب الصحراء وشمال السودان الغربى . والظاهر أن المساكن السودانية الحديثة المبنية بالأعشاب وعروق الشجر فى شكل أكواخ مستديرة ويغطيها سقف مخروطى من الأعشاب أيضا ، أو تلك التى تأخذ شكل حظيرة مربعة يغطيها سقف سنامى (جمالون) من فروع الشجر وأوراقه (٣٥ م) ، لها أصول عريقة فى القدم . فقباثل الجرمنتين القديمة فى فزان كانت لها بيوت من الأعشاب التى تكسو أعواد الخشب فى شكل القارب المقلوب ، أو خيام الجلد مثل خيام البدو الحاليين (وهى المادة الخام المتخذة من البيئة المحلية من أعشاب السفانا أو من جلود حيواناتها) (٣٦) . وهذا ما يفسر أيضا كيف كان من أساليب حربهم الدفاعية الاعتماد على أعداد ابلهم الغفيرة فى سحق الأعداء ، هدمها ودهسها ، بمجرد اثارتها ونفارها على العدو بغتة (٣٦ م) .

ومن الواضح أن أودغست ، بصفتها باب السودان الجنوبي ، كان لها حكومتها المستقلة ، تماما كما كان الحال بالنسبة لسجلماسة ، باب الصحراء الشمالى ، كما كان هناك نوع من أوجه الشبه بين الحكومتين ، فذلك ما تفرضه طبيعة المكان وتكوينه البشرى على مر الزمان . ويتلخص وجه الشبه فى أن موقع كل من البلدين فى منطقة التماس بين بربر الصحراء من البدو الجمالة مع كل من حضارة بربر الشمال « المتوسطية » وحضارة السودان الجنوب « الافريقية » ، بمعنى أن صنهاجة فى ذلك الزمان كانت همزة الوصل عرقيا وحضاريا بين الشمال الافريقى الأبيض وبين الوسط الافريقى الأسود ، وكان من الطبيعى أن يكون التأثير الأبيض طرديا نحو الشمال والتأثير الأسود عكسيا نحو الجنوب ، فتكون حكومة سجلماسة ومجتمعها أقرب الى حضارة البحر المتوسط ، ومجتمع أودغست وحكومتها أقرب الى الحضارة الافريقية « النيلية » أصلا .

(٣٥ م) انظر دبلافوس ، الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ .

(٣٦) انظر هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، ص ٢١ ، وقارن عن مساكن الطوارق الحاليين سعيد القشاط ، الطوارق ، ص ٨١ - حيث مساكن الطوارق من : جلد ، أو حصير أو قش الى جانب سكنى الكهوف .

(٣٦ م) انظر ابن حوقل ، ص ٩٧ .

مملكة غانة والعلاقة بأودغست :

والمهم أن كلا من حكومتى سبجلماسة وأودغست لم تكن حكومة عسكرية ، بل أشبه بجمهورية تجارية ، مثل امبراطورية غانة التى تمتعت لهذا السبب ، بالاستقرار منذ نشأتها فيما بين القرنين الثالث والرابع للميلاد ، وذلك فى منطقته أوكار (Aukar) شمال أودغست حيث كان موطن زنوج « الماندنج » المهاجرين من شمال أفريقيا ، والذين كانوا متأثرين بالثقافة اليهودية . ومن منطقة أوكار توسعت دولة غانة جنوبا الى منطقة الحوض ، واستمرت أسرتها الحاكمة حتى القرن الثامن الميلادى حيث سقطت فى سنة ٧٧٠ ميلادية على أيدى أسرة أخرى من زنوج « السونينكه » التى استمرت فى الحكم حتى قيام دولة المرابطين (٣٧) ، ومن الواضح أنه رغم اتساع مملكة غانة المعاصرة لابن حوقل شمال وجنوب غرب أودغست ، فإن هذه الأخيرة كانت تتمتع بالاستقلال تحت حكم الصنهاجيين المثلثين ، وأنها كانت على علاقات طيبة بمملكة غانة .

وفى ذلك ينص ابن حوقل على أن ملك أودغست كان يحرص على إدارة (التقرب من) ملك غانة ، أغنى ملوك الدنيا بما لديه من أموال الجباية ومخزون التبر ، وإن هذا الأخير كان يسترضى تابعه ملك كوغه بالهدايا ، بينما كان ملوك غانة وكوغه حريصين على استرضاء ملك أودغست المسلم لحاجتهم الماسة الى الملح الذى كان يأتيهم من بلاد المسلمين (٣٨) .

والحقيقة أنه قبل قرن تقريبا من ظهور دولة المرابطين كانت امبراطورية المثلثين قد تفتتت الى نوع من دويلات الطوائف منذ اغتيال مشايخ صنهاجة لملكهم تميم سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، الحالة التى استمرت حوالى ٢٠ سنة (الى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م) ، وهى الفترة التى ملأها ابن خلدون برواية أخرى للبكرى الى جانب رواية القرطاس (ما سبق ، ص ١١١ وهـ ٢٦) . وفى منتصف فترة التردى السياسى هذه كانت خريطة الصحراء تتمحور حول مملكة أودغست التى كانت قد بلغت الذروة من القوة والهيمنة ، بفضل جيشها الكبير الذى كان يحوى ١٠٠٠ ر ١٠٠٠ (مائة ألف) نجيب (من الجمال الحربية

(٣٧) انظر ج . دفيدج ، تاريخ افريقيا الغربية ، ص ١٨ - حيث النص على ان ملوك تلك الاسرة بلغوا ٤٤ ملكا .

(٣٨) ابن حوقل ، ص ١٩٧ - حيث الاشارة الى ارتفاع سعر الملح فى بلاد السودان ، اذ كان ثمن الحمل منه ما بين ٢٠٠ دينار فى المناطق القريبة من العاصمة (غانه) و ٣٠٠ دينار فى الاقاليم النائية .

السريعة الحركة) ، ومساحة اراضيها التي كانت تقدر بمسيرة شهرين طولا وعرضا (حوالى ٢١٠٠ كم) فى بلاد عامرة ، والتي كان يحكمها أمير صنهاجى ، هو : تين يروتان بن ويسنو بن نزار ، الذى كان يخضع له عشرون أميرا من حكام الأقاليم ، يؤدون له الجزية السنوية ، خلال حكمه الذى استمر عشر سنوات (٣٥٠ - ٣٥٩ هـ / ٩٦١ - ٩٧٠ م) (٣٩) .

ومن الواضح أن امبراطورية أودغست التي كانت قد بلغت الذروة أخذت تعاني من أعراض التصدع والاضمحلال ، فهذا ما يتبين فى النزاعات الداخلية التي دبت بين الحكام المحليين من أمراء الاقطاع السودانيين الذين يلقبهم البكرى بالملوك . ولقد تطلب الأمر تدخل ملك أودغست فى سبيل الحفاظ على وحدة دولته الصنهاجية . فعندما قام النزاع بين يعرين أمير مقاطعة ماسين وبين أمير مقاطعة أوغام ، وقف تين يروتان ، الملك ، الى جانب الأول عندما طلب منه النجدة . وعندما استشعر خطورة ملك أوغام ، سير ضده جيشا كبيرا ، من ٥٠٠٠٠ (خمسين ألف) نجيب (جمل سريع) ، تمكنت من اقتحام عاصمة أوغام واستباحتها نهبا واحراقا ، الأمر الذى انتهى بمقتل أميرها على أيدي المحاربين الصنهاجين وانتحار زوجاته ، كما كانت تقضى بذلك التقاليد السودانية (٤٠) . وهكذا بلغت أودغست أوج عزها فى ظل صنهاجة قبل دولة المرابطين ، وسيطرت على أجزاء هامة من بلاد السودان ، وصارت منافسا تجاريا لغانة . ولكنه لم تمض عشرون سنة على انقضاء عهد يروتان حتى استعادت مملكة غانة السونينكية قوتها . ونجحت فى سنة ٩٩٠ م (٣٨٠ هـ) فى الاسنيلاء على أودغست من الصنهاجين (٤١) . وبذلك أصبحت أودغست قاعدة لمملكة أوكار (غانة)

(٣٩) البكرى ، ص ١٥٩ .

(٤٠) البكرى ، ص ١٥٩ - حيث النص على أن ملك أوغام القى سلاحه وضحي بنفسه فى ميدان القتال ، وأن نسوبه قتلن أنفسهن أسفا عليه ، وافقه من أن يملكن البيضان ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٦ - حيث رواية البكرى ذاتها مع تصوير طفيف يخلص فى أن ملك أودغست الصنهاجى غزا ملكا من السودان اسمه « أوغام » ، فكان أوغام هو اسم الملك ، كما يقال أن غانة هو الملك وأن المملكة اسمها أوكار . وهنا لا بأس من الإشارة الى انه فى مقابل نجب الصنهاجين وجمالهم التي كانت تعد بعشرات الألوف ، كان المنصور بن أبى عامر وقتئذ يعتنى باستنتاج الحبل ، حيث خصص لذلك فى اصطبلات اشبيلية ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) من الرماك و (١٠٠) مائة من الفحول ، وأنه فى بعض غزواته كان معه ٤٦ (ستة وأربعون) ألف فارس بينما كان الرحالة ٢٦ (ستة وعشرين) ألفا فقط - انظر ان الخطيب ، أعمال الاعلام ، نشر بروفنسال ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٤١) انظر فيديج ، غرب افريقيا ، ص ٢١ ، وقارن مولار ، غرب افريقيا الفرنسية . =

حيث انتقل اليها غانة (أى الملك) ، وعاش فى كنفه البربر من الزناتية الى جانب العرب ، بينما أدت الصدمة النفسية التى ألقت بصنهاجة الى التحالف فيما بينهم ، والعمل على التقوى برباط السدين . وبذلك كانت الهجمة السودانية على أودغست فى ذلك الوقت المبكر من أواخر القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، وراء حركة الاستنارة السياسية التى أشعل لهيبها المرابطون (٤٢) .

ففى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م دخل أهل تكرور - فيما وراء غانة - وكانوا من عباد الكواكب والأصنام ، فى الاسلام كرها ، على يدى وزجاي ابن ياسين ، بطل نشر الاسلام حربا وسلميا (٤٣) ، وذلك قريبا من الوقت الذى كان فيه زعيم جدالة يفاوض أبا عمران الفاسى ، عالم القيروان من أجل ارسال من يراه أهلا لتعريف سكان الصحراء بقواعد دينهم الصحيحة - من تلاميذه (ما يأتى ، ص ١٧٠) . وبعد حوالى ٥ (خمس) سنوات ، كان رئيس صنهاجة وهو محمد المعروف بنارشت بالبربرية ، يجاهد بعد سنة

= ص ٦٠ - حيث الاشارة الى الأمير تونكا (Tounka) الذى يطن انه فاتح أودغست وكان يتخذ من نيم (Néma) فى الجنوب الغربى عاصمة له ، ورغم هذه الحال فقد كان متساهلا مع المسلمين فى بداية أمره (نهاية القرن ١٠ م) حيث انه أقام ١٢ (اثنى عشر) مسجدا .

(٤٢) أنظر فيدج ، ت . غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٢١ ، وقارن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، ص ٧٦ - حيث تعرفت صنهاجة بفضل الجمل ، على الدولة الزنجية التى أسستها قبائل السونينكى (Soninké) شمال حقوق الذهب فى بامبوك (Bambouk) وأنظر الاستبصار ، ص ٢١٩ - حيث النص على ان كلمة غانة هى سمة للملوك تلك الدولة السودانية ، بينما اسم البلد أوكر بناء على كتاب الملك الغانى الى يوسف بن تاشفين ، ونصه : « الى أمير أغمات ، قال غانة » ، وهذا دليل على ما قيل - كما يقال للدول التى تنسب الى ملوكها من : فرعونية ومساسانية وأموية ... الخ .

(٤٣) الاستبصار ، ص ٢١٧ ، حيث النص على دخول أهل مدينة سلى بالترغيب على يديه ، على عكس أهل التكرور ، (فى بلاد السنغال - أول من دخل فى الاسلام من السودان) - وغيرهم ممن دخلوا فى الاسلام جبرا بالسيف والحرب ، وأنظر اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٧٠ - حيث الاشارة الى سكنى التكرور على ضفاف نهر السنغال ، وخاصة فى منطقة كايس (Kayes) فى أعاليه . وأنظر أمين طيسى ، أثر الاسلام فى غانة العصر الوسط ومالى ، مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ، المجلد ٤ ، صيف ١٩٨٤ (بالانجليزية) ، ص ٢٥٤ - حيث التكرور ، غرب غانة على المجرى الأسفل لنهر السنغال ، ص ٢٥٠ - حيث النص على ان شعب التكرور ظل وثنيا الى أن دخل مملكة وارجاى بن رابيس (بدلا من وزجاي بن ياسين) فى الاسلام وذلك فى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م (بدلا من ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) .

٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م فى بلاد السودان ، حيث استشهد بأرض قبيلة قنقارة (جنجارة) ، غربى مدينة بانكلايين النى كان يسكنها بنو عبد وارث ، من بطون صنهاجة (٤٤) .

النظم الاجتماعية عند قبائل المثلثين المزابية :

يضع ابن خلدون قبائل المثلثين فى صحراوات المغرب ، فى الطبقة الثانية من قبائل صنهاجة ، حسب أقدميتها فى التاريخ السياسى بالنسبة لصنهاجة أفريقية ، أصحاب الدولة الزيرية ممثلو الطبقة الأولى ، وما تفرع عنهم من الدول بالمغرب والأندلس (٤٥) . فكان صنهاجة هنا على الجذم أو الأصل لذلك الجنس من البربة الذى يوضع بين قبائل البرانس أى الحضر . هذا ، ولو أن ابن خلدون عند الكلام عن نسب صنهاجة ولمطة ينسبهما ، كما هى العادة الى أبوين أسطوريين ، هما صنهاجة ولمط ، ويجعلهما أخوين . وينسبهما الى أمهما - وليس الى أبيهما - وهى تيزكى العرجاء التى تزوجت بأكثر من رجل من البتر والبرانس ، وأنجبت أكثر من ولد صار أبا تاريخيا لقبيلة من القبائل (٤٦) ، الأمر الذى يعنى استقرار مبدأ النظام الأموى ، الذى يعنى تفوق الأم فى العائلة البربرية حيث يمكن الانتساب اليها ، وبالتالى تقنين كل ما يترتب على ذلك من امتيازات قانون الوراثة ، وحقوق النبالة والشرف (٤٧) .

والمهم انه فى منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، عندما كان ابن حوقل يجمع معلوماته عن قبائل المثلثين ، أثناء ذروة الدولة الصنهاجية الزيرية ، على عهد يوسف بلكين بن زيرى ، كانت القيادة للموغلين من المثلثين فى صحارى المغرب الأقصى وبراريه ، وهم صنهاجة أودغست تحت راية ملكهم « تنبروتان بن اسفيشر » الذى كانت تخضع له كل القبائل ويدين له زعمائها بالولاء والطاعة ، بأعدادهم التى لا تحد حتى انه كان لا يعرف الكثير ممن يترددون عليه بل ولا سمع بأسمائهم ، الأمر الذى يعنى أن اسم

(٤٤) البكرى ، ص ١٦٢ - حيث الاسم البربرى تارشى الذى صحح الى نارشت كما سبق.

ص ١١٩ .

(٤٥) العبر ، ج ٦ ص ١٥٣ - حيث استخدام كلمة « طبنة » بالنسبة للدول أشبه

ما تكون بكلمة « جيل » بالنسبة للأفراد .

(٤٦) العبر ، ج ٦ ص ٩٠ ، جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، بالفرنسية ، ص ٢٤٠

- ٢٤١ -

(٤٧) أنظر ج ١ ص ١١٦ ، وما يأتى ، ص ١٢٥ .

« صنهاجة » كان يعنى الاسم السياسى لاتحاد قبائل الملثمين تحت قيادة آل تنبروتان ، أصحاب السيادة .

ومن الواضح أن الملك الصنهاجى كان منتخبا بصفته من آل تنبروتان، بمعرفة رؤساء القبائل ومقدميها الذين كان لهم ، بطبيعة الحال ، حق عزله اذا ما عن لهم ذلك . وكانت أهم القبائل فى المنطقة ما بين سجلماسة وأودغست ثلاثة ، هى : سرطة (أو شرطة) وسمسطة ثم بنو مسوفا : أكبرها (٤٨) ، بينما يحدد ابن حوقل ٤٤ اسما لتجمعات صنهاجية من قبائل وبطون وأفخاذ ، من أصيلة أو قريبة من العروق الصنهاجية . والمهم انه من بين ١٩ (تسع عشرة) قبيلة صنهاجية أصيلة عند ابن حوقل لا نجد ذكرا منها ، عند البكرى بعد حوالى مائة عام ، فى مطلع النصف الثانى من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، الا لست فقط ، هى : بنى مسوفا ، وبنى وارث ، وسرطة ، وترجه ، وبنى لموتونا ثم لمطة (٤٩) ، الأمر الذى يعنى اندماج تلك القبائل فى بعضها البعض ، وقيام تجمعات قبلية كبيرة العدد ، تربط بينها قرابة الدم بفضل تعدد الزوجات ، ووحدة المقر (الوطن) ، بعد أن سهل الجمل طرق المواصلات فيما بينها . ومن المقبول أيضا أن تكون المسميات الباقية تعنى فى هذه التجمعات القبلية ، طبقة النبلاء أو الأشراف الحاكمة ومنها طبقة الأحرار المحاربة ، وفيهم - الى جانب أهل السياسة - رجال العلم والفقه والمعرفة والآثار والتواريخ (٥٠) ، بينما يهبط أفراد القبائل المنسية الى الطبقة المحمية « من المقهورين » ، ثم طبقة الموالى والعبيد السود ، ومنهم الخدم والرعاة والحرفيون الصغار (فى البادية) (٥١) . أما طبقة الحرفيين

(٤٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ - ٩٨ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٨ - حيث النص على حياة الملثمين الصعبة ، على أيامه (قرن ١٦ م / ١٠ هـ) ، والتي تلخصت فى عدم النظام وسرقة ابل الأعداء ، ومع ذلك فقد كانوا يدينون بالطاعة المطلقة لأميرهم - الذى كان يدعى « أمينة كال » (من الأمانة على ما نظن) - ويكتون له الاحترام .

(٤٩) ابن حوقل ، ص ١٠٠ - حيث القبائل الـ ١٣ التى نسبت اسمائها ، هى : انكيفو ، وبنى ماكسن ، وبنى كاردमित ، وبنى سيفيت ، وبنى صالح ، وبنى توتك ، وسططة ، ومداسة ، ومفرسة ، ومومنه ، وفرية ، وملوانه ثم نيكارت ، وقارن الادريسى ، المغرب العربى ، ص ٧٥ - الذى يجعل مسوفا من لمطة (مع قبيلتى وشان وغالة) بينما يجعل جداله من صنهاجة (مع قبائل : بنى منصور ، وتيمية ، وبنى ابراهيم ، وبنى تاشفين) .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ١٠ - حيث التعريف بسيد ملوك تادمكة : فهر بن الفاره ،

وايناو بن سبنزاك .

(٥١) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٩٢ - حيث الاشارة الى ان درعه (مهد الطوارق) =

حقيقة ، من : الحدادين والنجارين والصاغة والحاكة ، وغيرهم من الاتباع والغرباء فلا توجد الا فى المدن والمراكز العمرانية الكبيرة ، مما سبقته الاشارة اليه (٥٢) .

السمات الطبيعية (الفيزيكية) :

ولما كان المثلثون من صنمهاجة ، مثلهم كمثمل آبائهم الليبيين ، مرتبطين بعائلة شعوب البحر المتوسط . فهم من أصحاب الجسم الضامر والقامة المرتفعة ، والرؤوس الطويلة ، والوجه الاهليلجى ، والأنف الأقنى ، والعيون السود ، والجلد البنى (البرونزى) ، والشعر الأسود (٥٣) . وهذا لم يمنع من وجود نماذج ذات جلد أبيض وشعر أصفر أو أحمر ، مما ينم

= التى كانت عاصمتها صبيح فى القرن الـ ١٦ م كان لاهلها عبيد رنوح من الجسسين يتوالدون ، ويحتفظ الناس (أسيادهم) بالأولاد لخدمتهم ، وقارن اليعقوبى ، البلدان ، ص ٢١٤ - حيث استخراج التبر فى العلاقى عن طريق العبيد السودان الذين يحفرون ويستخرجونه كالزرنىخ الأصفر قبل أن يسبك .

(٥٢) أنظر ص ٧٤ ، هـ ٤٤ ، وقارن العمرى ، مسالك الأبصار ، نشر ابو ضيف ، ص ٧٨ - حيث سلاطين ممالك السودان الصحراوية البيض ، من البربر ، وهى ٣ (ثلاثة) فى بلاد آهير ، ودقوسية ، وتادمكة (شرق أوغست) ، وقارن مع تنظيمات قبائل الصحراء حاليا من الطوارق ، محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ٦٥ وما بعدها ، عن الطبقات الاجتماعية ، حيث النبلاء (أما جفن) والطبقة المقهورة (او اللاجنة : امقاد) ، وطبقة الفقهاء (انسلمن) ثم الحدادون (الصناع التقليديون) ثم العبيد والموالى ، وص ٤٩ - ٤٦ - حيث تقسيم بلادهم الى ٧ (سبع) مناطق تسمى سلطنات ، على رأس كل منها سلطان كما فى : غات بليبيا ، وتمنغيسست فى الجزائر (الهقار) ، وأزواغ (سلطة الليمدن غرب) والليمدن - شرق (تقريريت) ، وسلطنة آيير ، وسلطنة تمزقدا (جنوب آيير) ثم سلطنة كل أقرس (جنوب) أزواغ) ، قرب الهوسا . وأنظر ص ٦٣ - ٦٤ - حيث تتكون السلطنة من عدد من القبائل ، وتنقسم القبيلة الى عدد من المحلات أو الأحياء ، والى عدد من العشائر التى تتكون من عدد من الأسر والأسرة هى الخلية الاجتماعية الصغرى ، وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٧٦ - وحيث ينقسم طوارق الرحل اجتماعيا الى : أسياد نبلاء وأتباع وعبيد من الزوج ، والنبيل صفة للعشيرة كلها التى تكون على رأس القبيلة ، ومنها رئيسها . وعن طوارق الهجار (جنوب الجزائر) فينقسمون الى ٣ قبائل ، هى : كل دولة ، وتيفية ملت ، وطيطوق ، وأنظر ص ٣٥ - ٣٧ - عن طبقة العبيد التى عليها حراة الأرض ، فهم المراثون ، الى غير ذلك من امتنان : الحدادة والتجارة والاشارة الى انهم يتحولون فى فترات معينة الى تجار يبيعون منتجاتهم لأهل الواحات نظير ما يحتاجونه من التمر والملابس والأسلحة والأدوات المنزلية حتى أنهم يسيطرون اقتصاديا على الواحات .

(٥٣) هاينز ، طرابلس ، فى العصور القديمة ، ص ١٨ - وأنظر اسماعيل العربى ،

الصحراء الكبرى ، ص ٣٤ - ٣٥ .

عن تأثيرات وافدة من أوروبا عبر التاريخ ، عن طريق الوندال والقوط وغيرهم من جماعات أهل الشمال (النورمان) (٥٤) . هذا ، ولو أن الدم الأسود كان يقد الى الشمال بشكل طبيعي ، عن طريق اباضية زويلة - جنوب ودان - الذين كانوا يجلبون أنواعا من السودان ، من : البرين ، والزغاوين ، والمرويين ، كما كان أهل كوار جنوب زويلة ، يأتون بأنواع أخرى ، الى جانب أن ملوك السودان كانوا يبيعون أبناء بلادهم من غير شيء ولا حرب (٥٥) .

أما عن صفات السودان بعامة فهي التي عرفها اليونان قديما بشكل علمي عن طريق جالينوس ، الذي يعدد لهم ١٠ (عشر) خصال ، هي : الشعر المفلقل ، وقلة اللحية واتساع المنخار ، وسماكة الشفتين ، وقوة الأسنان ، ورائحة الجسد (الزفرة) ، وسواد البشرة ، وخروج الأذنين ، وطول عضو الذكورة ، وأخيرا الميل الى الفرح والضجيج (٥٦) .

وهكذا امتزج البيض والسود في الصحراء ، ما بين الجنوب والشمال ، وأصبح اللون البرونزي (البني) هو المميز لأهل الصحراء المغربية ، تماما كما هو الحال عند العرب في صحرائهم التي يحف بها السودان الشرقي عبر البحر الأحمر ومضيق باب المندب ، حيث البجاه ، الأشد سوادا من الحبشة الذين يتميزون بلون بشرتهم الوسط ، ما بين البياض والسود ، مثل العرب (الاصطخري ، ص ٣١) . وخير مثال لهذا النموذج الصحراوي الوسط ، بين الرجل الأبيض والرجل الأسود ، هم سكان المرتفعات الوسطى في أقاليم الهقار (الحجار) وآير وتشاد حيث الطوارق المثلثون من المغاربة البيض أصلا ، أو في تيبستي حيث التبو (Tebou) ممثلو أهل الصحراء القدماء من الجنس الحبشي أصلا .

(٥٤) نفس المصدر .

(٥٥) اليعقوبي ، ص ٢٤٥ .

(٥٦) م. ديلافوس ، الزنوج ، (بالفرنسية) ، ص ٦
(Maurice Delafosse, Les Nègres. Ed. Reider, Paris)

وقارن ابن رسته ، ص ٩٩ - ١٠٠ - حيث النص على ان ساكني منطقة خط الاستواء سود الألوان بسبب الحرارة والجفاف ، وأن شعورهم قطعة ، وأبدانهم نحيفة ، وطباعهم حارة ، وفي اخلاقهم الجفاف والذكاء .

الوحدة العرقية الصفري : الأسرة أو البيت :

الدارج عند قدامى الكتاب : استعمال المسكن للتعبير عن الأسرة أو الوحدة الاجتماعية النواة لدى شعوب البدو ، سواء الافريقيين البربر ، أو الآسيويين الترك . والبيت البدوى اما أن يكون خيمة أو خباء من الشعر أو الصوف أو الوبر ، وهو الدارج ، أو من جلد الحيوان أو من الأعشاب وفروع الأشجار وهو ما يسمى « بالحص » ، وبخاصة فى منطقة الساحل وأعشاب السفانا ، أو من الألياف الحشنة النامية بين براعم النخيل العليا ، كما فى الجنوب المراكشى (٥٧) .

وفى تفضيل الرجل الصحراوى للخيمة على البيت المبنى ، ينسب الى الطوارق انهم يسمون البيوت والمنازل المبنية « قبور الأحياء » (٥٨) . ومن الواضح أن الطوارق جنوب اصحراء شاركوا السودان فى طراز مساكنهم التى عرفت حديثا بأنها اكواخ مسنديرة الشكل تنتهى بسقف مخروطى ، أو حظائر مربعة (أو سقائف) ذات أسقف جمالونية (هرمية) مغطاة بأفرع الشجر وورقه العريض أو الأعشاب الطويلة (٥٩) . أما عن الأثاث والرياش فى خيام المثلثين وأخصاصهم ، فليس لدينا من مرجع عن طبيعتها الا معلومات القدامى من أصحاب رسوم ما قبل التاريخ ، ومن مؤرخى اليونان والرومان أو من الكتاب المتأخرين من العصور الحديثة المبكرة ، قبل مشاهدات المعاصرين . فالفراش نوع من مواد بناء الخيمة أو الحص ، فالنوم على بسط وبر الجمل أو على حصر الحيزران الناعمة (٦٠) ، والأواني المنزلية مما لا يستخدم فى الطبخ ، من : الحشب أو الجلد أو بيض النعام (٦١) .

والمهم أن البناء القبلى يقوم - بعامة - على أساس الروابط العاصبة

-
- (٥٧) انظر فيما سبق ، ص ٦١ ، وقارن ابراهيم العوام ، الصحراء ، وسوف ، ص ٨٢ ، ٨٤ - حيث مساكن زناتة من زرائب الحلفاء القائمة على أعمدة خشب الأزل والمرخ أو من جريد النخل التى تسمى طرود ، كما عرفوا البيوت المبنية من طين الشطوط ، ذات الأبواب المعمولة من عصي مشدودة بأسيار من جلود الابل أو غيرها . وانظر ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٧ وم ١٣٧ ، والبيت بالبربرية الطارقية « تازقى » ، انظر البكرى ، ص ١٥٧ .
- (٥٨) اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٠٨ ، وهو قريب من تسمية بعض اهل الخليج حالياً ، شقق الواندين بأنها صناديق (صغيرة) .
- (٥٩) ديلافوس ، الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ .
- (٦٠) ليون الافريقى ، ص ٦٧ .
- (٦١) هاينز ، طرابلس فى المصور القديمة ، ص ٢٠ .

فى خط الذكور ، بينما تحل المرأة وأهلها فى مكانة تالية • أما عن تكوين الأسرة فانه يقوم على قاعدة الزواج - الداخلى - فى العائلة أو العشيرة - وتبعاً لعرف تعدد الزوجات الذى يؤدى الى الاندماج التام بعد مدة • وبطبيعة الحال فان الأسرة رغم كونها الوحدة النواة ، فانه لا يعتد بقيمتها الاجتماعية وان تحولت الى عائلة كبيرة تحوى ثلاثة أجيال أو أربعة ، وذلك أن الحى بمعنى مجموع العشائر هو الذى يكون « الحى » أو الوطن الأصغر ، الذى يمكن أن يكون مستقلاً ، بل ويفرض سلطانه على بقية الأحياء والعشائر ، أى على القبيلة كلها(٦٢) •

النظام الأموى (الماتريارقى) :

والظاهر أن طبيعة الحياة البدوية فى الصحراء ، هى التى أملت النظام الأموى الذى يعنى سيادة الأم فى الأسرة ، عكس النظام الأبوى (البطريارقى) الدارج فى مجتمعات الريف والحضر • فالرحلة بعيداً ، سواء للرعى والسقى ، وخاصة بالنسبة للجمال أو السفر مع قوافل التجارة يضع المرأة الباقية فى الدار أمام مسئولياتها ، ليس فى إدارة البيت وشتون الصغار والمسنين فقط ، بل وفى الدفاع عن الحى اذا ما اضطرتها الظروف الى ذلك(٦٣) • ولما كانت التفرقة الأولية بين قيمة الرجل والمرأة قائمة على القوة الاقتصادية ، فان تقسيم العمل فى المجتمعات البدوية يظهر الأهمية النسبية الكبيرة للمرأة • فاذا كان الرجل هو راعى الجمل بالامتياز فان المرأة هى راعية الغنم والماعز بالتخصص ، كما أنها تشارك الرجل فى مراعاة الإبل وسياستها ، وخاصة وقت النتاج ، فى فصل الشتاء(٦٤) •

(٦٢) وهذا ما يقول به الأنثروبولوجيون ، من : ان كل جماعة قرابية تؤلف فى الوقت ذاته وحدة مكانية متميزة ، وانه رغم انتشار أفراد الجماعة القرابية الواحدة الا ان اسم الجماعة يظل مرتبطاً بالاقليم الذى يعتبر بمثابة الوطن الاساسى لهم ، بمعنى ان الجماعات المجاورة فى المكان داخل ارمس القبيلة ، تكون مرتبطة بروابط قرابة من درجة معينة • انظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ١٩٩١ ، ص ١٦٨ - مع الأخذ فى الاعتبار ما قد يكون من الاختلافات بين سكان شمال شرق افريقيا (سيناء) وشمال غرب القارة (الصحراء الغربية) •

(٦٣) انظر فيما سبق ، عن قصة اللثام ، ص ٨٠ ، هـ ٥٩ •

(٦٤) انظر (مع الفارق) أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى شمال سيناء ، ص ١٧٩ - حيث ما للمرأة من قيمة اقتصادية كبيرة ، وذلك فى توزيع العمل بين النساء والرجال ، ورغم ذلك فالمجتمع يسوده النظام الأبوى بمعنى سيادة الرجل - وهو الأمر -

وعلى الرغم مما عرفتته المرأة من المركز المتميز في المجتمع الطارقي قديما وحديثا ، من حيث العمل ، والسفور ، والتمتع بقدر واضح من الحرية في معاملاتها العاطفية ، فمن الواضح أيضا أن تلك الحرية كانت شكلية ، وأن السيطرة كانت للرجل . حقيقة أن بعض النساء قد وصلن إلى مركز الزعامة كالكاهنة قديما (انظر ج ١ ص ٢١٧) أو أن بعض عظماء الرجال من أهل الحرب والسياسة انتسبوا إلى أمهاتهم ، كما هو معروف عند المرابطين ، من ابن فاطمة وغانية أوفانو مما يأتي ذكره أيام بنى تاشفين (ص ٣٠٦ ، ٣٩٢) ، إلا أنه لم ينبغ من نساء الملتحين نابغة ، كما كان الحال عند الترك ، من : شجر الدر (عند الماليك) وتركبان خاتون (عند السلاجقة) أو خواتين السلطان (عند ترك القرم) . أما عن نموذج زينب النفزية ، زوجة صاحب أغمات ثم زوجة زعيم المرابطين « أبوبكر بن عمر » ، فبعده يوسف بن تاشفين ، فانها لم تكن صنهاجية بل زنانية (ما بعد ص ٢٥١ ، ٢٥٤) .

والمهم أن ذلك المجتمع « الأموي » الإفريقي ، أي الذي يقدر المرأة كعضو عامل في المجتمع ويحترم مشاعرها كإنسان عاقل له حقوقه المساوية لحقوق الرجل بالرضا والاختيار ، استوحى مبادئ حقوق الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة من مصر القديمة ووادي النيل (٦٥) . ومن هناك انتشرت إلى السودان النيل بين البجاء والزنج والحبشة ، وإلى شمال أفريقيا من حيث انتشرت إلى الصحراوات الوسطى ، وصارت من ثوابت العادات والتقاليد في الصحراء جنوبا ، وفي السودان الغربي الذي كان يزدهر بنسائه (٦٦) . فرغم أن بلدة تسابيت ، على ٢٥٠ ميلا شرق سجلماسة كانت بمثابة منطقة انعزال صحراوية ، حيث يوصف أهلها بأنهم زنوج ، فإن نسائهم يوصفون بالجمال وإن كن سمرراوات (٦٧) . أما سجلماسة ، على خط التقسيم الحدي بين عالمي البيض والسود ، فقد كانت سوقا رائجة ، ومدرسة متخصصة

= المستغرب . وانظر ص ١٨٧ - حيث الرعى والعناية بالقطيع ، يعلم الفتاة الدقة والحرص ، وحسن استغلال الوقت ، والتعرف على طبائع الحيوان والتعامل معه برموز الأصوات والإشارات التي يدركها ، كما كان للنساء خبرة في عمليات توليد النوق ، دون الرجال .

(٦٥) انظر جوتييه ، ماضي شمال إفريقيا ، ص ٣٤ وما بعدها - حيث الأثر المصري بشكل عام ، وانظر الصحراء ، ص ١٤٥ وما بعدها .

(٦٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ص ٧٧٧ ، وانظر شكل ٩ - حيث امرأة بربرية سافرة تماما وبصحبتها خادمتها (أسيرتها) السودانية .

(٦٧) ليون الإفريقي ، ص ٥٠٥ هـ ٧١ .



شكل رقم ١٢ - امرأة بربرية (مغربية) وبصحبتها خادمتها (اسيرتها)

لتدريب الجوارى من البيض والسود ، على مختلف أنواع الخدمات المنزلية من الأظعمة أو الترفيه (٦٧ م) .

أما فى السودان فكانت النساء فى بعض مواطن العراة يترددون على الأسواق (الدولية) لا تستر الواحدة منهن الا عورتها بسيور من الجلد المصفور (٦٨) .

حرية المرأة فى النظام الأموى :

والظاهر أن النظام الأموى الذى كانت تعرفه كثير من قبائل الطوارق والذى يسمح بنوع من الحرية للمرأة البربرية ، كان سببا فى ظهور أدب قصصى موضوعه العاطفة بين الرجل والمرأة من انسانية رفيعة ، وشهوانية وضیعة . وهنا لا بأس أن يكون للنزاعات التاريخية بين العرب والبربر ، وما نتج عنها من اتجاهات شعوبية مناهضة لأحد الفريقين أو الآخر ، أثر فيما يظهر من تحريف لبعض هذا القصص الذى يقتضى أن يكون ذا أهداف نبيلة فى أصوله الأولى وان كانت النبالة والوضاعة نسبية - كما هو الحال بالنسبة للحقيقة .

وهنا يمكن الإشارة الى ما يقال من جريان عادة اكرام الضيفان بتقديم بعض نساء الأسرة لهم . وفى هذا الشأن يقدم لنا الادريسي رواية عن مدينة

(٦٧م) أنظر البكرى ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ - حيث كان يجلب من أودغست جوار حسان الوجوه بيض الألوان ، مائسات القدود لا ينكسر لهن نهود ٠٠٠ ، لطاف ضخام الأرداف ٠٠ ، المستمتع باحداهم كأنه يستمتع ببكر أبدا . هذا كما كان العدول من مشايخ فاس ، وجبل نفوسة ، ويروون الطرف عن مشاهداتهم فى جمال نساء أودغست ذوات الحصور اللطيفة والأرداف العظيمة ، الأمر الذى كان يسمح لولد الواحدة منهن الطفل بالدخول تحت خصرها والنفوذ من الجهة الأخرى ، وأنظر الاستبصار ، ص ٢١٥ - حيث كانت تجلب سودانيات طبائحات محسنات فى عمل أصناف الحلوات من الجوزينقات واللوزنجات والقاهريات ، من الكنفات والقطائف ، يزيد ثمن الواحدة منهن على ١٠٠ (مئة) دينار وأكثر . وقارن الادريسي ص ٧٨ - عن السوس - حيث : نساء حاذقات فى الصناعات . أما عن نساء تادمكة ، شرق أودغست (الاستبصار ، ص ٢٢٤) فقد اشتهرن بانهن فائقات الجمال حتى قيل انهن أجمل نساء العالم .

(٦٨) الاستبصار ، ص ٢٢١ - حيث الإشارة أيضا الى ان النساء كن يحلقن شعر الرأس ويطلقن شعر العانة . ومن النكت الطريقة فى هذا الشأن ما يروى من أن واحدة منهن عبرت لأحد التجار عن إعجابها بلحيته الكثنة الطويلة حتى أنها تمننت لو كانت ملثها فى عانتها ، الأمر الذى أثار حنق الرجل وغضبه - عندما ترجمت له مقالتها - حتى شنع فى سبها .

أزكى ، وهي جوجدم باللغة الجناوية (السودانية) ، والتي تعتبر سرّة وطن قبائل مسوفة ولمطة ، وعقدة المواصلات الى مدن سلى وتكرور وغانة ، تقول على لسان من دخلها - دون التعريف به - « ان النساء اللاتي لا أزواج لهن عند (سن) الأربعين ، يتصدقن بأنفسهن على من أرادها » (٦٩) . واذا كان مثل هذا اللقاء يمكن أن يعتبر نوعا من زواج المتعة الذي عرفه الشيعة في المغرب ، فان تلك الرواية عندما تتحول بحيث تعنى : أن المرأة هي التي كانت تختار الرجل الجميل أو الشجاع وتستضيفه لكي تأخذ منه نسبا متميزا يمنع من ذلك (٧٠) ، وان كان من المقبول أن يكون الأمر متعلقا أصلا باستضافة بعض التجار العابرين من أجل البيع والشراء ، وهم في الطريق إلى السودان أو العودة منه .

والحقيقة ان ما يقوله الحسن الوزان عن نساء المثلثين يمكن أن يكون قرينة على اتجاهات شعوبية عند أصحاب تلك الروايات ، مناهضة للبربر . فوصف النساء المغرى من حيث أنهن بدينات ، ذوات أرداف (ثقيلة) وأثداء ناعمة ، وقوام دقيق (٧١) ، يتبعه القول أنهن لطيفات عند الحديث ، يمدن إليك أيديهن ، ويندفعون في الملاطفة الى حد السماح بتقبيلهن دون التماهى في ذلك ، فالرجال يقتلون لأسباب مثل هذه (٧٢) .

(٦٩) المغرب العربي ، تحقيق محمد صادق ، ص ٧٥ - ٧٦ .
 (٧٠) أنظر الاستبصار ، ص ٢٢٣ - حيث الإشارة الى أن نساء تادمكة فائقات الجمال ، وانباغ ذلك بالقول ان الزنا عندهم مباح ، وان النسوة هناك يتصارعن على الرجل الجميل أيتهن تحمله الى منزلها . وقارن هاينز ، طرابلس في العصور القديمة ، ص ٢١ ، الهامش - عن عادة تعدد الزوجات بين بعض قبائل الصحراء قديما ، حيث الإشارة الى أن هيرودوت يقول ان قبائل النزامون كانت تمارسها بشكل دارج ، مع الإشارة الى ان المبالغة في حرية المرأة قبل الزواج لدى هذه القبائل ربما كانت بسبب عدم معرفة اليونان والرومان لعادة تعدد الزوجات .

(٧١) ليون الافريقي ، الترجمة ، ص ٦٩ ، هـ ١٤٢ - حيث الإشارة الى أن هذا الوصف خاص بالنساء عند القبائل الارستقراطية .

(٧٢) نفس المصدر والصفحة ، وهـ ١٤٣ - حيث النص على السماح للرجال بزيارة النساء والملاطفة الخفيفة ، اما الانصال الجنسي فعقوبته تصل الى الاعدام . ومثل هذا معروف عند جماعات البدو الأخرى سواء في صحراوات افريقيا أو آسيا . وعن عادة اللقاء بين الشبان والشابات عند الطوارق المعاصرين ، أنظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ص ٨٩ - حيث اللقاء في الأفراح والمرأة سافرة والرجل ملثم ، وص ٩٠ - حيث السمر في الصحراء : من : إيقاد النار ، والاستماع الى الموسيقى والغناء ، وجلوس كل شاب الى جانب محبوبته (عشيقته) في عفة دونما شيء يجرح الطهر والحياء حتى الفجر ، ص ٩١ - حيث يتم الاتفاق على الزواج عندما =

هذا ، ولقد انتشرت عادة تحرر المرأة هذه ، من الشمال الى الجنوب السودانى حيث لاحظها ابن بطوطة فى رحلته الى مالى فى ايالاتى (ولاتة) التى حلت محل أودغست ، حيث سمح لنفسه باستنكارها ، ولكنه قوبل برد مضيفه بأن المهم فى استقبال المرأة لصديق من الرجال هو العفة والسلوك الفويم - عكس سلوك التستر الفاسد (٧٣) .

كتابة التيفيناغ (٧٣ م) :

وفى اطار النظام الاموى يمكن وضع لغة البدو الملثمين فى العصر الوسيط وخلفائهم الطوارق المعاصرين ، وخاصة خط تلك اللغة التى لم تعد مستعملة كتابة منذ الفتح الاسلامى الا بشكل عرضى ، وسط الخط العربى واللغة العربية ، وسيلتا التفاهم على المستوى الرسمى بشكل خاص . ومن الواضح أنه على عكس ما قد يظنه البعض من أن اللغة العربية - بصفتها لغة القرآن والاسلام - هى التى وضعت حدا لاستخدام اللغة والكتابة البربرية ، فالصحيح أن البربرية كانت قد اضمحلت تماما فى أعقاب الحكم الرومانى لبلاد البربر ، كما كانت الكتابة قد ضاعت تماما (٧٤) ، على امتداد ألف سنة تقريبا .

فعند وصول العرب الى المغرب الأقصى (فى النصف الثانى من القرن الـ ٧ م) كانت الرطانة اللاتينية متغلغلة بين البربر حتى قلب الصحراء فى بلاد الجريد وامتداداتها بالجزائر ، وفى واحات المغرب الأقصى . أما اللغة البربرية فكانت لاجئة فى مناطق الانعزال الجبلية والصحراوية ، كما فى جبل نفوسة وجزيرة جربة والقبائل (بالجزائر) ، وفى جبال مراكش (السوس الأقصى) (٧٥) ، حيث أن جبل « درن » يعنى « جبل الجبال ».

= يتأكد الشاب من حب صاحبه له ، وكيف يتم ذلك . . . ، وانظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ص ١٨٨ - حيث النص على ان المجتمع يسمح للمرأة (قبل الزواج) بالخروج للرعى (السرح) فى الجبال والأودية ، وان القانون العرفى ونسق القيم السائدة تعمل على الحفاظ على كرامة المرأة ، حيث افترض طريق الفتاة الراعية يعادل الاعتداء على العرض ، وص ٣٠١ - حيث النص على العقوبات المشددة بالنسبة للاعتداء على المرأة . وان كانت لا تتجاوز الغرامات الشديدة على كل حال .

١. (٧٣) الرحلة - نحقق على الكتانى ، ج ٢ ص ٧٧٧ .

٢. (٧٣ م) أنظر ج ١ ص ١١٠ .

٣. (٧٤) ليون الافريقى ، ص ٧٩ .

٤. (٧٥) أنظر ليون الافريقى ، ص ٨٨ - حيث انتهى (فى القرن الحـ ١٦ م) على أن =

« (ما سبق ، ص ٦٩ ، هـ ٣٤) وحيث « نول » أو « نون » على حافة الصحراء
تتعدى الابرّة بالبربرية القديمة (٧٦) .

واللغة البربرية (الافريقية عند حسن الوزان) تسمى عادة « أوان
أمازيغ » أى اللغة النبيلة ، من حيث هى لغة الفرسان ، وهى واحدة من
مجموعة اللغات الحامية والافريقية . وإذا كان بينها وبين لغة العربية شىء
من التشابه ، فالرأى أن ذلك نتيجة الاحتكاك الحضارى ، وليس بسبب
« القرابة العائلية (اللغوية) » (٧٧) .

والمهم من كل ذلك أن الفضل يرجع الى النساء فى الحفاظ على اللغة
البربرية فى مناطق الانعزال ، سواء فى الجبال منها أو اصحراوات أو الجزر ،
حيث بقيت المرأة بعيدا عن مراكز العمران العربية ، وتأثيراتها الحضرية على
المستويات الرسمية والشعبية ، لا تعرف الا لغتها الأم التى كان يتلقنها
الأطفال حتى سن الشباب (ج ١ ص ١١١) ، وهو الأمر المقبول بالنسبة
لانتشار العروبة ، ليس فى المغرب البربرى فقط ، بل وفى المشرق الايرانى ،
حسبما نرى أيضا . والأهم من ذلك هو أن المرأة البربرية احتفظت ببقايا
الكتابة الافريقية ، ممثلة فى الرموز المستخدمة فى الوشم الذى كان
يستخدم لأسباب طبية علاجية أو لأسباب أخرى مثل تلك النقوش المستخدمة
فى ذلك النوع من الحناء السائلة (كالخبر الشينى البنى) ، التى عرفها

= ضياع الكتابة الافريقية منذ ٨٠٠ سنة ، واستعمال الحروف العربية بدلا منها ، وما ١٩١١ - حيث
كان انتشار اللغة البربرية حتى جزر الكنارى (الحالات) ، وفى اواسط الصحراء الكبرى ،
وغربها .

(٧٦) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٥٢٥ ، وهنا يمكن القول أن آخر مجموعة موحدة
لفويا تتكلم البربرية هى الموجودة فى الصحراء ، وأن لهجة أهل الصحراء هذه تنتسب من حيث
التركيب اللغوى الى لهجة قرى جباله الأطلس الغربية . أنظر لارنود ، الجزائر ، بالفرنسية ،
ص ٦٦ .

(٧٧) أنظر ليون الافريقى ، ص ٤٧ - حيث الاشارة الى ان وجود بعض الكلمات العربية
فى اللغة البربرية يعنى وجود قرابة بين اللغتين ، فكأنهما من عائلة لغوية واحدة ، الأمر الذى
تفسر على أساسه القرابة بين البربر والعرب الحميرين من اليمن . وقارن محمد سعيد القشاط
« التوارق » ، ص ٢٩ - بحيث تسمى لغة الطوارق حاليا (تمشاك) وهى « التفيناغ » ، ص ٢١ -
حيث النص على انها لغة الفينيقيين فهى سامية عربية أصلا ، مع الاشارة الى بعض النماذج ،
مثل : « أودم » = الوجه ، « ايسلان » = أسالك عن حالك ، وص ٣٤ - حرف +
(= ت) ، وهو يوسم على رقاب الابل ، لأنه أول حرف فى اسم « توارق » أو (تماشق)
« وأنظر ج ١ ص ١٢٠ (عن البربرية) ، ص ٨٧ والهوامش عن القرابة بين البربر وعرب
اليمن .

المصريون باسم « حنة الزرافة » ، والتي كانت تزين أيدي النساء وأرجلهن في المناسبات الفرحية وخاصة زواق العروس « ليلة الحناء » .

والمعروف أن هذا اللون من زينة الحناء الذي كان منتشرًا لدى عامة أهل الاسكندرية (باب المغرب) وربما لدى غيرهم ، كان مركبًا من وحدات زخرفية صغيرة الحجم مما يشبه حروف الكتابات القديمة ، من : نبطية وثمودية وصفوية (أو ديموطيقية) (٧٧ م) . ولهذا يرى البعض أن ذلك الطراز من حروف زخرفة الحناء النسائية لدى الطوارق بصفة خاصة ، والذي يسمى « تيفيناغ » هو آخر تطور لأشكال الكتابة البربرية (٧٨) .

وهكذا يمكن القول أن الصحراء ، على مشارف القرن الخامس الهجري

(٧٧ م) أنظر الاستبصار ، ص ٥٨ - ٥٩ وم ١ - حيث تخطيط للنم المصري القديم مع مقارنة بالحروف العربية ، حسبما تصورهما مؤلف القرن ١٢ م العربي . وعن الأثر المصري القديم في الصحراء الأفريقية الكبرى . أنظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٤٥ وما بعدها . وعن ليلة الحنة في مصر الحديثة ، أنظر ا . و . لين (Lane) ، عادات ونقايد المصريين المحدثين (من مكتبة د . عبد المعز) (Manners and customs of the Modern Egyptians) ص ١٧٢ - وإن عرف المؤلف بالحنة العادية في شكل عجينة يابسـة دون إشارة إلى حنة الزرافة السائلة . أنظر شكل ١٣ - حيث كنف امرأة (عروس) مزوقة بحنة الزرافة في أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة - من كتاب : فاطمة برنيس Bernisse بعنوان : جنس ، فكر ، اسلام - مجموعة : المرأة والمجتمع ، ترجمة فرنسية عن الأمريكية - صورة الغلاف - من مكتبة أحمد أبو زيد .

(٧٨) أنظر ج ١ ، ص ١١٠ وما بعدها ، وقارن ليون الأفريقي ، ص ٨٠ وم ٨٨ ، وص ٨١ ، وم ١٩١ - حيث النص على أن التيفيناغ لدى الطوارق هي الكتابة اللبية البربرية في شكلها الحديث أو أنها مشتقة منها على كل حال ، وقارن لارنود ، الجزائر ، بالفرنسية ، ص ٦٧ - حيث احتمال أن تكون كتابة التيفيناغ من أبجدية الليبيين ، وهي كتابة الطوارق ، وخاصة النساء ، اللاتي يمارسـنها بتخطيط التلاميذ الصغار المبتدئين ، وهي ما زالت باقية ، على كل حال . وأنظر شكل (١٣) نقش الحناء في يد العروس في المغرب ، صورة الغلاف لكتاب « فاطمة برنيس » (Fatma Bernisse) ، الجنس والفكر والاسلام (Sexe Ideologie Islam) باريس ١٩٨٣ . هذا ، كما يمكن أن ترى بعض حروف تلك الكتابة ، من : الدائرة والمثلثات (دلتا) والخطوط المنحوجة في أشكال دائرية أو مدببة أو متقاطعة ، في التطريز الزخرفي « للشال » أو « الطرحة » النسائية ، من عمل راحة سيوة ، كما يروي بعض أبنائها (أحمد السنوسي معرف) .

(١١ م) ، كانت مركز جذب للتقاليد المغربية القديمة وحفظ لها ، فى مقابل بلاد العمران الشمالية التى صارت مركز قلقلة وطرود ، نتيجة للصراع بين القبائل الصنهاجية والزناتية ، تحت رايات القوى المتنافسة من الفاطميين فى إفريقية والأمويين فى الأندلس ، الأمر الذى ازداد اشتعالا بقدم الهلالية الى المغرب تحت تهديد الفاطميين وترغيبهم ، وذلك ما يقتضى التعريف بأحوال أهل الصحراء المثلثين الثقافية والدينية من حيث كونها المدخل الطبيعى لفهم أصول حركة الأحياء المرابطية .



شكل رقم ١٣ - كف امرأة (عروس) مزوق بحنة الزرافة فى أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة

مقدمات الحركة المرابطية :

خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م) :

يتطلب رسم خريطة ثقافية لصحراء المغرب الكبرى قبيل ظهور المرابطين ، قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى (١١ م) أن نتعرف على المراكز العلمية المحيطة بالصحراء ، والتي كانت على صلة بها عن طريق خطوط القوافل ما بين الشمال حيث حضارة المتوسط الاسلامية ، والجنوب حيث حضارة السودان الافريقية والمتطورة تحت التأثيرات الاسلامية الوافدة .

وأول ما يلاحظ هو أن قبائل الصحراء فى ذلك الوقت ، ورغم دخولها فى الاسلام منذ فترة مبكرة ، فإنها لم تكن تعرف من الاسلام الا واجهته السطحية من حيث كونه دين التوحيد الالهى فى مقابل التعددية فى عبادة الأصنام أو الكواكب والنجوم مما كان يعرفه الصابئة أو عبادة النار المجوسية ، أو السحر والشعوذة مما يدخل فى عبادة الأرواح من خيرة وشريرة ، أو الطوطمية حيث عبادة الحيوان من داجن ووحشى ، مما يرجى خيره ويتقى شره . وليس من المستغرب أن كانت مثل هذه الممارسات موجودة ، وخاصة فى المناطق المنعزلة حيث كان لها أثر فى تحوير الفكر الاسلامى وتحريفه ، فى كثير من المناطق المنقطعة ، والتي كانت أرضا صالحة لانتشار المذاهب المعارضة لدولة الخلافة - ان لم نقل للسنة والجماعة .

ونظرة خاطفة على خريطة المغرب الدينية توضح أن الصحراء الكبرى كانت واقعة تحت ضغوط المذاهب الشيعية والخارجية بفرقها المختلفة ، منذ وقت مبكر . فمذهب الزيدية (الشيعى المعتدل) بدأ ينتشر على حدود الصحراء بفضل جهود الأدارسة الذين بنوا مدينة تامدلت على مسافة ٢٠٠ كم شرقى درعه ، فى قلب وطن المثلثين من بنى ترجا (الطوارق)(١) .

(١) انظر اليعقوبى ، ص ٣٥٩ - حيث أسسها عبد الله بن ادريس العلوى ، فى موضع تحيط به مناجم الذهب والفضة ، وان أهل المنطقة هم بنو ترجا . وتضيف الرواية ان الطريق الى بلد غشت (أودغست) فيه المنازل ، وفيه ملك لا دين له ، يغزو بلاد السودان وممالكهم . وقارن البكرى ، ص ١٦٣ - حيث مناجم الفضة دون ذهب .

والظاهر أنه منذ هذا الوقت بدأ التشيع الفاطمي الاسماعيلي في الانتشار في سفوح جبال أطلس الصحراوية ، في منطقة تازرار ، حيث منجم الفضة القديم الذي كان يستغله الصنهاجيون من بني ماغوس ، وبني الماس ، والذين كانوا قد اعتنقوا جميعا مذهب الاسماعيلية (الروافض) الفاطمي على أيدي بعض دعاة المذهب القادمين من نقطة (من بلاد الزاب) قبل دخول أبي عبد الله الشيعي أفريقية . هذا ولو أنه يفهم من الرواية أن الإدارة كانوا قد نجحوا في اكتساب هؤلاء الاسماعيلية الذين عرفوا باسم البجليين عندما نشروا بينهم فكرة أن الإمامة تكون في ولد الحسن ، وليس الحسين^(٢) . هذا ولو أن التشيع الفاطمي لم يلبث أن كانت له الغلبة في قلب صحراء المغرب الأقصى حيث تمت الهيمنة على مدينة سجلماسة التي صارت جزءا من المملكة العبيدية^(٣) . وبفضل دعاة التشيع الاسماعيلي الفاطمي ، المبني على إمامة الحسين ، الإمام المستقر ، عرف ذلك المذهب في قبيلة مراسة الصنهاجية ، القاطنة في مدينة بوغرات ، جنوبا بالسودان^(٤) . كما كان سكان مدينة تيويوين في بلاد السوس شيعة جعفرية (اثنا عشرين)، مقابل أهل تارودانت المالكية الحشوية^(٥) .

والى جانب الشيعة كان الخوارج الصفورية قد سيطروا على حدود الصحراء في سجلماسة وتمكنت الأسرة المدراوية من التشبث بها رغم الفتح الفاطمي^(٦) . وإذا كان التأثير الخارجي غير واضح بين قبائل صنهاجية الصحراء ، فإن تجار تاهرت الاباضية كان لهم نجاحهم في نشر الاسلام في السودان (ج ٢ ، ص ٤٠٦ وم ٣٩٢) . ومن بين الاباضية من تجار أودغست ، أهم مركز تجاري جنوب الصحراء في القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، أبو رستم النفوسي الذي تروى له بعض مشاهداته الطريفة في بلاد السودان^(٧) .

والى جانب خصوصيات مذاهب المعارضة الشيعية والخارجية ، كان

(٢) البكري ، ص ١٦١ .

(٣) أنظر ج ٣ ص ٩١ ، ٢١٧ ، ٣٤٣ .

(٤) الاستبصار ، ص ٢٢٤ - حيث كان تفسير الدعاة لصوت طائر هناك ، بأنه يعبر عن

النداء بمقتل الحسين في كربلاء .

(٥) الادريسي ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٦) ج ٣ ، ص ٢٣٧ - حيث تحولت الإمارة في سجلماسة الى خلافة .

(٧) البكري ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - عن محاسن نساء أودغست .

للصحراء خصائصها المميزة مما يتمثل في التنظيمات الاجتماعية والانساق العرفية والعادات والتقاليد ، اضافة الى ما سبقت الاشارة اليه من نظام الأسرة الأدوى ، وما كان للمرأة من الحرية عند بربر الصحراء (ما سبق ، ص ١٢٥) ، وما كان دارجا من اجراءات التحقيق مع المتهمين فى جرائم السرقة وغيرها ، مما يشبه نظام المباحلة أى الحكم الألهى (الأوردالى : Ordalie) ، مما نراه من عادات الصحراويين عند البكرى (٧ م) . فالادريسي (منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م) ، يصف أهل السوس - دون تفرقة بين السنة والشيعة - بأنهم أرق الناس عيشا ، وانهم يشربون نوعا من النبيذ الحلو المذاق ، المعد من عصير العنب المطبوخ ، والذي يعرف بالأنزاز ، ويسكر سكرًا عظيما . وفى أواخر ذلك القرن كان أهل السوس متخصصين فى عمل أنواع من النبيذ المستخلص من عسل بلدهم الفاخر الذى كان يتطلب شرا به التخفيف بالماء بنسبة ١٦ (ستة عشر) مثلا ، ليخرج بديع اللون الأخضر الذى يشبه الزمرد (٨) . ومن الواضح أن شرب هذا النبيذ كان مباحا على أساس ما كان معروفا من تحليل شراب بعض أنواع النبيذ (٩) ، على مذهب أهل العراق ، على ما نظن . والذي يلفت النظر أن مثل هذا النبيذ لم يكن منتشرا فى القرن الـ ١٦ م / ١٠ هـ فقط ، حسب رواية الحسن الوزان ، فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد السكر وحدها ، بل وفى غيرها من قرى جبال درن (١٠) . والمهم هنا الاشارة الى أن ما كان يمارس على تخوم الصحراء من اختراقات للشريعة فى مجالات الطعام والشراب ، لم يعرف مثله فى الصحراء الفقيرة ، التى ربما كانت فى حاجة الى الملح أكثر من احتياجها الى المواد السكرية ، وما يستخرج منها من الأغذية الكمالية .

أما آفة الصحراء والبدو عامة وفى كل مكان ، فهو الفقر الذى كان يؤدى الى اختراق شرائع الأحوال المدنية ، وخاصة عند القيام بأعمال السلب والنهب والقتل ، واختطاف الذراري والنساء ، وخاصة على حدود السودان

(٧م) انظر البكرى ، ص ١٧٠ - حيث النص على أنه من سبر أهل الصحراء لمتهم أن يعمدوا الى عود فيشق بأثنتين ويشد على صدغيه فى مقدم رأسه ومؤخره فلا يتمالك أن يقر ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدة .

(٨) الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(٩) الادريسي ، ص ٧٩ .

(١٠) ليون الافريقى ، ص ٢٢٦ فى فاس ومملكتها ، ص ٢٣٢ فى جبال القبائل المختلفة

(حيث الكرم والعسل) .

- مورد العبيد - : الذهب الأسود فى تلك العصور . وهكذا كانت قبائل لمطة وجزولة ، أشهر قبائل المثلثين (الطوارق) فى مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، تغير على قوافل التجار الوافدة على السودان والحاريجة منه ، وذلك فى منطقة عقدة المواصلات ، ومحطة المياه ، على مسافة ٥ (خمسة) أيام (حوالى ٢٠٠ كم) شمال أودغست (١١) . ولا ندرى ان كان نتاج مثل أعمال السلب هذه هى التى كانت تميز سوق منطقة جزولة فى القرن الـ ١٦ م والتى كانت تستمر حسب رواية الحسن الوزان لمدة شهرين ، وان كانت المنطقة غنية وقتئذ بمناجم النحاس التى كانت تصنع منه أوعية بديعة تصدر الى مختلف الأنحاء لمقايستها بالأقمشة والتوابل والحيول ، رغم وصفه السكان بأنهم أجلاف لا يعرفون العملة (١٢) . وهكذا يلخص الحسن الوزان أحوال المثلثين المعيشية على أيامه (القرن ١٦ م) بأنها حياة صيد وسرقة ابل أعدائهم ، وأنهم قوم لا يخضعون للنظام - رغم طاعتهم لأميرهم واحترامه ، كما يأخذ عليهم الجهل فى الآداب والفنون والمعارف (١٣) . وبينما ينصرف الزنوج الى حب المتعة والمرح والرقص ، يستنكر الوزان عيوب الأفارقة (البربر) ، من : الفقر وسرعة الغضب والتعارك ، الى عدم العفة والديوثية ، حتى ينتهى قائلا : « أشعر بالحياء لأن أفريقيا كانت موطنى » (١٤) - ولا ندرى ان كانت مثل هذه المشاعر تراود زوار أوروبا والعالم الغربى من الأفارقة بعامة ، بيضا كانوا أم سودا .

حقيقة أن بعض رواد الإصلاح الأوائل من زعماء المثلثين ، مثل يحيى ابن ابراهيم الجدالى قد نص على أن قومه كانوا يعانون من الجهل ، ولا يعرفون قراءة القرآن ولا تعاليم الاسلام الأولية التى يدعو اليها القرآن والسنة (١٥) ، ولكنه من الواضح أيضا أن الصحراء لم تكن خلوا من الحياة الروحية والثقافية ، بفضل مراكز التجارة والحضارة التى كانت بطبيعة الأحوال مراكز العلم والدين ، وخاصة سجلماسة وأودغست بالنسبة للسودان الغربى ، وتادمكة بالنسبة للسودان الأوسط ، فى مقابل مركزى الاشعاع الرئيسيين فى فاس والقيروان .

(١١) البكرى ، ص ١٥٧ - حيث النص : وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان ، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ، ويتخذونه رسدا لهم .

(١٢) ليون الإفريقى ، ص ١٥٥ .

(١٣) ليون الإفريقى ، ترجمة : حميدة ، ص ٦٧ .

(١٤) ليون الإفريقى ، ص ٩٧ - ٩٩ .

(١٥) القرطاس ، ص ١٢٢ - ١٣٢ وما يأتى ص ١٧١ .

فسجل ماسية التي زارها ابن حوقل في سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م ، كانت أكثر بلاد المغرب مشايخ في حسن سميت وممازجة للعلم (١٦) . وأودغست التي يعرفها اليعقوبي (في أواخر القرن ٣ هـ / ٩ م) باسم « غشط » ، كانت في حوزة ملك ملحد (لا دين له) يحارب ملوك السودان (١٧) ، الأمر الذي انتهى بغلبة ملك غانة عليها . والمعروف أن الزناتية والمرب كانوا يكونون الكتلة الكبيرة من سكان أودغست في مطلع القرن الخامس الهجري (١١ م) ، وأنهم كانوا مياسير يعملون في مرافق التجارة ، ولهم من العاملين في تلك النشاطات الألف رجل أو أكثر ، من الخدم المتبرسين والعبيد الحماليين (١٨) . ولا بأس أن يكون ما يشير إليه البكري من التباغض والتدابير بين الغريقتين يعني التنافس بينهما في الأعمال التجارية ، ومحاولة استئثار كل جماعة منهما بالنصيب الأعظم منها .

وهكذا لا نجد لأودغست نشاطا في ميدان العلوم والفنون ، حتى بعد أن دخلت في طاعة المرابطين . فصاحب الاستبصار (في أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م) يصف أهل أودغست بأنهم أخلاط من الناس من جميع الأمصار ، يسكنون المنازل الرفيعة (١٩) ، دون إشارة إلى أي نشاط ثقافي أو علمي بينهم ، مما يعني انشغالهم بأمور التجارة وخدماتها . ومثل هذا يقال عن تادمكة ، شرقي الصحراء على سمت غدامس ، رغم ما يقال من أن اسمها يعني « شبيهة مكة » ، وأن أهلها مسلمون ، إلا أنهم مشغولون أبدا بأمور التجارة وخدمات التجار (٢٠) .

وهكذا لم تكن تسمح طبيعة الحياة الصحراوية البسيطة ، حيث الاشتغال بالرعي أو التنقل على طول طرق التجارة أو حتى الإقامة في مراكزها الكبيرة في حركتها الدائبة ، من الاشتغال بالعلم والثقافة . وهم لذلك لم يعرفوا النشاط الفكري وحياة التأمل الديني إلا في مراكز المغرب الكبرى ، وخاصة في فاس والقيروان ، عاصمتي المغرب وأفريقية .

(١٦) ابن حوقل ط بيروت (الحياة) ، ص ٩٦ ، وانظر الحبيب الجيجاني ، المغرب : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٧٥ ، وقارن ليون الافريقي ، ص ٥٠٤ - حيث كان أهل فيقيق (على بعد ٢٥٠ ك . م شرق سجلماسة) يتصرف بعضهم بالتجارة في السودان ، وغيرهم يذهب إلى فاس للدراسة ليكون اماما أو خطيبا .

(١٧) اليعقوبي ، ص ٣٥٩ .

(١٨) البكري ، ص ١٦٨ .

(١٩) الاستبصار ، ص ٢١٥ .

(٢٠) البكري ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

فاس والقيروان وحركة الاشعاع الاسلامي في مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م :

تمهيد :

والحقيقة أن النظرة الفاحصة في سير علماء الدين والثقافة في الفترة ما بين أواخر القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ومنتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، تبين أن كلا من فاس والقيروان ، كانت وقتئذ مركزا علميا مرموقا ، رغم الاضطرابات السياسية التي عمت بلاد المغرب كنتيجة حتمية لسقوط كل من دولتي الأمويين والفاطميين في الأندلس والمغرب ، وقيام نظام حكومات المدن المتفرقة والعشائر ، المعروف بنظام الطوائف . ويرجع الفضل في ذلك الى كل من جامع عقبة العتيق بالقيروان ، وجامع القرويين العريق بفاس ، اذ كان كل منهما بمثابة جامعة أو معهد علمي عال في أيامنا هذه ، وذلك بفضل نظام القراءة والسماع والكتابة ، والأخذ عن المشايخ . وبفضل نظام الاجازة (العلمية) التي تشبه الشهادات الجامعية الحالية ، مما كان يعطى شفاهة بشكل مباشر في أول الأمر ، ثم صار يعطى كتابة عن طريق المراسلة ، لبعض من لم تيسر لهم الرحلة لطلب العلم أيضا . ولا بأس أن يكون لنظام الاجازة صلة بنظام المدارس الذي كان قد ظهر حينئذ في المشرق الايراني ، مركز العلوم والثقافة الذي كان يرفد مراكز العلم في الشام ومصر والمغرب والأندلس - فضلا عن الحجاز ، وخاصة في موسم الحج .

وبناء على الموقع الجغرافي يكون الوضع العلمي في تلك البلاد متناسبا طرديا أو عكسيا حسب القرب أو البعد من مركز المدارس الذي انتقل الى بغداد السلجوقية مع بناء النظامية في أواخر هذا القرن (الـ ٥ هـ / ١١ م) . وبذلك تصبح بغداد بحر العلم الذي يفيض على ما حوله ، من أهل الشام والحجاز ، ومصر ثم المغرب والأندلس . والمهم في حالة الأندلس أن علماءها لم يكونوا ينتظرون وصول التأثيرات العلمية المشرقية الى بلادهم ، بل كانوا يبادرون بالمسير الى مراكزها المشرقية على طريق الحج ، مرورا بالقيروان ، ومصر (الفسطاط والقاهرة) التي كثيرا ما كانوا يحطون الرحال فيها للأخذ والعطاء ، سواء في طريق الذهاب أو طريق العودة . وهنا تقدم سير رجال الأندلس - الى جانب رجال القيروان - معلومات ثمينة عن الأحوال العلمية أو الثقافية الدينية ، مما سيكون له أثره الحاسم على قيام حركة التجديد في

صحراوات أفريقيا الشمالية ، وتوابعها ، على أيدي أهل الصحراء أنفسهم من المرابطين الملتزمين .

والمهم هنا أن انتقل الخلافة الفاطمية الى مصر سمح للقيروان وعلمائها من أهل السنة وخاصة المالكية ، بتنفس الصعداء على عهد الامارة الزيرية التي كان يهملها التقرب الى أهل البلاد ، ولو بشيء من الستر أو الخفاء عن أعين عملاء الخلافة في البلاد . وهكذا كانت القيروان أول محطة رئيسية ينزلها علماء الأندلس الرحالة في سبيل تحصيل العلم وأداء فريضة الحج ، فكانوا يأخذون من مشايخها في طريق الزهاب ، ويقدمون لهم ما يحصلون عليه من العلم ، سواء في مصر (الفسطاط) التي ظلت منارة لعلوم أهل السنة ، ومقصدا لطلاب المغرب والأندلس طوال العصر الفاطمي ، نتيجة للسياسة المعتدلة التي سار عليها الأئمة الخلفاء ووزرائهم في القاهرة ، والتي جعلت من التشجيع الاسماعيلي مطلباً خاصاً لأهل الدولة ، ومن يدور في فلهم ، دون غيرهم . أما عن مكة ، نهاية المطاف بالنسبة لحجاج المشرق والمغرب ، فكانت مجمع علماء الاسلام جميعاً ، من أهل السنة الظاهرين ، أو من أصحاب المذاهب المعارضة المستترين ممن كانوا ينتهزون فرصة الموسم لنشر أفكارهم ، والتعرف على أحوال اخوانهم - خاصة وأن بغداد كانت وقتئذ ، تحت سيطرة البويهيين الشيعة الزيدية . وبطبيعة الحال كان الغالب على مكة هم علماء المشرق الوافدين من العراق وطبرستان وفارس وخراسان ، ممن كانوا يحملون القباب مدنهم أو أقاليمهم ، أو مذاهبهم السنية في بعض الأحيان .

ولا شك أن تعرض المشرق الإيراني لقلقلة هجرات القبائل التركية المتواترة ، من : الأوجور والخطا والفراخانية والغز ، مع ما صاحب ذلك من عملية احياء اللغة الفارسية - اعتباراً من القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م - كانت من الأسباب التي أدت الى توجيه هجرة كثير من علماء خراسان وفارس الى العراق والشام والحجاز ومصر ، الأمر الذي انتهى بتميز المدرسة المصرية من حيث اشتغال مناهجها على مقررات من العلوم العقلية الى جانب الدروس النقلية التقليدية ، مقارنة بعلوم المدرسة المغربية الأندلسية ، المحافظة أصلاً . ولما كانت رحلة العلم المغربية تنتهي عادة في مكة ، وفي موسم الحج خاصة ، كانت المدرسة الحجازية في الحرمين الشريفين هي الرافد الأول لعلماء المغرب والأندلس ، قبل المدرسة المصرية ، في تلك الفترة السابقة على قيام المرابطين في المغرب ، اعتباراً من أواخر القرن الرابع الهجري (١٠ م) حتى قبيل منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) .

المدرسة المكية :

وتتمثل المدرسة المكية كما نرى ، فى جمهرة علمائها وفيما يقدمونه من مقررات دراسية ومناهج أو أساليب فى طرق التعليم . فمن قدامى الأساتذة بالنسبة لطائفة الأندلس والمغرب وعلمائها ، فى الفترة مجال البحث ، الآجرى (أبو بكر) الذى يرد ذكره فى الرحلة العلمية التى قام بها (سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) الأيادى (القرطبى) حيث قرأ عليه المدونة والمستخرجة (من الموطأ) وغيرها (٢١) . كما لقيه الدجاج (القرطبى) الذى كان معتنيا بعلم الحديث - وإن كان فى نفس الوقت متهما باتجاهاته الكلامية بوميوله العقلانية نحو مذهب محمد بن مسره (٢٢) . واثر ذلك أتى الدينورى (أبو اسحق) والبخى (أبو عبد الله) والصيدلانى (أبو يعقوب يوسف بن أحمد) ، الذين لقيهم ابن الحذاء (القرطبى) فى رحلة حجه سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، وكان محدنا يغلب عليه علم الأثر ، وله كتاب التعريف فى ذكر ما فى موطأ مالك بن أنس من الرجال والنساء (٢٣) . ولقد سمع من الصيدلانى بعد ذلك ، ابن ميمون الطليطلى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٢٤) . ويضاف الى هذه الطبقة : النيسابورى (أبو أحمد الحسن بن على) والجرجاني (أبو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم) ، ولهما ذكر فى رحلة سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م التى لقيهما فيها القناعزى (القرطبى) الذى جمع الى تعمقه فى علم الحديث والخبرة بالمذهب المالكي حتى أنه جمع تفسيراً للموطأ حشد فيه ما نقله من موطأ يحيى بن يحيى وموطأ يحيى بن بكير ، الاجتهاد بالقرآن والمعرفة بالمستنبط من الرأى ، وفى هذا المجال اختصر تفسير القرآن لابن سلام (٢٥) .

(٢١) الأبادى هو أبو محمد مسلمة بن محمد ابن مسلمة - توفى فى ذى الحجة ٣٩١ هـ / ديسمبر ١٠٠٠ م ، أنظر ابن الغرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٧ ، ترجمة رقم ١٤٢٢ .
(٢٢) الدجاج هو أبو القاسم رشيد بن محمد - توفى فى آخر رجب ٣٧٦ هـ / ٥ نوفمبر ٩٨٦ ، أنظر ابن الغرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ص ١٢٦ ، ترجمة رقم ٤٣٧ .
(٢٣) والحذاء هو : أبو عبد الله محمد بن على بن أحمد التميمى - توفى ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، أنظر ابن الغرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٨٧ ، ترجمة رقم ١٦٧٨ .
(٢٤) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم الترجمة ٣٥ ، ص ٢١ ، وأنظر فيما يأتى ، ص ١٤٥ .

(٢٥) والقناعزى هو : أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان ابن عبد الرحمن الأنصارى - مولده فى ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ووفاته فى رجب ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ ، ص ٣١٦ .

أما عن طبقة الجيل التالى - بالنسبة لفترتنا - من المكين فيتمثل فى العجيفى (أبو الطاهر محمد بن جبريل) الذى يرد ذكره فى أكثر من رحلة من رحلات الأندلسيين العلمية ، كما فى سنوات ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلى (٢٦) ، وابن قرلسان الطلمنكى الذى انصرف الى قرطبة بعلم كثير ، جمع فيه ما بين علوم القرآن والحديث ومذاهب السنة ، وأصول الديانات (٢٧) . كما سمع منه ابن ذنين الصدفى (الطليطلى) ، وكانت له رحلة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، وكان الغالب عليه رواية الحديث وكتابه ، وقراءة الآثار والعمل بها ، كما التزم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقوم بذلك بنفسه ولا تأخذه فى الله لومة لائم - وله كتاب الأمر بالمعروف (٢٨) ، وأبو المطرف الصدفى (الطليطلى) الذى كانت له عناية كاملة بالحديث (٢٩) .

وابن جهضم (أبو الحسن) واحد من أعلام هذا الجيل من المكين ، فله ذكر فى العديد من رحلات العلم ، فى سنوات ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م و ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م ، حيث سمع منه ابن ميمون (ما سبق) ص ١٤١ م وابن جهور (سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م) أبو عمرو أحمد بن محمد (المرشاني

(٢٦) وابن ميمون ، هو : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموى - ولد ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م وتوفى فى ٢٢ شعبان ٤٠٠ هـ / ١٨ ابريل ١٠١٠ م ، تعلم بقرطبة ورحل الى المشرق سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م بصحبة ابن شنظير ، وسمع بمكة والمدينة ومدين وأيلة والقلمزم ومصر وطرابلس والقروان والمسيلة وتنس ، وإستوطن طليطلة - والتزم الرباط بالفهسين . وكان فاضلا وربما يأخذ نفسه مأخذ الأبدال ، وتنسب اليه كرامة عدم احتراق مكتبه عندما احترقت داره وهو فى الرباط - ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ ، ص ٢١ - ٢٣ . (٢٧) ابن بشكوال ، ترجمة رقم ٩٠ ، ص ٨ - ٢٤٧ - حيث ابن قرلسان ، هو : أحمد بن محمد المفاوى مولده بطلمنكة ٣٤٠ هـ / ٩٥٠ م وسكنه بقرطبة ، ووفاه بطلمنكة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م - أحد الأئمة فى علم القرآن : قراآته وأعرابه وأحكامه وناسخة ومنسوخة ومعانيه ، كما شملت عنايته بالحديث : نقله وروايته ووضيطة ومعرفة رجاله وحملته . وكان سيفاً مجرداً على أهل الأهواء والبدع ، غيورا على الشريعة ، شديداً فى ذات الله تعالى . أفرا الناس محتسبا وأسمعهم الحديث ثم خرج الى الثغر فتجول وانتفع الناس بعلمه .

(٢٨) وابن ذنين هو : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد - وتوفى فى ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م ، ابن بشكوال ، الصلة ترجمة رقم ٥٨١ ، ص ٢٥٩ . (٢٩) وهو عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد - ولد ٤٢٧ هـ / ٩٣٨ م - وتوفى فى ذى القعدة ٤٠٣ هـ / مايو ١٠١٣ م ، انظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٠ . ص ٣٠٧ .

ـ القرطبي - ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م (٣٠) الذي رحل الى المشرق وحج سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، وجاور أعواما . وروى عنه أبو القاسم بن الفرّج ابن فارس (القرطبي - ت ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م أو ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م) . كما أخذ عنه (٣١) .

ومن أشهر من أخذ عن ابن جهضم : القضاعى (أبو محمد عبد الله ابن بكير بن فاسم : الطليطلى ، ت ٤٣١ / ١٠٣٨ م) وذلك فى رحلته سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م (٣٢) ، وابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الآزدى : القرطبي - ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) ، صاحب ابن بشكوال ونظيره فى الأخذ معه عن أكثر الشيوخ ، مؤلف تأريخ علماء الأندلس ، الذى توجه الى المشرق فى طلب علم الحديث (٣٣) ، والشنتجياى (أبو محمد عبد الله ابن سعيد بن لهاج الأموى - ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) الذى جاور طويلا بمكة ابتداء من سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ولمدة ٤٠ سنة ، سمع فيها من المشايخ واهتم بكتابة الحديث (٣٤) .

وثالث المناصرين من هذا الجيل من كبار علماء مكة ، هو السقطى ، بوله ذكر فى رحلات ٣٨٠ / ١٩٩١ م ، ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلى (ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو بصحبة نظيره فى الجمع والآثار : ابن شنظير (ص ١٤٢ هـ ٢٦) ، ولقيه ابن الميراثى البلوى ت ٤٣٨ هـ / ١٠٣٦ م (٣٥) ، وابن افرانك (ت ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م) (٣٦) ،

-
- (٣٠) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٩٥ ، ص ٥٠ ، حيث أخذ أيضا عن السقطى ، كما أخذ عن أبى سعد الواعظ كتاب « سرف المصطفى » من تأليفه .
- (٣١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٢٤٩ / ص ١١٢ - حيث النص (عن ابن بشكوال) على ان أبا القاسم أصبح كان حافظا للفقه ورأى مالك ، وانه روى العلم (الحديث) عن ابن جهضم ، وأخذ عنه ، كما كان مناضلا ضد قطاع الطرق على قوافل الحج .
- (٣٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٨٦ / ص ٢٦٣ .
- (٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٧ / ص ٢٤٨ .
- (٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٩٣ / ص ٢٦٧ .
- (٣٥) وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى (القرطبي - ولد ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وتوفى فى ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧ / ص ٤٦ .
- (٣٦) وهو أبو العاصى حكم بن محمد بن حكم الجذامى (القرطبي) ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥١ - حيث النص على انه روى عن جماعة من كبار المحدثين ، كما كان صليبيا فى السنة ، متشددا على أهل البدع ، ورعا ، منقبضا عن السلطان ، يتعبد من بضيعة حل بيده ، يضارب له بها بعض ثقات أخوانه .

وابن جهور المرشاني ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م (ص ١٤٢) ، وابن ذنيب الصديقي (ت ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م) في رحلته سنة ٣٨١ هـ / ٩٩٠ م (ص ١٤٢) ، كما سمع منه الشنتجياي في رحلته سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م (ص أدناه) ، ويأتي بعد ذلك العبقسي (أبو الحسن أحمد بن فراس) الذي سمع منه كل من الشنتجياي أيضا ، في رحلته ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، وابن الصيرفي (المقرئ) ، المحدث في رحلته (في مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م) (٣٧) ، ثم ابن الدخيل (أبو يعقوب يوسف) ، وله ذكر في رحلات سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، حيث لقيه ابن افرانك (ص أدناه) وابن الفرضي (ص ١٤٧) .

ثم أبو الفضل الهروي (أحمد بن أبي عمران) الذي لقيه في سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م كل من ابن افرانك ، وابن بنوش (القرطبي) المعروف بأنه عدل من أهل العلم والحديث (٣٨) .

وأبو ذر الهروي (عبد بن أحمد بن محمد ت ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) الذي لقيه سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، ابن بكر الأنصاري (٣٨ م) سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، والشنتجياي ، وفي رحلة سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م القضاء أيضا (ص ١٤٩) ، كما أخذ عنه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن طاهر المرسى (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) (٣٩) . أما أهم تلاميذ أبي ذر الهروي من الأندلسيين فهو أبو عمرو الصديقي (٤٠) .

(٣٧) وابن الصيرفي ، هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي (القرطبي) ، مولده ٣٧١ هـ / ٩٨١ م - توفي في ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٨٧٣ / ص ٣٩٨ .

(٣٨) وابن بنوش ، هو : أبو محمد عبد الله بن ربيع التميمي ، مولده ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م ، وتوفي في ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٧٦ / ص ٧ - ٢٥٦ . (٣٨ م) هو أبو محمد عبد الله بن الوليد ابن سعيد ، الذي استوطن مصر ، وتوفي بالشام سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م - ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٦٠٨ / ٢٧١ .

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٧٢١ / ص ٣٢٢ - حيث النص على أن مولده كان في ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، فكان رحلته التي أخذ فيها أيضا عن كريمة المروزية بمكة تمت في العقد الرابع من القرن الخامس الهجري (١١ م) .

(٤٠) عثمان بن أبي بكر من حمود - توفي في ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، انظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧٦ ص ٤٠٠ - وحيث النص على أنه مات وهو في طريقته إلى القسطنطينية سفيرا عن الصنهاجي صاحب القيروان . أما عن أهم أعمال أبي عمرو الصديقي =

وبعد عالمى هرات يأتى الجيل (أبو القاسم سليمان المالكي : نسبة الى مقاطعة جيلان) ، وله ذكر فى رحلة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، حيث لقبه ابن سعيد (ت ٢٤ ربيع الأول ٤٢٨ هـ / ١٧ يناير ١٠٣٧ م) (٤١) . والرازى (أبو العباس أحمد بن بندار) الذى لقيه ابن عبد المولى الأنصارى (الطليطلى) فى رحلته المشرقية (٤٢) .

المدينة :

أما عن علماء المدينة المنورة فيذكر منهم جعفر بن الحسن (قاضى المدينة) الذى روى عنه ابن الحداد (الطليطلى سنة ٣٢٦ هـ / ٩٤٧ م - ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م) ، وأبو الحسين يحيى بن محمد الحسينى الحنفى ، وأبو على الحسن المقرئ ثم أبو محمد الزبيدى ، ولهم ذكر فى رحلة ابن ميمون الذى سمع منهم سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (ما سبق ، ص ١٤١) .

المدرسة المصرية :

وأهم سمات المدرسة المصرية انها كانت تمثل حلقة الوصل بين مراكز الثقافة الاسلامية فى ايران والعراق والحجاز وبين المراكز العربية فى المغرب والأندلس ، الأمر الذى يعنى رفادة الفكر التقليدى الذى نشأ فى دار الهجرة النبوية ممثلا فى علوم الحديث والذى انتقل عبر مصر الى المغرب والأندلس ، بالفكر العقلانى المتجدد ، والمتمثل فى الاجتهادات الفقهية وأصول استنباط الأحكام ، الأمر الذى جعل من مصر محطة تشد علماء المغرب والأندلس الذين كثيرا ما استقروا بها ليس للدراسة فقط ، بل وللتدريس أيضا - الأمر الذى يعنى نوعا من الربط بين الثقافة المصرية ونظيراتها المغربية والأندلسية .

وأشهر علماء مصر فى تلك الفترة هو ابن رشيق (أبو الحسن) الذى

= العلمية فهو ما قام به بأصبهان من كتابة ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) حديث ، أخذها عن أبى نعيم الحافظ ، الى جانب ما أخذه عن غيره من علماء المشرق كالفسوى والصابونى والكاظمى وكريمة بنت أحمد السرخسية .

(٤١) ابن بشكوال ، الصلاة ، ترجمة ٤٩٣ / ص ٢١٨ .

(٤٢) أبو عبد الله محمد بن المقرئ الذى استقر بمصر ، يدرس صحيح مسلم ، وكتاب الشريعة للأجربى ، وله شعر فى اعتزازه بكتبه التى كان يعز عليه حبسها عند مستعيرها - توفى بالقسطنطينية بالمارستان ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، اثر خيل ألم به فى آخر عمره ، أنظر ابن القزوينى تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ١١٥ ، ترجمة رقم ١٧٥٧ .

أخذ عن ٧٠٠ (سبعمائة) محدث ، والذي حمل لقب العدل الى جانب
المصرى وتعلم عليه عدد كبير من طلاب الأندلس ، خلال ما يقرب من نصف
قرن ، ما بين ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ،
٣٩٥ هـ / ١٠٥٥ م . وأول هؤلاء هو ابن فرتون (أحمد بن خلف المديوني -
ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) الذي روى عنه (٤٣) ثم أبو الفاسم بن الأموى
(القرطبي - ت ٣٩٦ هـ / ١٠٠٦) في رحلته سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م حيث
أخذ عنه (٤٤) . ومن أشهرهم القنازعى الذى حصل على إجازته له ، فى
رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م (٤٥) . وممن كتب عن ابن رشيق فى سنة
٣٧٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ابن سعيد الخير (الوشقى - ت فى رمضان ٤٢١ هـ /
سبتمبر ١٠٣٠ م) (٤٦) ، وابن الخراز (الهمداني - ولد ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م -
ت ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م) فى رحلته التى روى فيها عنه (٤٧) أبو الفاسم
الأنصارى (ت فى ذى الحجة ٤٠٦ هـ / نوفمبر ١٠٦٤ م) الذى سمع منه
وحصل على إجازته له (٤٨) ، وابن خيرون (أبو محمد عبد الله بن سعيد -
القرطبي ، ت ربيع الثانى ٤٠٣ هـ / أكتوبر ١٠١٢ م) الذى حصل على
إجازة ابن رشيق ، وكان يحدث بالمدونة (٤٩) .

ويدخل فى زمرة الحسن بن رشيق من كبار العلماء المصريين : الأدفوى ،
وابنا غلبون الأب (أبو الطيب) والابن (أبو طاهر) ، وأبو بكر المهندس ،
وابن ماهان ، والجوهري وابن سعيد ، والكناني ، وابن النحاس ، والحسن
ابن شعبان ، وابن التمار ، وغيرهم .

(٤٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١ / ص ٤ - حيث يذكر الى جانبه أبو على
الأسبوطى .

(٤٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ١٢ .

(٤٥) أنظر ما سبق بين ص ١٤١ هـ ٢٥ ، وابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١
ص ٣١٦ - حيث الإشارة الى جماعة من علماء مصر ، من : الحسن بن شعبان ، الى أبى على
المطرز ، وأبى القاسم عمر بن المؤمل الطرسوسى وأبى الطيب أحمد الحريرى .

(٤٦) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ٦٧ .

(٤٧) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٧ / ص ٣١١ .

(٤٨) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٠٨ / ص ٢٢٣ - حيث الإشارة الى انه جمع

فى مصر ١٨ حملا من الكتب عاد بها الى الأندلس .

(٤٩) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٥٦٩ / ص ٢٥٣ - حيث الإشارة الى مولد

ابن خيرون فى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م (عن ابن حيان) ، ووفاته منكوبا بسجن المطبق
بقرطبة ، وتسليمه الى أهله فى قيوده .

والأدقوى (أبو بكر محمد بن أحمد المصري ت ربيع ٣٨٧ هـ / مارس ٩٩٧ م) له ذكر في رحلات سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، حيث روى عنه ابن الحداد (أحمد بن سهل بن محسن الأنصاري - ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م - ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م) (٥٠) ، وسمع منه ابن الجعفرى المقرئ (خلف مولى جعفر الفتى - ت ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م بطرطوشة) (٥١) ، وأبو القاسم الدقاق (خلف بن مروان بن أحمد التميمي الوراق - القرطبي - ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، وصديقه : ابن الفرضي (٥٢) ، وأبو القاسم العجيبى (سلمة ابن أمية بن وديع) الاشبيلي - الامام - ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م - ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) (٥٣) .

أما ابنا غلبون فهما : أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله المقرئ (الأب) الذى روى عنه ابن الحداد سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م (٥٤) ، وسمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد (٥٥) ، وأخذ عنه : ابن حيون القرشى : أبو بكر أحمد بن محمد (٥٦) ، وقرأ عليه القرآن أبو القاسم خلف (الطلبيرى) : مولى جعفر الفتى ، فى رحلته التى انتهت بعد اقامة دامت فى المشرق لمدة ١٧ عاما (٥٧) ، كما لقيه فى رحلة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ابن ذنين (ما سبق ص ١٤٢ ، هـ ٢٨) . وأما ابن غلبون (الابن) فهو أبو الطاهر ، وقد لقيه (مع والده) أبو العباس الأقلشئى : أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمى ، المقرئ (٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م - ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م) الذى كان ملتزما بتدوين الحديث متمسكا بمقولة : « كل من كتبت عنه حديثا فأنا عبد له » (٥٨) . ولقد أخذ

-
- (٥٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ ، وأنظر محمد كامل حسين ، فى أدب مصر الفاطمية ، ١٩٦٣ ، ص ١٢١ - حيث النص على أنه أخذ العلم عن أبى جعفر النحاس النحوى ، وان له كتاب التفسير وكتاب الاستقصا فى علوم القرآن .
- (٥١) الصلة ، ترجمة ، رقم ٣٧٣ هـ / ص ١٦٨ .
- (٥٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٨٣ / ص ١٧١ .
- (٥٣) الصلة ، ترجمة رقم ٥١٠ / ص ٢٢٤ - حيث النص على انه عند منصرفه من المشرق الى الأندلس ، وقع أسيرا بين أيدي الروم ، فلم يستنقذ الا بعد سنتين .
- (٥٤) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ .
- (٥٥) الصلة ، رقم ٣٥ / ص ٢٢ .
- (٥٦) الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥٠ .
- (٥٧) الصلة ، ترجمة رقم ٣٦٩ / ص ١٦٦ - حيث زار كلا من بغداد والبصرة والكوفة ، وانه عند عودته الى الأندلس أخذ عنه أبو بكر المصطفى قبل سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م .
- (٥٨) الصلة ، ترجمة رقم ٥٨ / ص ٣٣ .

عنه أبو اسحق ابراهيم بن جعفر الزهرى (الأشيرى ، السرقسطى ، ٣٧١ هـ / ٩٨١ م - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) الذى جمع بين دراسة المدونة ، وحفظ الرأى (٥٩) ، كما لقيه ووالده أبا الطيب ، فى رحلته المشرقية سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، أبو القاسم وديع العجيبى وسلمة بن أمية ، المعروف بالامام - ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م (ص ١٤٧ ، هـ ٥٣) .

وأبو بكر المهندي (أحمد بن محمد بنى اسماعيل) ، له ذكر فى رحلات الأندلسيين سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، حيث سمع منه ابن ميمون (ص ١٤١ ، ١٤٢) ، ولقيه صالح بن عمر بن محمد (القرطبى - ت ربيع الأول ٣٩٧ هـ / نوفمبر ١٠٠٦ م) (٥٩ م) ، وكتب عنه ابن بنوش (ما سبق ، ص ١٤٤ ، هـ ٣٥) ، ولقيه ابن ذنين (ص ١٤٢ ، ١٤٤) ، وأبو المطرف الصدفى : عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد (الطليطلى ، ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) (٦٠) .

وعن الجوهري (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله - ت رمضان ٣٨٠ هـ / نوفمبر ٩٩٠ م) ، فقد سمع منه ابن ميمون ، وابن قرقمان الطلمنكى ، وابن الجعفرى ، ممن سبق ذكرهم .

وابن ماهان (أبو العلاء) الذى يعتبر من الأعلام حيث يميز بلفظ الامام . وممن لقيه أبو عمرو بن العارض : أحمد بن عبد الله بن شريعة اللخمي (الاشبيلي : ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م - ١٠ محرم ٣٩٦ هـ / أكتوبر ١٠٠٥ م) الذى عرف كواحد من فقهاء المذهب المالكي الأجلاء (٦١) ، وابن قرقمان الطلمنكى ، كما روى عنه ابن الرسان (٣١٩ هـ / ٩٣١ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) صحيح مسلم (٦٢) .

ولقد درس على : ابن الحافظ (أبو محمد عبد الغنى) ، فى رحلته سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، ابن الميراثى (ص ١٤٣ هـ ٣٥) ، وابن الجعفرى (ص ١٤٧ ، هـ ٥١) ، وابن سعيد (سعيد بن محمد بن يحيى) (ص ١٤٦)

-
- (٥٩) الصلة ، ترجمة رقم ٢٠١ / ص ٩٥
 - (٥٩ م) الصلة ، ترجمة ٥٣٣ / ص ٢٣٣
 - (٦٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٠ / ص ٣٠٧
 - (٦١) الصلة ، ترجمة رقم ١٣ / ص ١٠
 - (٦٢) الصلة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧

وروى عنه ابن المأمونى : قاسم بن حجاج بن هشام الرعينى - ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (٦٣) .

أما الذين درسوا على الكنانى : حمزة بن اسحاق بن محمد (الحافظ) ، فى مصر فمنهم ابن الأموى (ص ١٤٣ ، هـ ٣٤) وابن الرسان (أعلاه) الذى حصل منه على الاجازة (٦٤) ، وأبو القاسم بن سلمة الأنصارى (ص ١٤٦ ، هـ ٤٨) . هذا وإذا كان يفهم من ترجمة ابن زاهر : عمر بن عبد الله - البونى (ت بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) - ان الكنانى (الحافظ ، المصرى) كان يحدث فى حضرموت حيث لقيه جماعة من طلاب العلم المغاربة ، فان اسم الجامع الذى كان يخطب فيه وهو جامع ابن لهيعة - أحد أقطاب المدرسة المصرية الأولى فى الحديث والتاريخ - يعنى أن اللقاء كان فى مصر (٦٥) .

وهكذا يتوالى بقية علماء مصر - على طول الصلة - من ابن البنا ، وابن التمار ، وابن النحاس ، وابن الدباغ ، والحسن بن شعبان ، وابن المنير : أحمد بن الحسن (الأب) ، وولده : عبد الوهاب (٦٦) ، وبضمنهم مشاهير علماء الاسكندرية كأبى القاسم العلاف ، والقاضى أبى على بن سكره ، ويتوالى عليهم طلاب الأندلس ، من : ابن افرانك القرطبى ، وابن الفرضى ، وابن ذنين ، والقضاعى ، وابن الصيرفى ، وابن سلمة الأنصارى ، وأبو القاسم الأنصارى ، والقنازعى ، وابن سعيد العبدري (الطرطوشى) (٦٧) ، وأبى العلاء القشبرى - ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م (٦٧) .

مدرسة القيروان وعلمائها :

تعتبر مدرسة القيروان القاعدة الثقافية الحقيقية لبلاد المغرب والصحراء ، حيث علوم الدين من القرآن والسنة النبوية ، ومذاهب الفقهاء

(٦٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠١٣ / ص ٤٦١ .

(٦٤) الصلة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧ .

(٦٥) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ - حيث طلب العلم المغاربة ، هم :

أبو الحسن القابسى ، وأبو موسى عيسى بن سعادة ، وأبو محمد الأصيل . أما موضوع الحديث فهو : الحذر من فراسة المؤمن (عن سفيان الثورى) .

(٦٦) الصلة ، ترجمة رقم ٧٨٣ / ص ٣٩٨ .

(٦٧) الصلة ، ترجمة رقم ٥٢٨ / ص ٣٢ - حيث القاضى ابن سكرة بالاسكندرية .

(٦٧م) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٢٩ / ص ٤٦٨ - حيث أبو القاسم العلاف بالاسكندرية .

على اختلاف مشاربهم ، من سنة وشيعة وخوارج ، وحيث الدعوة الى التمسك بأهداب الاسلام الأصولية ، من الأمر بالمعروف ، والدعوة الى الجهاد والرباط فى الثغور - وهى الأمور التى كانت لها تأثيراتها جنوبا حتى الصحراء والسودان ، وشمالا حتى الأندلس وحدود الممالك المسيحية .

وعلماء القيروان الذين لهم وقتئذ ذكر ، هم : زياد بن يونس ، وابن السرور ، وابن أبى عقبة التميمي ، وأبو بكر هبة الله بن محمد ، وابن عزره ، وابن الصقل (أبو القاسم عبد الرحمن البكرى) ، وابن دحمون (أبو جعفر أحمد) ، وابن أبى زيد (أبو محمد) ، والقابسي (أبو الحسن) ، وآخر من يهمننا منهم : أبو عمران الفاسي .

ومن قداماء هذه المدرسة ، فى فترتنا السابقة على قيام المرابطين ، يذكر زياد بن يونس الذى روى عنه فى رحلته العلمية ، الذهبى الأموى : أبو بكر أحمد بن عبد الله بن محمد (القرطبي) ، صاحب اختصار تفسير الطبرى (٦٨) ، ومعاصره محمد بن مسرور العسال ، الذى لقيه فى رحلته الى المشرق سنة ٣٣٨ هـ / ٩٥٠ م ، ابن حجاج : أبو الوليد هاشم بن يحيى (البطليوسى - ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) (٦٩) ، وابن أبى عقبة التميمي : أبو بكر هبة الله بن محمد ، الذى لقيه القنازعى فى رحلته سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وسمع عليه المدونة (٧٠) . وبعد هؤلاء يأتى ابن عزره : أبو بكر ، الذى سمع عليه ابن ميمون الأموى فى رحلته سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٧١) ، كما أخذ عنه ابن الطرابلسي : أبو القاسم حاتم بن محمد التميمي (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) فى رحلته المشرقية سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، التى لقي فيها ابن سعيد السجزي ، وحمل عنه صحيح مسلم (٧٢) ، ومعاصره ابن الصقل : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد البكرى الذى سمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموى (الطليطلى : ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م -

(٦٨) الصلة ، ترجمة رقم ٢٩ / ص ١٩ - حيث « المدهبي » .

(٦٩) ابن القرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٣٩ ، ترجمة رقم ٥٣٩ ، وقارن

ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٠٨ / ص ٢٢٣ - و ترجمة سلمة بن سعيد بن سلمة (الأنصارى)

- توفى فى ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، الذى سمع منه وأجاز له فى « المشرق » مع اختلاف اللب :

ابن مسرور « الدباع » .

(٧٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ / ص ٣١٦ .

(٧١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ / ص ٢١ .

(٧٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ .

ت ٤٠٠ (شعبان) مارس ١٠١٠ م) فى رحلته سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م
(رقم ٣٥ / ص ٢١) . كما لقيه بنفس السنة (٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) ، ابن
سعيد الخزرجى : أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن (ت ٤٤٦ هـ /
١٠٥٤) (٧٣) .

أما كبار الأساتذة من الشيوخ فيبدأون بابن دحمون : أبو جعفر أحمد
ابن ثابت الذى أخذ عنه ابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم فى
رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م (رقم ١٠٣٧ / ص ٤٧٢) ، وسمع منه ابن
غلبون الحولانى : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (القرطبي) سنة
٣٧١ هـ / ٩٨١ م التالية (٧٤) ، كما لقيه كل من ابن قريمان الطلمنكى ،
وابن افرانك فى رحلتها سنة ٣٨١ هـ / ٩٩٠ م ، وكذلك ابن ذنين الصدفى
وفى نفس السنة (٣٨١ هـ / ٩٩١ م) (٧٥) ، وأخذ عنه ابن الفرضى فى
السنة التالية (٣٨٢ هـ / ٩٩١ م) ، وابن بكر الأنصارى الذى كان حجة
فى علوم الحديث ، فى رحلة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٥ م (٧٦) . وأخيرا التقى به
ابن سعيد الصدفى : أبو المطرف عبد الرحمن (ت فى ذى القعدة ٤٠٣ هـ /
مايو ١٠١٢ م) (ص ١٤٨ هـ ٦٠) .

ويأتى الدواودى : أحمد بن نصر نظيرا فى الأستاذية لابن دحمون ،
حيث سمع منه ابن أبى الربيع (الالبيرى) : أبو العباس أحمد بن أيوب
(ت جمادى الثانى ٤٣٢ هـ / فبراير ١٠٤١) الذى عرف بأنه أديب شاعر
وسنى ورع (رقم ٩٨ / ص ٥٢) ، والسبتي : أحمد بن محمد بن سعيد
القيسى (الاشبيلي : ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) ، فى رحلته المشرقية سنة
٣٧٠ هـ / ٩٨١ م (٧٧) . وأخذ عنه ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله
(ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) ، فى رحلته سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، حيث طلب
الحديث وعنى بعلومه (ص ١٤٣ هـ ٣٣) ، كما أخذ عنه ابن جرج : أبوالمطرف
عبد الرحمن بن سعيد (ت ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) فى رحلته الى المشرق سنة
٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م (٧٨) . وعنه روى ابن فطيس : أبو الحسن كامل بن أحمد بن

-
- (٧٣) الصلة ، ترجمة رقم ٧٠٧ / ص ٣٢٦ .
 - (٧٤) الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ .
 - (٧٥) الصلة ، ترجمة رقم ٥٨١ / ص ٢٥٩ .
 - (٧٦) الصلة ، ترجمة رقم ٦٠١ / ص ٢٧١ .
 - (٧٧) الصلة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ .
 - (٧٨) الصلة ، الترجمة رقم ٧٠٣ / ص ٣٢٥ .

يوسف القادسي (ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) ، كما أخذ عنه أيضا البونى :
أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطان (القرطبي - ت قبل سنة ٤٤٠ هـ/
١٠٤٨ م) وصحبه لمدة ٥ (خمسة) أعوام ، حتى صار مرجعا في الفقه
والحديث ، فكان تأليفه للمختصر في تفسير الموطأ من انكتب الكثيرة التداول
بين أيدي الناس (٧٩) .

أما أشهر علماء القيروان في تلك الحقبة ، فهما ابن أبي زيد
(أبو محمد : عبد الله) (٧٩ م) ، والقابسي : أبو الحسن علي بن أبي بكر
محمد بن خلف - الكفيف (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) ، وهما نظيران ، كأنهما
فرسا رهان . وإذا كنا عددنا من تلاميذ ابن أبي زيد ، في صلة ابن بشكوال
حوالي ٥٠ (خمسين) رجلا من الأندلسيين فان تلاميذ القابسي الكفيف ،
منهم بلغوا حوالي ٣٥ (خمسة وثلاثين) رجلا . أما عن الفترة التي قضياها
في التعليم ، فبينما تستغرق أخبار ابن أبي زيد الفترة من ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م
إلى ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، أي حوالي ٣٥ (خمس وثلاثين) سنة ، تستغرق
أخبار القابسي الفترة من سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م إلى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م أي
حوالي ٣٣ (ثلاث وثلاثين) سنة ، وهي نفس الفترة ، فكان طول العمر
الذي وهبها الله إياه كان من أسباب بلوغهما الأمل في تحصيل العلم
والمعرفة - كما يرى الماوردي (٨٠) .

فمن أوائل تلاميذ ابن أبي زيد الذين سمعوا منه في سنة ٣٦٧ هـ /
٩٧٧ م : القنازعي (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) الذي حصل على إجازته له
أيضا ، وابن سعيد الخير : خلف بن عيسى (٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م - ٤٢١ هـ /
١٠٣٠ م) ، وذلك في رحلته العلمية إلى المشرق قبل سنة ٣٧٠ هـ /
٩٨٠ م (٨١) ، وابن غلبون الحولاني : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن
(٣٣٠ هـ / ٩٤١ م - شوال ٤٠٣ هـ / ١٠١٢) الذي سمع منه في رحلة

(٧٩) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٣٥ / ص ٥٥٧ .

(٧٩ م) أنظر مدارك القاضي عياض ، ط الرباط ، ج ١ ص ١١ وهـ ٥ - حيث النص
على وفاة ابن أبي زيد في سنة ٢٨٦ هـ / ٩٩٦ م (٩) . وهو الأمر الذي قد لا يتفق مع
ما يأتي عنه من معلومات صاحب الصلة ، مما يشكك في معلومات الديباج الذي يرجع إليه
المحقق ، حيث الشك في الاسم (« عبد الرحمن » النفزي بدلا من عبد الله) .

(٨٠) أدب الدنيا والدين ، فصل العلم ، ص ٤٥ .

(٨١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ١٦٧ .

٣٧٦ هـ / ٩٧٢ م (٨٢) ، وابن محمد الأموي : أبو عبد الله محمد بن قاسم
(الجالطي - القرطبي - ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) الذي أخذ عنه في رحلة سنة
٣٧٠ هـ / ٩٨١ م ، كما أن ابن أبي زيد - نفسه - أخذ عنه (أي الجالطي)
بدوره كتاب رد الزبيدي على ابن مسرة (المتكلم ، صاحب القول بالاستطاعة
أي حرية الإرادة) (٨٣) ، ثم السبتي : أحمد بن محمد بن سعيد القيسي
(الاشبيلي) ، في رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م (٨٤) .

أما عن تلاميذ ابن أبي زيد في العهد التاسع ، فمنهم ، ابن سعيد
(الاشبيلي) : أبو عمر أحمد بن سعد بن محمد (ت بعد ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م)
في رحلته التي قام بها في حدود سنة ٣٨٠ هـ / ١٠٣٣ (٨٥) ، وابن سعيد
الخرزجي (ت ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م) ، وابن أفرانك (الجذامي) الذي أخذ
عنه في رحلة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، وابن ذنين الصدفى : أبو محمد عبد الله
(الطنيطلي - ت ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م) الذي سمع منه في نفس العام
(٣٨١ هـ / ٩٩١ م) وحصل على إجازته له (ص ١٤٢ ، هـ ٢٨) ، وكذلك
صالح بن عمر بن محمد (القرطبي - ت في نهاية ربيع الأول ٣٩٧ هـ / ٢٤
يناير ١٠٠٦ م) الذي لقيه في تلك السنة (رقم ٥٣٣ / ص ٢٣٣) ، وكذلك
ابن بنوش (ص ١٤٤ ، هـ ٣٨) ، وابن الفرضي الذي أخذ عنه (ص ١٤٤ ،
١٤٧ هـ ، ٥٢) ، وابن وديع العجيبى (ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) الذي لقيه
سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٣ م (ص ١٤٧ ، هـ ٥٣) ، وابن بكر الأنصارى : أبو محمد
عبد الله (القرموني - ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) الذي أخذ عنه في رحلة سنة
٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م (ترجمة رقم ٦٠٢ / ص ٢٧١) .

ومن أسف فإن بقية تلاميذ أبي محمد بن أبي زيد ، وهم كثر ، لم
تكن لهم الحاسة التاريخية فلم يسجلوا تاريخ رحلاتهم العلمية الشرقية ،
ولذلك نكتفى بتواريخ وفياتهم التي نتخذها قاعدة للترتيب ، عندما تتيسر .
فأبو المطرف عبد الرحمن الصدفى (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) لا يحدد تاريخ
رحلته (ص ١٤٨ ، هـ ٦٠) ، وابن سلامة الأنصارى (ت أول ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م)
الذي أقام بالمشرق حوالي ٢٣ (ثلاث وعشرين) سنة ، لقي ابن أبي زيد ،

(٨٢) الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ .

(٨٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٣٧ / ص ٤٧٢ .

(٨٤) الصلة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ .

(٨٥) الصلة ، ترجمة رقم ٦٥ / ص ٣٦ .

دون أن يحدد تاريخ ذلك (رقم ٥٠٨/ص ٢٢٣) وكذلك الأمر بالنسبة لأبى القاسم خلف (المقرئ) الذى سمع منه ، والذى طالت افامته بالمشرق لمدة ١٧ (سبعة عشر عاما) لا تعرف عنها الا أنه كان يجلس للتدريس سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٧ م (رقم ٣٦٩/ص ١٦٦) . ويقال مثل ذلك عن انكنانى : أبو الحكم منذر بن منذر (ت ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م) الذى لقيه وأخذ عنه (رقم ١٢٥٩/ص ٥٦٥) ، وابن الجعفرى : خلف مولى جعفر الفتى الذى سمع منه (ص ١٤٧ ، هـ ٥١) ، وابن قرلمان (٣٤٠ هـ/١٠٥١ م - ٤٢٩ هـ/٨ - ١٠٣٧ م) الذى لقيه (ص ١٤٢ ، ١٤٨) ، وابن دنيل الأموى (القرطبي - ت جمادى الاولى ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م) الذى لقيه (رقم ٩٩/ص ٥٣) ، والزهرى الأشيرى (السرقسطى ، ٣٧١ هـ/٩٨١ م - ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م) الذى اخنصر مدونة ابن أبى زيد (رقم ٢٠١/ص ٩٥) ، والوراق الدقاق (القرطبي ، ت فى حدود ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، وعمره ٨٦ سنة) الذى حج قديما ، وسمع عليه (رقم ١٧٨٣/ص ١٧١) ، وابن المأمون : أبو محمد قاسم بن حجاج (ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م) الذى روى عنه (رقم ١٠١٣/ص ٤٦١) .

أما عن أقدم تلاميذ القابسى (أبو الحسن : ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) فهو ابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم (الجالطى - ت فى شوال ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م (رقم ١٠٣٧/ص ٤٧٢) . ويأتى بعده فى رحلة سنة ٣٧٣ هـ ، ابن مؤمن الحضرمى : أبو القاسم اسماعيل بن محمد (الاشبيلي ، ت فى صفر ٤٢٦ هـ/٥ - ١٠٣٤ م) الذى أخذ عنه (٨٦) . وفى رحلة سنة ٣٨٠ هـ/٩٩١ م لقيه ابن سعيد الحزرجى : أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن (المقرئ ، القرطبي ، ت ٢٦ محرم ٤٤٦ هـ/١٤ مايو ١٠٥٤ م) (رقم ٧٠٧/ص ٣٢٦) . وفى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٥ م ، أخذ عنه ابن بكر الأنصارى : أبو محمد عبد الله (ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م) (رقم ٦٠١/ص ٢٧١) . وتنقطع تواريخ الرحلات فلا نجد لها ذكرا الا فى سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، حينما رحل ابن سعيد : سعيد بن أحمد بن يحيى (ت ٢٤٠ ربيع الأول ٤٢٨ هـ/١٧ يناير ١٠٣٧ م) الى المشرق فحج ، وسمع القابسى فى طريق العودة بالقيروان (٨٧) . وكانت رحلة ابن جرج : عبد الرحمن بن سعيد (٣٦٨ هـ/٩٧٨ م - ٤٣٩ هـ/١٠٤٧ م) التى لقيه فيها سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م (رقم ٧٠٣/ص ٣٢٥) .

(٨٦) الصلة ، ترجمة رقم ٢٣٤ / ص ١٠٨ .

(٨٧) الصلة ، ترجمة رقم ٤٩٣ / ٢١٨ .

أما آخر تلاميذ أبي الحسن القابسي ، فهو ابن الطرابلسي : أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمي (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) الذي قام برحلته العلمية المشرقية سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، ولقى القابسي ، وبقي عنده ، ولازمه في السماع والرأى ، الى وفاته في السنة التالية (٨٨) .

وبذلك لا يتبقى من زيارات طلاب الأندلس العلمية للقابسي الا تلك التي لا تحمل تاريخا محددا ، والتي نرتبها حسبما تيسر سنوات الوفاة .
فالقيري : أبو بكر محمد بن وهب الأزدي ، (القرطبي - ت ١٢ جمادى الأولى سنة ٤٠٦ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٠١٥ م) أخذ من القابسي في رحلته المشرقية ، وتفقه عنده (وعند أبي زيد) ، وطالع عندهما علوما من المعاني والكلام . وعندما رجع الى الأندلس أظهر شيئا من ذلك الكلام ، في : نبوءة النساء ، ونحو هذه المسائل التي لا يعرفها العوام ، الأمر الذي أدى الى التشنيع عليه (٨٨ م) . والكناني (ت ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م) لقيه هو وابن أبي زيد أيضا (أعلاه ص ١٥٤) ، واللخمي المرليشي : حجاج بن محمد (ت ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م) الذي روى عنه (رقم ٣٣٩ / ص ١٥٣) ، وكذلك ابن فطيس : أبو الحسن كامل (ت ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م) (رقم ١٠٢٠ / ص ٤٦٥) كما لقيه ابن أبي الربيع الألبيري : أبو العباس أحمد (ت ٢٦ جمادى الثاني ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م) (ص ١٥١ هـ ٧٧) ، وابن جرج : عبد الرحمن بن سعيد (ت ربيع الأول ٤٣٩ هـ / أغسطس ١٠٤٧ م) الذي أخذ عنه ، وحفظ ملخصه للمدونة عن ظهر قلب (أعلاه ص ١٥٤) ، والبونى : أبو عبد الملك مروان (ت قبل ٤٤٠ هـ / ١٠٣٨ م) الذي عرف بالعفة والصلاح ، والذي ألف كتابا في شرح الموطأ ، أخذ عن القابسي ، وان كان قد لازم الداودي طوال ٥ (خمس) سنوات (رقم ١٢٣٥ / ص ٥٥٧) ، وابن الصيرفي : أبو عمرو عثمان (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م) ، الذي عرف بتعمقه في علم الحديث سمع هو الآخر منه (رقم ٨٧٣ / ص ٣٩٨) .

هذا ، كما كان لشاعر أفريقية والقيروان الشهير : ابن شرف ، رواية عن الحسن القابسي ، بعد خروجه الى الأندلس عندما اشتدت فتنة العرب الهلالية سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، كما روى عن أبي عمران الفاسي ،

(٨٨) في جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ / نوفمبر ١٠١٢ م . انظر الصلة ، ترجمة رقم

٣٥٣ / ص ١٥٨ .

(٨٨ م) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٥٧ / ص ٤٧٩ .

• وصحبهما (٨٩) •

وبذلك نكون قد وصلنا الى الهدف من تلك المقدمات الخاصة بالخريطة الثقافية لبلاد المغرب والأندلس ، وتوابعها من مراكز العلم فى مصر والشرق ، مما يعنى : وحدة الفكر الاسلامى ، الأمر الذى يؤدى - بحكم الضرورة - الى أوضاع سياسية وحضارية متناظرة فى الجوهر ، وان بدت أحيانا متنافرة شكلا . فلا شك أن روافد الثقافة المشرقية هى التى أدت الى اكتمال الشخصية المغربية فى مجالات الثقافة والسياسة والاقتصاد ، الأمر الذى سمح للمغرب باستكمال استقلاله السياسى ، وهو المقدمة الطبيعية للعمل الحضارى المتميز فى خصوصيته ، وهو ما سيقع على عاتق الملثمين من أهل الصحراء المرابطين - الواعدين - قدوة أهل جبال مراكش من مصمودة الموحدين ، فيما بعد .

الفصل الثالث

عملية النهضة المرابطية أبو عمران الفاسي وحركة التجديد الثقافية في صحراء المثلثين

يظهر لنا مما سبق أن القيروان كانت في مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، العاصمة الثقافية للمغرب والأندلس ، استنادا الى تاريخها العلمي كمدرسة للمالكية بالامتياز ، والى موقف بلادها السياسي كجزء من الدولة الفاطمية التي بلغت ذروة قوتها وقتئذ في المشرق ، بينما ظهرت فاس التي كانت قد فقدت سندها السياسي في المغرب مع انهيار الأسرة الأموية في قرطبة ، يظهر التابع للقيروان على المستوى الثقافي بخاصة .

ويذكر من علماء فاس قبل ذلك الوقت ، أبو ميمونة : دراس بن اسماعيل (ت ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م) ، والصديني ، وهما معاصران لأبي العباس تميم بن محمد القيرواني ، وأبي الحسن زياد بن عبد الرحمن النؤلوي القيرواني^(١) . وعلاقة ابن ميمونة (الفاسي) الذي عرف بأنه فقيه على مذهب مالك ، كانت وثيقة بالأندلس في تلك الفترة من أوائل القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حيث كان طالبا للعلم هناك ، ومجاهدا بالشعر . وذلك قبل أن يقوم برحلته للحج والدراسة ، وهي التي سمع فيها بالاسكندرية كتاب ابن المواز ، على الفقيه : علي بن عبد الله بن مطر ، وهو الكتاب الذي حدث به في القيروان فيما بعد ، وسمعه منه أبو الحسن القابسي^(٢) .

أما عن أشهر علماء العصر من القيروانيين الفاسيين أصلا ، فهو شيخ المالكية أبو عمران موسى الفاسي (٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م - حوالي ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) . وينتسب أبو عمران الى قبيلة غفجومة الزناتية ، ولذلك كان يحمل الى جانب اسمه العربي « موسى » اسما بربريا هو « يحجج » ، لها

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٠ / ص ٢٤٦ .

(٢) ابن الغرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٥ ، ترجمة رقم ٤٣٢ .

اسم أبيه فهو : عيسى بن حاج الففجومي (الزناتى) (٣) .

الرحلة فى طلب العلم :

والمهم فى سيرة أبى عمران الفاسى انه بدأ فى طلب العلم بالأندلس -
انتى لانت فاس تقع وقتند فى دائرة نفوذها اسيسى - حيث زامل واحدا
من الطلاب اللامعين ، وهو أبو عمر بن عبد البر ، الذى عرفه بمجالس كبار
مشايخ قرطبة ، فدرسا سويا على : أبى محمد الأصيلى ، وأبى عثمان
سعيد بن نصر ، وعبد الوارث بن سفيان ، وأبى الفضل أحمد بن قاسم
الجزاز . واقتداء بطلبة العلم الأندلسيين ، سار أبو عمران الفاسى على
نفس النهج وقام بالرحلة الى المشرق بدأ بالمرور بالقيروان ومصر ، قبل أداء
فريضة الحج وشهود الموسم ، والأخذ عن المشايخ هناك ، بعد موسم سنة
٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م ، أى وأبو عمران فى الثانية والثلاثين من عمره . وفى
مكة أخذ قراءة القرآن عرضا (٤) على الشيخ : أبى الحسين على بن عمر

(٣) انظر الصلة ، ترجمة أبى عمران الفاسى ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ - حيث الجد الثانى
أبو حاج الففجومي - التى صححت الى الففجومي . ونحن نميل الى ترجيح الاسم القديم للقبيلة
البربرية البترية التى كان لها شأن فى مقاومة الفتح الاسلامى ، وهى « ورفجومة » (ج ١
ص ٣٣٧ وما بعدها) . وقارن ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ - حيث أبو حفص عمر بن عبد الله
ابن زاهر (البونى : الأندلسى أصلا) ، وحيث يرد الاسم على لسان أبى عمران نفسه :
« أنا أبو عمران موسى بن عيسى بن حاج » التى رجحناها على « أبو حاج » ، الفاسى (بدلا من
الففجومي : الففجومي) . وانظر ترتيب المدارك للقاضى عياض (الذى كدنا نفتقد ذكره هنا) ،
ط . بيروت ، ج ٤ ص ٧٠٢ - حيث يتضح ان مدارك القاضى عياض هى الأصل الذى نهل منه
الأندلسيون الذين تميزوا على كل حال بحسن العروض وسلامة المنهج والحرص على الاستقصاء ،
الى جانب العناية بالتوقيت .

(٤) والحقيقة ان قراءة القرآن ، بل وحفظه ودراسته كانت المقدمة الطبيعية لدراسة الفقه ،
وخاصة فقه المالكية المبني على الحديث ، وعمرات أبناء الصحابة من التابعين ، انظر الصلة ،
ترجمة رقم ٦٧٨ / ص ٣١١ - عن ابن الجزار : أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الملك بن خالد
(الهمداني) الوهراني - ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م - ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، الذى وصل فى رحلته
المشرقية الى مرو حيث وجد الشيخ الترابى يقرأ المصحف فيعلق على ذلك بقوله : وعند
أصحاب الحديث أن من لا يستظهر القرآن عن ظهر قلب فهو ناقص . اما عن صاحب الترجمة
فهو عند ابن بشكوال امام فى الحديث . وقارن ترجمة رقم ٩٠ / ص ٤٧ - عن ابن قارلمان ،
حيث النص على انه عاد من رحلته المشرقية بعلم كثير ، وأنه كان احد الائمة فى علم القرآن
العظيم : قراءاته واعرابه وأحكامه وأنه جمع كتباً كثيرة النفع على مذاهب أهل السنة
وأنه كان حافظاً للسنن على هدى واستقامة ، وانظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسى ، مجلة
الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ - حيث القول ان أما عمران ، بدأ بالتعليم =

الحمامي المقرئ وغيره ، قبل أن يتوجه الى بغداد في نفس السنة (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م) حيث جلس للاقراء الى جانب حضوره دروس القاضي أبي بكر بن الطيب (٥) .

ومن بغداد عاد أبو عمران الفاسي الى مكة حيث درس الحديث في مجلس أبي ذر الهروي ، ولو أن الأمر انتهى بخصوصة شديدة بين الطالب والأستاذ ، بسبب حرص أبي عمران على معرفة خبايا مكتبة أبي ذر العلمية ، ولو في غيبة الأستاذ ودون اذنه ، الأمر الذي أثار غضب هذا الأخير وسخطه ، وأوقع أبا عمران في الحرج فيما بعد عندما كان يروي عن أبي ذر فلا يشير اليه الا كناية (٦) .

العودة الى المغرب :

والمهم أن أبا عمران انصرف من المشرق بعد اقامة استغرقت عدة سنوات ، حضر فيها أكثر من موسم وحج عدة حجج ، وعندما وصل القيروان أقام فيها للتدريس (الاقراء) مدة لم تحدد هي الأخرى في ترجمة صلة

= في القيروان (بدلا من فاس) ، وانه تفتته هناك على « القاضي » وسمع من أبي بكر الزويلي ، وعلى بن أحمد اللواتي ، قبل ذهابه الى قرطبة ، اعتمادا على كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف - وهو ما لا تسمح به المصادر المعتمدة .

(٥) الصلة ، رقم ٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، وأنظر ابن القاضي ، حذوة الاقتباس ، القسم الأول أ - ص ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٣٤٤ ، وقارن عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، عدد يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ - حيث انه دخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس ، وأبي الحسن بن ابراهيم المستمل ، وأبي أحمد الغرضي ، كما انه درس الأصول على القاضي أبي بكر البافلاني ، والقاضي عبد الوهاب : اعلام مذهب مالك من البغدادية ، وذلك نقلا عن كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف - الذي لا نعرف أصلا له .

(٦) أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٣ - ٥٥٢ - حيث يروي من حرص أبي عمران الفاسي على الدراسة ونسخ الكتب ما أوقعه في غضب أبي ذر ، وذلك عندما سمح لنفسه بأخذ مفاتيح خزانة كتب أبي ذر من حارسه المخرج ، أثناء وجود الشيخ في وقت راحة له في موطنه بجبل السراة ، لكي ينسخ ما شاء له من كتبه . الأمر الذي انزعج له الشيخ ، عندما بلغه الخبر مراسلة من حارس الخزانة نفسه فلقد اضطر الشيخ الى العودة مسرعا ، ليستعد مفاتيح خزائنه ، وهو يقسم أنه لن يعلم أبا عمران الحديث بعدها ، أبدا . وهكذا كان أبو عمران ، وهو في مجالسه ، بالقيروان اذا حدث عن أبي ذر يروي ويقول : « أخبرني أبو عيسى » (حسبما كان يناديه العرب) .

وقارن مدارك القاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ - حيث النص على انه طلب الكتب من جارة أبي ذر بل وانه أجبرها على ذلك فقامت قيامة أبي ذر .

ابن بشكوال . والواضح ان الإقامة في المشرق لم تزيد على خمس سنوات ، وذلك أن أبا عمران كان يقوم بالتدريس في القيروان سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م ، حيث أخذ عنه وقتئذ أبو القاسم حاتم بن محمد الذي كان ملازماً لأبي الحسن القابسي حتى وفاته في جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ / نوفمبر ١٠١٢ م ، والذي عاد بعد ذلك من مصر مسرعاً الى القيروان في سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م ، لمناظرة كتبه وانتساخ سماعاته من أصول أبي الحسن القابسي (٧) .

وبعد إقامته تلك بالقيروان ، سار أبو عمران الى مسقط رأسه فاس ، ومحط عشيرته من آل أبي حاج (الغفجوميين انزناتية) ، ليؤدي حقوقهم عليه في التعليم والتضلع في أمور الدين ، وان كنا لا نعرف تاريخاً لتلك النقلة ، ولا لمدة بقاءه في فاس ، قبل الهجرة النهائية الى القيروان . والواضح أنه وطم مركزه في فاس ، ليس كفقيه راسخ في المذهب المالكي فقط ، بل وكأمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو الشعر الذي بدأ ينتشر بشكل واسع في المشرق الاسلامي اعتباراً من مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، مع انتشار جماعات اخوان الطرق الصوفية ، الأمر الذي بلغ الذروة في أواخر ذلك القرن ، الأمر الذي كان له أثره في فكر الغزالي (في الاحياء ، وفي دعوة محمد بن تومرت الموحدية (في العقيدة والمرشدة) . وهكذا يكون سبب خروج أبي عمران من مسقط رأسه ليستوطن القيروان ، أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، الأمر الذي أزعج حكومة المدينة المغراوية (الزناتية) ، فكان خروجه من فاس على أيدي « الطغاة » من العلماء العاملين عليها لحساب تلك الحكومة (٨) .

(٧) انظر الصلة ، ترجمة أبي عمران ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، و ترجمة أبي القاسم حاتم ، رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ ، حيث رحلته سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، ومجالسته لأبي عمران سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م .

(٨) انظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٢ ، ٥٣ - حيث النص على أن مفهوم النهي عن المنكر الذي كان يأخذ به أبو عمران عن أبي الحسن القابسي ، يعنى النهي عن اجتماع أهل الزهد والعبادة الذين كانوا يجمعون ما بين قراءة القرآن ، وحكاية قصص الصالحين ، وانشاد الشعر ، وذلك حسب مقالة صاحب كتاب بيوتات فاس المجهولة المؤلف ، الأمر الذي يعنى موقف دولة زناته المغربية المعادي وقتئذ ، لحركة تجمعات الاخوان لغير العبادة والجهاد . وعن كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم ، لمؤلف مجهول ، انظر أحمد مختار العبادي ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة آداب اسكندرية ٦٧/٢١ - ١٩٦٨ - حيث النص على انه نشر عبد القادر زمامه في مجلة البحث العلمي ، الرباط ، عدد ٣ - ١٩٦٤ ، وعدد ٤ ، ٥ - ١٩٦٥ ، وفيه أن أبا عمران هو الذي وضع الخطوط الأولى مع الزعيم البربري يحيى بن ابراهيم لقيام دولة صحرافية تقضى على الفوضى .

إمامته في الفقه المالكي ومعرفته بعلم الكلام :

وفي القيروان ، عاصمة العلوم والثقافة في بلاد أفريقية والمغرب أكد «أبو عمران الفاسي» إمامته في فقه المالكية ، وأستاذيته كواحد من كبار العلماء ، الأمر الذي حول داره إلى مدرسة لاستقبال طلبة العلم ، وكانت المدارس التي ظهرت في فيسايبور وقتئذ لم تعرف بعد في بغداد والمشرق العربي ، فضلا عن المغرب . وهكذا عرف عن أبي عمران الفاسي (أصلا) القيرواني (مسكنا) انه كان من أحفظ الناس وأعلمهم ، اذ جمع حفظ المذهب المالكي ، وحفظ حديث النبي وكذلك المعرفة بمعانيه ، إلى جانب المعرفة بالرجال : المعدلين منهم والمجرحين . ولما كان حفظ القرآن هو الأساس في علم الحديث ، فلم يعرف عن أبي عمران حفظ القرآن فقط ، بل «مؤخرته به وبقرائه السبعة أيضا» (٩) .

وعلى عكس ما هو معروف من أن علماء السنة المالكية هم أصحاب حديث لا يعرفون الرأي أو الاستحسان (كالحنفية) أو الاستنباط أو الاستصلاح (كالشافعية) ، فإن رحلات علماء الأندلس والمغرب إلى علماء المشرق والأخذ عنهم ، وهم الذين عرفوا الكلام بل والفلسفة ، فتحت أمامهم نوافذ العلوم العقلية على مصاريعها . وهكذا قيل ان أبا عمران عندما سار إلى بغداد (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م) التقى بالقاضي أبي بكر الباقلاني (٩ م) والقاضي عبد الوهاب ، من أعلام فقهاء المالكية ببغداد ، وحضر مجالس المناظرة التي كان يقيمها أهل الكلام من المالكية والشافعية ، وكانت أشهرها مجالس أبي بكر الباقلاني . وفيها ظهر عدم خبرة أبي عمران بذلك النوع من الجدل العقلاني الذي يحسنه المتكلمون . فهو عندما سئل من قبل بعض الشافعية عن مسألة في الاستحسان ، أجاب بجواب صحيح - كما تقول الرواية - ولكنه مجرد من الدليل ، الأمر الذي دعا أحد شباب المشايخ البغداديين إلى الدفاع عنه بالتماس العذر بعدم الخبرة وتطبيب خاطره بالتعبير له عن الاحترام ، على كل حال (١٠) .

(٩) الصلة ، ترجمة ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

(٩ م) أنظر مدارك القاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ - حيث النص على أنه «درس الأصول على أبي بكر الباقلاني ، إلى جانب سماعه من أبي ذر بمكة» .

(١٠) أنظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٣ - ٥٤ - حيث النص - نقلا عن مدارك القاضي عياض - على ان أبا عمران ، كان إماما في كل علم ، نافذا في علم الأصول (موضوع المتكلمين بالامتياز) . وأنه لما دخل بغداد توقع الناس حضوره مجلس القاضي أبي بكر الباقلاني حيث المناظرات الحارة ، وهناك تمت المواجهة بين أبي عمران وبين بعض مشايخ الشافعية من المتكلمين ، الأمر الذي دعا =

وهكذا كانت تجربة بغداد العلمية مفيضة لأبي عمران الفاسي على المستويين السني النقلي والاجتهادي العقلي ، الأمر الذي دعا القاضي عياض ينص على امامته في الحديث وفي علم الأصول (الاعتقادات) جميعا . وعن هذا الطريق كان من الطبيعي أن يثبت أبو عمران الفاسي استاذيته العلمية في القيروان ، وأن يوطد مركزه كرجل دين معتدل له شعبيته التي تمكنه من تهدئة فتن العامة في العاصمة الافريقية ، يفضّل تمكنه من حفظ القرآن وتبحره في علوم الحديث ، الأمر الذي هيا له التفوق في فنون علم الفتوى ودروبه ، مما سيعرف بعلم الحيل - بمعنى ايجاد المخارج الشرعية لبعض المشتبه فيه من الأحداث والنوازل . والمثل لذلك تلك الحيلة القانونية التي خرج بفضلها من مأزق فتنة عامة ، بسبب نداء رجل من العامة ، في أسواق القيروان : « أنا خير البرية » فكأنه أفضل من أولياء الله وأنبيائه ، الأمر الذي كان يشكك في خروجه عن الاسلام (١١) .

وبذلك يكون أبو عمران الفاسي قد جمع بين الاتجاه السني المحافظ (المالكي) والعقلاني المجتهد (المعتزلي) ، وهو الاتجاه الذي بدأ يسود في المشرق الاسلامي وبغداد في ذلك الوقت المبكر من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، والذي يعتبر قاضي بغداد الماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) من مشاهير من عرف به الى جانب زهده وورعه ، والذي انتهى بالتبلور في فكر الامام الغزالي (المتمثل في احياء علوم الدين) (١٢) . وعلى هذا النمط في الجمع

= أحد الشباب الى المبادرة بالدفاع عن أبي عمران ، وهو يقول : هذا شيخ من كبار شيوخنا . من الجفاء أن نكلفه المناظرة من أول وهلة . . . كما أعلن أنه ينوب عنه في الاجابة ، الأمر الذي دعا الى اعتذار السائل الشافعي .

(١١) انظر الصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ٧٢ - حيث أبو العباس أحمد بن العبيد العبيدي (الياسي) الذي روى عن أبي عمران الفاسي حادثة ائت بالقيروان بسبب رجل من (المريرين) كان يقول : « أنا خير البرية » ، فهتت به العامة وحملتته الى أبي عمران الذي قرر الرجل فعرف أنه مسلم (لم يرتد) : يؤدي الفرائض . وبناء على ذلك استطاع أن يهديه من روع الناس ، وأن يطيب خاطرهم بجودة حفظه وحضور بديته عندما قرأ لهم الآية التي تقول : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات... أولئك هم خير البرية » - (سورة البينة ، آية ٩٨) .

(١٢) انظر للمؤلف ، الماوردي بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ، الاسكندرية ١٩٧٠ - ص ٤٢ ، ٦٧ - حيث عرف الماوردي بأنه شافعي في الفروع معتزلي في الأصول ، وعن تأليف أبي عمران ، انظر عبد الله كنون ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ - حيث النص على أن تأليفه ليست كثيرة ، إذ لا يذكر له الا كتاب التعليل على المدونة (الذي لم يكمله) كما تذكر له فهرسة (برنامج الأساتذة - عن عبد السلام بن سودة في مؤرخي المغرب) . وعن احياء الغزالي انظر ص ٤١٥ وما بعدها .

بين العلم (الحديث النبوى) التقليدى وبين الاجتهاد العقلى فى استنباط الأحكام ، عرف عدد من تلاميذ أبى عمران من كبار المشايخ مثل : ابن زاهر (أبو حفص عمر - ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) الذى كان يعتقد فى ذكاء المؤمن ويحذر من محاولة التفرير به ، بناء على بعض الأحاديث النبوية التى كان يسندھا الأساتذة ، من أبى الحسن القابسى ، وحمزة الكنانى (١٣) وابن صالح القيروانى (أبو حفص عمر - ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) الذى اعتنى بالأصول (الالهيّات) والفروع (العبادات والمعاملات) جميعاً (١٤) . ومن بينهم تميز ابن الريولى (أبو محمد القاسم بن الفتح بن يوسف - ولد ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م - ت ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) الذى روى عن أبى عمران الفاسى ، والذى اشتهر بالعلم بالحديث والمعرفة باختلاف الأئمة ، كما اشتهر بأنه صاحب اجتهاد ورأى ، اذ كان يقول بـ « العلة المنصوص عليها والمعتونة ، ولا يقول المستنبطة » ، ثم انه اعمل فكره وغير رأيه ، فبعد أن كان « يقول بدليل الخطاب » ظهر له « فساد القول فيه فنبذه وأطرحه » (١٥) .

وفى مثل هذه الاجتهادات من عقلية أو خطابية تذكر مقالة أبى عمران فى شرح « معرفة الله » عند غير المسلمين ، وهل تشبه معرفته عند المسلمين ؟ . فلقد أجاب أبو عمران وهو يستخدم التشبيه فى الخطاب بنفسه (أى بأبى عمران) قائلاً عن الفرق بين المعرفتين بأنه أشبه بالفرق بين من يصفه هو نفسه (أبا عمران) بأنه يقال يبيع البقل وغيره من الطعام فى دكانه فى السوق (وهى معرفة غير المسلمين الخاطئة) ، وبين من يقول عنه (أبى عمران) : انه فقيه يعلم الناس ويفتيهم فى داره أو فى المسجد (وهو الأمر الصحيح المخالف للأول) ، والذى يجعل البون شاسعاً بين معرفة الله عند المسلمين وعند غيرهم مما آنس العامة من أهل القيروان وأرضاهم (١٦) .

(١٣) الصلة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ .

(١٤) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٨٦٧ / ص ٣٩٩ .

(١٥) الصلة ، ترجمة رقم ١٠١٤ / ص ٤٦٢ .

(١٦) جذوة الاقتباس لأبى القاضى ، القسم ١ (١ - ص) ، ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٣٤٤ .
- حيث مسألة الكفار التى جرت بالقيروان ، نقلاً عن عبد الجليل بن أبى بكر الديباجى ، وهل يعرفون الله تعالى أم لا ؟ وهى المسألة التى تنازع بشأنها العلماء والعامة فى الأسواق ، وكان قد تزعمهم مؤذن يركب حماراً ويدور وينظر المتكلمين والفقهاء ، الأمر الذى انتهى بطلب الإمامة الفتوى من أبى عمران الفاسى . وبعد أن طلب الشيخ من زعيم العامة أن يحسن الاستماع ، قال له : أرايت لو أنك لقيت رجلاً فقلت له أتعرف أبا عمران الفاسى فقال لك =

وبمثل هذا الخطاب البسيط في شكله والمقنع في مضمونه ، وغيره مما سبق ، كان أبو عمران الفاسي يقترب من أفهام العامة ، بحسن سياسته لهم وبالتالي بالنجاح في تأديبهم ، والاستحواذ على حبهم له وتقديرهم . ونرى الى جانب ذلك ان تلاميذ أبي عمران من أدباء القيروان ، وبخاصة شعرائها ، مثل : ابن شرف ، أبو عبد الله محمد بن سعيد (الجذامي القيرواني) الذي كان له حظوة في قلوب العامة ولا بأس ، والذي تغنى شجنيا بمأساة القيروان على أيدي العرب الهلالية (ج ٣ ص ٤٢٧) ، كان من الاسباب المساعدة في الرفع من شأن أبي عمران الى مرتبة الزعيم الشعبي - قبل هجرة ابن شرف الى الأندلس سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م (١٧) . والى جانب ابن شرف هناك ذكر لعدد من كبار الشعراء من معاصريه القيروانيين ، مثل : ابن رشيق (القيرواني) ، وابن حجاج ، وعبد الله العطار ، ممن لهم ذكر في ترجمة الصديقي السفاقي ، الذي غادر القيروان الى قرطبة سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٤٦ م ، لكي يتوفى بها بعد سنتين (٤٤٠ هـ / ١٠٠٩ م) . وان لم نعرف ان كان لهؤلاء الشعراء علاقة بأبي عمران الفاسي ، الذي لا نعرف تاريخ وفاته على وجه الدقة (انظر ، ص ١٦٥ وما بعدها) .

أبو عمران الفاسي والتنظير (الايديولوجي) للدولة الصحراوية الدينية :

رغم ما قيل من أن صحراء الملثمين كانت قليلة السكان شحيحة الخيرات ، مفتقدة لأهم ضرورات الحياة من مادية وروحية ، فلم يعرفوا الحبز ، كما لم يعرفوا من أمور دينهم سوى أقل القليل كالشهادتين فقط ، فالحقيقة أن مثل هذه المقالة لا تنطبق الا على سواد الناس من طبقات الكادحين . أما الطبقة المتيسرة فكانت على دراية بما يجري في العواصم الحضرية ، كما كانت تعرف شعائر الدين ، بل وتحرص على أداء فريضة الحج في بلاد الحجاز البعيدة ، تحت تأثير الدعاة من التجار ، أو من رجبال الدين من العلماء والفقهاء ، من مغاربة وأندلسيين . ففيما يتعلق بأبي عمران الفاسي كان من بين تلاميذه من هم من أهل السوس الأقصى ، على حدود بلاد الملثمين من

= أنه رجل يبيع البقل والزيت في سوق همام ويسكن البصرة أكان يعرفني ؟ فقال لا . ثم قال له فلو لقيت آخر فتال هو رجل يدرس العلم ويفتي الناس ويسكن بقرب السباط . أكان يعرفني فقال (الرجل) نعم . وهكذا نجح في وأد الفتنة .

(١٧) الصلة لأبي بشكوال ، ترجمة رقم ١٢٠٨ / ص ٥٤٥ - حيث كانت لابن شرف الذي هو من فحول الشعراء ، رواية عن القبيسي الفقيه ، وعن أبي عمران الفاسي ، اللذين صحبهما في القيروان قبل خروجه منها ، الى الأندلس ، حيث استقر .

جدالة ولطة ، مثل : وجاج بن زلوا مكتشف عبد الله بن ياسين ، المنظر المباشر للدعوة المرابطية ، فكأنه التلميذ الروحي لأبي عمران : أستاذ معلمه . أما المكتشف الحقيقي لمعلم الصحراء ، وبالتالي المنظر الفعلي للدعوة المرابطية ، فهو الزعيم الصنهاجي الذي كان يقود وقتئذ طائفة من اخوانه المثلثين على طريق وادي درعه - سجلماسة ، مرورا بالقيروان ، حيث اجتذبت دروس أبي عمران وتعاليمه . فكأن الأمر تكرر لبداية الدعوة الفاطمية في منطقة القبائل ببلاد الجزائر الشرقية ، وكان أبا عمران الفاسي صنو ابن حوشب ، كبير الدعاة ، وكان يحيى بن ابراهيم صنو الزعيم القبلي الكتامي . وبذلك يكون عبد الله بن ياسين نظير الداعي الفاطمي أبي عبد الله النشيعي (١٨) .

والأمر الذي يسترعى الانتباه هو انه رغم ضخامة العمل التاريخي الذي قام به كل من الزعيم القبلي (المثلث) والفقيه الديني (المالكي) ، وأثره العميق في الشمال الافريقي والسودان الغربي ، فان الغموض مازال يحيط بكل من الرجلين اللذين ينبغي أن ينسب اليهما ذلك الانجاز الكبير . فأبو عمران الفاسي الذي يظهر في القيروان كزعيم شعبي له دور محوري في تهدئة الفتن بالأسواق ، واستتباب قواعد الأمن في المدينة ، ينتهي نهاية غامضة ، وسط العاصمة الافريقية التي كانت تعج بالعلماء والشعراء وطلبة العلم ، من كل فج عميق ، الى ما بعد اضطرابها بوصول العرب الهلالية حوالى منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م - وذلك في فترة تمتد ما بين سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، وسنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م . وكذلك الأمر بالنسبة لزعيم جماعة حجاج صنهاجة المثلثين ، الذي تعدى الاختلاف بشأنه الحدود الزمنية التاريخية الى التنازع في اسمه ، بل وفي حقيقة شخصه . ولا بأس أن يكون الاختلاف في تحديد وفاة أبي عمران الفاسي هو الذي أدى الى الاختلاف في شخصية الزعيم الجدالي .

وهنا نرى أن المنهج يقتضى أن نرجع الى مصادرنا المعتبرة متسلسلة من الأقدم فالأحدث ، في محاولة لكشف تتابع الأحداث في مساراتها المنطقية في متواليات في شكل مقدمات ونتائج تترابط فيما بينها بشكل عضوي ، هو أصل العلية في عملية التكوين التاريخية .

وفي هذا السياق يكون المصدر المعتمد هو البكري الأندلسي ، المعاصر

لتلك الأحداث . وهو يحدد بداية حركة الإصلاح المرابطية التي قامت بها قبائل صنهاجية في مواطنها المتاخمة لسواحل المحيط الأطلنطي ، بشكل عام فيما بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، حينما قامت « بدعوة الحق » تحت قيادة عبد الله بن ياسين (١٩) ، دونما تحديد لوقت لقاء أبي عمران بالزعيم الجدالي ، رئيس بعثة الحج الصنهاجية : يحيى بن ابراهيم الجدالي في عودته من الحج ، والذي كان حريصا على التعلم في مجلسه (٢٠) . أما ابن الأثير فيجعل بداية أمر المثلثين في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ويحدد في تلك السنة رحلة الحج التاريخية التي قامت بها بعثة الحج الصنهاجية حيث التقى رئيسها الجدالي الذي يحمل اسم « الجوهري » بفضيلة القيروان ، الذي يقال انه « أبو عمران الفاسي » في أغلب الظن (٢١) .

أما ابن أبي زرع ، صاحب روض القرطاس ، الذي يكتب في مطلع القرن الـ ٨ هـ / ١٤ م (٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م على عهد المرينيين) فيجعل سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م هي سنة خروج المرابطين لغزو المغرب ، الأمر الذي يتفق مع رواية ابن الأثير ولكنه وهو لا يحدد سنة لقاء الزعيم الجدالي بالفقيه أبي عمران الفاسي ، يقرر التاريخ لذلك الحدث ضمنا قبل سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وهي السنة التي توفي فيها أبو عمران بالقيروان ، كما يرى (٢٢) . هذا ، وهو يجعل بعد ذلك اللقاء فيما بين سنة ٤٢٧ هـ /

(١٩) البكري ، ص ١٦٤ .

(٢٠) البكري ، ص ١٦٤ - حيث النص على أن رئيسهم كان يحيى بن ابراهيم من بني جدالة وحج في بعض السنين ، ولقى في صدره (عودته) عن حجة الفقيه أبا عمران الفاسي ص ١٦٥ .

(٢١) الكامل في التاريخ ، ج ٩ ص ٦١٨ ، وقارن النويري ، نشر أبو ضيف ، ص ٣٧٥ وهـ ٢ - حيث بيان المصدر الذي يشترك في الأخذ عنه مع أبي الأثير ، ويتمثل في رواية عز الدين بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس (الزيري الصنهاجي) في كتابه « الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان » بسند القاضي يعلى بن قنون (جنون) : قاضي مراكش - حيث محاولة للتوفيق بين رواية البكري (بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، ورواية ابن الأثير (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) ، بالنص على ان رحلة الحج الصنهاجية كانت في العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م (عشر الحسين وأربعمئة) - وحيث رصد الاختلافات ، بين سنة ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ - وأخيرا سنتي ٤٢٧ ، ٤٢٩ لخروج الجدالي الى الحج ووفاة أبي عمران التي تشير اليها فيما بعد . وقارن نشر دار الكتب (هيئة الكتاب) ، تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٣ ، هـ ١ - حيث ترجيح أن يكون « يحيى بن ابراهيم » هو « الجوهري » على أساس ان الجوهري لثبه - وذلك عكس ما رأى حسن أحمد محمود من أنهما رجلا مختلفان . أما عن الفقيه القيرواني الذي التقى به الزعيم الصنهاجي ، فالغالب انه أبو عمران الفاسي . (٢٢) القرطاس ، ص ١١٨ ، ص ١١٢ بعدها - حيث يجعل وفاة أبي عمران في ١٣ من رمضان (من تلك السنة : ٤٣٠ هـ / ١١ يونيو ١٠٣٩ م) .

٦ - ١٠٣٥ م (حيث خروج يحيى بن ابراهيم الى الحج) وبين سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م ، حيث وفاة أبى عمران ، على أساس أن اللقاء كان فى رحلة العودة (الصدور) (٢٣) .

أما ابن خلدون فيفسر وصول يحيى بن ابراهيم الجدالى الى منصب الرياسة بسبب صهره فى جماعة بنى ورتنطق التى تعتبر من طبقة النبلاء بين قبائل المثلثين . وعن خروجه لقضاء فريضة الحج على رأس جماعة جدالة ، فيجعله فى أول الأربعينيات من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م (٤٤٠ هـ / ٩ - ١٠٤٨ م) ، أى فى بداية العقد الخامس ، حسب رواية عز الدين بن شداد (الزيرى) التى يأخذ بها ابن الأثير ، والتى يلخصها النويرى . وهكذا يكون لقاء حجاج كداله بأبى عمران فى طريق العودة فى السنة التالية (٤٤١ هـ / ١٠٥٠) (٢٤) .

وهكذا يكون ابن أبى زرع أول من يحدد وفاة أبى عمران بسنة ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م ، وهو فى الحقيقة يأخذ هذا التاريخ من ابن بشكوال فى ترجمته لأبى عمران ، نقلا عن أبى عمرو المثرى الذى يقرر ان عمره كان يناهز وقتئذ ، ٦٥ (خمسة وستين) عاما . هذا ، ولو أن ابن بشكوال نفسه ، يقرر أن وفاته كانت فى سنة ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م ، السابقة (٢٥) .

والذى يؤخذ على تحديد وفاة أبى عمران فى آخر العقد الثالث أو أول العقد الرابع ، حسب رؤية ابن بشكوال ، وبالتالي يجعل لقاءه بحجاج جداله فى نفس هذا الوقت ، هو ما يترتب على ذلك من طول الفترة اللازمة للاعداد لقيام الدولة المرابطية الوليدة ، فراغا دون أحداث ما ، وهى الفترة التمهيدية التى يسميها ابن خلدون « بالمطاوله » ، الى ما يقرب من ٢٠ (عشرين) سنة ، الأمر الذى يدعو الى الشك فى صحة أمدها هذا ، ليس بسبب بساطة التجهيزات المطلوبة للمطاوله فقط ، بل وبالمقارنة مع التواريخ التى يقدمها

(٢٣) القرطاسى ، ص ١٢٢ .

(٢٤) أنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن بما سبق وشعيرة ، المرابطون ، ص ٢٨ .

(٢٥) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ - حيث ينص ابن بشكوال على انه كان

يأخذ عن أبى عمران بالقيروان ، وانه تركه حيا ، وعاش بعده الى أن توفى سنة ٤٢٩ هـ / ٨ -

١٠٣٧ . اما عن ميلاد أبى عمران فهو فى سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، حسب رواية عمر بن عبد البر

الذى يقول انه وأبا عمران الفاسى ولدا فى تلك السنة . وقارن جذوة الاقباس لابن القاضى ،

قسم ١ (ص ٣٤٤ ، ترجمة رقم ٣١٤) .

ثقات المؤرخين الذين اضطروا الى التشكيك فى أن يكون لأبى عمران الفاسى دور فى ذلك التمهيد ، مما يتعلق بلقاء يحيى الجدالى . فإذا أخذنا بتواريخ البكرى وابن الأثير والنويرى ، وكذلك ابن أبى زرع وابن خلدون نستخلص منها أن حركة « المطاولة » المبنية على عملية التجديد الدينى والاصلاح الاجتماعى ، بناء على مشورة أبى عمران تبدأ باللقاء مع حجاج جدالة سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٩ م ، وتؤتى ثمارها سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م بغزو بلاد المغرب ، فكان فترة المطاولة لم تزد على ٦ (ست) سنوات أو ٧ (سبع) .

أبو عمران وليس بعض تلاميذه :

وهنا تبقى مسألة أبى عمران ، هل هو الذى لقيه حجاج جدالة أم انه أحد تلاميذه ، اذا كان قد توفى حقا فى سنة ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م أو سنة ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م التالية . والذى نراه أنه لما كان الواقع التاريخى يؤكد صحة أحداث ظهور الحركة المرابطية فى أربعينيات القرن الـ ٥ هـ / ١١ م بالمغرب الأقصى أى الغاء الدور البارز الذى قام به فقيه القيروان أبو عمران الفاسى فى تحريك تلك الأحداث . فهنا نقترح ببساطة تعديل تاريخ وفاته الى ما بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٩ م ، كما تنص على ذلك روايات المؤرخين الأصيلة بدأ من البكرى وانتهاء بابن خلدون ، على أن تكون سنة ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م وسنة ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م تصحيفا لسنتى ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، فى رواية ابن بشكوال . ويكون سندنا فى ذلك التواريخ المتعلقة بميلاد تلاميذ أبى عمران الفاسى ووفاتهم ، وخاصة المتأخرين منهم ، ممن توفوا فى أواخر القرن الـ ٥ هـ / ١١ م أو أوائل القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م . فالذى يستشف من مناهج التعليم الدينى فى ذلك العصر ، أن من كان يقرأ أو يسمع أو يأخذ عن الشيخ أبى عمران أو يطلب الاجازة منه كان بمثابة طالب الدراسات العليا فى أيامنا هذه ، بمعنى أن عمره كان لا يقل عن منتصف العقد الثالث ان لم يتجاوز هذا العقد - والمثل لذلك أبو عمران نفسه ، اذ كان فى الثانية والثلاثين عندما بدأ رحلته العلمية فى سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م .

وهكذا نرى أن واحدا من مشاهير طلبة الأندلس الذين جالسوا أبا عمران الفاسى ، وهو ابن الطرابلسى : أبو حاتم بن محمد بن عبد الرحمن ابن حاتم التميمى (القرطبى أصلا والظليطلى سكنا - ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م - ٤٦٩ هـ (ذو القعدة) / مايه ١٠٧٧) يبدأ رحلته العلمية الى المشرق سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، وعمره ٢٥ (خمسة وعشرون) سنة ، ويجالس أبا عمران فى طريق العودة وعمره ٢٧ (سبع وعشرون) سنة ، وانصرف

الى بلاده بعد أن قضى فترة لا نعرف مقدارها ، ولكنها طالت الى سنوات على ما نظن ، حيث جمع فيها ، وهو المجتهد المعروف بأنه كان يكتب بخط متأنق ، وأنه كان مثابرا على حمل العلم حتى فى أواخر أيامه - علما كثيرا (٢٦) . وإذا كنا نفتقد تاريخ مولد المتأخرين من طلبة أبى عمران الفاسى ، مثل : أبى الحسن طاهر بن هشام الأزدي ، المتوفى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م (رقم ٥٤٠ / ص ٢٢٧) ، وأبى بكر محمد بن نعمة (الأسدي العابر القيرواني المتوفى سنة ٢ - ٤٨١ هـ / ٩ - ١٠٨٨) (رقم ١٢٠٧ / ص ٥٤٥) ، فمن حسن الحظ أننا نعرف تاريخ ميلاد آخرهم وتاريخ وفاته ، وهو ابن غلبون الحولاني : أبو عبد الله بن محمد بن عبد الاشبيلي (٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م - ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) .

والمهم هنا هو أن أبا عمران الفاسى أجاز للخولاني بمعنى انه لم يحضر دروس ابن عمران فى القيروان ، ربما لتقدم سن الشيخ أو لرواج الاجازة وقتئذ ، وهو الأمر الذى كان يتنبأ بخطورته بعض العلماء ، على أساس أن الاجازة التى تشبه الدراسة بالمراسلة ، أو عن طريق الجامعة المفتوحة حاليا ، تهدد ببطلان الرحلة ، التى تشبه ايفاد البعثات الطلابية الى الخارج للدراسة . وهنا اذا افترضنا أن سن ابن غلبون الحولاني ، عندما حصل على الاجازة (الشهادة) العلمية كان يبلغ الـ ٢٥ (خمس وعشرين) سنة ، فان ذلك يعنى أنه حصل على تلك الاجازة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وان لم يكن بعدها ، فكان أبا عمران الفاسى كان حيا قريب هذا الوقت ، الأمر الذى يتفق مع تقارير مؤرخينا ، المعتمدين ، من البكرى الى ابن الأثير وابن خلدون ، ومن سار على دربهم هذا .

وبذلك تنحل عقدة وفاة المنظر الأول للفكر المرابطى : أبى عمران الفاسى ، على أساس أنها تمت فى مطلع العقد الخامس (الأربعينيات) من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، فلا يغط حق الرجل فيما أنجزه من عمل كبير كان له أثره العميق فى تاريخ المغرب الاسلامى حتى مطلع العصور الحديثة ، ولا ينسب ذلك الى مجهول آخر من تلاميذه ، كما نرى فى ابن الأثير ، ومن أخذ من نفس المصدر (ما سبق ، ص ١٦٤ وما بعدها) ، الأمر الذى يعاكس تماما مقاصد التاريخ وأغراضه .

وتبقى مشكلة الزعيم الجدالى : وهل هو : يحيى بن ابراهيم ، كما هو

متعارف عليه لدى معظم الكتاب والمؤرخين أم هو نفس الشخص الملقب بـ « الجواهر » ، وهو ما أخذ به ابن الأثير في كامله ، نقلا عن ابن شداد (الزيرى - ما سبق ، ص ٢٩ وما يأتى ص ١٨١ وهـ ٥٢) - وله ولكتابه ما لهما من الرسوخ في التاريخ الاسلامى . والحقيقة أن مسألة الجواهر محسومة في مصدرنا الرئيسى عن قيام الدولة المرابطية ، وهو البكرى ، الذى يفرق بين رئيس بعثة الحج الجدالية فى مطلع العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، وهو يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وهو الشخصية التاريخية الراسخة ، مثل أبى عمران الفاسى ، وبين النائر (اللمتوئى) المسمى بالجواهر بن سكم ، الذى كان يسانده فى ثورته رجلا من كبرائهم ، أحدهما يحمل اسم « أيار » والآخر اسم « اينتكوا » (٢٧) .

اللقاء بين أبى عمران الفاسى ويحيى بن ابراهيم الجدالى (٤٤٠ هـ / ٩ - ١٠٤٨ م) :

بناء على ما تقدم يكون لقاء يحيى بن ابراهيم الجدالى قائد بعثة حج المثلثين الصنهاجية ، بفضيه القيروان أبى عمران الفاسى قد حدث مرتين ، أولاها : أثناء رحلة الذهاب (الورد) سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، والثانية فى طريق العودة (الصدور) سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م . ومن الواضح أن الزعيم الجدالى كان محبا للعلم . فهو اذا كان قد مر سريعا بمجالس أبى عمران ، سواء فى داره قرب السباط ، أو فى المسجد الجامع ، فانه أحسن الجلوس فى رحلة العودة . ولا بأس أن يكون قد شاهد بعض مجالس علماء الحجاز فى مكة أو المدينة ، ممن سبقت الإشارة اليهم (ص ١٤١) ، وأن ذلك كان أدعى الى ارتباطه الى فضيه القيروان الفاسى ، على أساس أنه الأقرب اليه لهجة وتقليدا . والمهم أنه حدث تجاوب بين الزعيم الدينى والشيخ القبلى اللذين تقاسما شرف التفكير فى عملية الإصلاح الاجتماعى فى صحراء المغرب الكبرى . فالروايات الأولى التى تبدأ بالبكرى تنسب الفضل الى أبى عمران الذى سأل رئيس جماعة المثلثين عن بلده وأحواله ، ومذاهب أهله الدينية . وعندما اتضح له أن الرجل الصحراوى ليست لديه

(٢٧) البكرى ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وهذا ما أخذ به حسن أحمد محمود ، فى رسالته عن قيام دولة المرابطين ، وهو ما لم يقتنع به حسين نصار فى تحقيقه للجزء الـ ٢٤ من النويرى ، دون سند اعتمادا على أن يكون الجواهر لقبا ليحيى - مما سبقت الإشارة اليه ، ص ١٦٦ وهـ ٢١ .

معرفة بالمذاهب الاسلامية ، بل وانه لا يعرف الا القليل عن فرائض الاسلام ، ورغم ذلك فله رغبة شديدة في التعلم ومعرفة واجباته الدينية ، ناقشه في امكانية سد هذا النقص الخطير ، المتمثل دينيا في تعلم شريعة الاسلام ، ومدنيا (في الحياة اليومية) في تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهنا اعتذر يحيى بأن من يأتي الى بلادهم من المعلمين مجردين من الورع والتقوى ، جهلة لا علم لهم بمذاهب أهل السنة ، وسأله أن يختار له من طلبته من يقوم بتلك المهمة الشاقة بين الجفاء من أهل الصحراء (٢٨) . أما الروايات التالية التي تظهر عند ابن الأثير والنويري وابن أبي زرع ، فتجعل الفضل في ذلك الى الزعيم الجدالي ، الذي يادر أبا عمران بقوله انه ليس عندهم في الصحراء شيء من هذا (علوم الدين) غير الشهادتين في العامة ، الى جانب الصلاة في بعض الخاصة فقط ، مع سؤاله أن يبعث معه من يشق فيه ليعلمهم شرائع الاسلام (٢٩) .

اختيار المعلم :

عرض الأمر على طلبة القيروان :

ولم تكن مهمة القيروان في اختيار المعلم المناسب لسكان الصحراء من

(٢٨) البكري ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٨ - ٦١٩ ، وقارن النويري ، تحقيق « أبو خليف » ، ص ٣٧٦ - حيث ينسب الجزء الأخير من الجدل الخاص بحمل العلم الى أبي عمران ، وانظر تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ - حيث النص « فاحمل معك من يعلمهم عقائد ملنهم ، وكمال دينهم » ، وانظر القرطاس ، ص ٢٢ - حيث يدور حوار بين الرجلين يعرف فيه الجدالي بسعة بلاده وما فيها من الخلق الذين غلب عليهم الجهل . وعندما يظهر لأبي عمران أن جهل يحيى بواجبات دينه لا ينقص من رغبته في التعلم ، وعرف منه أن أهل بلاده يحبون الخير ويسارعون اليه اذا ما وجدوا من يدرس لهم العلم ، ويدعوهم الى العمل بالكتاب والسنة ، وانه يدعوهم الى المساعدة في تحقيق ذلك ، ليكون له الأجر العظيم ، حيث يكون سببا لهدايتهم ، عمل أبو عمران على تحقيق رغبته تلك . وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ والترجمة ج ١ ص ٦٧ - حيث الارتفاع بالخبر الفردي الى حالة القانون الاجتماعي ، اذ يكون الفضل الى جماعة حجاج حداله الذين انبهروا بعلم أبي عمران وفتاويه فسألوه أن يبعث منهم من يرجعون اليه في قضايا دينهم . وقارن حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ١٠٧ - حيث القول - كما هو الحال بالنسبة لـ « كتاب ذكر بعض مشاهير فاس لجهول » (ص ٦٣) ، بأن يحيى الجدالي خرج لطلب الحقيقة وليس للحج فقط ، وانه خرج لارتداد مدارس المغرب !

المثمين من الأمور السهلة فلقد اجتهد أبو عمران في البحث عن الرجل المناسب بين المقربين اليه من طلبة حلقاته ، بل ومن بين أفراد أسرته . وهناك تفصيلات - شبه قصصية - اجنهد المأخرون من الكتاب في رصدها يستدل ذنبا على ان مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الصحراء البعيدة عن عمران لم تكن من الامور المحببة لرجال الدعوة الناشئين (٣٠) ، وان التمسنا لهم العذر على أساس أنهم لم يكونوا قد تدربوا على الأصول الفنية المعروفة لدى المحترفين من الدعاة ، وخاصة من أبناء تنظيمات الحركات السرية ، كالدعوة الفطمية (ج ٣ ص ٢٠) .

وهكذا لجأ أبو عمران في البحث عن الرجل المنشود - بعد أن تعهد له يحيى بن ابراهيم بـ « حفظه وبره واکرامه » - الى واحد من أبناء اخوته اسمه عمر ، وعرفه بما سيكون له من الذكر الجميل لدى الناس ، والثواب العظيم من الله عز وجل ، حتى أقنعه بالقبول . ولكن طالب القيروان المرفه لم يلبث ان استعفى من الغد ، من تلك المهمة التي قد لا تحمد مغبتها (٣١) .

دور محمد : وجاج بن زلوى (السوسى) :

وازاء رفض طلبة القيروان دخول الصحراء الموحشة والذي ربما كان مقدمة مصطنعة تهدف أصلا الى تقرير صعوبة مهمة المعلم الداعى ، رأى أبو عمران أن خير من يقوم بتلك المهمة واحد من شباب العلماء من أهل البلاد ، من صنهاجة الصحراء ، المثلثين . وهذا ما أخبر به يحيى بن ابراهيم الجدالى اذ طلب منه أن يعرج ، وهو فى الطريق الى بلاده المتاخمة لساحل المحيط الأطلنطى على بلاد السوس ، حيث يوجد واحد من علماء طلبته المجتهدين ، هو : محمد وجاج (وكاك) بن زلوا اللمطى ، الذى كان يقيم

(٣٠) انظر البكرى ، ص ١٦٥ - حيث مجرد الإشارة الى ان أبا عمران لم يجد فيمن رضيه (من تلاميذه) من يجيبه الى السير معه (يحيى بن ابراهيم) ، فقال له : قد عدت بالقيروان بفيتكم .

(٣١) النويرى ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٤ - حيث النص على انه طلب الاستعفاء لأن أهل الصحراء جاهلية لهم عاداتهم التي اذا طلبوا بخلافها لجأوا الى قتل من طالبهم بذلك ، وقارن الغرطاس ، ص ١٢٣ - حيث يندب أبو عمران بناء على طلب الزعيم الجدالى - تلاميذه الى ذلك « فامتنعوا ، وأشفقوا من دخول الصحراء ٠٠٠ » ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - حيث عرض المسألة كقضية عامة يرفضها طلبة القيروان الذين نذبهم اليها أبو عمران ، حرصا على ايصال الخير اليهم ، ولكنهم استوعروا مسغبة بلادهم .

ببلدة (ملكومس) ، والذي اشتهر بعلمه وورعه (٣٢) ؛

وزود أبو عمران يحيى بن ابراهيم بخطاب الى وجاج - يبدأ بالتسليم والبعدية ، ثم التعريف بالزعيم الجدالي . أما موضوعه فتوصية فقيه القيروان تلميذه القديم فقيه السوس ، بأن يبعث مع يحيى الى بلاده واحدا من طلبته ، ممن ينق في دينه وورعه وعلمه ، ليعلمهم ويفقههم في دينهم ، وله ثواب والأجر العظيم . وينتهي الخطاب بالتسليم .

واذا كنا نسك في نسخة الكتاب - الذي لا نعرف من أين أتى الى صاحب روض القرطاس ، ولا كيف - فان مضمونه لا يختلف عما كان يدور بين أبي عمران وبين يحيى بن ابراهيم بشأن المعلم الأمر بالمعروف - وهو ما يبين الكيفية التي تم بها وضعه (٣٣) . والمهم أن الزعيم الجدالي : يحيى بن ابراهيم سار الى وجاج ، الذي كان يعتكف في رباط له بنفيس ، حيث كان منقطعا لأعمال الورع والتقوى وتدريس العلم ، والدعوة الى الخير (دعوة الأمر بالمعروف) ، وعرفه بمقصده ، من : طلب معلم محتسب يعلمهم شرائع دينهم ، ويهديهم الى الخير ، وذلك في أواخر سنة ٤٤٠ هـ / مايو ١٠٤٩ م (٣٤) .

(٣٢) البكري . ص ١٦٥ - حيث النص على أنه ربما ظفر عند وجاج بن زلوى ببغيته ، فجعل ذلك يحيى بن ابراهيم أوكد منه . وقارن روض القرطاس ، ص ١٢٣ - حيث النص على أنه « لما ينس (أبو عمران) منهم ، قال : اني أعرفم ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقها حاذقا تضا ورعا لقيني هنا ، وأخذ عني علما كثيرا ، واسمه واجاج بن زلوا اللمطي ، من أهل السوس الأقصى وهو يدعو الناس الى الخير في رباط هناك اكتب له كتابا لينظر في تلاميذه من يبعثه معك فسر اليه ، فعنده تجد ما تريد . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث أسسم فقيه السوس : محمد وكاك (وجاج) بن زلوا اللمطي ، بسجل ماسة (ولبس بالسوس) ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٨ - حيث : محمد و - ناك (ou — Aggag) بمعنى محمد بن وجاج ، والذي نراه ان محمدا هو اسمه العربي وان وجاج هو اسمه البربري ، تماما مثل يوسف : بلكين قبله ، ومحمد : اسفر بن تومرت بعده ، وأنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢١٩ - حيث اختصار ذلك بالقول أن أبا عمران هو الذي أرسل عبد الله بن ياسين مباشرة مع يحيى بن ابراهيم . ومن الواضح أنها رواية عز الدين بن شداد الزيري الصنهاجي التي ينقلها التويري (ج ٢٤ ص ٢٥٤) - حيث النص على أنه عندما خالف عمر ابن أخي أبي عمران ، عز على ابن ياسين ذلك ، وقال لأبي عمران : يا فقيه ، أرسلني مع (يحيى بن ابراهيم) والله المعين ، فأرسله معه ، وتوجها (سويا من القيروان) الى الصحراء ؟

(٣٣) القرطاس ، ص ١٢٣ .

(٣٤) أنظر القرطاس ، ص ١٢٣ - حيث النص على ان يحيى الجدالي وصل الى نفيس فودع الكتاب الى وجاج في رجب من سنة ٤٤٠ هـ / ديسمبر ١٠٤٨ م بدلا من ٤٣٠ هـ / =

وانتهى لقاء الرجلين بذلك الحدث التاريخي الذي حول بلاد الصحراء من حال الى حال ، وبالتالي بلاد المغرب والأندلس التي ارتبط مصير الواحدة منهما بالأخرى ، فكونتا امبراطورية عظمى ، ذات حضارة مغربية أندلسية عاشت الى مطلع العصور الحديثة ، وكان لها أثرها في تشكيل البلاد الى ما آلت اليه اليوم . ذلك الحدث هو اختيار عبد الله بن ياسين ليقوم بدور المحتسب في صحراء الطوارق المثلثين - دور مهدي المرابطين ، كما يحلو لصاحب روض القرطاس أن يسميه - تشبيها بابن تومرت (٣٥) : مهدي الموحدين .

عبد الله بن ياسين محتسبا :

عرض محمد : وجاج مهمة الدعوة في صحراء المثلثين ، بصحبة يحيى ابن ابراهيم ، على تلاميذه في الرباط ، وبين لهم أن حسن الثواب في تلك المهمة الحيرة يكون على قدر العمل . وانتهى الأمر بانتداب عبد الله بن ياسين للقيام بالمهمة الشاقة في بلاد القفر الموحشة ، فكان اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب ، كما يقال في أيامنا هذه . فالرجل أصلا من أهل الصحراء ، من قبيلة جزولة ، أخت جدالة ان لم تكن بعضا منها أو هي نفسها (ما سبق ، ص) . فابن ياسين صحراوي مغربي (بربري) أصيل . وإذا كان اسم أمه « تين يزمارن » يريرى قح ، فإن اسمه : عبد الله ، واسم أبيه : ي (ياه) و (سين) ، عربيان اسلاميان تماما (٣٦) . أما عن مسقط رأسه فهو قرية تسمى « تاما ناوت » في طريق صحراء غانه (٣٧) ، من غرب أفريقيا ، على تخوم بلاد السودان .

وهذا الأمر يدعونا الى التأمل في مغزى الرواية التي يفهم منها أنه

= ١٠٣٨ م - وهو ما عدلناه حسبما اقتضت أصول المنهج وسلامة الحس - مما صبقت الإشارة اليه : ص ١٦٩ . وعن وجاج الذي لا يعرف ان كان من تلاميذ أبي عمران في فاس أم في القيروان - أنظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ص ١٨١ - حيث الاسم أوكد (وجاج) بن زللوه اللمطي وان اللقاء كان في دار وجاج بالسوس التي سماها دار المرابطين ، وقارن عبد الله كنون ، أبو عمران القاسي ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ .

(٣٥) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٢٤ . وقارن ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٠ - ٧٨١ - حيث نص على أن ابن ياسين « ذو الأنباء العظيمة والقصص الغريبة ، القائم بدور المرابطين ، المزين لدولتهم أول خروجهم » .

(٣٦) - يسميه الله أشهر ما عبد من الأسماء ، والى س من الحروف القرآنية الرمزية المبجلة التي تبدأ بها بعض السور (أنظر سورة ي س رقم ٣٦ ، آية ١) .

(٣٧) البكري ص ١٦٥ .

عبد الله بن- ياسين كان من تلاميذ أبي عمران القاسمي ، وأنه عرض نفسه للقيام . بتلك المهمة ارضاء لأستاذه الذي أسف لاعتذار ابن أخيه عمر (ما سبق ، ص ١٧٢) . وهنا يمكن القول أن قصة ابن ياسين في القيروان هذه يمكن أن تشكك في حقيقة قصة البحث عن المعلم (الصحراوي) بين طلاب أبي عمران أو قرابته ، وما اعترض ذلك من عقبات . وهنا نرجع فكرة أن أبي عمران لم يكن ليعيب عنه أن أصلح المعلمين لأهل الصحراء ، هو من يكون مهم أصلا . وعندئذ تكون محاولة اختيار معلم قيرواني مجرد اجراء شكلي ، تهدف منه محاولة تجميل موقف العاصمة الثقافية الافريقية ، وبالتالي مدرسة لها المالكية (٣٨) .

رباط وجاج :

والمهم من كل ذلك هو : أين وجدت مدرسة وجاج أو رباطه الذي درس فيه عبد الله بن ياسين ، الطالب الوافد من جنوب الصحراء ، من تخوم بلاد السودان الغربي ؟ وهنا نجد ٣ (ثلاثة) مواضع ، أولها : ملكوس (التي لا تعرف لها مكانا) (البكري ص ١٦٥) ، وثانيها : « رباط » نفيس غير بعيد من الموضع التي ستبنى فيه مدينة مراكش (القرطاس ، ص ١٢٣) ، وثالثها : سجلماسة (ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢) . وإذا كنا نستبعد سجلماسة التي لم تعرف بأنها موطن رباط ، فضلا عن بعدها عن العدو البحري ، وكذلك الأمر بالنسبة لنفيس من حيث كونها من مدن وادي تنسيفت ، وهي المنطقة الوعرة التي لا يطرقها أهل الصحراء من طلبة العلم . وهكذا فلا تبقى الا ملكوس التي نرى أنها تحريف لاسم مدينة ماست التي ينسب اليها نهر السوس فهو وادي ماست ، والتي كانت وقتئذ على عهد البكري موطن رباط مقصود ، له موسم عظيم ومجمع جليل ، من حيث كانت مأوى للصالحين (٣٩) .

وكان ذلك الرباط على ساحل البحر ، في موضع اللسان الأرضي الذي

(٣٨) أنظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ص ١١٢ - حيث انتقاد ما يقال من أن الفقهاء والمالكية أعربوا عن اشفاقهم من السفر البعيد في الأرض القفرة ، وحيث فكرة أن أبا عمران فكر في الرجل الصحيح من أهل المنطقة وهي فكرة لا بأس بها ، ومع ذلك فالذي نراه أن فقهاء المالكية بشر لهم مصالحهم الدنيوية مثل غيرهم ، فهم ليسوا رهبانا رغم استخدام النصوص لكلمات مثل : التعبد والرهينة والتنسك ، على كل حال . وبناء على ذلك فلا بأس أن يكون عرض النزوح من القيروان عليهم الى الصحراء نوعا من الشكليات التي يجب أن تستوفى .

(٣٩) البكري ، ص ١٦١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

يلتقى عنده نهر السوس بالبحر المحيط (الأطلنطي) . والمقصود بالرباط هو ملجأ العباد والمجاهدين على نسق ما هو معروف في ساحل القيروان وخاصة في سوسة (ما بعد ص ١٨٣ وه ٢) .

الطريق الى جدالة :

من المهم هنا الإشارة الى أن مادتنا التاريخية الخاصة بعملية تثقيف أهل الصحراء هذه ، تتضارب في طبيعتها . فهي تفصيلية مسببة لتراوح ما بين المذكرات الشخصية الوثائقية ، والأساطير الشعبية ، فكانها من طراز روايات الأيام الشفوية أصلا ، وخاصة فيما يتعلق بالدعوة ونشر الاسلام . وهي مختصرة ناقصة أو مفتقدة تيماما في مواضع أخرى ، حيث افتقاد التوقيت ، مما يقلل من قيمتها التاريخية ، وعدم الاهتمام بتحديد الأماكن والطرق مما يقلل من أهميتها الجغرافية والطبوغرافية ، الى غير ذلك مما تعرضت له الرواية من التحريف والتقطيع ، على طول تداولها بين أيدي النساخ والكتاب ، مما يقتضي محاولة إعادة الترتيب (٤٠) .

وهكذا لم نعرف شيئا عن الطريق من القيروان الى رباط وجاج (بالسوس الأقصى) ، وأغلب الظن أنه طريق الغرب المتعارف عليه الى فاس ، والى أغمات فالسوس ، فطريق البحر من نول لمطة الى جدالة على طول الساحل (٤١) . وكذلك الأمر بالنسبة الى عدد أفراد جماعة المسافرين مع عبد الله بن ياسين ، لا نعرف عنهم شيئا ، ولا عن أحداث الرحلة ، وهو الأمر الذي يثير الكثير من التساؤل . وإذا كانت هناك بعض المعلومات عن نهاية الرحلة بأرض جدالة ، حيث خرج الناس من قبائل جدالة (كدالة) ولمتونة ، فالتقوا الفقيه بالسرور وفرحوا به غاية الفرح ، وبالفوا في اكرامه وبره (٤٢) ، فانها معلومات عامة ليست ذات يال .

والمهم أن احتساب عبد الله بن ياسين في جدالة وفي لمتونة لم يكن

(٤٠) انظر النويري ، نهاية الأرب ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ وما بعدها ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٥ - ٢٥٤ - حيث النص خطأ على خروج ابن ياسين من القيروان مع يحيى الجدالي الذي نزل عن جملة وأمسك بزمام جمل ابن ياسين ، اجلالا وتقديرا ، وهو يقول عنه : هو حامل سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمفترض أن يكون هذا المشهد خاصا بالخروج من جدالة الى لمتونة على عهد رئاسة أبي بكر بن عمر .

(٤١) البكري ، ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٦٠ .

(٤٢) القرطاس ، ص ١٢٣ .

من الأمور السهلة . فتعليم الجفاة من أهل الصحراء الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، والذين يعيشون على قوانينهم الطبيعية وأعرافهم القديمة التي قد تتفق مع أعراف الجاهلية ، وليس مع شريعة الإسلام ، مما سبقت الإشارة إليه قديما (ص ١٢٥) ومما عرفه الداعي في تجربته المرابطية .

أصول الاحتساب عند عبد الله بن ياسين :

في أرض جدالة :

كان من الطبيعي أن يبدأ عبد الله بن ياسين عملية التجديد الإسلامي ، في صحراء صنهاجة المثلثين في بلاد قبائل جدالة ، عصبية يحيى بن إبراهيم ، الرئيس المرموق ، صهر جماعة النبلاء من بني ورتنطق (ماسبق ، ص) . فعندما وصل إلى موضع سكنه ، وبفضل الدعاية التي قام بها الشيخ الجدالي التف الناس حوله للتعلم (٤٢ م) . وفي البداية سارت الأمور على ما يرام . فالداعي كان يتحسس طريقه في شبه المجهول ، حيث تقضى أصول الدعوة إلى اتباع حكم الشريعة بالبده بالكلمة الطيبة مع القدوة الحسنة . ومع مرور الأيام بدأ ابن ياسين يكتشف أنه يحترق في أرض جدبة ، وإن جذور الإسلام في تلك الصحراء سطحية فوق الرمل . وكانت أولى المفاجآت ما عرفه ابن ياسين من أن صاحبه الزعيم الجدالي يحيى بن إبراهيم عنده ٩ (تسع) زوجات دفعة واحدة (٤٣) . وكان على الفقيه أن يبين له أصول الشرع في مسائل الزواج والتسرى . وإذا كان يحيى المتحمس للإسلام الصحيح قد وافق بسهولة على تصحيح موقفه بفراق ٥ (خمسة) من نسائه ، فإن الأمر لم يكن هينا بالنسبة لرؤساء القبائل الآخرين . وهكذا كانت مطالبة الناس بالالتزام بأداء الفروض ، من صلاة وزكاة في مواقيتها من المشقات التي استصعبوها ، وخاصة مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهكذا انقسم الجداليون إلى مؤيدين للفقيه ومعارضين (٤٤) . والظاهر أن كفة المعارضين كانت الأرجح بفضل مؤيديهم

(٤٢) م) البكري ، ص ١٦٥ .

(٤٣) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٤ ، وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن البعض يفسر الآية التي تنص على أنه يمكن للمسلم أن يتزوج « مثنى وثلاث ورباع » على جمع هذه الأعداد (٢ + ٣ + ٤ = ٩) وإن كان ذلك يمكن أن يكون بعض النكت التي يتندر بها أصحاب بعض المذاهب على أصحاب مذهب آخر .

(٤٤) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث النص على أن منهم من أطاع ومنهم من

من الرؤساء الذين رأوا النجاح المتوقع للفقهاء ضياعا لما لهم من سلطات .
وذلك أنهم عندما استشفلوا ما عرضه عليهم من الواجبات ، فتراوا منه
وهجروه ، ففكر في الرحيل الى بلاد السودان الاسلامية ، لمتابعة نشاطه
الحيرى (٤٤ م) .

واذا كان أبى زرع يرى أن يحيى بن ابراهيم له الفضل في توجيه
أنظار عبد الله بن ياسين الى اقامة رباط للتعبد بدلا من الهجرة الى السودان
فمن الواضح أن ابن ياسين كان في أول مراحل نشاطه في جدالة لم يعرف
غيرها من قبائل الصحراء الصنهاجية ، من لمتونة ومسوفة ولمطة وغيرها ،
وهو ما سوف يعود اليه ملخصا بعد تكوين الرباط ، فكأنه تقطيع لأوصال
الرواية وتقديم بين بعض أجزائها وتأخير ، مما يجافى تواصل الأحداث
تواترها التاريخى (٤٥) .

والذى نراه هنا هو استكمال قصة الدعوة السنية في جدالة من رواية
ابن شداد الصنهاجى التى يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويرى ، وإن خالفنا
السياق التاريخى بتقديم الدعوة فى لمتونة على الدعوة فى جدالة (٤٦) .

فعندما استشعر عبد الله بن ياسين قوة المعارضين الذين التفوا حول
رؤسائهم فى شبه حزب رسمى رأى تحريض أنصاره على التحزب فى تجمع
مضاد ، يعمل على استخدام القوة فى الدفاع عن نفسه ، عن طريق اقامة
جيش مسلح ، واتخاذ رمز خاص لتلك القوة ، ممثلا فى رايته المميزة ،
واختيار أمير للقيادة وادارة الحرب ضد « مخالفى الحق » وهو يحيى بن
ابراهيم الجدالى ، الذى كان يظهر وكأنه المستشار (المساعد) للفقهاء ، حامل
أمانة الشريعة (٤٧) .

(٤٤م) روض القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث النص على انهم عندما تبراوا منه وهجروا
وتافروه ، وثقل ذلك عليهم أراد الرحيل عنهم الى بلاد السودان الذين دخلوا فى الاسلام .
(٤٥) انظر روض القرطاس ، ص ١٢٦ .

(٤٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث البدء بلمتونة ، ص ٦٢٠ - حيث وعادوا الى
جدالة ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ (لمتونة) وص ٣٧٨ (جدالة) ، وتحقيق حسين
نصار ، ص ٢٥٤ (لمتونة) ، ص ٢٥٦ (جدالة) .

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٨ ، حسين
نصار ، ص ٢٥٦ .

في أرض لتونة :

والذي يفهم من رواية البكرى انه عندما قويت جماعة أهل الحق في مواجهة المعارضين من الجداليين نقلت نشاطها الى أرض لتونة المجاورة حيث دخلوا جبلهم الحصين وغنموا أموالهم رغم قلة عددهم (٤٨) الا اذا كان ذلك قد تم بترتيب مسبق مع أعوان « دعوة الحق » في لتونة ، حيث تشير الروايات الى حسن استقبال اللمتونيين لابن ياسين الذي كان يحيى الجدال يأخذ بزمام جملة تعظيما لشريعة الاسلام (٤٨ م) بصرف النظر عن اختلاف ترتيب الأحداث .

وهكذا تنتقل قيادة دعوة الحق من أرض جدالة ، الى أرض لتونة حيث تبدأ حركة التاهيل الاسلامية - في شكلها المالكى - على نطاق واسع ، وبمفاهيم أعمق ، وامكانيات أكبر ، مع ضوابط عملية مثلة في تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان من الطبيعي أن يؤدي مثل هذا التشدد في محاولة العودة بالاسلام الى نقائه الأول الى رد فعل مضاد فيما يتعلق بأمور المعاملات وشئون الحياة اليومية الجسارية . فابن ياسين عندما قدم اليهم بصفته الفقيه العارف بشئون الدين ، والمعلم الحامل لسنة رسول الله قوبل بما يستحقه من التبجيل والاحترام . وهو عندما طالب بأداء الفروض من الصلاة والزكاة ، وافقوه على أنه أمر « قريب » أى سهل مقبول . ولكنه عندما طالب بتطبيق شريعة القرآن مما يتعلق بالقانون الجنائي ، من مثل : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع (تقطع يده) ، ومن زنى يجلد أو يرحم ، رفضوا ذلك ، قائلين هذا « أمر لا يلزمنا » (٤٩) . على

(٤٨) البكرى ، ص ١٦٥ - حيث النص على أن غزاة الجداليين من أعوان ابن ياسين كانوا سبعين رجلا فقط ، الأمر الذي قد يعنى أنهم أخذوا لتونة على غرة ، الا اذا كان استخدام الرقم سبعة له مدلول رمزى كما هو الحال عند الشيعة ، حيث نجد - فى روض القرطاس ان الجداليين الذين ابتهوا أول رباط لابن ياسين كانوا ٧ (سبعة) ، وأن ابن ياسين بعد الخروج من الرباط جمع أشياخ القبائل وظل يدعوهم الى التوبة ٧ (سبعة) أيام - الأمر الذى يشكك فى علاقة ما بين تنظيم الدعوة المرابطة السنية والدعوة الاسماعيلية الفاطمية فى منطقة القبائل بقسنطينة (ج ٢ ، ص ٥٥٧) .

(٤٨ م) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويرى ، أبو ضيف ٣٧٧ - حيث النص على أنهم انتهوا الى قبيلة لتونة ، على ربوة عالية ، وأن اعيان لتونة واكابرهم خرجوا للسلام على الزعيم الجدال الذى عرفهم ان الفقيه هو حامل سنة الرسول ، وأنه جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم من دين الاسلام ، وقارن نشر حسين نصار ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٤٩) ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٦١٩ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، وحسين نصار ، ج ١٤ ص ٢٥٥ - حيث « أمر لا يلزمنا ، ولا تدخل تحت » .

أساس أنهم يرون أن القوانين العرفية (الطبيعية) المطبقة عندهم كانت تؤدي الغرض منها (٤٩ م) ، فكأنهم يطالبون بالفصل بين الشريعة الدينية وبين القوانين المدنية ، أو الفصل بين الدين والدولة المتمثل في مقولة اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله (٥٠) .

والذي يلفت النظر أن حركة الإصلاح في الصحراء ، تنص بشدة على أداء كل من فريضة الصلاة والزكاة دون إشارة واضحة الى الصيام (٥١) . ولا ندري أن كان ذلك يعنى أن الصوم في الصحراء كان أمرا هينا بالنسبة لأهلها المعتادين على شظف العيش ، أم أن الجوع في البادية - مع كثرة التنقل والسفر - كان لا يزين لهم التفكير كثيرا في الصوم . وانه على العكس من ذلك كان يؤدي الى الحاح المسئولين في جباية الزكاة والصدقات وغيرها من الجبايات ، ممن كانوا يستطيعون ذلك ، وخاصة من أهل الواحات والقرى - وهنا لا بأس من التفكير فقهيا في أن المسافرين يمكنهم ارجاء الأداء .

والخلاصة أن « دعوة الحق » اصطدمت في ملتونة بحركة مقاومة أشبه بتلك التي صادفتها في بلد جدالة . ولكنه اذا كانت بعض الروايات تقول أن اللمتونيين عندما استثقلوا حسبة ابن ياسين قالوا له : اذهب الى غرنا ، فرحل بصحبه الرئيسى الجدالى يحيى بن ابراهيم ، فان من المقبول أن نأخذ

(٤٩ م) أنظر فيما سبق ، ص ١٧٧ ، وفيما بعد ص ٥٢ ص ١٨١ .
(٥٠) وهي المسألة المثارة حاليا في كل من العالمين العربى والاسلامى ، بين جماعات المسلمين المتشددتين الذين يرون ان عملية انقاذ عالم الاسلام مما دهاه من تدنى لا تتأني الا بالرجوع بالاسلام الى ما كان عليه في عصر « السلف الصالح » ، الأمر الذى لا يتحقق الا في ظل حكومة تطبق الشريعة الاسلامية بشقيها : الدينى المتعلق بالاعتقادات والفرائض ، والدنيوى المتمثل في القوانين المدنية ، وخاصة تطبيق الحدود الاسلامية ، بدلا من القوانين الجنائية الحديثة المبنية على قوانين الطبيعة والسياسة العقلية ، وهي التى تتفق مع روح الاسلام ، والصالح العام ، وهي المسألة التى يصل الخلاف فيها - حاليا وهو الأمر المستغرب - الى حد قطع أسباب الود ، واستباحة استخدام العنف بدلا من الحوار والاقناع بالرأى ، الأمر الذى لا يتفق مع استقرار عصر العلم ، والتنوير والحرية ، عصر حقوق الانسان كائنا من كان ، رجلا كان أم امرأة مما لا تنكره مصلحة ولا شرع ولا دين .

(٥١) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويرى أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٥ ، القرطاس ، ص ١٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث التركيز على أخذ الصدقات .

برواية البكرى التى تقول بشكل قصصى ، أن أمر الأنصار الجدد من اللمتونين كان يزداد قوة ، بعد أن استعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين فى الوقت الذى كان عبد الله بن ياسين ، رافضا لطعامهم وشرابهم ، على اعتبار الشك فى أنها حرام غير مشروعة فكأنه ضرب عليهم نوعا من الحرمان الكنسى (excommunication) (٥٢) .

معسكر أهل الحق : مدينة ابن ياسين الفاضلة :

والمهم أن ذلك كان بداية لانفصال جماعة « أهل الحق » عن بقية « المحرومين » (من رضاء الفقيه) من أهل لتونة . فلقد قرر عبد الله بن ياسين بناء مدينة خاصة به وأنصاره ، هى التى عرفت باسم « ارتننى » ، والتى تقرر فى عمارتها اتباع شروط المدينة الاسلامية على عهد عمر بن الخطاب ، وهى « ألا يشف (يرتفع فيها) بناء بعضهم على بناء بعض » (٥٣) ، بمعنى تحقيق مبدأ المساواة والأفقية فى عمارة بيوت المدينة ذات الطابق الواحد عادة ، الأمر الذى جعل من الأفقية واحدة من أهم سمات العمارة الاسلامية المبكرة . وبفضل البساطة فى المظهر والتقوى فى المخبر ، أصبحت « ارتننى » رباطا وسط لتونة ، ومركزا للدعوة السنية فى قلب صنهاجة الصحراء .

والمهم أن ضغوط الالتزام بالخط الرفيع الذى يفصل بين الحلال

(٥٢) أنظر البكرى ، ص ١٦٥ - حيث النص : وعبد الله بن ياسين هتيم فيهم ، متورع عن أكل لحمانهم وشرب ألباهم ، لما كانت أموالهم غير طيبة ، وإنما كان عيشه من صيد البرية . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث الجوهر هو يحيى الجدالى ، الذى يطلب من ابن ياسين أن تكون الامارة لأبى بكر بن عمر رأس لتونة وكبيرها ، والذى سماه ، كما تنص الرواية بـ « أمير المسلمين » . وقارن النويرى ، أبو خيف ، ص ٢٧٧ - حيث النص على ان زعماء لتونة طلبوا ، ومنهم أبو بكر بن عمر ، من عبد الله بن ياسين أن يعلمهم ما يلزمهم من الدين وانهم رفضوا الحدود من القطع والجلد والرجم ، ص ٣٧٨ - حيث أبو بكر ابن عمر ، والهامش ٧ - حيث نقل القيادة اليه بعد وفاة يحيى بن ابراهيم الجدالى ، ص ٣٧٩ - حيث عقد الراية لأبى بكر بن عمر ، وتسميته بأمر المسلمين ، ص ٣٨٠ - حيث حسد الجوهر (يحيى الجدالى) لأبى بكر بن عمر ، ونشر حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، وأنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - ١٨٣ - حيث هلك يحيى بن ابراهيم وأتفرق أمرهم ، وأطرحوا عبد الله بن ياسين ، واستصعبوا علمه ، وتركوا الأحذ عنه ، لما تجشموا فيه مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وترهب ، وتنسك يحيى بن عمر بن تلاكاكين - من رؤساء لتونة .

والحرام أو بين الخير والشر لم يلبث أن فجر سكون الامتثال للأوامر ، والسمع والطاعة . وفى ذلك قالت بعض الروايات أن « أهل الحق » تقموا على ابن ياسين بعض قراراته عندما وجدوا تناقضا فى عدد من أحكامه ، الأمر الذى أدى الى الخروج عليه . وتقول رواية البكرى ان الذين قادوا الثورة على ابن ياسين فقيه يدعى الجوهر ، بمعاونة اثنين من رؤساء لمتونة : أحدهما يدعى أيار ، والآخر انتكوا (٥٤) . ومن الواضح أن فتنة الجوهر لم تثر خواطر اللمتونيين فقط ، بل جميع الصنهاجيين الذين لم يرتفع لهم صوت عندما هب المعارضون لابن ياسين يجردونه - خطوة بعد أخرى - من سلطاته الروحية والمدنية التى كان يمارسها جميعا بشكل فعلى . فلقد بدأوا بعزله عن « الرأى والشورى » ، بمعنى تجريده من السلطات السياسية ، ثم انهم « قبضوا منه بيت مالهم » ، والمال عصب السياسة والحرب كما نعرف ، وانتهى الأمر ليس بطرده من المدينة فقط ، بل وبهدم داره بعد نهبها وتخريب أثاثها (٥٥) - حتى لا يفكر فى العودة ثانية .

وبذلك انتهى مشروع المدينة الفاضلة التى أقامها ابن ياسين ، بناء على الفكر السنى المالكى ، ولم ترتفع أصوات المعارضة لهذا العمل المناهض للأصولية الإسلامية الا من رباط وجاج بن زللو فى أقصى السوس على مصب الوادى فى البحر المحيط ، حيث أدين الثوار ، وأهدرت دماء زعماء الثورة والمساندين لهم (٥٦) .

والحقيقة أن ما تقوله رواية البكرى من أن وجاج أمر ابن ياسين بالعودة فرجع وقتل الذين قاموا عليه ، كما قتل كثيرا من الخلق الذين استوجب الأمر قتلهم (بحراة أو فسقى) ، فهو يعبر عما حدث بعد إقامة الرباط وتكوين النواة الأولى من المرابطين الذين وقع عليهم نشر الدعوة بالترغيب والترهيب ، والذين استولوا « على الصحراء كلها » ، كما تخنم بذلك نفس رواية البكرى (٥٧) .

(٥٤) البكرى ، ص ١٦٥ .

(٥٥) البكرى ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥٦) انظر البكرى ، ص ١٦٦ - حيث النص على ان ابن ياسين « خرج مستخفا من قبائل صنهاجة الى أن أتى وجاج بن زلوى ، فقه (ملكوس) فعاتبهم وجاج على ما كان منه الى عبد الله ، وأعلمهم ان من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة ، وأن دمه هدر » .

(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٦٦ - حيث النص أيضا على أن جميع القبائل أجابت ابن ياسين « ودخلوا فى دعوته والتزموا السنة به ثم نهضوا الى لمطة » .

الرباط :

رباط عبد الله بن ياسين :

والأمر المستغرب في بداية حركة المرابطين بمجهودات عبد الله بن ياسين ما قد يظن من أن أهم معاملها وهو الرباط لم يلبث أنظار المعاصرين ، حيث تمر رواية البكري على عمية تأسيس الرباط من الكرام فلا تقدم لنا بعضا من تفصيلاتها ، وكأنها لا توليها شيئا من الاهتمام ، وهذا ليس بصحيح أبدا . فالفضل يرجع للبكري المعاصر في تعريفنا بأهم الشخصيات التنظيمية الخاصة بالرباط ورجاله ، مما يدخل في مجال الحسبة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بمعنى أن اهتمام أهل العصر كان منصبا على حركة التجديد الإسلامية ، والتأهيل السنوي لرجال المرابطين أكر من الاهتمام بالأمور السياسية والعسكرية ، أو النفعية على وجه العموم ، مثل الظروف التي أدت إلى إقامة الرباط ، واختيار المكان ، واعداد المرابطين ، وطريقة معاشهم ، وأساليب تدريباتهم اليومية من مادية ومعنوية .

والهدف الأول من الرباط : في الإسلام كما يرد في الآيات القرآنية هو الدفاع عن حظيرة الإسلام وحماه بتجميع العباد المجاهدين على الحدود وتجهيزهم بالعدد والعتاد ، من أنواع الأسلحة وخاصة الخيل (١) ، للدفاع الأعداء ، وخاصة العدو البحري ، في المواضع الساحلية المعرضة للخطر ، التي عرفت باسم الثغور - فكانها فتحات ضعيفة يلزمها التحصين والحماية . وهكذا كانت الثغور في « جزيرة (بلاد) المغرب » بحرية ، كما اشتهرت بأنها أربطة للجهاد وللعبادة ، وكان من أشهرها في قرننا الـ ٥ هـ / ١١ م رباط سوسة ورباط المنستير في منطقة الساحل التونسية (٢) وفي السوس

(١) سورة ٨ - آية ٦٠ - حيث النص « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم - والحمل في الحروب القديمة كانت بمثابة العربات المدرعة ، السريعة الحركة ، في الحروب الحديثة .

(٢) البكري ، ص ٣٥ - حيث النص على رباط سوسة الذي عرف بمحرس الرباط وأنه عظم كالمدينة ، وأنه مأوى للمصلحين وبداخله حصن كان هو القصبة - ص ٣٦ - حيث رباط المنستير كالمدينة المستقلة بمرافقها من الطواحين الفارسية (الهوائية) وصهاريج المياه (المواجه) - والحمامات في حصن الرباط حيث النساء المرابطات .

Manuel d'Art Musulman

وانظر ج . مارسة ، المجلد في الفن الإسلامي

ج ١ ص ٤٧ - ٤٩ - حيث بناء الرباط (المحرس) على نسق الجامع من حيث التخطيط المربع =

الأقصى رباط ماسة (ما سبق ، ص ١٧٥) . أما عن أشهر ربط المغرب حاليا وهي مدينة الرباط (رباط الفتح) التي أنشئت في القرن التالي (٦ هـ / ١١ م) - فهي وريثة رباط عبد الله بن ياسين . أما في المشرق الآسيوي فقد تحولت ثغور الشام في العصر العباسي الى عواصم ، جمع عاصمة بمعنى الحصن والحامية ، بينما حملت ثغور أواسط آسيا وبلاد ما وراء النهر اسم الربط وواحدتها « الرباط » وظلت كذلك حتى بعد أن تحولت الى « تكايا » للعباد أو « فنادق » للقوافل في طريق الحرير (٣) .

وعلى هذا الأساس اعتبرنا مدينة « ارتننى » حيث كانت دار عبد الله ابن ياسين مركز الحكم ، وساحتها (صحنها) مكان الصلاة على ما نظن ، مكان الرباط الأول الذي اعتكفت فيه جماعة أهل الحق ، لكي تصبح النواة الصالحة للمجتمع السني الفاضل الذي كان يطمع فيه ابن ياسين . وهكذا لم يكن الرجل الذي يوصف بالعلم والورع ، والشهامة وقوة النفس والحزم ، وحسن التدبير والصبر ، لياس من مجرد الفشل للمرة الثانية في لتونة بعد فشله الأول في جدالة . ولا بأس أن يكون وقوف الزعيم اللمتوني يحيى بن عمر بن تلاجاجين الى جانبه مما زاد من صلابته ، وحماه من كآبة اليأس والفتور . وهنا ينبغي أن ينسب شرف مؤازرة الفقيه وتشريفه (الذي يعزى خطأ للزعيم الجدالي الأول ، يحيى بن ابراهيم) الى الزعيم اللمتوني الثاني يحيى بن عمر - وهو الأمر البين (٤) .

= والصحن المكشوف (السماوى) ، ولكنه من طابقي : الأول للسكنى والمخازن ، والأعلى ، حيث المصلى للعبادة والتعلم - أما المنارة المدورة ، حيث استخدام الإشارة الضوئية ، فتقع في الركن الجنوبي الشرقي . وانظر محمد توفيق بليغ ، مطبوعات جمعية الآثار ، بالاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٤٧ (سورة) ، وص ٤٤ (المنستير) .

(٣) انظر للمؤلف ، الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ١٩٧٩ ، المجلد ١٠ ، عدد ٢ ، وانظر محمد توفيق بليغ ، نشأة الرباط وتطوره . مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤) انظر البكرى ، ص ١٦٥ - حيث من الواضح ان الرئاسة المدنية لجماعة ابن ياسين بعد دخول لتونة مباشرة ، كانت ليحيى بن عمر تلاجاجين - بينما الجوهر وهو أحد الفقهاء ، كما سبق ، ص ١٧٠ ربما كاو ممن وصفهم يحيى بن ابراهيم وهو في القيروان بانهم قلبوا العلم ، ضيعفوا الايمان ، انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث انتقال الرئاسة من يحيى بن ابراهيم الجدالي (الجوهر) الى يحيى بن عمر اللمتوني ، وان كان بشكل غامض ، والنويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، حيث كان أبو بكر بن عمر بين المرحبين بالفقيه ومد معه عند قدومهم (من جدالة) الى لتونة ، وقارن ص ٣٧٨ - حيث رواية =

مكان الرباط :

من المهم الإشارة الى أن تاريخ انشاء رباط عبد الله بن ياسين ما زال من الأمور الغامضة في تاريخ قيام دولة المرابطين ، رغم أهميته من حيث كونه الحدث المحوري الذي يدور حوله تاريخ تلك الفترة . هذا ، كما يحيط الغموض أيضا بالمكان الذي أقيم فيه الرباط ما بين مصب وادي السوس الأقصى ومصب نهر السنغال .

وفيما يتعلق بتاريخ إقامة الرباط ، فالمعروف أن إقامته تمت بعد تجربتي فشل الدعوة في كل من جدالة على عهد الرئيس يحيى بن إبراهيم ، ولتونة على عهد يحيى بن عمر . وإذا كنا قد أخذنا بسنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م كتاريخ لبداية الدعوة في جدالة ، فلا بأس أن يكون بناء الرباط في سنة ٤٤٣ هـ / ٢ - ١٠٥١ م ، على أساس أن تاريخ غزو جدالة بعد بناء الرباط كان في السنة التالية ٤٤٤ هـ / ٣ - ١٠٥٢ م ، حسبما ينص ابن أبي زرع^(٥) . وهو ما ينسجم مع تاريخ خروج المرابطين من الصحراء الى غزو درعة وسجل ماسة سنة ٤٤٥ هـ / ٤ - ١٠٥٣ م ، حسبما ينص على ذلك ابن خلدون^(٦) .

أما عن مكان الرباط فترجع الرواية فضل اختياره الى الزعيم اللمتوني

= ابن شداد (الزيرى) وفيها ان الزعيم الجدالي تنازل عن الرئاسة لأبي بكر بن عمر منذ بدأت الفتنة في جدالة ، أما ابن أبي زرع فهو في محاولته ترتيب الأحداث في سياق تاريخي قصصى لا يشوبه اختلافات زمنية أو مكانية أو شخصية جعل يحيى بن إبراهيم الجدالي الشخصية المركزية من البداية الى تحقيق النصر النهائي ، فهو الذي بدأ بالدعوة في كل من جدالة ولتونة دفعة واحدة (ص ١٢٤) لكي يبنى الرباط منذ أول اختلاف (ص ١٢٥) . فهو الذي هزم كدالة ولتونة ومسوفة (ص ١٢٦) ، كما أخضع بلاد القبلة والمصامدة وسائر بلاد المغرب (ص ١٣٦) - قبل أن تأتى وفاته فيقدم عليهم يحيى (أخو أبي بكر) بن عمر اللمتوني . أما ابن خلدون الذي يعرف رواية القرطاس فهو يقدم ملخصا مفيدا ، يجعل فيه هلاك يحيى الجدالي سبب افتراق أمرهم ، وبذلك يكون صاحب الرباط هو يحيى (أخو أبي بكر) بن عمر ابن تلاكاكين ويكون غزو لتونة وجدالة ومسوفة تحت رايته .

(٥) القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ - ١٠٤٢ م التي عدلناها الى

٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م كما سبق ، ص ١٧٠ .

(٦) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ .

يحيى بن عمر، الشريك المدني في رئاسة «أهل الحق» الى جانب ابن ياسين^(٧) .

وفي اختيار الرباط تقول رواية القرطاس - بصرف النظر عن الترتيب الزمني - انه عندما كاد اليأس يغلب على عبد الله بن ياسين ، ففكر في ترك الصحراء والذهاب للدعوة في بلاد السودان المسلمة جنوبا ، اعترض « يحيى بن عمر » على اقتراحه هذا ، وعرفه بوجود جزيرة قريبة في بلاد جدالة ، تتوفر فيها جميع الشروط اللازمة للحياة الكريمة ، حسبما تقضى قواعد الدين^(٨) . فالموقع حصين من حيث هو جزيرة يحيط بها ماء البحر من كل جانب ، وان كانت في وقت الجزر (عندما ينحسر الماء) يمكن الدخول اليها مشيا على الأقدام ، ولكنه في وقت المد (عند امتلاء البحر) يكون الدخول اليها في الزوارق . أما من حيث الطعام فيها فهو حلال محض لا شك فيه ، يجمع ما بين خيرات البر والبحر من ثمار الشجر وصيد الوحش والطيور والسماك (الحوت) - وكل ذلك دون عناء كبير ، الأمر الذي يحقق لهم العبادة دون أن يشغلهم ، هم الطعام الى ما شاء الله حتى الموت^(٩) .

واذا كان ابن خلدون يأخذ برواية ابن أبي زرع فهو يعد لها حسبما يتراعى له من أصول المنهج العلمي . فالجزيرة عنده ربوة عالية تتفق مع وصف بلاد لتونة الجبلية ، والماء المحيط بالجزيرة مع نهر النيل (النيجر)

(٧) والحقيقة ان قصة الرباط ليست واضحة في الروايتين الأساسيتين ، وهما : الرواية الأندلسية للبكري المعاصر ، والرواية الإفريقية لابن شداد الصنهاجي المتأخر قليلا عن البكري ، فهي تكاد تضيع فيهما في غمرة الانتفاضة اللتونية ضد ابن ياسين . والحقيقة انه اذا كان البكري قد عوض ما أثاره من الغموض بالتفصيلات المدهشة عن الحياة في الرباط مما يجعله حقيقة ناصعة مثل : الترتيب الدقيق الذي خطط للدخول في الرباط ، واللوائح المنظمة للعقوبات الخاصة بالجرائم المختلفة والتي عادة ما يكون تطبيقها بأثر رجعي ، كما يقال الآن ، والذي يمكن في تلك الحال أن يكون الاتهام فيها أمرا محتملا وليس أكيدا ، كنوع من النزكية والتطهر ، فان رواية ابن شداد أثارت البلبلة في كتابات المتأخرين ، حتى الكبار منهم مثل ابن الأثير ، والنويري . أما عن ابن أبي زرع ، صاحب روض القرطاس ورغم ما فيه من الاضطرابات فيرجع اليه الفضل في محاولة ترتيب الأحداث اعتبارا من تأسيس الرباط ، وبالتالي محاولة لقاء الضوء على ظروف بنائه ، الأمر الذي أخذ به ابن خلدون ، وأكدته غيره من المحدثين .

(٨) القرطاس ، ص ١٢٤ - مع ملاحظة جمل يحيى بن ابراهيم الجدالي مكان يحيى ابن عمر - مما سبقت الإشارة اليه - ص ١٨٤ - حيث النص على انه أي يحيى (الجدالي) لم يرتكه بل قال له : هل لك في رأي أشير به عليك ان كنت تريد الآخرة . . . الخ .

(٩) القرطاس ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

والسنغال عند الجغرافيين العرب) الذى يهين الماء العذب اللازم لشرب الجماعة والذى تقوم عليه بطبيعة الحال حياة الشجر والوحش والطيور (١٠) .

والذى نراه أن وصف مكان الرباط بأنه جزيرة فى البحر فى بعض نواحي جدالة وملتونة ، كما يرد فى قرطاس ابن أبى زرع يمكن أن ينطبق على واحد من ثلاثة مواضع على شاطئ الأطلنطى : أولها جزيرة أيونى أو جزيرة السلاحف البحرية (الترسا) عند البكرى (ما سبق ، ص ٩٤) . ولكن تلك الجزيرة لما كانت غير عامرة الا لصيد البحر من الأسماك والسلاحف الى جانب بقايا العنبر التى تذفها الحيتان فى البحر فترسوا على الشط ، فهى اذن ليست صالحة لاقامة رباط يحوى أعدادا كبيرة من الناس لنقص الغذاء فيها ، والماء ، وهى لذلك مستبعدة .

أما عن الموضوعين الآخرين فأولهما رباط ماسة الذى رأينا احتمال كونه رباط وجاج ابن زللو (رباط منكوس) افتراضا جيدا (ما سبق . ص ١٧٣) بسبب كونه فى مصب وادى ماست ، فى تلك المنطقة الغنية بخيراتها الزراعية ، وبوفرة مياهها . ويؤيد افتراضنا هذا وصف ليون الافريقى الذى يكاد يطابق وصف ابن خلدون لرباط ابن ياسين من حيث وجوده فى منطقة جزائر بحرية يحيط بها الماء . فمدينة ماسة عبارة عن ٣ (ثلاث) مدن على ساحل المحيط ، ونهر السوس يمر بينها . وهذا النهر يعبر خوضا فى الصيف ولكن لا يمكن اجتيازه شتاء الا فى مراكب صغيرة ليست مهيأة تماما لتلك المهمة (١١) . هذا ، ومما يوجه النظر الى منطقة ماست ، ما تقوله رواية القرطاس أيضا من لجوء عبد الله بن ياسين الى وجاج

(١٠) العبر ج ٦ ، ص ١٨٣ - حيث النص على هلاك يحيى بن ابراهيم ، وترك الأحد عن ابن ياسين « لما تجشعوا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم ، وترهب ، وتدنسك يحيى بن عمر بن تلاكاكين ، من رؤساء ملتونة » . وعن وصف الرباط ، يقول : « فنبذوا الناس فى ربوة يحيط بها بحر النيل من جهاتها ضحضا فى المصيف وغمرا فى الشتاء ، فتعود جزرا منقطعة . وهنا يكون ابن خلدون قد غابت عنه ظاهرة المد والجزر ، وجعل بدلا منها ظاهرة الفيضان النهري وان وضع الصيف مكان الشتاء - حيث فيضان الأنهار المدارية موسميا فى الصيف ، وهو ما لاحظته . عصمت فى رسالتها عن دور المرابطين فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١١) ليون الافريقى ، ص ١٢٥ ، وه ٦٨ - حيث احياء ماست الثلاثة هى : نجبالو ، واغادير نسوق ، وتاسلنوت .

ابن زللو تنقب طرده من « ارتننى » ، رباط لمتونة المحلى وهدم داره هناك ،
والقول بأنه عاد مؤيدا بمساندة وجاج لكى يقاتل خصومه ويهزمهم ويقتص
منهم ، قبل فتحه كل بلاد الصحراء (ما سبق ، ص ١٨٢) .

وفيما يتعلق بالموضع الثالث والأخير ، فالحقيقة أن تحديد ابن خلدون
لمكان الرباط فى النيل حاز موافقة جمهوره الباحثين ، وخاصة منذ ترجمة
الجزء الخاص بالمغرب (بلاد البربر) من كتاب العبر بمعرفة دسلان
(De Slane) ، الذى حدد جزيرة الرباط بمنطقة مصب نهر السنغال فى
المحيط الأطلسى (ما سبق ، ص ١٨٧ ، هـ ١٠) . ويرجح هذا الاحتمال
بطبيعة الحال ، قرب مواطن جدالة ولمتونة ، بشكل عام ، كما ان منطقة
الجنوب الصحراوى المتاخم لغانة كانت موطن آل عبد الله بن ياسين من
جزولة (ما سبق ، ص ١٧٤) بصفة خاصة ، وهذا ما كان يلح عليه فى أن
ينفل نشاطه الدعائى جنوبا نحو بلاد السودان الاسلامية ، منطقة التكرور .
ولكل ذلك كانت منطقة مصب السنغال هى المنطقة المثالية بالنسبة لابن
ياسين ليقيم « الرباط » (١٢) .

(١٢) انظر العبر ج ٦ ص ١٨٢ ، وترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٦ وهـ ٤ - حيث
المقارنة مع وصف القرطاس للرباط ، والنص على ان ابن خلدون محق عندما يجعل الرباط
فى نهر السنغال ، من حيث أن من المعروف ان هذا النهر يفصل بين الجنس الزنجى
(الأسود) والجنس البربرى (الأبيض) . ويؤيد ذلك ما لاحظته البرتغاليون سنة ١٤٤٦ ،
عندما كانوا يقومون باستكشافاتهم الاولى فى الساحل الافريقى الغربى حيث كانت قبائل
الصنهجى (Assanhgi) أو الزنجية (Zanaga) تعيش على الضفة الشمالية لنهر السنغال ،
بينما كانت قبائل اليالوف (Yalof) أو الولوف (Wolof) اى القبائل السودانية تحتل
الجانب الآخر (الجنوبى) . هذا ، كما يجب ملاحظة ان السنغال هو تعريف بكلمة أصناجه
(Asnaga) أو تزناجن (Zenaguen) ، وهى جمع صـنـاج (تزناج : Zenag
اى صنهاجة . وقارن حسن أحمد محمود ، المرباطون ص ١٢٤ - ١٢٥ - حيث اقترح حسين
مؤنس (فى مقدمة رياض النفوس) أن يكون الرباط فيما يلى تارودانت جنوبا على حدود
الصحراء ، واقترح ديلاشابل أن يكون الرباط قرب بلدة اوليل فى خليج ارجان (Arguin)
قبل ترجيع مصب السنغال الأدنى . وقارن عصمت دندش ، دور المرباطين فى نشر الاسلام
فى غرب افريقيا ، ص ٧٠ وما بعدها - حيث نفس الاختلافات مع محاولة ندد موضع الرباط
فى « حوض السنغال الذى تسيطر عليه ممالك السودان » ؟ ، واطافة اقترح عنان أن يكون
الرباط جزيرة فى منحنى نهر النيجر .

نظام المراقبة :

الذى يفهم من مجمل الروايات الخاصة ببناء الرباط أن الذين دخلوا بصحبة الفقيه : عبد الله بن ياسين (الجزولى : الجدالى) والرئيس : يحيى بن عمر بن تلاكاكين (تلاجاجين) اللمتونى ، كانوا عصابة قليلة لم تبلغ أكثر من ٧ (سبعة) أفراد ، وهو الأمر غير المقبول من غير شك . ونحن نقبل رقم الـ ٧٠ (سبعين) رجلا الذى يقول البكرى أنهم دخلوا لمتونة ، فكانوا نواة « رباط » « ارتننى » فى أرض لمتونة ، على أساس أنه وضع فى غير موضعه الصحيح (١٣) . فلا أقل من هذا العدد من الأنصار يكونون فى معية الداعى المالكى ، وصاحبه الزعيم اللمتونى بما له من الشأن والجاه ، مهما كانت النعمة على دعوتهما ، والنوء بشغل التكاليف التى فرضها على الناس فى كل من بلاد جدالة و لمتونة . وأما القول بأن القصد كان البحث عن ملجأ متواضع من أجل التعب والتنسك ، فاعرف أن الرباط كان فى الأصل مؤسسة عسكرية جهادية ، وأن هذا ما عبر عنه ابن ياسين عندما فكر فى المسير الى بلاد السودان الاسلامية (ما سبق ، ص ١٨٦) التى يكون الرباط على حدودها من أجل مجاهدة الكفار منهم والأمل على نشر الاسلام الصحيح بين الجميع . وهذا لا يمنع بطبيعة الحال أن تكون البداية متواضعة ، وأن يكون الهدف الأول المعلن عن التجمع فى الرباط هو العبادة .

وإذا كان أبى زرع ينص على أن جماعة المؤسسين للرباط من مريدى ابن ياسين كانوا ٧ (سبعة) نفر من الجداليين (١٤) ، فإن هذا النص يمكن قبوله على أساس أن هؤلاء الجداليين كانوا من الأنصار الأوائل الذين دخلوا معه الى بلاد لمتونة أو لحقوا به هناك ، وأنهم ظلوا أنصارا مخلصين ، فخرجوا مع من خرج معه من جمهور لمتونة تحت أمرة رئيسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين اللمتونى - ولا بأس أن يكون عددهم ٧٠ (سبعين) رجلا ، وهو الرقم الذى يقدمه البكرى ، وإن كان بمناسبة الدخول الى لمتونة وليس بمناسبة الخروج منها (ما سبق ، ص ٤٦ ص ١٧٩) . والمهم أن جماعة المؤسسين من المرابطين ، اكتفت فى معاشها بالمأكل الحلال المحض من ثمار الشجر وصيد البر والبحر ، وانقطعت الى حياة الزهد والعبادة لمدة ٣ (ثلاثة)

(١٣) انظر فيما سبق ، ص ١٧٩ و ص ٤٨ - حيث الاشارة الى أهمية الرقم ٧ فى الفكر

للفاطمى الاسماعيل .

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٥ ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص على أنهم

دخلوا فى غياضها (الربوة) منفردين للعبادة .

أشهر ، وصلت خلالها أخبار تنسكهم الى أبناء القبائل فى المنطقة (١٥) ، الأمر الذى يعنى أن الدعاية للرباط كانت تسير جنباً الى جنب مع أعمال الورع والتقوى ، ان لم تكن تلك الأعمال التعبدية ، من : قراءة القرآن ، والاستمالة الى الآخرة ، والترغيب فى الثواب ، والتحذير من العذاب ، هى نفسها مادة الدعاية للجماعة ومصدرها . وفى ذلك تقول رواية القرطاس انه عندما تسامح الناس بأخبارهم كثر « الوارد » عليهم « والتوابون » (١٦) ، فكان الداخلون فى الرباط ما بين وارد للسقى أى لطلب العلم والخير ، وتائب عن الذنب والشر ، فكأنهم طلاب أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وهو المبدأ الإسلامى المنبثق عن الفكرة الأساسية فى الإسلام ، كما فى الديانات السماوية الأخرى ، مبدأ الحساب والثواب والعقاب ، الذى يعنى أن الحياة الدنيا لم تخلق عبثاً . ومن هنا كان تطبيق مبدأ التوبة كشرط مسبق لدخول الرباط ، وعن هذا الطريق تحول « أهل الحق » الى « توابين » قبل أن يصيروا « مرابطين » .

شروط الالتحاق بالرباط :

وهكذا نرى أن نظام الرباط كان يتكامل بشكل طبيعى مع مرور الوقت ، وخاصة بعد أن تهافت المحرومون من أهل الصحراء وفقرائهم ، على طلب ثواب الجنة الذى وجدوا فيه عزاء لهم عن مشاق حياتهم ومتاعبها . والحقيقة أن الفضل يرجع الى البكرى فى التعريف بنظام الرباط من حيث تقرير مبدأ التوبة على الداخلين الجدد فى الجماعة وما يقتضيه من العقوبات المختلفة بدءاً من التعزير ، الى اقامة الحدود ، وحتى العقوبة العظمى ، وذلك حسب اللائحة التى وضعها عبد الله بن ياسين . واذا لوحظ فى تطبيق العقوبات شئ من الصرامة ، مثل تطبيقها بأثر رجعى ، فإن ذلك يعنى حساباً مقتضى الحال بالنسبة لمجتمع الصحراء بعاداته الحسنة وأعرافه الحادة مما يسمح لأهل الحواضر بوصفه بمجتمع الجاهلية (ما سبق ، هـ ٤٥ ص ٧٥) . وتظهر القسوة فى تطبيق قواعد الشرع بشكل تاريخى سافر فى الصحراء ، عندما انطلق رجال عبد الله بن ياسين من الرباط ، يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر فى بلاد القبائل ، والمطالبة « بحقوق الله » من أموال أهل القرى

(١٥) القرطاس ، ص ١٣٥ .

(١٦) القرطاس ، ص ١٢٥ وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص :

وتسامح بهم من فى قلبه مثقال حبة من خير ، فتسايلاوا اليهم ، ودخلوا فى دينهم ، وغيضتهم .

والواحات ، الأمر الذى أثار اشمئزاز وجاج بن زللو : أستاذ ابن ياسين ،
وقدوته فى المراقبة (ما بعد ٢٠٦) .

وهنا نود الإشارة الى أن بعض ما ينسبه البكرى الى فترة الرباط من
أعمال الشدة مع الواردين أو التوايين فى الرباط يمكن أن يكون قد اختلط
بما طبق من القوانين بصرامة - ربما كانت مبررة - مع المهزومين وخاصة
فى الصحراء ، من الأخوة وأبناء الجلدة ، ممن كان عليهم الالتحاق بصفوف
المجاهدين فى فترة التحول الحاسمة هذه ، حيث كانت الحاجة ماسة للرجال
قبل الأموال .

التوبة والتطهر :

وهكذا كان على عبد الله بن ياسين ومن معه من رؤساء الرابطة أن
يحسنوا اختيار المريدين بعد أن تزايد عدد الراغبين منهم فى الانتساب
للرباط ابتغاء عمل الخير وثواب الجنة . فكان عليهم أن يخضعوا الداخلىين
الجدد فى زمرة الجماعة لاختبار حسن النية وصدق الإرادة مع قوة العزيمة
عن طريق تجربة التحمل النفسى والجسدى . ومن الواضح أن الرباط كان
لا يقبل الا الناضجين من الرجال ممن تخطوا مرحلة الشباب ، الأمر الذى كان
يمنى تمام الجسم مع كمال العقل ، ويضمن حسن التصرف . ويستنتج ذلك
مما كان يعرض على الداخل فى الدعوة بعد أن يعلن التوبة ، من أداء حقوق
الله فيما كان يمكن أن يكون قد اقترفه فى شبابه ، من الذنوب ، فيقام عليه
حد الزانى (١٠٠ سوط) ، وحد المفترى (٨٠ سوط) ، وحد الشنارب
(للخمر ١٠٠ سوط) ، بل وربما زيد على ذلك زيادة فى الحيلة .

أما اذا اتضح من اجابة الرجل المستجوب أنه ارتكب جريمة القتل
مثلا ، فإنهم يقتلونه « سواء أتاها تائبا طائعا أو مجاهرا عاصيا » (١٧) .

وأداء فريضة الصلاة كان خاضعا للرقابة المشددة ، تحت العقوبة
الجسدية للمتخلف أو المقصر ، بل وكانت الصلاة تؤدى كاملة مرتين ، مرة
أولى بصفة شخصية كصلاة فردية ، ومرة بشكل رسمى كصلاة جماعة ،
عوضا عن التفريط . وهنا كان لكل ذنب ، عقوبته المناسبة ، فالتخلف عن

٤ الصلاة عقوبته ٢٠ (عشرين) سوطا ، وعن الركعة الواحدة ٥ (خمسة) أسواط (١٨) .

ومن الواضح أن هذه الترتيبات الخاصة بأداء الصلاة وبإقامة الحدود مما عرف في الرباط ظلت تطبق في العهد الأول للدولة المرابطية ، عهد « صحابة » عبد الله بن ياسين . فإمامة الصلاة في مساجدهم ظلت حكرا أو عملا شرفيا لأولئك الذين صلوا وراء ابن ياسين ، حتى ولو وجد بين المصلين من هو أكثر علما وورعا (١٩) . وأولئك الذين دانوا «لدولة الرباط» سواء بالقهر أو بالرغبة كان عليهم أن يخضعوا للامتحان الجسدى بعد اعلان التوبة (٢٠) .

وهكذا كان عبد الله بن ياسين يمكنه أن يأخذ الموافقة من الأمير يحيى ابن عمر لخلع ملابسه حتى ينزل به عقوبة التأديب الخفيف جلدا . وهو لما فعله الفقيه قبل أن يعرفه أن ذنبه التهور أثناء المعركة ومباشرة القتال بنفسه الأمر الذى عرض حياته للخطر ، وفى ذلك تعريض لهلاك عسكره (٢١) .

الخروج من الرباط والعمل الإيجابى :

رغم النظام الصارم الذى اتبعه ابن ياسين فى التأهيل الدينى والنفسى لأهل الرباط ، فإن النصوص التى بين أيدينا لا تشير الى أى ترتيبات تتعلق

(١٨) البكرى ، ص ١٦٩ - حيث النص على أن أكثر عوامهم يصلون بغير وضوء إذا أعجلهم الأمر جزعا من الضرب .

(١٩) البكرى ، ص ١٦٩ - حيث النص : « وهم الآن (على عهد البكرى) لا تقدم طائفة منهم أحدا للصلاة الا من صلى وراء عبد الله ، وان كان فى تلك الطائفة أقرأ منه وأورع من لم يصل وراءه » .

(٢٠) البكرى ، ص ١٦٩ - حيث النص على أنهم « يفعلون (هكذا) بمن تغلبوا عليه وادخلوه فى رباطهم ... سواء أتاها طايبا أو غلبوا عليه مجاهرا عاصبا لا ينفعه توبته ولا يغنى عنه رجعتة » . وقارن القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث القول فى توبة قبائل صنهاجة : « كان كل من أقبل اليه تائبا منهم طهره بأن يضربه مئة سوط ، ثم يعلمه القرآن » ... الخ .

(٢١) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث عدد الضربات ٢٠ سوطا - وحيث تتلخص واجبات الأمير فى الحرب فى الوقوف وتحريض الناس وتوبة نفوسهم .

بالاعداد العسكرية للجماعة ، فى أى من مجالات التأهيل البدنى أو الفنى أو التقنى . والحقيقة أنه لا بأس فى أن يكون المرابطون الأوائل فى غير حاجة الى التدريبات العسكرية من حيث أن أهل الصحراء من الجمالة كانوا معددين للأعمال العسكرية وخوض المعارك الحربية بحكم النشأة . فهم بدو رحالة ، اعتادوا مشاق الطرق الوعرة بأشكالها ، والتوحد فى القفر ، كما اعتادوا على أعمال الدفاع عن الديار ، واحترفوا أحيانا الغارة على الجيران . وهكذا انقطعت الجماعة الأولى الى أعمال العبادة والتنسك . وإذا كان ابن أبى زرع ينص على أن شهرة الجماعة كانت قد ذاعت بين القبائل خلال ٣ (ثلاثة) أشهر فقط ، وأنه لما كثرت الوفود على الرباط فكر ابن ياسين جديا فى الخروج من الرباط لنشر دعوته - دون تحديد الوقت - فان الوقائع تدل على أن تلك المرحلة استغرقت ما يناهز الثلاث سنوات وأكثر من سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م (حيث التفكير فى انشاء الرباط - ماسبق ص ١٨٥) الى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م (حيث الخروج لغزو بلاد جدالة - المتاخمة للرباط - وما بعد ، ص ١٩٥) .

وإذا كانت الرواية الدارجة تنص على أن عبد الله بن ياسين ، قرر الخروج لمواجهة الأعداء عندما بلغ أنصاره ١٠٠٠ (ألف) رجل من أشرف القبائل ، كما يقول ابن أبى زرع (٢٢) ، بمعنى المحاربين الأشداء ، على أساس أن فرقة عسكرية من ألف مقاتل جيد لا تغلب من قلة ، كما يقول تنص ابن خلدون ، فمن الواضح أن المقصود بتلك المقالة هو موقف الدفاع الذى يتحقق بفضل الاستقلال ، وليس الفتح والغزو ، بل الاكتفاء بالدعوة « لدولة الحق » (٢٣) . وهذا ما يفهم فعلا من تواتر الأحداث ، كما فى تكملة النصين السابقين ، حيث تؤكد رواية ابن أبى زرع أن ابن ياسين وجه الألف رجل من المرابطين لانهذار أقوامهم ودعوتهم الى الدخول فى « دولة الرباط » ، وتحذيرهم من مغبة الرفض والعصيان حيث يكون الحكم للسيف - وهو حكم الله الذى ينصف « أهل الحق » (٢٤) . ومثل هذا ما تقوله رواية

(٢٢) القرطاس ، ص ١٢٥ - حيث النص على أنه عندما اجتمع له من التلاميذ نحو ١٠٠٠ رجل من أشرف صنهجة ، فسماهم « المرابطين » للزوم رابطته ، واخذ يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة .

(٢٣) أنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص : « لما كان معهم ألف من الرجال ، حال لهم شيخهم عبد الله : ان ألفا لن تغلب من قلة ... » .

(٢٤) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ - حيث النص على أنهم لما تفقهوا وكثروا ، وعظم

ابن خلدون ملخصا ، من قول ابن ياسين ، « وقد تعين علينا القيام بالحق ، والدعاء اليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك » (٢٥) .

الدعوة السلمية قبل الأعمال الحربية :

ويؤكد ما نذهب اليه من أن حركة الألف رجل كانت للدعاية « لدولة الرباط » ، في قبائلهم ، ما تنص عليه رواية القرطاس استكمالا لما سبق ، من أن كل رجل من المرابطين سار الى قومه وعشيرته ، فوعظهم وأنذرهم دون جدوى ، إذ لم يكن منهم من يقبل . وعندئذ خرج اليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وقام بمحاولة أخيرة لاستمالتهم الى دعوته . فجمع مؤتمرا عاما من رؤساء القبائل ، حاول فيه أن يعرفهم بأصول مذهبه ، فرغبهم في الثواب وخوفهم من العقاب ، ودعاهم الى التوبة والتطهر ، كما فعل أهل دعوة الحق في الرباط ، وذلك على طول ٧ (سبعة) أيام ، وهم لا يلتفتون اليه . وعندما أصابه اليأس آخر الأمر ، أعلن لأصحابه فشل التسوية السلمية وضرورة اللجوء الى القوة (٢٦) .

والذي تنص عليه الرواية هو أن الجيش المرابط الذي بدأ يغزو جدالة كان يتألف من ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، فهو اذن غير الألف ناسك الذين خرجوا الى القبائل الداعين للدخول في دولة الرباط . أما عن كيفية جمع الرجال فأغلب الظن أنه تم في مكان مؤتمر القبائل الذي كان في أرض محايدة متوسطة بين حامي القبائل المختلفة من غير شك ، وهو المكان الذي أصبح معسكرا جديدا ، في موضع استراتيجي يسمح بحشد المزيد من الداخلين الجدد من القبائل في حزب ابن ياسين ، بشكل أفضل من رباط مصب السنغال الذي لم يعد من الممكن في الظروف الجديدة العودة اليه .

= وشوقهم الى الجنة وامرهم بتقوى الا والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم دعاهم الى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة ... فقالوا (له) : ايها الشيخ المبارك ، مرنا بما شئتم تجدنا سامعين مطيعين ، ولو امرتنا بقتل آياتنا لقتلنا . فقال لهم : اخرجوا ... أنذروا قومكم ... ان تابوا فخلوا عنهم ، وان ابوا ... جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

(٢٥) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - واذا كانت الرواية تعرض بعد ذلك لقتال المصالح من القبائل ، فإن هذا مما يأتي في سياقه فيما بعد - ص ١٩٥ وما بعدها .
(٢٦) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ - ١٢٦ - حيث النص على انه لما يشيرو قالوا لأصحابه ... وجب علينا جهادهم ، فأغزوهم على بركة الله .

غزو الصحراء :

خضوع جدالة :

وهكذا بدأ المرابطون تحت قيادتهم الدينية العسكرية المشتركة ، وان كانت الهيمنة بطبيعة الحال لابن ياسين ، غزو قبائل جدالة لكونها أقرب لمواطن صنهاجة الى الرباط من جهة ، وبصفتها المهد الأول لدعوة عبد الله بن ياسين من جهة أخرى ، حيث يكون للانتصار فيها قيمة معنوية تمحو ذكريات الفشل الأليمة ، وتفتح آفاق المستقبل المشرقة أمام حركة التجديد الإسلامية في صحراء أفريقيا الغربية . ودون تفصيلات مثيرة ، تكتفى الرواية بتسجيل هزيمة جدالة ، ومقتل الكثير من رجالها ، بينما « أسلم الباقون » إسلاما جديدا ، وحسنت حالهم ، ، وذلك في صفر سنة ٤٤٤ هـ / يونيه ١٠٥٢ م (٢٧) .

فكان رباط عبد الله بن ياسين يدخل في حقيقة الأمر ضمن حركة التجديد التي قامت بها ربط الطرق الصوفية في المشرق وخانقاوانها ، والتي سيكون للامام الغزالي عما قريب ، شأن فيها بفضل تجربته الصوفية ، ومن ثم تأليفه « احياء علوم الدين » ، مما يمت لتاريخ المرابطين والموحدين بسبب أو بآخر .

خضوع لتونة :

ويأتى بعد جدالة غزو لتونة الذين لم يقاوموا كثيرا كما يفهم من مرواية القرطاس ، الأمر الذي يبرره وجود زعيمهم يحيى بن عمر على رأس المرابطين الى جانب ابن ياسين . وهكذا أذعنوا الى الطاعة ، وأعلنوا التوبة وخضعوا بالتالى لما تتطلبه من التطهر الجسدى والتزكية بالسوط .

(٢٧) القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ - ١٠٤٢ م التي عدلناها مع بداية الدراسة بإضافة ١٠ (عشر) سنوات ، حتى يستقيم مسار الأحداث (ما سبق ، ص ١٦٨) . وقارو ابن الاثير ، ج ٩ ص ١٩ - حيث العودة (من الرباط الذى ليس له ذكر صريح في رواية ابن شداد الصنهاجى ، وهي الاصل) الى جدالة ، وتحريض ابن ياسين على جهادهم ، والتويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٧٩ ، (نصار) ، ج ٢٤ ص ٢٥٧ ، حيث التحريض على القتال وتسمية الانتصار بالمرابطين ، وعن جدالة (انظر مما سبق ، ص ٦٩) .

والأهم من كل ذلك أنهم التزموا بالتمسك بقواعد الشرع من القرآن والتقاليد النبوية (٢٨) .

خضوع مسوفة :

وكان من الطبيعي بعد أن خضعت كل من جدالة وملتونة أن يتم ادخال ثالث أكثر قبائل صحراء المثلثين الصنهاجية ، وهي قبيلة مسوفة (ماسبق ص ٧١) في دولة الرباط . والظاهر أن الأمر لم يتطلب كثيرا من الجهد ، إذ أذعن المسوفيون بدورهم على نفس الشروط التي قبلتها جدالة وملتونة ، وهي : بعد التوبة والتزكية الجسدية ، الالتزام بالعمل بما يقضى به الكتاب ، وما يقرره مذهب عبد الله بن ياسين السني أصلا ، المالكي فرعا .

دخول بقية قبائل صنهاجة الصحراء في دعوة الرباط والتخلص من بقايا المعارضين :

بعد خضوع القبائل الصنهاجية الكبرى لابن ياسين ، وتجديد اسلامها حسبما يقضى مذهب المرابطين ، وأمام الحماس الدافق من قبل الداخلين الجدد في الدعوة ، لم يكن أمام بقية الفروع من القبائل والأفخاذ والعشائر الا الاعتراف بنظام الرباط ، وما يقضى به من الالتزام بعمل الخير مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهكذا سارع الجميع « الى التوبة والبيعة » مع تجديد دينهم بالتعلم والعمل (٢٩) .

وكان من الطبيعي أن تبقى بعض عناصر المجتمع القبلي الصحراوي على ما كانت عليه ، تماما كما حدث في أول الدعوة في جدالة وملتونة ، مما أدى الى الاعتكاف في الرباط ، وأن يقف هؤلاء من ابن ياسين وحزبه من المرابطين موقف المعارضة . وفي ذلك تقول رواية ابن شداد (الزيري الصنهاجي) التي يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويري أن هؤلاء المخالفين الذين يطلق عليهم اسم الأشرار ، تجمعوا فيما بينهم في أعداد كبيرة كان يخشى بأسها ، الأمر الذي دعا كلا من ابن ياسين ويحيى بن عمر على التريث ، واللجوء

(٢٨) القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث النص على أنهم « بايعوه على إقامة الكتاب والسنة » وعن ملتونة انظر ما سبق ص ٦٩ .

(٢٩) انظر القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث النص على أن « كل من أقبل اليه تائبا منهم ظهره بأن يضربه ١٠٠ (مائة) سوط ، ثم يعلم القرآن وشرائع الإسلام ، ويأمره بالصلاة والزكاة واخراج العشر » .

الى السياسة والمداواة ، بل وربما الى الخدعة أيضا ، فى سبيل التخلص منهم بأهون الأسباب . وهكذا استعانت القيادة المرابطية بالمصلحين من قبائل هؤلاء الرجال الذين يوصفون مرة أخرى « بأهل البغى والفساد » فى استمالتهم بالترغيب والترهيب ، على ما نطن . ونجحت سياسة « الحاجة تبرر الوسطة » فى استدراج عدد كبير من أولئك الذين كان يشك فى ولائهم « للرباط » على الأقل ، بلغ حوالى ٢٠٠٠ (ألفين) الى ساحة كانت تستخدم « زربا » أى حظيرا للابل . وهناك أحيط بهم ، وتركوا أياما بغير طعام . وعندما هنت قواهم ، أخرجوهم جماعة بعد أخرى لكى يقتلوا عن آخرهم (٣٠) . وأتى العمل الترهيبى بما كان يرجى منه فدانت لابن ياسين قبائل الصحراء ، وسادت هبة المرابطين وقويت شوكتهم (٣١) ، الأمر الذى يعنى وضع القواعد التأسيسية لدولة الرباط .

(٣٠) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ ، وقارن النويرى (أبو ضيف) ص ٢٧٩ ،
(نصار) ج ٢٤ ، ص ٢٥٧ .
(٣١) نفس المصدر .

الفصل الرابع

قيام دولة المرابطين

القواعد التأسيسية والسياسة المدنية

القواعد التأسيسية :

المقصود بالقواعد التأسيسية التي قامت عليها الدولة المرابطية ، هي مجموعة المبادئ العامة التي يلتزم بها المسئولون في تسييرهم لشئون الحكم ، من أجل تحقيق الأهداف المعلنة من قبل عبد الله بن ياسين ، المنظر الأول للدولة المرابطية ، والتي تتحقق بها مصالح « أهل الحق » من المسلمين الجدد على كل المستويات ، من دينية روحية أو مدنية مادية . فكان تلك المبادئ التي تعرف في أيامنا هذه بالمبادئ الدستورية أو بالدستور فقط على وجه الاختصار ، وهي التي يتمسك بها جميع أفراد المجتمع على أساس أنها تحفظ حقوق أبناء الوطن وتنص على ما عليهم من واجبات .

والمهم أن ما تقرر في الرباط من واجبات على جماعة « أهل الحق » أصبح من القواعد الملزمة لرعية « دولة الرباط » . وأول هذه الواجبات تتمثل في التوبة (عما سلف من التفريط في مجتمع الجاهلية) وما يستتبعها من التطهر وتزكية الجسد ، حتى تشف الروح وتسمو النفس . ومن ثم يكون حق التائب في تعلم القرآن وشرائع الإسلام ، من الصلاة إلى أداء ضريبتى زكاة المال وخراج الأرض . ومن ثم يصبح المرابط مواطناً صالحاً ، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد في سبيل الله ، ويصير من أهل الخير المبشرين بالجنة - الهدف الأسمى من الحياة (ما سبق ، ص ١٩١ - ١٩٢) .

السياسة المدنية :

القيادة المشتركة وتقسيم العمل :

تميز الرباط بقيادته المشتركة ، وهو الأمر المقبول من حيث ازدواجية تكوين الرباط كمؤسسة جهادية تعبدية . وهكذا تأسس الجيش منذ بداية الدعوة ، وقام قائد الأمير ، ممثل السلطة المدنية إلى جانب الفقيه المنظر ،

ممثل السلطة الدينية ، وله التفوق على الأمير ، من حيث هو صاحب السلطة العليا أو القرار الأخير . وهو ما أكده ابن ياسين ، فى ساحة القتال فيما بعد ، عندما أدب يحيى بن عمر على ما بدر منه من التهور فى القتال ، قبل أن يعرفه بسبب العقوبة . وبذلك تحددت مهام الأمير القائد فى الوقوف وتحريض الجنود على حسن القتال دون مباشرته الحرب ، وفى حياة الأمير حياة رجاله ، وفى هلاكه فناء جيشه (١) . وبذلك تحددت وظيفة الأمير فى مجال الحرب والدفاع ، بينما صارت للفقهاء الأمور الدينية من الأحكام ، فكانت الرئاسة الحقيقية لعبد الله بن ياسين (٢) : شهيد الجهاد فى تامسنا (ما بعد ، ص ٢٢٨) ومشرع القوانين التى لم تكن فوق مستوى النقد من قبل المثقفين من أهل القيروان (٣) .

الجيش :

أما عن الجيش الذى تكونت نواته فى الرباط ، فلم يكن جيشا قبليا ، مبنيا على العصبية كجيوش الصحراء الطبيعية ، اذا كان أفرادهم يرتبطون فيما بينهم برباط الأخوة فى الرباط ، أى فى التعبد والجهاد بشقيه : النفسى والحربى - تماما كما كان الحال بالنسبة للمسلمين الأوائل السابقين من أنصار ومهاجرين . فجيش ابن ياسين أشبه بجيوش الدول الحديثة ، ذات النظم المتحدة أو الاتحادية ، الذى يحارب فيه أبناء العصبية المختلفة تحت الراية الواحدة ، رمز الوطنية فى الدولة المفردة أو الامبراطورية المركبة - انه جيش دولة الرباط والمرابطين ، دولة العباد المجاهدين ، دون تفرقة عنصرية جدالية كانت أم لمتونية مسوفية .

أما عن تسليح هذا الجيش وتقنياته الحربية فالمفروض أنها كانت بسيطة فى بداية الأمر بشكل يتفق مع امكانيات جماعة العباد المحدودة فى

(١) البكرى ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) القرطاس ، ص ١٢٧ .

(٣) البكرى ، ص ١٧٠ - حيث النص على أنه « مما يحفظ من جهل ابن ياسين أن رجلا اختصم اليه مع تاجر غريب عندهم ، فقال التساجر فى بعض مراجعته لخصمه حاشى الله أن يكون ذلك ، فأمر عبد الله بضربه ، وقال : لقد قال كلاما فظيحا وقولا شنيعا يوجب عليه أشد الأدب . وكان بالحضرة رجل قيروانى فقال لعبد الله وما تنكر من مقالته والله عز وجل قد ذكر ذلك فى كتابه فقال حكاية عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى قصة يوسف : « وقلن حاشى الله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (سورة يوسف آية ١٢) ، فرفع الضرب عن ذلك الرجل .

الرباط ، ولكنها لم تلبث أن تطورت بشكل سريع يتفق مع ايقاع الوحدة المتزايد بين قبائل الصحراء ، الأمر الذى كان له مردوده السريع والمتعاظم على المستوى الاقتصادى ، بتوحد ثروات قبائل الصحراء المسيطرة على طرق التجارة مع بلاد السودان (ما سبق ، ص ١١٤) تحت سلطات المرابطين . فحوالى سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م أى بعد حوالى ١٥ (خمسة عشر) عاما من توحيد الصحراء تحت علم دولة الرباط ، يعطى البكرى صورة جيدة عن نظام القوات المرابطية وتسليحها الجيد ، وخططها الحربية المتقدمة ، رغم ما يقوله من أن سلطة الدولة الناشئة كانت بعد منتشرة غير موحدة ، وأن الالتئام لم يكن قد تحقق بعد بين أطرافها المتفرقة (٤) .

الخطط الحربية :

ففرق الجيش المرابطى كانت قد تطورت بعد أن أصبحت تحوى الخيل الى جانب المهارى ، وبعد أن أصبحت الحراب الطويلة والمزاريق القصيرة العمود الفقرى لقوات المشاة ، الكتلة الرئيسية فى الجيش . وهذا التجديد فى التسليح يعنى أخذ المرابطين بأساليب الحرب فى بلاد الحضارة المتاخمة للصحراء مما كان قد وقع بين أيديهم من أطراف بلاد المغرب ، وخاصة فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد التخصص فى استعمال النشاب أو المزاريق التى كان الرجل يحمل عدة منها دفعة واحدة ، الأمر الذى تطلب اتخاذ خطط حربية تناسب هذا التجديد الحضرى فى التسليح (٥) .

فالكتيبة من المرابطين كانت تسير وراء الراية التى استخدمت بمعرفة عبد الله بن ياسين منذ ما قبل الرباط (ما سبق ، ص ١٧٨) والتى يعتبر حاملها من مساعدى القائد الهامين ، حيث كان يتلقى أوامر تحرك الجند فى المعركة من القيادة ويبلغها للجنود عن طريق الراية . فطالما كانت الراية مرتفعة وقف الرجال فى مواجهة العدو بالقنى (الرماح) الطوال للمناوشة والدفاع ، فى الصف الأول ، بينما أصحاب المزاريق يرمون بنشاباتهم التى لا تخطئ . فاذا توجس القائد من خطر هجوم يقوم به العدو ، أمر صاحب الراية بتنكيسها ، وعندئذ يجلسون جميعا على الأرض فى وضع دفاعى

(٤) البكرى ، ص ١٦٦ - عن أسلوبهم فى الحرب ، ص ١٧٠ عن أبى بكر بن عمر

وأحوال المرابطين سنة ٤٦٠ هـ .

(٥) البكرى ، ص ١٦٦ ، وأنظر أعلاه .

كانهم الهضاب الثابتة ، لا يعرفون الفرار . أما اذا انهزم عدوهم فهم لا يتبعونه (٦) .

ومما يشير اليه البكري أنهم لا يستخدمون الكلاب كأدوات مساعدة في الحرب ، في أعمال الاستكشاف مثلا أو التصنت ، على أساس أنهم يكرهونها (٧) كتعبير عن تشدد المالكية في مسألة الطهارة ، كما نطن .

بيت المال :

ولما كان المال عصب الحرب كما يقال ، كان اهتمام عبد الله بن ياسين بإنشاء خزانة عامة تحفظ فيها أموال جماعة « أهل الحق » مصاحبا لتكوين الجيش وتنصيب الأمير قائد الحرب ، قبل بناء رباط السنغال ، وهو ما يظهر واضحا في مدينة « ارتننى » ، رباط ملتونة - حيث قبض خصوم الفقيه منه بيت مالهم قبل أن يطردوه ويهدموا داره (٨) . والمهم هنا هو تمويل خزانة الرباط عند الخروج لغزو القبائل اعتبارا من سنة ٤٤٤ هـ / ٣ - ١٠٥٢ م . وكان من الطبيعي وقد خرج المرابطون لأول مرة ، من معسكرهم خالين الوفاض ، ناقلين على خصومهم من أهل البغي والفساد ، أن يتبعوهم بالقتل والنهب والسلب ، على أساس أن أموالهم - التي أخذت من حينئذ ترفد الخزانة المرابطية غير نقية مستباحة (٨ م) ، الأمر الذي أثار اشمئزاز فقيه السوس وجاج بن زللو فكتب الى عبد الله بن ياسين يعبر له عن أسفه لسفك الدماء ونهب الأموال ، وندمه على إرساله اليهم ، فاعتذر اليه عبد الله بأنه مأمرة جاهلية لا ترعى حرمة الحريم ولا الدية في الدماء ، ولا توفي عندهم الأموال ، وانه ما تجاوز حكم الله ولا تعداه (٩) .

(٦) البكري ، ص ١٦٦ .

(٧) البكري ، ص ١٦٦ - حيث النص على أنهم يقتلوننا التي غيرناها الى الكراهية ، على أساس نجاستها ، كما يظن . أما عن قتل الكلاب في الصحراء فالمعروف انها كانت تؤكل في واحات سجلماسة غير بعيد عن السوس الأقصى ، وكذلك في واحات بلاد الجريد في الجنوب التونسي ، حيث اعتبر لحمها من أطيب اللحوم وأشهاها ، وهنا لا بأس من الإشارة الى ان افتقاد الكلاب في شوارع بعض بلاد الخليج في أيامنا هذه كان يعزى الى بعض العمال من الآسيويين من الكوريين أو غيرهم ؟ الدين يقرمون لحمها .

(٨) البكري ، ص ١٦٦ (ما سبق ، ص ١٨٢) .

(٨م) النويري (أبو ضيف) ، ص ٣٨٠ - حيث النص على تتبع المعاندين بالقتل

والنهب والسلب الا من أسلم منهم وسالم .

(٩) النويري (أبو ضيف) ، ص ٣٨٠ ، (نصار) ج ٢٤ ، ص ٢٥٩ .

والذى يلفت النظر فى غزو جدالة ولمتونة ومسوفة ، أنه لا ذكر لمثل أعمال العنف هذه ، فكان المسألة مجرد سوء تفاهم بين الأخوة وأبناء العم ، يمكن أن يزول بمجرد زوال أسبابه .

حقيقة انهم انهزموا ، وقتل كثير منهم ، ولكن رواية القرطاس لا تشير الى أموالهم ، اكتفاء بأنهم أسلموا أو أذعنوا وقابوا ، وأنهم أمروا بالصلاة ، والزكاة وإخراج العشر ، « وان ابن ياسين جعل لذلك بيت مال يجمعه فيه » ، وأنه « أخذ يركب منه الجيوش ، ويشترى السلاح ، ويغزو القبائل » (١٠) . فكان هذه القبائل الثلاث تمثل الوطن الذى دخل كرها وطوعا فى الدعوة والذى تمثل أمواله رصيد عملية الفتوح فى غيرها من القبائل والأوطان الخارجة عن طوق الحمى .

وهكذا يفهم من رواية البكرى أن غزو قبيلة لمطة ، والتي نرى أن اسمها (لمطة) هو الاسم الأصلى القديم (الجذم) للمتونة (ما سبق ، ص ٦٩) ، حدث وكأنه غزو فى أرض أجنبية معادية مثلها مثل درعه : « أول ما أخذوا من البلاد المخالفة لهم » (١١) . فلقد اعتبر ابن ياسين أن أموال لمطة « مختلطة » حلالها بحرامها ، وأنها لكى تتطهر أو تتزكى (بمعنى التنظيف أو الغسيل الدارج الآن بالنسبة للأموال المجهولة المصدر) يجب دفع ثلثها للمرابطين ، لكى « يطيب لهم (للمطيين) الثلثان » ، فكان تشريعا جديدا « أفتى به ابن ياسين فى الأموال المختلطة ، وطبقه فى كثير من البلاد المفتوحة » (١٢) . وعن هذا الطريق كانت خزانة أمواله المخصصة للغزو والجهاد تقوى من امكاناته فى تحقيق المزيد من الانتصارات . وكان لابن ياسين فى بداية تاريخ الدولة الاسلامية الناشئة خير قدوة يحتذى بها ، فهو يقسم أسلاب القتلى فيثا للمرابطين (١٣) ، وهو فى السوس يسقط المغانم ولا يجبى الا زكاة المال وخراج الأرض (١٤) ، وبالتالى يؤلف القلوب ، ويهيىء بداية مضمونة لامبراطورية الصحراء الناشئة .

(١٠) أنظر القرطاس ، ص ١٢٦ .

(١١) البكرى ، ص ١٦٦ .

(١٢) البكرى ، ص ١٦٦ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٢ - حيث النص على أن ابن ياسين كان يأخذ الثلث ١/٣ من الأموال المختلطة ، ليحلل باقيها ، وذلك شذوذ من الفعل .

(١٣) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٩ .

التوسع الاقليمي خارج الصحراء

فتح درعة وسجلماسة :

بعد استيلاء المرابطين على كامل تراب الصحراء ، بدخول قبيلة لمطة جنوب السوس الأقصى على شاطئ الاطلنطي ، حيث أكبر مراكزها العمرانية « نول لمطة » : أول محطات القوافل على طريق الساحل نحو غانة والسودان (ما سبق ، ص ٢٠٣) ، كانت الظروف تقضى بأن يوجه ابن ياسين أنظاره نحو الأقاليم المتاخمة ، وكان من الأوفق له البدء بالأقاليم الداخلية على أطراف الصحراء ، لتكون مراكز ارتكاز « لدولة الرباط » القارية أصلا ، قبل توجيهها نحو الأقاليم البحرية العامرة غربا وشمالا ، الى شواطئ المحيط والمتوسط عبر ممرات جبال درن . وهكذا كان البدء باقليم درعة الوثيق الصلة بمنطقة سجلماسة العريقة ، من جنوب شرق المغرب الأقصى ، وكانت تحت سلطان أسرة بني وانودين المغراوية الزناتية .

واذا كان ابن خلدون (اندى يلخص القرطاس) يحدد تاريخ فتح درعة وسجلماسة بسنة ٤٤٥ هـ / ٤ - ٣ - ١٠٥٣ م بعد فتح الصحراء ، فانه يفهم من نفس الرواية أن المسألة بدأت بنوع من التفاهم بين الطرفين عندما خرج المرابطون نحو درعة وسجلماسة يعرفون أهلها بأنفسهم ، ويطلبون « حق الله » من الصدقات فأعطوهم ما عن لهم فيها ، لكي يعودوا الى موطنهم (١) . واذا كانت الرواية تعلق بعد ذلك غزو درعة وسجلماسة بأنه كان استجابة لشكوى أهل البلدين من جور حكامهم من بني وانودين (٢) ، بمعنى أن استبداهم وتشددهم في جمع الضرائب من زكاة

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث أذن لهم (ابن ياسين) في أخذ الصدقات من أموال المسلمين ، وسماهم بالمرابطين ، وجعل أمرهم الى الأمير يحيى بن عمر ، فتخطوا الرمال الصحراوية الى بلاد درعة وسجلماسة ، فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا والترجمة ، ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ ، وفارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ - حيث أمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج الى السوس وأخذ الزكاة ، فخرج منهم نحو ٩٠٠ رجل ، قدموا سجلماسة ، وطلبوا الزكاة فجمعوا لهم شيئا له قدر ، وعادوا .

(٢) القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث النص على أن فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحائهم ، هم الذين كتبوا الى عبد الله بن ياسين ، مع وضع هذا الفتح في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، وهو مانشير اليه في موضع قال .

المال أو خراج الأرض وغيرها ، فلا بأس أن يكون ذلك بسبب مطالبتهم بتلك الضرائب كاملة رغم ما أخذه المرابطون من الصدقات . ولكنه لما كانت رواية ابن خلدون هذه تنسب تلك الشكوى الى فقيه السوس وجاج ابن زللو (٣) ، الأمر الذي ترتب عليه اعتبار سجلماسة من بلاد السوس الأقصى ، فاننا نرجح رواية ابن الأثير التي تقرر هي الأخرى خطأ ، أن سجلماسة من بلاد السوس ، والتي تنص على أن المرابطين « ساروا الى سجلماسة يطلبون الزكاة (المعتادة) فامتنعوا (أهلها) » (٤) ، فكان ذلك ذريعة الفتح بالنسبة لابن ياسين .

والحقيقة أن هناك ذرائع أخرى لا يجب التقليل من شأنها - من حيث كونها من النوازل الكونية أى الطبيعية ، وأهمها بالنسبة الى الصحراء آفة الجذب والقحط التي يقدمها ابن الأثير على غيرها فى فتح سجلماسة (من السوس - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) (٥) ، الى جانب الانفجار السكاني ، كما تقول الآن ، والذي تقدمه رواية ابن الأثير أيضا كمقدمة لفتح السوس الأقصى (يقصد تامسنا : بلاد برغواطة أيضا) (٦) فكان اسم السوس يكاد يعادل اسم المغرب الأقصى من شماله ، حيث السوس الأدنى (فاس وبلاد الريف) الى جنوبه حيث السوس الأقصى (ودواخلة الصحراوية) .

والمهم أن درعة التابعة لأسرة بنى وانودين المغراوية الزناتية خضعت سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م لمطالب المرابطين خضوعا يؤكد دفع الجزية (الزكاة) ، بينما رفض اجابتهم أهل سجلماسة وعلى رأسهم أميرهم مسعود بن وانودين الذى فوجئ بخطورة ما كان يواجهه من التحدى . فلقد خرج المرابطون بجيش عرمرم ، عدته ٣٠ (ثلاثين) ألف جمل سرج (٧) أى من النجبة الأصيلة (والمفرد نجيب) وهى المهارى (٨) . واتجهوا نحو درعة حيث كانه

(٣) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ج ١ ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ .

(٧) البكرى ، ص ١٦٧ .

(٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٠ وهـ ٢ - حيث خرجوا فى عدد ضخم أكثرهم ركبانا على المهارى ، والمفرد مهرة بمعنى الناقة الأصيلة السريعة العدو ، القوية التحمل على المشاق الطويلة فى الصحراء والاسم نسبة الى مهرة بن هيدان ، أول من أنتجها (القاموس) .

ففي حماها نحو ٥٠ (خمسين) ألفا من الابل ، الأمر الذي حمل مسعود بن وانودين على أن يخرج سريعا في محاولة لانقاذها .

وكان اللقاء غير متكافئ بين النساك المجاهدين الذين لا يعرفون الهزيمة وبين المغراويين من منتجي الابل العاملين في خدمة تجار السودان ، فانتهى بهزيمة أهل سجلماسة ، ومقتل وانودين واستيلاء المرابطين على الحمى بذرعه ، ودخولهم مدينة سجلماسة . وبعد أن رتب عبد الله بن ياسين شئون المدينة وأخضعها لنظام حسبته فقتل من وجد بها من نبلاء مغراوة ، وغير ما وجد به من المنكرات ، فكسر آلات الموسيقى والغناء ، وأحرق المواخير ، وأسقط المغارم ، وبعد أن اطمأن الى استقرار الأمور قدم عليها عاملا من لتونة ، وترك معه حامية قليلة العدد ، وعاد برجاله الى بلادهم (٩) .

فتح أودغست :

واذا كان البكري يقول ان المرابطين قد عادوا بعد فتح سجلماسة (سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م) الى بلادهم ، فانه ينص بعد ذلك على أن ابن ياسين قام في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م بفتح أودغست جنوب الصحراء ، على مسيرة شهرين ، والتي كانت خاضعة لمملكة غانة ، وهو الأمر المقبول . ففي هذه الحالة يكون القصد من الحملة العظمى التي حوت ٣٠٠٠٠ من المهارى ليس سجلماسة لذاتها ، بل كمحطة على طريق السودان الى بلاد الساحل ، منطقة أعشاب السافانا التي يمكن أن تميز هذا العدد الضخم من الجمال بالعلف والماء .

ويصف البكري أودغست وقتئذ ، بأنها مدينة كبيرة ، يسكنها بربر زناتة مع العرب الذين لم يكونوا على وفاق فيما بينهم . واذا كانت رواية البكري تنص على اساءة المرابطين الى أهل أودغست حيث استباحوا حريمهم

(٩) البكري ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٨ - حيث النص على اخراج عامل ذرعة منها ، والاستيلاء على ٥٠ ألف ناقة كانت لمسعود في مراعيها ، وان الحرب العظيمة انتهت بمقتل مسعود وأكثر جيشه وفرار الباقيين ، وان عبد الله بن ياسين أخذ أموالهم وأدوانهم وأسلاحهم مع الابل فأخرج الخمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة وصلاحائها ، وقسم الباقي على المرابطين . وان خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث اختصار رواية ابن أبي زرع - دون الاشارة الى ذلك . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ - حيث النص على أن المرابطين ساروا الى سجلماسة وطلبوا الزكاة فامتنعوا ، فهزموا صاحب سجلماسة وقتلوه ودخلوها ، وان كان ذلك في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م .

واستحلوا أكل ممتلكاتهم ، فلا بأس أن يكون ذلك نتيجة للشقاق بين الزناتية والعرب المترفين الى جانب ما قدموه من تبريرات أخرى كالحضوع الى غير المسلمين من أهل غانة ، وهو الأمر المقبول على كل حال من حيث حماسهم لدينهم الذى جددوه ، الى جانب رغبتهم الصادقة فى نشر الاسلام بين قبائل السودان التى لم تكن قد دخلت بعد فيه (١٠) . ولا بأس أن يكون ابتعاد الجيوش المرابطية ، جنوبا على بعد شهرين من سجلماسة ، فرصة انتهزها دهاة مفرّاة فى سجلماسة لتحرير بلدهم من نير المرابطين . فلقد نصبوا لحامية النساك شركا فى ظهيرة يوم جمعة وقت الانشغال بالصلاة فى المسجد ، وهى الحيلة التى كانت معروفة لدى مدبرى الانقلابات على ما نظن ، فى دولة الاسلام - حيث كان قواد المرابطين قد تجمعوا حول رئيسهم القائد « عامل سجلماسة » فغدروا بهم وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك خلال سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ التالية (١١) .

ولقد تنبه زعماء المدينة الى خطورة المفاسدة التى انغمسوا فيها ، وحاولوا اصلاح ما يمكن اصلاحه ، « فتواترت رسالهم على عبد الله بن ياسين ، أن يرجع اليهم بالعساكر ، ويذكرون أن زناتة زحفوا اليهم (١٢) » . ولم يجد هذا الاعتذار شيئا ، فقد قرر ابن ياسين الأخذ بثأر المغدورين من رجاله .

ولم يكن عبد الله بن ياسين يدرى أن حملة سجلماسة الثانية هذه ، ستؤدى الى انشقاق خطير فى صفوف المرابطين ، وقيام حرب أهلية بين قطبي قبائل الملثمين : جدالة وملتونة ، فجدة التى كانت لا تنسى أن فضل « اسلام الصحراء الجديد » يرجع الى زعيمها يحيى بن ابراهيم صاحب لقاء القيروان التاريخي مع الشيخ الامام ابي عمران الفاسي ، وترنو الى الأخذ من جديد بزمام القيادة بدلا من ملتونة ، على أمل إعادة توجيه تاريخ المنطقة المستقبل الى مساره الجدالى السابق ، وهو ما لم تعد تسمح به حتمية التاريخ

(١٠) البكرى ، ص ١٦٨ - حيث النص أيضا على ان ابن ياسين قتل فى أودغست رجلا من العرب المولدين من أهل القيروان « معلوما بالورع والصلاح ونلاوة القرآن ، وحج البيت ، يسمى زياقرة ، وانما نتموا عليهم انهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه » ، وعن أودغست انظر فيما سبق ص ١١٦ .

(١١) البكرى ، ص ١٦٧ - حيث النص : « فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين فى المسجد ، وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م » الخ .

(١٢) البكرى ، ص ١٦٧ .

فى أوضاعها المستجدة • وكانت أزمة تهدد كيان البناء المرباطى الذى لم تكن قد تماسكت بعد لبناته اللينة ، لولا حنكة عبد الله بن ياسين الذى لم يظهر بمظهر رجل الدولة المحنك فقط ، بل وبمظهر القائد الموهوب فى علاجه لمشاكل الحرب والسياسة •

الفقيه رئيسا :

بدأ عبد الله بن ياسين يعد الهدنة لمقاسب أولئك المستهترين بدولة الرباط من رؤساء مغراوة ومن يحوم حومهم من أهل سجلماسة ، فندب المرباطين الى غزوهم • وهنا لم تلق دعوة جهاد المغاربة المسلمين من أهل سجلماسة للمرة الثانية القبول من جانب عامة المرباطين فقط ، بل انها وجدت معارضة صريحة من جانب الجداليين • ولا بأس أن يكون المثلثون قد حشوا فى هذه المرة مقابلة مع بقايا بنى وانودين المغراويين فى واحات درعة وسجلماسة قد تنقلب الى مواجهة شاملة مع الزناتية قد تكلفهم ثمنا باهظا قد لا يهدد كيانهم فقط ، بل ووجودهم أصلا • فهذا ما يمكن أن نفهمه من انسحاب جدالة الى مواطنها الأولى على ساحل البحر (المحيط) ، فكانهم عبروا عن عدم رضاهم عن سياسة ابن ياسين ، بترك مشروع دولة الرباط التى بدأت تتحول من دعوة للجهاد فى الجنوب السودانى الذى لم يدخل بعد فى الاسلام ، الى دولة اسلامية تقليدية ، تبنى سياستها على الوقائع الجغرافية السياسية الاقتصادية التى تعنى الحلول مكان دول المغرب السابقة فى شمال الصحراء •

والظاهر أن نظرة جدالة نحو الجنوب كانت تجد قبولا حسنا لدى بنى جلدتهم على حدود السودان ، وربما من طوائف أخرى من مسلمة السودان الذين لا يحبذون فكرة التجديد الاسلامية ، بل يفضلون مواصلة عملية نشر الاسلام بين ملاحدة السودان •

انشقاق المثلثين والحرب الأهلية ،

وبدء ظهور « أبو بكر بن عمر » :

هكذا اتخذ عبد الله بن ياسين الاجراءات السياسية والعسكرية المناسبة لمواجهة المخاطر المتوقعة من حركة العصيان الجدالية فعمل على تقوية الجهة الداخلية فى مجتمع الرباط ، والتى تتمثل فى جبل لمتونة مركز الثقل البشرى والاقتصادى ، فى دواخل بلاد المثلثين • فقد أمر الزعيم يحيى بن عمر بالتمركز هناك فى قصبة الجبل المعروفة باسم أزكى « أزقى » ،

وهي عقدة الطرق التجارية الى غانة ، وحيث غابة النخيل العظيمة التي
تحتوي حوالى ٢٠ (عشرين) ألف نخلة ، وحيث الحصن الذى ينسب بناؤه
الى يانو بن عمر أخى الأمير يحيى بن عمر الحاج (١٣) ، تحسبا لهجوم محتمل
من قبل جدالة .

هذا ، كما اتخذ ابن ياسين اجراءات تضمن سلامة المرابطين فى درعة
حيث كانوا مقسمين الى فرقتين احدهما بقيادة أبى بكر بن عمر ، والأخرى
بقيادة أحمد بن أقدجنوا ، فجعل القيادة هناك الى أبى بكر نيابة عن أخيه
يحيى الموجود فى أرض لمتونة . والظاهر أن فتنة جدالة استمرت لفترة
زادت على سنة وأكثر ، الأمر الذى يعنى ان الجداليين كانوا فى حاجة الى
الوقت لاعداد العدة لمواجهة الترتيبات العسكرية فى بلاد لمتونة ، وذلك أن
الهجوم الجدالى المرتقب على جبل لمتونة لم يبدأ الا فى مطلع سنة ٤٤٨ هـ /
١٠٥٦ م (١٤) .

ولا ندرى ان كان الهجوم الجدالى قد تم بتنسيق مع المغراويين الزناتية
أصحاب سجلماسة أم لا . وذلك أن رواية البكرى لا تحدد تاريخا لعودة
عبد الله بن ياسين الى سجلماسة . والرواية هنا تكفى بالقول ان ابن ياسين
سار نحو سجلماسة فى حوالى ٢٠٠ (مائتى) رجل من الصنهاجيين وانه
نزل فى حصن تامدلت (ما سبق ، ص ١١٢) حيث « اجتمع اليه جيش
كثيف من (حصون قبائل) سرطة وترجه » (١٥) ، الأمر الذى يفهم منه أن
عبد الله بن ياسين استعاد سجلماسة دون قتال أو أعمال عنف فى سنة
٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م التالية ، حسب رواية ابن أبى زرع ، التى تكمل رواية
البكرى فى هذا الموضع ، كما نرى . وهكذا يكون خروج عبد الله بن ياسين
لاسترجاع سجلماسة ، وأخذ الثار من أولئك الذين غدروا برجاله المرابطين
فى ٢٠ صفر سنة ٤٤٧ هـ / ٢٠ مايو ١٠٥٥ م (١٦) .

(١٣) أنظر البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٤) البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٥) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن ما سبق ، ص ٧١ ، ٨٨ من مدينة ترغة وسجلماسة ،
ص ٧١ عن سرطة وترجة .

(١٦) أنظر روص القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث النص على أن أهل سجلماسة وفقهاء
درعة وصلحائهم كتبوا الى ابن ياسين والمرابطين يطلبون قدومهم للقضاء على المنكر والعسف
والجور ، وذلك فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، فكان ذلك هو الفتح الأول ، وهو ما نراه
مناسبا لتكملة رواية البكرى عن الفتح الثانى الذى أعقبه الغدر بالحامية المرابطية
سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م .

أما فى جبل لتونة (ما سبق ، ص ٢١٠) فقد سارت الأمور فى غير مصلحة ابن ياسين . ففى المحرم من سنة ٤٤٨ هـ / مارس - إبريل ١٠٥٦ م ، التالية ، حاصرت جدالة وحلفاؤها من صنهاجة ومن السودان ، كما يقتضى السياق ، الجبل فى جيش كبير يبلغ عدده زهاء ٣٠ (ثلاثين) ألف رجل . ورغم كثرة اللمتونيين الذين كانوا تحت قيادة يحيى بن عمر مع من انضم اليهم من حلفاء المرابطين من مسلمة السودان الذين كانوا تحت قيادة لبي بن وارجاى رئيس التكرور ، فإن المعركة الكبيرة التى وقعت بين الطرفين فى تبغريل فيما بين قرية (حصن) تاليوين وجبل لتونة ، انتهت بكارثة بالنسبة لحزب ابن ياسين . فلقد انهزم المرابطون وهم المجاهدون الأشداء ، الذين « يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف » (١٧) ، وبقي قائدهم الأمير يحيى بن عمر فى أرض المعركة ، كما « قتل معه بشر كثير » . وبذلك أصبحت ساحة تبغريل على حدود السودان مقبرة تذكارية من مقابر شهداء الاسلام على أطراف دولته البعيدة ، مما يذكر بسيدي عقبة (تهودة) سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م ، وبلاط الشهداء (بواتيه ١١٤ هـ / ١٢٢) ، وخاصة بشهداء الإباضية فى ورداسة (بتاورغى ١٤٤ هـ / ٧٦١ م - ج ٢ ص ٢٤٥) ، حسبما يفهم من الرواية المرابطية المنقوبة (١٨) .

وبعد اسنشهاد يحيى بن عمر الحاج بن تلاكاكين فى تلك الحرب الأهلية كان على الفقيه عبد الله بن ياسين أن يختار أخاه « أبو بكر بن عمر » لقيادة القوات المرابطية ، فكان اختيار الرجل المناسب الذى سيخلفه الرجل المناسب (يوسف بن تاشفين) (١٨ م) .

(١٧) البكرى ، ص ١٦٦ . وقارن الاستبصار ، ص ٢١٧ (حيث اسم ملك التكرور السابق : وازجاى بن ياسين) ، وقارن أمين الطيبي ، تأثير الاسلام فى غانه ومالى ، مجلة العلوم الانسانية ، الكويت ، مجلد ٤ عدد ١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥٠ - حيث اسم الملك : وارجاى ابن رابيس ، وأنظر فيما سبق ص ١١٩ وهـ ٤٣ .

(١٨) أنظر البكرى ، ص ١٦٨ - حيث النص : « وهم يذكرون أنهم يسمعون فى هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات ، وهم يتحामونه ، ولا يدخله أحد ولا أخذ منه سيف ولا درقة ، ولا شيء من أسلحتهم ولا ثيابهم » ، وقارن الثرطاس ، ص ١٢٨ - حيث النص على وفاة الأمير يحيى بن عمر فى جهاد كان يبلاد السودان مع تقديم ابن ياسين لأخيه . أبى بكر بن عمر اللمتونى مكانه ، وذلك فى المحرم سنة ٤٤٨ هـ / مارس - إبريل ١٠٥٦ م .

(١٨ م) نفس المصدر السابق .

اتحاد قبائل الرباط من لتونة وحلفاتهم ، تحت قيادة عبد الله بن ياسين :

كان للحرب الأهلية بصماتها الواضحة على النظام المرابطي الذي كان قد تحول الى كيان ديني سياسي على قمته « ثنائى رئاسى » ، من : الأمير القائد والفقير المنظر ، صاحب الكلمة الأخيرة على كل حال . هكذا كان عبد الله بن ياسين يلزم جميع المرابطين من قبائل المثلثين ومن بعدهم الداخلين الجدد فى حظيرة دولة الرباط من أهل المغرب ، بإعلان التوبة والخضوع لمقوبة التطهر الجسدى - دونما تفرقة عنصرية .

ولكنه عقب هزيمة تبفريلى ، ومقتل الزعيم اللمتونى يحيى بن عمر اكتفى عبد الله بن ياسين بالخروج من الكارثة بأقل الخسائر ، حيث علمه درس الهزيمة أن يكون واقعيا فى سياسته : أى أن يرضى بالممكن دون المستحيل كما يقال ، وأن يدع مجالا للرغبة الشخصية فى عمل الخير أو النهى عن الشر ، دون كسر لإرادة الآخرين .

وهكذا تقول الرواية تعقيبا على الهزيمة انه « لم تكن للمرابطين بعد ، كرة الى بنى جدالة(١٩) » ، بمعنى أن عبد الله ابن ياسين لم يثار « لنكسة » تبفريلى ، فكان جدالة خرجت منذ هذا الوقت من الوحدة المرابطية (وحدة أهل الحق) ، وكأنها صارت قبيلة حليفة وليست تابعة ، وكأن دولة الرباط الموحدة اقتصرت على قبائل لتونة التى شاركتها مسوفة فى نوع من الاتحاد .

وهكذا أصبح النظام المرابطي فى معناه وحدة سياسية مبداتها قبائل لتونة ولحمتها قبائل مسوفة ، وأما غيرها من القبائل فقد صارت قبائل حليفة - فكانها فى اتحاد تتمتع بحقوق المتساوين(٢٠) ، شكليا على الأقل .

(١٩) البكرى ، ص ١٦٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث يجعل أول أعمال يوسف بن تاشفين الذى كان على مقدمة أبى بكر بن عمر فى مسيرته نحو السوس ، غزو جدالة .

(٢٠) أنظر عن الفتوح الاسلامية ونظام الحلف مع القبائل والدويلات التركية المجاورة على المشرق ، محمد عبد الهادى شعيرة ، الممالك الحليفة ، مجلة كلية الآداب - الاسكندرية ، سنة ١٩٤٨ ، المجلد ٤ ص ٤٢ وما بعدها .

وهذا لا ينسب أن دولة الرباط الوليدة فقدت صبغها الدينية في هذا انبوت المبكر . فطالما عاش الفقيه ، حامل السنة وعالم اشريعه ، ظل النظام المرباطى مرتديا عباءة الدين ، كما ظل انهدف من الجهاد والفتح هو تجديد الاسلام ونشر دعوة الحق بين من لا يعرفونها . وفى هذا المجال قام عبد الله بن ياسين بننشئه أعداد من الطلبة النقياء ممن سيساعدونه فى اقامة نظام الدولة وترتيب الدعوة لنشر الاسلام الصحيح (٢١) - الامر الذى سيكون قدوة لمحمد بن تومرت : مهدي الموحدين . أما عن مسار الفتوح فكان منهجيا ، بدءا بشمال انصحراء فى المغرب الأقصى وجنوبها فى بلاد السودان ، الامر الذى تطلب اقامة قيادتين حربيتين ، احدهما شمالية والاخرى جنوبية . وكانت الجبهة الشمالية هى التى استأثرت باهتمام عبد الله بن ياسين ، لقوة بلاد المغرب النسبية بشريا واقتصاديا ، الامر الذى كان يبشر بمجالات مزدهرة للعمل على كل من مستوى الجهاد والدعوة .

وهكذا تتدرج فتوح المغرب الشمالية فيما وراء درعة وسجلماسه كما يوردها البكرى ، بدءا بأغمت سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ثم بلاد المصامدة سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، وانتهاء ببلاد برغواطية حيث استشهاد عبد الله ابن ياسين - مقابل سواحل الأندلس : أرض الجهاد وموطن الرباط التى سيكون لها رجالها من المرباطين خلفاء ابن ياسين ، سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، وهو الترتيب المقبول بشكل عام رغم ما قد يوجد من اختلافات فى ترتيب الأحداث عند من أخذ برواية البكرى ممن أتى بعده من الكتاب . والحقيقة ان اضطراب رواية البكرى عند المتأخرين يرجع الى أحد سببين ، أولهما : أنهم نقلوها عن غيرهم ممن كانوا يعرضون لها بشيء قليل أو كثير من التحوير والتغيير ، والثانى : هو خلط رواية البكرى الأندلسية المعاصرة برواية ابن شداد الافريقية المتأخرة بعض الشيء ، والتى تعتبر أقل أصالة من حيث كونها صحراوية ذات أصول شفوية معرضة للتحويل الشديد .

فرواية ابن الأثير (ج ٩ ص ٦٢١) والنويرى (أبو ضيف ص ٣٨١ - الزيرية أيضا) تخلط ما بين بلاد السوس الأقصى (موطن مصمودة) وتامسنا (بلاد برغواطية - حيث قتل عبد الله بن ياسين) . ومثل هذا يقال عن اللبس بين بلاد جزولة وجبل لتونة والسودان فى قصة وفاة يحيى بن عمر اللمتونى فى كل من البكرى (ص ١٦٧ - ١٦٨) والقرطاس

(ص ١٢٨ - ١٢٩) • وكل ذلك رغم الاجتهادات المعمودة لكل من ابن أبي زرع ، ومن بعده ابن خلدون ، في محاولة ترتيب الأحداث بشكل منهجي مقبول •

والمهم من كل ذلك ان رواية البكري التي يرجع الفضل الى دسلان (De Slane) في تحقيقها وترجمتها والتعليق عليها هي المعتمدة في ترتيبها الزمني كما نرى ، وان عانت من قلة التفصيلات التي كان يمكن أن تنفث في توقيتها الزمني الجيد نوعا من الحياة •

فتح أغمات :

والقضاء على امارة البجليين :

وهكذا يكون فتح أغمات قد تم بعد نهاية الفتنة مع جدالة وحلفائها من السودان في جنوب الصحراء ، حيث قتل الأمير يحيى وآلت القيادة الى أبي بكر بن عمر اللمتوني ، بعد استرجاع سجلماسة بمعرفة عبد الله ابن ياسين الذي رأى أن يستنفذ طاقة المرابطين الذين بدأت تضيق بهم الصحراء ، في توسيع رقعة دولة أهل الحق ، فكان التوجه الطبيعي نحو أغمات في سفوح جبال درن ، غير بعيد من الموضع الذي سوف تبنى فيه مدينة مراكش ، وحيث كانت السلطة هناك للمغراويين الزناتية ، أقارب أصحاب سجلماسة ، فكان في الاستيلاء على أغمات (ما يأت ص ٢١٥) ضمان لهدوء الأحوال في كل من درعة وسجلماسة •

وهكذا أصدر عبد الله بن ياسين أوامره الى الأمير أبي بكر بن عمر بأعداد جيوشه للمسير نحو السوس الأقصى وجبال المصامدة • وفي شهر ربيع الثاني من صيف ٤٤٨ هـ / يونيه - يوليه ١٠٥٦ م كانت القوات المرابطية بقيادة ابن ياسين وأبي بكر ، تتجاوز حدود سجلماسة نحو سفوح جبال درن (أطلس) لكي تخترق دروبها على طول ١١ (أحد عشر) يوما الى أغمات (٢٢) • ومن المهم الإشارة هنا الى أن قائد المندمة وقتئذ ،

(٢٢) أنظر البكري ، ص ١٥٢ - حيث الطريق من سجلماسة الى اعمات يستغرق ١١ يوما على طول المحطات التالية : بيجمامين (٢ يوم) ، وادي درعة (٢ يوم) ، وزارات : حيث مساكن مسكورة (٢ يوم) ، هزرجة : حيث جبل الياقوت (٤ يوم) وعلى مسافة يوم واحد من أغمات •

المعين من قبل أبى بكر بن عمر، هو : ابن عم هذا الأخير يوسف بن تاشفين (٢٣) الذى سوف يرتبط اسمه بالامبراطورية المرابطية ، فكان هذا أول ظهور له على مسرح الأحداث - الأمر الذى غاب عن البكرى .

ولا بأس أن كانت منطقة تارودانت فى منتصف المسافة هدفا فى حد ذاته بالنسبة لعبد الله بن ياسين ، اذ كان أهلها يعتنقون مذهب الشيعة الاسماعيلية الذى نشره فى المنطقة بعض دعاة الاسماعيلية المعروف بالبجلى الذى تسموا باسمه ، قبل قيام الدولة الفاطمية فى أفريقية (٢٤) . ولا بأس أن يكون ذلك الهدف الدينى من الأسباب الرئيسية لتلك الحملة ، الى جانب الهدف السياسى المعلن فى سجلماصة ، وهو القضاء على حكومة أغمات المغراوية الزناتية التى تمت لبنى وادين أمراء سجلماصة ، بصلة العرق والنسب . وهذا ما كان يحقق للمرابطين أيضا قاعدة للإشراف على مصامدة جبل درن ، وذلك فى الموضع الذى سوف تبنى فيه مدينة مراكش بمعرفة يوسف بن تاشفين ، والتى ستصبح أكبر مدن المغرب الأقصى الذى سيعرف بأسمها أى « البلاد المراكشية » ، اعتبارا من عهد الموحيدين .

والمهم انه كان على المرابطين أن يقضوا على امارة البجليين من الاسماعيلية المتطرفين فى المنطقة وأن يعيدوا اليها السنة المالكية . وفى ذلك تقول رواية ابن أبى زرع : « فقاتلهم الأمير أبو بكر بن عمر ، وعبد الله ابن ياسين ، حتى فتح مدينتهم عنوة ، وقتل بها من الروافض خلق كثير ، وأخذ أموال القتلى فجعلها فيئا للمرابطين ، فكان على الباقين منهم أن يرجعوا

(٢٣) القرطاس ، ص ١٢٨ .

(٢٤) البكرى ، ص ١٦١ - حيث النص على أن الداعية الاسماعيلية محمد بن ورستد ، كان من أهل نقطة من بلاد قسطنطينية ، وأنه دعا بربر المنطقة من بنى لماس الى سب الصحابة رضه ، وأحل لهم المحرمات كالربا الذى زعم انه بيع من البيوع ، كما أضاف الى الأذان بعد شهادة : محمد رسول الله : « أشهد ان محمدا خير البشر ، وبعد : حى على الفلاح : » حى على خير العمل آل محمد خير البرية » . وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث التماس التبسيط فى تحريف رواية البكرى الى عكس مقصدها حيث النص على أن البجلية منسوبون الى عبد الله البجلى الرافضى ، وأنه كان قدم الى السوس أيام قدوم عبد الله الشيعى افريقية . هذا ، ولا بأس أن يكون ذلك قد تم تنمهد على أيدي دعاة الادارسة الزيدية فى فاس ، من حيث انهم كانوا - حسب نفي رواية البكرى يرون أن الامامة فى ولد الحسن لا فى ولد الحسين ، وهو رأى الزيدية (الأدرسية) .

الى السنة (٢٥) ، . والظاهر ان المرابطين نجحوا فعلا فى استئصال البجليين
وذلك أننا لا نجد لهم ذكرا عند صاحب الاستبصار الموحدى فى أواخر
القرن الـ ١٢ هـ / ١٢ م .

وبعد هذا الانجاز الدينى الكبير كان على ابن ياسين أن يسير مرتاح
الضمير نحو أغمات التى كانت أشبه بدويلة صغيرة يحكمها أمير مغراوى
هو لقوط بن يوسف الذى ربما كانت له علاقة مشبوهة بحركة الهرطقة
البرغواطية فى اقليم تامسنا ، من حيث كانت له دولة سابقة فى كل من
سبنة وطنجة قبل الانتقال الى أغمات فى سفح جبال المصامدة (٢٦) .
فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع عندما ينص بعد فرار لقوط بن يوسف
ليلا اثر تضيق الحصار عليه الى تادلا ، التى سار اليها المرابطون وفتحوها
عنوة ، فقتلوا من وجدوا بها من أمراء بنى يفرن ، وقبضوا على لقوط الذى
أمر ابن ياسين بقتله . وبذلك انتهى الأمر بإسلام أغمات بمعنى عودة أهلها
الى السنة (المالكية) ، تماما كما كان الحال بالنسبة لمنطقة تارودانت .
ورغم الاختلاف مع البكرى فى تفاصيل خطوات الفتح المرابطى فى السوس
وأغمات يجعل ابن أبى زرع فتح أغمات فى سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م وهو
تاريخ البكرى (٢٧) .

فتح السوس الأقصى :

ومن الواضح ان فتح سفوح جبال درن (أطلس العليا) الشمالية
والتمركز فى أغمات التى اتخذها أبو بكر وابن ياسين مقرا للمرابطين
كان يعنى التضيق على اقليم وادى السوس الأقصى ، وقطع الطريق بينه

(٢٥) القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث اسم المدينة رودانه وهى تحريف محتمل لتارودانت .
والحقيقة أن اسم تارودانت لا يرد فى رواية البكرى ، الأمر الذى يعنى أن اسم تارودانت
لم يبدأ فى الظهور الا على عهد الموحدين حيث لها ذكر فى رواية الأدريسى ، بينما يصفها
صاحب الاستبصار فى أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م بأنها قرية كبيرة جدا ، فكانها عدة
قرى على طول النهر ، (الاستبصار ص ٢١١ وهـ ٥) .

(٢٦) أنظر ج ٣ ص ٥٠٨ - حيث تغلب الحاحب (لكوت) أو لقوط بدلا مد سكوت ،
حسب تصحيح دسلان فى ترجمة ابن خلدون - الذى يعرف بالبرغواطى على سبته ، ص ٥٠٩
حيث موقع اغمات فى سفوح جبال المصامدة وارتباطها بكل من فاس وسجلماسة وكذلك بمنطقة
السوس الأقصى ، وأهميتها على طرق التجارة ، وأنها مدينتان يفصل بينهما نهر وربة
أو بعض روافده ص ٥١١ - حيث نهاية لقوط على أيدي المرابطين .

(٢٧) القرطاس ، ص ١٢٩ ، (البكرى ، ص ١٦٨) .

حربين أقاليم مغراوة وغمارة وبرغواطة الشمالية ، بمعنى سقوطه الوشيك بأقل الجهد والتكاليف .

وهكذا اتخذ ابن ياسين من أغمات مقرا حيث استراح المرابطون لمدة شهرين (٢٨) ، من أوائل شتاء سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م . وعندما تحسنت الأحوال الجوية بدأ الاعداد لاتمام حملة فتح وادي السوس . وكان من الطبيعي أن يبدأ الغزو بفتح تادلة حيث لجأ لقوط البراغواطي أمير أغمات لدى بني يفرن هناك ، حيث تم القبض عليه وكان مصيره القتل (٢٩) ، وذلك في نفس السنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) حسبما يأخذ به ابن خلدون (٣٠) .

ونرى بعد ذلك ان فتح مدينة نفيس كان مطلباً هاماً بالنسبة لابن ياسين من حيث كونها من أول فتوح عقبة بن نافع في المغرب الأقصى سنة ٦٢ هـ / ٦٨١ م ، فهي جديرة بتجديده اسلامها قبل غيرها من مدن السوس ، طالما كان مسجدها من أوائل مساجد المنطقة . وبعدها تأتي سائر بلاد جدميوة (٣١) ، وفتح مدينة شيشاوة عنوة ، الأمر الذي دعا قبائل المنطقة من رجراجة وحاجة الى الاسراع الى الحضرة (أغمات) لتقديم الطاعة وآيات الخضوع (٣٢) . واذا كانت رواية القرطاس تذكر فتح مدينة ماست التي تحمل اسم رافد السوس قرب المصب على المحيط ، فالمفهوم أن تمام فتح السوس الأقصى لا يتم الا بفتح « قاعدته » ايحلي مركز انتاج السكر الذي تستهلكه « جميع بلاد المغرب » ، وهو الأمر الذي لا يشير اليه البكري ، أيضا (٣٣) . ولا بأس أن يكون ذلك قد تم في مرحلة أخرى عن طريق حملة تكون قد سارت بطريق المحيط الساحلي ، بدأ من الاستيلاء على نول لمطة ، على ٣ (ثلاثة) مراحل من ماست . وذلك أن بعض الروايات تجعل فتح نول لمطة ضمن فتح المرابطين لبلاد السوس .

وهكذا يكون المرابطون قد فتحوا معاقل بلاد السوس كما يقول

(٢٨) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(٢٩) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(٣٠) العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، والترجمة ، ص ٧١ - حيث اسم لقوط في شكل لحوت

(Laghout) بن يوسف بن علي المغراوي .

(٣١) القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث تكرر فتح جبل درن ، وبلاد روده (٢ : روداته

أو تارودنت) .

(٣٢) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(٣٣) البكري ، ص ١٦١ .

ابن أبى زرع ، وأطاعتهم قبائلها جميعا ، من المصامدة وغيرهم وذلك فى سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، بناء على تقرير البكرى (ص ١٦٨) . وبعد الفتح تبدأ مرحلة وضع تراتيب الادارة ونظم الحكم ، من : اخراج الولاة والعمال الى نواحي البلاد المختلفة مع اصدار التعليمات بأن يكون دستور الحكم على المستوى الدينى ، هو : اقامة العدل واطهار الحق ، وعلى المستوى المالى والاقتصادى : الالتزام بجباية الزكاة (ضريبة الأموال والممتلكات) والعشر (ضريبة) ناتج الأرض ، وعلى المستوى السياسى : مما عرفه المتشددون من الفقهاء باسم « المفارم » أو « المظالم » ، على أساس عدم شرعيتها من وجهة نظرهم (٣٤) .

فتح تامسنا : بلاد برغواطة :

تمهيد فى السمات العامة للحركة البرغواطية :

كان استيلاء ابن ياسين على بلاد السوس الأقصى مقدمة طبيعية لتمدد دولة الرباط الصحراوية نحو السواحل الشمالية لبلاد المغرب الأقصى ، فى منطقة تامسنا الممتدة على طول ساحل الاطلنطى ما بين كل من وادى أبو الرقراق (بور جرج) شمالا ، وحتى مصبه فى سلا والرباط (رباط الفتح) ووادى أم الربيع جنوبا وحتى مصبه آزمور . وهذه المنطقة الغنية بمياهها وأوديتها المحيطة تشبه أن تكون منعزلة عن بقية بلاد المغرب ، من حيث هى المغرب الأقصى حقا أى التى ليست مشرقا بالنسبة لغيرها من البلاد ، كما تسكنها قبائل برغواطة المعدودة أصلا من قبائل المصامدة وان هاجت المنطقة بفسيفساء مختلطة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهم (٣٥) .

والمهم أن قبائل برغواطة تمثل اتجاه العزلة التى يوصف بها اقليم تامسنا ، من حيث القول أنهم أندلسيون أصلا ، سكنوا منطقة شريش المواجهة لساحلهم ، حيث منطقة مستنقعات وادى برباط التى كانت موضع أول نزول للفاتحين العرب بالأندلس . وفى ذلك قيل ان اسمهم برغواطة

(٣٤) انظر القرطاس ، ص ١٢٩ ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ .
والترجمة ص ٧١ ، القلائشندى ج ٥ ص ١٨٩ - حيث الأخذ بتواريخ البكرى ، كما فعل ابن أبى زرع وابن خلدون ، رغم الاختلافات فى التفاصيل مما يظهر أصلا فى رواية ابن شداد التى اخذ بها كل من ابن الأثير والنويرى .
(٣٥) انظر ج ٢ ص ٤٣٢ والهوامش .

تحويل لاسم برباطة (مفردھا بالأصل برباطى أى برغواطى) (٣٦) .

وتتمثل مظاهر العزلة فى تامسنا فى تمسك قبائل برغواطية هناك بإعداداتها القديمة وتمسكها بلغتها البربرية الأصيلة ، الأمر الذى أدى الى اعتناقها مذاهب الخوارج الصفرية ، والمشاركة فى ثورة ميسرة المطغرى سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م الأمر الذى انتهى بإقامة إمارة بربرية مستقلة جاهدت فى الاستقلال عن دولة الخلافة فى بغداد ، وعن دول المغرب المستقلة ، سواء فى الأندلس أو المغرب الأقصى .

هكذا كانت دولة برغواطية مرتبطة بدولة مطغرة الغمارية التى قام بها خوارج الريف بقيادة ميسرة الفقير ، واستمر أمراؤها يتسلسلون أبا عن جد فى بلادهم المحتمية بكل من جبل درن وشاطئ المحيط طوال خمسة قرون الى قيام دولة الرباط ، وبعدها دولة التوحيد ، وهى تقاوم معارضة خصومها على كل المستويات من رسمية وشعبية أو دعائية وحربية ، الأمر الذى يعنى نوعا من الصمود الذى يثير فى النفس نوعا من الاستغراب ان لم يكن من الاعجاب .

هذا ، ولم تكتف برغواطية بالقدرة على الدفاع عن كيانها المستقل سياسيا وحضاريا ضد الخصوم فحسب ، بل انها نجحت فى اقامة علاقات ودية أشبه بتلك التى تقوم بين الدول المستقلة فى أيامنا هذه - كذلك الذى حدث بين مملكة برغواطية على أيام السابع من ملوكهم : أبى منصور عيسى بن أبى الانصار ، الذى ولى سنة ٣٤١هـ / ٩٦١م ، عندما راسل الحكم المستنصر الأموى سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م ، فاستقبل رسوله (صاحب الصلاه عندهم) : أبا صالح زمور البرغواطى رسميا فى قرطبة ، استقبال سفير دولة صديقة (ج ٣ ص ٤٣٦) ، فكان مملكة برغواطية فى تامسنا بلغت القمة كدولة مستقلة ذات سيادة فى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) .

ورغم غزو اليفرنيين (الزناتية) لتامستا ، بعد حوالى ٧٠ (سبعين) سنة ، أى فى سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م ، والقول باستيطان بنى يفرن لبلاد تامسنا التى غزوها ، بل والنص على انقطاع أمر برغواطية فلم يبق لضاللتهم

(٣٦) أنظر ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها ، وعن المنطقة أنظر سحر سالم ، قادس ...

فى العصر الاسلامى ، ص ١٧ وما بعدها .

باقية ولا من أوامر كفرهم أصرة (٣٧) .

ماهية هرطقة برغواطية :

وهنا ، لا بأس من محاولة لقاء الضوء على أحوال اقليمي تادلا وتامسنا الحضارية والثقافية بشكل عام ، وأوضاع قبائل برغواطية والقبائل الحليفة لها على المستويين الاجتماعي والثقافي والديني أيضا ، في سبيل الاقتراب من الحقيقة ، اذا كان الوصول اليها من الصعوبة بمكان . فالمعروف ان أهل الجبال مثل سكان البادية والصحراء يصنفون في أول درجات السلم الحضاري مع عامة أهل المطالب الضرورية ممن يوصفون بالجفاء والغلظة ، مثلهم مثل العامة من الكادحين أو أهل الشقاء . وهؤلاء مقلون بطبيعة الحال في أسباب حياتهم اليومية ، من مادية ومعنوية - فمثلما هم قليلوا المال بعامة ، فان بضاعتهم قليلة في مجالات الثقافة والدين ، وكذلك الأمر بالنسبة للأعراف والتقاليد ، مما سبقت الإشارة إليه أعلاه ، ومما وصفتهم به روايات المرابطين أو ما جاء على لسان ابن ياسين أو المرابطين مما يأتي .

وأول ما تتهم به برغواطية ، حسب رواية القرن الـ ٥هـ / ١١م التي يقدمها البكري ، مع روايتي القرن الـ ٤هـ / ١٠م المنسوبتين الى كل من زمور البرغواطى ، وفضل بن مفضل المذحجى (٣٨) ، هي الزندقة المبنية على التنبؤ ، وابتداع قرآن خاص بهم ، يتكون من ٨٠ (ثمانين) سورة ، مقسمة ما بين سور بأسماء الأنبياء ، وأخرى بأسماء الحيوان (٣٩) . اما ما يوجه الى البرغواطية من انحرافات لا تتفق مع أحكام الشريعة ، فمنها ما يتصل

(٣٧) البكري ، ص ١٤١ ، وانظر ج ٢ ص ٤٣٤ ، فقد ظلت الحركة البرغواطية باقية ، الأمر الذي قد يفسره قيام المرابطين بجهود اضافية من أجل القضاء على ذلك الانحراف البرغواطى . وهنا تحسن الإشارة الى ان أقاليم أخرى كانت قد اتهمت بالخروج على الاسلام الصحيح ، سواء في الصحراء ، من : جدالة الى لتونة ، وفي اقاليم المغرب شبه الصحراوية كدرعة وسجلماسة ، بل والأقاليم المغربية أصلا كبعض مواضع من السوس الأقصى ، الأمر الذي تطلب تجديد اسلامها - مما سبقت الإشارة إليه .

(٣٨) البكري ، ص ١٣٧ .

(٣٩) البكري ، ص ١٤٠ - حيث سور الانبياء : ايوب (أولها) ، وفرعون ، ومارون ، وهامان ، وياجوج ، وماجوج ، وهاروت ، وماروت ، وآخرها : سورة يونس . ومن سور الحيوان : العجل ، والديك ، والجمل ، والجراد ، والحمل ، وآخرها سورة الحنش : يضاف الى ذلك سورة غرائب الدنيا . وقارن روض القرطاس ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

بالعقائد والعبادات ومنها ما يتصل بالمعاملات الى جانب ما كانوا يتمسكون من عادات وأعراف قديمة مما يتصل بالأخلاق والجنايات والعقوبات .

فى العقيدة : ما بين التشدد الخارجى والتساهل الشيعى :

فيما يتعلق بالعقيدة الاسلامية ، ورغم ما تقوله الرواية من ان البرغواطيين اتخذوا قرآنا خاصا بهم ، وأنهم حرقوا شعائر الاسلام ، وخاصة فيما يتعلق بالصلاة والصوم والزكاة ، فانه يمكن أن يستشف من التفاصيل المتعلقة بذلك ، ان المذهب البرغواطى - اذا صحت التسمية - هو مذهب اسلامى أصيل ، وانه اذا كانت قد شابت بعض الشوائب ، فتكون من حيث الميل الى التشدد الخارجى والغلو من ناحية أو التساهل الشيعى من ناحية اخرى .

فأمير برغواطية الاول صالح بن طريف كان مشتركا بصحبة والده فى ثورة ميسرة المطغرى ، فيكون المذهب فى أصوله صفريا (خارجيا) ، ويكون البرغواطيون من أهل القيام والصيام ، رهبان الليل وفرسان النهار ، الأمر الذى يفسر ميلهم الى التشدد فى العبادات ، بدءا من الوضوء حيث المبالغة فى التطهر - الى جانب اشارة تساهل فى الجنابة المعتادة عند صاحب القرطاس (٤٠) .

وفى الصلاة يظهر التشدد فى جعلها ١٠ (عشر) صلاوات : خمسة بالنهار ، وخمسة بالليل (٤١) ، الى جانب أشياء أخرى فى الصلاة يمكن اعتبارها نوعا من التيسير ، مثل : قصر الصلاة (٤٢) ، الى جانب أقوال

(٤٠) البكرى ، ص ١٣٩ - حيث النص على غسل السرة فى الوضوء ، والخاصرتين ، والذراعين بدءا من الكتفين ، والرجلين بدءا من الركبتين . وهنا اذا كان التشدد يضيفه الاستنجاء الى كل ذلك ، فان اشارة التساهل فى التطهر من الجنابة الا من الحرام ، التى يضيفها ابن أبى ذرع الى رواية البكرى لا تتفق مع هذا السياق ، ونرى أنها موضوعة ، وخاصة أنه اهتم بجمع أخبار برغواطية فى كتابه الذى سماه « أزهار البستان فى أخبار الزمان » وذكر الموجود مما وقع فى الوجود ، الذى ربما انصب على غرائب الموضوع وعجائبه - القرطاس ، ص ١٣١ .

(٤١) البكرى ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، الأمر الذى يذكر بما فرضه عبد الله بن ياسين على أهل الرباط ومن لاذ بهم ، من أداء كل صلاة مرتين ، فردا ثم جماعة ، دروا لما يكون قد حدث من التفريط من قبل ، ص ١٩١ .

(٤٢) أو كاداه بعض الصلاة ايماء ، أو رفع الجباه عن الأرض بمقدار نصف شبر خشية =

أخرى مثل صلاة الجمعة في يوم الخميس ضحاً (٤٣) . أما ما يقال عن صوم رجب بدلا من رمضان فالظن انه تحريف يقصد به التشويه من قبل بعض الخصوم (٤٤) .

أما عن توحيد الزكاة وضريبة الأرض (الحراج) وجعل كل منهما العشر (٤٥) ، فهو يعنى أيضا نوعا من التشدد الذى كان يقوم به المرابطون عند خروجهم لفتح الصحراء أو بعض أقاليم المغرب ، حيث جعلوا الزكاة عشرا ، أو عندما فرضوا زكاة الثلث على أموال القبائل من الماشية حتى يزكو لأصحابها الثلثان (ما سبق ، ص ٢٠٣) .

وفيما يقال من أن البرغواطيين جعلوا عيد الأضحى فى اليوم الـ ١١ من المحرم بدلا من الـ ١٠ من ذى الحجة (البكرى ، ص ١٣٩) ، فهى مقالة لا تعبر إلا عن توجه شيعى بين قبائل تامة لنا كذلك الذى رأيناه فى تارودانت بالسوس الأقصى ، وذلك ضمن علامات شيعية أخرى ، مثل القول بأن أول ملوكهم صالح بن طريف زعم أنه « المهدي الأكبر » الذى يظهر آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما (٤٦) . ومثل استخدام الرقم ٧ (سبعة) الذى له قيمة رمزية خفية عند الشيعة الاسماعيلية ، مثل القول بأن صالح يرجع على عهد السابع من ملوكهم (البكرى ، ص ١٣٥) وأن يونس بن الياس قتل فى سوق المدينة ٧٧٧٠ رجلا (البكرى ، ص ١٣٥) .

وفى المعاملات من زواج وطلاق وبيع وشراء وغيرها ، ينسب الى آل صالح التمسك ببعض العادات القديمة كتلك التى عرفها عبد الله

= احتكاك الجباه بالأرض أو باقدام المصلين فى الصف المتقدم ، أو السجود ثلاثا ، انظر البكرى ، ص ١٣٩ . وقارن القرطاس ، ص ١٣١ - حيث شرح الصلاة ايماء بلا سجود حيث يكون السجود فى آخر ركعة ٥ سجودات .

(٤٣) البكرى ، ص ١٣٩ ، مما لا نعرف له تبريرا الا اذا كان من تركات الشيعة الذين لا يرون بأسا فى ترك صلاة الجمعة انتظارا لرجعة الامام - الأمر الذى قد يقبله بعض الخوارج .
(٤٤) البكرى ، ص ١٣٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٠ - حيث المقبول أن يكون هناك اهتمام بالصوم فى رجب كما شعبان قبل رمضان - ويؤيد ذلك ما تقوله رواية البكرى من اهتمامهم بصوم يوم اسبوعيا ، والاهتمام بصوم يوم الجمعة على وجه الخصوص - وكل ذلك زيادة فى أداء فرائض العبادة .

(٤٥) البكرى ، ص ١٣١ - حيث النص على الأمر باخراج العشر من جمع الثمار .

(٤٦) البكرى ، ص ١٣٥ .

ابن ياسين في مجتمعات الصحراء (ما سبق ، ص ١٧٧) ، حيث الزواج بالنسبة للسادة ، حسب الاستطاعة ، والطلاق والمراجعة حسب المشيئة ، مع وضع بعض الضوابط ، مثل عدم الزواج من بنت العم الى ٣ (ثلاثة) حدود ، الى جانب عدم الترسى مما يعادل بطلان زواج المتعة (٤٧) .

وفي شئون الطعام والمطبخ يظهر عندهم بعض التشدد في عدد من المحرمات ، مثل : عدم أكل رأس الحيوان ، وعدم أكل لحم الحوت (السماك) الا أن يزكى (اى يذبح حيا) ، وعدم أكل البيض ، وكراهية أكل الدجاج مع تحريم أكل انديكة ، على أساس أنها تذكر الناس بأوقات الصلاة ، الأمر الذى أعطاها تلك الحصانة او ذلك التبجيل (٤٨) .

اما في الجرائم والعقوبات فلا بأس أن كان لقبائل برغواطة الجبلية مثل قبائل الصحراء ، قوانينهم العرفية التى تتسم بالشدة من أجل انضباط أفراد المجتمع ، والصرامة . فالسرقة عقوبتها الاعدام ، سواء ثبتت بالاقرار أم اتضح بالبينة . وعقوبة الزنا هى الموت أيضا ، وإن كان رجما بالحجارة فى جميع الحالات . هذا ، ولو أنه عرفت الدية ثمنا لحياة الجاني - مع اصلاح الضرر اذا أمكن ، على ما نظن - وتقدر تلك الغرامة الباهظة بـ ١٠٠ (مائة) من البقر . ومن الطريف هنا أيضا ، أنه كان للكذب عقوبته الرادعة فى تامسنا هو الآخر ، حيث كان الكاذب يسمى « المغير » (للحقيقة) ، وعقوبته النفى من البلاد (٤٩) .

والذى يفهم من هذا العرض لأحوال قبائل برغواطة فى تامسنا أنه كان لتلك القبائل عاداتها القديمة التى ظلت محتفظة بها بعد الدخول فى الاسلام ، وهو الأمر الواقع بالنسبة للتجمعات البشرية ، وخاصة فى البيئات الانعزالية ، مثل تامسنا . كما كان لتلك القبائل مفهومها الخاص

(٤٧) البكرى ، ص ١٣٩ - وفى ذلك يقال ان ابا عفير يحمى (ت سنة ٢٠٠ هـ / ٩١٢ م) الرابع فى قائمة البكرى ، ص ١٣٧ ، وكان له ٤٤ (اربع واربعون) زوجة ، وإن كانت بقية الرواية التى تنص على انهن أنجبن له ٤٤ ولدا (نفس الرقم) تشكك فى صحة الخبر جميعا ، فكانه لون من ادب الطرائف او الغرائب .

(٤٨) البكرى ، ص ١٣٩ - ١٤٠ - حيث اضافة التبرك بها الى درجة الاستشفاء « ببصاقها » مما يمكن حسبانها فى ادب الغرائب .

(٤٩) البكرى ، ص ١٣٩ - وعن القانون العرفى عند قبائل الصحراء ، انظر ما سبق ،

تشريعة الاسلام وسننه التي تميل الى التشدد منذ البداية بفضل حركات
الحوارج ، وجهود الردع التي قامت بها الدويلات الموالية لدول المشرق
أو المغرب والأندلس من سنية أو شيعية .

برغواطة وترجمة القرآن وشرحه :

لأول مرة باللغة البربرية :

والتهمة الكبرى التي تلصق ببرغواطة وهي الزندقة ، عن طريق
اتخاذ قرآن جديد ، الأمر الذي يتضمن ادعاء النبوة ، هي تعبير حسبما
نرى ، عن اتجاهات دينية سياسية هدفها الاستقلال عن طريق تكوين كيان
خاص ، يبنى على التوافق بين روح الاسلام التي تتواءم مع الظروف البيئية
بمعناها الاجتماعي والثقافي . وأول أسباب المواءمة تتمثل في فهم قواعد
الاسلام الأساسية ، في نصوصها القرآنية وشروحها في السنن النبوية .
وهكذا نرى ان ما تسميه الروايات المناهضة لآل صالح « بزندقة » برغواطة ،
ليس في حقيقة الأمر سوى ترجمة للقرآن الكريم ومحاولة لتفسيره باللغة
البربرية ، لغة قبائل جبال المغرب الأقصى الشمالية الغربية . ورغم ان
المحاولة كانت لها أسبابها العملية أو الواقعية بالنسبة لجمهرة المغاربة من
البربر ، الا أن الوقت لم يكن مناسباً لتنفيذها في تلك الفترة المبكرة من
تاريخ دولة الاسلام الفتية ، حيث كانت « العروبة » تكاد تعاد « الاسلام »
من حيث أن انتشار الاسلام كان العامل الحاسم في انتشار اللغة العربية ،
قبل أن يسير الاثنان جنباً الى جنب يدفع كل منهما الآخر ويقوى انتشاره .
والحقيقة ان التعريب كما يرى بعض الباحثين ، كان معجزة الاسلام في ذلك
الزمان - من حيث أنه العملية التي لا يدانيها في تاريخ العالم الا ما يقوم
به الأنجلوسكسون في أيامنا المعاصرة ، من نشر لغتهم الانجليزية دولياً
(٤٩م) وهي العملية المستمرة حتى الآن .

ويتأكد سبق برغواطة في ترجمة القرآن الى اللغة البربرية من
النصوص الخاصة بتطبيق الشريعة الاسلامية في تامسنا على أيام البكري ،
في النصف الثاني من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م . ويتأكد من حسن النية في
سلامة تلك العملية التي كان يصعب قبولها وقتئذ ، مما يقال في وصف
قبائل برغواطة ، ومن صفات ملوكها من آل صالح بن طريف . فبرغواطة

هم أجمل الناس رجالا ونساء ، وأشدّهم أبدا (٥٠) .

وأما عن آل صالح فأول ملوكهم وهو صالح بن طريف يعتبر - رغم
 ما ينسب إليه من النبوء من أهل العلم والخير . والثاني : إلياس ، فقد
 كان - رغم ما يسر به ، تقيا - طاهرا ، عفيفا ، زاهدا . ويونس (الثالث)
 كان - رغم عنفه مع رعيته - ورعا ، قام بأداء فريضة الحج دون سائر أمراء
 الأسرة . أما أبو الأنصار عبد الله (الخامس) فقد عرف بأنه سخي ، طريف ،
 يفي بالعهد ، ويحفظ الجار ، ويكافئ على الهدية (٥١) ، الأمر الذي يعنى أن
 أسرة ملوك بني صالح ، الذين كانوا ما بين عالم ، وعفيف ، وزاهد ، وحاج
 ورع ، ليسوا إلا من أهل السيرة الطيبة والأخلاق الحميدة . وإن هذا يعنى
 أنهم مؤمنون مخلصون ، يتمسكون بأصول الشريعة - وما تقضى به قواعد
 الدين . أما ما ينسب إليه من اختراع قرآن بلغتهم ، فهو لا يكون فى
 الحقيقة إلا ترجمة للقرآن ، ربما كانت بتصرف فى بعض المواضع أو تفسيرا
 لما يحتاجه النص من بيان وشرح . فهذا ما يتضح مما كانوا يقرأونه فى
 صلواتهم : فكلمة « ياكش » حلت محل اسم « الله » ، تماما كما حلت عند
 الترك فى المشرق كلمة « تنجى » محل كلمة « الله » (٥٢) . وهكذا كان
 افتتاح الصلاة (الاحرام) يبدأ بقول « ابسمن ياكش » ، مقر ياكوش ،
 تفسيره : « بسم الله ، الكبير الله » (بسم الله ، الله أكبر) ، وفى النهاية ،
 يقولون فى التسليم بالبربرية : « الله فوقنا » ، لم يغب عنه شئ فى الأرض
 ولا فى السماء (سبحانه ربى الأعلى ، له ما فى السماوات وما فى الأرض) ،
 ثم يقول : « ايحن ياكش » ومعناه : « الواحد الله » (قل هو الله أحد)
 ٢٥ (خمسا وعشرين) مرة ، و«وردام ياكش » ومعناه : « لا أحد مثل الله »
 (ليس كمثله شئ) ، مثلها (٥٣) .

وبناء على ذلك نرى أن ما يقال عن زندقة برغواطة ليس إلا مجرد
 معارضة لمحاولة استقلالهم السياسى ، الذى حاولوا أن يدعموه ثقافيا عن
 طريق الدين ، وذلك بترجمة القرآن الى لغتهم حتى يتمكنوا من الاستغناء

(٥٠) البكرى ، ص ١٤٠ - حيث النص على أن الجارية البكر منهن كانت تثب ٣ (ثلاث)
 سحر مصطفة ولا يمس ثوبها شيئا من الحر - وإن كانت الثيب لا تقدر على ذلك .

(٥١) البكرى ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ .

(٥٢) أنظر للمؤلف ، الترك والمجتمعات ، التركية ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ،

سنة ١٩٥٦ ، المجلد العاشر ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٥٣) البكرى ، ص ١٣٩ .

(الاستقلال) عن غيرهم في تعلمهم لقواعد دينهم . وتلك كانت مسألة طموحة ، سابقة لأوانها ، بكل مقاييس ذلك العصر . ولا شك أن إقامة علاقات جيدة بين ملك برغواطة في منتصف القرن الـ ٤هـ / ١٠م ، كان يعنى تدعيم الدولة الأموية الأندلسية ، بما لها من سلطان وجاه في المغرب ، لدولة برغواطة التامسنية ، والاعتراف بشرعيتها الإسلامية . وبناء على هذه المقدمات يكون الغزو المرابطى لتامسنا وقبائل برغواطة باسم تجديد الاسلام هناك ليس الا محاولة جديدة ذات أهداف سياسية ، تماما كما سيكون الحال بعد ذلك ، على عهد الموحدين .

ضم تامسنا للدولة الرباط :

وهكذا تقدم المرابطون وعلى رأسهم ابن ياسين لغزو تامسنا ، واسقاط حكومتها البرغواطية (المغراوية) ، وهم يرفعون شعارات تجديد الاسلام ، تماما كما فعلوا في الصحراء ، وبما تم غزوه من بلاد المغرب . ولنا فيما يقرره البكرى في نهاية تعريفه بأحوال تامسنا على أيامه ، سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، من أن « جميع بلاد برغواطة اليوم على ملّة الاسلام » (٥٤) ، سند لمقالنا هذا .

والمعلومات عن فتح المرابطين لتامسنا ، بلاد قبائل برغواطة وحلفائها قليلة ، ومضطربة بما يتناسب والمعلومات المختلطة عن تنبؤ ملوكهم ، وزندقة اعتقادهم . والبكرى يركز اهتمامه هناك على استشهاد ابن ياسين الذى أصبح ضريحه مزارا مبعجلا ، يؤمه الناس للتبرك وقضاء الحاجات . وابن الأثير الذى يعتمد على رواية ابن شداد الزيرى الصنهاجى ، يخلط ما بين فتح تامسنا وفتح السوس ، حيث يرى هزيمة المرابطين وقتل ابن ياسين . والنويرى يتبع ابن الأثير في مساره هذا مع اختلافات جزئية في التفاصيل . رغم وحدة المصدر . أما ابن أبى زرع الذى يأخذ برواية البكرى عن المرابطين وعن هرطقة (زندقة) برغواطة ، فإنه يحاول عرض معلومات البكرى المتفرقة بطريقة « مبرمجة » (منظمة) مع إضافة بعض الشروح من لدنه ، أو محاولة كشف ما قد يكتنف بعضها من غموض . وعن هذا الطريق يقدم ابن أبى زرع رواية بعض التفاصيل منذ تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين ، بالوقت (الساعة) واليوم والشهر والسنة ، ويتكلم

عن معارك ضارية ، ولكن دون تحديد مواضعها ، الأمر الذي يشكك في أصل الرواية . وعلى نسق ابن أبي زرع توجد بعض التفصيلات عند ابن خلدون ولكنها معروضة بشكل منهجي ، وان كانت غير متكاملة ، على كل حال .

• معالم حرب تامسنا :

وباستعراض تلك الروايات يمكن تحديد بعض معالم حرب تامسنا المرابطية ، التي تبدأ من أغمات ، قاعدة حملة السوس ، بفضل موقعها الاستراتيجي ، فيما بين السوس وتادلا ، على طول الطريق المؤدى غربا نحو المحيط حيث رباط قوز العامر بالصالحين ، والذي يعتبر ساحل أغمات . وإلى الشمال من ذلك ساحل تادلا حيث مرسى أسفى ، والرأس البيضاء التي تعتبر ساحل تادلا . وإلى الشمال من ذلك فيما بين آزمو ، على مصب أم الربيع والرباط على مصب بور جرج (أبو الرقراق) يمتد ساحل « تامسنى » ، حيث جزيرة فضالة ، ساحل برغواطة . ومن الواضح أن بلاد برغواطة ، سواء في الداخل أو على الساحل ، ليس بها مراكز عمرانية كبيرة ، إنما هي قرى جبلية متناثرة في سفوح الجبال الوعرة ، مما يعنى حصانتها (وصعوبة اجتياحها) .

وهنا يمكن أن تقسم الحرب المرابطية في تامسنا والتي امتدت حوالى ٣ (ثلاث) سنوات ، الى مرحلتين يفصل بينهما مقتل عبد الله بن ياسين . ولا بأس أن تكون المرحلة الأولى أقصر من الثانية بعض الشيء ، حيث كانت وفاة ابن ياسين في جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ / يونيه ١٠٥٩ م . أما المرحلة الثانية فتنتهى قبل صفر ٤٥٢ هـ / مارس ١٠٦٠ م بالعودة الى أغمات ، حسب رواية القرطاس (٥٥) ، أو في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م - وهو التاريخ الذى يحدده ابن الأثير خطأ لفتح سجلماسة (٥٦) .

والحقيقة أن رواية ابن الأثير هنا ، لا تخلط بين فتح تامسنا وفتح سجلماسة فقط ، بل وبين بلاد السوس بشكل عام أيضا ، فكأن شمال المغرب الأقصى (بلاد جبال درن) يمثل وحدة اقليمية واحدة ، أو بالأحرى وحدة سياسية اقتصادية ، حيث كانت السيادة للزناتية من يفرنية وغيرهم

(٥٥) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٣ .

(٥٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٢٨١ - حيث عدم

وجود التاريخ ونهج الاشتراك في نفس المصدر .

وتمتد المنطقة اعتبارا من وادى درعة وسجلماصة فى الأقاليم شبه الصحراوية حتى الأقاليم الجبلية الحصابة فى السوس وتادلا ، وكذلك برغواطية (تامسنا) حيث الأسرة الجديدة من اليفرنيين كانت قد بدأت فى حكمها منذ حوالى ٧٠ (سبعين) سنة ، حيا غزاهم الأمير تميم اليفرينى بعد سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٦م - أى قبل ثلاثين سنة من الفتح المرابطى للسوس وتامسنا (٥٧) .

وهكذا ، وفى الإطار الدينى الاقتصادى سارت حرب « المطاولة » ، التى تفرق بين عهدين حسب اصطلاح ابن خلدون ، بين الدولة المرابطية الناشئة ودولة زناتة الغاربة ، صاحبة السيادة على المغرب الأقصى ، يوضع فتح تامسنا فى إطار هجرة أهل الصحراء من بلادهم عندما قحطت بلادهم ، وضاعت بهم فى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م (٥٨) . وينفرد ابن أبى زرع بالحديث عن تقدم ابن ياسين ورجاله تسبقهم دعاية واسعة عن هدفهم النبيل ، من القضاء على هرطقة برغواطية الجاهلية ، وتجديد الاسلام فى تلك البلاد ، ووجوب تقديم جهادهم على غيرهم (٥٩) .

موقعة كريفلة ومقتل عبد الله بن ياسين :

ويتم اللقاء الرائع بين ملك تامسنا اليفرنى يومئذ ، وبين ابن ياسين ، فى ملاحم شديدة هلك فيها الكثير من الجانبين (٦٠) . وكان أشهر أيامها تلك الواقعة التى حدثت فى موضع يعرف بـ « كريفلة » ، فى منطقة الرباط.

(٥٧) البكرى ، ص ١٤١ - حيث النص على أنه لم تزل برغواطية فى بلادها معلنة بدينها ، وبنو صالح بن طريف ملوكها الى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرنى ، وذلك بعد ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م (عشرين وأربعمائة) من الهجرة ، فغلبهم على بلادهم ، وسباهم ، وجلا من بقى منهم ، واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم ، وعفا آثارهم ، ولم يبق لضلالتهم باقية ، ولا من أوامر كفرهم أسرة ، هذا مع النص على جد وعدالة الأمير تميم الذى لم يتردد فى « قتل أحد بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادى « سلا » ، وكذلك على أن « جميع بلاد برغواطية اليوم (سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) على ملة الاسلام » . وانظر ما سبق ، ص ٢٢٦) .

(٥٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١ - ٦٢٠ - حيث خرجوا طلبا للزكاة ، كما حدث فى سجلماصة لأول مرة سنة ٤٤٧ هـ ، (القرطاس ، ١٢٧ ، ١٢٨) .

(٥٩) القرطاس ، ص ١٣١ - حيث النص على أن رواية المؤلف (ابن أبى زرع نفسه) تبدأ من الفقرة الأخيرة الخاصة بتقديم جهادهم على جهاد غيرهم .

(٦٠) أنظر القرطاس ، ص ١٣٢ - حيث الأمير على برغواطية وقتله هو : أبو حفص

عبد الله بن أبى هيب محمد بن مقلد ابن اليسع بن صالح بن طريف ، البرغواطى المتنبي ، فكان أبا حفص هذا من نفس أسرة المؤسسين المتهمين بالمتنبي ، وهو الأمر غير الصحيح كما

سبقته الإشارة .

(العاصمة) ، فى نهار الأحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ / ٩ يولية ١٠٥٩ م ، حيث قتل عبد الله بن ياسين ، الذى أصبح قبره مزارا يحج اليه كثير من أهل المغرب (٦١) . ومن المهم هنا ، الاشارة الى مقتل عبد الله ابن ياسين فى حيز الرباط (العاصمة المغربية) يعنى أن ابن ياسين كان قد اجتاح معأم مملكة برغواطة من تخوم تادلا الى نهاية تامسنا ، أى من وادى أم الربيع جيوبا الى وادى بور جورج شمالا ، فكأنه لم يعد هناك حائل بين المرابطين وبين الأندلس ، أرض الجهاد حقا وموطن الرباط .

وصية عبد الله بن ياسين واتخاذ منظر بديل :

وتأخذ نهاية عبد الله بن ياسين فى رواية القرطاس شكلا قصصيا مؤثرا ، يعبر عن دقة أوضاع عصره على أواخر أيام الموحدين . فأبن ياسين هو مهدى المرابطين ، فكأنه النموذج الذى اقتدى به ابن تومرت فيما بعد . وهو لا يموت فى التو واللحظة فى ميدان المعركة ، بل يدرك وفيه رفق ، فلا يغادر الدنيا قبل أن يترك وصيته فى جماعة المرابطين ، مننه مثل عظام الرجال من القادة والآباء . وبصرف النظر عن صحة تلك الوصية أم وضعها فمن الواضح أنها تعبر عن آمال الحركة المرابطية فى أوائل عهدها وطموحاتها الدينية والسياسية ، فهى بمثابة دستوره أو برنامجه التأسيسى . فهو يحرض المرابطين على الوحدة فيما بينهم فى أرض الأعداء ، ويدعوهم الى التمسك بمبادئ أهل الحق ، والتحذير من المخالفة ، أو التحاسد فى سبيل الزعامة وأخيرا يدعو ابن ياسين الى انتخاب رئيس بدلا عنه يقوم بالأمر ويقود الجيش ويجمع الأموال ، ويقسم الفىء (٦٢) . وهذا ما يقرر حدوثه ابن خلدون - دون غيره - اذ ينص على ان جماعة المرابطين اختاروا بعد ابن ياسين أحد فقهاءهم ، وهو سليمان بن عدوا ، ليرجعوا اليه فى قضايا دينهم ، وأنه هلك فى السنة التالية ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م (٦٣) ، فكأنها دعوة الى

(٦١) أنظر البكرى ، ص ١٦٨ - حيث يوجد على قبره مشهد مقصود ، ورابطة معمورة .
وقارن ابن أبى زرع ، ص ١٣٢ - حيث التحديد الدقيق لمقتل ابن ياسين ، وهـ ٧٩ - حيث النص على انه ما زال ضريح عبد الله بن ياسين معروفا ، مزارا بكريفة ، من أرض قبيلة زعير بحوز الرباط . وقارن ترتيب المدارك للقاضى عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٢ - حيث استشهد فى تامسنا سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

(٦٢) أنظر القرطاس ، ص ١٣٢ .

(٦٣) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث الاسم سليمان بن حرو ، وابن عروا ، والتصحيح من الترجمة ج ١ ص ٧١ ، وان وفاته فى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م التى عدلناها الى سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠ م فى السنة التالية على وفاة ابن ياسين .

التمسك بالقيادة الثنائية من الفقيه المشرع ، والأمير المنفذ ، بمعنى عدم انفراد أبي بكر بن عمر بالسلطة ، الأمر الذي يشكك في صحة الوصية . وقد تكون قرينة ذلك ، ما تنص عليه الرواية بعد ذلك من أن جماعة المرابطين اختارت الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني قائدا للجيش ، مع التركيز على أهليته وشرف محتدة ونبله من جهتي الأب والأم جميعا (٦٤) .

الثار لمقتل الفقيه وكسر آخر معاقل المقاومة البرغواطية :

ويفهم من رواية ابن الأثير أن المرحلة الثانية من حرب برغواطة بدأت فعلا بانفراد أبي بكر بالقيادة ونجاحه في لم شمل المنهزمين في كريفلة من الرجال ، وأنه خرج على رأس ٢٠٠٠ (ألفى) فارس (راكب) منهم ، يواجه جحافل الخصوم الذين بلغ عددهم ١٢٠٠٠ (اثني عشر ألف) فارس من برغواطة ومن زناتة . وبفضل الثبات والصبر هذه المرة ، انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وغنمت أموالهم التي قسمت بين المرابطين . وانتهت المعركة الفاصلة بقتل ملك برغواطة ودخول المرابطين مدينته ، وذلك في (أوائل) سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م (٦٥) .

وهنا تقول الرواية ان المرابطين كانوا قد طلبوا من برغواطة التنحي لهم عن الطريق الى الأندلس ، فكأن تامسنا كانت محطة أخيرة في طريق المرابطين الى الجهاد في الأندلس ، منذ ذلك الوقت المبكر . وهذا يعني إخضاع برغواطة والقضاء على ما كان لديهم من الميول الانفصالية . وهو ما يعبر عنه بتفرقهم في الصحراء واذعانهم لدولة الأمير أبي بكر بن عمر ، وأنهم أسلموا اسلاما جديدا (٦٦) .

(٦٤) القرطاس ، ص ١٣٢ وكذلك ص ١٣٣ - حيث النص على أن أبا بكر من جماعة بني رومانطق النبيلة ، وأن أمه حرة جدالية اسمها صفية ، وأن أول أعماله بعد أن آلت إليه السلطة هو دفن عبد الله بن ياسين .

(٦٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ - حيث اعتبار تامسنا من بلاد السوس وزناته - مما سبق الإشارة إليه - وفارن النويري ، أبو ضيف ٢٨١ ، حسين نصار ج ٢٤ ص ٢٦٠ ، والقرطاس ، ص ١٣٣ . حيث يفهم ان العمليات العسكرية كانت قد انتهت قبل دخول سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م التي كانت فيها العودة الى أغمات ، وهو ما لا يتفق مع طبيعة الاحوال ، الأمر الذي يرجع توقيت ابن الأثير الذي أخذنا به .

(٦٦) القرطاس ، ١٣٣ - حيث النص أيضا على أنه لم يبق أثر لديانتهم الى اليوم ، وأن لنا نكر جمع أموالهم وغنائمهم وقسمها بين المرابطين .

والحقيقة أنه اذا كانت الروايات تتحدث عن القضاء تماما على اتجاهات برغواطة الانفصالية في آنفا وتامسنا والساحل الغربي (٦٧) ، وان المرابطين بدأوا يطالبون بفتح الطريق أمامهم الى الأندلس ، فان الوقت ما زال مبكرا للتفكير في مثل هذا التمدد ، بعيدا فيما وراء الزقاق ، وذلك ان سواحل المغرب الأقصى في السوس الأدنى (وادي سبو ومنطقة فاس) ، وفي ممرات تازا الى جانب بلاد الريف وسواحل المغرب الأوسط في وهران وتلمسان - فضلا عن سبتة وطنجة ، قمة بر العدو في مواجهة جبل طارق والجزيرة الخضراء - كانت بعد بعيدا عن قواعد المرابطين .

وهكذا كان على أبي بكر بن عمر العودة بجيوشه المرابطية في مطلع سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١م الى مدينة أغمات التي أصبحت منذ سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م مركز القيادة للمتونة ، بمعنى العاصمة الجديدة للدولة المرابطية بفضل موقعها المتوسط في منطقة جبال أطلس الغربية الحصينة ، وأرضها المعتدلة في السفوح التي تتحكم في منافذ ممرات تلك الجبال ، وبالتالي في تحركات سكانها من قبائل مصمودة . وهكذا ، فابتداء من هذا الوقت بدأت قبائل المصامدة تنضم الى الجيوش المرابطية ، لاختضاع بغية من لم يكن قد دخل في الدعوة من أهل المنطقة ، وما يليها . ومنذ هذا الوقت دخلت في خدمة القوات المرابطية التي كان يقودها أبو بكر بن عمر جماعات عرقية مختلفة من صنهاجة ، وجزولة أهل الصحراء ، ومن قبائل المصامدة (٦٨) سكان جبال درن ، عصبية الدولة الموحدية فيما بعد ، الأمر الذي يعنى أن صنهاجة بقيادة لمتونة هي صاحبة الدولة ، وان جزولة أصبحت قبيلة حليفة ، مثلها مثل مصمودة .

واذا كان غزو السوس الأقصى قد أدى الى دخول المصامدة في الجيوش المرابطية ، فان غزو أقاليم أغمات وتادلا وأنفا وتامسنا كان يسمح هو لآخر بدخول جماعات من الزناتية في خدمة القوات المرابطية ، ليس من بين سادة المغرب القدامى من زناتية بنى خزر ، وأبناء موسى بن الى العافية فقط ، بل ومن المنهزمين فلي سبلماسة وتامسنا من زناتية مغراوة وبنى يفرن .

(٦٧) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، الترجمة ج ١ ص ٧١ .

(٦٨) القرطاس ، ص ١٣٤ .

الفصل الخامس

دولة يوسف بن تاشفين

يوسف بن تاشفين واستكمال فتوح المغرب الشمالية :

والحقيقة ان فتح الأقاليم المغربية الشمالية ، من السوس الأدنى ، أى أقاليم فاس ومكناس وما والاها من بلاد الريف ، وسواحل المغرب الأوسط الغربية ، وهى أقاليم دولة زناتة حقا ، توجه الى يوسف بن تاشفين الذى رأيناه عابرا لمنطقة تارودانت نحو أغمات ، فى بداية فتح السوس الأقصى - دون أن نسمع له ذكرا بعد ذلك ، الأمر الذى يبرر سكوت البكرى، المعاصر وصاحب أهم وثيقة تاريخية عن تلك الفترة المبكرة من قيام الدولة المرابطية . هكذا ملأ عبد الله بن ياسين وخاصة فاجعة استشهاده ، مسرح الأحداث فى جبهة تامسنا ، ومن بعده أبو بكر بن عمر ، بينما كان يوسف بن تاشفين من أبناء عم أبى بكر الأقربين يتم فى صمت فتوح المغرب الشمالية ، وينتزع الأقاليم واحدا بعد آخر - دون اعلان - من بين أيدي الزناتية ليكمل الشكل الإمبراطورى لجيوش الدولة المرابطية بانخراط العسكر الزناتى فى صفوفها .

وهكذا بينما كان أبو بكر بن عمر ، على رأس قواته المشكلة من صنهاجة وجزولة ومصمودة يثار لمقتل عبد الله بن يوسف ، سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م ، ويقضى على جيوب المقاومة فى تامسنا غير بعيد من الرباط (العاصمة المغربية) وسلا ، على الساحل الغربى ، كان يوسف بن تاشفين على رأس قوته الصنهاجية أو المرابطية بمعنى اللاتونية ، يفتح باسم الأمير أبى بكر بن عمر تخوم بلاد زناتة فى السوس الأدنى ، من بلاد فازاز وجبالها وتوابع بلاد مكناسة ، أو بلاد لواتة - أشد قبائل زناتة بدواة وأقواها بالتالسى شكيمة - بمعنى اجتياح يوسف بن تاشفين بلاد البدو « الشاوية » (رعاة الشاة) المتاخمة للمغرب الأقصى ، على سفوح جبال درن (أطلس) الصحراوية . فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع التى تنص على اجتياح بلاد لواتة ، واقتحام عاصمتها - التى لا نعرف لها اسما مميزا - بعد حصار خائق ، انتهى باستئصال شأفة كثير من أهلها ، من اليفرنين بعد السيف ، فى آخر ربيع الثانى ٤٥٢هـ / ٢ يونيو ١٠٦٠م ، فلم تقم لها

قائمة حتى أيام ابن أبي زرع فى مطلع القرن الثامن الهجرى (١٤م) ، على عهد المرينيين (٦٩) .

وهنا لا بأس من الإشارة الى أن فتوح أقاليم السوس الأدنى ، شمال وشمال شرق السوس الأقصى ليست واضحة عند الكتاب ، لا على المستوى الجغرافى الذى تختلط فيه المسميات ما بين سجلماسة والسوس وأغمات ، ولا على المستوى التاريخى (الحولى) للأحداث ، حيث كانت الدولة المغربية وقتئذ زناتية بأسرها الحاكمة المختلفة ، من : الحزريين الى المغراويين وبنى يفرن ، الأمر الذى يمكن أن يفسر الخلط المشار اليه على مستوييه المكانى والزمانى . والى جانب هذا يمكن أن يفسر ما ينتاب أحداث تلك الفترة من الغموض على الجانب المراتبى ، من تزامن ظهور شخصية يوسف بن تاشفين بكل رموزها السياسية والدينية مع شخصية أبى بكر بن عمر رجل الدولة القوى ، الأمر الذى كاد يحول النظام المراتبى النوى الى نوع من نظام حكم الرجال الثلاث (Triumvirat) الذى عرفته روما قديما (٦٩م) - لولا استشهاد عبد الله بن ياسين فى ميدان القتال .

هكذا تظهر فتوح المراتبين التى قام بها يوسف بن تاشفين ، تحت إمرة أبى بكر بن عمر فيما وراء السوس الأقصى ، فى رواية ابن شداد التى ينقلها كل من ابن الأثير والنويرى ، وكأنها حرب مشروعة فى دولة زناتة التى توصف بأنها دولة ردية مذمومة ، سيئة السيرة من حيث لا سياسة ولا دين (٧٠) . أما عند ابن أبي زرع الذى حاول ترتيب الأحداث بشكل مقبول على كل حال ، فإن فتوح السوس الأدنى تنسب أولا الى أبى بكر ابن عمر ، ثم الى يوسف بن تاشفين بأمر من أبى بكر (٧١) ، وذلك قبل

(٦٩) القرطاس ، ص ١٣٤ ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث فتح لوانه على يدى أبى بكر بن عمر قبل رحيله .

(٦٩م) هو النظام الذى اتفق فيه كل من قيصر وبومبي وكراسوس فى روما ضد مجلس السناتو (الشيوخ) ، والذى يشبهه البعض بما حدث فى خلافة أبى بكر يوم السقيفة ، الأمر الذى يشير اليه فبليب حتى بالنص على أنه « لعل مبايعة أبى بكر كانت نتيجة اتفاق بينه وبين عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح - الكتلة الثلاثية التى أدارت شئون الاسلام وهو بعد فى مهده » - تاريخ العرب المطول ، ط ١٩٦٥ ج ١ ص ١٩١ .

(٧٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٢٨٢ ، حسن نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٢ .

(٧١) القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث فتوح قازاز ، ومكناسة ، ولوانة .

عرضها بشكل تفصيلي - وان شابه التعميم ، تحت عنوان دولة يوسف ابن تاشفين بصرف النظر عما اذا كان يوسف بن تاشفين أميرا (قائدا) للجيش ، أم أميرا (رئيسا) للمسلمين (٧٢) . وهنا نشير الى أهمية حوليات ابن عذارى الخاصة بتاريخ المرابطين في المغرب والأندلس (٧٣) في امكانية اعادة شيء من الترتيب في مسار تلك الأحداث رغم اختلاطها هي الأخرى .

دور أبي بكر بن عمر في فتح المغرب قبل الرحيل :

والأمر المستغرب حقا ، هو الغموض الخاص بترك الأمير أبي بكر بن عمر لمسرح الأحداث في المغرب والمسير الى الصحراء ، لتسوية ما كان قد قام بين قبائل الملثمين هناك من النزاع على حدود بلاد السودان . والأمر لا يتعلق فقط بالطابع القصصي للرواية التي تأخذ شكل واحدة من مؤامرات الحريم في القصر الملكي ، بل الأهم من ذلك هو التحديد الزمني - أصل التاريخ ومادته الأولى - لذلك الحدث المحوري بالنسبة لتاريخ الدولة المرابطية ، فهو بمثابة موقعة حاسمة من مواقع التاريخ المصيرية بالنسبة للدولة المرابطية ، اذ يفصل بين عهدين ، أولهما تاريخي بالنسبة لدولة الرباط الدينية الطابع ، وثانيهما مستقبلي بالنسبة لدولة لمتونة (التاشفينية) المدنية السمة ، مما نشير اليه فيما بعد (ص ٤٢٨) .

فهناك عدد من الأحداث التاريخية الكبرى مما يتعلق مباشرة بترك الأمير أبي بكر قيادة المغرب وأولها : العهد بالامارة الى يوسف بن تاشفين قريبه ، وثانيها : بناء مدينة مراكش وهل تم بمعرفة أبي بكر أم يوسف ، واتخاذها عاصمة للدولة بدلا من أغمات ، وثالثها : استكمال فتوح المغرب بفتح فاس والسوس الأدنى ، وسواحل المغرب الأوسط المواجهة للأندلس، الى جانب السيطرة على عدوة سبتة وطنجة ، بوابة الدخول الى اشبيلية وقرطبة .

(٧٢) الفرطاس ، ص ١٢٨ .

(٧٣) وهي التي يرجع الفضل في التعريف بها الى بروفنسك وويشي ، والتي نشرها

احسان عباس كجزء رابع لبيان ابن عذارى - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ .

من توقيت رحيل أبي بكر الى توقيت فتح المغرب :

وفيما يتعلق برحيل أبي بكر الى الصحراء وعهده بإدارة المغرب ليوسف بعده ، نفتقد توقيت هذا الحدث في كل ما وصلنا من روايات الكتاب ، من البكري وحتى ابن خلدون ، فلا يبق لنا الا محاولة الاستنباط عن طريق مقارنة ما لدينا من أحداث تقترب أو تبتعد عن تاريخ استقلال يوسف بن تاشفين بالمغرب . وفي هذا المجال ليس لدينا - الا مجموعتين من التواريخ ، احدهما ترجع الى ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس والأخرى تتمثل في حوايات بيان ابن عذارى التي تمثل سلسلة فقرات العمود المحوري في هيكل التاريخ المغربي - الى جانب بعض التواريخ المتناثرة في المصادر الأخرى ، مثل : تاريخ بناء مدينة مراکش الذي يتراوح ما بين عهدي كل من أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين .

من مناقب الرجال الثلاث :

والتواريخ التي يقدمها ابن أبي زرع لفتح بقية بلاد المغرب خارج السوس الأقصى ، مثل : فازاز وبلاد زناته ومكناسة ، ولوالة في سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م على يد أبي بكر ، قبل سفره (ص ١٣٤) ، وكذلك فتح بلاد ملوية في المغرب الأوسط على يد يوسف سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م (ص ١٣٨) لا يمكن قبولها ، من حيث أنها تعني اكتمال فتح بلاد المغرب في وقت كان القتال لا يزال دائرا في أنفا وتامسنا ، كما انها تسمح لابن أبي زرع صاحبها ، بالقول : ان يوسف بن تاشفين كان قد تقوى أمره وكبر صيته في سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م ، حيث بنى مدينة مراکش ، وان مدينة فاس (عاصمة الشمال) وضواحيها كانت قد فتحت ، بعد ذلك ، فيما بين سنتي ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م و ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، الأمر الذي يصعب تبريره اقليميا وزمنيا . والقرينة على ذلك ان رواية صاحب القرطاس نفسه ، تعود هنا الى تكرار ما بدأت به أولا من فتوح لوالة ومكناسة ومغراوة مع فتوح فاس (ص ١٣٨ - ١٤٠) .

ونحن لا نرفض قصة فتوح بلاد السوس الأدنى ، وأقاليم ملوية في المغرب الأوسط كوقائع تاريخية رغم ما قد يعتريها من خلط أو لبس ، ولكننا لا نقبل مواقيت فتحها المقترحة ، من حيث تركيزها في سنتين أو ثلاث سنوات ، مرتبطة في وقت مبكر بفتح أقاليم السوس الأقصى وتامسنا . فمن الواضح ان صاحب تاريخ المغرب وأخبار مدينة فاس أراد أن ينسب الى عبد الله بن ياسين ، وأبي بكر بن عمر ، ويوسف تاشفين ، أعمالا عسكرية

وانشائية ضخمة ، بإمكانياتهم البسيطة ، وفي الزمن السريع ، فكانها
كرامات الأولياء ، رفعا لشأنهم وتخليدا لأعمالهم - القدوة .

رحيل أبي بكر : العهد الى يوسف :

وهكذا نرى انه يمكن إعادة ترتيب تلك الأحداث في سياقاتها العامة ،
في ضوء التواريخ التي يقدمها بيان ابن عذارى على امتداد فترة زمنية
تناهز العشرين عاما . وهنا نبدأ باقتراح قبول تاريخ ابن عذارى في
تحديد الحدث المركزي الخاص برحيل أبي بكر بن عمر الى الصحراء ، والذي
يعنى في نفس الوقت العهد الى يوسف بن تاشفين بولاية المغرب ، وهو
سنة ٤٦٣ هـ / ٧٦ - ١٠٧٠ م (٧٤) .

فكاننا نضيف ١٠ (عشر) سنوات الى التاريخ المسجل عند
ابن أبي زرع لهذا الحدث ، وهو سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م (٧٥) ، وذلك كما
فعلنا تماما ، في تاريخ خروج صنهاجة الصحراء لتجديد الاسلام بعد
سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م (ما سبق ، ص ١٦٨) على عهد واحد من تلاميذ
أبي عمران الفاسي ، وليس على عهد أبي عمران نفسه . فكان هناك علاقة
سببية لم تتكشف بعد في تأخير وقائع تاريخ المرابطين الأولية ، لمدة
عشر سنوات ، ربما لكي يكون أبو عمران الفاسي شاهدا لمولد حركة التجديد
في دولة الرباط .

وبناء على ذلك تكون حوليات ابن عذارى مقبولة كتحددات زمنية
معتمدة ، بمعنى أن يبدأ فتح السوس الأقصى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م (٦٧)

(٧٤) البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٠ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث النص
على أن أبا بكر استعمل يوسف ابن تاشفين على السوس الأقصى ، وأنه بقي كذلك الى سنة
٤٦٤ هـ / ١٠٦٩ م ، أي الى رحيل أبي بكر .

(٧٥) الترغاس ، ص ١٢٨ - ومثل هذا ما يسجله ابن خلدون ضمنا عندما ينص على
أن الأمير الحمادي بلكين بن محمد قام بغارة جعيدة على فاس في تلك السنة ، وأن تلك الغارة
الجزئية كانت السبب في رحيل أمير المرابطين أبي بكر بن عمر الى الصحراء - بمعنى الربط
الزمني والسببي بين الحدثين . أنظر الجبر ، ج ٦ ص ١٨٤ ، والترجمة - حيث فضل
أبو بكر ذلك لقاء بلكين الحمادي - بمعنى الربط الآلي بين الحدثين - وأنظر ج ٣
ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٧٦) البيان المغرب ، ج ٤ ص ١٤ - ١٥ ، حيث الخطط في الاسم بين سجلامة
والسوس .

ويكون رحيل أبي بكر بن عمر سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، بينما يكون فتح تلمسان سنة ٤٦٨هـ/٦ - ١٠٧٥م ، وهي نفس السنة التي مات فيها أبو بكر بن عمر ، مجاهداً في السودان (٧٧) وان كان المرجح عند البعض أنه استشهد في السودان سنة ٤٨٠هـ/٨ - ١٠٨٧م (أنظر فيما بعد ، ص ٢٦٧) .

أغمت قاعدة مرابطية :

وأهم أحداث سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وهو خروج عبد الله بن ياسين من جبال مسمودة الى أغمت ، ومنها الى تامسنة لحرب برغواطة ، ومسير أبي بكر مدداً له بعد ذلك على رأس ٤٠٠ (أربعمئة) فارس ، و ٨٠٠ (ثمانمئة) نجيب و ١٠٠٠ (ألف) راجل . والمهم هنا هو اتخاذ أغمت قاعدة للجيش المرابطي ، ومركز الحكومة الثنائية - حكومة الرئيسين : ابن ياسين (الفقيه) وأبي بكر (القائد) (٧٨) . وفي ذى القعدة من السنة التالية ٤٥١هـ/١٠٥٩م كان خروج عبد الله بن ياسين الى تامسنا حيث قتل (٧٩) . وبذلك انفرد أبو بكر بن عمر بالسلطة دون رقيب - رغم محاولة أشياخ المرابطين الحفاظ على طابع الحكم الثنائي باختيار فقيه يحل محل ابن ياسين (ما سبق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠) .

ويرتبط اتخاذ أغمت كقاعدة للمرابطين بحدث عائلي خاص كان له أثره العميق في مسار الأحداث السياسية ، كما تجمع المصادر . ذلك هو زواج أبي بكر بن عمر من زينب النفزاوية ، زوجة أمير أغمت السابق لقوط بن يوسف (ج ٣ ص ٥١١) ، والتي كانت قبلاً زوجة لواحد من حكام أغمت الذين كانوا يختارون دورياً كل عام (ج ٣ ص ٥٠٩ وهـ ٣٠) ، قبل أن تؤول الى يوسف بن تاشفين ، بناء على وصية أبي بكر عند مسيره الى الصحراء للتوفيق بين المتنازعين من قبائل جدالة وملتونة . وقائمة زيجات زينب هذه التي تسمح باعطائها لقب « زوجة الملوك » هي

(٧٧) البيان ، ج ٤ ص ٢٩ .

(٧٨) ابد عذارى ، ج ٤ ص ١٥ - حيث النص على أن أبا بكر بن عمر احتل مدينتي

أغمت واسموطنها مع امامه عبد بن ياسين ، حيث استقبل وفود القبائل لمدة (سنة) أشهر .

(٧٩) أنظر ما سبق ، ص ٢٢٩ ، وقارن ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٦ - حيث الإشارة الى

رواية أخرى تقول ان ابن ياسين لم يقتل في تامسنا ، لأنه كان قد سار اليها للتوفيق بين

الجدالين الذين كانوا تنازعوا هناك فيما بينهم ، وأنه أصابه مرض فقضى نحيبه .

التي جعلتها في نظر الكتاب امرأة طموحة ، لبيبة ، ذات رأى وحزم ، لا ترضى من الرجال الا بذوى الهمم من الملوك . وهذه الصفات رفعت من شأن زينب الى مستوى الأسطورة ، اذ صارت في عداد الساحرات الكاهنات (٨٠) . هذا ومن الهمم الاشارة هنا الى ما يذكره صاحب الاستبصار من الربط بين زواج زينب من يوسف وبين بناء مراكش ، حيث النص على أن أبا بكر طلقها « فتزوجها بعده يوسف وبني لها مراكش » ، فكان المدينة قدمت منزلا لها ، وكأنها بعض صداقها (٨١) .

بناء مراكش : التوقيت :

ومن الهمم هنا محاولة تحديد الوقت الذي طلقت فيه زينب من أبي بكر لكي تدخل بعد العدة في عصمة يوسف ، من حيث أن ذلك يساعد على بيان ظروف بناء مدينة مراكش التي حلت محل أغمات كمقر للملك ، وبالتالي على تحديد شخصية بانيها الحقيقي ، وهل هو أبو بكر بن عمر أم يوسف بن تاشفين (٨٢) .

ولكنه لما كنا قد استبعدنا ظهور يوسف بن تاشفين في هذا الوقت المبكر الذي لم يكن قد تم فيه الا فتوح السوس الأقصى وتامسنا ، ورجحنا

—————

(٨٠) أنظر القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث النص على أن والد زينب ، وهو اسحق الهواري كان من تجار القيروان أصلا . أما زينب فكانت امرأة حازمة لبيبة ذات رأى وعقل وجزالة ، ومعرفة بالأمور حتى كان يقال لها : الساحرة . وقارن ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ١٨ - حيث يوصف زينب بأنها نفزاوية جميلة لها أخبار مستطرفة ، شاعت بين قبائل مصمودة في المنطقة ، فهي لا تتزوج الا بالأمير الذي يملك المغرب ، وهي كاهنة أو ساحرة تكلمها الجن ، وتستخرج كنوز الذهب والفضة والجواهر واليواقيت لزوجها من تحت الأرض ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - حيث النص على أن زوج النفزاوية الأسبق وهو ابن وطاس كان شيخا على وريكة وهزرجة وهيلانة في دولة أمغارن (جمع أمغار) بمعنى الشيوخ . وأنظر ترجمة دسلان ، ج ٢ ص ٧١ - حيث ايمغارن (Aimgharen) الجمع البربري لـ «مغراء» ، وهي بالعربية منراوة (بمعنى الشيوخ أو الحكماء) ، ص ١٨٤ - حيث النص على رحيل أبي بكر الى بلاد الصحراء واستعمال يوسف على المغرب ، والتنازل له عن زوجته زينب بنت اسحق ، ولحافة بقومه .

(٨١) أنظر الاستبصار ، ص ٢٠٩ - حيث النص على أنه « لم يكن في زمانها أجمل منها ولا أعقل ولا أطرف » قبل النص على زواج يوسف منها وبناء مراكش لها .

(٨٢) القرطاس ، ص ١٢٨ ، وقارن الاستبصار ص ٢٠٩ - حيث يتم الصناء بعد سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م مرتبطا بطلاق زينب من أبي بكر ، وولاية يوسف بن تاشفين بلاد المغرب .

عليه رواية ابن عذارى التى تجعل سفر أبى بكر الى الصحراء والعهد بالمغرب الى يوسف ، فى سنة ٤٦٣هـ / ١ - ١٠٧٠ (٨٣) ، فان ذلك يعنى أنه أعمال يوسف بن تاشفين فى بناء مراکش لم تبدأ الا اعتبارا من ذلك التاريخ . وهذا لا ينفى قيام أعمال أولية فى منطقة مراکش على عهد الأمير أبى بكر . والحقيقة أن رواية ابن عذارى توضح ذلك الأمر ، عندما تنص على أنه اعتبارا من (منتصف ؟) سنة ٤٦١هـ / ٩ - ١٠٦٨ م ، وبسبب ضيق المجمع السكانى بمدينة أغمات فى كل من عدويتها ، ومعاناة أهل هيلانة وهزميرة ، حتى ضج أشياخها بالشكوى ، وطلبوا البناء فى موضع أفسح وأنسب . وتبين الرواية أن الأمير أبى بكر كان يعيش وقتئذ فى الحيام والأخبية (من الشعر والوبر) عندما ثارت مسألة اتخاذ مدينة جديدة فى نفس الوقت الذى كان أبو بكر يفكر فى الزواج بالسيدة زينب النفزاوية ، فكان بناؤه بها من الأسباب التى شجعت على تقرير البناء فى المدينة الجديدة (٨٤) .

اختيار موضع مراکش :

والمهم هنا هو افتراق آراء كل من أهل عدوتى أغمات ، اذ طالب أهل حى هيلانة (ايلانة) بأن تكون المدينة الجديدة فى ساحلهم ، بينما رأى أهل هزميرة أن يكون البناء فى برهم . وحلا للخوف عقد الأمير أبو بكر اجتماعا لأهل « الحل والعقد » شارك فيه أشياخ قبائل مسمودة ، وعدد من قواد المرابطين ، تقرر فيه أن يكون اختيار الموقع ، من حيث المبدأ فى منطقة محايدة ، وسطا بين موطن كل من القبيلتين المتنافستين . هذا ، ولم يجذ المؤتمر اقتراحا بالبناء فى بعض المواضع التى أختيرت اما على وادى تتسيقت القريب ، أو على وادى نفيس ، حتى تسهل ميرة التجمع السكانى الجديدة بما يحتاجه من الطعام والماء ، وذلك بسبب معارضة رؤساء أهل البادية الصحراويين وقوادهم من اللمتونيين الذين فضلوا القرب من مسارج الرعى بعيدا عن مواطن الحضر والعمران .

(٨٣) البيان ، ج ٤ ص ٢٠ .

(٨٤) البيان المغرب ، ج ٤ ص ١٩ ، وج ١ ص ٤٣٠ (بسمان تميم بالمعز الزيرى) - حيث النص سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م على أن أمير لمتونة استبد بالمغرب وطلعت له قبائل المصامدة ولاد درعة وسجلماسة فى السنة التالية ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م ، وفيها شرع أبو بكر بن عمر اللمتونى فى بناء مراکش .

وعندئذ تقرر القيام بجولة تفقدية في المنطقة ، انتهت بأبي بكر وجماعة الشيوخ والقواد الى اختيار الموضع الذى بنيت فيه مدينة مراكش ، بمعنى أن البحث فى اختيار المكان استغرق من المناقشات النظرية والجولات الميدانية ما يقرب من العام أو يزيد ، وذلك ان الاتفاق على الموضع ، والبدء بوضع حجر الأساس لمشروع المدينة تم فى اليوم الـ ٢٣ من رجب سنة ٤٦٢هـ / ٨ مايو ١٠٦٩م (٨٥) .

أهمية الموقع وبدا البناء :

يوصف الموضع الذى أختير لبناء مراكش بأنه خلاء من بلاد هيلانة وبلاد هزميرة ، لا أنيس به الا الغزلان والنعام ، ولا ينبت فيه الا شجر السدر والحنظل (٨٦) ، بمعنى أنه لم يكن عامرا بل كان خرابا مخوفا ، يحف به قطاع الطريق . ولهذا أطلق عليه باللهجة البربرية المحلية اسم مراكش بمعنى « أسرع الخطو » (فى عبور المكان الخطر) . ولكنه لما كان الموضع على ٣ أيام فقط من وادى تنسيفت ، فان الماء الجوفى كان متوفرا على بعد ٣ أو ٤ أمتار (قامتين) من سطح الأرض ، وبالتالي كانت الأرض - فى ذلك السفح من جبل درن - طيبة صالحة للزراعة التى اشتهرت بحذقها قبائل دكالة ، هناك (٨٧) .

والى جانب الأهمية الاقتصادية (الزراعية) كان للموضع أهميته الاستراتيجية (العسكرية) التى ربما كانت السبب الأول فى اختيار المرابطين للمكان ، ويتمثل ذلك فيما ينص عليه صاحب الاستبصار من أنه « بناها واضعها ليملك منها جبل درن لكثرة من يعمره » ، الى جانب اضافة سبب مماثل ، هو : « قتال برغواطة الكفار ، المرتدين عن ديانة

(٨٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٩ .

(٨٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٩ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ ، والنويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٣ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٢ - حيث وصف المكان بأنه « قاع صفصف ، لا عمارة فيه ، الأدريسى ، صادق ، ص ٨٣ - حيث النص على أنها فى وطاء من الأرض ، ليس حولها الا جبل صغير : « ايجليز » ، ومنه قطع الحجر الذى بنى منه قصر أمير المسلمين على بن يوسف ، فيما بعد .

(٨٧) أنظر الاستبصار ، ص ٢٠٩ - حيث النص على ان منبع وادى تنسيفت من بلاد دمنات ، وأن من روافده (التى نعرف بانها أودية مستقلة) : وادى وريكة (نهر أغمات) ووادى نفيس (المعروف بالبلد النفيس) .

الاسلام» (٨٨) .

وهكذا وبسبب تميز الموقع على المستوى الاقتصادي والاستراتيجي - وهما من أهم شروط بناء المدن الجديدة ، في ذلك الزمان - تحول مكان مراكش المخوف من معسكر بدوى الى قصبة محلية ، قبل أن يأخذ شكل العاصمة الامبراطورية على عهد المرابطين ، وخاصة على عهد الموحدين ، لكى تبقى بعد ذلك عاصمة الجنوب « المراكشى » ، التى ما زالت بلاد « المغرب » تعرف باسمها : مراكش (المدينة والدولة) حتى اليوم .

أعمال أبى بكر فى البناء :

وبناء على ما تقدم يكون بناء مراكش قد تم على عهد الأمير أبى بكر ابن عمر - أثناء قيادة يوسف بن تاشفين للجيش المرابطية فى المغرب ، وقبل ولايته الامارة (الرئاسية) وذلك عندما وضع حجر الأساس فى ٢٣ رجب سنة ٤٦٢هـ / ٨ مايو ١٠٦٩م (٨٩) . ويمكن أن يستشف من النصوص ان البناء كان بدوره على مستويين ، أحدهما رسمى : ويعنى به تخطيط المدينة الحكومية ، أى قصر الأمير ومركز الادارة ، وما يلحق بها من مسجد ، وما يحيط بها من أسوار ، وهى التى تعرف باسم « قصر الحجر » لانها بنيت بقطع الحجارة المأخوذة من جبل ايجليز القريب (٩٠) ،

(٨٨) الاستبصار ، ص ٢٠٩ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث النص على أنه اختط مراكش تحت جبال المصامدة ليقوى على قمع أهل تلك الجبال اذا هموا بفتنة ، والنويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٣ - حيث النص على ان مكان مراكش ينوسط فى مملكة بلاد المغرب كالتيروان فى بلاد افريقية ، تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنهم معقلا . فاخطت المدينة هناك ليتقوى على تدوين أهل تلك البلاد ، واتخذها دار ملكه ، وقصر سكنه ، فلم يعانده ، أحد من أهل تلك النواحي .

(٨٩) ما سبق ، ص ٢٤١ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٨ - حيث البناء بمعرفة يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ / ٣ - ١٠٦٢ م ، ومع ذلك فابن أبى زرع يعرف ان يوسف ابن تاشفين بنى موضع سور الحجر (من المدينة) ، الاستبصار ، ص ٢٠٨ - حيث أسسها يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ ، الأدريسى ، المغرب العربى ، صادق ، ص ٨١ - حيث بدأها يوسف بن تاشفين فى صدر سنة ٤٧٠ هـ / ٨ - ١٠٧٧ م .

(٩٠) الأدريسى ، المغرب العربى ، صادق ، ص ٨٣ - حيث قصر أمير المسلمين على بن يوسف المعروف « بدار الحجر » ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٠ (عن « قصر الحجر ») ، القرطاس ، ص ١٢٨ - حيث النص على ختام الشعر ، ومسجد الصلاة ، والقصر والقصبة الصغيرة ، وسور الحجر ، وقارن الاستبصار حيث النص على ان « دار الأمة » هى أول ما بنى يوسف بن تاشفين ، مع الإشارة الى أنها ما زالت معلومة بها - على أيامه .

والآخر شعبي ، ونعني به مدينة العامة من الناس حيث كان بناء الدور في الحلاء دون تخطيط أو أسوار ، « كل على قدر جهده واستطاعته » (٩١) . وكان بناء دور العامة هذه بالطين والطوب والطوابي (جمع طابية) (٩٢) ، مما يشبه البناء المكون من التراب والحصى المصبوب بين ألواح الخشب على طريقة الباطون الاسمنتي (béton) حاليا ، حسب وصف ابن خلدون (٩٢م) . وحول ذلك أقيمت مضارب البدو أهل الرحلة ، من : خيام الشعر وأخبية الوبر (٩٣) . وكان كل ذلك تحت اشراف الأمير أبي بكر بنفسه ، وبمعاونة اخوته ، وأشياخ المصامدة ، مع الفنيين (الفعلة) من البنائين .

واذا كان ابن عذارى ينص في أخبار سنة ٤٦٢ هـ / أكتوبر ١٠٦٩م على أن اقامة سور قصر الحجر استغرقت نحو ٣ (ثلاثة) أشهر فقط — استنادا الى أقوال ثقة الاخباريين ، فانه يعود الى النص ، في السنة التالية (٤٦٣ هـ / أكتوبر ١٠٧٠ م) ، على أن الأمير أبا بكر كان قاعدا على السور والفعلة أمامه يعملون في السور وفي غيره ، عندما وصله رسول لمثونة الآتي من الصحراء الجنوبية ، يستغيث به ضد جدالة التي رجحت كفتها فيما كان قد نشب بينهم من قتال ، فكان عليه أن يترك الأمر ليوسف بن تاشفين (٩٤) . وكان على يوسف أن يكمل بناء مراکش ، الأمر الذي انتهى عند البعض بنسبة البناء جميعا اليه ، كما نرى عند البعض دون سلفه أبي بكر .

أعمال يوسف بن تاشفين في بناء مراکش :

هذا ، وفي عمل يوسف بن تاشفين في بناء مراکش تقول رواية ابن أبي زرع : انه (يوسف) الذي اشترى أرض المدينة من أصحابها المصامدة ، بمعنى أنها حلال غير مغتصبة ، وأنه كان أول من سكن موضعها

-
- (٩١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٠ .
 (٩٢) الأدريسى ، المغرب العربي ، صادق ، ص ٨٣ .
 (٩٢م) المقدمة ، الفصل ٢٥ في صناعة البناء ، ط . التجارية ، ص ٤٠٨ — حيث صناعة الطابية التي يعرف صانعها باسم الطواب .
 (٩٣) الترطاس ، ص ١٣٨ — حيث الخيام والأخبية .
 (٩٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٠ . وقارن ج . ديفردان (G. Deverdun) مراکش ، بالفرنسية ، ص ٥٦ — حيث اكتشاف بقايا قصر الحجر بمعرفة مونييه (M.J. Meunier) وهو بناء مربع واجهته ٢١٨ مترا ، ربما كان له باب في كل واجهة ، وان تاريخ الانشاء هو ١٠٧٠ م / ٤٦٣ هـ . (سنما الدارج عند المثقفين (المغاربة) ان مراکش أنشئت سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م .

فى خيام الشعر - فكانه البانى الاول والاخير لمراكش ، فضلا عن ملكيته القانونية لأرضها . وفى بناء مسجد المدينة الأميرية (الحكومية) تقول تلك الرواية انه لما شرع فى بناء المسجد كان يحتزم ، ويعمل فى الطين والبناء بيده مع الخدمة ، تواضعا وتورعا (٩٥) . فكان يوسف بن تاشفين تجسيدا حيا لامام اباضية تاهرت الاول ، عبد الرحمن بن رستم ، الذى كان يطين سقف داره بيده (ج ٢ ص ٣٠٣) .

ومع كل ذلك ، يختتم صاحب القرطاس روايته تلك بمحاولة لتحديد ما قام به يوسف بن تاشفين من انشاءات فى مدينة مراكش بشىء من الدقة ، فينص على أن « الذى بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش ، جوبا (أى شمالا) من جامع الكتبية (٩٦) » . ويوافق البحث الحديث على هذا الأمر ، اعتمادا على التنقيبات الأثرية التى دلت على أن جامع الكتبية الذى بناه عبد المؤمن بن علي ، أول خلفاء الموحدين ، إنما بنى فى حقيقة الأمر فى موضع جامع القصبية المرابطية الأولى التى أدير عليها سور الحجر . فهذا ما يستنتجه جودفروا ديمومبين من دراسته لنص العمرى ، حيث ينص على أن أول مدينة بنيت بمعرفة يوسف بن تاشفين ، فى موضع مراكش فى سنة ١٠٦٢م / ٤٥٤هـ ، ينبغى أن تكون قد امتدت حول جامع الكتبية - جنوب غرب المدينة الحالية (٩٧) . ويشير ديمومبين بعد ذلك الى دراسة هنرى باسيه لبقايا الجامع المرابطى القديم ، والقصر الذى كان مجاورا له ، وهو قصر الحجر أو دار الحجر ، كما يشير الى قصور الموحدين جنوب المدينة ، فى المكان الذى توجد فيه حاليا القصبية ، ودار « المخزن » ، وجامع المنصور ، كما توجد بجانبها مقابر السعديين . ويتساءل

(٩٥) القرطاس ، ص ١٢٨ - حيث نحدد ذلك بسنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، مما سبق التشكيك فى صحته ص ٢٤١ .

(٩٦) روض القرطاس ، ص ١٢٨ ، وقارن العمرى ، ترجمة ديمومبين للقسم الخاص بشمال افريقيا ، ص ١٧٨ - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين هو الذى بنى مراكش ، وأنه بنى أولا قصر الحجر ، وحوله بنى الناس مساكنهم .

(٩٧) أنظر ترجمة ج . ديمومبين ، للعمرى (مسالك الأبصار) فى مجموعة الجغرافيين العرب ، المنشورة تحت اشراف جبريل فيران (Gabriel Ferrand) ، ص ١٧٩ ، هـ ٢ - حيث ينص ديمومبين على أنه - نظرا لحالته الصحية التى لم تسمح له بزيارة ميدانية لما يصفه العمرى - اعتمد على عدد من الأصدقاء والتلاميذ القدماء ، مثل : فيليكس اران (Félix Arin) والشيخ عبد السلام اليعيشى النساخ ، وسى بومدين زيان ، الذين قدموا له ما يسمح له بمحاولة تنسيق الافتراضات السابقة .

ديمومبين - فى دراسته لنص العمري عما اذا كان هناك أمل فى العثور على بقايا لدار الخلافة بملحقاتها ، من : دار البلور ، ودار الريحان ، ودار الماء . أما عن الدراسة التى قام بها هنرى باسيه وهـ . تراس عن جامع الكتبية ، والتى تصحبها صور توضيحية رائعة ، فهى تحوى فضلا عن ذلك ، وصفا لجامع القصبه ، وهو جامع المنصور . وهى الدراسة التى أعدها للنشر هـ . تراس بما تستحقه من عناية وتبجيل (لباسيه) تحت عنوان : معابد وقلاع موحديّة (١٨) .

والمهم بعد ذلك أو قبله ان الكتاب من مغاربة ومشارفة لم يهتموا الا بالأعمال الانشائية التى تمت فى بناء مراكش (وكذلك ما صاحبها من الفتوح) فى سنواتها الأولى فقط - بصرف النظر عما يعترىها من خلط فى التوقيت أو فى المضمون - منذ فتح أغمات والسنوس حتى انفراد يوسف بن تاشفين بالولاية ، وهى الفترة التى يركزون فيها معظم الانجازات الكبيرة فيما لا يزيد عن بضع سنوات باستثناء ابن عذارى الذى مددها الى ما يناهز ٢٠ (عشرين) سنة ، وهو ما رجحناه وأخذنا به .

والذى يلفت النظر ان هؤلاء الكتاب لم يهتموا بما ينبغى أن يكون قد قام به يوسف بن تاشفين من أعمال عمرانية فى مدينة مراكش ، بشكل مباشر أو عن طريق عماله ومعاونيه ، فالوقت كان ما زال مبكرا بالنسبة لحكم يوسف بن تاشفين الذى امتد الى سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م بمعنى مزيد من العمل الحضارى على مدى ٤٠ (أربعين) سنة ، وخاصة فى العاصمة مراكش ، قاعدة جيوش المرابطين العاملة ما بين المغرب وافريقيا (السوداء) والأندلس . حقيقة ان الكتاب لا يهتمون الا بأعمال يوسف بن تاشفين الحربية مثل غيره من أبطال الفتوح الاسلامية ، وخاصة فى الأندلس ، أرض الرباط الحقيقى ، والأعمال الحربية الناجحة على وجه الخصوص . ولكن الأندلس كانت ملهمة للمرابطين أيضا فى مجالات الحضارة المختلفة ، وبخاصة فى مجالات العمارة والبناء والزخرفة - رموز الحضارة المادية الملموسة .

(١٨) أنظر Sanctuaires et Forteress Almohades ص ١٠٣ وما بعدها ، وأنظر ترجمة ج . ديمومبين للعمري ص ١٧٩ وهـ ٣ - حيث نشر العمل باسم كل من هنرى باسيه ، هـ . تراس فى مجلة هسييريس عدد ١٩٢٤ - ص ١٨١ ، وعدد ١٩٢٥ - ص ٣١١ ، وتم بالفصلتين ٢ ، ٣ لسنة ١٩٢٦ .

وهكذا نرى انه ما زال أمام الكتاب والباحثين ، على مستوياتهم النظرية والعملية ، الكثير من العمل في سبيل الكشف عن أعمال المرابطين الحضارية والعمرائية ، على عهد يوسف بن تاشفين ، في مدينتهم مراکش العاصمة ، على وجه الخصوص ، على مدى حوالى أربعين سنة ، هي مدة حكم العاهل المرابطى - رمز دولة العباد المجاهدين التي قامت على أفكار حضارية قبل أن تكون أفكارا جهادية ، والفكرة تسبق الوجود ، كما يقال على كل حال •

يوسف بن تاشفين اميرا لدولة العباد المرابطين :

الرجل :

نسبه وصفاته :

ينتسب يوسف بن تاشفين الى العروق النبيلة من أحرار بنى ورتانطق للمتونيين . فنجدده هو ابراهيم بن ترقوت (ترجوت) بن ورتانطق (١) وهو شريف أيضا من ناحية أمه الحرة : فاطمة بنت عم أبيه (٢) .

اما عن أول صفاته (التاريخية) التي تهمنا ، فهي أنه كان ينبغ من العمر حوالي ٦٣ (ثلاث وستين) سنة عندما ولى أمر المغرب ، بعد رحيل أبي بكر بن عمر ، فكان تجاربه الحياتية وقتئذ كانت تشغل العمر الافتراضي كاملا للانسان العادي ، وكان تجاربه التالية حتى وفاته سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، وهو يحتفل بعد ميلاده المئوي ، اضافة تجريبية في الحكم والادارة ، تميزه عن غيره من سائر رجال الدولة . فمثل هذا ما نراه عند الماوردي وهو يقرر أن كمال العلم لا يتم الا اذا قدر الله للطالب طول العمر (٣) الأمر الذي يعنى أن طول العمر يعتبر بعدا رابعا في قياسات الانسان (الأنموذج) السوي .

وفيما يتعلق بصفات يوسف بن تاشفين الجسمية ، ينفرد ابن أبي زرع بتقديم طائفة من الصفات المميزة ، التي لا نعرف نظيرها لدى غيره من كبار رجال الدولة المرابطية - وان لم يعرفنا بأصل مصدرها ، وبالتالي فلا نتأكد من حقيقة كونها . فيوسف ذو بشرة سمراء نقية اللون ، الأمر الذي يعنى

(١) أنظر القرطاس ، ص ١٣٦ - حيث سلسلة النسب الى الجند العاشر ، وهو الجند الاسطوري - تلميت الحميري الصنهاجي من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير ، وقارن ابن عذارى ص ١٧ ، ١٨ - حيث النص على أن جده هو ابراهيم بد ترجوت أو (نورقبت) ابن وتاسن (بدلا من ورتانطق) ، مع المقابلة مع نص الحلل الموشية هـ ١ ص ١٧ - حيث : تورقيت بن ورتانطق . وأنظر ما سبق (عن ورتانطق) ، ص ٧٠ هـ ٣٤ .

(٢) القرطاس ، ص ١٣٦ - حيث اسمها : فاطمة بنت سيرين بن يحيى بن وجاج ابن ورتانطق .

(٣) الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ٤٥ .

نسبة لا بأس بها من الدماء السوداء التي تجرى في عروقه (٤) . وهو بعد ذلك معتدل القامة ، نحيف الجسم ، بمعنى : الرقة وخفة الحركة ، وهو ما يتجلى أيضا ، في : رقة الصوت وخفة شعر العارضين (الصدغين) . أما شعر رأسه الجعد فينسدل الى شحمة الأذنين ، بينما تميز حاجباه باقترانهما معا (٥) .

معاشه :

اما عن طعامه وشرابه فهو الذي اعتاد عليه أهل الصحراء ، مما لا يزيد عما يتبلغ به من القوت الضروري ، من : خبز الشعير والأذرة ، ولحوم الابل وألبانها ، لا يتركها ، الى غيرها طوال حياته ، في بوادي افريقية أو في حواضر الأندلس . وكذلك الأمر بالنسبة للملابسه فقد كان يوسف يكتفى بارتداء ثياب الصوف الحشنة - ملابس الصوفية العباد - لا يزيد عليها مع الاحتزام في أوقات العمل .

اما عن صفاته المعنوية وأخلاقه ، وهي التي هيأته لتقلد سدة الحكم والرياسة فتتمثل في قوة التدين ، وكرم الأخلاق (الفضل) ، وأورع والعدل ، والشجاعة والنجدة ، وسداد الرأي والحزم ، وأخيرا يمن النقيبة أو سعادة الطالع ، مع شيء من الحبث أو اللؤم الذي يجعل الوسيلة مبررا مقبولا للوصول الى الغاية المنشودة (٦) .

(٤) القرطاس ، ص ١٣٦ ، وقارن ابن عذرى ، ج ٤ ص ١٧ - حيث النص على أن قريبه : ابراهيم بن أبى بكر بد عمر ، لا تعرف أمه ، وأنه كان أسود الجلد ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لمواطن لمثونة الجنوبية حيث العلاقات الوثيقة مع بلاد السودان .

(٥) القرطاس ، ص ١٣٦ .

(٦) أنظر القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث عرضت هذه السمائل على أنها مؤهلات يوسف ابن ناشفين التي حققت اجماع أشياخ المرابطين على تقديمه للرئاسة ، وأنظر أيضا ، ص ١٣٦ - حيث النص بعد صفاته التي تقدمت أعلاه ، على أنه : بطل ، نجد ، شجاع ، حازم ، مهاب ، ضابط للملك ، متفقد لأحوال رعيته ، جواد ، كريم ، زاهد في الدنيا . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث يوصف يوسف بن ناشفين بأنه : دين ، خير ، حازم ، داهية ، مجرب ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٩٠ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٧٢ - حيث النص بمناسبة وفاته على أنه كان ديناً حازماً ، سثوما ، ذا دهاء ، الا أنه أبان عن لؤم لما اعتقل المعتمد بن عباد بأغمات ، فانه لم يجر عليه ما يقوم به حتى كان بفاته يغزلن بالأجر للناس ... الخ .

وهكذا يمكن القول أن يوسف بن تاشفين كان فى عنفوان الحلقات الوسطى من عمره المديد ، عندما آلت اليه اماره الصحراء وبلاد المغرب الساحلية (الأطلسية) ، وهو فى سن الثالثة والستين ، وأنه كان مسلحا بمجموعة من القوى الروحية والعقلية والأخلاقية اللازمة فى أمور الحكم والحرب والادارة الى جانب سلسلة تجاربه فى ميدان الحرب والسياسة التى كانت تمكنه من الهداية فى طريق أهدافه المقصودة .

يوسف بن تاشفين نائبا لولاية المغرب :

ترتبط ولاية يوسف بن تاشفين الأولى ، سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ م بخمسة أحداث مهمة ، تعتبر علامات مميزة فى حياة الرجل . أولها : استكمال بناء قصبة مراکش القديمة التى كان يشرف عليها الأمير أبو بكر بن عمر ، وثانيها زواجه من زينب النفزاوية (طليقة أبى بكر) مما سبقت الإشارة اليه (ص ٢٣٨) . أما الحدث الثالث وهو أخطرها من حيث أهميته بالنسبة لمصير كل من بلاد المغرب والأندلس والسودان الغربى ، فيتمثل فى مسير أبى بكر بن عمر لمواصلة الجهاد فى بلاد السودان فيما وراء الصحراء . والانجاز الرابع يتلخص فى استكمال فتوح المغرب الزناتى فى بلاد فاس ومكناس والريف ، وبلاد ملوية وتلمسان فى المغرب الأوسط ، كتمهيد طبيعى لضم الأندلس - وهو الحدث الخامس - الى دولة صنهاجة الصحراوية السودانية ، التى تحولت الى مشروع امبراطورية اسلامية اتحادية ، أشبه ما تكون بدولة الخلافة الشرقية ، من حيث البنية الثقافية السنية السلفية - وهو الهدف النهائى للحركة المرابطية ، كما نظن .

ومجمل تلك الأحداث يعنى انجازات العهد اليوسفى التاشفينى خلال الـ ٣٨ (ثمانية وثلاثين) سنة ، التى تمثل عهدا لا نظير له فى تاريخ ملوك الاسلام - ربما باستثناء محمود الغزنوى فاتح الهند - من حيث الحركة الدائبة ، والنشاط الذى لا يعرف السكون - فكان العاهل المرابطى من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم المصاعب الا توهجا وحماسا .

العهد الى يوسف بالولاية :

بينما كان أبو بكر بن عمر يشرف على بناء قصبة مراکش (سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ م) ، اذ وصل رسول من لدن زعماء لمتونة بجنوب الصحراء ، يخبرونه بما كان قد قام من الفتنة بين جدالة وملتونة - بسبب التنافس على أرض السودان ، والعمل على نشر الاسلام بين أهلها كما يظهر

- وأن بنى جلدته من اللمتونيين يطلبون العون لوضع حد لاعتداءات
الجدالين على ديارهم وعليهم(٧) .

فما كان من أبى بكر - الذى استعظم الخطب - الا أن يعقد مؤتمرا
لشيوخ لمتونة ووجهائها - وأن يعرض عليهم ما رآه من المسير لنجدة اخوانهم
فى الجنوب ، والأخذ بثأرهم ، ويطلب منهم بالتالى النظر فيمن يروونه أهلا
لشغل الولاية نيابة عنه أثناء مغيبه هذا . ولم تكن مسألة اختيار أمير
بصفة مؤقتة ، أمرا سهلا بالنسبة لمجمع حكماء لمتونة ، اذ اختلفوا فيما
بينهم ، وعندئذ انتهى الأمر بأن قرر الأمير أبو بكر أن يكون نفسه ، صاحب
القرار الأخير فى اختيار الرجل الذى يخلفه فى الولاية . وبعد الاستشارة
رأى أن قريبه يوسف بن تاشفين ، قائد جبهة حرب المغرب ، هو أصح من
يقوم بالأمر خلفا له ، ولا بأس أن يكون ابن تاشفين قد قدم الى مراكش
الناشئة ، بناء على دعوة من أبى بكر أو أن يكون قد حضر عندما بلغته أخبار
اختلاف المشايخ من أهل الحل والعقد حول خليفة الأمير أبى بكر المنتظر ،
بل ولا بأس أن يكون يوسف قد فرض نفسه على ملأ لمتونة من حيث انه
كان الرجل القوى وقتئذ . فهذا ما يمكن أن يفهم من الرواية ذات الطابع
القصصى عندما تتحدث عن الاستشارة وعن الهاتف الذى صدم أبا بكر
فأنساه التفكير فى يوسف وحضور هذا الأخير من الجبهة ليقول لأبى بكر :
« أنا أكون خليفتك ان شاء الله - عز وجل » (٨) .

(٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٠ - حيث النص على انه وقف على أبى بكر رجل راكب
على فرس ، أشعث الرأس ، وقال له « أيد الله الأمير . ان جدالة أغارت على أخوتك فتمنلوا
الرجال وسلبوا الأموال وهزموهم » ، فما كان من أبى بكر الا أن استرجع (فقال : انا لله
وانا اليه راجعون) .

(٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٢٠ - ٢١ - حيث تأخذ الرواية شكل قصص شعبى
(فلكلور) يتفق مع طبيعة الحركة المرابطية ، من حيث علاقتها بالتصوف الجهادى ، وما وصف
به كل من أبى بكر ويوسف بن تاشفين من التدين والزهد والعبادة ، وخاصة يوسف الذى
اتخذ فى قصصنا التاريخى شكل العابد المجاهد أو حتى الولى المستجاب الدعاء . وهكذا تقول
الرواية ان أبا بكر دعا الله أن يسمى له رجلا يستخلفه . . . ومع ان الله أنساه ذكر
يوسف بن تاشفين ، فان هذا الأخير وصل من جهة المغرب (فكانه قد سمع ذلك الهاتف)
ليقول لأبى بكر . . . « أنا أكون خليفتك ان شاء الله - عز وجل » ، ويرد أبو بكر
بالقبول : « صدقت يا يوسف ، أنت والله خليفتى » ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث
الاشارة الى ان رسول بلاد القبلة قدم على أبى بكر بعد ٣ سنوات (أشهر فى الأصل)
من زواجه بزينب بنت اسحاق ليخبره باختلال الصحراء ، وان الأمير الصالح الورع لم يستحل =

شروط الاتفاق على النيابة :

وسواء كان أبو بكر هو الذى عين ابن تاشفين خلفا له بمحض رغبته دون موافقة أشياخ لمتونة الحكماء ، أو كان يوسف هو الذى فرض نفسه بصفته الرجل القوى فى هذا الوقت العصيب ، سواء بسبب الخلافات الداخلية بين القبائل ، أو المواجهات الحربية مع ملوك زناته فى أقطار المغرب التى لم تكن قد فتحت بعد ، أو بلاد السودان ، مجال نشر الاسلام الصحيح ، أول أهداف حركة الرباط ، فقد كان من الضرورى القيام بتسوية سياسية تحقق المصلحة العامة على مستويات العلاقات الداخلية والخارجية . والحقيقة أن التسوية فى مثل هذه الحالة كانت تتلخص فى وصية ولى الأمر ، أى الأمير ، وهى التى عادة ما تتضمن ما يكون متفقا عليه بشكل عام بين المشايخ من زعماء القبائل أو الجماعات . والنموذج لذلك وصية عبد الله بن ياسين ، الذى أصيب فى ميدان المعركة ، ومع ذلك فلم يمت الا بعد وقت من النهار ، كان قادرا فيه على املاء وصيته التى عبرت عن مجموعة من القواعد الدينية السياسية والأفكار ، مما يمكن اعتباره بمثابة دستور لدولة الرباط (ما سبق ، ص ٢٢٩) .

تركة الأمير الخاصة : نوع من توريث الزوجة :

ونقصد بتركة الأمير الخاصة محتويات داره التى عادة ما تؤول لزوجته أم البنين . ولكننا هنا بصدد مجتمع « أموى » ، لا يعرف تعدد الزوجات الا فى أضيق الحدود ، اذ السيادة فيه للمرأة (ما سبق ، ص) . وفى بيت الأمير أبى بكر كان الأمر والنهى لزوجته (الست) زينب النفزاوية وهى التى تواصلت هيمنتها على الأمراء ، منذ ما قبل الحكومة الزناتية السابقة فى أغمات (ما سبق ، ص ٣٢٨) . وفى هذا السياق يمكن أن نفهم أن الأمير أبا بكر عندما أخبر يوسف بن تاشفين بأنه سوف يطلق زوجته الرقيقة ، المشهورة الى جانب الجمال بالفهم والرأى والحزم ، ونصحته بفوائد الزواج منها ، انما كان يقصد ، الى جانب استمتاع خليفته بجمال

= قتال المسلمين وسفك دمائهم ، فسار الى الصحراء ليصلح أحوالها ، ويقوم بها ليجاهد الكفار من السودان ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٨٤ - حيث النص على ان الخلاف كان بين لمتونة ومسوفة (بدلا من جدالة) أهل الصحراء ، حيث أعياصهم ووشائج أعراقهم ، ومنع عددهم ، فخشى افتراق الكلمة ، وانتظام الوصلة ، وتلافى أمره بالرحلة ، وأكد ذلك فارتحل أبو بكر الى الصحراء .

المرأة ، وسعادة طالعها ، الاستفادة بمواهبها العقلية والنفسية الأخرى : من حيث تكون خير مرشد يضمن للدولة تواصل الاستقرار في سياستها الداخلية وعلاقاتها الخارجية المتوازنة (٩) .

تقسيم الجيش :

نصيب يوسف والعمليات العسكرية في المغرب :

ان تقسيم الجيش المرابط الذي تشير اليه المصادر ، الى جيشين : أحدهما مغربي شمالي بقيادة يوسف بن تاشفين ، هدفه استكمال فتوح المغرب ، والآخر سوداني جنوبي بقيادة أبي بكر للجهاد ونشر الاسلام جنوب الصحراء ، يعنى أن ابن تاشفين كان قد استدعى من الجبهة على عجل للنظر في هذا التقسيم ، وانه لما حضر بقواته كان الرجل القوى ، المؤهل للحكم في المغرب بالنيابة .

وهناك روايتان في كيفية تقسيم الجيش ما بين نصفين لكل من أبي بكر ويوسف ، فكانها قسمة عدل بالتساوي ، وما بين الـ $\frac{1}{3}$ (الثلث) والـ $\frac{2}{3}$ (الثلثين) على أساس أن يكون للأمير ضعف ما لنائبه ، وهو الأمر المقبول شكلا : اذا كان المقصود لمتونة فقط - من حيث كونهم مددا لأقاربهم كما تنص الرواية (١٠) . والحقيقة انه ليس من المقبول أن يكون أبو بكر قد سار بمعظم الجيش نحو الصحراء ، والا كان الممنى هو الجلاء عن المغرب ، الى

(٩) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢١ - حيث رحيل أبي بكر الى بلاد القبلة ، ووصيته ليوسف بن تاشفين ، ابن عمه ، الذي خرج بصحبته مشيعا ، وتعريفه بأنه ينوى طلاق زينب تبرئة لذمته ، ونصحه بالزواج منها « فانها امرأة مسعودة » ، هذا الى جانب رواية أخرى تشير الى ان زينب بما لها من شخصية قوية ، ونظر بعيد - هي التي طلبت الطلاق . وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٣٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٥ - حيث النص على انه تزوج زينب (بنت ابراهيم) بعد ولايته ، وانها كانت حظية عنده وأمره (أميره) عند أبو ضيف) ، وكذلك جميع المثلثين يتقادون لأمر نساءهم ، ولا يسمون الرجل الا بأمه فيقولون فلان ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان ، القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث النص على أن أبو بكر لما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زينب ، وقال لها : « يا زينب انك ذات حسن وجمال فائق ، واني سائر الى الصحراء برسم الجهاد لعل أرزق بالشهادة ... وانت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء ، واني مطلقك ، فان أتممت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ، فهو خليفتي على بلاد المغرب » - فكان ثمة علاقة سببية بين ولاية المغرب والولاية على المرابطين وزواج زينب .

(١٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢١ .

جانب صعوبات شديدة في الامداد والتموين على طول الطريق الفقير .
بالاضافة الى أنه عندما يصل الى بلاده لن يكون في حاجة الى الرجال ، اذ
الهدف هو الاصلاح بين المتنافسين . والوطن هناك ، كما يقول ابن خلدون:
«أصل أعياصهم ، ووشائج أعراقهم ، ومنيع عددهم» (ما سبق ، ص ٢٥١
بقية هـ ٨) ، يستطيع أن يحشد منه من يشاء سواء للجهاد في السودان
ونشر الاسلام ، أو للعودة الى المغرب اذا عن له ذلك .

وهكذا يكون أبو بكر قد سار على رأس الفيلق السوداني ، المكون من
اللمتوينين دون غيرهم ، في أول ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ / ٦ يناير
١٠٧١ م (١١) ، من أغمات متجها عبر تادلا وبصحبتة يوسف بن تاشفين ،
على رأس قواته المغربية الى سجلماسة . وهناك أقام أياما ، ينظر في شئون
المنطقة ويصلح من شأنه استعدادا للسفر . وعندما أزف وقت الرحيل
استدعى يوسف ، وفوض اليه أمر المغرب ، وأوصاه بما كان يراه . ويقول
ابن أبي زرع أنه أمره بالرجوع الى المغرب لمواصلة قتال خصوم المرابطين
هناك ، من : مغراوة وبنى يفرن ، وغيرهم من قبائل البربر المختلفة ومن
زناتة (١٢) .

فتوح يوسف بن تاشفين في المغرب :

التمهيد للأعمال العسكرية :

باستقلال يوسف بن تاشفين تبدأ مرحلة جديدة من فتوح المرابطين
في المغرب ، تتميز بأنها تمت بتخطيط أكثر دقة ، وبامكانيات أكبر من تلك
التي تمت من قبل ، حيث أصبح ليوسف الكلمة الأخيرة في شئون الحرب
والسلام . وهكذا استأنفت قواته التي كانت تحارب في سنة ٤٦١ هـ /
١٠٦٨ م بنى يفرن في قلعة مهدى على الطريق الى مكناسة ، نشاطها في
تلك الجهات ولم يستطع معنصر صاحب فاس الذي حاول الدفاع عن القلعة
الصمود أمام قوات ، يوسف ، فانسحب الى بلده فاس حيث انتقم ممن

(١١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(١٢) الترطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على انه أقام بسجلماسة أياما حتى أصلح
أحوالها . أما عن رحيل أبي بكر من سجلماسة الى الصحراء فيحدد له شهر ذى القعدة
سنة ٤٥٣ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٠٦١ م ، وهو التاريخ المتقدم عن الموعد الصحيح الذي
أخذنا به ، بـمشر سنوات (ما سبق ، ص ١٦٨ . ٢٢٧) .

اتهموا بالتعاون مع اللمتونيين فقتلهم ، الأمر الذى أدى وقتئذ الى قيام يوسف بعمل انتقامى من زنااتية سدراته ، الذين اتهموا بممالة معنصر (١٣) .

وبطبيعة الحال لم تسمح الظروف الطارئة هذه ليوسف بالاندفاع نحو الغزو والفتح ، فضلا عما عرف به الرجل من التدين والورع بمعنى الاتزان والتروى فى اتخاذ القرار ، بل وبما عرف عنه من السياسة والدهاء ، مما وصف به أحيانا من اللؤم أو الحبث (ما سبق ، ص ٢٤٨ وه ٦) .

مراكش :

هكذا كانت أمام يوسف مهام أخرى غير حرب المغرب ، ان لم تشغله عن تلك الحرب فقد تطلبت منه بعض الجهد والوقت ، مثل : استكمال بناء العاصمة الجديدة مراكش ، من : التحصينات والصور وأبواب قصر الحجر . وهى الأعمال التى ساهم فيها بنفسه (ما سبق ، ص ٢٤٣) ، والتى شارك فيها معه رجاله المجاهدون ، من غير شك ، كما قدمت له قبائل المنطقة من المصامدة ، المعونات اللازمة ، الأمر الذى كان يوثق الصلة بينه وبينهم ويحبب الناس فيه (١٤) . والحقية أن اكتمال بناء مراكش يعتبر من الأعمال المدنية ذات القيمة الاستراتيجية (العسكرية البعيدة المدى) ، وهذا ما عرفه قدامى الكتاب لمراكش - بشكل مباشر (ما سبق ، ص ٢٤٢ والهوامش) .

زينب النفزاوية :

ومثل هذا يقال عن تمام زواج يوسف بزينب النفزاوية ، الذى تم بعد ٣ (ثلاثة) أشهر من رحيل الأمير أبى بكر ، أى بعد أن استكملت زينب عدتها ، وذلك فى شعبان سنة ٤٦٣ هـ /مايه ١٠٧١ م . وهنا تقول رواية ابن عذارى ان كلا من يوسف وزينب « سر بالآخر » وأن السيدة البعيدة النظر « أخبرته أنه يملك المغرب كله » ، فكانت صاحبة الفضل ، ليس فى بسط آماله فقط ، بل وفى امداده بالأموال التى مكنته من أن يجلب الحيل الكثيرة حتى صار رجاله فرسانا ، وأن يجمع الجيوش من البربر والحشود من سائر الناس . وهكذا كان لزوجة يوسف الذائعة

(١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٦ .

(١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ .

الصيت دور عظيم فى تقرير مصيره ، وبالتالي مصير الدولة المرابطية .
وبذلك يصبح المثل الذى يقول « وراء كل رجل عظيم امرأة » حقا ، وان
أضافت الرواية امرأة أخرى ، وهى أم يوسف - التى لا نعرف عنها شيئا ،
كما لا يرد فى غير هذا المكان لها ذكر (١٥) .

أعمال يوسف بن تاشفين فى عهد النيابة :

لم تطل نيابة يوسف بن تاشفين للمغرب الا حوالى فترة سنتين
نستغرقان سنة ٤٦٤ هـ / ١ - ١٠٧٠ م السابقة ، ثم بعض سنة ٤٦٥ هـ /
٣ - ١٠٧٢ م التى يعود فيها أبو بكر مدفوعا بالحنين الى بلاد المغرب ،
والرغبة فى شىء من الطبيعة المعتدلة والحياة الناعمة . وخلال تلك الفترة
كان يوسف بن تاشفين يعمل على توطيد أركان دولته ، ان بالحرب أو
بالسياسة ، حسبما قضت الظروف .

وأول ما يلفت النظر هو أن يوسف بن تاشفين نجح وهو القائد المحنك
فى اعداد جيش قوى ، يعتمد على سلاح الفرسان من لمتونة كقوة ضاربة ،
وعلى أصناف المقاتلين من مختلف القبائل الحليفة ، من : مدافعين بالحراب
انطوال ، ومهاجمين بالنشاب والمزاريق ، أو راشقين بأنواع السهام والنبال ،
مما يأتى ذكره . هذا ، ولا بأس من الإشارة الى رواية ابن أبى زرع التى
نجدناها فى سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م ، التى تقول بشكل عام عن يوسف
انه « جند الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد » (١٦) .

والأهم من ذلك نجاح يوسف فى تدبير ما يلزم لكل ذلك من الأموال -
مع الاستعانة بمشورة زينب ، زوجته وخير مستشاريه ، التى ظهرت حسبما
نقضى سلامة الحس فى دولته ، واشتهرت بشهرته وتعاضم سلطانه وبالتالي
كثرة أمواله . وهنا ، اذا كانت بعض النصوص تشير الى اخلاص يوسف
خلال فترة النيابة هذه للأمير أبى بكر ، ابن عمه الأكبر ، فكان يكتبه بعيدا

(١٥) البيان ، ج ٤ ص ٢٢ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث النص على زواج
يوسف « بزينب المذكورة » فكانت القائمة بملكه والمديرة لأمره والفاتحة بسياستها أكثر بلاد
المغرب الى أن توفيت ٤٧٤ هـ / ٢ - ١٠٨١ م (فى الأصل : ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م
الى صححت الى ٤٧٤ هـ) .

(١٦) القرطاس ، ص ١٣٩ - حيث وضع تلك الأحداث فى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م
اننى نرى انها متأخرة ١٠ (عشر) سنوات عن موضعها الصحيح . كما سبقت الإشارة
الى ص ٢٥٣ هـ ١٢) .

فى جنوبى الصحراء ، ويطلعه أولا بأول على مجريات الأمور ، ويتلقى منه الأوامر (١٧) . فهناك روايات أخرى تشير الى أنه (يوسف) كان يكتب بعض اخوانه فى السر من أبى بكر وأن جماعة منهم كانت تصل اليه (١٨) . وهو الأمر الذى لا تمنع منه أصول السياسة .

الحرب فى المغرب : تهدين القبائل :

وهكذا كان ابن تاشفين يستطيع ، وهو بعد فى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، التالية لنيابته أن يتحرك بجيش جراز عبر بلاد المغرب (الأقصى) الى بلاد وطاط وملوية ، من المغرب الأوسط الى جراوة - حيث دوح القبائل التى دانت جميعا له بالطاعة (١٨ م) .

ولا بأس أن يكون هذا الجيش الذى بلغ أكثر من ١٠٠ (مائة) ألف فارس من : صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة (والأغزاز والرملة) حسب رواية ابن أبى زرع ، هو الذى قصد به يوسف اقليم فاس فى تلك السنة (٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م) وأنه واجه هناك قبائل : زواغة ولمايه ولواته وصدينه وسدراته ومغيلة وبهلولة ومديونة وغيرها . ودارت حرب عظيمة انتهت بانتصار قوات يوسف بن تاشفين النظامية على القوات القبلية غير المنظمة . وكانت أكبر خسائر الزناتية تلك التى وقعت فى بعض ضواحي فاس الشمالية ، وحيث انحصر رجال قبيلة صدينه فى مدينتهم ، واقتحمت عليهم القوات المرابطية الموقع الحصين ، وقتلوا فيه ما يزيد على ٤ (أربعة) آلاف رجل (١٩) .

هذا ، كما كان يوسف يستطيع فى الشهر الرابع (ربيع الثانى) من تلك السنة (٤٦٤ هـ / ديسمبر ١٠٧١ - يناير ١٠٧٢ م) أن يقضى على

(١٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث النص على أنه كان يكتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع .

(١٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ .

(١٨ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث نقل الرواية أصلا من نظم الجبال لابن القطان .

(١٩) القرطاس ، ص ١٣٩ - حيث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، التى عدلناها الى ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م كما سبق ، ص ٢٥٥ و١٦٦ ، وأنظر الهامش حيث احتمال أن يكون موضع صدينه فى شمال فاس حيث قبيلة شراكة الحالية ، كما يجوز أن يكون موضع تطوان ، حيث قرية مسدنة .

مخورة قامت في جنوب (قبله) سجالماسة بمعرفة جماعات من الزناتية
مغيرهم . وكان ذلك على أيدي بعض كتائبه اللمتونية بقيادة محمد بن
ابراهيم اللمتوني الذي قتل الثوار دون رعاية ، وعاد بالكثير من
مغانهم (٢٠) .

فتح فاس :

ومن صدينة ، التي استكمل بن تاشفين بفتحها السيطرة على أحواز
فاس اتجه نحو المدينة نفسها ، حيث ضرب عليها الحصار في آخر سنة
٤٦٤ هـ / أغسطس ١٠٧٢ م ، لمدة ١٠ (عشرة) أيام ، اكتفى في نهايتها -
على ما نطن - بشراء المدافعين عن فاس رحيله في مقابل تسليم حاكمهم :
بكار بن ابراهيم الذي قتله يوسف (٢١) .

ومن الواضح أن رحيل يوسف بن تاشفين كان مجرد خدعة حربية -
لم يتورع عن استخدامها في سبيل تحقيق مآربه ، إذ انه بعد أن سار الى
مدينة صفرو القريبة ، ودخلها عنوة ، وتخلص من أمرائها أولاد مسعود
المغراوي ، رجع الى فاس ليضرب عليها الحصار .

وتمكن يوسف من فتح فاس في مطلع سنة ٤٦٥ هـ / نوفمبر ١٠٧٢ م ،
ولم يبق بها الا أياما قليلة اطمأن خلالها على سير الأمور ، وعهد بالحكم فيها
الى بعض الولاة من لمتونة (٢٢) .

ما بين فتح غمارة ، وردة فاس ، وطاعة مكناسة :

وسار يوسف بن تاشفين في مطلع سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م من فاس
بعد فتحها نحو الشمال لغزو بلاد غمارة ، ولكنه ما أن توغل فيها حتى عاد
تميم بن معنصر (بن حمامة) الى فاس ، ونجح في دخولها من جديد ، بل
مقتل عامل يوسف الذي كان بها . وبسبب ما كان من التنافس بين كل
من أمراء فاس ومكناسة ، على ما يظن ، رأى صاحب مكناسة وهو المهدي بن

(٢٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٣ - حيث وصف ثوار الزناتية هؤلاء بالمرتدين - تبريرا
لذلك المعاملة القظة - على ما نطن .

(٢١) القرطاس ، ص ١٣٩ - أحداث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م التي عدلناها الى ٤٦٤ هـ /
١٠٧٢ م .

(٢٢) القرطاس ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

يوسف الجزنائي أن من حسن السياسة أن يقف إلى جانب أمير المرابطين القوي ، فأعلن الطاعة ليوسف بن تاشفين . وهنا ثبت ابن تاشفين المهدي ابن يوسف في ولايته ، وبصفته تابعاً له ، واختياراً لصدقه وحسن نواياه ، أمره بالخروج في نفس السنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) معه لاستكمال العمل في تهدين المغرب . ولكنه ما أن خرج المهدي في جيشه من مدينة عوسجة لينضم إلى القوات المرابطية ، حتى سارع تميم بن معنصر بالخروج إليه من فاس في عساكر زناتة « وأنجاد مغراوة » ، ليقطع عليه الطريق ، « ويفرقه جمعه » ، بل وليقتله ويبيث برأسه إلى لكوت البرغواطى ، صاحب سبتة (٢٣) .

وترتب على مقتل المهدي صاحب مكناسة ابن كاتب أهل المدينة يوسف بن تاشفين يعرضون عليه تسليم بلادهم ، وبذلك تكون دويلة مكناسة الزناتية قد انضمت إلى بلاده بشكل نهائي (٢٤) .

وتوالت غارات المرابطين على فاس ، الأمر الذي كان يثير غضب أهل المدينة على تميم بن معنصر بسبب انقطاع الموارد وقلة الأقوات . وهنا قرر تميم مواجهة الخطر مهما كانت النتائج ، فخرج إلى المرابطين بمن استطاع جمعه من مغراوة ، وبني يفرن ، وكان لقاء غير متكافئ ، إذ قتل تميم بن معنصر وكثير من رجاله . ولكن فاس لم تسقط إذ تقدم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ، سليل موسى بن أبي العافية ، الذي نجح في الشار من المرابطين فهزمهم في وادي صيفير (٢٥) .

وهكذا تطلب الأمر بذل المزيد من الجهد في تهدين المتساقط المجاورة واخضاع قبائلها الشائرة قبل ضمان الفتح النهائي لفاس ، وضمها بشكل أكيد إلى الدولة المرابطية . فعندما وصل نبأ هزيمة صيفير إلى يوسف بن تاشفين ، ترك حصار قلعة مهدي ببلاد فازار لبعض قواده (٢٦) ، ورأى البدء باخضاع القبائل وتهدين البلاد تمهيداً لأخذ فاس وعندها فتح بلاد

(٢٣) القرطاس ، ص ١٤٠ - حيث سكوت بدلا من لغوط .

(٢٤) الترطاس ، ص ١٤٠ .

(٢٥) الترطاس ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢٦) القرطاس ، ص ١٤١ - حيث النص على أن قلعة مهدي ظلت تقاوم الحصار طوالة

٩ (تسع) سنوات طوال ، فلم يدخلها المرابطون إلا في سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م

يبنى مراسن ، وأميرهم يعى بن يوسف . وأتبع ذلك بغزو بلاد فندلاوة ،
الأمير الذى استغرق زهاء سنتين (٤٦٦ - ٤٦٨ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٧٥ م) (٢٧) .

وعلى نفس الوثيرة استمر يوسف بن تاشفين فى تمهيد بلاد غمارة
وجبالها ، من : الريف الى طنجة ، تمهيدا لفتح فاس للمرة الثانية
سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، وهو التوقيت الذى يقترب من توقيت ابي
عذارى (٢٨) .

إقامة نظم الدولة وتراتيبها :

الدواوين :

والظاهر ان يوسف بن تاشفين كان فى عجلة من أمره فى فترة نيابته
تلك - اذ بدأ يقيم تراتيب الدولة ونظمها . فلقد بدأ بإنشاء « الدواوين »
أى ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء ، وثنى بديوان الجند ، بمعنى تحويل
«الساكر المتطوعة الى جند نظامى ، تسجل اسمائهم فى «وائم اصحاب
«الرواتب الشهرية المنتظمة» (٢٩) .

واذا لم يكن فى نص ابن عذارى السابق اشارة الى بعض دواوين المال
«والخراج فان النص على طاعة البلاد به تعنى الخضوع لنظام الضرائب الذى
هو من أعمال السيادة بالنسبة للدولة ، والذى يميز عادة دولة أهل الحضر
المستقرين عن دولة أهل البادية من الرعاة الرحل .

ديوان المال والخراج :

وهنا نجد بين أحداث سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م - الخطيرة فى تاريخ
الدولة المرابطية - ما فرضه يوسف بن تاشفين من ضريبة ثقيلة على اليهود
فى كل بلاد المغرب الخاضعة لسلطانه ، والتي وصلت جبايتها مبلغا عظيما
مقداره ١١٣ (مائة وثلاثة عشر) ألف دينار (٣٠) . وهو المبلغ الذى لا يبرره

(٢٧) القرطاس ، ص ١٤١ - والتاريخ المسجل هو ٤٥٦ - ٤٥٨ .
(٢٨) أنظر القرطاس ، ص ٢٤٢ - حيث التوقيت المدون هو ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م
الذى دجعله ٤٧٠ هـ ، وقارن ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٨ - ١٩ - حيث فرار معنصر الى فاس
سنة ٤٦١ هـ / ٩ - ١٠٦٨ م .
(٢٩) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٣ .
(٣٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٣ .

الا الأعمال الضخمة القائمة وقتئذ ، من : انشاءات حضارية وأعمال حربية ، ومثل هذا المبلغ الكبير مما كان يجبى في السابق قبل انشاء الدواوين المختصة بالجباية ، هو الذى يفسر قصة كنوز الذهب والفضة والجواهر التى اكتشفتها زينب النفزاوية فى سراديب دار الأمير أبى بكر ، حسبما نرى (ما سبق ، ص ٢٥٤) .

الحرس الأميرى من العبيد السود والصقالية البيض :

والأهم من كل هذا وذاك ما أخذ به يوسف بن تاشفين فى مجال الجيش المرابطى ، من حيث دخول العبيد السود فى الخدمة العسكرية بصفتهم حرسا خاصا للأمير ، وكذلك الأمر بالنسبة للعبيد من النصارى الذين اشتراهم من الأندلس ، أو الذين ألحقهم بالحرس الأميرى من أهل البلاد . وإذا كان استخدام «أعلاج» النصارى هؤلاء كان محمودا بحيث لم يزد عددهم فى أول الأمر عن ٢٤٠ (مائتين وأربعين) علجا ، حسب رواية ابن عذارى ، فإن عدد العبيد من رجال الحرس السودانى بلغ بسرعة ٢٠٠٠ (ألفى) رجل . والمهم أنه زود الجميع من بيض نصارى أو سود مسلمين على ما نظن ، بالخيول فأصبحوا فرسان أشداء يثيرون الرهبة فى قلوب الناس ، وهم يحفون به فى القصر ، ويحيطون به فى موكبه وهم يرفعون البنود ويضربون بالطبول . وبذلك غلظ حجابهم وعظم ملكه (٣١) .

دار السكة :

ومن أهم الدواوين السيادية ، كما يقال الآن ، دار ضرب النقود ، المعروفة بالسكة التى أقيمت فى نفس سنة ٤٦٤هـ / ٢ - ١٠٧١م . ولما كانت دار السكة هذه قد أقيمت فى مراکش ، فإن هذا يعنى تحول المدينة الجديدة بصفة رسمية الى عاصمة للدولة المرابطية فى تلك السنة ، بمعنى اكتمال مبانيها الحكومية ومرافقها العامة - وخاصة آبار الماء وصهاريجها . وهنا تنص رواية ابن عذارى على أن تلك النقود التى ضربت فى مراکش

(٣١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٤٣ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ ، (أحداث سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م التى جعلناها سنة ٤٦٤هـ / ٢ - ١٠٧٢م كما سبق ، ص ١٦٨ ، ٢٥٦) - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين جعل فى جيشه الأغزاز (وهم الترك بدلا من المماليك الصقالية من نصارى الأندلس) ، والبنود ، حيث الإشارة أيضا الى أن يوسف بن تاشفين اتخذ فى نفس السنة كثيرا من الطبول والبنود .

لأول مرة ، كانت دراهم فضة مدورة ، فكأن ابن عذارى (٣٢) ، المراكشي ، يخشى أن يظن أن الدرهم المرابطي مربع مثل الدرهم الموحدى الذى ابتكره محمد بن تومرت فقيه الموحدين ، الذى اشتهر بأنه صاحب الدرهم المربع الذى ميز النقود المراكشية عن بقية النقود الاسلامية فى تلك الفترة التى تعتبر العصر الذهبى من تاريخ المغرب العربى وحضارته .

والمهم هنا أن نقود مراكش الأولى ، هذه كانت مدورة ، وزنة الدرهم منها ١/٤ (درهم وربع) درهم ، على أساس وزن الـ ٢٠ (عشرين) درهما أوقية واحدة ، فكأن صنجة الأوقية تعادل ٢٥ (خمسة وعشرين) درهما حسب رواية ابن عذارى . هذا ، كما ضرب الدينار الذهبى (المرابطى) فى نفس هذا العام ٤٦٤هـ / ٢ - ١٠٧٢م ، ولكن باسم الأمير الشرعى : أبى بكر بن عمر - الأمر الذى يجعل عام ٤٦٤هـ / ٢ - ١٠٧١م وكأنه العام التأسيسى للدولة المرابطية فى شكلها المدنى أى الحضرى ، للفرقة بينها وبين دولة عبد الله بن ياسين وخلفائه السابقين ، دولة الفقيه البدوية ، وان كانت دولة « الرباط » ، قرين المسجد المدنى أصلا (٣٣) .

وفيما يتعلق بالدينار الذهبى المرابطى ، توجد رواية لابن عذارى تنص على ضربه فى الأندلس بعد انتصار الزلاقة (سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) مع الربط بين ذلك وبين حمل يوسف بن تاشفير للقب أمير المسلمين الذى سلم به عليه أمراء الأندلس ، فكان أول من تسمى بهذا اللقب بالمغرب . فالى جانب ذلك تقول الرواية انه (يوسف) ضرب السكة ، بمعنى النقود الذهبية من يومئذ ، وجدها أى طورها وحسنها ، مع بيان أن دينار يوسف بن تاشفين هذا ، كان يحمل النقش التالى : على الوجه الوسط :

- سطر ١ = لا اله الا الله .

(٣٢) البيان ، ج ٤ ص ٢٢ .

(٣٣) أنظر البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث النص على أن هذا الدرهم كان موجودا على أيام ابن عذارى ، فى مطلع القرن الثامن الهجرى / ١٤ م ، وأنه كان معروفا بالدرهم الجوهري ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٧ - حيث تأتى قصة النقود المرابطية عرضا بمناسبة وفاة يوسف بن تاشفين ، وما كان يحويه بيت المال حينئذ من النقود ، وفيها : « ربع الورق » أى ربع الدرهم الفضى ، و« ربع الذهب » أى ربع الدينار الذهبى . وإذا لم يكن هناك نص على نصف الدينار الذهبى ، فإن ذلك يعنى ان ربعين ذهبيين كانا يغنيان عن النصف الذهبى .

- سطر ٢ = محمد رسول الله .
- سطر ٣ = أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .
- وفى الدائرة حولها : ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فقلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ويحمل على الظهر ، فى الوسط :

- الأمير عبد الله العباسي .

وفى الدائرة حولها : تاريخ الضرب (كتابة) ومكان الضرب (المدينة) (٣٤) .

دولة ابن تاشفين فى مهب الريح :

عودة أبى بكر بن عمر من الصحراء : ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م :

بينما كان يوسف بن تاشفين منهما فى توطيد دعائم الدولة المرابطية بالمغرب ، عن طريق احياء الدواوين التى كانت فى بلاد المغرب من قبل بطبيعة الحال - فكأنه كان يحيى تراث النظام المدنى السابق ، المبني على نظام الحكم الوراثى ، وخاصة بعد أن تحقق مثل هذا الحلم ليوسف ، بميلاد أول ولد له من زينب النفزاوية ، فى نفس سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م ، وهو الابن الذى لا يعرف الا بلقبه الملكى « المعز بالله » (٣٥) ، دون المدنى . وفى غمرة هذا الفرح العائلى اذا بيوسف يفاجأ فى أواخر نفس السنة العتيدة (٤٦٤هـ / ١٠٧٢م) بتأهب أبى بكر بن عمر للعودة ، الأمر الذى كان مجرد تفكير فيه يقضى مضجعه من غير شك . ولم تطل حيرة يوسف كثيراً ، فلم تدخل سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م التالية ، الا وكان الهاجس حقيقة واقعة ، إذ أتت الأنباء تترى بنزول الأمير السابق - ولى الأمر الشرعى - مدينة سجلماسة ، فى طريقه الى أغمات ومراكش (٣٦) ، بعد حين . وكان وصول أبى بكر الى أغمات

(٣٤) أنظر فيما بعد ، ص ٢٧١ ، ٣٧٢ والهوامش ، شكل رقم ١٦ ص ٣٧٣ ، وأنظر حسن محمود ، المرابطون هـ ١ ص ٢٨٨ - حيث الإشارة الى لافوا (Lavoix) .

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٣ .

(٣٦) أنظر التويرى أبو ضيف ، ص ٢٨٢ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ - حيث النص على انه اقام فى سجلماسة التى يمكن أن تكون السوس فى حقيقة الأمر - كما سبق . ص ٢٠٦ - ولكنها مقبولة هنا على أساس أنها أهم محطة على طريق الصحراء المؤدى الى السودان ، مدة سنة كاملة ، والخطبة له وببده الأمر .

فى ٥ ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٠٧٢م ، حيث نزل فى خارجها ،
ومن هناك اندفع كبار رجاله نحو مراكش ، للسلام على يوسف بن تاشفين ،
والحصول على صلاته(٣٧) .

واستقبل يوسف النبأ بما يناسبه من الغم ، وكان على أم «المعز بالله»
السيدة زينب التى لم يغب عن وعيها وفراستها ما كان يعانى به يوسف من
الهم ، أن تعمل بسرعة على تهدئة روعه وتخفيف حزنه . ولم يصعب على
المرأة الخبيرة بأحوال الرجال وخاصة عندما يتعلق الأمر بمن عجمت عوده
منهم . وهكذا ، رأت أن تستغل ما تعرفه فى أبى بكر من الضعف . فعندما
كلمها يوسف فى مغبة ما قد يقع بينه وبين ابن عمه من الحرب ، طمأنته بأن
أبا بكر رجل خير لا يحب سفك الدماء ، الأمر الذى بنت عليه خطة التعامل
مع تلك الأزمة ، والتى تنبنى أساسا على سياسة الترهيب والترغيب
بدرجاتها المختلفة ، وذلك فى ثلاث خطوات يقوم بها يوسف . أولها ألا يشغل
بأنه بوصول أبى بكر ، فيبقى هو فى قصره بمراكش محاطا بحرسه المخلص
من انعبيد السود والبيض ، ويكون الخطاب مع أبى بكر عن طريق الرسل ،
فكأنه خطاب رسمى بين ندين مساويين(٣٨) . وهو ما فسر أبو بكر بن عمر
بأنه استبداد بالمملكة ، حسب تعبير البيان المغرب ، الأمر الذى جعله يميل
الى تسليم الأمر ليوسف(٣٩) .

وهنا عرض يوسف هديته الجليلة (أعلام ، هـ ٣٨) المكونة من مما يحبه
أهل الصحراء ، من الذهب ، والحلج ، والأفراس ، والسيوف المحلاة ،

(٣٧) البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٤ .

(٣٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٤ - حيث تأخذ الرواية شكل قصص « الأيام »
أو المذكرات الشخصية إذ اغتم يوسف غما شديدا بعد أن ذاق حلاوة الملك ، وإن زوجته
زينب النفزاوية عندما رأت ذلك قالت له : والله لا ذاق أبو بكر طعمها أبدا وأنه
عندما قال لها لو كان غير ابن عمى لنتلته ، قالت : إذا قدم فلا تخرج إليه ، ولكن بادره
بهدية جليلة فلا يقاتلك ، فإن الرجل خير . وقارن ، القرطاس ، ص ١٢٥ - حيث النص على
أن أبا بكر عندما عرف تغلب يوسف على المغرب أقبل إليه من الصحراء ، ليعزله ويولى
غيره . وأن الفضل يرجع الى زينب زوجة يوسف ، بتعريف هذا الأخير أن ابن عمه
أبا بكر ورع ولا يحب سفك الدماء ، وتوصيه بالتقصير فى اظهار الأدب له ، بل واطهار
الغلظة حتى كأنه (يوسف) مساو له ، مع ملاطفته بالهدايا والحلج ، حيث كل شيء من بلاده
مستطرف من أهل الصحراء .

(٣٩) البيان ، ج ٤ ص ٢٤ .

والجوارى ، والخدم ، والدقيق ، والشعير ، والبقر ، والغنم ، الى جانب العطور الثمينة من المسك والعود والعنبر (٤٠) ، الأمر الذى فهم أبو بكر مغزاه ، وهو طلب الرجوع الى الصحراء بأسلوب مهذب - فكانت الخطوة الثانية .

اما الثالثة والحاسمة ، فتمثلت فى خروج يوسف بن تاشفين من مراكش نحو أغمات لاستقبال ابن عمه الأمير « المخلوع » ، وهو فى جنده وعبيده . فعندما تم اللقاء فى منتصف الطريق بين المدينتين هال أبو بكر أن يلقاه ابن عمه الأصغر وتابعه راكبا دون رعاية ، الأمر الذى قضى على ما كان يجول من الأمل فى خاطره ، من وجوب الاحترام لزعامته القبليه ان لم يكن لامارته الشرعية . وفى هذا المكان الذى عرف من ذلك الحين باسم « فحص البرنس » نسبة الى البرنس الذى بسط على الأرض ليقعد عليه الرجلان ، ليتناجيا حول مشكلة ثنائية الحكم أو وحدته الرئاسية ، أتى الحل من قبل رجل الصحراء التقى الدين : أبى بكر ، وكان قد اقتنع بأن خصمه يوسف المتمرس بالحرب والخبرة فى الادارة ميال الى التمسك بالملك فأعرب عن رغبته فى العودة من حيث أتى الى الصحراء ، لمعاونة اخوانه هناك ، وأنه يعهد اليه مرة ثانية بولاية المغرب (٤١) .

ومع شكر أبى بكر ليوسف على الهدية ، وعده يوسف بأن يكون دائما مأمورا تحت طاعته ، وطاعة شياخ لمتونة ، فان الأمر تطلب هذه المرة تنازلا نهائيا عن حكم المغرب ، من قبل أبى بكر . وهكذا ، وفى حضرة المشايخ

(٤٠) انظر ، البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٦ - حيث النص على ٢٥ ألف دينار من الذهب ، ٧٠ فرسا منها ٢٥ بفاخر الجهازات ، ٧٠ سيفا محلاة ، ٢٠٠ من الأشابر (المهامز - عن الحلل) للذهبة ، ١٥٠ من البغال ، والكثير من الأمتعة والكسى الفاخرة ، ٢٠ جارية أبكارا وجملة من الخدم ، ٢٠٠ من البقر ، ٥٠٠ من الغنم ، ١٠٠٠ ربيع من الدقيق (الدرمق) ، ١٢٠٠٠ خيزة ، ٧٠٠ مل من الشعير ، ووزن صالح من العود والعنبر والمسك ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٦ - ويلاحظ فيه ان الهدية بسيطة تتفق مع المطالب الضرورية لأهل الصحراء حتى تنسجم مع مقولة أن القصد منها هو الافصاح للسافر لأبى بكر عن طلب عودته الى الصحراء . فالهدية تحتوى على ألف بعير قدمها يوسف لابن عمه أبى بكر وهو يقول : أيها الأمير جئت بك كل ما معى من مال وثياب وشئ من الأدام والطعام لتستعين به على الصحراء . فعرف حاله ، وعلم انه لا يتخلى عن الأمر .

(١٤١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٥ . وقارن القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث النص على أنهما عندما التقيا سلم (يوسف) عليه (أبى بكر) وهو راكب سلاما مختصرا . وان أبا بكر عندما سأل : ماذا يصنع بهذه الجيوش الكثيرة كلها ، رد عليه قائلا : استعين بهم على المخالفين ، الأمر الذى أثار الريبة من سلامة جوابه .

اللمتونيين الذين يعترف لمجتمعهم بالسلطة العليا في المغرب المرابطى ، أعلن أبو بكر بن عمر اعتزاله النهائى للإمارة لصالح نائبه ، وابن عمه ، يوسف ابن تشفاين ، وذلك بشهادة الشهود العدول (٤٢) . وتختتم قصة الاعتزال هذه - عند ابن أبى زرع - بتوصية أبى بكر لابن عمه الذى استقل بالمملكة المغربية ، وهو الأمر المقبول . وتعتبر وصية الأمير الذى عرف بالخير والورع عن أن مسئولية الحكم المعنوية تقع فى النهاية على عاتقه (أبى بكر) نفسه - من حيث هو ولي الأمر شرعا ، وهو لذلك يطلب من يوسف حسين رعاية المسلمين (رعاياه) ليخليه ويخلي نفسه أيضا ، من مسئولية عذاب النار (يوم الحساب) ، مع الدعاء له بالصالح والتوفيق وعمل الخير (٤٣) .

ما بين الجهاد جنوب الصحراء والمطالبة بمملكة المغرب :

وبعد وصية الوداع ، انصرف أبو بكر نحو الصحراء فى رحلة ذات هدف مزدوج ، شقه الأول هو التوفيق بين الاخوة الملتمين ، وخاصة من لمتونة وجدالة ، مادة الاسلام بالصحراء ، والشق الثانى الذى لا يتحقق الا بالأول ، هو : غزو بلاد السودان التى لم تكن قد دخلت فى الاسلام بعد ، ونشر الاسلام الأصولى الصحيح عند من حرقوه منهم .

والذى يلفت النظر أن معلوماتنا عن رحلة أبى بكر بن عمر - ذهابا وعودة - وعن عمله الجهادى فى السودان الغربى ليست أكثر من نتف عارضة أو شظايا متناثرة لرواية مبتسرة أصلا ، الأمر الذى يجعل محاولة إعادة عناصرها فى بناء منتظم من الصعوبة بمكان . فإذا كانت رحلة الذهاب الى أغمات قد تمت عن طريق سجلماسة ، عقدة مواصلات الطريق الدولى الى أودغست ، فأغلب الظن أن أبا بكر مر بسجلماسة أيضا وهو فى طريق العودة ، بل ولا بأس أن تكون الرواية التى تنص على بقاءه فى سجلماسة لمدة عام وهو يصلح من أحوال المدينة وأحوازها ، حيث كان الأمر والنهى له ،

(٤٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٥ - حيث النص أخيرا على كون « هذا التدبير برأى زينب النفزاوية وزوجته » ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث اقبال أبى بكر لمزل يوسف الذى شاور زوجته (زينب) .

(٤٣) أنظر القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث نص الرصية : « يا يوسف وليتك هذا الأمر ، وإنى مسئول عنه فاتق الله فى المسلمين ، واعتنى واعتق نفسك ، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا ، فإنك مسئول عنهم ، والله تعالى يصلحك ، ويمدك ويوفقك للعمل الصالح .. وهو خليفتى عليك وعليهم .

خاصة برحلة العودة أيضا (ما سبق ، هـ ٢٦ ص ٢٦٢) . هذا ، ويمكن أن يكون هذا الخبر متملکا بابنه ابراهيم (بن أبى بكر بن عمر) ، حيث يكون قد ولاء سبجلماسة ، بنى محاولة أخيرة للتشبيث ببعض أهداب المملكة المغربية . ويؤيد ذلك تلك الدنانير التى حملت اسمه (ابراهيم) ، مع سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م (٤٤) .

وهنا لا بأس من الإشارة الى محاولة ابراهيم بن أبى بكر هذا ، المطالبة بملك أبيه بمد ذلك بحوالى ٥ (خمس) سنوات (سنة ٤٦٩هـ / ١٠٦٧م) . فلقد كانت مفاجأ ليوسف من غير شك وصول ابراهيم الى البلاد ، ونزوله خارج أغمات ، غير بعيد من مراکش ، يحيط به حشد مختلط من اللمتونيين . واكتفى يوسف بالسماع عن أخبار ابراهيم ومطالبه عن بعد ، دون لقاء ، فأرسل اليه القائد مزدلى (ابن بانلوکا) ، ليعرف منه سبب قدومه ، فأخبره ابراهيم بسذاجة لا ينبغي أن تكون فى أبناء الأمراء والحكام ، حيث قال انه جاء بطلب « ملك أبيه الذى غصبه عمه » (يوسف) .

ونجح القائد المحنك فى سفارته الحرجة ، اذ اقتنع ابراهيم بعبثية

(٤٤) أنظر التويرى ، أبو ضيف ، ص ٢٨٢ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ - حيث النص على استخلاف أبى بكر فى رحلة الذهاب لابن أخيه : أبو بكر بن ابراهيم بن عمر ، وأنظر هـ ٥ - حيث نص المحقق - نقلا عن حسن محمود - على انه « لعل المقصود انسه ابراهيم بن أبى بكر بن عمر ، الذى ولى سبجلماسة ، وسك نقودا باسمه عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وعام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م . وأنظر حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٢٥ - حيث الأخذ بالفكرة الروحية المثالية التى ترفع كلا من يوسف وأبى بكر - فى استطرادات لغوية مطولة - من مستوى دنيا التفكير فى الأمور الدنيوية ، كالحكم والرياسة « فلم يكن يوسف يفكر فى اغتصاب السلطة ... » . وفى المقابل « أكد أبو بكر تولية يوسف على المغرب مرة أخرى ، استخلفه أول الأمر ، فلما رأى حسن بلائه ، وسعه ملكه ، وحب الناس اياه ، أحب أن يوليه على المغرب رسميا ، وينصرف هو الى الصحراء ، لأنه كان رجلا زاهدا فى الدنيا عزوفا عن السلطان ... » (والهوامش للحلل الموشبة) - أما عن الاستناد الى قول البكرى أن أبى بكر كان أمير المرابطين فى سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م فهذا صحيح فعلا وليس اسما فقط . واما قول لافوا (Lavoix) فى قوائم النقود الاسلامة فى المكتبة الوطنية فى باريس بأن أبى بكر كان حتى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م أمير الدولة وحاكمها الاوحد « استنادا الى العثور على نقود باسمه تحمل هذا الاسم - فهو استدلال لا يدل على واقع الحال » . فهناك اشارات تالية (ص ٢٢٦ وهـ ١) الى سك يوسف للنقود باسمه (بل وبلقب أمير المسلمين) الى جانب اعتباره المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين . وعن نقود المرابطين ، أنظر فيما بعد ، ص ٢٩٨ وشكل رقم ١٦ .

عمله ، وعدم جدوى مطالبه ، حيث أن الأمير يوسف هو الرجل المؤهل بصفاته وسجاياه للملك - دونهم . وانه يمكنه أن يطلب هدية من خيل وازد ، يهود بها الى بلاده ، فهذا خير من الضياع في سجن القصر الأميري . وهنا اتضحت النوايا الحقيقية لولي العهد (الولد) المطالب بالعرش ، ومن معه من اللمتونيين أبناء العم ، وهي الهدية والصلات من الأمير : العم الأكبر ، شيخ لمتونة الأول . ولا بأس ان كان « للهدية الجليلة » التي نالها أبو بكر من قبل ، بتوصيحه سيدة القصر : زينب النفزاوية ، أصداؤها في جنوب الصحراء وفي قلوب عامة أهل أغمات ومراكش ، التي حركت الرغبة في نفس ابراهيم على قبول مثلها . وهكذا طاب خاطره لهذا الوعد بالهدية وتهدن بينما قام ابن تاشفين الذي كان يعرف كيف يسترضي الرجال ، وخاصة من مقربيه وأهل بيته ، بالزيادة في الانعام عليه بالمال والحيل والكسب ، واکرام من بصحبته بالصلات ، حتى لهج لسانه بالشكر . وانتهى الأمر بانسحاب ابراهيم بن أبي بكر بن عمر ، دون أن يجتمع بيوسف بن تاشفين أو يراه عائدا الى الصحراء حيث بقي هناك الى أن وافته منيته (٤٥) . وكان من حسن طالع ابن تاشفين أن رزق في هذا الوقت (٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) بابنه الفضل من زينب النفزاوية (٤٦) .

وبرجوع ولي عهد أبي بكر الى الصحراء (سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) ثم وفاته فيما بعد ، ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م (٤٦) تخلص مملكة المغرب تماما ليوسف ابن تاشفين ، وبذلك استحق التسمية بلقب أمير المسلمين ، الذي تصر بعض النصوص على اطلاقه على قائد المرابطين منذ بداية الحركة المرابطية ، وبذلك يبدأ العهد التاشفيني وهو الدور الثاني لدولة الرباط - دور الذروة والعظمة .

(٤٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ - حيث وصف القائد مزدلي بأنه « كان حسن السياسة صحيح المذهب ، عارفا بخدمة الملوك ، ووصف ابراهيم بلقب « الولد » ، وهو لقب ولي العهد في الدولة المرابطية بالاندلس - الأمر الذي يعنى الأثر الأندلسي في الحضارة المرابطية » .

(٤٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٠ .

(٤٦م) أنظر أمين طيبي ، أثر الاسلام في غانه ومالي ، مجلة الدراسات الانسانية بحامعة الكويت (بالانجليزية) ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٠ - حيث النص على رجوع أبي بكر بن عمر الى الصحراء وقتاله للوثنيين من السودان حتى وفاته في حملة سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م . ومن المقبول أن يكون أبو بكر متحالفا مع ملك التكرور المسلم قد استعاد أودغست في نفس سنة ٤٦٩ هـ وكذلك الأمر بالنسبة لعاصمة غانه في السنوات التالية ، الأمر الذي استمر الى اسنشهاده في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م .

عهد يوسف بن تاشفين : ٤٦٥ - ١٠٧٢/هـ - ١١٠٦ م :

الاستقلال والتقسيم :

نعبر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م ، حيث تنازل أبو بكر بن عمر . في مدينة أغمات ، عن رئاسة دولة المرابطين لصالح قريبه يوسف بن تاشفين اللمتوني ، بمثابة خط فاصل أو علامة مميزة ، ليس في تاريخ دولة لمتونة هذه فقط ، بل وفي تاريخ المغرب الاسلامي على الجملة ، من أوسطه الى أقصاه ، ومن صحرائه الى سودانه ، وحتى بلاد الأندلس عبر المضيق - وذلك على كل المستويات ، من سياسية واقتصادية وثقافية وحضارية ، بعامة .

فعلى مستوى دولة الرباط التي بدأت ثنائية الحكومة ممثلة في اغنييه والامير ، انقسمت تلك الدولة الى حكومتين منفصلتين ، احدهما جنوبية قارية ذات طابع افريقي سوداني ، والأخرى شمالية بحرية ذات طابع مغربي أندلسي . وهذا التوجه الجغرافي سيكون له أثره في تحديد مصير بلاد المغرب في القرون التالية ، حيث ستصبح له عاصمتان ، احدهما فاس ، قاعده السوس الأدنى وبلاد الريف ، التي توجه أنظارها نحو الشمال ، والثانية مراكش ، قاعدة السوس الأقصى التي توجه أنظارها نحو الجنوب والتي صارت عاصمة لكل بلاد المغرب حتى أنها أعطتها اسمها (مراكش) ثم ثم انها اضطرت بعد فشل عملية الانقاذ التي قامت بها في الشمال بالأندلس ، الى أن تكتفى بالتحول الى عاصمة اقليمية للجنوب ، تماما كما كان الحال بالنسبة لقروان افريقية .

وبذلك أصبح للمغرب مدينتان تعبران عن توجهاته الطبيعية . هما : فاس عاصمة الشمال التي تحتوى على ذكريات عصور التأسيس الأولى ، ويفوح منها عبق الأدارسة الشرفاء ، ومراكش عاصمة الجنوب التي تخلد ذكريات عصور العظمة أيام المرابطين والموحدين ، ويفوح منها أريج الحضارة المغربية الأندلسية ممزوجة بغرائب السودان وعجائبه .

المرابطون والسودان الغربي :

دولة أبي بكر بن عمر الصحراوية :

خرج الأمير أبي بكر بن عمر بعد اعتزاله سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م ، الى الصحراء عبر سجلماسة نحو أودغست ، وهما المدينتان اللتان حققتا للمرابطين السيطرة على طريق التجارة الغربي بالصحراء ، قاعدة لمتونة

المتأخمة لبلاد السودان . وكان عليه أن يبدأ بتهدين البلاد وقرار السلام بين قبائل المثلثين ، قبل أن يستفيد من نشاطاتهم العدوانية ضد بعضهم البعض ، فيوجه حماسهم للحرب والقتال نحو بلاد السودان ، لجهاد غير المسلمين منهم ، ونشر الاسلام السننى بينهم ، وأخذ المحاربين منهم عبيدا أسرى ، يوجهون الى أسواق النخاسة فى المغرب والأندلس ، وربما الى المشرق أيضا - فكأنهم ذهب السودان الأسود ، الى جانب ذهبه الأصفر . وفى ذلك تقول الرواية الدارجة ان أبا بكر بن عمر حشد الجيوش وغزا بلاد السودان على طول مسيرة ٣ (ثلاثة) أشهر وهى المسافة التى تقوم بأكثر من ٣ (ثلاثة) آلاف كم (٤٧) ، فى المنطقة ما بين أعالي كل من نهري السنغال ، ورافد النيجر الغربى - حيث تم الاستيلاء على أملاك كل من دولتي غانة والسونغاي (مالى ؟) غربا ، وأقاليم تادمكة شرقا (٤٨) .

وحسب رواية ابن عذارى استمر جهاد السودان ٣ سنوات فقط ، انتهت بوفاة أبى بكر بن عمر اثر اصابته برشقة سهم ، وذلك فى ٤٦٨هـ / ١٠٧٥ م ، وهى الرواية التى تنسجم مع الرواية الخاصة بمجىء ابنه ابراهيم (ابن أبى بكر) مطالبا بملك أبيه الذى غصبه عمه يوسف (ابن تاشفين) - الأمر الذى يجعلنا نأخذ بهذا التاريخ دون غيره ، طالما رجعنا للتواريخ التى حددها ابن عذارى (ما سبق ، ص ٢٥٣ وهـ ١٢ ، وما يأتى هـ ٥١ ص ٢٧١) (٤٩) .

(٤٧) أنظر القرطاس ، ص ١٣٥ .

(٤٨) أنظر ليون الافريقى ، ص ٥٢٨ - حيث النص على ان مملكة مالى (الماندنج) تمتد ٣٠٠ (ثلاثمائة) ميل على طول نهر النيجر ، وأهلها أول من اعتقد فى الدين المحمدى ، وان ذلك كان على يدى عم يوسف بن تاشفين وهو الذى عاش بعد خروجه من المغرب فى منطقة أدرار الموريتانية ، والذى لم يكتف بحرب السودان ، بل حالفهم عن طريق المصاهرة اذ زوج احدى بناته لملك من الماندنج المالين ، وظلت السلطة بين حفدة اخوته من أمه الى وقت متأخر (هـ ٣٣) ، كولين ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٨٧ . (٤٩) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٦ - حيث النص على أنه (أبو بكر بن عمر) أقام بصحرائه ٣ (ثلاث) سنوات ، ويوسف يعمده ، الى أن قتله السودانيون المجاورون للمتنونة فى الصحراء لأنه يحاربهم ، حتى قضى الله بوفاته بسهم كان فيه منيته سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥ م . وقارن ابن الأثير ، حيث يجعل وفاته سنة ٤٦٢ هـ / ٦٩ - ١٠٧٠ م - حيث اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ، ولقبوه أمير المسلمين ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ٨٣٢ ، نصار ج ٢٤ ص ٢٦١ ، هـ ٦ - حيث الإشارة أيضا الى ابن تغرى بردى الذى جعل وفاته سنة ٤٨٠ هـ / ٨ - ١٠٨٧ م ، وأشياخ الذى جعل وفاته سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث يحدد تاريخ رحيل أبى بكر الى الصحراء بشهر ذى القعدة سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) ، اما عن =

وهكذا يكون أبو بكر قد قتل بذلك إلسهم ، مسموما كان أم غير مسموم ، فى حرب غانة التى لم يكن أسلم أهلها ، رغم وجود جاليات اسلامية فى كثير من أنحائها (٥٠) . ولا بأس أن كان اسلام التكرور فى أسافل موريتانيا وغيرهم من مسلمة السودان الغربى ، وانتشار الاسلام هناك على أيدي المرابطين قد تم بشكل لم يكن له نظير من قبل ، فى حركات « التبشير » الاسلامية التى كان يقوم بها دعاة السنة أو الشيعة الإباضية فى العهود السابقة .

والظاهر ان مقتل أبى بكر المفاجئ فى غانه كانت له نتائج وخيمة على مملكة لتونة الصحراوية وجيشها الافريقى (السودانى) الذى لم يقدر له أن يحتفظ طويلا بفتوحاته الغانية التى شملت كل من موريتانيا الحالية ، وامبراطورية غانه التى تعادل اقليم السودان الغربى ، ووصلت جنوبا حتى مناجم الذهب فى بامبوك . ومن المقبول أن خلفاء أبى بكر الذين خضعت لهم كل الشعوب السوداء ، وكذلك الفولان ، ودفعوا لهم الضرائب لم يكونوا على مستوى المسئولية ، داخليا وخارجيا . فهم لم يستطيعوا منع النزاعات الداخلية من الظهور الى العلن ، الأمر الذى أدى الى ظهور النزاعات الفردية ، وانكار أن يكون للأمير كل السلطات على رؤساء القبائل ، مما أدى الى فقد الهيبة ، وانتشار الفوضى ، ونزول الأمير الى مستوى شيخ القبيلة

= وفاته فيجعلها ابن أبى زرع (ص ١٢٥) فى شعبان سنة ٤٨٠ هـ / نوفمبر ١٠٨٧ م (وهى الرواية التى نقلها ابن تفرى يردى) - حيث النص على انه أقام بالصحراء مدة (دون تحديد) يجاهد الكفرة من السودان الى أن استشهد - رحمه الله - فى بعض غزوانه . رمى بسهم مسموم فمات - رحمه الله - فى شعبان سنة ٤٨٠ هـ / نوفمبر ١٠٨٧ م . بعد أن استقام له أمر الصحراء الى جبل الذهب من بلاد السودان (بمعنى انه وصل الى بامبوك جنوبا ، حيث مناجم الذهب) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٤ - حيث النص على أن أبا بكر فتح بابا من جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة (مسيرة يوم) من بلاد المرابطين . (٥٠) ما سبق ، ص ٦٣ - ٦٤ ، وأنظر البكرى الذى يكتب سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م . ص ١٧٤ - حيث سمة الملك « غانه » اما اسم البلد فهو أوكار (ص ١٧٥) - حيث ملك غانه فى ذلك الوقت « نكامين » الذى يوصف بشدة الشوكة وهيبة السلطان . اما غانه العاصمة ، فهى مدينتان : واحدة يسكنها المسلمون وفيها ١٢ مسجدا ، أحدها هو مسجد الجمعة . ولها الأئمة والمؤذنون والخدم المرتبون ، وفيها فقهاء وحملة علم . والثانية مدينة الملك على ٦ (ستة) أميال وتسمى الغابة ، والمساكن متصلة بينها ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط ، وللملك قصور وقياب محاطة بسور - وهناك مسجد لصلاة المسلمين فى مدينة الملك هذه - وحولها شعراء وغايات فيها أكواخ (قباب) السحرة والتماثيل (الدكاكير) وقبور الملوك ، وكل ذلك تحت الحراسة الشديدة . وللملك سجون وبيت مال ووزراء وتراجمة من المسلمين . . . الخ .

المادة (٥١) .

هذا ، كما صاحب الاضطرابات الداخلية بين القبائل ، ثورات الأمراء المحليين في إمبراطورية غانة الذين عجزت لمتونة عن قمعهم ، وبذلك انتهى الأمر باسترداد السود وخاصة المساليين منهم ، أقاليم تاجانت ، وجنوب ترارزا ، وأخضعوا أهلها لحكمهم (٥٢) .

ولكن الأمر المستغرب هو أنه برغم الحسائر العسكرية التي لحقت بلمتونة فإن قبائلها الصحراوية كانت تزداد انتشارا نحو الجنوب السوداني مع مرور الوقت . ويظهر ذلك خلال فترة لا تزيد كثيرا عن ربع قرن من وفاة أبي بكر عندما قامت قبائل الملثمين في سنة ١١١١م / ٥٠٥هـ ، بتأسيس مدينة تومبوكتو (Tim Bokton) التي حلت محل عاصمة غانة القديمة ، الأمر الذي انتهى بأن لم يبق في الصحراء الموريتانية الا لمتونة وجزء من مسوفة (٥٣) . ولا ندرى ان كان التصحر في تلك الأقاليم يعتبر تفسيراً مقبولا لانسحاب الفلاحين السود جنوبا الى أماكن أكثر خصبا تاركين مناطقهم لتكون مرعى لقطعان الطوارق (٥٤) .

وهكذا كان الاسلام يزداد انتشارا في الجنوب نحو بلاد الساحل والسودان الغربي مع مرور الوقت ، وهو ما يظهر بشكل واضح على عهد إمبراطورية مالي في القرن الثامن الهجري / ١٤م .

(٥١) أنظر التاريخ الصغير لجنى عبه أو عيش ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ - حيث يأخذ المؤلف برواية القرطاس بالنسبة لوفاة أبي بكر بن عمر (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) بدلا من سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م التي يقدمها ابن عذارى والتي رجحناها على غيرها مع الإشارة الى وفاة أبي بكر في نواحي ايم كيرى (Im Kriri) : تاجانت (Tagant) الحالية بضربة سهم من سوداني ثائر .

(٥٢) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ .

(٥٣) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٥ .

(٥٤) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسة ١ ، بالفرنسية ص ٤٢ - وهنا لا بأس من الإشارة الى ما تنسبه الروايات القصصية من انه ينسب الى أبي بكر ابن عمر تقسيم المجتمع المغربي الى ٣ (ثلاث) طبقات ، هي : الشرفاء ، ورجال الدين ، ثم الرعاية : وعليهم خدمة الطبقتين السابقتين .

التوسع الاقليمي على عهد يوسف بن تاشفين ء

استكمال فتوح المغرب :

بدأ استكمال فتوح المغرب منذ عهد النيابة اليوسفية ، بعد خروج أبي بكر الى الصحراء وتقسيم الجيش الى فيلقين : صحراوي ومغربي ، بين الأمير ونائبه في المغرب . ولكنه بسبب ما أثارته رجوة أبي بكر من اضطراب في مسار الأحداث سنة ٤٦٤هـ / ٢ - ١٠٧١م ، كان من الطبيعي أن تتوقف فتوح المغرب مؤقتا . لكي تعود قوية بعد استقلال يوسف بالامارة : بنظام أفضل وامكانيات أقوى ، خاصة بعد أن نجح يوسف في اكتساب قبائل المغرب « فأعانتته في جميع أحواله » . وبعد أن ازدادت أعداد جيوشه من البربر (المتطوعة) ، ومن العساكر المحتشدة (النظامية) (٥٥) ، بعد انشاء ديوان الجند ، فضلا عن انشاء الحرس الأميري الخاص من العبيد السود والماليك البيض (الصقالية) ، الذين كان يزداد عددهم على مر الأيام (٥٦) .

وهنا نلفت النظر من جديد الى ان التأريخ لعهد يوسف بن تاشفين ، وهو الشخصية المحورية في تاريخ الأمبراطورية ، ما زال يعاني - في مرحلته الأولى على الأقل - من الصعوبة في توقيت أحداثه السياسية الهامة والعسكرية ، وخاصة ما يتعلق بفتوح المغرب في خطواتها المتوالية . ويرجع السبب في ذلك الى نقص الوثائق الرسمية ، واعتماد الكتاب على الروايات الشفهية والقصص الشعبية التي لم تدون الا في فترات متأخرة ، الأمر الذي لا يضمن الدقة في التوقيت أو في صحة الخبر . وفي إطار هذا السياق فإن ما وصلنا من الرسائل أو من الخطاب مما ينسب الى المرابطين يعاني من الصنعة الى جانب سوء النسخ وعدم سلامة الحفظ ، ناهيك عن أن الدولة الصحراوية كانت في بداية أمرها ، وأن دواوينها الناشئة وسجلاتها لم تكن بعد تعرف أساليب التنظيم والحفظ .

وهكذا اختلف الكتاب من مؤرخين وغيرهم في تحديد أحداث العصر الكبيرة ، مثل : بناء مراکش (ما سبق ، ص ٢٣٩) ، وفتح فاس وتلمسان والجزائر ، مما يأتي ذكره . والمخلط في الأحداث الكبرى والاختلاف في توقيتها لا ترجع مسئوليتها الى الكتاب وحدهم ، بل كثيرا ما يكون

(٥٥) البيان (ابن عذاري) ، ج ٤ ص ٢٢ .

(٥٦) البيان ، ج ٤ ص ٢٣ .

بسبب طبيعة الأحداث نفسها • فحرب الصحراء والحلوات حيث يكون أسلوب القتال ، هو الأسلوب البدوي المبني على فن « الكر والفر » أو الغارات التي يقصد بها الاستكشاف قبل الاستحواذ والاستقرار أو الخضوع والحلف العسكري •

وبناء على كل ذلك يختلف الكتاب في تحديد المسار الزمني لأحداث التوسع المرابطي في بلاد المغرب على عهد يوسف بن تاشفين ما بين الاختصار المخل ، كما في كامل ابن الأثير ، ونهاية النويري • والاسهاب المختلط ، كما في قرطاس بن عذارى ، الذي حاول ابن خلدون ترتيبه - دون الإشارة الى ذلك صراحة - وبيان ابن عذارى الذي نفتقه - للأسف الشديد - بعض أجزائه ، والذي يعتبر بمثابة العمود الفقري بالنسبة لتاريخ المغرب ، منذ بدايته وحتى أيام المؤلف ، في مطلع القرن الثامن الهجري (١٤ م) والذي نفضل أن نتخذ روايته مصدرا أولا في هذا المقام ، طالما وجدت ، مع المقارنة والمقابلة مع النصوص الأخرى ، حسبما يقضى المنهج ، وعلى قدر الطاقة •

فتح الأقاليم البحرية في شمال المغرب :

خضوع منطقة سلا :

وهنا نرى أنه كان على يوسف بن تاشفين أن يبدأ بتهدين بلاد المغرب ، حسب سياسته التي انتهجها بقصد تحبيب القبائل فيه وتحالفها معه • ونسجل أنه لا بأس من تعديل تاريخ الرواية التي يقدمها ابن أبي زرع في تهدين المغرب الزناتى ، من : السوس الأدنى ، بلاد مكناسة وفاس ، الى : غمارة والريف ، من حيث تزامنها مع خروج أبى بكر الى الصحراء في سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م (٥٧) • ففي هذا الوقت تقول الرواية ان ابن تاشفين هدى البلاد حتى ملوية ، في تخوم المغرب الشرقية ، وأنه ميز (عرض) جيوشه ، فوجد ٤٠ (أربعين) ألفا من المرابطين ، فانتخب منهم النصف (٢٠٠٠٠) من حرسه الخاص ومن المقربين من لمثونة وجعلهم تحت قيادته ، بينما قسم الآخرين (٢٠ ألفا) الى ٤ (أربعة) ألوية ، كل منها ٥ خمسة آلاف رجل حسب تنظيمهم القبلى ، وجعل لكل لواء قائدا • فكان على لواء

(٥٧) أنظر القرطاس ، ص ١٢٨ - حيث تقديم أبى بكر ليوسف في الامارة سنة ٤٥٣هـ /

١٠٦١ م التي رأينا أن تقدم ١٠ سنوات فتصبح سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م حسب رواية

ابن عذارى - أنظر ما سبق ، ص ١٦٨ ، ص ٢٥٦ وهـ ١٩ •

جدالة : محمد بن تميم (الجدالي) وعلى مسوفة : عمر بن سليمان (المسوفى) ، وعلى تلكاتة : مدرك (التلكاتى) ، وعلى لتونة مير بن أبى بكر (اللمتونى) . وتقدمت الألوية الأربعة يتبعها يوسف بن تاشفين ، سافه للأمن والحماية ، وهم يغزون قبائل المغرب ، قبيلة بحد أخرى ، وبدا بعد بلد ، وقوم يفرون منهم ، وقوم يقاتلون ، وقوم يدخلون فى طاعته (٥٨) ، الأمر الذى يعنى اقرار السلام المرابطى فى تلك البلاد ، بدخول قبائل البربر من الزناتية (البتر) فى الطاعة ، وقبول دفع الضرائب المقررة .

والحقيقة أن أهمية هذا النص تتلخص فى أنه يعرف ببناء الجيش التاشفينى فى بداية عهد « أمير المسلمين » يوسف ، وكيف أن نواته كان الحرس الأميرى ، وتوابعه الرئيسية الى جانب لتونة ، هى قبائل : جدالة ومسوفة وتلكاتة (التى ربما كانت من أفخاذ لتونة ؟) .

أما عما بعد اخضاع القبائل فى اقليم ملوية ، فيفهم من رواية ابن عذارى ، أن أول أعمال يوسف بن تاشفين بعد أن آلت اليه الامارة ، هو التأكد من خضوع قبائل برغواطية ، فى حيز سلا من بلاد تامسنا المتاخمة للسوس الأقصى . وفى شهر صفر من سنة ٤٦٦هـ / اكتوبر ١٠٧٣م التالية لاعتزال أبى بكر ، وجه ابن تاشفين جيشا ضخما بقيادة الأمير مزدلى ابن بانلونكا نحو سلا ، فكان مجرد ظهور القائد المقرب من الأمير كافيا لتقديم القبائل هناك فروض الطاعة ، بما يستتبع ذلك من دفع الضريبة - على ما هو متعارف عليه . وهكذا لم تستغرق حملة استمراض القوة هذه أكثر من (ثلاثة) أشهر ، اذ كان خروج مزدلى من تامسنا نحو مراكش ، فى ٢٥ ربيع الثانى / ٢٩ ديسمبر من نفس السنة (٥٩) .

التوسع فى السوس الأدنى : فتح مكناسة :

من الواضح فى حوليات ابن عذارى ، أن عملية تهدين تامسنا كانت مقدمة لضم السوس الأدنى الى الدولة المرابطية بشكل نهائى على يدى يوسف بن تاشفين ، بمعنى أن ما قام به المرابطون قبل ذلك فى السوس الأدنى كان مجرد أعمال تمهيدية للضم النهائى (ما سبق أعلاه) . وفى سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م كان يوسف بن تاشفين ، يوجه حملة عسكرية تحت

(٥٨) القرطاس ، ص ١٣٨ .

(٥٩) البيان ، ج ٤ ص ٢٦ - ٢٧ .

قيادة بطى بن اسماعيل ، تهدف الى تأكيد خضوع زناتية مكناسة ، وعلى رأسهم : الحير بن خزر الزناتى . فعندما وصلت الحملة الى قلعة بهت ، بعث القائد بطى رجل يريد عداء (رقاص) الى الحير بن خزر يخبره بالعفو عنه نظير عودته الى الطاعة ، ويسلمه الخطاب الخاص بالأمان ، اذا ما سلم مدينة مكناسة ، وسار معه الى الحاضرة مراکش للقاء الأمير يوسف .

وعقد الحير اجتماعا لرؤساء زناتة وعرض عليهم الأمر فهاهم ما سمعوا ، وعبروا عن تمسكهم برئاسته وبأنهم على استعداد للقتال حتى النصر ، واخراج الجيش اللمتونى من بلادهم . وهنا أفهمهم الحير أنه لا سبيل الى ذلك ، وأعلمهم أنه سيراسل القائد المرابطى للتفاوض معه . وأوفد فعلا سفيرا من لدنه ، وهو : منغقاد بن عبد العزيز الزناتى ، الذى احتفى به بطى وأكرمه . وبعد مشاورات عبر فيها رسول مكناسة عن أن الحير ومن معه هم رجال يوسف بن تاشفين ، وانهم متمسكون بالاجتماع معه للاتفاق على الشروط الخاصة بتسليم البلاد . وعندما أعلن القائد المرابطى أنه يضمن من جانبه ، تنفيذ تلك الشروط انحلت الأزمة . وهكذا خرج الحير بن خزر الزناتى ومن كان معه من قواد زناتة ، الى موضع القناطر ، خارج مكناسة ، ودخل بطى بن اسماعيل المدينة ، ورتب شئونها كولاية مرابطية ، وعهد بحكمها الى الأفضل اللمتونى .

وبعد أن اطمأن بطى بن اسماعيل على حسن سير الأمور بمكناسة ، خرج ليصحب الحير ومن معه من الزناتية ، الى مراکش . وهناك حظى الزعيم المكناسى بمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين الذى أنعم عليه بكل ما أراد ، ثم انه أذن له بالانصراف ، فعاد الحير الى وطنه ، ولكنه أقام بخارج مكناسة حيث بقى حتى وفاته (٦٠) . وبذلك تهدنت مكناسة ، واطمأنت الى دخولها فى حظيرة الدولة المرابطية ، على عهد يوسف بن تاشفين .

فتح فاس :

بعد ضم مكناسة كان من الطبيعى أن يأتى دور عاصمة السوس الأدنى ، قيروان المغرب الأقصى ، فاس : مدينة الشرفاء الأدارسة ، ومقر آخر سلالتهم الحموديين ، خلفاء قرطبة بعد المروانيين . فبعد وصول الحير بن خزر الزناتى الى حضرة مراکش كان أول ما فكر فيه يوسف بن تاشفين

هو اخضاع حكام فاس الزناتية المغرواين بدورهم ، وضم المدينة «المقدسة» الى دولته ، الأمر الذى كان يضيف المزيد من البهاء عليها والاجلال . وفى هذا الجو المفعم بروح النصر سير ابن تاشفين «عسكرا جرارا» عهد بقيادته الى قائد من بنى عمه المقربين ، هو : يحيى بن واسينوا اللمتونى ، لمنازلة فاس .

وكان وصول يحيى الى فاس فى آخر رجب سنة ٤٦٧هـ / ١٩ مارس سنة ١٠٧٤م ، حيث كان أبناء حمامة الذين حوصروا حصرا شديدا ، لمدة ٧ (سبعة) أيام حتى استسلموا فى اليوم الثالث ، ودخل رجال يحيى ابن واسينوا المدينة عنوة ، بعد مقتل كثير من المدافعين . واستبيحت فاس لفترة من الوقت ، سلبت فى أثنائها الدور ونهبت الأموال ، قبل أن يعلن العفو عن أهلها والأمان لهم . ونجح الفتوح ودوناس أبنا حمامة فى الاعتصام بقصرهما بعض الوقت ، ثم انهما طلبا الأمان فعفى عنهما ، وان كان فى نفسيهما فقط ، دون الأموال . وأرسلت الكتب بأخبار فتح فاس الى مراكش ، فأمر يوسف بن تاشفين باطلاق سراح الأميرين الزناتيين ابني حمامة ، والسماح لهما بالمسير أينما شاءا ، فرغب الفتوح فى المسير الى بلاد مغيلة . وبذلك تكون لمتونة قد استولت نهائيا على فاس ، وضممتها الى دولتها المرابطية (٦١) .

ولا نعرف ان كانت رواية القرطاس (انهامش السابق) تبالغ اذ نقول ان يوسف بن تاشفين قتل من أهل فاس بجامع القرويين وجامع الأندلس

(٦١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٨ . وقارن القرطاس ، ص ١٤١ - حيث الفتح الثانى لفاس سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م ، مع فتح جميع بلاد غمارة وجبالهم وبلاد الريف الى طنجة . أما عن الفتح الثالث لفاس فكان يوم الخميس ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٦٣ هـ / ١٨ مارس سنة ١٠٧٠ م حيث نزل عليها يوسف بن تاشفين بجميع جيوشه ، وشدد عليها الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف ، فقتل من مغراوة بها ، وبنى يفرن ، ومكناسة ، وقبائل زنانة حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى ، وقارن العبر ، ج ١ ص ١٨٥ ، أنظر القرطاس ، الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٤ - حيث الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م بتحريض صاحب مكناسة مهدي بن يوسف الجزائى ، ثم الفتح الثانى (ص ١٨٥) - حيث قتل معنصر ، ثم الفتح الثالث (ص ١٨٥) - حيث أخذت عنوة بيدي يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . والفتح الثانى (ص ١٨٨) - حيث قتل معنصر سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، والفتح الثالث (ص ١٨٨) ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م - حيث فتحت عنوة ، وهرب الناجون الى تلمسان .

ما يزيد على ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وأنه فر من بقى منهم الى أحواز تلمسان . هذا ، وان كان لا بأس فيما تقوله تلك الرواية من أن يوسف بن تاشفين قام بتحسين مدينة فاس عندما دخلها ، وان اعتبرت أن أمره بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين المدينتين : عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، بمعنى توحيد المدينة المفسمة ، وجعلها حاضرة واحدة ، وكأنه نوع من العقوبة التي أنزلت بأهل فاس (٦٢) . أما ما تقوله الرواية من أنه اعتنى بفاس ، وأنه أمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها وأنه عاقب أهل كل زقاق لم يجد فيه مسجدا ، وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، الى جانب أنه بنى الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح أسواقها وهذب بناءها (٦٣) فنرى أنه من أعمال العمران التي عرفتھا المدينة في فترات الاستقرار التالية بعد تمام الأعمال العسكرية . وربما كان ذلك على أواخر أيام يوسف ، أو حتى في عهود تالية . فذلك بعامة ، من سمات عصور الاسترخاء والترف ، التي تتأوا عصور الانجازات العسكرية والسياسية الكبير (٦٤) .

فتح تلمسان :

لما كانت بقايا زناتة المنهزمين في فاس ، قد فروا الى أحواز تلمسان ، حسبما تنص رواية ابن أبي زرع (٦٥) يصبح فتح تلمسان من الأحداث التالية لفتح فاس ، كما يأتي عند ابن عذارى ، وذلك في سنة ٣٦٨هـ / ١٠٧٥ م ، التالية . فلقد جهز يوسف بن تاشفين لهذا الأمر جيشا ضخما عهد بقيادته الى قريبة القائد مزدلى اللمتونى ، وسيره نحو تلمسان مزودا بخطاب الى أميرها العباس بن يحيى ، كبير زناتة هناك ، يعده فيه بالعفو اذا ما أذعن للقائد المرابطى دون قتال . وخرج ذلك الجيش من مراكش في أوائل المحرم ٤٦٨هـ / أغسطس ١٠٧٥ م لكي يصل الى تلمسان في أواخر صفر / منتصف سبتمبر ، بمعنى أن الرحلة استغرقت زهاء شهرين ، الأمر الذى يبرره ضخامة الجيش وصعوبة امداده وتموينه على طول الطريق .

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤٦ ، وقارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤١ .

(٦٤) أنظر القرطاس ، ص ١٤١ - ١٤٢ - حيث النص على ان يوسف بن تاشفين بعد أن فتح فاس أقام بها الى شهر صفر سنة ٤٦٣ هـ / نوفمبر ١٠٧٠ م (وهو التاريخ السابق على توقيت ابن عذارى بـ ٥ (خمس) سنوات - كما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١) ، ثم انه خرج منها الى بلاد ملوية ففتح حصون وطاطا سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م التالية ، قارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٥) ما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١ .

والمهم أنه بمجرد أن قدم ساعى البريد (الرقاص) الخطاب الأميرى الذى حمله مزدلى الى العباس ، بادر هذا الأخير بمغادرة تلمسان ، ودخلها مزدلى بقواته المرابطية « فى مهلة وحال هدنة » . وبعد أن رتب مزدلى أحوال المدينة ، عهد بولايتها الى ابنه : يحيى بن مزدلى ، وعاد هو وبصحبه العباس الى مراکش ، فوصلها فى ٥ ربيع الثانى/ ١٨ نوفمبر ، فكأنه لم يمكث فى تلمسان الا أسبوعين أو ثلاثة ، على حساب أن رحلة العودة كانت أسهل ، من حيث بقاء حامية مرابطية معقولة الحجم فى تلمسان ، خفت من ثقل العسكر العائد الى الحاضرة .

وفى مراکش ، ومثلما حدث للخير صاحب مكناسة (ص ٢٧٥) ، حظى العباس بلقاء الأمير يوسف الذى أنعم عليه بكل خير ، ومن ذلك امتيازات خاصة يتمتع بها فى بلده ، ربما كان أهمها الاعفاء من دفع الضريبة ، بعد أن سمح له بالانصراف اليه والاقامة فيه (٦٦) .

وآخر ما تسجله رواية ابن عذارى التى عثر على أوراقها مؤخرا فى جامع فاس ، والخاصة بفتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، هو حروبه الشديدة فى سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م ضد أمير تازا أبو يعلى (الزناتى) فى فحص الوادى . وكان يعاون هذا الأخير أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن ابن أبى العافية الذى كان قد غلب على فاس بعد مقتل تميم بن معنصر سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م الذى كان على رأس الزناتية الذين انتصروا على المرابطين بموضع آجر سيف (٦٦) .

ومما يؤسف له أن بقية فتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب تنقطع فى ابن عذارى بعد فتح تلمسان حيث يوجد خرم كبير ، ضاعت فيه أخبار

(٦٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٩ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث وضع فتح تلمسان سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، على يدى مزدلى ، على رأس ٢٠ ألفا وظفره بأمرها يعلى بن يعلى المفاوى الذى قتل ، ثم عودته الى مراکش حيث لقي فيها يوسف ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث النص على قتل العباس بن يحيى أمير تلمسان . وأنزل محمد بن تيفغر المستوفى بها فى عساكر المرابطين ، فصارت ثغرا للملكة ، واختلط مدنة تاكرات (تاجرارت) مكان محلته ، وهو اسم المحلة بلسان البربر .

(٦٦م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٠ - حيث النص خطأ على أن أبا القاسم بن أبى العافية كان رأس لمتونة (بدلا من زناتة) ، مع الإشارة الى أن توقبت هذا الحدث ربما كان فى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، السابقة .

الأحداث من سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م الى ٤٩٥هـ / ١١٠١م (٦٧) ، الأمر الذي يتطلب الرجوع الى قرطاس ابن أبي زرع ، الذي نلاحظ أن توقيتاته الأخيرة للأحداث تقترب من تاريخ ابن عذارى وهو ما يطمئن بعض الشيء ، الى جانب الاستعانة بغيره من الروايات المتأخرة ، مما فى الحلل الموشية وغيره من كتب التاريخ أو التراجم .

تهدين البلاد والتقسيم الإدارى :

والذى يفهم من رواية القرطاس أنه عند مستوى هذه الفتوح التى أضاف اليها يوسف بن تاشفين فتح مدينة الدمنة من أعمال طنجة ، وكذلك جبل علودان بمنطقة فاس ، ثم فتح جبال غياتة وعدد من مستوطنات القبائل ، مثل : بنى مكود ، وبنى رهينة ، من أحواز تازا عند ابن خلدون ، مع ردم المخالفين (٦٨) ، اطمأن يوسف بن تاشفين الى اكتمال نمو الدولة المرابطية تحت رعايته ، بمعنى أنها أصبحت إمبراطورية متحدة ، يسودها الأمن والسلام ، ويمترف بها رؤساء الأقاليم ومشايخ القبائل ، فلم يبق أمامه سوى اعتراف هؤلاء جميعا بسلطنته وحده دون قرين أو منافس منهم ، فكانه كان يستحق يومئذ لقب « أمير المسلمين » الذى يميزه عن سائر الأمراء .

وهكذا ، وجه يوسف بن تاشفين الدعوة الى « أمراء المغرب ، وأشياخ القبائل ، من : زناتة ، والمصامدة ، وغمارة وسائر قبائل البربر ، فقدموا عليه ، وبايعوه ، فكسى جميعهم ، ووصلهم بالأموال » . وأكثر من ذلك تضيف الرواية أنه « خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر الى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس » (٦٩) . كما كان عليه أن يهيئ نظم الدولة السياسية والعسكرية ، بما يضمن لها الاستقرار ، والاضطراد فى النمو والنجاح .

وهنا كان على يوسف بن تاشفين إعادة تقسيم البلاد الى ٤ (أربعة)

(٦٧) انظر البيان ، ج ٤ ص ٣٠ ، هـ ١ - حيث النص على ان هذا الحرم ضيع بقية فتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، وأخبار جوازانه الى الأندلس ، وموقعة الزلاقة ، وسقوط أكثر دول الطوائف وذلك ما يمكن مراجعته فى روض القرطاس والحلل الموشية وغيرهما .

(٦٨) القرطاس ، ص ١٤٢ - حيث تم ذلك فيما بين سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م و ٤٦٧ هـ /

١٠٧٤ م ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٩) القرطاس ، ص ١٤٢ .

ولايات ، لكل منها قائد من أهل الخبرة والثقة ، المقربين كآلاتى :

- ١ - مكناسة وبلاد مكلاته ، وبلاد فازاز ، ويليها : سير بن أبى بكر .
- ٢ - فاس وأحوازها ، ويليها : عمر بن سليمان .
- ٣ - سنجلماسة ودرعة ، ويليها : داود بن عائشة .
- ٤ - مدينتا أغمات ومراكشى ، وبلاد السوس ، وسائر بلاد المصامدة ، وبلاد تامسنا ، ويليها : ولده : تميم بن يوسف بن تاشفين (٧٠) . فكان تلك الولاية التى تمثل قلب الدولة المرابطية ، اقطاع ولى العهد ، أوسمة لمنصب ولاية العهد - تماما كما كانت ولاية ديوان المغرب (النصف الغربى للدولة العباسية) ببغداد ممن رموز ولى العهد على أيام المهدي والرشيد .

غزو العدو الافريقية : سبتة وطنجة :

والحقيقة انه كان قد بقى جزء مهم بالنسبة لدولة الرباط لم يعد فى حوزتها ، ألا وهى عدوة الأندلس الافريقية ، ممثلة فى منطقتى سبتة وطنجة . فهذا ما تنبه اليه مؤرخوا المرابطين عندما قالوا : ان عبد الله بن ياسين ، عندما دخل تامسنا للقضاء على هرطقة برغواطية ، كان يعلن أنه لا يطلب منهم الا التخلي له عن منطقة العبور الى الأندلس ، أرض الجهاد حقيقة (ما سبق ، ص ٢١٣ ، ٢٣٠) .

واذا كان هذا الأمر وقتئذ بعيدا عن تفكير ابن ياسين وزعماء الملثمين ، فانه لم يعد كذلك بعد أن وصلت الفتوح فى المغرب على أيدي يوسف بن تاشفين الى تخوم كل من سبتة وطنجة ، بل والدخول فى صراع مع أسرة لكوت الحاجب ، الذى ورث ولاية سبتة من الحموديين . والظاهر ان ما فعله ابن ياسين ، أعاد سيرته ابن تاشفين من جديد . فهذا ما يفسر رواية ابن أبى زرع التى تقول ان بداية اتصال المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، بيوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز برسم الجهاد ونصر البلاد ، كان فى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م . وان رد ابن تاشفين السلبي كان مبررا بأنه لا يملك سبتة وطنجة ، مما دعا ابن عباد الى أن يعرض عليه معونته البحرية لتمكين قواته البرية من تحقيق هذا الهدف (٧١) .

(٧٠) القرطاس ، ص ٦٤٢ ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٧١) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ - حيث النص : « ثم

استدعاه المعتمد بن عباد الى الجهاد (سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م) فاعتذر بمكان الحاجب (سكوت) وقومه من اولياء الدولة الحمودية بسبتة ، فأعاد اليه ابن عباد الرسل بالمشايعة اليهم ، فجهز اليهم قائده صالح بن عمران فى عساكر لتونة ... الخ . .

والذى نراه أنه لما كان سقوط طليطلة بين أيدي القشتاليين قد وقع فى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، أى بعد عشر سنوات وأكثر ، فإن تبرير فتح سبتة وطنجة بفرض معونة أهل الأندلس فى كفاحهم ضد خطر أمراء الدويلات الأسبانية المسيحية وملوكها ، لا ينهض دليلا مقنعا فى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، حيث كانت فتوح المرابطين فى شمال المغرب قد وصلت الى تخوم العدو . فضلا عن طرد البرغواطيين من آل لقوط من أغمات (ما سبق ، ص ٢١٦) وهكذا كان من الطبيعى أن يبدأوا غز سبتة وطنجة قريب ذلك الوقت ، على يدى يوسف بن تاشفين ، بصرف النظر عن الأزمة الأندلسية التى كانت تتراوح مكانها ما بين تقييم فكرتى محاسن ومثالب الاعتماد على الذات ، وطلب المعونة من وراء الزقاق ، سواء من العرب أو من البربر .

فتح طنجة :

فى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، قبل ٨ (ثمان) سنوات من سقوط طليطلة ، سير يوسف بن تاشفين قائده صالح بن عمران نحو طنجة على رأس جيش كبير من ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس من المرابطين (لمتونة) ، و ٢٠ (عشرين) ألف رجل من سائر القبائل الزناتية وغيرهم (٧٢) . وعندما اقتربوا من تخوم طنجة خرج اليهم الحاجب لكوت الذى كان وقتئذ ، شيخا معمر فى الـ ٨٦ (السادسة والثمانين) من عمره ، بمن لديه من العساكر . وكان اللقاء فى موضع وادى منى قرب طنجة ، وانتهى القتال الشديد بمقتل لكوت ، وهزيمة جيشه . وبذلك دخل المرابطون طنجة بينما بقيت سبتة بين يدى ضياء الدولة يحيى بن لكوت الذى اعتصم بها (٧٣) .

وأعقب ذلك فتوح بلاد الريف ، من جرسيف الى مليلة (سنة

(٧٢) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٥ - حيث اختصار تفصيلات القرطاس . هذا ولقد جعلنا جيش الزناتية رجالة فى مقابل فرسان لمتونة ، بناء على رواية ابن خلدون التى يقول فيها بعد بناء مدينة مراكش (٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) ان ابن تاشفين صرف عزمه الى مطالبة مفاوة ، وبنى يفرن ، وقبائل زناتة المغرب ، وجذب الحيل من أيديهم ، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٤ .

(٧٣) القرطاس ، ص ١٤٢ - ١٤٣ - حيث النص على تصميم الحاجب لكوت على مقاومة المرابطين حيث قال : والله لا يسمع أهل طنجة طبول اللمتونيين وأنا حى ، الى جانب النص على بقاء الحاجب ضياء بسبتة ، وكتابة القائد صالح بالفتح الى يوسف (فتح طنجة) .

٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م) وتخريب نكور ، فلم تقم لها قائمة بعدها ، وفتح وجدده وتنس ووهران وجبال وانشرش ، وجميع أعمال وادي شلف حتى مدينة الجزائر (فى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م) ، وكل ذلك على يد يوسف بن تاشفين فيما بين ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ و ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م (٧٤) . ويكون ختام فتوح المغرب بطلب المعتمد بن عباد المعونة لمواجهة العدو بالاندلس ، وذلك فى سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م حيث يرد يوسف بن تاشفين بأنه سيلبى النداء اذا فتح الله له سبته ، كما سبقت الاشارة (٧٥) - فكان فتح سبته كان من شئون فتح الاندلس ، بمعنى المقدمة الطبيعية لمحاولة انقاذ بلاد المسلمين مما كان يتهدها من خطر حرب الاسترداد ، وذلك على ايدى المرابطين .

(٧٤) انظر القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث رجوع يوسف بن تاشفين الى الجزائر ، عقبه فتوح سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، ربيع الثانى ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ، وقارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٦ .

(٧٥) انظر ما سبق ، ص ٢٨٠ وما بعد ، ٢٩٧ .

الفصل السادس

المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس :

على عهد يوسف بن تاشفين :

كان من الطبيعي ، وقد استكمل يوسف بن تاشفين فتوح المغرب الأقصى بضم طنجة بعد غمارة وبلاد الريف وفاس (٤٦٢ هـ / ٧٠ - ١٠٦٩ م) أن يوجه الزعيم المرابطي أنظاره الى ما وراء المضيق ، الى الأندلس التي كانت تعاني من وطأة حرب الاسترداد (الركونكستا Reconquista) التي كانت تمثل وقتئذ ، خطرا داهما على الوجود العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية ، الأمر الذي كان يتطلب نوعا من الانقاذ العاجل من جانب الأخوة المغاربة فيما وراء العدو . والحقيقة ان هذا ما كان يدور بخلد عبد الله بن ياسين ، مؤسس الحركة المرابطية ، عندما دخل تامسنا ، وأعلن انه جاء يطلب اخلاء الطريق أمامه نحو الأندلس أرض الرباط الحقيقي والجهاد . وبصرف النظر عن صحة هذا الادعاء وقتئذ ، فالمعروف تاريخيا أن هناك نوعا من الربط ، بناء على الواقع الجغرافي بين كل من شبه جزيرتي المغرب والأندلس ، فالتنظيم السياسي الأقوى في أي من البلدين عادة ما يفرض نفوذه المعنوي ان لم يكن سلطانه المادي على الطرف الآخر .

وهكذا ، وفي اطار التجربة الاسلامية كان الفتح العربي للأندلس حتمية تاريخية بعد فتح المغرب الأقصى ، ترتيبا على تداعي الأحداث (١) . وعندما قويت كل من دولتي المروانيين بالأندلس ، والفاطميين بأفريقية التونسية ، وارتفعتا الى درجة الخلافة ، ظل الصراع محتدما بينهما من أجل السيطرة على العدو المغربية في سبتة وطنجة . وعندما هاجرت خلافة المهديّة الى القاهرة ، واضمحلت خلافة قرطبة ، رنا الحماديون ، سلالة الأدارسة في فاس ، بأبصارهم نحو قرطبة في محاولة ملء الفراغ الذي

(١) وفي ذلك قيل ان فتح الأندلس كاد يتم منذ أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان . انظر العبر ، ج ١ ص ١٦٢ ، كما قيل ان مراكب الفتح أحرقت تميميسا للقاتحين ، فكانه استكمل بجماعة المحاربين الأوائل من أصحاب طارق ، أو بدون حاجة الى أسطول : انظر أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ وما بعدها .

تركه المروانيون هناك . وكان فشل احياء حكومة الخلافة في قرطبة - بصرف النظر عن لونها السياسى أو المذهبى - ايذانا بعصر الطوائف ، عهد التفتت السياسى وبالتالى الضعف العسكرى والمعنوى الذى عانت منه بلاد المغرب الأقصى أيضا ، فكانت حركة الاحياء المرابطية تحت مظلة الاصلاح اندينى والتجديد الثقافى والروحى ، بمثابة المنقذ من « الضلال » ، سمة العصر حسبما يفهم من عنوان بعض كتب الغزالى ، امام الاسلام المعاصر وقتئذ - وفى كل وقت .

وهنا لا بأس فى محاولة تقييم الموقف العام فى الأندلس ، فى ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس الهجرى/ ١١ م ، على المستويات المادية والمعنوية المتشابكة فى مجريات الحياة اليومية هناك ، بهدف حسابان أوجه الكسب والخسارة ، وإن كان من الممكن إعادة الاتزان المختل الى كفة الميزان ليعتدل . فمن الجانب الآخر كانت الجبهة المسيحية ، وهى تقود حرب الاسترداد (الريكونكيستا) ، تتكثل وتقوى ، فى مقابل التفتت والضعف فى الجانب الإسلامى ، حيث كانت الطوائف تخسر المعنويات مع خسران الأرض ، وبالتالى تضل الطريق فى غمرة الدهشة الى عملية الانقاذ ، وهو طريق الوحدة والقوة فتتمادى فى متاهة التقسيم والفرقة ، طريق الأغراض الشخصية من : عارضة وأنانية(٢) .

وفى هذه الظروف التعسة ومع انكماش الحدود الإسلامية متراجعة نحو الجنوب والغرب يوما بعد يوم ، أصبحت أراضى الأندلس الإسلامية وكأنها جميعا جبهات قتال لا صاحب لها (no man's land) ، لا تعرف لها خطوط فاصلة أو حدود . وهكذا ، بينما كان يوسف بن تاشفين يهدن المغرب الأقصى فيضم المدائن ويخضع القبائل ، كان فرناندو الأول (ابن شانجه) يضم مملكة ليون الى قشتالة ، ويفرض هيمنته على بقية الممالك الإسبانية ، من : شمالية مسيحية ، مثل غاليسيا (جليقية) وأراجون ، وجنوبية اسلامية ، تدفع الجزية ، مثل : سرقسطة وطليطلة وبطليوس حتى

(٢) أنظر جوليان ، تاريخ افريقية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٠ - حيث عدد الطوائف ٢٣ دولة ، وأنظر الخريطة ، كذلك ، شكل ١١ ، ص ١١٢ . وقارن زامباور ، الترجمة ص ٨٦ - ٩٢ - حيث تعداد ٢٥ مملكة ، أولها مالقه وآخرها دانية ، ويضاف اليها ميورقة ذات الدولتين : بنو مجاهد وبنو غانية ثم مملكة مينورقة (رقم ٢٤) حيث دولة ابن الحكم القرطبى .

اشبيلية وتابعتها قرطبة . وكانت فرصة مواتية لكنيسة روما انتهزها البابا اسكندر الثاني الذى أصدر فى سنة ١٠٦٣ م/٤٥٥ هـ ، مرسوما بالغفران لكل من يساهم من المسيحيين فى قتال المسلمين بالأندلس ، فكان ذلك حافزا لكثير من الفرسان الفرنسيين على المشاركة فى الصليبية الاسبانية ، بمهاجمة قلاع المسلمين الشمالية فيما وراء الجبال (٣) . بينما كانت جماعات أخرى من الفرسان الاسبان المسيحيين (أو المستعربة) مثل : السيد (El-Cid, Mio Cid) عند المسلمين وهو القنبيطور (Campiador) بمعنى البطل عند الاسبان ، ممن يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع الثمن ، يثقلون بأحمالهم على صدور المسلمين ، فيزيدونهم وهنا عن وهن ، بانهاكهم عسكريا واستنزافهم ماليا (٤) .

تهديدات الفونسو السادس :

وهكذا ، وفى الوقت الذى كانت قوات يوسف بن تاشفين تدخل طنجة تمهيدا للعبور الى الجزيرة الخضراء ، كانت الأخبار تترى عبر الزقاق ، عن تلك الغارة الجريئة التى قام بها الفونسو السادس (وريث فرناند الأول) فى سنة ٤٧٥ هـ/١٠٨٢ م ، حيث « شق بلاد الأندلس شقا ، يقف على كل مدينة فيها ٣ (ثلاثة) أيام ، فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ويرتحل الى غيرها » (٥) . وفى تفصيل ذلك يقول ابن أبى زرع ان الملك الفشتالى نزل على اشبيلية فأفسد أحوازاها وخرب كثيرا من قرى مزارعها وجناتها المعروفة بالشرف ، وكذلك الأمر بالنسبة لشذونة وأحوازاها . وهنا تخرج الرواية من نطاق الواقع التاريخي الى رحاب القصص الشعبي ، فتنص على أن الفونسو السادس أدخل قوائم فرسه فى البحر ، وقال « هذا

(٣) انظر جوليان ، (ش ١٠) ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١١ .

(٤) انظر جوليان (ش ١٠) ، ج ٢ ص ١١٢ - حيث اسم السيد : ردرىق (دياز دى فيفار : (Diaz De Vivar) وكان له دور سياسى فاصل ، فكان يضع سيفه مرة فى خدمة ملك فشتالة ، ومرة فى خدمة دولة بنى هود بسرقسطة ، وكان فى أكثر الأحيان يخدم مطامحه الشخصية ، وقارن حسن أحمد محمود قيام المرابطين ، ص ٢٥٠ - حيث النص على بلوغ حرب الاسترداد ذروتها بمطالبة « فرديناند » ليس باخضاع المسلمين فقط ، بل وبجلانهم عن البلاد استنادا الى رواية ابن عذارى .

(٥) القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث النص على ان جيوش الفونسو السادس كانت لا يحصى عددها ، من : الروم (الاسبان) ، والأفرنج (الفرنسيين) والبشكنس (الباسك) والجلالة (الغاليسيين) وغيرهم .

آخر بلاد الأندلس وطائفة (وطائفة) ، (٦) ، فكانه يعيد سيرة عقبة بن نافع في اجتياحه الثاني للمغرب (٤٦٢ هـ / ٧٠ - ١٠٦٩ م) الذي تحل هنا محله بلاد المسلمين الأندلسية (٧) .

ومن الواضح أن الرواية تنص على أن تلك الغارة البعيدة المدى كانت تهدف إلى التظاهر بالقوة إرهاباً للمسلمين ، إذ ينص على أنه عندما عاد الفونسو السادس نحو بلاده ، عرج على سرقسطة وضرب عليها الحصار ، مظهراً العزم على الاستيلاء عليها ، الأمر الذي دفع أميرها المستعين إلى الوفاء بما كان قد قصر في دفعه من الضريبة السنوية ، مع ما اقتضاه الحال من الزيادة (٨) .

سقوط طليطلة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م :

وحتمية التدخل المرابطي :

والحقيقة أن سقوط طليطلة بين يدي الفونسو السادس ، في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، أتى ليكرس عجز نظام الطوائف عن مواجهة الخطر المسيحي في الأندلس ، بل وينذر بحلول النكبة (الفقة) ، فكان من الطبيعي أن تتوجه أنظار أهل الأندلس ، حكاما ومحكومين رضوا أم لم

(٦) القرطاس ، ص ١٤٣ .

(٧) عن عقبة ، أنظر ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٨) القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث النص على أن الملك القشتالي حلف ألا يرحل عن سرقسطة حتى يدخلها أو يموت دون ذلك ، وأنه أراد أن يقدم فتح سرقسطة على غيرها من بلاد الأندلس ، الأمر الذي يعنى - حسبما نرى - أنه أراد ألا يكون شوكة في جنبه عندما يغير على بلاد المسلمين في الجنوب ، وإن كان يقف دونه قوة تحصينات سرقسطة واستعدادها لمواجهة الحصار الطويل بمؤن المخزون في أمهراتها من الطعام ، وهو ما جعلنا نرجح أخذ الملك القشتالي للضريبة التي ربما زيد قدرها بعض الشيء ، رغم متولة أنه لم يقبل المال من المستعين ، إذ قال له : « المال والبلاد لي » ، التي ربما عبرت عن الاستلاء على سرقسطة بعد حين (ما بعد ، ص ٢٨٨ ، ٣٩٠) . وأنظر جوليان ، الترجمة ج ٢ ص ١١٣ - النص على أن ملك سرقسطة (ابن هود) كان يلقى عناء كبيراً في الصمود أمام ضربات ملك الأرغون وكونتات برشلونة ، وقارن ص ١١٢ - حيث النص على أنه لولا الخلافات والضعف بين السيد القنبيطور وبين الفونسو السادس لتحقق النصر لهما على المسلمين ، لاختصر المسيحيون الأجل ، طالما أن قوى ملوك الطوائف كانت محدودة ، وقارن حسن أحمد محمود ، قيام المرابطين ، ص ٢٥١ - حيث القول ، استناداً إلى ابن عذاري وأشباه ، أنه بدأ للناس أن أيام المسلمين في شبه الجزيرة معدودات ، وأنه لولا وفاة فريناند سنة ١٠٦٥ م / ٤٥٨ هـ ، وتفرق شمل ملكه عقب ذلك لزال دولة المسلمين بالأندلس .

يرضوا ، الى ما وراء المضيق ، تنشد من « أمير المسلمين » العون والنجدة -
لعل وعسى !

والحقيقة أن تحول طليطلة الاسلامية ، في هذا الوقت الصعب ، الى
خليفة امبانيا المسيحية وان كانت له اصدقاء مدوية أو مكتومة ، من حزنية
أو فرحية في كلا الجانبين ، الا أن التحول نفسه تم دون ضجة أو كاد ،
فكانه من أحداث الحياة اليومية في جانب أو آخر . فالحقيقة أن أمير طليطلة
القادر بالله ابن ذى النون الذى يوصف بالترف والسرف^(٩) ، كان تابعاً
متعاوناً لالفونسو السادس ، الأمر الذى لا يستريح له عامة أهل المدينة .
وهنا فكر الفونسو السادس فى حل يرضى ظاهرياً كلا الطرفين : هو
والقادر ، وذلك بأن يقاوض طليطلة ببلنسية التى كانت للفتيان العامرية
قبل أن تدخل فى طاعته ، الأمر الذى وجد فيه ابن ذى النون حلاً لمشكلة
العامّة المزعجين فى بلده^(١٠) . والحقيقة أن الفونسو كان يترك بلنسية
ليتخلص من عبء حليفه غير المضمون ، المحارب المغامر : السيد الكامبادور
(ص ٢٨٥) ، ليكون تركة « غير مرغوب فيها » بالنسبة للقادر ، الأمر الذى
سيسفر بعدئذ عن أحداث مأساوية فى شرق الأندلس ، مما تأتى الإشارة
إليه .

(٩) بنو ذى النون ، من قبائل البربر الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة الدولة العامرية .
فاصل الاسم : « زنون » بربرى ، نصحف فى شكل عربى فصار « ذوالنون » . ووصل
منهم : عبد الرحمن بن ذى النون الملقب بالمظفر وهو على ولاية شنتبرية الى ملك طليطلة
عندما طلب منه أهلها - المضطربون دائماً - المعونة فسير اليها ابنه اسماعيل - الذى أحسن
حكمها باستشارة أهل الحل والعقد فيها ، وعلى رأسهم الفقيه أبى بكر بن الحديدي . وإن
كان ابن بسام - يعتبره على المستوى العام - : جرثومة النفاق والعصيان ، بسبب رفضه
الاعتراف بأمامة بنى أمية فى قرطبة . . . وبعد اسماعيل خلفه فى الإمارة ابنه يحيى (المأمون)
فأصبحت طليطلة ملكية وراثية الى أن استولى عليها ألفونسو السادس ، على عهد القادر
حينئذ المأمون (٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م - ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م - أنظر ابن عذارى ، ج ٣
ص ٢٧٦ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٤٢) عن ذى النون وابنه اسماعيل (، ص ١٤٦
(يحيى : المأمون بن اسماعيل) ، حتى (فيليب) ، تاريخ العرب المطول ، ج ٢
ص ٦٣٩ .

(١٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ (والترجمة ص ٧٦) - حيث النص على
انتهاز الطاغية (القونى ٦) الفرصة فيها ، بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف ، فحاصر
طليطلة ، وبها القادر بن يحيى بن ذى النون حتى نال منهم الجهد ، وتسلمها منه مسلحاً
سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م على أن يملكه بلنسية ، فبعث معه عسكرياً من النصرانية فدخل
بلنسية ، وتملكها على حين مهلك صاحبها أبى بكر بن العزيز قبل قليل من حصار طليطلة
(بن يدي حصار طليطلة) .

والحقيقة أن ضياع بلنسية من الفتیان العامريين (الصقالبة) لا يرجع إلى اعتداءات أمراء قشتالة وليون أو أراجون فقط ، على شرق الأندلس (١١) ، وكذلك الأمر بالنسبة لطليلة ، بل وإلى النزاعات الداخلية مع بني هود أصحاب سرقسطة وغيرهم ، ممن كانوا يلجأون إلى ملوك النصارى وأمرائهم عندما يطلب هؤلاء منهم المعونة أو عندما يطلبون هم المساعدة منهم ، حسب مقتضى الأحوال (١٢) . وبذلك لا تقع مسئولية سقوط بلنسية أو طليلة على صاحبهما فقط ، إذ المسئولية تضامنية بين زعماء الطوائف جميعا ، وإن أمكن أن يفرد لصاحبى الثغر الأعلى (ابن هود) والثغر الأوسط (ابن ذى النون) نصيب أكبر من المسئولية ، إذ كان لكل منهما - بصفتها حراس الحدود - تحالفات مع المسيحيين ضد بعضهم البعض ، الأمر الذى كان ينذر بضياع سرقسطة ، عاصمة الثغر الأعلى ومحط أنظار ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة ، كما رأينا (١٣) .

ما بين الوعى والغبوبة :

وبطبيعة الحال لم يكن يخفى على أمراء الطوائف ما يحدث ببلاد المسلمين جميعا ، من الخطر الذى كان يحدث بكل واحد منهم على حدة ، وكثيرا ما كانوا يثوبون إلى رشدهم أو ينوءون بشدة وخز ضميرهم ، فيراجعون أنفسهم ، ويرجعون إلى التأزر فيما بينهم للوقوف أمام عدوهم ، ولكننا

(١١) عن تبدل أحوال بلنسية ، أنظر زامبارو ، الأسر الحاكمة ، الترجمة ، ص ٨٩ - حيث الإشارة إلى ملك العامريين لها سنة ٤١٢ هـ / ٢ - ١٠٢١ م وفتح السيد القمبياطور - لها سنة ٤٨٩ هـ / ٦ - ١٠٩٥ م وفتحها على يد المرابطين سنة ٤٩٥ هـ / ٢ - ١١٠١ م . وانظر أيضا حتى (فيليب) ، تاريخ العرب المطلول ، ج ٢ ص ٦٤٨ - حيث كان السيد القمبياطور (المبارز) فى خدمة ألفونسو السادس ، ملك ليون وقشتالة ، الذى أقصاه عن بلاده سنة ١٠٨١ م / ٤٧٤ هـ ، وأنه أحرز لقب السيد (El Cid, Mio cid) وهو فى خدمة بني هود ملوك سرقسطة ، وأن أشهر أعماله هو اقتحام بلنسية سنة ١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ .

(١٢) عن الصراع بين بني هود (بسبب استيلائهم على وادى الحجارة) وبين بني ذنون أصحاب طليلة الذين لجأوا آخر الأمر إلى النصارى - أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٧ والصفحات التالية عن غير ذلك .

(١٣) أنظر ما سبق ، ص ٢٨٥ . ولا بأس من الإشارة إلى ما تذكره النصوص من قبل ذلك ، عن دخول الكونتات (القومسان) (Comes) ابننا شانجه إلى بلاد ابن هود ، ظاهريا لحساب ابن ذنون (المأمون) ، وعساكر ابن هود يتفرجون عليهم من وراء الأسواء ، إلى أن ينضج محصول القمح فيحصده القشتاليون ، الأمر الذى استغرق مدة شهرين « مما قوى أطماع العدو فيهم ، فامتدت آماله إلى التغلب على كل بلاد المسلمين » - حسبما ينص ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٧٨ .

لما نعرف ان كان ذلك نوعا من خداع النفس ، اذ لا يظهر بينهم من يجعل التعاضد فيما بينهم أو التوحد مطلباً في حد ذاته ، وهو الهدف الذي كان ينادى به أحيانا بعض رجال العلم والسياسة ممن لا يخشون في الدعوة الى الصالح العام لومة لائم ، مثل ابن حزم القرطبي ، الذي عاش الفترة الأولى من عصر الطوائف (١٤) ، فكان محاولة إعادة الوحدة الى الجماعة التي فتتها الفتنة قد أصبحت هدفا صعب المنال ، ان لم نقل من المحرمات (١٥) .

فيحيى بن ذى النون عندما حاول التصالح مع المعتضد بن عباد كان هذا الأخير مشغولا بحرب ابن الأفطس صاحب بطليوس . وعندما تم ذلك التقارب أدى الى زيادة تعقيد الموقف ، اذ وثق ابن هود علاقاته بنصارى الشمال وعلى رأسهم فرناندو (فرزلند) الذي سينجح في توحيد غاليسيا وليون مع قشتالة ، وبالح في اغرائهم بالأموال والهدايا ، تحريضا لهم ضد ابن ذى النون . وهكذا « خرج فرديناند الى ثغر طليطلة ، فأفنى حماته ورجاله وعاث في بلادهم » . وانتهى تكرار تلك الغارات « بفساد بلاد الثغر ، وذهاب أموال أهل طليطلة ، واحتماء أهل الريف والضياع حولها بأسوار المدينة » التي انكشفت ، كما نرى فكانها تعرت من ثيابها أمام

(١٤) انظر ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢٤٤ - حيث النص على قول ابن حزم : واجمع عندنا في صقع الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحد منهم يخطب بالخلافة بالموضع الذي هو فيه ، وذلك فضيحة لم ير مثلها ، ذلك على الأدبار المؤبد . وهم : خلف المصرى بأشبيلية ، ومحمد بن القاسم الحسنى بالجزيرة ، ومحمد بن أدريس بمالقة ، وأدريس بن يحيى بسبته ، هذا ، ولو ان ابن حيان - حسبنا ينقل عنه ابن بسام في الذخيرة (ق ١ م ١) - وهو يشير الى ان عنف ابن حزم في عرضه لأرائه انتهى بتماثل الفقهاء على بغضه فردوا قوله ، واجتمعوا على تضليله وشنعوا عليه ، وحذروا سلاينهم من فتنته . . . فطلق الملوك يقصونه عن قربهم ويسرونه عن بلادهم . . . وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع الى ما أرادوا (ص ١٦٨) حتى انتهى الأمر باحراق كتبه . نولا بأس أن يكون من أسباب ذلك « تشييعه لأمرأى بنى أمية ، محاضيتهم وباقيهم بالمشرق والأندلس ، وباعتقاده لصحة امامتهم . . . » (ص ١٦٩) .

(١٥) وهنا لا بأس في عرض تلخيص المقرئ لهذا الموقف اذ يقول (نفع الطيب ، بيروت ١٩٤٩ ، ج ١ ص ١٩٩) عن ملوك الطوائف انهم : « صاروا يتبسطون للخاصة وكثير من العامة ، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويجب أن يشهد عنه ذلك عند مبادئه في الرياسة . . . وعندما وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن أيام الجماعة ، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ، ومرتوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرقة وعداوة بعضهم لبعض بقيع المنافسة والطمع . . . الخ » .

المهاجمين (١٦) .

واضطر أهل طليطلة الى مراسلة ابن هود يطلبون الصلح ، بينما كان أميرهم يحيى بن ذى النون يحاول بدوره التحالف مع غارسية أخى فردينان ومنافسه فى الامارة على غاليسيا . فكان بلاد الثغر جميعا من أعلى وأوسط قد دخلت تحت حماية دويلات حرب الاسترداد فى الشمال ، وان كان بشكل تبادلى ، بمعنى أن كلا من ابن ذى النون ، وابن هود الخصمين متحالف مع أمير مسيحي معاد لحليف أخيه المسيحي الآخر . ولقد اعتبر ابن حزم هذا الأمر كرامة أكرم بها الله المسلمين وقتئذ ، والا لما صمدوا أمام الاخوة الأعداء لو اتحدوا (١٧) .

ولكن الذى أضعف موقف يحيى بن ذى النون أكثر ، هو أن أخاه عبد الرحمن (ابن اسماعيل بن ذى النون) كان ينازعه سلطانه وينضم الى جانب المحصوم فكان يدلهم على عورات بلد أخيه ، مما أدى الى سقوط كثير من القلاع المحيطة « بمدينة سالم » بين أيدي الأعداء . وأدى هذا الأمر الى أن حرض يحيى حليفه غارسية بالمسال والذخائر ، على تخريب بلاد ابن هود فيما بين مدينتى تطيلة ووشقة ، وبذلك تم للمسيحيين فتح قلعة من ثغر تطيلة سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . فكان ذلك يحدث دون محاولة من ابن هود للدفاع عن بلاده ومصالح رعيته ، مكتفيا بالاعتصام بأسوار حصونه ، تاركاً الأراضى الزراعية نهبا للعدو . وبدون الأرض الزراعية المحيطة ، ما كان يمكن للقلاع أن تعيش (١٨) .

(١٦) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٨ - حيث دعت الضرورة ابن ذنون الى مخالفة المعتضد بن عباد ، ص ٢٧٩ - حيث مظاهرة سليمان بن هود النصارى ، من : فردينان (فردلند) بن غارسية ، وردمير بن شانجة بن غارسية ، وهم الاخوة الذين كان بينهم من التنافس والتباعد والعداوة والحرب أشد ما بين أبقي (ص ٢٧٩) . ومع ذلك فتت « صب » الله على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاءة له ، فلا يكاد أحد منهم يلقى نصرانيا فى قرار من الأرض الا ويوليه الدبر غير مستحيين من الله سبحانه من الفرار أمامه . . . (ص ٢٨٠) .

(١٧) انظر ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ م ١ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ - حيث النص : « وكان من أعظم ما حبا الله به الاسلام يومئذ عتصما بعث فتنهم (النصارى) ومحدث فرقهم ، وتشتت كلمتهم ، والفارقة بين من أنظر منهم الشتات والعداوة حتى صاروا أسنة المسلمين حذو النعل بالنعل فى افتراق الكلمة وزوال أمر المملكة ، فان الفتنة بأفئنا جاءت يومئذ من المسلمين وزعماء الطاغية حضور وفيهم عدو الله شنجة ابن فردلند . . . الخ » .

(١٨) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٨١ .

وعندئذ يتلخص الموقف بين ملوك الطوائف المسلمين على الحدود الشمالية وبين جيرانهم ملوك أسبانيا المسيحية ، في أن الأسبان كانوا يمثلون طبقة عسكرية خشنة من أهل الجبال ، صناعتهم الحرب ، كالفاتحين العرب الأوائل . فهم يعيشون اما على غزو الأراضى الاسلامية الحصينة ونهبها ، واما على ما يدفعه ملوك الطوائف من الاتاوات السنوية لهم . بينما كان المسلمون فى الجانب الآخر ، مثلما كان أهل البلاد من الأسبان وقت الفتح ، اما زراع أو صناع يقضون وقتهم فى العمل من أجل الرزق ، ثم انهم يهبون للدفاع عن بلادهم اذا تطلب الأمر ، الى جانب قوات أمرائهم الذين كانوا قد فقدوا كثيرا من خشونتهم العسكرية بانصرافهم الى اللبس واللعب منذ مدة ، واستكانوا الى دفع الجزية (١٩) .

وهكذا بينما كان يحيى بن ذى النون يحاول الدفاع عن أطراف مملكته فى مدينة سالم خرج فرديناند ، حليف ابن هود ، وبصحبه ابن عم يحيى ومنافسه ، نحو بلاد طليطلة ، ففرت أمامه جموع أهلها نحو المدينة التى غصت بهم فاضطربت أحوالهم (٢٠) . وعندما راسله أهل طليطلة من أجل الصلح ، اشتط فى شروطه وتصف . وعندما هددوه بالاستعانة بالمرابطين (البربر) أفهمهم أنهم لا يستطيعون ذلك بسبب ما كان بينهم من العداء . وأخيرا كشف لهم عن أهدافه النهائية وهى : استرداد البلاد منهم ، وعودتهم الى بلادهم الأصلية فيما وراء العدو . والمهم أن ذلك حدث قبل ٤٠ (أربعين) سنة من سقوط طليطلة (أى سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م) كانت الأحوال بعدها قد ازدادت سوءا . فعندما توفى سليمان بن هود ، وتنفس يحيى بن ذى النون الصعداء ، كان كل همه الطمع فى أملاك بنى الأفطس فى بطليوس ، الأمر الذى أدى الى سوء العلاقة بينه وبين المعتمد بن عباد ، الذى ضم قرطبة الى مملكته (اشبيلية) بناء على طلب أهل قرطبة (أهل

(١٩) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٥٠ - حيث التدليل على اختلاط الأمور مع قيام عصر الطوائف - بعد قصة سخريه ابن حزم من وجود خلفاء ، دفعة واحدة على أيامه (ص ٢٨٩ وهـ ١٤) برواية تنسب الى أبى الوليد بن جهور ، صاحب قرطبة انه قال : وردت على من الكتب فى يوم واحد : كتاب من ابن صمادح صاحب المرية ، يطالب جارية عوادة ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زاهرة ، وكتاب من لقوط (سكوت : سواجات) صاحب سبتة (مولى يحيى بن على بن حمود) يطلب قارئا يقرأ القرآن ، ويظهر أبو الوليد محبة من ذلك ويقول (بلسان الواعظ) : جاهل يطلب قارئا ... وعلماء يطلبون الأباطيل .

(٢٠) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨١ .

الجماعة) ، بعد ما تناول ابن ذى النون عليهم وحاول اخذ مدينتهم (٢١) .

أما عن آخر بنى ذى النون وهو القادر بالله (حفيد الميامون : يحيى ابن اسماعيل بن عبد الرحمن بن زنون) فهو ناعم لين الجانب . يصفه ابن بسام بأنه أجبن من قير : ان حزم لم يعزم وان سد لم يلحم (٢٢) . وفى مقابل هذه الشخصية الضعيفة الجسم ، الكثيرة المرض ، كان الطاغية أذفنش (الفونس السادس) يظهر لوفود الطوائف ، ثائر الرأس ، كريحه الوجه ، خبيث النفس ، وسخ الثياب ، درن الأظفار (٢٣) . وهكذا لم يقتنع أهل طليطلة بملكهم المتروك ، لولا فقيهم ابن الحديدي الذي كان ما يزال يترأس أهل الحل والعقد ، والحقيقة ان السبب المباشر فى ضياع طليطلة هو ما قام به القادر بالله من الحماقة عندما عول على أن يقبض على مقاليد الأمور بكلتا يديه ، فتخلص من أبى بكر بن الحديدي بطريقة مأساوية ، اذ قتل زعيم أهل طليطلة ، وهو يتعلق بأذياله مستجيرا به دون جدوى .

وهنا انحلت أمور طليطلة ، وكانت قيامة أهلها الذين تأمروا مع المتوكل ابن الأفطس سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، مما أدى الى فرار ابن ذى النون من طليطلة نحو كونكة (Cuenca) على عجل ، وخروج زوجته العامرية وابنته من المدينة واجلتين . وكان من الطبيعى أن يودى ذلك الى تدخل ألفونسو السادس ، حامى ابن ذى النون ، اعتبارا من سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م الى أن انتهت المطاولة بينه وبين الطليطليين الى الاستيلاء على المدينة .

(٢١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - حيث دوام الفتنة بين ابن هود وابن ذى النون من سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٦ م الى ٤٣٨ هـ / ١٠٥٩ م - وحيث طلب صاحب قرمونة (من بنى برزال) المعونة من ابن ذى النون ضد ابن عباد الذى كان قايسه عنها (قرمونة) بحصن المدور . وكيف ان ابن عباد طلب من ابن ذى النون الموافقة على أخذ ، قرمونة مع الإيحاء له بأخذ قرطبة فى نظير ذلك ، ولكنه غدر به ولم يوف له بشئ .

(٢٢) الذخيرة ، ج ٧ ص ١٤٢ - هذا ولا بأس من الإشارة الى ان ابن بسام يعتبر جده : اسماعيل (ناصر الدولة) : رئيس الخلاف ورأس الانحراف ، وأنه كان أول الثوار المارقين للجماعة وأنه صار جرثومة النفاق ، وأول من استن سنة العصيان والنفاق من حيث : رفض طاعة بنى أمية اذ كان يقول : « أحقهم بالملك من استنل به والله ما أولى غير نفسى » .

(٢٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ق ٤ م ٢ ص ١٦٩ ، وقارن ق ١ م ١ ، ص ١٨٤ - حيث وصف شانجه بن غرمية ، ملك قشتالة ، الذى رآه الكاتب أبو أمية بباب تطيلة يلبس ثيابا من ثياب المسلمين ، مع رجوليته وكمال أدواته ، فلا يعدله الا صهره وسميه : شانجه ابن غرمية صاحب البشكنش .

فى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، بعد أن أرهقهم بالضرائب ، وروعهم بالترهيب .
وكان الايذان بسقوط المدينة عندما دخل المدينة المصورة العجيبة ، التى
كان المأمون ، جده ، قد جلب اليها كل حسن ، فاتخذ عروشها مرابط
لأفراسه وايراناتها ملاعب لأراذله وأرجافه (٢٤) .

واذا كانت الرواية تلقى بكل التبعية على أمير طليطلة المترف المسرف ،
الذى كانت تميد الأرض تحت قدميه ، وهو مع ذلك يمسك الأصطرلاب
بيده ليرى فيه أى وقت يرحل ، وعلى أى شىء يعول ، وأى سبيل يتمثل ،
والناس من نصارى ومسلمين يضحكون من فعله ويتعجبون من جهله (٢٥) .
ولكن هذا لا يعنى كما قلنا ابتداء ، أن يلقي بالمسئولية جميعا على كتفى
الرجل الضعيف ، فالخطيئة هى نتاج عصر بأكمله ، والمسئولية تضامنية
يشارك فيها كل ملوك الطوائف ، بل كل أفراد العصر ، لا يتنصل من
تحملها أحد ، كبر أم صغر - فهذه أمثلة التاريخ ، وهى أمثلة أيامنا
هذه .

التدخل المراتبى فى الأندلس :

عملية الانقاذ المراتبية ، ما بين الأمانة والواقع :

كان سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) اذن ، بمثابة نذير لكل
مسلم على كل من ضفتى العدو (المجاز) وليس بالنسبة لأهل الأندلس
وملوك الطوائف فقط ، بأن أراضى المسلمين فى شبه جزيرة ايبيريا أصبحت
فى مهب الريح ، وأن عملية الانقاذ أصبحت أكبر من أن تقس على كاهل
الأندلسيين وحدهم ، من العرب والبربر والمولدين ، ممن حافظوا على نقائهم

(٢٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٥٢ - ولا بأس من الإشارة هنا الى ما تقوله
الرواية عما أنفقه المأمون فى بثيان مجلسه الفاخر المعروف « بالمكرم » من الكنوز التى
جمعها والده اسماعيل ، وما كان يتحمله فى سبيل ذلك من مضايقات صانعه الفنان المتعجرف
دون أن يبالي بما كانت تتعرض له بلاد ابن الأفطس من غارات فريناند المدمرة . وفى ذلك
كان وزيره يقول : انه لم يكن يدري من أى الثلاثة يعجب ، من : ابن ذى النون أم من
نفسه (أى الوزير) لخدمته مثله ، أم من جراءة الصانع على ابن ذى النون (الذخيرة ،
ق ٤ م ١ ، المجلد ٧ ، ص ١٢٩ - ١٤٧ . وعن اختلاف الرواة فى تحديد تاريخ سقوط
طليطلة وغزوة الزلاقة انظر : حسن أحمد حمود ، قام دولة المراتبين ، ص ٢٨١ - حيث
الإشارة الى ان آخر النقود التى ضربت فى طليطلة الاسلامية كانت تحمل تاريخ ٤٧٨ هـ .

(٢٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٦٦ .

العرقى أو ممن اكتسبوا الطابع المحلى فأصبحوا أندلسيين أولا وقبل كل شيء - عن قصد أو عن غير قصد . وهذا هو السند الذى كان يتكىء عليه ملوك الطوائف ، على ألوانهم العرقية ، فى تمسكهم بالاستقلال دونما نظر الى تميز العروبة أو التمسك بالقرشية . وهذا الاتجاه الوطنى الأندلسى الذى استفحل كرد فعل لمجئ دفعات المغاربة الجدد من الصحراويين المرابطين ، ومن بعدهم الجبليين الموحيدين حتى الوطنية الأندلسية فى العصر الموحدى ، هو ظاهرة لا تخفى على أحد بظهور قادة محليين لحما ودما ، مثل ابن ممشك أو ابن مردنيش ، فكان حركاتهم لمن البشائر المبكرة لوطنية العصور الحديثة .

طلب النجدة من يوسف بن تاشفين ، ما بين القبول والرفض :

وهكذا ، فرغم الحاجة الملحة الى نجدة المرابطين التى كانت تملئها الأخوة فى الدين والمصالح المشتركة بين الأندلسيين ، من عرب وبربر وموالى ، فان مصالح الطوائف الخاصة كانت تمنع من ذلك الى حد كبير . وهذا ما عرفه الفونسو عندما هددته ، أهل طليطلة بالبربر (المرابطين) فأكدهم أن الفرقة بين الطائفتين لا تسمح بذلك (ما سبق ، ص ٢٩١) . وهذه الفكرة هى التى تعبر عنها رواية ان خلكان التى تقول ان يوسف بن تاشفين عندما تاق الى العبور الى جزيرة الأندلس (دون دعوة) ، فأنشأ الشوانى والمراكب للعبور ، كره ملوك الأندلس أن يصبحوا بين عدوين : الفرنج شمالا ، والملثمين جنوبا . هذا ، فى الوقت الذى كانوا يخوفون الفرنج بيوسف بن تاشفين (٢٦) ، فكان الاستعانة بالمرابطين كانت مجرد تمويه ليس الا .

والذى يظهر فى رواية ابن الأثير هو أن ملك الفرنج لطلطلة أشاع الخوف (بين ملوك الطوائف) من غلبة النصارى على كل البلاد ، وأنهم عندما تطلعوا الى النجدة من البر الافريقى ، دار بخلوهم الاستعانة أولا بعرب افريقية (من هلال وسليم) ولكنهم خافوا منهم (٢٧) بسبب فسادهم الذى كان قد ذاع على ألسنة شعراء القيروان فى الدولة الزيرية ، فى كل من صقلية والأندلس (ج ٣ ص ٤٢٧ - ٤٢٨) .

(٢٦) وفيات الاعيان ، ملحق ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٢ .

(٢٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥١ .

والحقيقة أن التفكير في الاستعانة بالعرب أولا : يمكن أن ينسب الى آل عباد باشبيلية من حيث انهم من أرومة عربية عريقة (٢٨) . وعلى هذا الأساس تصبح مقولة أن المعتمد بن عباد كان أول من فكر في الاستعانة بمسلمي المغرب مقبولة من حيث المبدأ ، الأمر الذي تؤيده فكرة أنه كان أولى ملوك الطوائف وأحقهم في استيعاب فكرة الوحدة الأندلسية المتقدمة أو الاتحاد ، وهي التي ترمز اليها مدينة أهل الجماعة قرطبة العتيقة ، التي كانت قد انضمت الى أملاك أشبيلية ، بعد قرمونة (ما سبق، ص ٢٩١-٢٩٢) . هذا ، واذا كانت مقولة المعتمد بن عباد : أن رعى الجمال في صحراء الملثمين أحب اليه من رعى الحنازير في جبال غاليسيا وقشتالة (٢٩) ، تعنى الشجاعة المعنوية والتضحية من جانب الأندلسي : سليل الرفاهية والعلم ، فانها تعنى في ذات الوقت منتهى اليأس من فكرة الخلاص كنتيجة محتملة لعملية الانقاذ المرابطية (٢٩ م) . والمهم أن سفير المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين فيما وراء العدو ، كان قاضي قرطبة : ابن أدهم (عبد الله بن محمد) (٣٠) ، سليل قضاة الجماعة (في قرطبة عاصمة الخلافة) - فكأنه رمز الوحدة في عهد الطوائف والغتنة (٣١) .

(٢٨) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢٩) وفيات الأعيان ، ملحق ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٤ - حيث ابتداء النص بأن المعتمد عرف ان الفرج والملثمين ضدان له ، ولكن الملثمين أهون .

(٢٩ م) أنظر للمؤلف ، عملية انقاذ المرابطية للأندلس ، ندوة الأندلس بكلية الآداب بالاسكندرية ، ١٩٩٣ .

(٣٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٩ .

(٣١) وقارن الروض المطار ، عن الزلاقة (ص ٨٣ وما بعدها) ، وملحق ، البيان ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٣٠ وما بعدها - حيث استعانة المعتمد بيوسف بسبب سوء العلاقة مع الفونسو الذي اشتط في مطالبه المالية والاقليمية الى جانب ما تقوله القصة الشعبية من طلب السماح لزوجته بأن تلد في المسجد الجامع في موضع الكنيسة القديمة ، الأمر الذي أدى الى ثورة ابن عباد الذي أقدم على قتل سفير الفونسو اليهودي (الذي قد يبرر ظهور أسطورة الولادة) مما جعل الفونسو يهدد بغزو قرطبة ، وهو السبب المباشر للاستعانة بابن تاشفين . وكان مما جذر به من ملوك الطوائف ابن عباد من يوسف قولهم له : « السيفان لا يجتمعان في غمد واحد » . وكانت السفارة التي كونها ابن عباد للقاء يوسف تتكون من قاضي بطليوس وقاضي غرناطة ويرأسهما ابن أدهم ، قاضي الجماعة بقرطبة ، وهؤلاء لوعظ يوسف وترغيبه في الجهاد ، وأضاف اليهم الوزير ابن زيدون ، فنيا لابرام العقود الرسمية (السلطانية) . مع الإشارة الى الوفود الشعبية التي أتت الى يوسف من ثغور الأندلس مستعطفين ، باكين ، مستنجدين . وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٥٨ وما بعدها - حيث تسلط الفونسو بعد اخذه طليطلة ، ومطالبته باخذ الحصون فلا يهتدى لابن عباد الا السهل . اما عن سفير الفونسو فكان وزيره اليهودي شليب ، ومعه ٥٠٠ فارس ، =

ويتضح من هذا العرض أن ملوك الطوائف بالأندلس كان لهم موقفهم الحذر من دعوة المرابطين الى مساعدتهم فى الحد من خطورة حرب الاسترداد المسيحية ، وأنهم لم يفضلوا « رعى الجمال على رعى الحنازير » بمعنى الخضوع للاخوة الأعداء من البربر المرابطين الا تحت ضغط العامة من أهل الأندلس . وهؤلاء كانوا يستجيبون لتوجيه قيادتهم الروحية الممثلة فى العلماء ورجال الدين ، الى جانب أهل الثقافة والأدب من الشعراء والزجالين والقصاصين . أما عن المرابطين فى المغرب فكان تمددهم نحو الأندلس أمرا طبيعيا ، حسبما كانت تمليه طبيعة الأحوال هناك .

فتح سبتة وعبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس :

٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م - ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م :

سبتة :

إذا كان الشائع لدى مؤرخى الدولة المرابطية أن عبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) يرتبط بشكل عام بفتحه لمدينة سبتة (قلب العدو والمجاز) التى يرتبط فتحها بدورها المتعلق بسقوط طليطلة على يدى الفونسو السادس (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) فان تداعى الأحداث يجعل فتح سبتة تاليا لفتح طنجة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) الذى واكب غارة ألفونسو السادس الكبرى حتى طريقة (ما سبق ، ص ٢٨٥) . وهكذا

= وكان يطالب بـ ١٢ ألف دينار ، ففرقهم المعتمد وقتلهم ، كما قتل اليهودى ضربا بالنعال المسمرة حتى خرجت عيناه . وعن فقهاء قرطبة الذين كانوا يخشون ضياع بقية مدن الأندلس ، فانهم ساروا الى القاضى ابن أدهم يعلمونه بما هم فيه من الذلة . . وطلبوا منه الكتابة الى عرب أفريقية ليصلوا اليهم على أن يقاسموهم فى أموالهم ، والخروج معهم مجاهدين . ولكنه عندما أعرب عن خوفه من أن يخربوا الأندلس ، واقترح مكاتبة المرابطين وافقوا على أن يأتى يوسف بن تاشفين اليهم .

ووافق المعتمد على مقترحاتهم تلك . وتم ارسال القاضى اليه مع الكاتب ابن القصيرة . وقارن القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث كتب أمراء الأندلس ورؤساؤها الى يوسف يستنصرونه ، ويطلبون منه الجواز الى الأندلس ، مع اضافة ان المعتمد عبر بنفسه الى يوسف الذى طلب منه العودة للاستعداد ، وانه يأتى فى اثره . وأنظر ص ١٥٩ - قصة مسير المعتمد الى يوسف فى شكل أسطورة ، يفاجأ فيها يوسف حتى يظن ان ابن عباد أتى اليه بعساكره أو أساطيله ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة ، ص ٧٧ - حيث كان حصار سرقسطة سبب مخاطبة المعتمد ليوسف لينجز وعده ، وصريح الاسلام بالعدو . كما كاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة - وهو تلخيص مستوحى من رواية القرطاس المتميزة عن المرابطين .

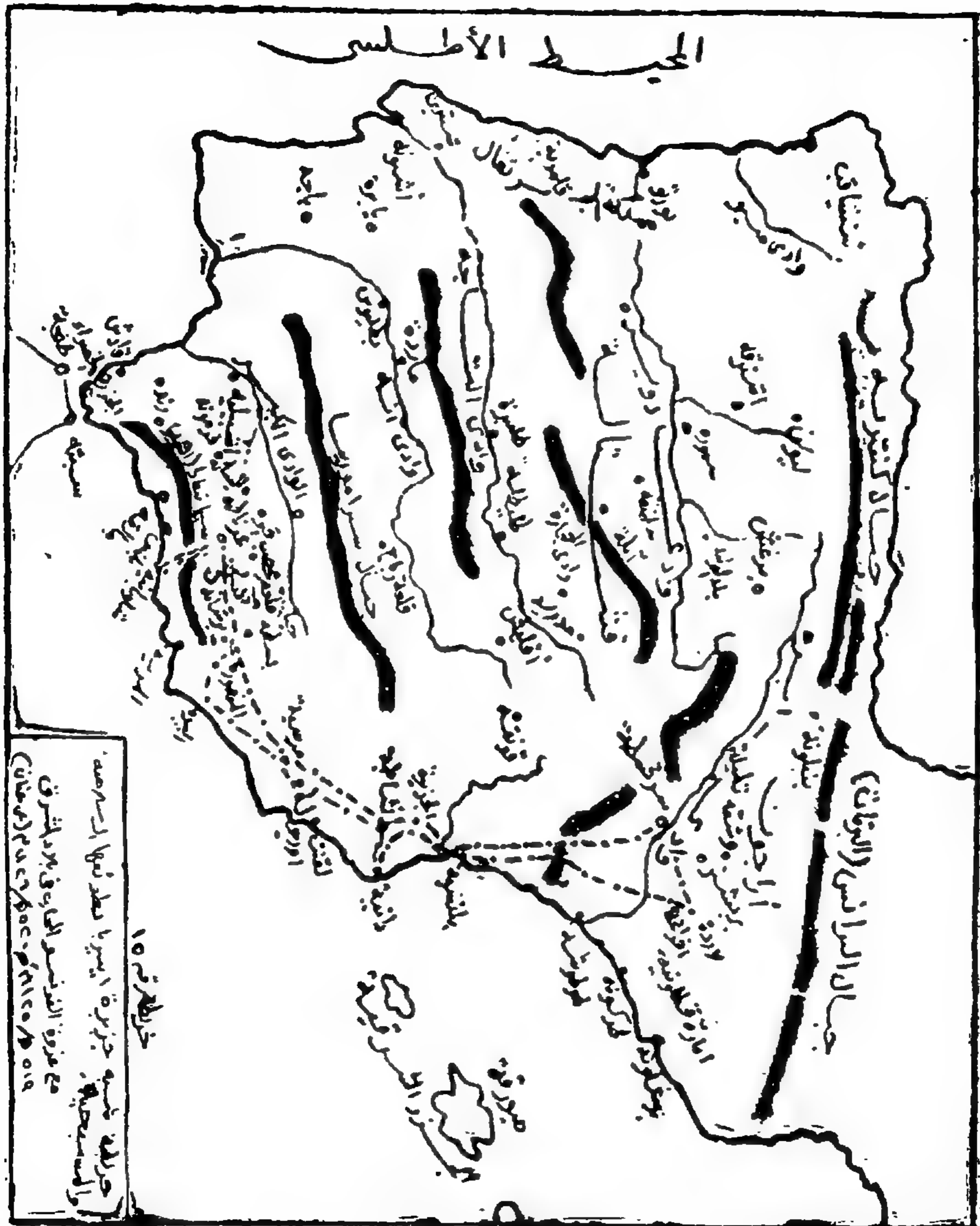
تصبح رواية ابن أبي زرع التي تقدم لنا التاريخ المقبول لفتح المرابطين لسبته ، وهو : شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ / يولييه ١٠٨٤ م ، فى حمية المفاوضات التي كانت دائرة بين يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف من ناحية ، وبين وفود الأندلس الشعبية وبينه من ناحية أخرى ، مقبولة . وكان ذلك الفتح على يدى ولده المعز الذى حاصرها بجيش عظيم حتى استسلمت . ووصل كتاب الفتح من المعز الى والده يوسف وهو مقيم بمدينة فاس ، « ينظر فى أمر الجهاد ويستنفر له قبائل العرب » ، وان كانت الرواية تستطرد قائلة « ففرح (يوسف) ، وخرج من حينه نحو سبته ليجوز منها الى الأندلس » ، فكأنها تربط بشكل تلقائى فتح سبته (٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م) بالجواز الى الأندلس (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) - الأمر الذى يغفر لابن أبي زرع (٣٢) . ويرجع صحة فتح المرابطين لسبته قبل سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) ، أن وفد المفاوضين الأندلسيين الذى أسرع نحو العدو بعد سقوط عاصمة الثغر الأوسط ، وجد ابن تاشفين مقيما بسبته (٣٣) .

وهكذا عندما أتت الى يوسف بن تاشفين وفود ثغور الأندلس مستعطفين باكين اثر سقوط طليطلة (ص ٢٨٦) ، وقرر يوسف الاستجابة لندائهم كانت سبته فى حوزته منذ أوائل سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م . وكان فتح المدينة قد تم بصفة مشروعة ، بناء على فتوى الفقهاء بجواز قتال صاحبها (ابن لكوت - ص ٢١٦) بناء على امتناعه عن فتح المجاز أمام المجاهدين . وبذلك تم اقتحام سبته من قبل الجيش المرابطى الذى كان على أهبة الاستعداد للعبور ، وذلك بمساعدة الأسطول وبمعونة محسوبة من أسطول ابن عباد (٣٤) ، بعد أن تم اجماع الأندلسيين على طلب المعونة ، منذ اختراق

(٣٢) أنظر القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث وضع فتح طليطلة سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م فكأنه فتح سبته ، وحيث عزم الفونسو السادس على دخول سرقسطة بعد أن ملك طليطلة . والصحيح انه كان بعد الغارة الكبرى على طريفة (ما سبق ص ٢٨٥) .

(٣٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ .

(٣٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ - حيث الإشارة الى عبور يوسف مع من طلبه من العساكر من مراکش واقبالها ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٥٩ - حيث الأخذ عما نقله ، أهل التاريخ عن القاضى ابن القصيرة ، وفيه أن يوسف كان ينتظر فى سبته مجيء نية العساكر ، وأنه دخل فى آخر فوج منها . الى جانب تلك الرواية التى تقول بأنه (يوسف) فوجىء بدخول ابن عباد عليه بسبته حتى ظن فزعا انه (ابن عباد) جاء بمساكره ، مما يعنى أنه كان قد جاء مع مراكبه معونة ليوسف ، مما سببت الإشارة اليه (ص ٢٩٦ وهـ ٣٠) .



خريطة رقم ١٥ - شبه جزيرة يبيريا بطوائفها الاسلامية والمسيحية - مع
غزو الفونسو المحارب في بلاد الشرق (٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٢٥-١١٢٦ م)

طريفه - بحسن نية من كلا الطرفين : المرابطي والأندلسي ، أم بغير حسن نية .

العبور :

ربيع الأول ٤٧٩ هـ / يونيه ١٠٨٦ م :

فى هذه الظروف المشوشة بالنسبة للأندلسيين على الأقل ، وفى يوم الخميس ١٥ ربيع الأول ٤٧٩ هـ / ٣٠ يونيه ١٠٨٦ م كان عبور طلائع القوات المرابطية من ساحل سبتة دون عوائق ، لكى تنزل فى الجزيرة الخضراء ، حيث لقيت استقبالا حارا من أهلها الذين قدموا لهم الأقوات والضيافات (٣٥) . وهنا يمكن التفكير فى أن العبور كان عبئا على أهل العدو الأندلسية ، وهو الأمر المقبول ، اضافة الى ما كانوا يقدمونه من المعونة لضعفاء المتطوعين والمساعدة . هذا ، ولو أن أهل المنطقة كانوا يستفيدون أيضا من وجود هذا العسكر الكثيف ، من حيث اقامة الأسواق لهم ، وفيها يعرضون عليهم ما كانوا يحتاجون اليه مما عندهم من السلع : استهلاكية كانت أم حربية معمرة (٣٦) ، الأمر الذى كان يؤدى الى رواج التجارة الداخلية ويساعد بالتالى على زيادة الانتاج .

ومن الجزيرة الخضراء ، واصلت القوات المرابطية مسيرتها شمالا ، جيشا وراء جيش ، وقبيلة بعد قبيلة (٣٧) . وكان عبور الجيوش المرابطية

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ٣٣ . وهنا لا بأس من الإشارة الى ان رواية القرطاس (ص ١٤٥) تشير الى ان ابن عباد وجميع أمراء الأندلس ورؤسائها كانوا فى استقبال يوسف بن تاشفين ، وهو الأمر المستبعد اذ كان يكفى أن يكون ابن المعتمد (والى الجزيرة الخضراء) فى استقبال يوسف بينما يكون الأمراء الآخر مشغولين باعداد الجيوش وتجهيز المؤن اللازمة للحشود . وشبيه بذلك ما تشير اليه رواية الحلل الموشية (ص ٤٩) من نزاع قام بين يوسف وابن عباد بشأن تملك الجزيرة الخضراء (مجاز العدو أوندلسية) قباسا على تملك المرابطين سبتة ، وهو الأمر غير المناسب فى هذا الوقت (وأنظر يوسف حوالة ، بنو عباد ، ص ٢٨٦ وما بعدها) .

(٣٦) ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٢) ص ١٣٣ - حيث النص على خروج أهل الجزيرة الخضراء ، واقامة السوق فى السماط ، مع الاذن للغزاة فى دخول البلد حيث امتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين الذين تواصى أهل المدينة بهم جدا .

(٣٧) ابن عذارى ، (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث النص على انه لحقت بيوسف فى سبتة العساكر والجنود ، وقدمت عليه الوفود ، وأثناء من بلاد الصحراء والقبلة والزاب ، والقبائل والحشود فشرع فى تجهيز الجيوش الى الأندلس الى =

الكثيفة في الأراضي الاسلامية بالأندلس يمثل عبئا اضافيا على كل حال ، بالنسبة لأهل البلاد الذين كانوا يقاسون من اجتياحات فرسان النصاري وجولاتهم الحربية من ردعية وتخريبية . فبينما كان ابن عباد يبعث ابنه الى لقاء يوسف ، كان عمار البلاد يجلبون الأقوات والضيافات التي كان ينوء بحملها أهل البلاد ، وان لم يمنع ذلك من سرور المرابطين بها (٣٨) .

التحالف الأندلسي المرابطي ورد الفعل الاسباني المسيحي :

التهديد لمعركة فاصدة :

ولمهم ان اللقاء بين ابن عباد وابن ناشفين ، وسط وجوه أصحابهما ، كان مبررا عن الود والصدافه ، التي تأكدت عند انترادهما بالمصافحة وانعناق ، والتعاهد على الصبر والرحمة . وكان المعتمد بن عباد قدوة لبيعة ملوك الطوائف الذين خرجوا برجالهم وأعانوا بأموالهم (٣٦) وكان من الطبيعي ان تنير حشود المرابطين والأندلسيين المتحالفه تائرة الفونس السادس (ابن فرذلند) واشفافه ، فقام بدعوة جميع المحاربين من أهل بلاده وكن رجال الكنيسة من الفسييسين والاسافه ، وكذلك رهبان الأديرة ، دورهم في التحريض على الانخراط في صفوف القوات المسيحية ، من : غاليسيا غربا (الجلالة) الى أراجون (أرغونة) شرقا (٤٠) .

وتعبر روايتنا العربية عن قوة الجبهة المسيحية ، حيث يظهر ألفونسو السادس (ابن فرذلند) الذي يستحق أن يلقبه المسلمون « بالطاغية » ، وكأنه صاحب شبه الجزيرة الايبيرية جميعا ، بكل أراضيها من مسيحية في الشمال حيث كون نواة دولة اتحادية كبرى من : قشتالة وغاليسيا وليون ،

= جانب الاشارة الى ان الجيش حوى الى جانب الانجاد من الرجال الصلحاء أيضا ، من الذين يعتبر ابن ناشفين واحدا منهم . وفي ذلك يقال ان يوسف دعا : « اللهم ان كنت تعلم ان جوازي هذا حيرا وصلاحا للمسلمين فسهل على جوار هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » .

(٣٨) انظر فيما سبق ص ٢٩٥ وهـ ٢٩م - عن تعبير الأندلسيين عن ضيق بلادهم عن حمل العساكر الكثيرة ، وانظر البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ - حيث النص على أن يوسف ابن ناشفين كان يسر بهذه الضيافات ، وبهدايا ابن عباد والطاقة ، مما كان يرد الى معسكر يوسف (محلته) - الأمر المقبول بالنسبة للمجاهدين المغاربة في غربتهم .

(٣٩) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٤٠) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ .

أصبحت تدور في فلكها بقية الإمارات الصغيرة ، أو اسلامية في الجنوب .
خاضعة لدفع الاتاوة السنوية من المال والقلاع ، ابتداء من الشجر الأعلى
حيث بنو هود في سرقسطة (أقوى امارات الثغور) ، وانتهاء بأشبيلية
دولة بنى عباد (أقوى ملوك الطوائف) أصحاب قرطبة . وبالتالي أصبح
مؤكد أنه صاحب الحق الشرعي في إعادة الوحدة المفتقدة الى البلاد - الأمر الذي
كان يتطلب حفا ، عملية الانقاذ المرابطية (٤١) .

والحقيقة ان مبادرة الفونسو السادس الى لقاء الحلفاء المسلمين حيث
تجمعوا في عقر دارهم ، تعنى أنه كان على ثقة من النصر ، الأمر الذي أراد
أن يحققه أيضا باللجوء الى الحرب النفسية التي قد تضعف من معنويات
المسلمين ، عن طريق التهديد بقواته التي لا تقهر (٤٢) . ولا بأس أن يكون
المسلمون قد قاموا بدورهم بحرب نفسية مضادة ، فهذا ما يمكن أن يفهم
من الرواية التي تنسب الى ألفونسو السادس رؤيا ركوبه الفيل ونقره
الطبل (على طريقة السودان) فكأنه أبرهة الواصل من انتصاره ، ونهايته
الفاجة ، كما في سورة الفيل (٤٣) .

(٤١) وهنا لا بأس من الإشارة الى ما تقوله بعض المصادر من أن ألفونسو السادس
عندما سمر بتفوقه على كل الملوك من مسيحيين ومسلمين نلقب بالأمبراطور (أمير المؤمنين) ،
بل وسمى نفسه ورئيس الملتين المسيحية والاسلامية ، أنظر الحلل الموشية ، ص ٤٠ ، وأنظر
ابن الكردبوس ، ص ٨٨ - ٨٩ ، ويوسف بن أحمد حوالة ، بنو عباد ، رسالة ماجستير من
جامعة الملك عبد العزيز ، ص ٢٦٢ .

(٤٢) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ - حيث النص على أن ألفونس برز بالمختار
من أنجاد جموعه ، وقال بهؤلاء أقانل الجن والانس وملائكة السماء ، وبناء على تلك المقولة
تحدثت الرواية العربية قوات ألفونس بـ ٤٠ (أربعين) ألف فارس مثقلين بالحديد (دارع) ،
لكل واحد منهم نايح أو اثنان ، فكان اجمالي عددهم ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) رجل يزيدون
قليلًا أو ينقصون - الأمر الذي يشكك فيه صاحب الرواية عندما يقول ان النصاري يتعجبون
ممن يقول ذلك ، فكأن المسلمين يبالغون في تقدير القوة المسيحية ، وان ختم بقوله ان المسلمين
كانوا أقل من المشركين (على كل حال) ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث النص
على أن الفرنج كانوا في ٥٠ (خمسين) ألفا ، وأنهم عندما اجتمعوا تحت قيادة الأدفنش ،
قال : « بهذا الجيش ألقى اله محمد » ، وأنظر التويري ، أبو ضيف ، ص ١٦٠ - حيث
النص على أن حش ألفونس بلغ ٤٠ (أربعين) ألف فارس .

(٤٣) القرآن ، سورة الفيل ، آية ١ ، وذلك أثر المراسلات التي تمت بين ألفونس
السادس وابن يوسف بن تاشفين ، والتي أساء فيها الملك الفرنجي ، المفتر بقوله الى « أمر
المسلمين على لسان بعض أدباء المسلمين » فأمر يوسف كاتبه (أبا بكر بن القصيره) بأن
يختصر اجابته عليه في ظهر كتابه ، في حملة واحدة هي : « الذي سيكون ستره » - تعبيراً =

هذا ، ولا بأس أن تكون قصة عبور الجمال الى الأندلس التي أمر بها يوسف بن تاشفين ، بعد جوازه ، والتي يوردها ابن خلكان ، ضمن الحرب النفسية التي شنّها المرابطون أيضا على الأسبان(٤٤) ، اذ المعروف أن المرابطين لم يستخدموا الجمال في فتوحهم ، خارج الصحراء الا في حمل المتاع ، وربما الطعام ، فالمرءف أن الحصان هو آلة الحرب بالامتياز في بلاد الحضرم ، وهذا ما حدث منذ بدء حرب السوس الأقصى ، ومن ثم في سائر بلاد المغرب حتى الواحات . ومن الواضح أنه لا ذكر للجمال اطلاقا في الموقعة التي مستدور بين الطرفين فيما يأتي سرده .

والحقيقة أن الرواية المتزنة هي التي تقول ان هدف الفونسو السادس عندما قرر المسير الى لقاء المسلمين في عقر دارهم ، كان الحرص على حفظ بلاده من ويلات الهزيمة ، اذا كانت الدائرة عليه(٤٥) - وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من الاعتراف للرجال بالجرأة والمعنويات العالية ، رغم سمعة المرابطين التي كانت تدوى فيما وراء المضيق ، وبما للثقة في عدم خلوص الزوايا في الجانب الاسلامي .

موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) في بظليوس :

ميلان المعركة : ما بين التلقائية والاختيار :

وفي تكييف أوضاع اللقاء بين الفونسو السادس قائد الحلف الاسباني المسيحي ويوسف بن تاشفين قائد الحلف الأندلسي - المغربي الاسلامي نرى أنه تم بايقاع سريع خلال عدة أشهر من ربيع الأول (يونيه) حيث بدأ

= عن الثقة في حكم الله وقضائه . الأمر الذي ارتاع له الأذفنش فكانت الرؤيا التي حطمت معنوياته ، عندما عرف تفسيرها من بعض المسلمين ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، وقارن النويري ، أهر ضيف ، ص ١٦٠ - حيث اضافة بيت الشعر :

ولا كتب الا المشرعة والقنا ولا رسل الا الحميس العرمم

(٤٤) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ (الملحق) - عن وفيات الأعيان ، ص ١١٥ - حيث قيل انه عبر من الجمال بأمر يوسف بعد جوازه ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جمالا ، وأن خيولهم تقلق منها وتذعر . وذلك الى جانب الإشارة الى أن فكرة يوسف من استخدام الجمال « أن يحدق بها عسكره » ، أي أن تكون سائرا للعساكر ، وهذا من فن حرب جمالة الصحراء منذ القديم (أنظر فيما سبق ، ص ٧٦ .

(٤٥) البسان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

العبور الى رجب (اكتوبر) حيث كانت الموقعة انكبيرة . وخلال تلك الفترة ، وأثناء الحشد خارج اشبيلية بلغ يوسف بن تاشفين نبأ وفاة ابنه أبى بكر : سبر الذى كان مريضا بسببة ، الأمر الذى حير ابن تاشفين حتى هم بالانصراف ، كما تهول بعض الروايات لولا أنه أثر الجهاد (٤٦) . والمهم أن اللقاء تم فى موضع بأراضى مملكة بطليوس ، وملكها المتوكل : عمر ابن الأفطس ، بعيدا عن أراضى الفونسو السادس ، والمعتمد بن عباد ، وهما طرفا النزاع الأصيلان منذ البداية ، على أساس كونهما أقوى ملوك الطوائف فى كل من الجانبين ، بصرف النظر عن استنجد الواحد أو الآخر بالهلفاء من خارج البلاد .

والحقيقة أن وقوع المعركة فى أراضى مملكة بطليوس يمكن أن يفسر على أساس جغرافى سياسى مزدوج . فمن الوجهة السياسية كانت امارة بطليوس ، بفضل طموح حكامها (بنو الأفطس) ، منافسة لكل من مملكة طليطلة التى آلت الى الفونسو السادس الذى يريد إعادة الوحدة لاسبانيا المسيحية تحت شعار « الاسترداد » ، ولمملكة اشبيلية حيث ابن عباد الذى يرنو الى توحيد الأراضى الاسلامية بالأندلس تحت رايات اشبيلية وخاصة انه كان يملك وقتئذ قرطبة ، حيث صوت أهل الجماعة ، ممثلى الأمة ، كان ما زال مسموعا - وان بايقاع خافت . فقبل سقوط طليطلة كان ابن الأفطس يهفو الى امتلاك طليطلة - عاصمة الثغر الأوسط ، التى استحوذ عليها فعلا لبعض الوقت (ما سبق ، ص ٢٩٢) . وقبل أن يضم ابن عباد قرطبة ، بكل ما ترمز اليه من وحدة التاريخ الأندلسى وعمظة حضارته الاسلامية ، كان طموح ابن الأفطس (المتوكل) فى الاستئثار بها أمرا سهلا المنال لا يكلفه أكثر من مدينة قرعونة يقدمها ثمنا لسكوت ابن عباد (المعتمد) ، لولا غدر هذا الأخير ، ونكثانه بوعده (ما سبق ، ص ٢٩١) .

وهكذا ، اذا كان ابن الأفطس قد ظهر منذ وقت غير بعيد ، وكأنه الخصم المشترك لكل من الفونس السادس وابن عباد ، فان لقاء المتصارعين فى أرض بطليوس يمكن ألا يكون عقويا بل اختيارا مسبقا . واذا صح ذلك فيمكن إعادة النظر فى أن تكون تهديدات الفونس السادس للمعتمد نوعا

(٤٦) انظر الحلل الموشية ، ص ٦٦ - حيث النص أيضا على ان ابن تاشفين أنفذ القائد مزدلى (أبو عبد الله مزدلى بن سلنكة - ت ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م فى حرب قشتالة) الى مراكش . وانظر المؤلف ، عملية الانقاذ المراكشى فى الأندلس ، أعمال ندوة الأندلس بأداب الاسكندرية ، ١٩٩٣ .

من الدعاية المصطنعة في الجبهة الأندلسية ، تبريرا للإنسحاب من هيوأحي
اشبيلية نحو أراضى بطليوس في اتجاه مسار الفونس ، الى جانب تحريض
المسلمين على حسن الاستعداد للمعركة - بطبيعة الحال - أما من الناحية
الجغرافية فان أرض بطليوس ، من حيث كونها آخر الأراضى الإسلامية
المواجهة لطليطلة في منطقة الغرب ، تجعل من موقع اللقاء نفرا أو جبهة
قتال طبيعية ، ليست ملكا لأحد من المتحاربين ، فهي : « أرض لا صاحب لها »
(no man's land) ، حسب المصطلح الحديث . وبذلك يكون موضع اللقاء ،
حينئذ ، مناسباً لجميع الأطراف ، حسبما كانت تقضي أعراف الحرب والسلام
في تلك العصور وتقاليدها .

وقعة الزلاقة :

واذا لم تكن هناك نصوص تشير الى اتفاق مسبق بين المتحاربين على
موضع المعركة في أرض الزلاقة (ساكر الياس : (Sacralias)) بمعنى
السهلة (٤٧) ، فهناك روايات تنص على أن وفود الجواسيس كانت ترى على
الجانبيين : الاسلامى والمسيحي ، تنقل الأخبار من صحيحة ومصطنعة ، كما
توجد روايات يفهم منها تبادل الرأى حول وقت اللقاء (السبت أو الاثنين) .
ويمكن أن تكون قرينة على نوع من الاتفاق حول المكان أيضا - وإن كان ذلك
بشكل ضمني . فالمفترض أن الفونسو السادس الذى كان يحاصر
سرقسطة ، ترك النفر الأعلى متجها نحو طليطلة ، وقد أرسل الى كل من
رذمير (سانشو راميرز ، ملك أرجوان وصاحب بنبلونة) الذى كان يحاصر
طرطوشة ، والبرهانس (البارفانيث : (Alvar Fanes)) القائد القشتالى
وابن أخى السيد القمبيطور ، الذى كان يحاصر بلنسية ، للحاق به
بجيوشهما . كما لحقت به حشود أخرى من قشتالة وغاليسيا وبنبلونة (٤٨) ،
وذلك على الطريق الى الزلاقة ، مرورا بطليطلة وعبروا وادى تاجه ، الى أن
وقف فى مواجهة الجيوش الإسلامية التى كانت تعرف مسيرته ، وتتجه هى

(٤٧) أنظر القرطاس ، ص ٤٦ ، وهـ ٨٨ - حيث الزلاقة = السهلة ، والإشارة الى أن
نهر بطليوس كان يحجز بين الفريقين ، وكل منهما يشرب منه وعن الزلاقة (حديثا :
(Sagrajas) التى تعنى بالعربية الزلقة ، فكانها من نوع السبخة ، أنظر الحلة السبراء ،
ص ١٠١ ، وهـ ١ - حيث ينص حسين مؤنس على أن الموضع يقع على أحد نهيرات وادى آنه ،
ويعرف باسم جريرو (Guerrero) على بعد حوالى ١٢ كم شمال بطليوس ، مع الإشارات
الى أن الفضل يرجع الى زايبولد (Seybold) فى تحديد هذا الموقع .

(٤٨) القرطاس ، ص ١٤٥ ، وهـ ٨٦ .

الآخري للقائه (٤٩) .

وحط الفريقان كل في معسكره (محلته) ، وبينهما مسافة فرسخ
أى حوالى (ثلاثة) أميال . والذى يفهم من الروايات أن العلاقات بين
الطرفين كانت متصلة بشكل علنى عن طريق السفارات ، وبشكل سرى عن
طريق الجواسيس (٥٠) . وإن الحرب والسلام كانا موضوعا للمناقشة . وهكذا
تتول رواية البياسى التى ينقلها ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين عرض على
الفونسو السادس (الادفنش) ، من مركز القوة وكأننا فى عصر الفتوح

(٤٩) أنظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ١٠٠ - حيث النص على أنه لحق بيوسف خارج
أنسبيلية كل من : صاحب غرناطة (بلكين بن حبوس الصنهاجى) فى نحو ٣٠٠ (ثلاثمائة)
فارس ، وأخوه تميم من مالقة فى نحو ٢٠٠ (مائتى) فارس ، وابن صاحب المرية فى عدد
ولل من الخيل . ونص الرواية على أن ابن تاشفين تقدم مستعجلا فى حركته الى بطليموس ،
وإن عباد وراءه . وإن المتوكل صاحب بطليموس ، خرج اليهم وأوسعهم برا وضيافة .
أما الفونسو فكان وصوله عشية الجمعة ، وأنه اقترح أن يكون اللقاء بعد يومى الجمعة (عيد
المسلمين) والأحد (عيد النصرى) أى يوم الاثنين (اليوم المفضل عند المسلمين وكذلك
يوم الحميس) ، فكان ذلك نوعا من الاتفاق أو على الأقل موضوعا للمناقشة ، وقارن القرطاس ،
ص ١٤٦ - حيث قصد الفونس يوسف الذى قصده هو الآخر (حسبما تسمح حدود بطليموس) ،
وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث النص على أن الفونس (ابن الفونس) ملك
الجلالة جمع أم النصرانية لقتاله (يوسف) بالزلاقة ، وأنظر الترجمة ، ص ٧٨ ، وه ١ -
حيث النص على أن ابن خلدون يعرف أن اسمه الفونس وإن أباه فرديناند وأنه ليس ملك
الجلالة (غاليسيا) فقط ، بل وليون وقشتالة . وهو يشير الى وجود نقش فى كتدرائية
سان جان دى كومبوستل مؤرخ بسنة ٨٧٤ م / ٢٦١ هـ يبين أن الفونس السادس وقتئذ ،
كان ملكا لأشتوريش (غاليسيا) وليون .

(٥٠) أنظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث تواجه الجيشان فى الموضع لمدة ٣ (ثلاثة)
أيام ، والرسل تختلف بينهم الى أن اتفق رأيهم أن تكون الملاقاة يوم الاثنين ١٤ رجب ٤٧٩ هـ /
٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، كان المعتمد « يجعل (خلالها) على عسكر العدو عيونا على خيل سبق
يأتونه بأخبارهم » ، وأيضا ص ١٥٠ - حيث نص الكتاب الذى يقال أن يوسف أرسله الى
العدو ، وفيه خیرنا العدو فاختر الحرب ، . . . وإن الاتفاق تم على الملاقاة يوم الاثنين ١٤
رجب . . . وأضمر اللعن خلاف شرطنا . . . وجعلنا عليهم العيون التى أنتنا فجر يوم الجمعة
١١ رجب بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين . وهنا لا بأس من الإشارة الى أن معسكر
المرابطين كان موضوعا تحت رقابة صارمة من المعتمد بن عباد نفسه ، والذى كان يستخدم
البريد الطائر عن طريق الحمام الزاجل ، أنظر الحميرى ، الروض المعطار ، القاهرة ١٩٣٧ -
(الزلاقة رقم ٨٢) ، ص ٨٨ - حيث جواسيس كل فريق مترددون بين الجميع ، وص ٩٠ -
حيث رقابة المعتمد بنفسه لمعسكر الصحراويين ، وأنظر نفس النص فى ابن عذارى ، ج ٤
(ملحق ٢) ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

الأولى ، الاختيار ما بين : الاسلام أو دفع الجزية أو الاحتكام الى السيف^(٥١) ، وهو الأمر المقبول من جانب المجاهد الأصولي ، وهو ما قد يفسر لما ينسب الى الأذفتش ، من ثورة عارمة وتهديدات طنانة (ما سبق ، ص ٣٠٠) .
والمهم أن المعركة وقعت في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٨٦ م^(٥٢) .

إدارة المعركة :

أما عن سير المعركة فالمهم أن ادارتها كانت ليوسف بن تاشفين الذي قسم القوات الاسلامية الى ٣ (ثلاثة) جيوش ، أولها : جيش الأندلسيين الذين جعلهم يوسف وحدة واحدة ، ملتفة حول المعتمد بن عباد في مركز القلب ، وهو جيش المقدمة أو الصدام مع العدو^(٥٣) . أما عساكر المرابطين فقد ونقسموا الى قوتين ، أولاهما : جيش يتكون من ١٠ (عشرة) آلاف غارس بقيادة أبي سليمان داود بن عائشة ، فهو الجيش الثاني الذي كان

(٥١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان (يوسف بن تاشفين) ، ط . بيروت ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٦ (ونفس المصدر في ابن عذاري ، ج ٤ ملحق ١ ص ١١٥) - حيث البياسي : أبو الحجاج يوسف بن محمد ، وكتابه : « تدكير العاقل ونبيه العاقل » الذي يورد روايات تفصيلية جديدة عن الزلاقة ، وان لم يشر الى مصدرها ، القرطاس ، ص ٩٠ .

(٥٢) ابن خلكان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ (نفس المصدر في ابن عذاري ، ج ٤ (ملحق ١) ، ص ١١٦) ، وانظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث الوقعة في ١٤ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، وقارن الروض المطار ، ص ٩٤ - حيث صدور كتاب المعتمد من المحلة الى ابنه في اشبيلية بتاريخ ٢٠ رجب . ولا بأس من الاشارة الى ما قيل من أن الفونسو أراد الغدر بالمسلمين يوم الجمعة ، وكان قد قرر أن يكون السبت (حسب البياسي) أو الاثنين بعد الأحد ، عيد النصر (حسب ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث الوقعة يوم الجمعة - في العشر الأول من رمضان) ، وقارن التويري ، أبو ضيف ، ص ٣٨٦ (العشر الأول من رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ م وهـ ٢٤ حيث الاختلافات في تحديد التاريخ من سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، مع اعتماد الجمعة ١٢ رجب : تاريخ خطاب الفتح ليوسف بن تاشفين ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث اليوم المشهود (الزلاقة) سنة ٨١ (٤) هـ / ٢٤ أكتوبر ١٠٨٦ م ؟ .

(٥٣) حسب رواية ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، على أساس أن الأندلسيين أصحاب خبرة بالبلاد وبالأعداء الاسبان المسيحيين ، وانظر القرطاس ، ص ٤٦ - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين أمر أمراء الأندلس ، ابن صمادح (المزية) وابن حبوس (غرناطة) وابن مسلمة (الشمر الأعلى) وابن ذي النون وابن الأفطس أن يكونوا مع المعتمد ، فنكون محلة الأندلس واحدة .

عليه أن يتبع جيش الاندلسيين ، فكأنه ساقه لهم حماية (رداء) • أما الجيش المرابطى الآخر فعماده الحرس الأميرى الخاص المكون من المماليك انسودان على وجه الخصوص والقراية المقربين تحت لواء الأمير يوسف القائد العام (٥٤) •

أخبار الجواسيس :

وبناء على المعلومات السرية الواردة الى المعسكر الاسلامى ، واتفق عرف منها أن هجوم العدو سيوجه الى ابن عباد أولا فى محاولة لكشفه حتى يسهل على العدو التعامل بعد ذلك مع الصحراويين الذين لا يعرفون البلاد ، قرر ابن تاشفين ادخال تعديل على مهام الكمين الذى كان يعده لمفاجأة العدو . وذلك أنه أمر واحدا من قواده بأن يسير بكتيبة خاصة عينها له يقتحم بها معسكر الفونسو السادس ، أثناء انشغاله بقتال ابن عباد ، فيضرمه نارا (٥٥) •

والمهم أن أخبار الجاسوسية الأندلسية كانت صادقة فى الهجوم الوشيك للعدو ووجهته ، اذ لم تلبث أن ظهرت « طلائع ابن عباد والروم فى اثرها » ، الأمر الذى أدى الى اضطراب المعسكر الاسلامى الذى كاد يروح نهبا للفوضى ، وخاصة عندما كثف العدو هجومه حتى غمرت خيله المعسكر الأندلسى الذى كادت تحل به الهزيمة التامة • ويرجع الفضل فى صمود الجيش الأول (الأندلسى) الى المعتمد بن عباد ، وهو الرجل المترف الذى أظهر من العزم والثبات فى تحمل الضربات ، ومن البطولة والقوة فى مناجزة الأعداء ، ما صار مضربا المثل فى الشجاعة والصبر على تحمل المكاره.

(٥٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، يوسف بن تاشفين ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٧ (وملحق ١ فى ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٦) - حيث النص على ان ابن عباد اختار (بمحض ارادته) أن يكون المصادم أولا : وان انهزم يميل عليهم يوسف ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٠ (ملحق ٢ فى ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٣٦) - حيث النص على أن ابن المعتمد أذكى عبونه فى محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكاييد ابن فرذلند (الفونس) اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ... حتى كان يطيف بنفسه بالمحلة ويضع الكراديس من الخيل على أفواه طرق محذتهم •

(٥٥) الروض المعطار ، ص ٩٢ ، (ملحق ٢ من البيان ، ج ٤ ص ١٣٧) - حيث كان ابن القصيرة كاتب ابن عباد الوسيط فى تعريف يوسف بن تاشفين بما كان يرد للمعسكر الأندلسى من أخبار العدو ، وأنظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث اعداد ابن عباد كتابه وجهل عبونه على عسكر العدو يأتونه بأخبارهم وما يرونه من حركاتهم •

والآلام (٥٦) .

تباطؤ « حركة المرابطين » :

وتميل الرواية الأندلسية المنسوبة الى البياسى ، والتي ينقلها ابن خلكان ، الى تأخر الجيش المرابطى الثانى الذى كان تحت امره داود بن عائشة فى التدخل الى جانب الأندلسيين أصحاب الجيش الأول بقيادة المعتمد بن عباد ، الأمر الذى يثير الشك فى كون أصحاب تلك الرواية ممن يرون أن يوسف بن تاشفين ربما فكر فى انهاك قوى الجانبين : الأندلسى والاسبانى المسيحى فى القتال ، حتى ينتهى الأمر بانفراد القوة المرابطية ، وحدها بالبلاد ، دون منافس . ولكنه يستشف من تفاصيل القتال فى رواية صاحب القرطاس التى تظهر موالية للمرابطين ، على أساس أنها تعبر عن الرواية المرينية المناهضة للموحدين خلفاء الأعداء المرابطين ، أن ادارة المعركة التى انفرد بها يوسف بن تاشفين اتسمت بالحنكر والذكاء ، وخاصة فى تحريك القوات فى الوقت المناسب ، الأمر الذى ترتب عليه الانتصار الحاسم (٥٧) .

فمن الواضح أن داود بن عائشة أدى المهام التى كلف بها من القائد الأعلى فى وقتها المقرر ، واذا كان هناك من لوم فانه يقع على عاتق أمراء الأندلس الذين انتثروا فى أول صدام ، بشكل يشبه الهزيمة ، حيث وصلوا فى فرهم (فرارهم) حتى دشارف بطليوس ، الأمر الذى أدى الى حرج موقف ابن عباد .

(٥٦) أنظر الروض المعطار ، ص ٩٢ - حيث النص على أن « ابن فرذلند (الفونس) سمال على المعتمد بجموعه ، وأحاطوا به ٠٠٠ (وان المعتمد) صبر صبرا لم يعهد مثله لأحد » .
وانه أثنى جراحات ، وضرب رأسه - كما تبالح الرواية - ضربة فلفت هامته حتى وصلت الى صدعه وجرحته اليمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه ، وعقرت تحته ٣ (ثلاثة) أفراس ، وهو يضرب يمينا وشمالا ، (وقارن نفس الرواية فى الملحق فى البيان ، ج ٤ ص ١٣٧) ، وأنظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ١٠١ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث النص على أن المعتمد أرسل الى يوسف أن يكون على أهبة الاستعداد لأن العدو صاحب مكر وخديعة فى الحرب .
وان يوسف عندما علم بزحف العدو فى فجر الجمعة (١٠ رجب) أرسل قائده المظفر داود بن عائشة فى جيش عظيم من لمتونة ووجوه المرابطين وأقبالهم ليكونوا طليعة له .

(٥٧) عن أدب الزلافة وما قيل فيها ، أنظر حسن أحمد محمود ، قيام المرابطين ، ص ٢٧٣ ، وعن اختلاف مواقف المشاركين فيها من الأندلسيين والمغاربة ، أنظر نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

الكمين : الحرس الأميري يحسم المعركة :

والمهم أن ابن عائشة التحم مع قوات البرهانس (الفارفانيث : Alvar Faniez) التي احاطت بابن عباد في ذلك القتال المحتدم فلم يقوم ميزانه ، بل ظلت كفته تتأرجح لصالح العدو . وعندما تقدم ألفونسو السادس هو الآخر بقواته فوق في جيش داود بن عائشة الذي كاد حينئذ يساقل ، وهو يحسبه جيش يوسف بن تاشفين ، رأى هذا الأخير أن ينفذ خطة الكمين الذي يفاجئ معسكر ألفونس ، وهو مشغول بالقتال ، بالحرق والتخريب . وخرج ابن تاشفين من وراء المرتفع الذي كان يتخفى فيه بحرسه الخاص من ممالك السودان وطبولة التي صدعت الجو ، مع المقربين من لتونه وغيرهم بقيادة سير بن أبي بكر ، لكي يشاركوا في ضرب محله ألفونس واضرامها نارا تشتعل (٥٨) .

وفوجيء ألفونس السادس بالفارين من محله التي راحت نهبا للحريق والقتل والتدمير ، فأسرع نحوها بجيشه ليقع فريسة لقوات الحرس الأميري المدربة ، التي أطلق منها يوسف عليه ٤ (أربعة) آلاف مملوك من السودان الذين يحسنون حرب الالتحام بالمزاريق يصيبون بها الخيل ، والحناجر يطعنون بها الرجال والفرسان ، فكان نصيب ألفونس طعنة خنجر هتكت حلقات الزرد وأصابع الفخذ ، وعوقته مدى الحياة (٥٩) .

(٥٨) القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث ابن عائشة في جيش عظيم ، طليعة ليوسف بن ناشين - وحيث قسم ألفونس عسكره على فرعين : واحدة بقيادته وقع بها في جيش ابن عائشة والأخرى بقيادة البرهانس (الفارفانيث) داهموا محلة ابن عباد وهزموها ، فلم يثبت منها الا ابن عباد وجيشه ، وص ١٤٨ - حيث سار سير بن أبي بكر اغاثه لابن عائشة وابن عباد ، في قبائل المغرب وزناة ، والمصامدة وغماره وسائر قبائل البربر الذين كانوا في محله ، ومسير يوسف في لمونة والمرايطين الى محلة ألفونس لاحراقها وقتل من بها من الرجال والفرسان .

(٥٩) وفيات الأعيان ، ج ٧ ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ - حيث نص البياسي : « ودهمتهم خيل العدو فغمرت ابن عباد ٠٠٠ وفر رؤساء الأندلس ٠٠ فركب أمير المسلمين ، وأحرق به أنجاد خيله ٠٠ فعمدوا الى محلة الأدفنش فاقنحموها وقتلوا حاميتها ، وضربت الطبول فاهتزت الأرض وتزاحفت الروم الى محلتهم ٠٠ فقصدوا أمير المؤمنين ، فأفرج لهم عنها ثم كر فأخرجهم منها ٠٠ ولم الكرات بينهم تتوالى الى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء ٤ (أربعة) آلاف ، ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها ٠٠ وتلاحق الأدفونش بأسود فدق مزاريقه بالدف ، فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على أعنته ، وانتضى خنجرا كان منتظا به ، فأثبتته في فخذه فهلك حلق درعه ، ومشك فخذه ، مع بدء سرجه ، ٠٠٠ وصدقوا الحملة على =

الربيع والخسارة في المعركة الفاصلة :

وهكذا انتهت معركة الزلاقة الى صالح المسلمين في الأندلس والمغرب - رغم قلة عددهم النسبية - واعتبرها كثير من كتاب المسلمين وكأنها من الوقائع الفاصلة في تاريخ الاسلام - وهو الأمر الصحيح ، ليس من حيث النتائج المباشرة فقط ، بل والمستقبلية لفترة جاوزت القرن ، وسمحت بتدخل الموحدين في الأندلس بعد حين من تدخل المرابطين ، فتنفس الصعداء فيها العرب والمسلمون (٦٠) .

ولقد كانت الهزيمة تامة على ألفونس السادس الذي نجح في الهرب تحت جناح الظلام مع قلة من المحيطين به ، لا يتجاوز عددهم الـ ٥٠٠ (خمسمائة) فارس (٦١) ، بينما بقي معظم رجاله في أرض المعركة ، لم

= الأدفنش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم (ونفسه في ملحق البيان ، ج ٤ ص ١١٧) . وقارن الروض المعطار الزلاقة ، ص ٩٢ - ٩٣ - حيث : نفس مجيء ابن عائشة ، عن ابن عباد قبل اقبال يوسف ، وعهور ربيع الظفر وتباشير النصر ، ثم رجوع المهزمين حين علموا بالتحام الفتنين ، فانكشف الطاغية ، وفر هارباً من زما ، وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي أثرها بقية عمره ، فكان يجمع لها (وملحق ، البيان ، ج ٤ ص ١٣٨) ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٨ - حيث النص : « فأخبر (ألفونسو) بحرق محلته ونهبها ٠٠ فرد وجهه الى قتاله (أمير المسلمين) وكان على فرس أنثى يمر بين صفوف المسلمين يحرصهم ويمرؤ نفوسهم على الجهاد والصبر ٠٠ فقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة » . وعندما رأى ابن عباد وأصحابه انهزام الروم ٠٠ شدوا عليهم وحمل الفائد سير (عليهم) فاستمرت الهزيمة على الروم ٠٠ وتراجعت الطائفة المنهزمة من المسلمين . واشتد القتال على ألفونسو حتى أيقن بالفناء .

(٦٠) أنظر الحلة السبراء (لابن الأبار) ، ج ٢ ترجمة المتوكل (عمر بن محمد ابن الألفطس) رقم ١٢٨ وص ٩٦ وه ٢ - حيث يقول ابن جهور (عبد الله بن أحمد) ، أحد مشاهير أدباء وفقهاء أشبيلية في القرن السادس الهجري (٥١٦ - ٥٩٦ هـ / ١١٢٢ - ١٢٩٩ م) ، في الزلاقة وكأنها معركة العالم العربي وقتئذ :

لم تعلم العجم اذ جاءت مصمة يوم العروبة أن اليوم للعرب

وقارن القرطاس ، ص ١٥١ - حيث هذا البيت لأبي جوهري ، وأيضاً لابن اللبابة :

يوم العروبة كان ذاك الموقف وأنا شهدت فأين من يستوصف

(٦١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث النص على أن « أمير المسلمين سار الى خيام

الفرنج ونهبها فانهزم الفرنج ، ونجا الأدفونش في نفريسير ، ثم النص (ص ١٥٤) على انه لم يرجع من الفرنج الا ٣٠٠ فارس ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٣ - حيث النص على ان ألفونس لجأ (بعد الهزيمة) الى قل كان يلي محلته (معسكره) في نحو الخمسمائة فارس ، كلهم مكلوم (نفسه : ملحق في البيان ، ج ٤ ص ١٣٨) ، القرطاس ، ص ١٤٨ -

ينج منهم الا من لاذ بالفرار ، كما آلت عدده وسلاحه للمسلمين وطيرت كتب النصر مع الحمام الزاجل من ميدان المعركة الى اشبيلية مباشرة ، كما حملت مع رجال الأخبار الى غيرها من المدن ، وعبر المجاز الى مراكش باسم « أمير المسلمين » . ولتأكيد كتب انتصار الزلافة هذه ، انتهى يؤيدها قول الشاعر : « السيف أصدق انباء من الكتب » ان نماذج من جماجم قتلى الأعداء سيرت الى عواصم الأندلس وكذلك الغرب - كشاهد مادي على الانتصار الكبير في الزلافة (٦٢) .

هذا ، ولا بأس من الإشارة الى أن المسلمين دفعوا ثمننا باهظا نظير هذا النصر الكبير في تلك « الغزوة المباركة » . فاذا كانت رواية القرطاس تبالغ ، من غير شك ، في مقولة أن عدد القتلى من « الروم » (الاسبان المسيحيين) بلغ ٣٨٠ ألفا ما بين فارس (١٨٠ ألفا) وراجل (٢٠٠ ألفا) ، فأغلب الظن أن تلك الاحصائية الحزنية في جبهة العدو ، هي المقدمة المقبولة لفاجعة استشهاد ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) رجل من المسلمين - وهو الرقم الذي نراه قريبا من الواقع (٦٣) .

= حيث : فلما رأى الفونسو ان الليل أقبل مر مهزوما على وجهه في نحو ٥٠٠ فارس على غير طريق ، (ص ١٤٩) - حيث مات منه ٤٠٠ فلم يدخل طليطلة منهم الا ١٠٠ فقط ، وركبهم المرابطون بالسف يقتلونهم في كل فج وسهل الى ان حال الليل بظلمته بينهم . (٦٢) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٨ - حيث النص على أن أصحاب الأدفونش « افلتوا بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلهم من الآلات والآنية والمضارب والأسلحة » وأمر ابن عبيد بضم رؤوس القتلى من الروم ، فنشر منها أمامه كالتل العظيم ثم كتب ابن عبيد الى ولده الرشيد ، كتابا ، وأطار به الحمام يوم السبت ١٦ محرم يخبره بالنصر (نفس البيان ، ملحق ج ٤ ص ١١٧) ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٣ - حيث القول بشيء من المبالغة انه بعد لجوء الأدفونش الى مرتفع : « وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها ، وابن فردلند ينظر الى موضع الواقعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محيطا به وبأصحابه » (نفس البيان ملحق ٢ ، ص ١٣٨) ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث : ويات المسلمون على خبولهم تلك الليلة يقتلون ويأسرون ويغنمون ، وأنهم صلوا صلاة الصبح وسط المقتلة . وأن (أمير المسلمين) أرسل من جماجمهم ١٠ (عشرة) آلاف الى اشبيلية ، ومثلها الى : قرطبة وبلنسية وسرقسطة ومرسية ؟ كما بعث الى بلاد العدو ٤٠ (أربعين) ألفا قسمت على مدنها ؟

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث ينفرد ابن أبي زرع بهذه الاحصائيات الكبيرة العدد ، وان كانت مقبولة نظرا للامتحانات الصعبة التي واجهها المسلمون أمام قوات الأدفونش والبرهانس وحلفائها ، التي جعلت من النصر وكأنه - حتى آخر ساعات « يوم الزلافة » - أمنية صعبة =

التقييم الحتمى للزلافة :

ودون محاولة استقصاء نصيب كل من الأندلسيين والمرابطين فى تلك التضحية الباهظة بالدم ، أو التساؤل عما حصل عليه كل من يوسف بن تاشفين وأمراء الأندلس من المكاسب المادية والأدبية ، نرى أن المعركة بوقائعها السلبية كانت خسارة مادية - بشكل أو بآخر - لكل الأطراف المتحاربة . وإذا كان الطرف الاسباني المسيحى هو أكثر الأطراف خسارة فى الرجال والعتاد ، فإن المرابطين بدورهم كانوا أكثر الخاسرين فى الجهد والنفقات ، من حيث طول مسيرتهم ذهابا وإيابا من الجنوب المراكشى ، وركوب البحر ، وتجشم القتال فى بلاد غريبة . وأكثر من ذلك تلك الصدمة النفسية التى أصابتهم لما عاينوه بالأندلس من الترف الذى لم يصيبوا منه شيئا طالما تحددت مهمتهم فى المعركة وحدها دون مقدمات فى التعرف على البلاد ، أو عائدات مادية تقابل ما بذل من الجهد والعطاء . حقيقة أن الأندلسيين قدموا لهم الترحيب والضيافات ، قبل أن تكلل هزيمتهم هالات النصر والفخار ، ولكن ذلك لا يكافئ وزن الفداء ، على كل حال .

والحقيقة أيضا أنه لكى تتم الفائدة من دعوة المرابطين الى الأندلس كان ينبغى أن يستثمر النصر الى أقصى حد ، بمعنى أن يدفع المهزوم تكاليف المعركة ، من الأموال والأراضى وناتج العمل . وهذا ما كان يراه المعتمد بن عباد عندما طلب من يوسف بن تاشفين استئصال شأفة الأذفونش بعد هزيمته ، وهو ما لم يستجب له أمير المرابطين . ولقد فسر الجانب الأندلسى اصرار ابن تاشفين على عدم متابعة الأذفونش ، بأنه خاف أن ينتهى بهلاكه السبب فى دعوة المرابطين الى الأندلس ، فكأن الأندلسيين كانوا يرغبون فى استغلال المرابطين لتحقيق أهدافهم الأنانية ، فى الوقت الذى رأى فيه ابن تاشفين أن انقاذ الأندلس واجب سياسى دينى لا مناص منه فى كل وقت وحين (٦٤) .

= المنال . وأنظر فيما سبق ، هـ ٥٩ ص ٣١٠ - حيث نحريض ابن تاشفين - فى آخر لحظات القتال - على الشهادة والجنة ، وقتال المسلمين قتال من يطلب الشهادة - وأنظر الروض المعطار ، ص ٩٤ - ٩٥ - حيث النص على أنه كان من بين كبار الشهداء : ابن رميلة ، وقاضى مراكش أبى مروان عبد الملك المصمودى ، وغيرهم .

(٦٤) أنظر الروض المعطار ، ص ٩٣ (ملحق ٢ فى البيان ، ج ٤ ص ١٣٩) - حيث النص على أن شيع بن عباد قالوا بخوف يوسف من هلاك العدو فيقع الاستغناء عنه ، وقال شيع يوسف إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى الأندلس ، بينما قال المحايدون أن كلا من الرجلين أسر حشوا فى ارتقاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب .

وهكذا تكون وقعة الزلاقة (المباركة) قد فشلت ، رغم تحطيم قوات العدو الاسباني ، فى تحقيق أهم أهدافها ، وهو استرجاع الأراضي الاسلامية المفقودة فى طليطلة ، وهى سبب استدعاء المرابطين . والحقيقة أن القاء تبعة ذلك الفشل على نوايا كل من الطرفين ، حسنة كانت أم سيئة مشتركة بينهما ، فالصحيح أن عملية الانقاذ لم يكن يكفيها جبهة موحدة أو متحدة ، بل جبهة واحدة ، الأمر الذى يعنى انفراد المرابطين بالأمر فى الأندلس ، حتى تركز موارد البلاد جميعا لمواجهة حرب الاسترداد ، بدلا من تبديد تلك الموارد فى أعمال الترف والفساد فى بلاط الأمراء ، الأمر الذى كان يعيه أفراد الطبقة المثقفة مثل القاضى أبى الوليد الباجى (٦٥) ، بل وأمراء الأندلس أنفسهم ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد عندما فضل رعى الجمال على رعى الخنازير (ما سبق ، ص ٢٩٥) .

حرب الاحلال والتجديد المرابطية :

وبذلك تكون حرب احلال وتجديد اسلامية قد قامت من قبل المرابطين، الى جانب حرب الاسترداد المسيحية ، ضد أمراء الأندلس . واذا كانت بداية تلك الحرب ، وهو الأمر المستغرب ، هى عودة يوسف بن تاشفين الى المغرب ، فالحقيقة التى نراها هى أن الأحوال الجوية فى الأندلس فى تلك الفترة الحريفية من نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر ، كانت تملى على المجاهدين العودة الى بلادهم ، انتظارا لتحسن الأحوال الجوية فى فصل الربيع ، حيث يكون استدعاؤهم من جديد الى الأندلس ضرورة حتمية لمواجهة العدو المطالب بالثار . وهذا يعنى أن تلبية الدعوة للقتال فى معركة الزلاقة تمت

(٦٥) أنظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٩٨ - حيث كان القاضى أبى الوليد الباجى يطوف على رؤساء الأندلس ويندبهم الى لم الشمل ومداغة العدو ، وإن اختلف الأمر فى اصفانهم الى وعظه أو استبرادهم نزعتهم ، وأنظر وفيات الأعيان ، ج ٧ ترجمة يوسف بن تاشفين ، رقم ٤٤ ، ص ١١٨ - ١١٩ (ملحق ١ فى البيان ، ج ٤ ص ١١٨) - حيث « أمير المسلمين » يطلب المعونة من المرية ، والفتوى من قبل جماعة من الفقهاء بجواز الاقتداء بعمر بن الخطاب ، وفتوى القاضى أبى الوليد وغيره من القضاة والفقهاء بالعدوة (المغرب) والأندلس وتفيد ذلك بأن يكون أمير المسلمين فى حاجة ماسة الى المعونة المالية ، الأمر الذى يتأكد بحلقائه ، وأن يكون ذلك من أجل الجهاد . وهنا تنص الرواية على ان « أمير المسلمين » أقام بعد الوقعة بشن الغارات على بلاد الفرنج - الأمر الذى يعنى بقاء الحامية المرابطية بزيادة سير بن أبى بكر . كما تاتى الإشارة بعد ذلك الى تعليق يوسف بن تاشفين على ما شاهده من قرف بن عباد فى منطقة الشرف ، من غرب اشبيلية ، بقوله : « يلوح انه مضيع لما بين يديه من الملك » حيث تؤخذ أمواله بالظلم والاستهتار .

فى غير موعدها الصحيح ، فى مطلع فصل الصيف حيث تطول العمليات العسكرية على مدى شهور هذا الفصل ، حيث تسمى صائفة • ولا بأس أن كان ذلك محسوبا من قبل المرابطين بالنسبة للقاء بعيد ، غير مضمون النتائج مع المجهول • ولكنه بعد أن نجحت التجربة فى الزلافة لم يكن بد من مواصلة العمل من أجل الحفاظ على بلاد المسلمين فى الأندلس ، الأمر الذى لا يتأتى الا بوضعها تحت سلطان واحد : تحت هيمنة امارة المسلمين المرابطية •

يوسف بن تاشفين اميرا للمسلمين :

وهكذا كانت الدولة المرابطية تتحول على يد يوسف بن تاشفين من دولة اقليمية صغرى الى دولة عالمية كبرى ، أشبه بدول الخلافة الامبراطورية، التى نافست خلال القرنين السابقين خلافة بغداد ، مثل : دولة الأمويين فى قرطبة أو دولة الفاطميين فى المهدية ثم القاهرة • والحقيقة أن الدولة المرابطية بتمدها جنوبا الى تخوم السودان وشمالا الى ما وراء المضيق ، استحققت أن تكون امبراطورية (متعددة الأقاليم والأجناس) ، مثل دولة الخلافة • ولكنها لما كانت دولة سنية سلفية تعترف بالخلافة العباسية ، لم يكن لها أن تخرج - قانونا - عن طاعة خليفة بغداد : أمير المؤمنين (جميعا) •

والحقيقة أنه اذا كان ما تقوله الرواية الدارجة من أن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين بعد انتصار الزلافة (٦٦) ، وكأنه مكافأة على الانتصار العظيم الذى حققه لجماعة المسلمين - تماما كما تعطى حديثا رتبة (المارشالية : المشير) مكافأة لكبار القواد على انتصاراتهم فى المعارك العالمية الكبرى •

واذا كان هذا الأمر مقبولا بالنسبة للمعاصرين ، فانه لم يكن كذلك بالنسبة لمؤرخى الدولة المرابطية ، من قدامى ومتأخرين • اذ لما كانت الدعوة المرابطية بمثابة تجديد للإسلام فى صحراء المغرب ، اعتبر القائمون بها أصحابهم وكأنهم المسلمون حقا (أو أهل الحق) ، وهو أقل رتبة من لقب « أمير المؤمنين » الخلافة • وفى ذلك قيل ان أول من حمل هذا اللقب هو الأمير أبو بكر بن عمر (٦٧) ، فكأنه لقب عريق فى دولة المرابطين • وهذا

(٦٦) القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث وفى هذا اليوم (الزلافة) تسمى يوسف بن تاشفين

« بأمير المسلمين » •

(٦٧) أنظر النويرى ، ط • نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٧ - حيث النص على أن الذى سمي

أبا بكر بأمير المؤمنين هو عبد الله بن ياسين •

ما يفسر اطلاق لقب أمير المسلمين على يوسف بن تاشفين منذ بداية ظهوره كشخصية تاريخية ، وخاصة عند المتأخرين . وبطبيعة الحال فان عدم معرفة الكرى (حوالى ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) بيوسف بن تاشفين ، أو بلقب « أمير المسلمين » (ما سبق ، ص ٢١٥) ، يرجح فكرة عدم معرفة المرابطين بذلك اللقب قبل وقعة الزلاقة ، الأمر الذى يؤيده خلو النقود المرابطية ، التى ضربت ما بين سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، و ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من لقب أمير المسلمين (٦٨) .

وهكذا تصح الرواية التى تربط بين اللقب السلطاني الرفيع (أمير المسلمين وناصر الدين) ، وبين الانتصار الكبير فى موقعة الزلاقة (المباركة) ، وان لم يجعلها مكافأة للمجاهد الكبير على جهده ، فى خدمة الاسلام بالاندلس ، بل أعطتها شكلا رسميا ، على قاعدة القانون والشرعية . وفى ذلك تقول الرواية ان فقهاء الأندلس قالوا ليوسف بن تاشفين انه لا تجب على المسلمين طاعته الا بعهد من الخليفة ، الأمر الذى دعاه الى ارسال سفارة الى بغداد ، تقدم هدية وتعرف بما فعل (يوسف) بالفرنج ، وما قصده من نصرة الدين والجهاد فى سبيل الله ، وان ديوان الخليفة المستظهر بالله (ولايته : ٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م) رد على طلبه بهدية وكتاب وتقليد وخلع (٦٩) .

(٦٨) انظر حسن محمود ، المرابطون ، ص ٢٢٣ وما بعدها ، وهـ التالى .
(٦٩) انظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٩٠ ، ونصار ، ج ٢٤ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ (والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢) - حيث النص على أنه تسمى بأمير المسلمين (كما فى القرطاس ، ما سبق ، هـ ٦٦ ص ٣١٤) ، وانه خاطب المستظهر (المستنصر) العباسى ، الخليفة ببغداد لعهد ، وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربى (العرب) الأشبيلي ، وولده أبا بكر (القاضى) فتلقا فى القول ، واحسنا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والاندلس ، فعقد له . وتضمن ذلك مكوث الخليفة ، منقولا فى ايدى الناس . وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده ، على ما الى نظره من الاقطار والاقالم . هذا وتضيف الرواية الى ذلك : « وخاطبه الامام الغزالي ، والقاضى أبو بكر الطرطوشى ، يحضانه على العدل والتمسك بالخير ، وبفتيانهم فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله » ، وقارن أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٣ - حيث النص على ان ما ظهر من وثائق (خاصة بالمرابطين والخلافة العباسية) يتفق مع رواية ابن خلدون ، وصحة سفارة ابن العربى . وقارن ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٥ - حيث أرسل (يوسف) الى المتدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م) ببغداد فاتاه الخلع والاعلام والتقليد ، ولقب أمير المسلمين وناصر الدين ، وانظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٢٣٥ - حيث النص على ان اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرابطية =

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن لقب « أمير المسلمين » لقب شرفى حظى به يوسف بن تاشفين بعد انتصار الزلاقة فى الأندلس ، فكأنه تكريم شعبى من قبل العلماء والفقهاء الذين ينقاد لهم عامة الناس ، الأمر الذى جعل المتأخرين من الكتاب يصفونه على يوسف بن تاشفين بأثر رجعى ، كما يقال ، فشرفوه بحمله منذ بدء ظهوره على مسرح الأحداث ، حتى أصبح لقب « أمير المسلمين » مفردا ، مرادفا لاسم يوسف بن تاشفين ، دون غيره من الناس - وخاصة فى الأندلس التى أعاد اليها الأمل فى الصمود والبقاء - فكأن عهده بها تجديد لعهد الناصر « أمير المؤمنين » ، أو ابن أبى عامر « المنصور الحاجب » .

امارة المسلمين تنهى نظام أمراء الطوائف :

والمهم أن يوسف بن تاشفين كان فى بر العدو بعد وقت قصير من الزلاقة . وعندما دخلت سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م كان مقيما فى قصره بالحضرة مراكش . وعندما دخل الصيف وتحسنت الأحوال الجوية خرج فى دفر ربيع الثانى/يوليه ، فى جولة تفقدية طاف خلالها أرجاء بلاده المغربية . وهو ينظر فى أحوال الرعية ، ويطمئن على حسن سير الأمور ، من استقامة العمال وعدالة القضاة (٧٠) - مؤكدا اهتمامات أمير المسلمين الجديدة - بصفته رأس كل من السلطتين التنفيذية والقضائية (التشريعية) الى جانب قيادته الحربية ، فكأنه بذلك أصبح صاحب السيف والقلم جميعا ، كما تقضى بذلك أصول النظم السلطانية فى دولة الاسلام .

مشكلة التوقيت :

ومن شذرات التاريخ الخاصة بالتدخل المرابطى فى الأندلس الذى انتهى بالقضاء على نظام الطوائف يتبين أن هذا الأمر استلزم من أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) العبور ٣ (ثلاث) مرات أخرى الى الأندلس ، خلال فترة وجيزة لا تتجاوز ٤ (أربع) سنوات فقط ، فيما بين ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، حيث الجواز الثانى ، وسنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م تاريخ الجواز الرابع الذى أنهى نظام الطوائف ، فأصبحت بلاد الأندلس بموجب هذا

= هو : « عبد الله أمير المؤمنين » ، الأمر الذى أثار جدلا حوله عند بعض الباحثين ، وهو الأمر الذى لم يتأكد بعد (وقارن أيضا ص ٣٣٣ - ٣٣٤ - حيث الإشارة الى نصوص تؤيد اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية قبل الزلاقة والحصول على اللقب) .

(٧٠) أنظر القرطاس ، ص ١٥٢ .

الوضع الجديد ، الولاية الثالثة في امبراطورية الاتحاد المرابطى ، بعد :
الصحراء والمغرب (الأفضى) . واذا كان تاريخ العبور الرابع والأخير أكيد
بسبب أحداثه المعروفة فى الأندلس ، فان العبور الثانى يوضع فى سنة
٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م بناء على ترجيح رواية ابن أبى زرع الواضحة رقما
(٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) وكتابة (بعد سنتين من الزلافة) على رواية كل من
ابن الأثير والنويرى التى يشوبها الغموض عندما تتكلم عن عودة أمير
المسلمين الى العدو بعد الزلافة ، وترد ذلك بوضع العودة الى الأندلس
فى العام المقبل (الكامل) والعام الآتى (النهاية) (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) ،
وهو الأمر غير المقبول ، حيث كان يوسف يطوف فى البلاد المغربية فى شبه
نزهة ترويحية - يستحقها هو ورجاله - مع الأخذ فى الاعتبار بأحوال
المعسكر المعادى بأسبانيا الذى كان ما زال بعد ينفذ عن نفسه غبار
الهزيمة (٧١) . أما الجواز التالى وهو الثالث فلا بأس فى تأريخه بعد سنتين
أى فى سنة ٤٨٣ هـ كما تقول رواية الحلل الموشية ، المدعمة برواية القاضى
أبى بكر بن عقاب (٧٢) .

الحامية المرابطية الأولى :

ومن المهم الإشارة هنا الى انه رغم الوحشة التى لفت العلاقات
الأندلسية المرابطية عقب انتصار الزلافة ، الأمر الذى يظهر فى عودة أمير
المسلمين يوسف بن تاشفين الى بلاده مباشرة وبشكل مريب (ما سبق ،
ص ٣١٣) ، فمن الواضح أنه كانت قد اتخذت ترتيبات ثنائية للبقاء على
حبل المودة موصولا بين الجانبين ، احتسابا لطارىء يلم أو نازلة تفاجئ
طرفا أو الآخر . من ذلك ابقاء حامية مرابطية فى الأندلس بقيادة سير بن
أبى بكر (اللمتونى) ، أقامت فى بعض القلاع على حدود الشجر الأدنى من

(٧١) القرطاس ، ص ١٥٢ - حيث سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، وفيها جاز أمير المسلمين
الجواز الثانى الى الأندلس ، برسم الجهاد ، وأنظر الحلل الموشية ، ص ٦٦ (وملحق ٣ فى
البيان ، ج ٤ ص ١٤١) - حيث التاريخ (٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) مدعم برواية الوزير أبى بكر
ابن عقاب حيث لفظ سنتين محرف الى سنين ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث
النصر بعد الزلافة على انه فى العام المقبل عاد (أمير المسلمين) الى الأندلس . وأنظر النويرى ،
أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، (نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٧) - حيث رجوع يوسف من الزلافة الى
مراكش فأقام بها الى العام الآتى ، ثم دخل الى الأندلس (وهى الرواية المحورة عن الخروج
للطواف فى المغرب سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، كما فى القرطاس - ما يأتى ، ص ٣١٨ و ٧٥-٧٧) .
(٧٢) أنظر الحلل الموشية ، ص ٧١ ، والملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٣ .

غرب الأندلس . وهذه الحامية التي لا يعرف عددها على ما نظن هي التي قامت ، بما سينسب الى أمير المسلمين القيام به بعد الغزوة ، من : مهاجمة بعض حصون العدو في المنطقة ، واحراز بعض المكاسب في الأراضي المسيحية المتطرفة (٧٣) .

ومن الأمور التي تستدعى التأمل ما تقوله الرواية السابقة من احتجاج أهل رابطة سير هذه حياة الحشونة والضنك التي عاشوها مدافعين عن الحدود ، بينما ينعم أمراء الأندلس برغد العيش ، الأمر الذي جعل ابن تاشفين يأمر سير بن أبي بكر باخراج ملوك الأندلس من بلادهم والحاقهم بالعدوة . واذا كان ذلك يعنى أن ضم الأندلس الى امبراطورية المرابطين كان أمرا محسوما منذ العبور الأول سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وانتصار الزلاقة ، فمن الواضح أن بقية الرواية ، تعنى رسم خطة الاستيلاء على البلاد خطوة بعد خطوة ، كما يقال الآن ، بدءا بمجاورى الثغور الذين يحل أمراء العساكر المرابطين محلهم وأكابرهم ، وانتهاء بأشبيلية وابن عباد (٧٤) .

وهكذا تعبر تلك الرواية عن أن التخطيط لانهاء نظام الطوائف كان قد ارتسم في حرب الزلاقة التي تكون بمثابة مرحلة استكشافية أولى تتلوها مرحلة ثانية يتم فيها القضاء على أمراء الحدود (الثغور) ، وبذلك تسقط أشبيلية وصاحبها المعتمد بن عباد كبير الأمراء ، ثمرة ناضجة دون جهد - في آخر الأمر .

العبور الثانى وحصار حصن لبيط (٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) :

استيلاء الأسبان على حصن لبيط :

اذا كان عبور يوسف بن تاشفين مرة ثانية الى الأندلس بعد سنتين

(٧٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ ، (ملحق ١ فى البيان ، ج ٤ ص ١٢١) - حيث يعيظ الرواية نوع من الغموض ، اذ تقول ان سير بن أبي بكر ، بعد أن بعث بما حصل عليه من المغانم عقب الزلاقة الى ير العدوة (المغربية) استأذن من يوسف بن تاشفين فى البقاء فى الأندلس ، وقال له : انه افتتح معاقل فى الثغور ، ورتب فيها مستحفظين ورجالا يغنون فيها . وانظر جوليان ، تاريخ افريقية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٤ - حيث النص على عودة ابن تاشفين الى المغرب « ولم يترك للمعتمد الا ثلاثة آلاف من البربر » .

(٧٤) وفيات الأعيان ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ .

فقط من الزلاقة ، بطلب من الأندلسيين حكومة وشعبا ، كما يقال الآن ، وممثلهم المتمدن بن عباد كبير الأمراء ، يمكن أن يثير الشك حول نتائج الزلاقة بالنسبة لاستقرار الأمور في الأندلس ، وبالتالي الشك في نوايا أمير المسلمين الذي لم يستثمر النصر كما كان يرجو الأندلسيون .
فالحقيقة أن المشكلة الأندلسية كانت أكبر من أن تحل في معركة واحدة مهما كان حجمها ، أو بمعرفة رجل واحد مهما كان قدره أو إمكاناته .
فالإصابة في طليطلة التي لم يتحقق علاجها في الزلاقة ، كانت في موضع القلب ، بمعنى أنها تقطع سبل الاتصال بين أرجاء البلاد ، وبالتالي تكرر التفتت وما يترتب عليه من مظاهر الضعف والاضمحلال ، مثلها مثل الثوب الذي ينسل من وسطه ، كما قال الشاعر (٧٥) .

وهكذا إذا كان نصر الزلاقة قد نجح في تهديد غرب الأندلس لمدة ٦٠ (ستين) عاما ، كما يرى ابن أبي زرع (٧٦) ، فإنه لم يكن له أصدااء تسمع في الشرق . فالحقيقة أن حرب الاسترداد المسيحية كانت قد حققت معظم أهدافها في غرب الأندلس قبل الزلاقة ، حتى كان ألفونس السادس يستطيع أن يصل عبر الحدود النازلة جنوبا بغرب ، وهي الجبهة المفتوحة على المحيط ، بعيدا عن قواعد الاسلام الشرقية ، كما كانت تتلقى فوق ذلك مساعدات الصليبيين البحرية ، وهم في الطريق الى شرق المتوسط الى طريفة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) (ما سبق ، ص ٢١٥ وما يأتي ٣٥١) الأمر الذي مكنه من أخذ طليطلة ، وكأنها ثمرة ناضجة دانية القطاف . وبذلك كان بدء الضغط على شرق الأندلس أمرا طبيعيا ، بعد أن دجنت بلاد بني هود في الشجر الأعلى (سرقسطة وأعمالها) ، بفضل تطبيع علاقاتها بدول الاسترداد ، والضغط جنوب برشلونة على بلنسية ومرسية ، حيث ظهر أعداء جدد من أمراء الاقطاع الأحرار ، الذين يعملون لحسابهم الخاص ، ويقدمون سيوفهم لمن يدفع لهم الثمن - والمثل لذلك : السيد القمبيطور (ما يأتي ،

(٧٥) عن موقع طليطلة وسط الجزيرة الأيبيرية ، انظر الروض المطار ، ص ١٣٠ - حيث طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس ، وسط بين كل من قرطبة وبلنسية والمرية (٩مراحل)، وهي عظمة القطر ، ودار الملك القديمة ، وأنظر للمؤلف عملية الانقاذ المرابطية ، ندوة الأندلس بأداب الاسكندرية ١٩٩٣ . وأنظر يوسف بن حوالة ، بنو عباد في اشبيلية ، ص ٢٦٣ - حيث ببت الشاعر ابن العسال اليحصبي ، الذي يقول فيه :

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

(٧٦) القرطاس ، ص ٤٩ - حيث النص على انه « لم تقسم للشرك قائمة نحو ٦٠

(ستين) سنة .

ص ٣٥٨ ، ٣٦٠) . وهؤلاء اذا كانوا قد سمعوا عن انتصار المسلمين في الزلافة ، فانهم لم يشعروا بصدهاء حيث كانوا في الشرق ، بل وربما عملوا متأثرين بما أصاب اخوانهم في الغرب بنواحي بطليوس .

وهكذا هدد السيد القمبيطور بلنسية ، ونجح في انتزاعها من ابن ذى النون الذى كان قد استبدلها بطليطة . والأخطر من ذلك أن الاسبان المسيحيين بدأوا يفرضون هيمنتهم أيضا على أهل مدن لورقة وبسطة ، ويرهقونهم بالأتاوات والضرائب ، بعد أن استولوا من المسلمين بتدبير ألفونسو السادس على حصن البيط (Alédo) على بعد ١/٢ ميل من لورقة ، ذى الموقع الاستراتيجى الهام وسط الأراضى الاسلامية ، واستخدموه فى استنزاف موارد أهلها (٧٧) .

وراحت الشكوى تترى الى المعتمد بن عباد ، كبير الأمراء ، الذى أصابه الهلع ، اذ تبين له أن التضحية الكبيرة فى الزلافة لم تؤت ما كان يرجى منها ، وبلغ به الأمر الى حد تجشم أعباء السفر بنفسه الى المغرب مستصرخا أمير المسلمين . وأم يستجب ابن تاشفين لنداء الملهوف الا بعد أن استوثق من حسن نواياه تجاه المرابطين ، على أن يكون عبوره الى الأندلس من جديد عندما يعتدل الجو تماما يتمكن فصل الصيف . وعاد المعتمد الى اشبيلية لكى يجهز العساكر ، وينشط فى صنع آلات الحرب من السهام والمطارد والرعدات وغيرها ، الأمر الذى وقع عبؤه على أهل المملكة كل على حسب طبقته . وعندما جاز أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء ، كان على ابن عباد أن يقدم لجيشه الميرة والضيافات على قدر طاقته . ومن الجزيرة الخضراء وجه أمير المسلمين الدعوة الى أمراء الأندلس فى مالقة وغرناطة والمرية وشقورة وبسطة وجيان ، قبل أن يغادر الخضراء فى ربيع الأول ٤٨١ هـ / يونيه ١٠٨٨ ، على أن يكون اللقاء معه بعساكرهم على حصن لبيط

(٧٧) أنظر القرطاس ، ص ١٥٢ وما بعدها - حيث النص على أن ألفونسو السادس ، محمد بعد هزيمته فى الزلافة الى حصن لبيط (لبيط) الموالى لعمل ابن عباد فشحنه بالحبل والرجال والرماء ، وأمر بالغارة على بلاد ابن عباد ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧١ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤١) ، وأنظر الروض المطار ، رقم ٤٦ ص ٤٤ (عن بسطة القريبة من وادى آش ، وعلى مسافة ٣ مراحل من جيان) ، لورقة ، رقم ١٦٢ ص ١٧١ وما بعدها - حيث تفسير الاسم (لورقة) باللغة اللاتينية الزرع الحبيب (ص ١٧٢) ، وهى من بلاد تدمير (مرسية) بينهما ٤٠ ميلا .

« من شرق الأندلس » (٧٨) .

حصار حصن لبيب (Alédo) :

حب دون هواة وصمود دون نهاية :

رغم اتفاق بعض الروايات المعاصرة ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله (رئيس غرناطة) والمتأخرة ، مثل : الحلل الموشية (لمجهول) على أن رؤساء الأندلس جميعا ، شاركوا في حصار حصن لبيب ، فإن الذي يفهم من حصار الأحداث ، الأمر الذي يرجح رواية ابن الأثير التي تظهر أصداؤها عند ابن أبي زرع ، هو أن الحضور إلى الموعد على حصن لبيب حسبما طبأ أمير المسلمين ، كان فاترا . وفي ذلك يقول ابن أبي زرع انه لم يحضر ذلك الموعد من الرؤساء غير المتضرر الأول من عدو لبيب وهو صاحب مرسية : عبد الرحمن بن رشيق ، إلى جانب المعتمد بن عباد الذي كانت تحركه أغراض أنانية ، إلا صاحب غرناطة الأمير عبد الله (٧٩) ، الأمر الذي كان

(٧٨) انظر القرناسي ، ص ١٥٤ - ونميز رواية ابن أبي زرع هذه ، والتي ينسبها صاحب الحلل الموشية مع التصرف ، بأنها أوفى الروايات الخاصة بحصن لبيب وأوضحها ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ (ملحق ٣ في البيان ، ص ١٤٢ - ١٤٣) ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث الخلط مع فتح غرناطة ، وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٢٨٦ - حيث الحصن « لبيطة » مع الإشارة إلى حصره - وعدم القدرة على فتحه . وعن شقورة أنظر الروض المطار ، رقم ٩٥ ص ١٠٥ - حيث هي من أعمال جيان ، وفي جبلها شجر الطخش الذي نتخذ منه القسي . وبها أيضا قبر علي بن هاشمك .

(٧٩) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث : وفي العام القابل (بعد الزلافة ٤٨٠٠هـ / ١٠٨٧م) عاد (يوسف) إلى الأندلس ومعه المعتمد وعبد الله بن بلكين الصنهاجي ، صاحب غرناطة وأنهم ساروا حتى نزلوا على حصن لبيب . وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٢٨٦ - ٣٨٧ ، القرناسي ، ص ١٥٤ - حيث النص على انه « لم يأت من ممن كتب إليه منهم غير ابن عبد العزيز » (والصحيح هو ابن رشيق الذي حل محله) صاحب مرسية ، والمعتمد بن عباد ، وأنهما نزلا على الحصن ، وشرعا في قتاله ، بينما شن يوسف الغارات على بلاد الروم في كل يوم ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ - ٦٩ - حيث النص على ان يوسف بن تاشفين اجتاز على مالقة واستنصر صاحبها تميم (المستنصر بالله) الذي تلاحق به أخوه عبد الله (المظفر) صاحب غرناطة ، والمعتمد (ابن سمادح) صاحب المرية ، إلى جانب رؤساء شتورة وبسطة وجبان ، وغيرهم من الرؤساء بشكل عام ، من كل مكان ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠٨ - حيث النص على أن تحرك ابن عباد في هذه الغزوة كان لأغراض شخصية ، هدفها وضع ابنه الراضي في مرسية عوضا عن الجزيرة الخضراء ، مع النص على مشاركته (نفسه) في قتال لبيب مع غيره من الرؤساء « كل رئيس يقاتل على حسب =

يسىء ظن أمير المسلمين برؤساء الأندلس ، من غير شك . والمهم أن عبده
اعداد آلات الحصار وقع على عاتق ابن رشيق ، أمير مرسية الذى أحضر من
بلده (مرسية) النجارين والبنائين والحدادين ، فأحاطوا بها الحصن ، وسدوا
المنافذ على من كان بداخله ، وكانوا ١٠٠٠ (ألف) فارس و ١٢ (اثنى عشر)
ألف راجل (٨٠) .

وتلخصت خطة الحصار من جانب أمير المسلمين والمعتمد بن عباد فى
ارهاق أهل الحصن بالحرب المتصلة ليل نهار ، بهدف تحطيم معنوياتهم .
وهكذا اقتسمت الحرب مداولة بين الأمراء الثلاثة (٨١) واستمر الحصار طوال
٤ (أربعة) أشهر الصيف من يولييه الى أكتوبر دون طائل حتى يأس كل
من يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد من سقوط الحصن (٨٢) .

والواقع أن أمير مرسية (ثالثهم) كان فى الحبس مثقفا فى الحديد ،
ولا بأس أن كان طول الحصار والانشغال بالجدل فى تقلب الأحوال ، قد
ساعد على إثارة ما كان من ضغائن بين ابن عباد وبين ابن رشيق ، الذى
أنهم بالتعاون كما كان فى الماضى ، مع الفونس السادس .

والحقيقة أنه كان للفقهاء الذين كانوا يتقربون من أمير المسلمين
ويصاحبونه فى جولاته العسكرية أو التفقدية ، دورهم الهام فى تقرير مصير
رؤساء الطوائف ، بالشكل الذى أدى الى نهاية نظامهم فى الأندلس بشكل
عام ، وكانت حالة ابن رشيق فى لبيط هي البداية لتلك النهاية . فمن
أتى ذكرهم فى معسكر لبيط من الفقهاء : عالم غرناطة الشهير القليعى الذى

= مجهوده » ، وانظر الذخيرة لابن بسام ، ج ٥ (ق ٣ م ١) - عن عبد الرحمن ابن رشيق
الذى قيضه الله ليكون للمعتمد « عدو فى ثياب صديق » - حيث أخرجه من مرسية ،
ج ٢ (ق ١ م ٢) ، ص ٧٣٣ - حيث دخل ابن صمادج فى غمار الأمراء الخارجين الى لبيط
يجر جيشا ويعرض نفسه على أمير المسلمين .

(٨٠) الحلل الموشية ، ص ٦٩ .

(٨١) الحلل الموشية ، ص ٦٩ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٢) ، وقارن مذكرات
الأمير عبد الله ، ص ١٠٩ - حيث نصب المجانيق ، وإن أمير المرية ابن صمادج أتى « بفيل »
(دبابة) أقامة ، خرق به العادة ، وإن « أحرقة أهل الحصن » .

(٨٢) القرطاس ، ص ١٥٣ ، وقارن الحلل ص ٦٩ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤
ص ١٤٢) - حيث استمر الحصر الى مدة شهر فقط ، وقارن التويرى ، أبو ضيف ،
ص ٣٨٧ - حيث النص على أنهم حاربوا الحصن أياما فلم يطيقوا فتحه فرحلوا بعد مدة .

يُمكن في صحبة الأمير عبد الله - وكان أكثرهم توددا إلى أمير المسلمين - كما يظهر من رواية أمير غرناطة الذي يصف خباء (خيمة) ابن القليعي بتلك المحلة ، بأنه قد صار « مغناطيسا » (جذابا) لكل صادر ووارد .

وهنا يشكو الأمير عبد الله من تأييد ابن القليعي لرعيته ، بل ومن حنهم على الامتناع عن دفع الضرائب المعتادة ، على أساس أنها من المغارم غير الشرعية ، بينما كانوا يقومون بما يكلفون به من تقديم الطعام للجيش المرابطي ، وما كان يلحق بذلك من المجاملات وحقوق الضيافة وكان ذلك يصيب أمير غرناطة - كما يقول بالضرر الشنيع (٨٣) .

والمهم أنه رغم ما قام به ابن رشيق من بذل الأموال للمرابطين ، واصل طناعه للأمير سير ، كبير القواد ، والدعوة لأمير المسلمين من على منبر مرسية ، الأمر الذي جعله يتيه على المعتمد ابن عباد ، ويزيد في حسرته ، احتجاجا عليه بأحكام السنة ، فقد انتهى الأمر بوقوف أمير المسلمين ، كما تقضى السياسة ، إلى جانب كبير رؤساء الأندلس ضد ابن رشيق (٨٤) . وفي ذلك تقول رواية الأمير عبد الله أنه عندما استغاث ابن رشيق بأمير المسلمين ، أجابه : « أنه لو كان الأمر عندي لوهبته لك ، غير أنها أحكام السنة ، لا أستطيع ازالتها عن مراتبها (٨٥) » .

وما كان من أمير المسلمين إلا أن استفتى الفقهاء في أمر الرئيس « المتعاون » ، فجرموه ، وكان عقابه الثقيف (التأديب ضربا) والحبس . وكان لهذا العمل رد فعل سيء لدى عسكر مرسية والعاملين من أهلها في خدمة المعسكر الذين تسللوا إلى بلدهم . وهناك لم يكتفوا بإظهار السخط ، بل أعلنوا الثورة (على أمير المسلمين) فقطعوا الميرة عن المعسكر المضروب أمامهم لسيط حتى اختلت أموره وغلّت الأسعار فيه ، وصعب المعاش على الناس فيه (٨٦) .

(٨٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٠ . وهنا لا بأس من الإشارة إلى جهود الفقيه القاضي ابن الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ / ١٠٨١م) في سبيل لم الشمل بالأندلس حتى قال فيه ابن بسام أنه « مشى بين ملوك أهل الجزيرة » وكأنه مؤمن آل فرعون - الذخيرة ، ج ٣ ق ٢ م ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، وكذلك الأمر بالنسبة للوزير أبي العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر الذي شخص مع أمير المصلحين من شرق الأندلس إلى حصن لبيط (ص ٢١٨ - ٢٢٠) .

(٨٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٠ - ١١٢ .

(٨٥) نفس المصدر .

(٨٦) الحلل الموشية ، ص ٦٩ - ٧٠ ، البيان ملحق ٣ ، ج ٤ ص ١٤٢ ، وقارن =

وهنا وجد ألفونسو السادس أن الظروف مناسبة لإعلان تمام نفوذ غبار هزيمة الزلاقة ، وأنه يمكنه إعلان القوة عن طريق الاستجابة لطلبه النجدة من المحاصرين في لبيط الذين كانوا يمانون من طول الحصار والجوع ، فحشد رجاله وسار نحو حصن لبيط ، وكانت فرصة انتهازها أمير المسلمين للتعجيل بالرحيل عن الموقع الحصين ، فتنحى عن طريق ألفونسو إلى طريق لورقة - المرية - الجزيرة الخضراء ، ثم جاز إلى العدو ، وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأت أحد إلى نزال حصن لبيط (٨٧) ، ولكن دون أن ينسى إرسال حامية إلى بلنسية لحمايتها من العدو (٨٨) ، فكان أمير المسلمين يستطيع إثبات وجوده ، وهو يغيب منسحبا . وفي مقابل ذلك يقوم ألفونسو السادس بعمل مماثل ، فهو يخلى الحصن ويقوم باحراقه بعد أن أخلى أهله ، فكأنه أراد تحريرهم من معاناة ذكريات الحصار والشدة ، وعاد بهم إلى طليطلة (٨٩) .

وهكذا انتهى حصار لبيط دون تمكن أحد طرفي الصراع في الأندلس من املاء ارادته على الآخر ، بل وبنوع من إعلان كل من الطرفين وكأنه في حاجة إلى شيء من الهدنة التي تسمح له بلم شبعته واعداد معسكره قبل مواصلة الصراع المحتوم . وكان على أمير المسلمين أن يبدأ بتصفية حسابه مع أولئك المتخاذلين من أمراء الأندلس ، حتى تتوحد الجبهة الأندلسية ، تحت رايات المجاهدين المرابطية استعدادا لمواجهة العدو المتنمر - صفا واحدا - تحت قيادته الراشدة .

= القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث أدى النزاع بين ابن عبد العزيز (٩) أمير مرسية وابن عباد إلى أن قبض القائد سير بن أبي بكر على « ابن عبد العزيز » (ابن رشيق) وتسليمه إلى المعتمد ، وإن اختلال المحلة كان سبب الفشل ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٢ - ١١٣ - حيث الإشارة إلى المشاجرات بين المعتمد وصاحب المرية « المعتصم » ، وبينه هو نفسه وبين أخيه صاحب مالتة ، وإن سبب الفشل النهائي في لبيط كان ورود الخبر بقدم ألفونس .

(٨٧) أنظر القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث نزوال تحريفا لنزال ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٩ (ملحق في البيان ، ج ٤ ص ١٤٢) .

(٨٨) الحلل الموشية ، ص ٧٠ (ملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٣) - حيث النص على أن حامية بلنسية كانت مكونة من ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) رجل ، مع القول أيضا بأنه أردف بعد عسكريا عظيما بقيادة محمد بن تاشفين إلى بعض الجهات ؟

(٨٩) القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث النص على أن ابن عباد أخذ الحصن بعد إخلائه وفناء من كان به بالقتل والجوع ٠٠٠ حيث لم يبق فيه غير مائة من الرجال ، وهم الذين عاد بهم ألفونسو ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧٠ (ملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٣) .

توحيد قيادة اخيه الأندلسية تحت رايات أمير المسلمين :

انهاء نظام الطوائف : فتح اسلامي جديد :

٤٨٣ - ٤٨٤هـ / ١٠٩٠ - ١٠٩١م

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن فشل حصار حصن لبيط في شرق الأندلس في الجواز الثاني لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، في صيف سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، قد أثبت حقيقتين تتعلقان بقضية أزمة « الجماعة والطوائف » لدى المسلمين في الأندلس . ونتمثل أولاهما في أن انتصار الزلافة لم يحقق الهدف المأمول منه ، في إيقاف خطر حرب الاسترداد الأسبانية ، والثانية تعنى بالتالي ، فشل مشروع التحالف المغربي - الأندلسي في مواجهة الخطر المسيحي ، الأمر الذي كان يستدعي انفراد الطرف المغربي الناهض بعملية الانقاذ ، دون الارتباط بمعوقات الطرف الأندلسي المتهالك . وهذا ما كان يفكر فيه زعماء المرابطين الأوائل منذ دخولهم إلى بلاد السوس ، وحربهم لبرغواطية التي شنوها تحت شعار فتح طريق الجهاد في الأندلس (ما سبق ، ص ٢٣٠) .

والحقيقة أن الأندلسيين بدورهم ، كانوا يرون أن زوال نظام الطوائف حتمية تاريخية منذ أن فتحوا الحوار مع يوسف بن تاشفين (ما سبق ، ص ٢٩٥) ، وأتى القضاء على ذلك النظام في جواز أمير المسلمين الثالث ، الأمر الذي لم يستغرق إلا « صائفتين » في سنتي ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م - ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، ليؤكد على أرض الواقع صحة فرضية تلك الحتمية التاريخية . وهنا يمكن القول أن ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية - بهذا الشكل لم يكن فتحاً بالمعنى المتعارف عليه ، بل كان أقرب ما يكون إلى عمليات التسليم والتسلم بين كبار الموظفين ، أو بين رجال الحكم والإدارة ، عندما يشغل الواحد مكان آخر - عن طريق التعيين أو عن طريق الاختيار ، فتشوب فرحة المتسلم القادم مرارة « المستسلم » الراحل . وإذا كان البعض يعتبر هذا التغيير بالأندلس بمثابة فتح إسلامي جديد ، فالحقيقة أنه كان نوعاً من التجدد الإسلامي - الذي كان يتم عادة مع مطلع كل قرن ، معبراً عن حيوية الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان ، حسبما اعتقدت أوساط المتفائلين من المفكرين الإسلاميين .

شريط الأحداث :

اما عن « سيناريو » (أحداث) التغيير فقد تم على الوجه التالى :
دولة صنهاجة الزيرية فى غرناطة وفى ماقّة وتوابعهما كانت أول دويلات
الطوائف المستسلمة لأمير المسلمين . وإذا كان ذلك قد تم فى ظروف غامضة
فيمكن تفسير ذلك على أساس القرابة العرقية بين لمتونة الصحراء الصنهاجية
(المرابطية) ، وبين صنهاجة افريقية الزيرية (الفاطمية) ، أصحاب غرناطة ،
حيث أخذ التغيير - على استحياء وبدون تكلف - شكل التسليم والتسليم .

وهذا ما يفسر ظاهرة الخلط فى توقيت واقعة تنحية الأمير عبد الله ،
صاحب غرناطة ، وتقديما الى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، مباشرة بعد عام
الزلافة ، أو سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، بعد لسيط بدلا من وضعها الصحيح
فى سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، حيث يكون الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين ،
الذى يتم فيه أخذ غرناطة ، وحدها دون بقية الممالك التى تسقط فى السنة
التالية ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، بين يدى قواد أمير المسلمين الذى كان يشرف ،
من سبته ، على عبورهم الى الأندلس . وهنا يسود نوع من الغموض على
أحداث ذلك العبور (الثالث) حتى ليخيل الى الباحث فى هذا الأمر وكأن
سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م كانت سنة عبور رابع (١) ، لولا ما سنعرفه فيما بعد
من أن جواز أمير المسلمين الرابع يقع فى سنة ٤٩٦هـ / ٣ - ١١٠٢م وأنه
لم يكن عبورا عسكريا ، بل جوازا تفقديا للنظر فى أحوال البلاد والعباد ،
وأصول الحكم والادارة حسب مفهوم النظم المرابطية وقرائنها (ص ٣٦٤) .

الأسباب العامة :

والحقيقة ان الغموض لا يحيط فقط بتوقيت ضم مملكة غرناطة قبل
غيرها ، بل ان الأسباب من أساسية وثانوية لهذا الضم تتكاثر فيما بينها

(١) أنظر ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٤ - حيث يجعل أخذ غرناطة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م
(أو فى نوبة الزلافة - ص ١٨٩) ، أو بعد حصار لسيط ، (سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) ،
وأنه حدث دون حرب بطريق القدر عندما دخل يوسف بن تاشفين المدينة ولم يخرج منها ،
بل أخرج صاحبها ، ص ١٥٥ - حيث كانت غرناطة أول ما ملكه من الأندلس ، ص ١٨٧ -
حيث ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التى كانت للمسلمين (سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) ، وقارن
النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ثم ص ٢٦٩ - حيث
النص على أنه فى سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ملك فى جزيرة الأندلس ما كان بقى من بلاد المسلمين
جها ، وذلك أنه سار فى هذه السنة من مراكش الى سبته ... الخ .

وتتشابك بما يجعل تجليتها للعيان من الصعوبة بمكان - وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمقارنة بين مواقف رؤساء الطوائف فيما بينهم أو بموقفهم من أمير المسلمين الذى كان يستطيع أن يتساهل فى حقوقه ازاء بعضهم الا أن يكون الأمر تفريطا فى حقوق الله أو سنن رسوله (ما سبق ، ص ٣٢٣) .
وهنا نبدأ بمذكرات الأمير عبد الله ، لنقلب النظر فى رأيه على وجوهه المختلفة فيما أصابه من الخلع ، وهو ما يعنى النظرة السياسية الواقعية فى مقابل الرؤية المثالية الشاملة ، فى الجانب الآخر . وهنا تتلخص الرؤية المستقبلية لحتمية الخلع ، كما رآها صاحب غرناطة ، فى عدد من الأسباب غير المباشرة التى رتبها زمنيا بشكل مقبول وهى :

١ - الأهمية النسبية لموقع غرناطة مقارنة بموقع مالقة ، من حيث كون الأولى على طريق الغزو المرابطى .

٢ - التجربة الفاشلة فى العمل المشترك فى حصار حصن لبيط - حيث قال أمير المسلمين للرؤساء : « أصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم » ، ورض أن يعطيهم عسكريا المدافعة المدو .

٣ - جزاء سنمار الذى لفيه ابن رشيق أمير مرسية ، بعد المحاولات التى قام بها من أجل التقرب من المرابطين وعلى رأسها ما انفرد به من اعلان خطبة الجمعة باسم أمير المسلمين .

٤ - تهديد الفقيه ابن القليعى بالنار لما أنزله به (عبد الله) من التشقيف ، بسبب موقفه المعادى له فى لبيط (أليدو) ، الأمر الذى تحقق بشكوى الفقيه فعلا الى أمير المسلمين - الى جانب شكوى فقيه غرناطة الآخر أبى بكر بن مسكن .

٥ - طمع الرعية بسعيهم فى حط (اسقاط) المغارم (الضرائب المستجدة) اكتفاء بالزكاة والعشر عند المرابطين .

٦ - المصالحة الخفية التى عقدها عبد الله مع ألفونس السادس ، وقضت بدفع الأموال المتأخرة منذ سنة الزلافة - تماما كما فعل صاحب مرسطة .

هذه الأمور هى التى أثارت اشفاق الأمير عبد الله من مصير مجهول على يدى أمير المسلمين أو ألفونس السادس الذى اضطر عبد الله الى مصالحته على أساس علاقات الحماية السابقة ، الأمر الذى دفعه الى النهاية بتأمين بلده

• **بناء الحصون المنيعة والأسوار الدفاعية (٢) •**

الأسباب المباشرة :

لا شك أن أخطر الأسباب التي قطعت جبل الود بين رؤساء الطوائف ويوسف بن تاشفين ، بعد فشل لبيط الذي هبط بانتصار الزلاقة الى مستوى الحضيض ، كانت عودة العلاقات بين عدد من أمراء الأندلس وبين ألفونس السادس الى سابق عهدهما ، من : التبعية ودفع الجزية السنوية - بما فيها ضريبة سنة الزلاقة ، كما فعل كل من أمير سرفسطه (ابن هود) وأمير غرناطة (ابن بلقين الصنهاجي) : « قريب » ابن تاشفين (الهامش السابق) •

والحقيقة أن أمير غرناطة كان يعرف خطورة هذا العمل ، اذ يحاول استرضاء أمير المسلمين أثناء عبوره الثالث عن طريق السفراء الذين أرسلهم الى سبتة على أمل أن يقبل يوسف الأمر الواقع ، ولكن دون جدوى (٣) •

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٣ - ١٢٥ - حيث النص أخيرا على القول : « وصرفت حوجه احتيالي الى تشييد الحصون ، فان غلب الم رابط لم يفتنا الدخول في طاعته ... وان غلب الرومي كنا منه على حذر » • وهنا يقرر الصنهاجي انه كان مضطرا الى أن يدفع لألفونس جزية ٣ (ثلاثة) أعوام بما فيها سنة الزلاقة والتي تلتها ، وقدرها ٣٠ ألف دينار مرابطي ، دفعها من مخدراته وليس من أموال الرعية ، خشية الشكوى الى مراکش (مروكش) ، والقول : « أخذ أموالنا ، وأعطاهم للنصارى » ، وقارن القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث النص على ان سبب غزوة غرناطة أن صاحبها عبد الله بن بلقين بن باديس بن حيوس كان قد صالح ألفونسو ال ٦ ، وظاهره على يوسف ، وبعث اليه بالمال ، واشتغل بتحسين بلده • وفي تحصين البلد قال بعض الأدباء المعاصرين •

يبنى على نفسه سقاها كانه دودة الحرير
دعوه يبنى فسوف يدري اذا أتت قدرة القدير

هذا كما يشير الأمير عبد الله الى مسائل ثانوية أخرى ، مثل : تهديد ألفونس للمعتمد (ص ١٢) ، ونفاق يهود البسالة (Lucena) صاحبة غرناطة ، الأغنياء ، الذين كان يقع عليهم عبء الكثير من الضرائب الطارئة (ص ١٣٠ - ١٣١) ، وقصة زواج الأميرتين أختي عبد الله من بعض رجال الدولة ، دون عرض ذلك أولا على أمير المسلمين (ص ١٣٩ ، ١٤٣) ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧١ - حيث الجواز الثالث سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، وان السبب : ما كان على حصن لبيط من ملوك الأندلس مما أحفظه (يوسف) وأوغر صدره عليهم • وأنهم لما علموا ذلك نظر كل منهم لنفسه بقاية عزمه • وأول من جهر بذلك وتظاهر به ، وجد فيه المظفر (عبد الله بن بلقين ، صاحب غرناطة) ، وغضب يوسف بن تاشفين لذلك • (٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٤ - حيث تكونت السفارة من ابن سهل القاضي ، =

وهكذا فعندما التقى يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد بفرطبة (٤٨٣هـ / ١٠٩٠م) وتأكدت لديه شبهة العلاقة بين ألفونس السادس وعبد الله بن بلقين ، أرسل الى هذا الأخير يأمره بالحضور لديه في التو واللحظة . وعندما اعتذر اليه عبد الله عن طريق الرسل ، أساء أمير المسلمين الى السفيرين ، وأخبرهما بعزمه على غزو صاحبهما ، تماما كما يغزو ألفونس « وانذى يقدر عليه (عبد الله) فليصنعه » (٤) .

غرناطة أولا :

وبدأت كتب يوسف بن تاشفين تصل الى أهل اليسانة (Lucena) وقواد الحصون يطلب منهم الخضوع له (٥) . ولم تمض الا أيام قليلة ، قضاها عبد الله بن بلقين متفجعا مدهوشا ، حتى وصل العسكر المرابطي الى غرناطة ، يسبق أمير المسلمين . وفشل رسل عبد الله ، من فقهاء حاشيته في اثناع يوسف بن تاشفين بقبول الهدية المالية ، اعتبارا لرابطة الدم بينهما ، حيث اعتبر عبد الله نفسه بمثابة ابن له . وأصر يوسف على خروجه اليه ، مع اعطائه الأمان في نفسه وفي أهله ، دون المال (٦) . وهكذا ، وبمجرد

= وباديس بن زاوي الملكاني ، وحيث قال لهما أمير المسلمين : « يصنع ما شاء ؛ لست ممن يكلف أحدا الا طاقته » - ويعلق عبد الله على ذلك قائلا : « فكان ذلك منه دهاء وحذقا » . ولا بأس أن يكون ذلك ردا على اقتراح الأمير عبد الله بأنه كان مستعدا لتقديم المساعدة العسكرية لأمير المسلمين أو المالية ، ولكن دون أن يخرج بنفسه للمشاركة في العمليات العسكرية المحتملة (ص ١٢١) .

(٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٧ - حيث أحد الرسل : ولد حجاج ، والآخر ابن ما شاء الله ، اللذين قرعا وثقفا في الحديد .

٥ - مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٨ - حيث كان محتوى خطابات يوسف بن تاشفين : آية من سورة الاسراء (رقم ٨١) التي تقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

(٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٩ - حيث اضافة أسباب أخرى مؤذنة بالروال (ص ١٥٠ - ١٥١) - من ابتهاج الجند من البربر بأقاربهم المرابطين ، وعجز المطمعين من التجار وأهل البلدة عن الحرب ، وطمع الرعية في الحرية . وفي التخفف من الضرائب باستثناء الزكاة والعشر . وهكذا كان الجميع يأمل في مستقبل أفضل ، من : حماد المصرون من « الرقاصة » ، والعبيد الصغاليه ، بل والخدم من النساء والخصيان ، كل طامع في اقبال الدنيا عليه والخروج من ثقاف القصر الى راحة السراج ، واستمتاع بالرحا ، وما أشبه ذلك . وعن « الرقاصة » من حراس الحصون من العبيد السودان الذين كانوا يحملون البرد أيضا انظر دوزي (Dozy) ، ملحق القواميس العربية بالفرنسية ، ج ١ ص ٥٤٧ (حيث راقص المفردة تعادل ساع المشرقية) .

وصول أمير المسلمين خرج عبد الله بن بلقين إليه متوكلا على القدر ، حيث يقول : « وكأنما نساق الى الموت » . واذا كان عبد الله قد اطمأن بتأكيد الأمان له ولأهله فقد كان عليه أن يقدم ما لديه من الأموال ووثائق الممتلكات ، بعد ما صودر ما كان قد أخرجه بصحبته من الذهب والجواهر « والدنانير المرابطية » ، وذلك بمعرفة قرور : « أمين السر » الذى يشكك عبد الله فى أمانته التى قد لا تقاوم اغراء تلك الذخائر والكنوز (٧) .

والذى نراه أن رواية الأمير عبد الله تمثل التحليل الدقيق ، وبالتالى الواقعى الصحيح ، لموقف أمراء الأندلس جميعا وبلااستثناء ، من يوسف بن تاشفين : أمير المرابطين (المغاربة) وأمير المسلمين (الأندلسيين) - وهو باختصار موقف التمزق ما بين هاجس الحسبان الفردى الآنى وأمل المستقبل الأفضل للأمة والجماعة . ولا شك أن صلة القرابة الصنهاجية كان لها دورها فى وقوف عبد الله بن بلقين ذلك الموقف المتوازن ، الذى يعبر فى الحقيقة عن الواقع الغامض ما بين شك الخوف ويقين الرجاء .

والى جانب تلك الرواية المتوازنة ، يمكن أن نرى روايتين مختلفتين من حيث وقوف احدهما الى جانب اليمين المرابطى ، والأخرى الى جانب اليسار الأندلسى . والأولى هى رواية ابن أبى زرع التى لا تريد أن يكون الهدف الأول لأمر المسلمين ، فى جوازه الثالث سنة ٥٨٣هـ / ١٠٩٠م ، هو الاستيلاء على أملاك المسلمين فى الأندلس ، بل تحطيم العدو الأسباني المسيحي فهو يرى هنا أن ذلك العبور كان برسم الجهاد ، وأنه نزل على طايطة وحاصرها وبها ألفونس ، وخرب نواحيها وقتل أهلها . أما عن غزوة غرناطة فكانت ثارا من أمراء الأندلس الذين لم يستجيبوا لندائه للحاق به - الأمر الذى لا سند له فى مذكرات الأمير عبد الله أو غيرها من المصادر . والحق ان نص ابن أبى زرع بعد ذلك ، على ان يوسف بن تاشفين سار من حرب طليطلة الى منازلة غرناطة لأن صاحبها كان قد صالح ألفونسو السادس ، وظاهره على

(٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٥ - ١٥٨ - حيث التفتيش الدقيق الذى يبلغ حد حفر الأرض ، والبحث عن الودائع عند الناس ، ومصادرة كل شيء ، والمهم ان عبد الله وجد العزاء عن كل ذلك فى ثقافة جيدة اذ يقول لأمه بتلك المناسبة : « ليس يدخر المال الا لثلاث : سلطان ، أو فتنة تدوم أو عمر يطول » . وعن ذخائر قصور غرناطة المصادرة ، أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٥ - حيث السبيحة التى تحوى ٤٠٠ جوهرة ثمن الواحدة منها ١٠٠ (مائة) دينار ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٢٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٦٨ .

يوسف ، وبعث اليه بالمال ، واشتغل بتحسين بلده (٨) ، يشكك في أن يكون ابن تاشفين قد مر بغرناطة مرور الكرام ، وأنه ترك فتحها حين العودة من الجهاد .

أما عن رواية الحلل الموشية التي تعبر عن وجهة النظر الأندلسية بعامة ، فهي ذات قيمة تاريخية عالية ، من حيث أنها تنص على أن يوسف ابن تاشفين بدأ بإخراج تميم ، أخى عبد الله بن بلقين الأصغر من مالقة ، وهو على الطريق إلى غرناطة . ولما كان عبد الله لم يعرف بمصير أخيه إلا في مدينة مكناسة بعد نفيه إلى المغرب (٩) ، فإن ذلك يعنى اختلاق قصة مهاجمة طليطلة ، كما ترد في القرطاس قبل فتح غرناطة .

والمهم أن الأمير عبد الله استقبل أمير المسلمين خارج المدينة لتسليمه البلد ، وهو الأمر الذى يأخذ فيه صاحب الحلل الموشية برواية الأمير عبد الله - أهم وثيقة وصلت إلينا في هذا الشأن (١٠) .

وهكذا تكون مملكة غرناطة الصنهاجية قد سلمت بشقيها في سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م إلى أمير المسلمين بمحض إرادة أصحابها ، أقارب لمتونة أصلا دون حرب . أما عن تحديد إقامة الأميرين عبد الله و تميم بعيدا في أغمات ، بعد التعرف على أحوال البلد وتوطيد أمورهما (١١) ، فهو أمر مشروع من حيث تأمين الأوضاع في الاقليم الشمالى (الأندلسى) الذى دخل جديدا في حظيرة المغرب ، انذى صار الاقليم الجنوبى من الدولة المرابطية (المتحدة) .

(٨) القرطاس ، ص ١٥٣ .

(٩) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٢ - ١٦٣ - حيث أبعث تميم إلى السوس ، وأنه زار أخاه عبد الله على طريق مكناسة ، فأخبره بهول ما قاسى - رغم أنه كان أول من أطاع يوسف بن تاشفين ، وضرب الدراهم المرابطية .

(١٠) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، وما سبق ص ٣٣٠ أما عن رواية القرطاس المتحيزة للمرابطين فتجعل استسلام غرناطة بعد شهرين من الحصار (القرطاس ، ص ١٥١) .

(١١) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، والقرطاس ، ص ١٥٤ - حيث النص على خسوف ابن عباد ، وانقباضه عنه ومشى الوشاة بينهما بالنائم ، وتغير عليه يوسف .

استسلام بقية ا-امراء في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م :

سير بن أبي بكر نائبا لأمير المسلمين بالأندلس :

كان استسلام الأمير عبد الله وتسليمه غرناطة للمرابطين يعنى بداية النهاية بالنسبة لبقية رؤساء الطوائف بالأندلس . وهذا ما كان أعنه تقريرا ، أمير المسلمين بعد دخوله غرناطة ، عندما أتاه المعتمد بن عباد ، صاحب أشبيلية وكبير الرؤساء ، وبصحبه المتوكل بن الألفطس ، صاحب بطليوس للتهنئة بأخذ غرناطة ، فكان استقباله الفاتر لهما أشبه ما يكون بالرفض لمسعاهما (١٢) ، فكانه الانذار النهائي ، كما فى المصطلح الحديث .

وهكذا بدأت الوحشة بين يوسف بن تاشفين وأمرء الأندلس بضم مملكة غرناطة الصنهاجية الى الدولة المرابطية ، وتمثلت الفطيرة التامة بين الطرفين فى عودة أمير المسلمين الى مراكش فى رمضان ٤٨٣هـ/أكتوبر ١٩٩٠م (١٣) ، فى أثر الأميرين عبد الله وتميم (ابنى بلقين) ليطمئن على حسن عزلهما ، كما نظن ، بعد أن ترك زمام الأندلس ، وتقرير مصير بقية رؤسائها الى القائد سير بن أبي بكر ، الذى صار من وقتئذ بمثابة نائب الملك - بالنسبة لأمير المسلمين (١٤) .

والحقيقة أنه كان لطرده أمير غرناطة من الأندلس رنة حزن فى قلوب أمرء أشبيلية (١٥) ، ولم يكن أمام المعتمد سوى أن يعيد سيرة أمير غرناطة ، اذ أخذ فى بناء الأسوار وترميم (عمل) القنطرة (١٦) . وعندما تحسنت الأحوال الجوية بحلول صيف سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، أخذ يوسف بن تاشفين من سببته مقرا له ، حيث جمع جيوشه التى أعدها لانهاى نظام الطوائف ،

(١٢) الفرطاس ، ص ١٥٤ .

(١٤) أنظر الفرطاس ، ص ١٥٤ - حيث النص على ان يوسف بن تاشفين عندما جاز الى العدو فاصدا مراكش قدم على الأندلس قائده : سير بن أبي بكر اللمتونى ، وفوض اليه جميع الأمور كلها ، ولم يأمره فى ابن عباد بشئ .

(١٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٧ - ١٨٨ - حيث كان الرشيد بن المعتمد يتوجع فى مجالس أنسه عندما يجرى ذكر غرناطة وقصرها وبطير بذلك . وقارن الحلل الموشية ، ص ٧٢ - حيث انصرف المعتمد والمتوكل الى بلادهما اثر عودتهما من غرناطة وأدرك ابن عباد الندم على اسندعاء يوسف .

(١٦) الحلل الموشية ، ص ٧٢ - الأمر الذى جعل الرشيد يذكر والده المعتمد بما كان من اعتراضه على دعوة الصحراوي الذى يخرجهم من بلادهم .

مكتفيا بالاشراف على جواز العساكر الى الأندلس حيث كان سير بن أبي بكر ، دون أن يعبر بنفسه (١٧) . فكان الأمر يتعلق بفتنة لا يصح أن يغمس فيها أمير المسلمين .

ولقد اقتضت « فتوح » المرابطين في الأندلس أن يترك أمير المسلمين مراكش العاصمة ليتخذ رباطا ثانيا في سبتة - كما سيتخذ الموحدون رباطا ثالثا لهم في الرباط الحالية ، ولكن من أجل فتوح برغواطة . وتطلب الأمر تطوير سبتة وما فيها من المرافق بحيث تقدم الخدمات اللازمة لحشود العساكر من مقيمة فيها وواردة وصادرة . ولقد قام يوسف بن تاشفين بترميم جامع سبتة والزيادة فيه من جهة الشمال حتى أشرف على البحر ، كما اعتنى ببناء بلاط المحراب الأعظم ، وزخرفته (١٨) بما فيه من المحراب والمنبر ، على ما يظن .

هذا كما تطلب الأمر العناية بميناء سبتة حيث رمت أسواره السفلى (الستارة) ، الأمر الذي كان يؤمن مخيمات العساكر التي كانت في حالة استرخاء ، من عناء السفر ، انتظارا للعبور (١٩) .

مسار الأحداث :

وهنا نشير الى ان سرد أحداث هذا الفتح الجديد للأندلس ، منظمة في مسارها الزمني الصحيح ، ليس أمرا سهلا بسبب فقدان الوثائق الأصلية وخاصة من الرسائل الرسمية ، التي أصابها التحريف على مر الزمن وتوالى الدول من صديقة ومعادية ، وكذلك الأمر بالنسبة للروايات التاريخية التي نفتقد الكثير منها ، كما تعرض ما وصل إلينا منها الى أعمال البتر والزيادة والتصحيف ، بل والتشويه ، بقصد أو بغير قصد ، حتى بعدت في كثير من المواضع عن أصولها الأولى . وإذا كان الفضل يرجع الى قدامى الأساتذة من المحدثين في توطئة دراسة هذه الفترة وتمهيدها عن طريق الكشف عن مخابىء المصادر المخطوطة ثم التحقيق والنشر والبحث ، مما ظهر في عمل جوزيف أشباح ، وبخاصة أعمال رينهارت دوزي ، وخليفة

(١٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ (النويري ، ص ٣٨٧) - حيث النول - وهما -

أنه سير العساكر مع سير عبر المضيق .

(١٨) الحلل الموشية ، ص ٧٢ .

(١٩) الحلل الموشية ، ص ٧٢ .

هذا الأخير : ليفى بروفنسال - كما كان يسميه الأستاذ عبد الحميد العبادي - ومن اهتدى بخطاهم ، مثل : عنان ومؤنس ، فان الأمل ما زال مرجوا في مواصلة الكشف عن وثائق جديدة ، والجهد في البحث والتقصي ، حتى تتلاحم أجزاء الموضوع ويغمر الضوء ما يكتنف أحداثه من الغموض ، فتتجلي الحقيقة واضحة للعيان .

وهنا نرى أن كتاب التبيين لعبد الله بن بلقين الصنهاجي الذي نشره بروفنسال تحت عنوان « مذكرات الأمير عبد الله ، أمير غرناطة المعاصر ، الذي عاش الأحداث ، وشارك في نسيج ساداتها ولحمتها ، هو أفضل وثيقة وصلت إلينا في موضوع الطوائف . والحقيقة أنها شهادة اعتراف أخيرة من رجل يتقدم بخطى ثابتة وعقل متفتح نحو نهايته الغامضة ، وهو لا يريد من سعيه هذا الا حكم التاريخ . فهو رغم مشاهدته لخلع بقية ملوك الطوائف بشكل مباشر ، فانه يذكر ما بلغه نقلا مما يقبله العقل ، لا بتخليط الناس » (٢٠) .

الوحدة تحت الراية المرابطية : بداية لعملية الانقاذ :

والسبب الرئيسي لخلع بقية ملوك الطوائف ، هو نفس السبب الذي تم به خلع عبد الله من اماره غرناطة ، وهو خوف يوسف بن تاشفين على « بلاد المسلمين » بالأندلس من الرومي (ألفونس ال - ٦) . فأمير المسلمين لا مطمع له في مال أو بلاد (٢١) ، فكان روايته موالية للمرابطين - ربما بحكم القرابة مما سبقت اليه الإشارة (ما سبق ، ص ٣٣٠) . وهذه ما يؤكداه أيضا قول عبد الله في مذكراته : ان أمير المسلمين ما كان يخاف ابن عباد الا بذنب ، وانه كان قد عرض عليه السماح والعفو شريطة التزام الرباط والجهاد ، واسقاط المغارم ، ولكن ابن عباد أم يرض بذلك (٢٢) .

والى ذلك فلا شك أن فكرة توحيد المسلمين في الأندلس تحت راية

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ .

(٢١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ - حيث النص على أن أمير المسلمين ، قبل مجيئه الى غرناطة وقد وعد المعتمد بها ، اذ قال له : « أنا رجل مغربي وليس قدمني اخذ مال ولا بلاد الا الخوف على غرناطة من الرومي . . وكذلك كان موقف ابن الأفطس وصاحب المربة » .

(٢٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

أمير المسلمين (المرابطية) في مواجهة حرب الاسترداد المسيحية الى جانب تخفيف عبء الضرائب عن كاهل الناس ، كانت تحظى بموافقة المجاهدين في الحصون ، والرعية من التجار وأهل الأسواق ، وتزيد في ارتباطهم بدعوة أمير المسلمين ، وترجع كثرة أنصاره المرابطين . وهكذا كان المرابطي يستميل حماة المعقل ويثير الرعية بكل قطر ، الأمر الذي كان يضعف من قدرة ملوك الطوائف على المقاومة والصمود ، ويجعل المواجهة وما يتبعها من الاستسلام أشبه بأعمال التسليم والتسلم بين كبار رجال الدولة الواحدة ،
حقا .

خطة شامة لغزو ملوك الطوائف :

من الواضح أن يوسف بن تاشفين عندما رجع بعد الاستيلاء على غرناطة الى مراكش ، في خريف سنة ٤٨٣هـ / ١٠٦٠م ، كان يهدف الى اعداد العدة لـ قضاء - دفعة واحدة على بقية ملوك الطوائف المتحالفين مع الفونس السادس كسابق العهد بهم ، وبدون استثناء رئيسهم ، المعتمد بن عباد وبنيه الذين كانوا يسيطرون على معظم أراضي الوسط والجنوب الأندلسي ، في : أشبيلية وقرمونة ورندة الى حدود الجزيرة الخضراء جنوبا ، وشمالا الى قرطبة وحتى قبة رباح - آخر امتداد الأراضي الإسلامية في اتجاه نهر تاجه (٢٣) .

والذي يفهم من الخطة التي قصت ببقاء أمير المسلمين في المغرب ، واتخاذ سببة قاعدة للحشد ومركزا متقدما للإشراف على سير العمليات الحربية فيما وراء المضيق ، هو اعطاء يوسف بن تاشفين الفرصة لمواجهة ما قد تتطلبه الجبهة الأندلسية من حشود وامدادات من مراكش ، في الوقت المناسب . كما كان ابتعاده عن ميدان المواجهة صونا لذاته من التعرض لتجريح الغيبة والنميمة ، وحفظا لشخصه من التعرض لمخاطر القتال ، كما حدث في الزلاقة ، وهو الأمر الذي لم تكن تسمح به النظم المرابطية الأولى ، والدولة في بداية أمرها على عهد عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر فما بالنا وقد أصبح أمير المسلمين مركز الدائرة ، ومعقد الآمال في كل بلاد الأندلس ، فضلا عن المغرب (٢٤) .

(٢٣) القرطاس ، ص ١٥٥ .

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٦ - حيث التعليق على استيلاء السد (El-Cid) على مدينة بلنسية بقوله : وأول ما يجب أخذ أنفسنا به : اخلاص النية لأمر المسلمين - إليه الله ، لأن صلاح المسلمين بصلاحه .

ورغم ما يوجد من تقديم وتأخير في فتح مدن الأندلس وترتيب
حضورها لحكم يوسف بن تاشفين في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد غرناطة ،
فان مملكة العباديين كانت الهدف الأول بالنسبة للقائد سير بن أبي بكر ،
من حيث كونها في مركز الوسط ، أشبه بحجر الزاوية الذي تسقط بسقوطه
أركان البناء . أما مقولة أن أمير المسلمين لم يأمر نائبه القائد سير بن أبي بكر
بشيء في ابن عباد (٢٥) ، فهدفها ، كما نرى تجميل موقف يوسف بن
تاشفين الذي كان يرى ابتداء ، أنه من حسن السياسة أن يقرب المعتمد من
نفسه حتى يسهل عليه التخلص من صفار المشاغبيين من الأمراء كابن رشيق
(صاحب مرسية) أو قريبه الصنهاجيين : تميم وعبد الله (صاحبى
مالقة وغرناطة) .

وفي محاولة تلخيص الأعمال الحربية التي قامت بها حامية الأندلس
المرابطة بقيادة سير بن أبي بكر ، والجيش الأخرى التي أرسلها يوسف
ابن تاشفين من سبتة عبر المجاز سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، يتراوح الأمر بينه
٤ (أربع) عمليات كبيرة استهدفت ٤ (أربع) مدن هي : أشبيلية والمرية
وقرطبة وبطليوس (٢٦) ، أو ٦ (ست) بإضافة : قرمونة وجيان (٢٧) .

واذا كان مما يحمد لصاحب كتاب الحلل الموشية (المجهول) اجتهاده
في محاولة تلخيص عمليات استيلاء يوسف بن تاشفين على الأندلس ، وضمها
الى البلاد المراكشية في السنة الثانية من العبور الثالث (٨٤هـ/١٠٩١م)

(٢٥) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٢٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٧٧ ، ١٩٣ ، وقارن التويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٢ ،

٣٨٧ - ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٦ - ٢٧٠ .

(٢٧) القرطاس ، ص ١٥٤ - ١٥٦ ، وقارن ابن خلدون (الذى ينقل عن القرطاس -
دون أن يشير الى ذلك) ، ج ٦ ص ١٨٧ وما بعدها - حيث الجواز الثانى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م
خطا وهو مصحح الى ٤٨١هـ/١٠٨٨م في ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٧٩ - حيث الخلط بين
جواز لسط (اليدو) ٤٨١هـ/١٠٨٨م وفتح غرناطة ومالقة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وص ١٨٨ -
حيث الجواز الثالث في سنة ٤٨٠هـ/٧ - ١٠٩٦م بدلا من ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ثم جواز الأدير
يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ٩٣(٤)هـ/١١٠٠ - ١٠٩٩م ، وانضمام
محمد بن الحاج اليه مع سير بن أبى بكر - حيث اقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوكها ،
وذلك بدلا من سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، وقارن ص ١٨٨ ، والترجمة ص ٨٢ - حيث الجواز الرابع
في سنة ٩٧(٤)هـ/١١٠٤م - وهي السنة التى زحف فيها المنصور بن ناصر الحمادى الى
تلمسان .

فى ٤ (أربع) حملات موجهة بشكل متوازى الى :

- ١ - أشبيلية ثم بطنيموس ، بقيادة نائب الأندلس سير بن أبى بكر .
- ٢ - قرطبة بقيادة أبى عبد الله محمد بن الحاج .
- ٣ - المرية بقيادة أبى زكريا بن واسينوا (٢٨) .
- ٤ - رندة بقيادة جؤذر الحسمى .

فانه مما يؤسف له اعتذاره عن هذا الاختصار بأن الأمر مشهور ، ولا داعى اذن للتقصى (٢٩) . و هنا يحسن أن نشير الى أن رواية القرطاسى وهى أوفى الروايات من حيث اهتمام صاحبها ابن أبى زرع ليس بالتقصى فقط ، بل وبالعباية بتدعيم الأحداث بما أمكنه من التواريخ الدقيقة .

اما عن رواية الأمير عبد الله فهى الأجدر بالثقة من غير شك . هذا ، كما يتضح من الروايات جميعا أن اهتمام المؤرخين منصب على بلاد الوسط والغرب من الأندلس ، بينما تأتى أخبار شرق الأندلس شبة عابرة ، ربما بسبب عدم دخول بنى هود أصحاب سرقسطة والثغر الأعلى فى مشروع الضم ، لتطرف الثغر المجاور للبلاد الأسبانية المسيحية فى الشمال الشرقى . وساعد على ذلك أيضا موقف ابن هود المتزن من ألفونسو والمرابطين ، والذي كان مقبولا من أمير المسلمين ، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأمرأى الوسط والجنوب ، لقربهم من العدو المغربية .

وعلى أساس القرب أو البعد من قاعدة الحشد العسكرى المرابطى فى سبتة ، حيث كان مستقر أمير المسلمين ، توجد معلومات متناثرة ، تنقصها التواريخ الدقيقة ، عن شرق الأندلس والثغر الأعلى مما يتعلق بترك ابن هود فى مملكته لأنه كان من الشجعان (٣٠) ، الى جانب أخبار عن عواصم

(٢٨) وهو فى القرطاس ، محمد بن عائشة وانظر ما يأتى ، ص ٣٤٢ هـ ٣٩٠ .

(٢٩) الحلل الموشية ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ - حيث اضطراب النص الذى يبدأ (فى ص ١٨٧)

عن ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس الى للمسلمين بالكلام عن أخذ قرطبة واشبيلية فى رجب ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م لكى يجعل بعد ذلك (فى ص ١٨٩) مسيرة سير بن أبى بكر بعد عبوره الخليج (خطأ) مباشرة الى اخضاع كل من مرسية وشاطبة وبلنسية (وهو الأمر المستغرب) وان فسر ذلك بأن تلك الحملة الشرقية وقعت أثناء حصار اشبيلية ، فكانها كانت لمواجهة الجيش الذى أرسله ألفونس الى ٦ نجدة للمعتمد والحقيقة أن الأمير عبد الله يقول بعد سقوط نظام الخرائث فى اشبيلية وبطلينوس انه « نشأ بعد ذلك أمر بلنسية ٠٠٠ » =

الشرق من : طرطوشة ودانية وشاطبة وشقورة وبلنسية ، في مرحلة ما بعد تهدين أشبيلية والغرب (٣١) .

نهاية مملكة العباديين بأشبيلية وتوابعها :

رغم قلة المصادر اللازمة لدراسة نهاية عصر الطوائف ، من حيث ان الاساسى منها قد لا يتجاوز كثيرا أصابع اليدين عدا . ورغم قصر الفترة الزمنية التي قد لا تتجاوز ربع القرن من أواخر عهد امير المسلمين يوسف ابن تاشفين ، وهو الشخصنة المرموقة بالنسبة لتاريخ شمال افريقيا وشبه جزيرة أيبيريا على الأقل ، فان ترتيب أحداث تلك الفترة بشكل منهجى من الصعوبة بمكان . فالوثائق الأصلية ما بين مفتقدة فى غمار ما مر بالبلاد من الاضطرابات السياسية والدينية أو مسموخة بسبب ما أصابها من آفات البتر والزيادة والتشويه ، باستثناء القليل ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله التي يرجع الفضل فى اكتشافها الى الأستاذ ليفى بروفنسال (مثلما اكتشف مذكرات البيدق ، فى أخبار مهدي الموحدين ابن تومرت) .

فبفضل آراء الأمير عبد الله بن بلقين (صاحب غرناطة) يمكن التعرف على بواطن الضعف فى نظام رؤساء الأندلس فى مواجهة المرابطين ، مما يلخصه فى مقولة : ان « صلاح المسلمين بصلاح أمير المسلمين » (مما سبق ، ص ٣٣٥ ، هـ ٢٤٠) . وبفضل حاسته التاريخية العلمية التى تقضى باستبعاد ما لا يقبله العقل من تخليط الناس ، والتوقف عن اثبات ما لا يصح من الأخبار ، يمكن الاسترشاد فى محاولة إعادة شىء من الترتيب لنهاية الطوائف . ويظهر ذلك فى عرض الموضوع فى شكل ممالك مستسلمة وليس فى شكل بلاد منهارة تماما ، كما حدث فى غرناطة الصنهاجية وتوابعها ، مما كان قدوة يحتذى بها ، حتى تتسق بداية الاستمارة بالمرابطين مع النهاية

= وبين ان الصراع كان ما زال سجالا بين المرابطين والنصارى فى هذا الشأن ، وانه يترك المؤلف نافعا الى أن يتم ما يرجوه من « أن يكون الظهور للمسلمين » . وأنظر بعد ، ص ١٩٣ - حيث النص الى جانب شجاعة بنى هود ، استعداد مدينتهم روعة لمفاجآت الحصار ، وقارن النويرى ، ص ١٦٨ - حيث النص على انه بعد انقضاء الدولة العبادية صار ملك الأندلس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وص ١٦٩ - حيث النص على ان سرقسطة والشعر الأعلى « فكانا بيد ابن هود » (منذر بن يحيى) .

(٣١) أنظر القرطاس ، ص ١٥٦ ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ - عن سرقسطة وبلنسية وورشلونة .

المنوثة نلرؤساء الأندلسيين - وهو الأمر الذى كان يستوعبه المعتمد بن عباد ، عندما فضل « رعى الجمال على رعى الخنازير » (ما سبق ، ص ٢٩٥) ، والذى ربما كان القصد منه ، فى حينه مجرد الحوار .

قيادة الحامية المرابطية :

مقر نيابة الأندلس :

الذى يفهم من الروايات الخاصة بالحامية المرابطية فى الأندلس أنها كانت موزعة على العواصم الكبيرة ما بين ٣ آلاف وألف رجل ، بينما كانت حاميات الحصون على الحدود (الثغور) تعد بالمئات وربما العشرات (٣٢) . وعندما عبر المعتمد بن عباد فى السنة التالية للزلافة (٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) عن الشكوى من نصارى حصن لبيط (Aléúo) ، يفهم من بعض الروايات انه أمير أشبيلية ، كبير الرؤساء ، كان يأمل أن يبعث معه أمير المسلمين حامية يتوودها بنفسه الى لبيط ، وربما لتكون تحت تصرفه بعد ذلك (٣٣) . واذا كان يوسف بن تاشفين قد رفض ، بعد فشل حصار لبيط ، مطالب الأمراء بترك حامية لديهم ، فانه خص بلنسية التى كان يهددها الأسبان بحامية من ٤ (أربعة) آلاف رجل (ما سبق ، ص ٣٢٤) فكان عساكر المرابطين كانوا متفرقين فى العواصم والثغور ، الأمر الذى دعا الى تملل المجاهدين منهم ، مما كانوا فيه من الجهد والتعب ، بينما كان السادة الأندلسيون ينعمون بحياة الرفاه والترف (ما سبق ص ٣١٨) .

اما بعد سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ودخول غرناطة الصنهاجية فى الدعوة المرابطية ، فكان من الطبيعى أن تصبح « حصون الحمراء القديمة » مقرا لنحشد الكبير من المرابطين فى الأندلس ، بمعنى أن غرناطة كانت بمثابة مقر القائد ، نائب أمير المسلمين ، سير بن أبى بكر ، منذ تلك الفترة السابقة على صيف سنة ٣٨٤هـ / ١٠٩١م . أما عن مقولة أن سير بن أبى بكر كان على رأس الجيش الأول ، الذى عبر من سبتة فى صيف ٤٨٤هـ / ١٠٩١م

(٣٢) ما سبق ، ص ٣١٨ وهـ ٧٣ ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢ - حيث النص على أنه عند رجوع أمير المسلمين الى المغرب بعد الزلافة ، خلف عسكريا بأشبيلية تحت قيادة محمد ومجون (ابن محمون (ou-Meggoun) بن سيموين (Semouin) بن محمد بن وركوت (ابن وركوت (ou-Reggout) من عشيرته ويعرف ابوه بالحاج - وكان محمد من بطانته ، وأعظم قواده .

(٣٣) أنظر يوسف أشباح ، ترجمة عنان ، ج ١ ص ٩ .

﴿ ما سبق ، ص ٢٣٦ ﴾ ، فأغلب الظن أنها تعنى اشراف سير بن أبى بكر من الجزيرة الخضراء على عملية العبور ، بينما كان أمير المسلمين يصدر اليه الأوامر من سبته . وكان من بين تلك الأوامر بدء سير بالتوجه لأخذ أشبيلية .

-الشروع فى غزو أشبيلية :

والذى يفهم من الرواية المرابطية ان الأوامر قد صدرت من سبته الى سير بن أبى بكر بأن يبدأ بالشروع فى انهاء نظام الطائفة الأشبيلية ، وذلك مع بداية صيف سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م . ومن الواضح ان الخطة كانت تقضى بأن يرمى استخدام العنف الى آخر وقت ، وفى أضيق الحدود . ولا بأس أن كان نموذج دخول غرناطة سلبا هو الأفضل ، بصرف النظر عما يقال من الغدر أو الخديعة (ما سبق ، ص ٣٢٧) . فهذا ما تعنيه رواية القرطاس التى تنص على أن الأمير سير بن أبى بكر كان يتوقع عندما أقبل على أشبيلية أن يخرج اليه المعتمد بن عباد بما كان متعارفا عليه من الترحيب بنائب أمير المسلمين وتقديم الضيافات لعسكره ، وكان الود ما زال متصلا بين المعتمد وبين أمير المسلمين .

وهنا وجد سير اعلان المعتمد بضرورة تسليم بلاد مملكته (٣٣م) التى كانت تشتمل على كل من : قرطبة وقرمونة ورندة ، كما كانت تخضع لها جيان ، وعدد من الحصون والقلاع ، التى حكمها بعض أبناء المعتمد الذين بلغوا مائة ذكر غير الاناث (٣٤) ، والمقربون منه من رجال الدولة . ولم يستجب المعتمد للدعوة الموجهة اليه باسم أمير المسلمين فقط ، بل انه حذر ابن الأفطس فى بطليموس ، وأخذ فى مراسلة ألفونسو السادس طالبا منه النجدة (٣٥) .

وعندما وجد سير ان أعمال التحصين أخذت تسير على قدم وساق فى المدينة ، كان عليه أن يتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة لاحكام الحصار

(٣٣م) القرطاس ، ص ١٥٤ ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ،

ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣٤) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ ، وأنظر فيما بعد ، ص ٣٤٧ .

(٣٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ - حيث يسمى ألفونس « بالرومى » ، وينص

على انه « قعد عنه » خيفة من التقرير بمعنى انه أثر السلامة خشية التورط فى ذلك

الأمير .

حولها ، بهدف ارغام المعتمد الذي كان معتصما بقلعة قصوره المعروفة بالقصبة على طاعة أوامر أمير المسلمين (٣٦) . ولما كانت مدينة أشبيلية مفتوحة من جهة الغرب على نهر الوادي الكبير ، حيث كان مرسى الأسطول الذي كان يحميها من ذلك الجانب ، ويخفف من وطأة الحصر المفروض على الضفة الشرقية للنهر ، كان الأمر يتطلب اعداد جيش ثان لمواجهة الأسطول .

ودون تضييع الوقت انتظارا لاستكمال الحشود والعدد كان على سير أن يلجأ الى إثارة أهل البلاد على حكاهم العباديين في كل مكان ، واستخدم في ذلك الفقهاء والعلماء الذين كانوا يرون أن غزو المرابطين لبلادهم أمر مباح ، وذلك ما سهل سقوط الكثير من عواصمهم ومعاقلم دون جهد كبير (٣٧) .

أخذ المرية :

وهكذا كان دخول المرابطين الى المرية بغير قتال على يدي القائد محمد بن عائشة (٣٨) ، اذ تقول الرواية ان أميرها محمد بن صمادح مات غما ، وهو على سرير المرض ، عندما علم بقدوم المرابطين بينما فر ابنه المعز في رمضان سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م في البحر لاجئا الى بجاية في كنف المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي (٣٩) .

(٣٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ ، القرطاس ، ص ١٥٤ .
(٣٧) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث النص على ذهاب كثير من معاقلم ابن عباد بالطاعة ، وقارن الذخيرة لابن بسام ، ق ١ م ٢ ، ص ٦٥١ - حيث القاء تبعة الفتنة منذ بداياتها الاولى على المعتمد - حيث القول : « وأشد هذه العصاة المشئومة ابن عباد الذي سلب سيف الفتنة والبغي من قرابة ... فغزا على الاسلام في عمر دارهم ... واستنار اثم الشهيد هشام المؤيد لغير أهله » .
(٣٨) أنظر القرطاس - ص ١٥٥ ، وهو في الحلل المؤشبة : أبو زكريا بن واسنرا (ما سبق ، ص ٣٣٧) .

(٣٩) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٧ - حيث النص على أنه مات عندما وصل المرابطون الى باب المدينة ، مع الاشارة الى أنه كان قد أوصى ابنه وولي عهده المعز بأن يبقى متحصنا بالمدينة طالما بقي المعتمد صامدا في القصبة (القلعة) . فاذا ما خرج من أشبيلية فعليه أن يغادر المرية في التو واللحظة على أن يلجأ الى الجزائر في كنف بني حماد ... وهذا ما فعله المعز فعلا ، اذ خرج عندما نازم الموقف في مركب شحنه بجميع ما يدر عليه من ذخائره ، بل وكان ذلك في السر ، وعلى أنه « ناهض الى أمير المسلمين بهدية ، ليهدي بذلك أهل المرية » . وقارن ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٢ ق ١ م ٢ ، ص ٧٣٤ - حيث النص على أن ابن صمادح - مثل المعتمد - كان قد جاهر بالعصيان =

سقوط جيان وقرطبة :

وهكذا رأى سير بن أبى بكر ألا يضيع كل جهده فى حصار أشبيلية ، وأن يحسن استغلال نجاح الدعاية المرابطية فى اكتساب شعب الأندلس الى جانب سياسة أمير المسلمين التى قد تؤمن لهم عملية الانقاذ حقا ، وأن تبدأ بأخذ ما يمكن أخذه من البلاد بأيسر السبل . وأصدر سير أوامره فعلا الى مرءوسه القائد بطى بن اسماعيل بالمسير الى جيان التى كان صاحبها عبد الله بن بكر من أتباع ابن عباد ، وأخذها . وبعد أن حاصر بطى المدينة نجح فعلا فى دخولها صلحا (٤٠) .

ورأى سير أن يستغل الظروف المواتية ، فأسرع وهو يزف الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خبر خضوع جيان ، بالكتابة الى بطى بن اسماعيل يأمره بترك تلك المدينة ، والمسير لأخذ قرطبة التى كانت تحت امره المأمون بن المعتمد بن عباد (٤١) . ولم يطل حصار مدينة الخلفاء طويلا فلقد سقطت بفضل مداخلة أهلها ، وذلك فى ٣ صفر ٤٨٤هـ / ٢٦ مارس ١٠٩١ م . وكانت عقوبة المأمون بن المعتمد هى القتل ، وكذلك الأمر بالنسبة لوزيره ابن زيدون (٤٢) .

= أما عن ميته فكانت أدبية تناسب موضوعات الكتاب . فعندما سمع جلبة أصوات المرابطين ، وهو مريض قل : لا اله الا الله ، نعص علينا كل شيء حتى الموت . وقارن القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على هرب صاحبها (معز الدولة) فى البحر الى افريقية بأمواله وديارته ، وأسلم له البلد ، فملكها المرابطون ، وكتب محمد بن عائشة بالفتح الى أمير المسلمين ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ص ٧٩ - حيث النص على أنه بمجرد بدء العداوة مع المعتمد ابن عباد بعث (يوسف بن تاشفين) جيشا الى المرية ، ففر عنها ابن صمادح ، ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية (وان وضع ذلك خطأ فى الجواز الثانى) سنة ٨٦ (٤٨٦)هـ / ١٠٩٣ م بدلا من (٤٨١هـ / ١١٨٨ م) . وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٢ - حيث يجعل فتح المرية ، بعد سقوط أشبيلية وعلى يد سير بن أبى بكر نفسه ، وان واليها محمد بن معن بن صمادح مات غما ، وان ولده خرج بأخوته وأهله فى مركب الى الجزائر (بأمواله) والتحق ببني حماد فأحسنوا اليهم ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - حيث نهاية النص « والتحق ببني حماد » الذين أسكنوه تدلس ، وهو تحريف كما نرى .

(٤٠) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤١) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤٢) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث النص على قتل من يسمى ان بكر (مع الوزير) وأغلب الظن انه عبد الله بن بكر والى جيان السابق الذى قد يكون لحا الى قرطبة .

تهدين أعمال قرطبة وموقف المعتمد من ألفونس :

وكان على بطى أن يهدن بلاد قرطبة بالاستيلاء على أعمالها من البلدان والقرى وما ينبعها من الغلاع ، من : بياسة الى أبذة أو حصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة . ولما كان ابن أبى زرع يذكر بشيء من المبالغة ، كما نرى ، أنه لم ينته شهر صفر الذى فتحت قرطبة فى اليوم الثالث منه ، حتى لم يبق بيد أبى عباد بلد الا وقد ملكه المرابطون ، ما عدا قرمونة وأشبيلية(٤٣) ، فأغلب الظن أن هذه الرواية تحمل فى ثناياها فكرة سقوط تلك البلاد والحصون بمدخله من أهلها ، والطاعة للأمير المسلمين ، حسبما ينص عبد الله بن بلقين على أن « المرابط داخل معاقله (المعتمد) فقامت عليه الرعايا بكل قطر » . وهنا يكون استنجد المعتمد - الذى كان يرى قرب نهايته - بألفونس حسب تقرير الأمر عبد الله ، فى موضعه الصحيح(٤٤) ، كما تضع الرواية الأخرى التى يأخذ بها ابن الأثير ومن تبعه من الكتاب ، وهى التى تقول ان الأفرنج ، والمقصود ألفونس السادس ، كانوا قد قرروا منذ البداية تقديم المساعدة للمعتمد ، ليس حبا له ولكن خوفا من المرابطين(٤٥) . هذا ، ولا بأس أيضا أن يكون التفكير فى المساعدة العسكرية للمعتمد قد حدثت بعد أن طلبها المعتمد اثر سقوط قرهونة فيما بعد ، أى فى يوم السبت ١٧ ربيع الأول ٤٨٤هـ / ١٠ مايو ١٠٩١م ، كما يرى ابن أبى زرع(٤٦) . وما يتبعها من سقوط رندة ، التى استولى عليها قروور من الراضى بن المعتمد خدعة ، بعد أن مناه بالأمان فى نفسه دون المال ، ثم قتله(٤٧) .

-
- (٤٣) القرطاس ، ص ١٥٤ ، وأنظر الروض المطار ، ص ٥٧ - حيث بياسة على ٢٠ ميلا من جيان ، ص ١١ - حيث ايذه على ٧ أميال من بياسة ، ص ٨٥ - حيث الحصن المدور غرب بياسة ، ص ١٠٥ - حيث شقورة من أعمال جيان .
- (٤٤) المذكرات ، ص ١٦٩ ، وما سبق ، ص ٣٣٧ .
- (٤٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ - ١٩٠ .
- (٤٦) القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على دخول قرمونة عنوة من قبل سير بن أبى بكر ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أنها فتحت قبل سقوط اشبيلية ، ومات فيها عالم كثير .
- (٤٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أن قروور تخلص من الأمير العبادى الراضى دون اذن من السلطان (أى أمير المسلمين) ، وقال ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ - حيث النص على غلبة (والى الأندلس الأمير) سير (بن أبى بكر بن محمد ابن وركوت) على كل عمله (ابن عماد) ، واستنزل أولاده : المأمون من قرطبة ، ويزيد الراضى من رندة وقرمونة - واستولى على جميعها وقتلهم .

تحييد القشتاليين : هزيمة البرهانس :

وهكذا سارت خطة تصفية مملكة بنى عباد على ما يرام ، وكان الأمير سير بن أبى بكر فى موقف يسمح له بإجهاض أية عملية مساندة من قبل القوات الأسبانية المسيحية ، قد تمكن المعتمد من الصمود . فعندما علم سير بقدوم القائد (القومس : الكونت) المسيحي البرهانس (Alvar Hanez) على رأس حملة كبيرة يزيد عددها على ٢٠ (عشرين) ألف رجل ، بين فارس وراجل لمساعدة المعتمد على فك الحصار حول اشبيلية ، أسرع سير بانتخاب ١٠ (عشرة) آلاف فارس من خيرة الرجال ، وسيرهم تحت قيادة الأمير ابراهيم بن اسحق اللمتونى ، الذى التقى بالأسبان فى منطقة حصن المدور حيث دارت واحدة من ملاحم المرابطين المشهورة فى الأندلس . فلقد انتهت المعركة التى صبر فيها الفريقان الى حد الفناء ، بانتصار دفع المرابطون فيه الكثير من الشهداء ، بينما استؤصل رجال البرهانس ، فلم ينج منهم الا العدد القليل - الأمر الذى قطع الأمل تماما ، فى امكانية صمود ابن عباد(٤٨) .

الشجر الأقصى : قلعة رباح :

والمهم من كل ذلك أن بطى بن اسماعيل نجح فى المهمة التى كلفه بها سير بن أبى بكر ، وهى دخول قرطبة وتهديد أعمالها ، الأمر الذى سمح له بالاستقرار فيها ، من حيث كان يشرف على رم ثغورها . وهكذا اهتم بطى بن اسماعيل بأعمال قلعة رباح ، آخر حصون بلاد قرطبة على الحدود مع قشتالة ، فخصها بحامية مرابطية من ألف فارس من المرابطين يرأسهم قائد لمتونى مكلف بالنظر فى حسن سير العمل فى القلعة ، وضبط الأمور على طول الجبهة(٤٩) .

نهاية العباديين فى اشبيلية :

وهكذا كان يمكن لسير وقد تخفف من هاجس معونة محتملة يقدمها

(٤٨) انظر القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص بشئ من المسالفة على تكرين حملة البرهانس ، من ٢٠ ألف فارس و٤٠ ألف راجل . الأمر الذى أوجب الاكتفاء بالرقم الأول دون الثانى حتى ينسجم مع عدد الحملة المرابطية ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ (والنويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٣) . وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ - حيث خاف الأدينش من التورط فى ذلك الأمر .

(٤٩) القرطاس ، ص ١٥٥ .

ألفونس السادس الى المعتمد ، أن يحكم الحصار حول اشبيلية ، عن طريق جيش جديد يهاجم الضفة الغربية للمدينة عبر النهر . وفعل استولى الجيش الثانى على الأسطول الاشبيلي فى نهر الوادى الكبير ، وتمكن من اعتلاء الأسوار ودخول المدينة بمخامرة أنصار المرابطين من أهلها ، وذلك فى يوم الأحد ٢٢ رجب سنة ٤٤٨هـ / ١١ سبتمبر ١٠٩١م (٥٠) .

وتظهر فى رواية ابن الأثير نزعة أندلسية عندما تتحدث عما لحق بأهل اشبيلية على أيدي الغزاة المرابطين من أعمال النهب والسلب - وانتهاك الحرمات ، بمعنى فتح العنوة واستباحة المدينة المفتوحة ، وقد يؤكد ذلك ما تنص عليه رواية موازية من ان المعتمد بن عباد سلم البلد بالأمان ، وأنه كتب نسخة العهد ، ولكن المرابطين لم يوفوا له (٥١) . اما عن الرواية المغربية التى يمثلها ابن أبى زرع فتقتصر على استمرار سير (المرابطين) فى حصار اشبيلية حتى دخلها على المعتمد ، فأمنه فى نفسه وأهله وولده (٥٢) فكان الأمان تفضل كريم على المعتمد ، من قبل نائب أمير المسلمين .

والحقيقة أن الرواية الأندلسية النزعة تتبلور حول شخصية المعتمد ابن عباد ، الذى يشتغل بالحرب والشرب والذى يقول الشعر ويعشق

(٥٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث ينص المؤلف الغرناطى على أن دخول اشبيلية كان بعد عام من دخول غرناطة ، مدينته المقتدة . وقارن القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث نفس التاريخ ٢٢ رجب ٤٨٤هـ / ٩ سبتمبر ١٠٩٦م ، عن طريق الوادى ، والنويرى . أبو ضيف ، ص ٣٨٧ - حيث نفس رواية ابن الأثير مع مزيد من بعض التفاصيل ، الذخيرة لابن سمام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ص ٥٦ - حيث دخل عليه البلد فى ٢٠ رجب (٤٨٤هـ / ٩ سبتمبر ١٠٩١م) فخطب ، منجمله (أبا بكر الحولانى) شعرا .

أرمدت ام بنجومك الرمد قد عاد ضدا كل ما تعد

(٥١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ - حيث القول ان الفاتحين سلبوا الناس ثيابهم . فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، . . . وسبيت المخدرات وانتهكت الحرمات - وكان الأمر يتعلق بأعمال الفتن التى كانت تثور قديما بين العرب والبربر أو بين العساكر وأهل المدينة ، وخاصة فى قرطبة العاصمة التى حلت محلها الآن اشبيلية . وقارن النويرى أبو ضيف ص ١٦٣ - حيث النص على أسر المعتمد ومعه أولاده الذكور والإناث ، بعد استئصال جميع أموالهم . وقيل ان المعتمد سلم البلد بأمان ، وكتب نسخة الأمان والعهد واستحلفهم على نفسه وأهله وماله وعبيده . . . فلما سلم العهد اليهم لم يبقوا له ، ونصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - حيث اختلاف الرواية المتسرة هنا عن السابقة .

(٥٢) القرطاس ، ص ١٥٥ .

النساء^(٥٣) ، فى مقابل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى يوصف بالبساطة والورع ، والتمسك بتعاليم الدين ، فلا يقلل من شأنه الا اساءته للمعتمد ، التى تعتبر مدخلا لوسميه بشيء من الحسة واللؤم (ما سبق ، ص ٢٤٨) . والحقيقة ان المعتمد بن عباد الذى تنسب اليه ضروب من الشجاعة فى الدفاع عن مدينته ، لا تقل كثيرا عما نسب اليه يوم الزلافة^(٥٤) ، كان ما يزال يقاوم الاستسلام بعد سقوط اشبيلية (المدينة) ، وهو معتصم بالقصبة (الفلعة الكبيرة) التى كانت تعتبر بمثابة الحى الملكى فى اشبيلية ، يتوسطه القصر (Alcazar) والجامع ، ويحيط بهما معسكرات الحرس الخاص ، ومقار كبار القواد .

والمهم ان مقاومة المعتمد انتهت ، كما تقضى اصول السياسة ، تحت الحاح أهل الحاشية والمقربين بالاستسلام^(٥٥) ، وذلك نظير الأمان فى النفس، دون الأموال والعبيد والخدم والحشم - تماما كما حدث فى غرناطة قبل

(٥٣) هذا وان كان وراء هذه الواجهة الناعمة غلظة قلب لا مزيد عليها ، لا تتمثل فقط فى القتل وازاقة الدماء فى الحرب ، بل التى تصل فى حب النار والتشفى الى حد الاحتفاظ برؤوس القتلى مضبرة فى بعض الخزائن وكانها تحف أثرية ، أو التوسع فى ذلك ونصبها فى رؤوس العيdan وكانها حديقة الموت - أنظر الذخيرة لابن بسام ج ١ (ق ١ م ١) ، ص ٢٨٨ - حيث رؤوس أمراء بطليوس المختزنة (من حرب سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) عند ابن عباد بأشبيلية ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٢٧ - حيث النص على وجرد حديقة ، بباب المعتضد بن عباد ، تطلع كل وقت ثمرا من رؤوسهم (الأعداء) المهداة اليه مقرطة الآذان برقاع الأسماء ٠٠٠ ترتاح نفسه لماينتها ٠٠٠ وكان محمد بن عبد الجبار المهدي ، مفرق الجماعة بقرطبة سبق ابن عباد الى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه . وفيها قال صاعد ابن الحسين :

جلاء العين بهجة النفوس حدائق أطلعت ثمر الرؤوس

ص ٢٨ - حيث النص على أنه لما خلع المعتمد ، وجد جوالق مطبوع عليه ، وظن أنه مالذ أو ذخيرة ، فاذا هو مملوء رؤساء (منها) : رأس يحيى بن على بن حمود ، ثابت الرسم متغير الشكل ، فدفع الى بعض ولده فدفنه .

(٥٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٣ ، وما سبق (عن الزلافة) ، ص ٣٠٧ .

(٥٥) الذخيرة ، ج ١ (ص ٢ م ١) ، ص ٥٢ - حيث تقول الرواية انه يوم دخل عليه المدينة ، فى منتصف رجب سنة ٤٨٤ هـ / ٤ سبتمبر ١٠٩١م قال فى ذلك شعرا منه :

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع على فمى السسم النقيع

عام (٥٦) . وهذا ما يفسر تلك الرواية التي تقول ان المعتمد سلم البلد بأمان . . وأنه كتب نسخة العهد . . فلم يوفوا له (ما سبق ، ص ٣٤٥) .
بمعنى ازدواجية فتح اشبيلية : عنوة (بالنسبة للمدينة وأهلها الذين نكل بهم) ، وصلحا (بالنسبة للمعتمد وأهله ، حسبما قضت شروط الصلح)
- وهو الأمر الدارج في كثير من الفتوح الاسلامية الأولى .

وتمثل انتهاك أمان المعتمد في مقاتل أبنائه ممن كان يخشى خطرهم ، سواء في اشبيلية أو أعمالها من قرمونة ورندة ممن تزخر أشعاره برثائهم (٥٧) . والقبض عليه بعد اطلاق أمهات الأولاد من نسائه ، ومن كان لا يخشى منه من أبنائه الذين بلغوا حوالى المائة عدا (٥٨) ، ثم حمله مع الأبناء الصغار الى جانب البنات ، بحرا عبر المجاز (٥٩) الى سبتة ، ومنها ساروا الى مكناس موضع تجمع الأمراء المنفيين من الأندلس ، حيث التقى بهم صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين ، قبل نقل الجميع الى أغمات (٦٠) .

نهاية المعتمد بن عباد في أغمات :

والذى نراه أن نفى المعتمد الى بلاد البربر على يدى أمير المسلمين ، هو الذى فجر طاقات الأمير المحارب ، شاعر المناسبات الموهوب ، وجعلته

(٥٦) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على انه : « لما ظفر بابن عباد فبا الأمير سير خدمه وعبيده (أى اعتبرهم فيثا يقسم كالغنيمة) ، حاشى أمهات الأولاد . وفى قفول يوسف بن تاشفين بعد ذلك (من سبتة) الى مراکش ، تقول نفس الرواية : « بعد الفتح انصرف أمير المسلمين الى مراکش (وقد) امتلأت يده بالمال (الذى) قسمه على أجناده ، وأهدى الى الصحراوي عمه من تلك الذخائر .
(٥٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩١ - حيث النص على مقتل ولديه الفتح (صاحب خرطبة) ، ويزيد (الراضى صاحب رنده وقرمونه ؟) بين يديه (فى اشبيلية) صرا . وقارو النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٦ - حيث يقول المعتمد فى رثاء ولديه اللذين ذبحا بين يديه :

يتولون صبرا لا سبيل الى الصبر سابكى وأنكى ما يطاول من عمرى
ولو عدتما لاخترتما العود فى الثرى اذا انتما أبصرتماانى فى الأسر

(٥٨) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ .

(٥٩) أنظر الذخيرة لابن بسام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٥٦ - حيث النص على أنه أطلقت أمهات أولاده وبنيه . . . وعمر بهم مركبا ، فركبوا البحر ورزقوا السلامة فيه الى أن وصلوا الى أمير المسلمين . . . وبقوا هناك فى كنفه ، تحت احسانه عليهم الى اخريات أيامه سنة ٤٨٨ هـ / ٥ - ١١٠٤ م .

(٦٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ .

يصنع من نهايته المحتومة ، مأساة فاجعة أشبه بمآسى اليونان القديمة
أو مقاتل الطالبين الاسلامية ، كما شاركه فى هذا الصنيع ندماءه من
الأدباء والشعراء الذين نعوا مجالس أنسه ، بنفس الايقاع الذى كان ينعى
به نفسه . ولا نعرف ما اذا كان بعضهم وهو يرجو أخذ عطاء الأسير ،
كما كان يفعل وهو أمير ، كان يحسن الظن بما يكتنزه من المال أم كان
لا يهتم باستنزاف بقية ما كان يدخره لبناته - اللاتى اضطررن الى الغزل
بالأجر .

والمهم ان اقامة المعتمد ، مثقفا بأغمات كما تقول بعض الروايات ،
كان موضوعا لذلك النوع من الشعر الشجنى الذى ساد فى ذلك العصر ،
والذى كان يعالج أشياء من أحوال البلاط ومجالس الأنس ، على وجه
الخصوص . فمما نظمه المعتمد فى أسره بأغمات ، تلك الأبيات التى وجهها
الى الشيخ عبد الجبار بن أبى بكر بن حمد يس ، بالمهدية :

غريب بأقصى المغربين أسير يبكى عليه منبر وسرير
أذل بنى ماء السماء زمانهم وذل بنى ماء السماء كبير (٦١)

وقريب من هذا ما قاله المعتمد أيضا فى يوم عيد ، وهو بالمعتقل
أسير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فصرت كالعبد فى أغمات مأسورا
قد كان دهرك ان تأمره ممتنلا فردك الدهر منهيأ ومأمورا (٦٢)

ومن شعر وزير المعتمد الشهير : أبى بكر محمد بن اللبانة ، الذى
ذهب اليه بأغمات ، ومدحه وهو فى سجنه فقال :

انما أنت درة للمعـالى ركبت الدهر فوقها أهدافا
أنت للفضل كعبة ولو انى كنت أستطيع لالتزمت الطوافا.

(٦١) الذخيرة ، لابن بسام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٧٥ ، النويرى ، أبو ضيف ،
ص ١٦٧ - حيث النص على ان ابن حمديس كان قد توجه الى الأندلس سنة ٤٧١ هـ / ٩ -
١٠٧٨ م فقصده المعتمد وأقام عنده الى أن خلع ، وكان مما رد به على المعتمد ، فى أغمات ذلك
البيت :

جـرى لك جد بالكرام عثور وجار زمان كنت منه تجير

(٦٢) النويرى ، أبو ضيف ، ص ٢١٦ .

وكانت هدية المعتمد التي حملها ابنه شرف الدولة الى الشاعر
(الوزير السابق) ٢٠ (عشرين) مثقالا مرابطية ، وثوبين من القماش ،
وبضعة أبيات شعر من نظمه يعبر بها عن الاعتذار عن قلة الهدية التي
لا تتناسب وقدر المهدي ، ومنها :

اليك النزر من كف الأسير وأن تقنع تكن عين الشكور
ثقیل ما يذوب به حياء وان عذرت حالات الفقير(٦٣)

وفى حفيد المعتمد « فخر الدولة » الذي عمل بصناعة الصاغة بعد
نهاية الدولة ، قال أبو بكر الداني ، وقد رآه وهو ينفخ النار بقصبة
الصائح :

صرفت في آلة الصواغ أنملة لم تدر الا الندى والسيف والقلم(٦٤)

اما أجمل ما قيل في ابن عباد ، فهو ما أنشده وزيره ابن اللبانة على
قبره يرثيه في يوم عيد :

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عداك عن الجواب عوادي(٦٥)

غزو بطليوس : آخر ممالك الوسط والغرب :

وبسقوط اشبيلية لم يبق أمام سير الا بطليوس ، التي تمتد أعمالها
غربا حتى أشبونه (لشبونه) وشتنترين (Santarem) من جنوب البرتغال
حاليا(٦٦) ، وكان صاحبها : المتوكل عمر بن الأفطس يساعد المعتمد بن

(٦٣) النويري ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٦٤) الذخيرة ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٧٩ ، وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ١٦٨ -
حيث فخر الدولة ابن المعتمد (وليس حفيده) وانه تعلم حرفة الصياغة بناء على طلب حميه
الحباز ، الذي رفض أن يزوج ابنته الجميلة « الا ممن له صناعة يستر حاله وحالها بها ان
احتاج اليها » . وفي ذلك قال المعتمد « هذا رجل عاقل ، فأمر باحضار الصناعة الى القصر ،
وعلم فخر الدولة الصياغة ... الخ » .

(٦٥) الذخيرة ، ج ٣ ، (ق ٢ م ١) ، ص ٤١ ، النويري ، أبو ضيف ، ص ١٦٧ .

(٦٦) أنظر عبد الله عنان ، الطوائف ، ص ٣٦٩ ، عن استعادة أشبونة (نوفمبر
١٠٩٤ هـ / ذو القعدة ٤٨٧ هـ) ، وص ٣٨٣ عن نفوذ فردلند (فرناندو) سنة ١٠٥٧ م / ٤٤٩ هـ
الى شمال البرتغال ؟ والى أطراف بطليوس الشمالية الغربية وحصاره مدينة نازو (Vizeu)
واقتحامها على أهلها المسلمين ، واستيلائه على لاميجو (مليقة) شمالها واسكان النصارى بها ،
دون أن يتحرك ابن الأفطس .

عباد على الصمود في مواجهة المرابطين ، ولا يدارى في التعاون مع ألفونس السادس . ورغم أن ابن الأفطس لم يكن يستطيع الوقوف وحده أمام القوات المرابطية المظفرة في كل الجبهات ، كما تحظى بتأييد أهل البلاد الساخطين على أمرائهم في كل مكان ، فإن سير بن أبي بكر رأى استخدام الحيلة في أخذ بطليوس بأيسر السبل ، عن طريق استخدام خصم بن عباد ، صاحب مرسية السابق : عبد الرحمن بن رشيق ، بصفته أندلسيا خبيرا في تدبير المكائد ، نظير استعادته لمدينته مرسية (ما يأتي ، ص ٣٥٣) . فأطلقه من حبسه - الأمر الذي أثار وقتئذ الكثير من التخمينات - وتبعها للخطة المدبرة دخل ابن رشيق بطليوس كخصم للمرابطين - على ما نظن . وعن هذا الطريق نجح في مداخله أهل البلد ، بل وفي اشراك حرس القصبية (القلعة الأميرية) في تدبيره ، وبذلك تم له القبض على « الشيخ » : المتوكل عمر بن الأفطس ، وابنيه الفضل ولى العهد ، والعباس ، اللذين قتل ، بين يدي أبيهما دون رحمة أو شفقة (٦٧) .

والحقيقة أن ابن الأفطس لم يؤاخذ بذنب التحالف مع المعتمد بن عباد ، بل بمغالاته وبعض بنيته في التشبث بالملك إلى حد الوقوف في صف ألفونس السادس ، دون مواربة . وتظهر هذه النزعة - التي لا تفسرها إلا العلاقات الوثيقة بين بني الأفطس وجيرانهم الأسبان من البرتغاليين والقشتاليين . فلقد بلغ الأمر إلى حد أن عرض ولد ابن الأفطس على أبيه المتوكل الاختيار بين التخلي عن الرئاسة للمرابطي أو الفرار إلى « الرومي » « ألفونس السادس » والسكنى في بعض البلاد (الإسلامية) التي في طاعته . وأنه عندما رفض المتوكل هذا الاقتراح ، خرج الابن هو نفسه ، بماله وولده مهاجرا من بطليوس (٦٨) .

وبسقوط بطليوس (Badajoz) يكون المرابطون قد ضموا إلى دولتهم كل أراضي الوسط والغرب من الأراضي الإسلامية الأندلسية ، ولم

(٦٧) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٤ - حيث النص على أن الأمير سير أمر بقتل المتوكل مع ابنه . وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٣ - حيث النص على أن ابن الأفطس طلب أن يقدم ابنه (ولى العهد) قبله ليكون في صحيفته ، والنويري ، أبو ضيف ، ص ٣٨٨ .

(٦٨) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٢ - حيث الإشارة إلى أن الفقيه ابن الأحسن المسجل ماسي أصلا ، والبطليوسي إقامة ، والذي كان متربا من الأمير المتوكل ، كان يعلن أن « كونه في الشرف ينفع المسلمين » ، وهو يعمل (حقيقة) في خلع صاحب بطليوس .

يبقى أمامهم إلا إقليم الشرق الذى كان موضع الشد والجذب بين المسلمين والمسيحيين الذين كانوا منقسمين بدورهم على أنفسهم ، مما كان يزيد فى تعقيد المواقف ، وبالتالي فى صعوبة الوصول الى ترتيبات أمن واستقرار فى أحد الجانبين أو الآخر .

المرابطون فى شرق الأندلس :

وينمىز تدخل المرابطين فى الشرق ، حيث : مرسية ودانية وبلنسية وطرطوسة ثم سرقسطة بالصعوبة الشديدة ، مقارنة بسهولة استحوادهم على اقاليم الغرب . ويمكن تفسير ذلك بأنه رغم وطأة الضغط المسيحى على الشرق ، فإن ما حققته حرب الاسترداد من نجاح هناك كان أقل كثيرا مما تحقق فى الغرب . ولا شك أن بدء المقاومة المسيحية ، فى مناطق ليون واشتوريش وغاليسيا فى الركن الشمالى الغربى من أيبيريا ، حول مركزى شنت ياقب (سنتياجو دي كومبوستيلو) وافييدو (Oviedo) ، سهل استرجاع الأراضى الغربية الموازية لساحل المحيط الأطلنطى من الشمال الى الجنوب ، حيث غابت الأساطيل الاسلامية عن تلك السواحل التى صارت مسرحا لمراكب المجوس (النورمان) منذ القرن الثالث الهجرى (٩ م) قبل أن تصبح المياه الاقليمية فيها ، منذ القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، ممرا عموميا لمراكب الفرنسيين والانجليز الصليبية ، الذاهبة الى شرق المتوسط ، والتى كانت تمد يد العون لصليبية الاسترداد الاسبانية . وهذا مما يسر نزول الثغر الأدنى جنوبا بغرب الى حدود لشبونة شنترين (ما بعد ، ص ٣٦٩) .

وعلى العكس من ذلك كان الوجود الاسلامى فى الجزر الشرقية (ميورقة : البليار) بصفة خاصة ، الى جانب الوجود الاسلامى فى صقلية وجنوب ايطاليا وجنوب فرنسا (البروفانس والألب) ، من العوامل التى ساعدت على ثبات المسلمين فى شرق الأندلس ، مقابل : دانية وشاطبة وبلنسية ، وعلى بقاء الثغر الأعلى شمالا فى سرقسطة وأعمالها ، بحيث صارت الحدود الاسلامية تسير من الشمال : جنوبا بغرب ، من سرقسطة (الثغر الأعلى) ، الى طليطلة (الثغر الأوسط) الى بطليوس الثغر الأدنى الذى لم يلبث أن انزلق ، بعد سقوط طليطلة (الثغر الأوسط) ، سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م الى قلعة رباح (أقصى ثغور قرطبة) ، الأمر الذى كان يسمح فى قرننا (الـ ٥ هـ / ١١ م) هذا ، بغارات مسيحية تهدد الأراضى الاسلامية الى طريفة ، على شاطئ المجاز (ما سبق ، ص ٢٨٥) حتى قدرت الأراضى المسيحية بـ ٧/٨ (سبعة أثمان) مساحة ايبيرية ، مقابل الـ ١/٨ .

« الثمن) فقط للمسلمين عندما فكر المرابطون فى الجواز الى الأندلس
(ما سبق ، ص ٣٠٠ ، والحلل ، ص ٤٩) .

وهكذا اذا كان يوم الزلافة قد جدد الأمل فى رتق فتق طليطلة ،
وتهدين الغرب فى اشبيلية وبطليوس ، فان ما وقع فى ليط (Alédo)
غداة الزلافة كان يعنى خرقا جديدا قد ظهر فى الشرق ، فى مرسية التى
خرجت على أمير المسلمين ، وفى بلنسية التى أرسل اليها ابن تاشفين ٤
(أربعة) آلاف فارس من المرابطين (ما سبق ، ص ٢٢٤) . وبذلك يكون
المرابطون قد انغمسوا فى مشاكل الشرق قبل غزوهم للغرب ، اذا لم تكن
مسألة ليط الشرقية هى السبب المباشر للقضاء على أمراء الأندلس فى
الغرب .

والظاهر أن هذا التدخل المبكر من قبل المرابطين فى شئون شرق
الأندلس ، كان السبب فيما يظهر لدى بعض الكتاب من اختلاط الروايات
المتعلقة بفتح الشرق ، بتلك التى تتعلق بغزو الغرب السابقة عليها ، مما
تراه فى محاولة رسم الخطوط العريضة لحضوع اقليم الشرق لسلطان
المرابطين . وهنا لا بأس من الإشارة الى أن اختلاط الروايات هو الصدى
الطبيعى لاضطراب الأحوال .

فالذى يفهم من رواية ابن الأثير أن فتح المرابطين لاقليم شرق الأندلس
جميعا ، من مرسية الى دانية وشاطبة وبلنسية ، قد تم دفعة واحدة بمعرفة
سير بن أبى بكر ، وكأنه تكملة لفتوحه فى الوسط والغرب ، خلال العبور
لثالث ليوسف بن تاشفين ، وأنه كان فى السنة الثانية لذلك العبور وهى
سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م أى مع غزو اشبيلية وبطليوس (٦٨ م) . أما النويرى
الذى يشارك بن الأثير نفس المصدر ، فهو عند نهاية ملوك الطوائف ، وحيث
يذكر نهاية غرناطة ، يقول : « وانقرضت جميع هذه الدول ، وصارت الأندلس
جميعها للملثمين ، على ما نذكره - ان شاء الله عز وجل - فى أيام أمير
المسلمين : يوسف بن تاشفين » (٦٩) . ولكنه فى ملك أمير المسلمين لجزيرة
الأندلس لا يشير الى شرق الأندلس ، ولا يقول فى نهايتها الا : « وتتابعت

(٦٨ م) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ .

(٦٩) النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٧٢ - حيث النص على فتح غرناطة سنة ٤٨٤ هـ /

١٠٩٤ م بدلا من ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م .

«الفتوح على أمير المسلمين حتى احتوى على جميع بلاد الأندلس التي كانت للمسلمين ٠٠٠ وفتح في بلاد الفرنج فتوحا كثيرا» (٧٠) . ولما كان صاحب الحلل الموشية قد أعرض عن تفصيل غزو المرابطين لممالك الطوائف (٧١) ، لا يبقى لنا الا قرطاس ابن أبي زرع ، وعبر ابن خلدون الذي ينقل عنه ويضيف اليه ، مع محاولة ترتيب الأحداث ، وان تعرضت روايته الى التحريف مما يظهر في ترجمة دسلان (Du Slane) .

أخذ قبرة ومرسية : شعبان ٤٨٤ هـ / سبتمبر ١٠٩١ م :

وآخر ما عرفناه عن مرسية ، ثورتها التي أدت الى فشل حصار حصن طييط حيث ثارت المدينة على يوسف بن تاشفين اثر مجاملته للمعتمد بن عباد ، عندما أمر سير بن أبي بكر بالقبض على ابن رشيق أمير مرسية وتسليمه بعد تثقيفه الى ابن عباد الذي سجنه في اشبيلية (ما سبق ، ص ٣٢٣) . أما آخر ما عرفناه عن ابن رشيق ، فهو انه كان وسيلة سير الذي أطلقه من السجن لكي يحيك مؤامرة سقوط قرطبة - نظير استعادته لمرسية (ما سبق ، ص ٣٤٢) . ولما كان سقوط قرطبة قد تم في شهر رجب ، وتبعها سقوط مدينة « قبرة » في شهر شعبان بين أيدي المرابطين ، وذلك قبل قليل من سقوط مرسية في شهر شوال التالي ، بين يدي يوسف بن داود بن عائشة ، وكذلك أعمالها - حسبما ينص ابن أبي زرع (٧٢) . ولما كانت قبرة القريبة من شرق قرطبة ، على بعد ٣٠ (ثلاثين) ميلا ، في منتصف الطريق المؤدى جنوبا بشرق من شقنودة : صاحبة قرطبة الجنوبية الى البيرة المتاخمة لغرناطة ، من حيث يكون الطريق ، عبر بسطة ولورقة الى مرسية (٧٣) ، فيفضل الموقع الاستراتيجي لقبرة ما بين مرسية

(٧٠) التويري ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ - حيث قرطبة واشبيلية والمرية وبطليوس .
ص ٣٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٦ - ٢٧٠ .
(٧١) الحلل ، ص ٧٣ - حيث النص على انه « كان ما هو مشهور من الاستيلاء على بلادهم ، والغلبة على ممالكهم ، وليس هذا موضع التقصي » .
(٧٢) أنظر القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث اسم المدينة نبرة ، وهو تحريف لقبرة ، كما نرى . وذلك بصرف النظر عن اختلاف كل من المذكرات (ص ٣٤٢) والقرطاس (هنا) في تحديد شهر سقوط قرطبة .
(٧٣) أنظر الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٤٩ - حيث منطقة قبرة كثيرة المياه ، وجبلها غني بضروب التوابير وأصناف الأزهار وأجناس الأفاوية والعقاقير ، كما تحسن بها ضروب الغراسات ويكثر الزيتون . أما سوقها الجامع فيوم الخميس ، وأما مسجدها الجامع فله ٣ (ثلاث) بلاطات . وعن موقع قبره ، أنظر عبد الله عنان ، الآثار الباقية ، الخريطة * امام ص ١٦ .

وقرطبة ، نرى أن يكون عبد الرحمن بن رشيق قد قام بدور مهم في دخوله مرسية في شعبان سنة ٤٨٤ هـ / سبتمبر ١٠٩١ م ، في طاعة المرابطين ، مثلما دبر استسلام قرطبة خدعة بغير قتال . ولا بأس أن يكون ذلك مدعاة لنا تفوله الرواية من أن القائد يوسف بن عائشة كان « عادلا ورعا فأحبه الناس » (٧٤) .

وهكذا عاد عبد الرحمن بن رشيق الى رئاسية مرسية تحت رايات المرابطين ، ولا بأس أن يكون ما تقوله بعض الروايات من أنه دعا في الخطبة لأمير المسلمين (ما سبق ، ص ٣٢٣) . يعنى بعد رئاسته الثانية هذه ، والتي استمرت الى وفاته بمرسية سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ (٧٥) .

دخول دانية وشاطبة :

وبعد أن قضى الجيش المرابطي في مرسية أشهر الشتاء الأخيرة من سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، خرج يوسف بن داود بن عائشة ، عندما تحسنت الأحوال الجوية في سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، ليستكمل فتح الشق الأوسط من ساحل الشرق ، مما وراء مرسية ، حيث مدينتى دانية - دار صناعة الأسطول ، وقاعدة الغزو ، في جزر البحر الشرقي - وشاطبة (٧٦) . وكانت دانية قد آلت ، منذ رمضان سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م (عام طليطلة) ، بعد العامريين : بنى مجاهد أصحاب الجزائر الشرقية ، الى المنذر بن أحمد المقتدر بن هود صاحب طرطوشة (٧٧) ، فانتزعتها منه ابن عائشة دون مقاومة . ومن دانية على الساحل سار ابن عائشة نحو الداخل غربا الى شاطبة القريبة ، التي دخلها المرابطون دون قتال أيضا ، سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، بعد أن فر صاحبها ابن منقذ (٧٨) .

(٧٤) القرطاس ، ص ١٥٥ .

(٧٥) النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٧٠ .

(٧٦) القرطاس ، ص ١٥٦ ، وعن دانية أنظر الروض المعطار ، ص ٧٦ - حيث النص على أن السفن واردة عليها ، وأن الأسطول كان يخرج منها الى الغزو ، وبها ينشأ أكثرهم لأنها دار انشاء ، ومن أعلى جبلها فى الجنوب كانت تظهر جبال يابسة ثلاثة جزر ميورقة - فى البحر .

(٧٧) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى فى عصر المرابطين ، ص ١٤ .

(٧٨) القرطاس ، ص ١٥٦ - اما ما تقوله رواية ابن أبى ذرع من أن ابن عائشة سار بعد ذلك الى مدينة شقورة فنرى أنه تكرر لا داعى له - حيث أنه سبق النص على فتح شقورة مع يياسة وابضة ، بعد فتح قرطبة ، وهو الأمر المنبول ابتداء ، من حيث أن شقورة كانت من أعمال جيان ، كما نص الحميرى فى الروض المعطار (ما سبق ، ص ٢٤٣ وهـ ٤٣) .

غزو بلنسية :

نهاية القادر بن ذى النون :

وبعد شاطبة يأتى خضوع بلنسية للمرابطين فى خريف سنة ٤٨٥ هـ /
سبتمبر ١٠٩٢ م ، مكملًا (لصائفة) ابن عائشة المظفرة • والحقيقة أن
الأوضاع فى بلنسية وقتئذ ، كانت أشبه بتلك التى عرفتها طليطلة قبيل
سقوطها بين يدى الفونس السادس سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م • وذلك أننا
لا نعرف شيئًا عن مصير الحامية التى كان قد أرسلها يوسف بن تاشفين بعد
ليبىط الى بلنسية للدفاع عنها ، والتى بلغت ٤ (أربعة) آلاف فارس
(ما سبق ، ص ٢٢٤) ، وهل كانت قد دخلت المدينة حقًا ، أم أن
مآلها كان المراقبة فى غرناطة ، قاعدة المرابطين الصنهاجية ، حقيقة !
فالقادر بن ذى النون كان يملك بلنسية التى استبدلها ، بمعرفة الفونس
السادس ، بطليطلة - بمعنى أنه كان أميرًا تابعًا ، وإن الحكم كان لعملاء
الفونس السادس الذين كانوا يفرضون الضرائب والاتاوات على سائر
أعمالها (٧٩) • والحقيقة أن منطقة بلنسية كانت واقعة تحت حماية السيد
الكمبيادور (El Cid, El- Compeador, Alvar Roderigo) أو ميوسيد (Mio Cid)
الذى كان قد سخط عليه الفونس السادس ، فصار يعمل فى شرق الأندلس
لحساب بنى هود أصحاب سرقسطة والشجر الأعلى (٧٩ م) ، الذى نجحوا فى مد
نفوذهم حتى دانية (٨٠) قبل أن يعمل (السيد) لحسابه الخاص • وكان
أهل بلنسية ساخطين بطبيعة الحال على هذه الأوضاع ، كما فعل قبلهم أهل
طليطلة ، بفضل تحريض أهل العلم والدين ، وكان على رأسهم قاضى

(٧٩) ابن عذارى ، ص ٣١ - حيث النص على أن « القمبيطور » (النبيطور) أخذ
بمخنق بلنسية يجبى رعبتها ويستغلها : حاضرة وبادية ، وقد استضعف ابن (حفيد)
ذو النون ، ملكها المشعوث ، وأنظر القرطاس ، ص ١٥٦ - حيث النص على أنه كان بها
(بلنسية) القادر بن ذى النون ، والحاكم فيها من النصارى يجبون خراجها ، وقارن
مجهول ، فى ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٤) ، ص ١٤٧ - حيث النص على أن القادر بن
ذو النون صادق الفونس (الفونس) ، وهاداف فخاف أهل بلنسية أن يملكها (الفونس)
كما ملك طليطلة •

(٧٩ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣١ - حيث النص على أن ابن هود كان يدير لزريق
نواصياه ويقصده بالسلفة ، وأنه كان فى شعبان سنة ٤٨٥ هـ / سبتمبر ١٠٩٢ م مستقرا
سرقسطة وقد استخلف على أطعمته المختزنة وضرائب المفترضة ببلنسية ، فتنفس مخنق
أهلها ، وانفجرت الضيقة عنها •

(٨٠) حسين مؤنس ، الشجر الأعلى ، ص ١٣ - مع ملاحظة اضطراب بعض التواريخ •

المدينة الشهير : ابن جحاف (أبو أحمد جعفر بن عبد الله) الذي ينسب إليه حث المرابطين - عندما وصلوا الى مرسية - على تقديم المعونة العسكرية لبليسية ، الأمر الذي يذكر بالمفاوضات الأولى مع المعتمد قبل الزلافة ، مع الاستعداد للاعتراف بسيادة أمير المسلمين على المدينة وأعمالها (٨١) .

وهكذا تكون بليسية التي استقبلت - على دفتين - عددا قليلا من رجال ابن عائشة لم يزد عددهم على ٣٠٠ (ثلاثمائة) (٨٢) ، قد دخلت طوعا في النظام المرابطي بالأندلس ، ولم تفتح عنوة أو صلحا مثل غيرها من الممالك الغربية ، وإن كان القادر بن ذى النون قد دفع حياته ثمنا لذلك على يدى ابن جحاف الذي قبض عليه مختبئا في بعض دور المدينة ، ليلة الجمعة ٧ رمضان ٤٨٥ هـ / ١٢ أكتوبر ١٠٩٢ م (٨٣) .

ابن جحاف رئيسا تحت الحصار :

وبالتخلص من ابن ذى النون آلت الرياسة الى ابن جحاف الذي حاول أن يعيد سيرة القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد في اشبيلية ، فكان يجلس محاطا بالوزراء والفقهاء ، ويركب في موكب من العبيد والجند ، فكانه ملك جديد من ملوك الطوائف (٨٣ م) ، لولا عودة السيد الكمبيادور الذي طالب بتركة القادر والثأر له ، وأحاط المدينة برجاله في محاولة لعزلها ، على أمل خروج فرسان المرابطين - بعد أن استثقلهم ابن جحاف - منها (٨٤) .

(٨١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣١ - حيث النص على انه كان الى جانب القاضي ابن جحاف ، في الترحيب بمجيء أول دفعة من فرسان المرابطين صاحب الأحكام : ابن واجب ، وأهل العقد والحل من أهل بليسية .

(٨٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٣) ابن عذاري ، ج ٤ ، ص ٣١ - ٣٢ - حيث النص على ان قتل القادر بن ذى النون كان ثارا أو نوعا من القصاص لمقتل الزعيم الطليطلى أبي بكر بن الحديدي ، اذ تولاه فتي من أوليائه من بني الحديدي ، وقارن ملحق ٤ ص ١٤٧ (لجهول) - حيث قتل القادر ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان / ٢٨ أكتوبر وبويع ابن جحاف (بالامارة) في صبيحة الثلاثاء نفسه ٢٤ رمضان / ٢٩ أكتوبر ، ودخل بعدها القصر لكي يستمتع بكل ما فيه من ذخائر ورياش ومتاع .

(٨٣ م) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٤) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٢ - حيث النص على ان ابن جحاف استثقل المرابطين ، الأمر الذي سمح بمداخلة الكمبيادور اياه في اخراجهم من المدينة - واستبداده (ابن جحاف) بالملك - الأمر الذي لم يكن في مقدور ابن جحاف قبوله ، وقارن ملحق ٥ (أعمال الاعلام) .

ومن الواضح أن القوات المرابطية التي كانت تحت قيادة ابن عائشة (يوسف) كان قد أصابها الهزال والوهن بعد ما قامت به من جهد طوال « صائفتي » ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م و ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، وعلى طول الجبهتين : الغربية والشرقية ، وعرضهما . فهذا ما يستشف من قلة عدد الحامية المكونة من ٣٠٠ (ثلاثمائة) فارس ، التي أرسلت الى بلنسية ، وأيضا على دفعتين . وإذا التمسنا العذر لعدم التقدم لمواجهة « السيد » في حينه ، بدخول فصل الحريف ثم الشتاء ، فإن عدم الاقدام على مواجهته في السنة التالية ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، بعد تحسن الأحوال الجوية ، يؤكد افتراض ما حل بجيش الشرق المرابطي من الضعف والتعب ، الأمر الذي جرأ قوات الكونت (القمط) المغامر على احكام الحصار حول بلنسية وقطع الميرة عنها نهائيا ، والمدد (٨٥) .

ولكن ما هو أغرب من ذلك هو عجز القوات الكبيرة التي تجمعت من كل بلاد الأندلس ، من مغاربة وصحراويين وبلديين ، في شاطبة بأمر يوسف بن تاشفين ، تحت قيادة الأمير أبي بكر بن ابراهيم اللمتوني ، عن مواجهة العدو الذي قسم جيشه الى فرقتين (حتى تسهل له المناورة) ، الأمر الذي ربما أثار مخاوف القائد المرابطي ، الذي عاد أدراجه الى معسكره في شاطبة ، بعد ما كانت قواته قد أشرفت على بلنسية - وبذلك انقلب أمل الفرج عند المحاصرين وراء الأسوار الى يأس وقنوط من النجاة .

عودة السيد الى بلنسية :

وهكذا قدر لأهل بلنسية أن يقضوا مطلع سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، ما بين هم القحط والجوع ، ويأس الرضا بالموت في المدينة ، الأمر الذي كان يضاعف حقد العدو وغضبه (٨٦) ، ففي أوائل السنة ، في ربيع الأول

= ص ١٥٠ - حيث طالب الكامبيادور بما كان له من حق «الأطعمة» التي كانت له بحصون بلنسية وان ابن جحاف رد عليه بأن البلد «لأمير المسلمين» . هنا ، ولو أن الرواية تقول بعد ذلك ان السيد الكامبيادور خدع ابن جحاف حتى أنه صرف اللمتونيين الذين استنقلهم ، كما ضاق بمؤونتهم .

(٨٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ - ٣٤ .

(٨٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٣ - حيث النص على أنها زادت على أزمة طليطلة أضعافا ، إذ هلك أكثر الناس جوعا ، وأكلت الجلود والدواب ، وقارن الملحق (المجهول نشر بروفنسال) ، ص ١٤٧ - حيث عرض لبعض ما ذكره ابن علانة (أبو العباس أحمد) كشاهد عيان في =

٤٨٧ هـ / فبراير ١٠٩٤ م ، بلغ ثمن رطل القمح ١٥٠ مثقال والشعير ١ مثقال ، وأوقية الجبن ٣ (ثلاثة) مثاقيل ، وبيضة الدجاجة ٣ دراهم ، ورطل الجلد البقرى ٥ دراهم ، ورطل اللحم البغلي ٦ دنانير (٨٧) .

وفي جمادى الأولى عدمت الأقوات وهلك الناس واستحكم الوباء ، ولم يبق حيا من دواب الركوب الا ٤ (أربع) : اثنتان للقاضي الرئيس ابن جحاف وابنه ، واثنتان لابن البربرتي (الرتبير) : قائد جماعة المرتزقة من المسيحيين . ولقد ثمن فرس ابن البربرتي بـ ٢٠٠ (مائتي) دينار دفعها له الجزارون الذين باعوا الرطل من لحمه بعشرة دنانير ، بينما بيع رأس الفرس بـ ١٥ (خمسة عشر) ديناراً .

وأمام تفاقم الأزمة ، والياس من وساطة محتملة من ابن هود (صاحب سرقسطة) أو نجدة تأتي من مرسية (حيث المرابطون) انتهى الأمر باستسلام القاضي ابن جحاف بالأمان ، على أن يحتفظ بمنصبه كقاض للمدينة التي تتفق على أن يقدم ابن عدبس مشرفاً لها ، على أن تكون أبوابها بيد المستعربة (المسيحيين) من أهلها . وفي آخر جمادى الأولى ٤٨٧ هـ / ١١ يونيو ١٠٩٤ م خرج القاضي ابن جحاف لاستقبال السيد الكمبيادور (٨٨) ، الذي ظهر بمظهر السياسي الرشيد حتى انتشطت الأنفس ، وانبسطت الآمال ، وأمن الناس (٨٩) ، بينما كان على أهل دانية وأعمالها أن يقاسوا من الغارات التي أخذ يشنها « السيد » على بلادهم .

= تاريخه عن حصار بلنسية هذا - حيث ضاق الكمبيادور المدينة فحضرها ونصب عليها المجانيق حتى عدم الناس الطعام وأكلوا القثران والكلاب والجياث الى أن أكل الناس الناس . الأمر الذي يمكن أن يكون قد استفاد منه ابن خلدون في وصف حصار تلمسان بمعرفة المرينيين سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م .

(٨٧) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٨ . وعن حصار تلمسان سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ، أنظر ابن خلدون ج ٦ ص ٩٥-٩٦ - حيث قائمة الأسعار في المدينة التي كانت تعاني من الجوع أثناء الحصار كالآتي : بعد لحم الجيف : رطل لحم البغال والحمر ١٨٠ مثقال ، وطل لحم الخيل ١٠ دراهم ، ثم الجلد البقرى مئة أو مذكى ٣٠ درهما . الخ من الحضر والفاكهة والأدم .

(٨٨) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٩ - حيث النص على أن قائمة الأسعار في يوم ١٥ من هذا الشهر كانت كالآتي : رطل القمح : ٣ مثاقيل ، الشعير : ٢٥٠ مثقال ، أوقية الجبن : ١٠ دراهم ، بيضة الدجاجة : ٨ دراهم .

(٨٩) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٤ .

أمير المسلمين يعود بنفسه للإشراف على العمليات الحربية :

وأمام استصراخ الناس لأمير المسلمين وهو بمراكش من أجل انقاذ الشرق ، كما سبق له تهديد الغرب ، قرر أن يعاود الكرة . وانتقل يوسف ابن تاشفين فعلا من مراكش الى مرسية التي صارت مرة أخرى قاعدة العمليات الحربية في الأندلس ، حيث حشدت بها الجيوش من أجناد نظامية، وقبائل متطوعة ، وعهد بقيادتها الى الأمير أبي عبد الله محمد بن تاشفين (ابن أخيه لأمه) ويعاونه كقائد ثان ابن أخيه الآخر : أبو بكر (ابن أخيه لأمه أيضا وابن عمه في نفس الوقت) .

وكان عبور هذا الجيش الذي تكون من ٤ (أربعة) آلاف فارس وما يقدر بأكثر من ضعفهم من الرجالة في شهر رمضان ٤٨٧ هـ / سبتمبر ١٠٩٤ م ، على أن يلحق بهم على مشارف بلنسية قوات غرناطة بقيادة الوالي اللمتوني ، وشنترية حيث بنو رزين المغاربة أيضا ، وكذلك الأمر بالنسبة للشنياطي : المحارب الشجاع الذي كان من أهل اشقة من قواد الحصون بالشغر الأعلى (٩٠) . والى جانب القوات أقبلت قوافل التموين تترى من كل البلاد على مشارف بلنسية ، حيث تضخم المعسكر فصار كالمدينة العظيمة أو البحر المحيط (٩١) ولكن السيد الكمبيادور الذي كان قد خبر المرابطين في السنة الماضية ، لم يرعه ذلك الجمع ولا عبا به . وبصفته عارفا بأحوال البلاد والعباد ، اكتفى بأن يطرد من بلنسية ، نحوهم : « الضعفة من النساء والولدان » الذين تلقفهم ضعفة النفوس من السودان والسفلة من سياس الدواب ، ومن الباعة بأعمال الفسق والفجور ، الأمر الذي أثار الاضطراب في المعسكر ، وأدى الى افئقاد النظام والضبط ، مما انتهى الى اختلال الجيش ، وبالتالي الانسحاب الى دانية - وبذلك صح ما توقعه « السيد » ، وكأنه صار خيرا في شئون المسلمين .

(٩٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ ، وانظر ص ٤٠ - حيث النص على أنه في نفس الوقت (رمضان - شوال) كانت محلة الأمير محمد بن تاشفين (ابن أخى أمير المسلمين) تستقبل الى جانب العساكر المغربية والصحراوية ، جميع عساكر الأندلس والشغر الأعلى ، من قبل : تاييد الدولة (لاردة) وسند الدولة (طرطوشة) وحسام الدولة (شنترية) ونظام الدولة (البونت) والشنياطي (الشغر) وابن ياسين (شيرب) وابن يطلول (حصن الأشرف) . وهو الجمع الذي جعل النصارى المعاهدين يتصنعون (بدارون) لمن كان بالمدينة من المسلمين . ومن الواضح ان في ذلك خلط مع أحداث فتح بلنسية سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ، الذي سيؤدى الى فتح المرابطين لسرقسطة بعد ذلك .

(٩١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ .

والمهم أن الموقف ازداد سوءا بوصول الفونس السادس الذي كان قد لاستجاشه السيد ، اذ أصبح الجيش الاسلامي الكبير صيدا سهل المنال بالنسبة لرجلي الريكونكستا(٩٢) . فالكامبيادور (السيد) كان يستطيع أن يخدع الأمير محمد بن تاشفين بسهولة ، فيخرجه من المعسكر (المحلة) ليخلو له الجو لنهبه ، وسد حاجاته منه(٩٢ م) .

وكانت فرصة انتهزها الفونسو السادس ، فاكثسح جيشه وادي آش من نظر غرناطة (مقر صنهاجة) لكي يعود من هناك وبصحبه جماعات من المستعربة لعمارة أرض طليطلة . ورغم غضب يوسف بن تاشفين لما حدث ، وسخطه على ابن أخيه الهزيل ، فلم يكن بوسعه الا قبول الأمر الواقع ، والعمل على التشبث بشاطبة ، وقطع الطريق على بلنسية التي كان على أهلها أن يعانون حصار اخوتهم المسلمين - « فكانت هدة على دخن »(٩٣) .

« السيد الكمبيادور » أميرا بلنسية : التخلص من ابن جحاف :

والصمود أمام المرابطين :

وهكذا انتهت الجولة الأولى من أجل السيطرة على بلنسية بانتصار السيد على المرابطين ، وغلبته التامة على المدينة ، فكأنه أمير جديد من رؤساء الطوائف ، وذلك عندما تخلص من القاضي ابن جحاف ، ليس بالقتل ثارا للقادر بن ذي النون ، بل حرقا بالنار في مأساة فريدة من مآسي عصور انحطاط المسلمين في أسبانيا(٩٤) ، تلتها مأساة أهل بلنسية الذين كان عليهم أن يعانون بعد ذلك حصار المرابطين - بعد نزع سلاحهم .

(٩٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦ - حيث اعتبار ما حدث قدرا مكتوبا يلتبس له العذر ، سواء من ضعف الرجال أو من خور محمد بن تاشفين (ابن أخى أمير المسلمين لأمه) ، الأمر الذي لم يتطلب من العدو استخدام السيف أو اراقته للدم .

(٩٢م) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٠ - حيث استهلال شهر شوال وصلاة العيد بمنزل عطاء بساقية هواره . وإعلان السيد في ٨ شوال ٤٨٧ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٩٤ م أن ملك أرغون (ابن ردمير) أتاه مددا ، وأيهام المرابطين أنه (السيد) خرج لمناوشتهم ، وتمكنه من مفاجاته المعسكر المرابطي ونهبه - فكانه تعلم درس يوسف ابن تاشفين في الزلافة .

(٩٣) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٩٤) عن نهاية ابن جحاف في بلنسية وتعرضه لواحدة من عمليات التعذيب بالنار =

ففى شهر شعبان ٤٨٨ هـ / أغسطس ١٠٩٥ م ، عندما تحسنت الأحوال الجوية وأتت الأنباء بمسير المسلمين من مرسية نحو بلنسية ، كان على أهل المدينة أن يتخلصوا تحت التهديد بالقتل ، من كل ما لديهم من الآلات الحديدية ، فسلموا كل ما لديهم مما يمت للحديد بصلة ، حتى الإبر والمسامير - على باب القصر (القلعة) . كما كان عليهم أن يعرضوا بعد ذلك فى ساحة القصر للتمييز . ولما كان الضعفاء والفقراء قد طردوا قبل ذلك فى حادثة اضطراب المعسكر الاسلامى ، فانه تم فى هذه المرة طرد من يخشى بأسهم من ذوى القوة والهمة ، وربما بلغ الأمر الى حد قتلهم ، اذا أقيمت مآتم العزاء فى دورهم وبين أهليهم . وبذلك لم يبق فى بلنسية من المسلمين الا المتيسرين الذين أخضعوا بعد مساومات من اليهودى وزير السيد الكمبيادور « الى جباية بلغت ٢٠٠ (مائتى) ألف دينار (مئقال) ، جمعت تحت التهديد من قبل نواب الجباية ، من : الموكلين والمتصرفين وأصحاب الرسوم ، كما كان على أهل المدينة بعد ذلك جر القطع البحرية من الماء الى البر - خشية أن تفاجئهم مراكب المسلمين فتستولى عليها ، وتحكم الحصار من جهة البحر أيضا - كما نظن (٩٥) .

فتح بلنسية : رجب ٤٩٥ هـ / ابريل ١١٠١ م :

والهم أن صمود بلنسية أمام محاولات استرجاع المرابطين استمر تحت حكم « السيد الكمبيادور » لمدة تزيد على ٨ (ثمانى) سنوات ، وذلك أن استخلاصها لم يتم على يدى القائد مزدلى الا فى مطلع شهر رجب من سنة ٤٩٥ هـ / أواخر ابريل ١١٠٢ م . واذا كنا نفتقد أحداث تلك الفترة بافتقاد الجزء من بيان ابن عذارى الخاص بالمرابطين ، فانه من حسن الحظ أن بقيت لنا منه القطعة الخاصة باستعادة بلنسية ، وان كانت فى حالة رثة . والذى يفهم منها أن المدينة كانت تثن وقتئذ تحت وطأة الحصار المرابطى - لا فرق فى ذلك بين المسيحيين ، ومن كان قدر له البقاء فيها من المسلمين - بعد أكثر من سنتين من وفاة السيد « الكمبيادور » (ت ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م) ،

= الشنيعة ، التى تذكر بعملية السمل بالحديد المحمى - حيث وضع الرجل قائما فى حفرة وأوقد الحطب حوله فى محاولة لاجباره على الاقرار بما كان لديه من ذخائر القادر بن ذى النون ، وشجاعة القاضى البلنسى الذى كان كل همه أن يحكم بلنسية بمعونة المسلمين أو النصارى ، وكيف أنه يطلب الشهادة وهو يضم ما تصل اليه يداه من الحطب المشتعل الى جسده ، أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨ ، والملحق رقم ٥ ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٩٥) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠ .

بفضل اصرار زوجته وخليفته « شيمين » التي استنجدت بملك قشتالة
الفونس السادس (٩٦) .

والظاهر أن الفونس كان قد قرر أن يضع حدا لتلك المطاولة الممة
بين المسلمين والمسيحيين ، بأن يتم الجلاء عن بلنسية ، فصار هذه المرة
بجيش أكثر عددا (أخشن) من المعتاد ، مما دعا مزدلى الى أن يفسح له
الطريق الى المدينة ، بينما يعود هو الى معسكره فى قليرة . ومن الواضح
أن الفونس السادس كان يرغب فى اجلاء المسيحيين من بلنسية ، كما
سبق أن أجلى أهل لبيط (٩٧) . ولكنه أمام الحاح أهل المدينة المسيحيين ، قرر
أن يستكشف بنفسه القوة الحقيقية للمرابطين على مشارف بلنسية فخرج
بجيوشه نحو الأمير مزدلى بقليرة . وعندما تواجه الجيشان وعان الفونس
كثرة كتائب خصمه وحسن كفاحها فى القتال ، انتهز فرصة غروب الشمس
لكى ينسل من ميدان المعركة ، عائدا أدراجه نحو بلنسية ، وقد قرر ترتيب
الجلاء عنها ، ولكن بعد تحريقها بالنار . وبذلك دخل مزدلى بلنسية ، مدينة
الاطلال فى شهر رجب ٤٩٥ هـ /مايه - يونيه ١١٠٢ م - بعد ثمانية أعوام
وشهر ونصف (٩٨) . وتم اخطار أمير المسلمين فى مراكش بذلك الفتح

(٩٦) البيان ، ٤ ص ٤١ - حيث يتضح مما بنى من الرواية أن القائد مزدلى كان
قد ضرب معسكره فى بلدة قليرة Callera : قليرة أصلا) جنوب بلنسية ، من حيث
كان يقوم بالغارات على بلنسية ، ما بين الحين والآخر ، وأنه فى مطلع سنة ٤٩٣ هـ /نوفمبر
١٠٩٨ م ، وربما بسبب ضعف ردود الفعل من جانب أرملة « السيد » قرر مزدلى أن يستكشف
حقيقة الموقف ، فتقدم بمعسكره الى قرب بلنسية الأمر الذى دعا الى طلب النجدة من الفونس .
وانظر دوزى ، تاريخ المسلمين بالأندلس ، بالفرنسية ، ج ٣ ص ١٥٣ ، وقارن أشباح
(يوسف) ، المرابطون والموحدون ، ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ - حيث سقوط بلنسية بين أيدي
السيد (ص ١١٤) ، واسترجاع المسلمين لها بعد ٣ (ثلاث) سنوات من وفاته (ص ١١٥) ،
محمد عبد الله عثمان ، الطوائف ، (ص ٣٦٨) - حيث حصار بلنسية فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ /
ديسمبر ١٠٩٥ م ، وعدم تمكن المرابطين من دخول المدينة الا فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ /١١٠٢ م ،
وأيضا ص ٤٠٠ - حيث استيلاء السيد على بلنسية فى ١٠٩٤ م ، ودخول الفونس اليها بعد
استغاثة أرملة السيد فى مارس ١١٠٢ م واسترجاع المرابطين لها فى مايه ١١٠٢ م /جمادى
٤٩٥ هـ .

(٩٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص : « فاقام الأدفونش ببلنسية نحو شهر
والروم ترومة على التمسك بها ويرغبونه فيها ، ويهونون عليه أمر جيوش المسلمين ، وعن
ليبط انظر ما سبق ، ص ٣٢٤ .

(٩٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص على اضرار النار فى الجامع والقصر
وبعض الدور ، وقارن ابن بسام ، الذخيرة - حيث أخذ بلنسية فى شهر رمضان من نفس
السنة .

التسعيد (٩٩) .

ومن المهم الاشارة الى أن القائد مزدلى لم يبق في بلنسية الا حوالى ٤ (أربعة) اشهر انتهت بأن حل محله في ولايتها ، في مستهل ذى الحجة (٤٩٥ هـ / سبتمبر ١١٠٢ م) ، القائد أبو محمد عبد الله بن فاطمة . والظاهر أن تنحية مزدلى عن قيادة بلنسية يعنى تغيرا في طبيعة العلاقة بين يوسف بن تاشفين وبين أمير سرقسطة وقتئذ المستعين ابن هود . وذلك ان ابن فاطمة كان عليه أن يترك كرسى اماره بلنسية ، نيابة لأحد قواده ، وأن يسير الى سرقسطة على رأس ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) فارس ، بناء على طلب للمساعدة ضد الاسبان في الثغر الأعلى ، كان قد تقدم به ابن هود ، ليدخل سرقسطة في ١٢ من ذى الحجة / ٢٧ سبتمبر (ثانى أيام الأضحى ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) . وبهذا يكون ابن هود قد انتهج سياسة مدارة أمير المسلمين ، جازاه الجديد في الجنوب ، على حساب جيرانه الاسبان في الثغر ، وعلى رأسهم الفونس السادس (١٠٠) . وهكذا تكون ولاية سرقسطة قد بدأت مرحلة الدخول الجدى فى طاعة المرابطين ، وبذلك تكتمل وحدة المسلمين فى شرق الأندلس وفى الغرب ، وتحت رايات أمير المسلمين .

اعلان ولاية العهد فى غرناطة : مقر النيابة المرابطية فى الأندلس :

بدخول سرقسطة والثغر الأعلى فى الطاعة المباشرة للمرابطين ، تكون بلاد المسلمين فى الأندلس جميعا ، قد توحدت فى أواخر سنة ٤٩٥ هـ / سبتمبر ١١٠٢ م تحت رايات يوسف بن تاشفين الذى كان يدبر شئونها من مراكش منذ عودته من العبور الثالث سنة ٤٨٤ هـ / ١١٠٢ م . وهكذا

(٩٩) القرطاس ، ص ١٥٦ - حيث تضع رواية ابن أبى زرع فتح بلنسية (خطأ) فى سنة ٤٨٥ هـ ، مع النص على فرار القادر من ذى النون ، وأعوانه المسيحيين من جبهة الضرائب ، ودخول القائد ابن عائشة (خطأ) المدينة ، فكان فتح بلنسية هذا من توابع الجواز الثالث لأمير المسلمين . أما عن اخطار أمير المسلمين فهو الأمر المقبول . أما عن فتح المرابطين لمدينة « أفراغ » من بلاد شرق الأندلس فى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م التالية ، فأغلب الظن أن هذا سوف يحدث فيما بعد ، على عهد على بن يوسف ، ضمن الصراع وقتئذ بين المرابطين وبين أصحاب الريكونكستا فى الثغر الأعلى .

(١٠٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص على ان ابن فاطمة ولى بلنسية فى مستهل ذى الحجة ، وأنه استناب ونهض الى سرقسطة ، لما وصل ولد ابن هود من المدوة بكتاب من أمير المسلمين .

كان أمير المسلمين يمكنه الاطمئنان الى استقرار الأمور في الأندلس ، ويعمل بالتالى على أن يستكمل ذلك بالاطمئنان على مصير الدولة المرابطية بعده ، عن طريق تعيين ابنه أبى الحسن على بن يوسف وليا لعهد ، وهذا ما كان قد حسمه فعلا في مراكش ، في ذات السنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ، حسبما يرد في الكتاب الرسمى لولاية العهد (١٠١) . وبسبب الأهمية الخاصة التى اكتسبتها أخبار الأندلس ، رأى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وله الحق فى ذلك ، أن يقوم بجوازه الرابع الى الأندلس فى سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م (١٠٢) ، ليس بهدف الفتح والجهاد هذه المرة ، بل من أجل القيام بجولة تفقدية فى البلاد بصحبة ولديه أبو الطاهر تميم ، وأبو الحسن على الذى كان أصغر سنا من أخيه تميم (١٠٣) .

وفى ذلك ينص الخطاب الرسمى الخاص بولاية عهد الأمير على بن يوسف ، على أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وجد تعيين خليفة له من واجباته الدينية ، بصفته راعى عباد الله المؤمنين . ففى ذلك رحمة بهم وتأكيد لوحدة الجماعة والائتلاف فيما بينهم . أما عن تبرير اختيار على بعده فلأنه الرجل المناسب ، وهو الأمر الذى يقره أهل رأى على القرب والنأى (١٠٤) .

والمهم أن غرناطة التى عهد بولايتها الى القائد على بن الحاج ، الذى تجمع حوله قواد المرابطين وكبار رجالاتهم الى جانب رؤساء الأندلس ، كانت موضع بيعة الأمير على بن يوسف بولاية العهد ، حيث قام هؤلاء الأعيان من مغاربة وأندلسيين ، فى حضور أمير المسلمين بالبيعة لولى العهد برئاسة الدولة بعد والده (١٠٥) . فكان غرناطة الأندلس أصبحت قرينة العاصمة

(١٠١) انظر الحلل الموشية ، ص ٨٠ ، وانظر أيضا ص ٧٩ و ٦٨ - حيث يورد ابن الخطيب فى الاحاطة نصا آخر لولاية العهد كتبه محمد بن سليمان (ابن القصيرة) بقرطبة ، وهو مؤرخ بنى الحجة ٤٩٦ هـ / سبتمبر ١١٠٣ م .

(١٠٢) انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث وسم هذا العبور من حضرة مراكش باولجاز الى الأندلس . . . المرسوم بالأنوار الجليلة .

(١٠٣) انظر الحلل الموشية ، ص ٧٧ - حيث تبرير تفضيل الأمير على الأصغر سنا ، واذ يقول شعراء الأندلس :

وان كان فى الأسنان يحسب ثانا على ففى العلياء يحسب أولا
كذلك الأبدى سواء بنانها وتختص فيهن الخناصر بالخلا

(١٠٤) الحلل الموشية ، ص ٧٩ .

(١٠٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - ٤٣ .

الرسمية للدولة المرابطية مراكش ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، ذلك التقليد الذى أخذ به منظروا النظم الاسلامية ، اعتمادا على الأمر الواقع الذى يقضى بأن مكان البيعة بالخلافة عادة ما يكون البلد الذى يتوفى فيه الامام (١٠٦) ، والذى عادة ما يكون العاصمة . واذا صحت هذه المقولة تكون الأندلس قد أكملت غلبتها الحضارية على المغرب بالغلبة السياسية - وهو الأمر المقبول على كل حال .

وهنا كان لسرقسطة والثغر الأعلى تحت قيادة بنى هود ، دورهما فى رفع رايات الأندلس عالية فى حفل تنصيب على بن يوسف وليا للعهد ، اذ وجه المستعين : أحمد بن هود ، ابنه عماد الدولة عبد الملك الى (غرناطة) بهدية ثمينة ، منها مجموعة من الأواني الفضية المنتقاة من ذخائر قصره بـ « روطه » والمنقوشة باسمه ، والتي رأى يوسف بن تاشفين أن تحول الى قطع من النقود الصغيرة برسم الاحتفال الأميرى . وفعلا ضربت أواني الفضة « اليهودية » الى قراريط نقدية ، وفرقت فى قواد المرابطين بمناسبة عقد ولاية العهد للأمير على بن يوسف ، وذلك فى ليلة عيد النحر من سنة ٤٩٦ هـ / ١٤ سبتمبر ١١٠٣ م ، وكان كاتب العهد الوزير أبا بكر بن القصيرة ، بينما كان ضيف الشرف ولى عهد الثغر الأعلى عماد الدولة : عبد الملك بن المستعين (١٠٧) .

العودة الى مراكش ونهاية يوسف بن تاشفين :

بعد أن تأكدت البيعة بولاية العهد للأمير على بن يوسف بن تاشفين فى غرناطة ، فى أواخر سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ، كان دخول اقطاع بنى رزين فى كورة شنتبرية (Santaver) من الثغر الأوسط بعد ذلك ، أى فى السنة التالية ٤٩٧ هـ / ٤ - ١١٠٣ م ، فى طاعة المرابطين اثر وفاة يحيى بن (ذى الرياستين) حسام الدولة بن هذيل بن عبد الملك بن خلف ، وأيلولة تلك الولاية الى يوسف بن تاشفين (١٠٨) . فقد أخذ أمير المسلمين

(١٠٦) الأحكام السلطانية للماوردي ، الفصل الأول ص ٤ .

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ - حيث صاحب روطن (Rueda) والثغر الأعلى ، هو المعتمد بالله (بدلا من المستعين) - وحيث المسير بالهدية الى قرطبة (بدلا من غرناطة) ، وأنظر هـ ٥ - حيث اسم الكاتب فى احاطة ابن الخطيب ، هو الوزير الفقيه أبو محمد عبد الغفور (بدلا من ابن القصيرة) .

(١٠٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ والهوامش - حيث تعرف شنتبرية أيضا باسم « سهلة بنى رزين » نسبة الى أول المنتزعين بها وهو هذيل بن خلف بن رزين .

فى الحركة الى حضرة مراکش بعد أن اطمأن الى ضبط أحوال بلاد الأندلس (١٠٩) التى تركها أمانة فى عنق ولى عهده على بن يوسف . وفى ذلك تقول رواية الحلل الموشية انه خصص لضبط الأندلس ١٧٠٠٠ (سبعة عشر ألف) فارس من المرابطين ، يوزعون كالآتى : ٧٠٠٠ (سبعة آلاف) لاشبيلية ، و ١٠٠٠ (ألف) لكل من قرطبة و غرناطة ، و ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) للشرق ، وال ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس الباقية توزع للمرابطة فى الثغور والحصون المصاحبة للعدو (١١٠) . ولا بأس أن كان يهود غرناطة ، أثرياء ضاحية اليسانة (Lucena) ، قد خضعوا لتلك الضريبة التى تتناسب مع يسارهم . فهذا ما يفهم مما تقوله الرواية من أن اليهود خضعوا لتلك الضريبة تحت التلويح بإدخالهم قسرا فى الاسلام فى سنة ٥٠٠ هـ / ٧ - ١١٠٦ م التى كانت على الأبواب وهى سنة وفاة يوسف بن تاشفين الذى كان مريضا منذ سنتين ، (وذلك اذا لم تتحقق نبوة منسوبة اليهم ، تقرر ظهور نبي منهم فى تلك السنة) (١١١) .

واذا كان الأمر كذلك يمكن القول أن غرناطة كانت قد صارت مركز الحكومة المحلية أو النيابة فى الأندلس ، بمعنى أنها صارت منافسة لكل من قرطبة واشبيلية كمركز للحكومة ، كما أصبحت خزانة البلاد العامة حيث كانت اليسانة أهم مركز لتجمع الأثرياء من اليهود فى البلاد . أما اشبيلية حيث تمركز أكبر حامية مرابطية فتصبح بمثابة مركز القسيادة المرابطية العامة ، المسئولة عن حماية الثغور ، حيث القائد الأعلى ، وقتئذ : أبو محمد عبد الله بن فاطمة (١١٢) .

الموقف فى شرق الأندلس :

والمهم أن أوضاع المرابطين اذا كانت قد استقرت فى الغرب ، فإن

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ .

١١٠ - الحلل الموشية ، ص ٨٠ .

(١١١) انظر الحلل الموشية ، ص ٨٠ - ٨١ - حيث النص على نسبة تلك النبوة الى ابن مسرة بمعرفة أحد فقهاء قرطبة ، أو بناء على فتوى قاضى الجماعة : أبى عبد الله مصدق ابن أحمد التغلبى ، مع الاشارة الى أن القدوة فى ذلك كان بعض عمال البحرين قديما ، الأمر الذى يسمح باعتبار الرواية من القصص الشعبى (الفولكلور) والذى كان يسمح من جهة أخرى بتفسير تلك النصبة على أنها رمز لنسوء استغلال الجالية اليهودية سيوا فى المغرب أو فى المشرق - بحق أو بغير حق .

(١١٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ .

موقفهم في الشرق كان مما زال غير أكيد رغم دخول منطقة الثغر الأعلى
وسرقسطة في دائرة نفوذهم . فمنطقة بلنسية قرينة طليطلة ، ظلت قلقة
رغم استعادتها من خلفاء السيد الكمبيادور ، اذ ظلت واقعة في دائرة نفوذ
طليطلة وصاحبها الفونسي السادس ، الذي حمل لقب الامبراطور ، وان
رفض لبس التاج حتى يأخذ قرطبة مما سبقت الاشارة اليه (ص) .

وهكذا ، وبينما كان يوسف بن تاشفين يمبر المضيق نحو العدو
المغربية كان يصدر الأوامر الى واليه (النائب) على غرناطة الذي كان
منصرفا من وداعه ، وهو أبو الحسن علي بن الحاج ، بالنهوض الى شرق
الأندلس ، ويستحثه على سرعة المسير - فكان العملية العسكرية المخططه
لإبن الحاج كانت سرية مفاجئة ، تتفق مع « تكتيك » الكمان الممروف عند
البدو ، والذي كان يجيده أمير المسلمين . والمهم أن الرسالة الخطية لم تصل
الى ابن الحاج الا وهو على مقربة من الجزيرة الخضراء ، من حيث توجهه الى
سما أمر به من سرعة المسير الى بلنسية - التي وصلها ابن الحاج في شهر
صفر من سنة ٤٩٨ هـ / أكتوبر ١١٠٤ م . ولا بأس أن تكون مرابطة
ابن الحاج في بلنسية قد أحبطت ما كان يتوقعه أمير المسلمين من أعمال
عدوانية آتية من قبل العدو ، وذلك أن أول أعمال عدائية قام بها الفونسي
السادس لم تصل أخبارها الى بلنسية الا في شهر رمضان ، بعد أكثر من
٦ (ستة) أشهر ، وكان هدف هذا العدوان مدينة سالم (مدينة الفرج)
من أعمال سرقسطة والثغر الأعلى .

ولم يتردد ابن الحاج في المسير للقاء الفونسي السادس على رأس حملة
قوية من المشاة والخيالة ، وعرج في طريقه على قلعة أيوب حيث استمد
القائد الأعلى : أبا محمد عبد الله بن قاطمة ، الذي سار برجاله معونة له .
والظاهر أن الملك القشتالي ترك منازل مدينة سالم عائدا الى طليطلة ، وذلك
أن القائدين المرابطين قررا اثر اجتماع بينهما ، متابعة العدو نحو طليطلة
وغزو بلاده في حملة تأديبية رادعة . والذي يفهم من نص ابن عذارى المقطع
الأوصال - للأسف - والخاص بتلك الحملة ، ان التكتيك الذي كان يتبعه
طرفا النزاع في الأندلس وقتئذ ، من المرابطين والقشتاليين كان يبنى على
مبدأ الغش والخداع ، أي انتهاز الغرة من العدو - الأمر الذي يعنى استشعار
تكافؤ ميزان القوى بين الطرفين ، بمعنى استحالة تفوق طرف على الآخر الا
اذا أحسن استخدام عنصر المفاجأة والتخفى ، وهذا ما كان يرجوه الفونسي
السادس عندما ترك مدينة سالم ، وسار نحو طليطلة ، واتجه مدحا نحو
طلبيرة من حيث يكون الدخول الى الثغور الاسلامية لكل من مملكتي قرطبة

وبطليوس (١١٢ م) التي رأى الفونس أن ينقل إليها ميدان القتال . والمهم ان الحرب كانت تدور سجالا على طول الطريق ، فلم تتوقف المطاردة الا عندما انتهت بعض الاشتباكات ب وفاة قائد غرناطة : الأمير على بن الحاج ، الذي وجد ميتا بكامل سلاحه ودرعه ، لا أثر فيه لضربة واحدة ، فانفض اللقاء ، وعادت قوة غرناطة تحمل تابوت قائدها الأمير ، الذي دفن في تطيلة مدينة الثغر الأعلى ، في قبلي جامعها أي في اتجاه القبلة (١١٣) .

مرض يوسف والتطاول على الغرب :

وبينما كان يدور هذا النزال الخفيف بين القوات المرابطية في الأندلس وبين خصومها من قوات العدو القشتالي ، في خلال سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، انتشر خبر مرض أمير المسلمين : يوسف بن تاشفين ، وما كان يعانيه من آلام ذلك المرض (الفالج ؟) الذي لا أمل في البرء منه - الأمر الذي شغل أهل الدولة ، وأثار القلق بينهم والشقاق (١١٣ م) .

وكانت فرصة انتهزها الفونس السادس لكي يعاود فرض سلطانه على بلاد المسلمين . وبدأ بعملية جس نبض عسكرية في منطقة اشبيلية الغنية بخيراتها الزراعية ، اذ جاسها على رأس قوة بلغت حوالي ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) فارس ، هاجمت القرى في منطقة « متاطع » ، وعادت « بالمغانم الوفيرة والأسلاب الكبيرة » ، في وقت كانت تسود فيه المجاعة . ولكنه عندما خرج أمير اشبيلية الى بعض الحصون هناك ، انتظارا لمجيء الامداد من عسكر غرناطة الذين وافوه بقيادة الأمير أبي محمد بن الحاج ، « هرب جميع الكفرة » ، وولوا امامهم قارين مهزومين ، وكانت فرصة انتهزها العسكر المرابطون لكي يشفى غليله منهم ، قتيلا واستلحاما حتى كادوا يستأصلون (١١٤) . ورغم ما تنص عليه الرواية من استئصال العدو ،

(١١٢ م) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ .

(١١٣) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ - حيث الاشادة بالأمير على بن الحاج ، الذي اقتفى أثر أبيه في تعضيد الحق وانصاف المظلوم وتأمين الخائف ، وسد الثغور ونكاية العدو . هذا كما كان أخص الناس به أبو محمد عبد الله بن أسباط الذي نال به الأمال ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال .

(١١٣ م) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ - حيث النص على خوض أهل الدولة في أمر مرض أمير المسلمين ، فكانوا يستنبطون الغوائل ، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق .

(١١٤) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ - ٤٥ - حيث النص على انه قتل منهم ١٥٠٠ لحد ، في ذلك الوقت من سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م الذي كان يعم فيه القحط بلاد الأندلس والمغرب ، الأمر الذي يبرر عنف النار من العدو القشتالي .

فالظاهر أن ابن الحاج دفع منصبه ثمنا لتلك المفاجأة غير السارة التي دبرها الغونس السادس لمنطقة أشبيلية ، إذ أنه عزل في سنة ٤٩٩ هـ / ٦ - ١١٠٥ م الثانية من ولاية غرناطة ، التي آلت الى القائد أبي بكر بن ابراهيم اللمتوني (١١٥) .

هذا ، ومما لا شك فيه أنه مما زاد في كلب العدو الاسباني على بلاد المسلمين اعتبارا من سنة ٤٩٩ هـ / ٦ - ١١٠٥ م ، هو بداية الحروب الصليبية ، التي كانت حملاتها البحرية المارة بسواحل الأندلس الغربية ، بعدم العون والمساندة للاسبان في حربهم ضد المسلمين ، فكان الريكونكستا في الأندلس كانت الشرارة التي أشعلت الحروب الصليبية في المشرق البعيد (١١٦) .

والى جانب القحط ، ومرور الصليبيين بالمياه الاقليمية الغربية وتعتديهم على السواحل الاسلامية كانت علة أمير المسلمين تزداد عليه شدة ، الأمر الذي دعا الى عودة الأمير تميم من شرق الأندلس وكذلك الأمر بالنسبة لولى العهد الأمير على ، الى مراكش العاصمة ، لالقاء نظرة الوداع الأخير ، على الوالد المجاهد الذي قضى أجله في مستهل سنة ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦ م (١١١) . وهكذا توفي أكبر مجاهدى العصر ، وأكثرهم ألفة مع ميادين القتال ، على سريريه (أى رغم أنفه) ، وهو على أوله فى العدل والجد ، وفى نصره الدين وعضد الاسلام ، واطهار كلمته . ودفن بفصره بالحضرة مراكش (١١٨) .

(١١٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - هذا ، كما ينص ابن عذارى على عزل الفاضل ابن منظور عن قضاء اشبيلية بأمر من ولى العهد على بن يوسف .

(١١٦) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على خروج ٧٠ (سبعين) قطعة من البحر الغربى (الأطلنطى) ، قصدت بيت المقدس ، ولكن « الريح فرقنها وأغرقتها ، فكفى الله المسلمين شرها » .

(١١٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على انه فى سنة ٥٠٠ هـ / ٧ - ١١٠٦ م استأثر الله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى يوم الاثنين مستهل ، شهر المحرم من السنة ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٨٣ - حيث النص على أنه حضر موته ابنه : أبو الطاهر تميم ، وأبو الحسن على ، مع من حضر من عترته الصنهاجية وأسرته اللمتونية .

(١١٨) الحلل ، ص ٨٣ .

وفاة يوسف : نهاية مرحلة القوة المرابطية :

ب وفاة يوسف بن تاشفين تنتهى مرحلة القوة التى عرفت بها الدولة المرابطية والفتوة ، وهى المرحلة الثانية فى حياة الدولة بعد مرحلة التنظيم والتأسيس ، وهى المرحلة الأولى لدولة الرباط ، والتى تبدأ بعبد الله بن ياسين وصاحبه الأمير يحيى بن ابراهيم ، وتنتهى بظهور يوسف بن تاشفين فى فتوح المغرب وتامسنا ، والتى تعتبر عهد تمدد الدولة المرابطية فى الأندلس وفتوتها . وذلك أن مرحلة حكم على بن يوسف التالية تعتبر عصر الذروة فى تاريخ الدولة المرابطية حيث تبدأ عملية التحضر والازدهار ، نذير التدهور والانحدار ، حيث تدخل الدولة والجماعة فى مرحلة الترف المؤذنة بفساد « العمران » ، كما يرى ابن خلدون بحق - وحيث تبدأ مرحلة المطاولة (أو الصراع) بين الدولة وبين خصومها الذين يتآمرون ضدها ويخططون للحلول مكانها (١١٩) .

والصورة المبجلة التى يرسمها الكتاب ليوسف بن تاشفين ، تبرز فيه صفات الرجل المثالى ، الذى يمكن أن تقارن صفاته بصفات عمر بن الخطاب ، مؤسس الدولة الاسلامية حقا ، وواضع نظمها ، والمنظر لثقافتها . فيوسف : حسن السيرة ، خير ، عادل ، فاضل ، زكى ، فطن ، حاذق ، نبه ، زاهد ، عزيز النفس يأكل من عمل يده ، كثير الخشوف من الله ، ينيب الى الخير والصلاح ، كتوم لسره ، مقبل على الصلاة ، كثير الدعاء ، والاستخارة ، محب لأهل العلم والدين والصلاح ، متواضع كثير الحياء (١٢٠) .

أما عن صورته الطبيعية فلا نعرف عنها الا أنه كان أسمر اللون نحيف القد معتدل القامة . أما عن القول بأنه لا يعرف العربية (١٢١) فربما كان المقصود به أصول اللغة ومعرفة الأدب والشعر .

أما عن أخباره ، فهو محب للعفو والصفح فى الذنوب (١٢٢) ، فأكثر

(١١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، الباب ١ الفصل ١٨ - فى ان من عوانق الملك حصول الترف .

(١٢٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ - ٤٧ ، الحلل الموشية ، ص ٨١ - ٨٢ ، روض القرطاس ، ص ١٣٧ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ ، النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٩٠ .

(١٢١) أنظر محمد الميلى ، تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥٨ .

(١٢٢) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ - حيث قصة الثلاثة رجال الذين تمنى أحدهم ١٠٠٠ دينار والثانى عملا والثالث زوجة يوسف بن تاشفين النفزاوية ، وكيف أنه أحضرهم =

عقابه الاعتقال الطويل - الا من انتزى وشق العصا « فالسيف حسم لانتشار الداء » (١٢٣) . كما كان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور اليهم ، ويقضى على نفسه بفتياهم ، تماما كما كان يفعل يحيى بن ابراهيم الجدالى أول أمرائهم مع عبد الله بن ياسين المنظر الأول .

وفى هذا السياق يرى صاحب الحلل الموشية ، ان بلاد الأندلس أقامت فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، بعد أن أحيا الجهاد الذى كان قد انقطع بها منذ ٧٩ سنة - من مدة آل عامر . فقد قام أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما « ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة ، لم تفسدها الحضارة » (١٢٤) .

ومما يذكر لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الأعمال الخاصة بالأندلس ، عنايته الفائقة بمدينة العبور فى العدو المغربية وهى سبتة . فبعد أن استقرت أمور الأندلس بعد دخولها تحت المظلة المرابطية ، عهد يوسف بن تاشفين الى القاضى ابراهيم بن أحمد ببناء سور الميناء تأمينا لجواز القوات المرابطية وهى واردة الى الأندلس وصادرة عنها . وبعد ذلك بأعوام ، وفى سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م قرر أمير المسلمين ترميم مسجد سبتة الجامع وزيادة سعته حتى يستوعب أعداد الجنود ، الوفيرة من العابرين ، وحتى يليق بدولته التى أصبحت امبراطورية عالمية عظيمة . وفعلا قام القاضى محمد بن عيسى الذى عهد اليه بالاشراف على تلك المهمة فرمم الجامع وزاد مساحته من جهة الصحن شمالا حتى أشرف على البحر - الأمر الذى يظن معه أن صحن جامع سبتة على الأقل ، كان وقتئذ بارزا على البحر ، خارج السور (١٢٥) .

هذا ، كما كان من شواهد سعادة عصره ان ديناره تبر (أى خام ذهب خالص) ، فى احدى صفحاته :
« لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .

= ولبنى رغبة الأولين بينما أرسل الثالث الى زوجته التى تركته فى خيمة لعدة أيام يأكل مد نفس الطعام ثم قالت له كل النساء شئ واحد . وأمرت له بمال وكسوة واطلته .
(١٢٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ .
(١٢٤) الحلل الموشية ، ص ٨٢ .
(١٢٥) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٨ .

وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » .

وفى الدير : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » - الآية .

وفى الصفحة الأخرى : اسم أمير المؤمنين العباسي (١٢٦) . أما عنوان كتبه : فـ « من أمير المسلمين وناصر الدين » الى فلان (١٢٧) ، وهو اللقب الذى تقول الرواية انه حصل عليه من ديوان الخلافة ببغداد ، بعد انتصار الزلاقة بالأندلس على عهد الخليفة أبى العباس : أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م) (١٢٨) .

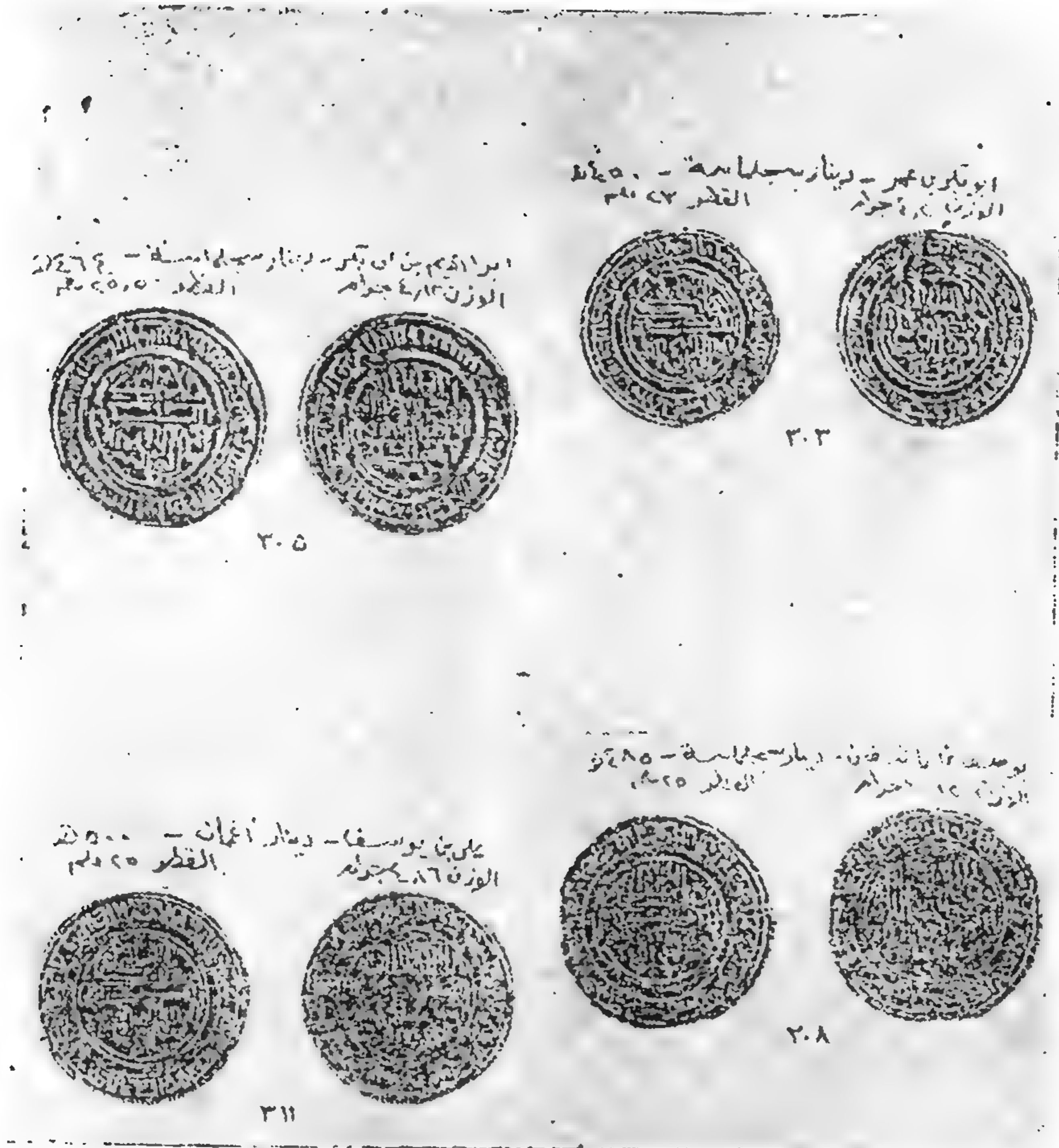
وأما ما توج به أعماله ، كما يرى محمد بن الحلف فى البيان الواضح ، فهو : « تولية الأمر فى حياته لابنه الأمير أبى الحسن (على بن يوسف) ، خذى العقل الرصين ، والرأى الحسن - قدس الله روحهما ، وبردضريحهما (١٢٨) .

(١٢٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث النص على أن كتابة اسم يوسف بن تاشفين على السكة لأول مرة كان فى سنة ٤٧٣ - حيث بدل السكة فى كل أرجاء المملكة ، وأيضاً ص ١٣٧ - حيث تجديد السكة بمناسبة انتصار الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ، وانقاذ لقب أمير المسلمين (وناصر الدين) - حيث تكملة الآية بـ « وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، ثم الأمير عبد الله العباسي ، وبعد ذلك « تاريخ ضربة وموضع سكوته » ، وقارن حتى : فيليب ، تاريخ العرب المطول ، ج ٢ ص ٦٤٥ - حيث الإشارة الى قيام ألفونس الثامن ملك كاستيل (قشتالة : ١١٥٨ - ١٢١٤ م) بتقليد هذه النقود - حيث احتفظ بالكتابة العربية الا أنه طبق اللفظ على العقائد النصرانية ، فأورد لقبه هكذا : « أمير القتلوقين (الكاثوليكيين) » واسم بابا روما جاء هكذا : « امام البيعة المسيحية » . وقد صدرت السكة باسم : الأب والابن والروح القدس ، اله واحد ، بدل الشهادة ، واستعملت الآية : « فمن آمن واعتمد يخلص » عوضاً عن الآية : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » (البقرة ٧٩ ، ٢) . وقارن فيما سبق ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، وفيما بعد ، ص ٢٧١ - ٢٢٧ .

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وانظر عن النقود المرابطية ، مجموعة وليم قازان ، المسكوكات الاسلامية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢٦٦ (عن دناتير الأميرين : أبو بكر بن عمر ، وإبراهيم بن شكر) ، ص ٢٦٨ (عن دناتير الأميرين : يوسف بن تاشفين ، وعلى بن يوسف) ، وانظر شكل ١٦ .

(١٢٨) النویری (أبو ضيف) ، ص ٣٩٠ - حيث النص على أن فقهاء المسلمين قالوا : « لا تجب ليوسف طاعة الا بعهد من الخليفة ، فأرسل قوماً من أهله بهدية الى بغداد ، وكتاب يذكر فيه ما فعل بالفرنجة ، وأنه جاء رسول من أمير المؤمنين المستنصر بالله بهدية وكتاب وتقليد خلع » .

(١٢٩) الحلل الموشية ، ص ٨٣ - حيث النص على أن توليته لابنه التى توصف بالنظر الحمل والرأى الأصبل كانت « مما سلى النفوس كل التسلية ، وأطفا نار الرزية » .



شكل رقم ١٦ - نقود مرابطية ، مجموعة وليم قازان الخاصة ،
المسكوكات الاسلامية ، بيروت ١٩٨٤

وهكذا فاذا صحت مقارنة ولاية يوسف بن تاشفين بخلافة عمر بن الخطاب بصفتها رمز مرحلة التأسيس تصح مقارنة عهد علي بن يوسف بخلافة عمر بن عبد العزيز من حيث ما كانت عهد العدل وسيادة الفضيلة .
وهنا لا ندري ما اذا كان ما يورده ابن عذارى من خبر النجم المنظور الضوء ، ذى الذؤاية الطويلة ، الذى يسجل آخر أحداث سنة ٤٩٩ هـ / ٦ - ١١٠٥ ، يمكن أن يرمز الى البشارة ، بولاية علي بن يوسف فى مطلع سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م (١٣٠) .

(١٣٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - هذا ، ولا بأس من الإشارة هنا الى واحدة من المراثى المعبرة التى أنشئت على قبر يوسف بن تاشفين ، وهى قصيدة ، أبى بكر بن سوار ، التى يقول فيها (ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٧) :

| | |
|------------------------------|---------------------------|
| ملك الملوك وما تركت لعامل | عملا من التقوى يشارك فيه |
| يا يوسف ما أنت الا يوسف | والكل يعقوب بما فطويه |
| اسمع أمير المؤمنين وناصر الـ | سدين الذى بنفوسنا نفديه |
| فى كل عام غزوة مبرورة | تردى عديد الروم أو تفنيه |
| ولقد ملكك بحقك الدنيا وكم | ملك الملوك الأمر بالنمويه |
| انا لمفجوعون منك بواحد | جمعت خصال الخلق أجمع فيه |
| ومضى قد استرعى رعيته ابنه | فأقام منهم حق مسترعيه |
| واذا (على) كان وارث ملكه | فالسهم ملقى فى يدى باريه |

الفصل السابع

على بن يوسف بن تاشفين

٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م

ذروة العصر المرابطي : بداية الانحلال :

لم يكن من المستغرب أن يتحول تاريخ الدولة المرابطية عند الكتاب من مغاربة وأندلسيين الى تاريخ الأندلس فقط ، منذ بدأت عملية الانقراض المرابطي لتلك البلاد بعبور يوسف بن تاشفين لمضيق جبل طارق الى الجزيرة الخضراء ، وهو « الجواز » الذي تكرر على حياة ابن تاشفين لأربع مرات على مدى ١٦ (ستة عشر) عاما ، كان آخرها جواز سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ، بقصد تفقد أحوال بلاد المسلمين في الأندلس ، وتأكيدها للعلاقة العضوية بين القطرين الاسباني والمغربي بتجديد ولاية العهد للأمير على « ولد » أمير المسلمين يوسف ، في العدو الأندلسية . ولا شك أن تجديد الاحتفال بولاية العهد بالأندلس يعنى اعترافا ضمريا من أمير المسلمين بالدور المتفوق الذي أصبحت تقوم به بلاد الأندلس في توجيه مسار الأحداث في الدولة المرابطية ، الأمر الذي كان يتمثل وقتئذ في هيمنة الكتاب أو الوزراء الأندلسيين على الشؤون الادارية في الدولة التي أصبحت مقسمة بين هؤلاء الوزراء الأندلسيين وبين رجال الحرب من القواد (الأمراء) المرابطين . هذا ، بينما أصبح أمير المسلمين وكأنه الحكم الذي يقع على عاتقه تنظيم أداء كل من الطرفين (الأندلسي والمغربي) بما يحقق التوازن في أداء كل طرف منهما لدوره سواء في أمور الحكم والادارة في الجانب الأندلسي أو في شؤون الحرب والمال في الجانب المرابطي .

وبطبيعة الحال كان للأندلسيين دورهم الحضارى المؤثر في ميادين الثقافة في مجالات الكتابة والأدب والشعر الى جانب مجالات الفن من العمارة والزخرفة ، وترتيب الأثاث والرياش ، وفي كل أسباب الحياة اليومية من التقاليد والعادات ، مما يتعلق بأحوال الطعام والشراب ، ومجالس الفرح والأنس والتسلية ، وهى الأمور التي جذبت انتباه المغاربة حتى تحول الكثير من المرابطين الملتزمين ، في مجالات الترف الى نوع من غلاة الأندلسيين من هواة الحياة الناعمة . والنموذج لهؤلاء هو حاكم سرقسطة

المرابطي : أبو بكر بن ابراهيم الذي بالغ في تقليده لبنى هود (أصحاب المدينة السابقين) في الشراب ولبس التاج ، وفي رعاية الفلاسفة ، كما فعل مع ابن باجه الفيلسوف « العلماني » (المتحرر) ، حسبما يقول دوزي (١) . الأمر الذي يؤكد مقولة ابن خلدون في أن الحضارة بعلاماتها المميزة من الترف والأخذ بمباهج الحياة ، هي نهاية العمران ومؤذنة بفساده (٢) .

وهكذا حق لعبد الواحد المراكشي أن يقول : انه حين ملك يوسف بن تاشفين ، أمير المسلمين جزيرة الأندلس عد من يومئذ في جملة الملوك ، على أساس أن « جزيرة الأندلس : حاضرة الغرب الأقصى وأم قراه ومعدن الفضائل منه . . . واستحق اسم السلطنة . . . فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم » . هذا ، كما عمل أعيان الكتاب (الوزراء) في دولة المرابطين ، مثل : ابن القصيرة وابن عبدون الذي كتب لسير عند دخوله أشبيلية ، قبل أن يتصل بأمير المسلمين (٣) .

صورة علي بن يوسف : أمير المسلمين وناصر الدين :

والمهم أنه اذا كان الكتاب قد رسموا صورة لعلي بن يوسف ، أمير

(١) المسلمون في اسبانيا (بالفرنسية) ، ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) المقدمة ، ط . التجارية ، باب ٤ الفصل ١٨ - في أن الحضارة غاية العمران ونهاية

لعمره . .

(٣) المعجب ، ص ١٦٣ - ١٦٨ - حيث عرض رسالة ابن عبدون الوزير في فتح شنترين عن الأمير الذي فتحها على عهد أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، فكان الكتاب من داخل مدينة شنترين ، وفتح المعقل الحصين تم بحسن سيرة أمير المسلمين « فأمكنا الله تعالى من ذروتها ، وأنزل ركابها لنا عن صهوتها » ، وأنظر أيضا (المعجب) . ص ١٧٣ - حيث النص على أعيان الكتاب في عهد علي بن يوسف ، ممن تم استدعاؤهم من الأندلس ، ومنهم أبو القاسم بن الجند (المعروف بالأحديب) ، وأبو بكر محمد بن محمد ابن القبطرنة (الرأس المستديرة) ، وأبو عبد الله بن أبي الحصال وأخوه أبو مروان (وهو أنبههم) ، ثم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، ص ١٧٦ - حيث فقرات خاصة بأبن عبد الله ابن أبي الحصال وأخيه أبي مروان اللذين ظلا في خدمة علي بن يوسف الى أن أخرجهما لموجة كانت منه عليها عندما أمرهما بالكتابة الى جند بلنسية المرابطي اثر هزيمة قبيلة لحقت بهم من ابن رديم ، فانتهزا الفرصة وغلظا لهم في القول أكثر من الحاجة مما شككه في بغض أبي مروان للمرابطين ، الأمر الذي دعا أبا عبد الله الى الاستعفاء بعد وفاة أخيه أبي مروان بمراكش ، والعودة الى قرطبة حيث توفي في أول الفتنة القائمة فيها على المرابطين (سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، أنظر ما يأتي ، ص ٣٨٤) .

المسلمين الثانى تختلف الى حد كبير عن صورة والده يوسف بن تاشفين ،
أمير المسلمين الأول ، فان البعد الزمنى الذى يصل الى ٧٧ (سبعة وسبعين)
عاما بين الأب الصحراوى أصلا والابن الأندلسى منشأ يمكن أن يبرر الفارق
بين الصورتين . والحقيقة أنه رغم أن الكتاب يتفقون على رسم صورة معنوية
لعلى تكاد تكون نسخة طبق الأصل ، كما يقال ، من صورة والده يوسف ،
من حيث المشاركة تجريديا فى كثير من الصفات الأخلاقية والدينية السامية
التي ترفعهما عاليا فى درجات الانسانية ، فان عليا وهو الشخصية المدنية
يتفوق على والده ، رجل الحرب بالامتياز ، باهتماماته الدينية المتميزة ، وفى
انفراده بصورة طبيعية (فوتوغرافية) واضحة ، خصه بها ابن أبى زرع ،
تتفق ونصف الدم الاسباني الذى كان يجرى فى عروقه .

فالأمير على بن يوسف الذى ولى وعمره ٢٣ (ثلاثة وعشرون) سنة
يوصف بأنه أبيض اللون مشرب بخمرة تام القد ، أسيل الوجه ، أفلج
اقتنى (الأنف) ، خفيف العارضين ، سبط الشعر ، أكحل العينين(٤) -
ومثل هذه الصورة مفتقدة بالنسبة ليوسف الوالد ، وهو الشخصية
التاريخية العارمة .

والحقيقة انه اذا كانت صورة يوسف بن تاشفين تمثل الفارس
المحارب فان صورة على ابنه تمثل الراهب العابد . وفى ذلك تقول رواية
الحلل الموشية انه كان فى طبعه منذ مولده مثل كاهن يأتى بعجائب الأخبار(٥) .
وهو أقرب عند عبد الواحد المراكشى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين منه الى أن
يعد فى الملوك والمتغلبين(٦) . فعلى منذ ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ظهرت
عليه مخايل النبل والفهم والذكاء ، الأمر الذى جعل والده يسند اليه
النظر فى نظام الشكايات المعروف « بالمظالم » ، مما حقق النفع للناس ،
والخير للصالح العام(٧) . وفى ذلك عرفت عنه البراعة فى الاضطلاع بما
يعهد به اليه من الأعمال والقيام بها مقاما محمودا ، حتى أحبه الناس جميعا
حبا مشوبا بالهيبة . هذا ، كما عرف عنه الذكاء وحسن السيرة ، وجودة
الطوية ، ونزاهة النفس والبعد عن الظلم(٨) ، وعلو الهممة ، من حيث :

(٤) روض القرطاس ، ص ١٥٧ .

(٥) الحلل ، ص ٨٤ (حيث فى طبعه ومولده (بدلا من منذ مولده) .

(٦) المعجب ، ص ٧١ .

(٧) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(٨) المعجب ، ص ١٧١ .

محبة الأشراف ، وتقليد العلماء ، وإيثار الفضلاء ، مما حقق له اتفاق الكلمة واجتماع الأمة (٩) .

أما عن أفراد أسرة علي بن يوسف فإن صاحب الحلل الموشية يعرف بثمانية من أبنائه الذكور هم : تاشفين (ولي عهده) وأبو بكر (بيكور) وعمر (الكبير) وإبراهيم واسحاق وتميم وداود ، وعمر الصغير (١٠) .

وصية يوسف بن تاشفين لولي عهده الأمير علي : في أصول الحكم :

رغم ما هو معروف من أن يوسف بن تاشفين كان يعاني في السنتين الأخيرتين (٤٩٨ - ٤٩٩ هـ / ٥ - ١١٠٤ م) كثيرا من آلام المرض الذي ألم به ، الأمر الذي دعانا الى التفكير في أن يكون مرضه الذي مات فيه ربما كان الفالج (الشلل النصفي) أو الدرن السرطاني ، فهناك رواية في الحلل الموشية تجعل أمير المسلمين يوسف في تمام وعيه وهو في ذروة أزمته الصحية ، إذ تنص على أنه ترك لخليفته علي وصية تعبر عن البرنامج السياسي المثالي الذي يجب أن يقتدى به في إدارته للدولة ، والذي يتلخص في ٣ (ثلاثة) مبادئ هي :

١ - ألا يهيج أهل جبال درن (أطلس - بعامة) والمصامدة (بخاصة) .

(٩) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ ، الحلل ، ص ٨٤ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ - حيث النص على أنه : إرداد في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم ، وأنه كان يخشع عندما يعظه أحدهم ويلين قلبه ، المعجب ، ص ١٧١ - حيث النص على إثارة لأهل الفقه وأنه كان لا يقطع أمرا دون مشاورة الفقهاء ، وأنه إذا ولي قاضيا يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا يبت في حكومته في صغير أو كبير من الأمور إلا بمحضر ٤ (أربعة) من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ، وأنظر أيضا ص ١٧٢ - ١٧٢ - حيث الاهتمام بالفروع أي فروع مذهب مالك والاكثار من ذلك حتى نسيان النظر في كتاب الله ، واعتبار علم الكلام بدعة ، وتكفير كل من ظهر منه الخوض فيه ، والتشدد في ذلك حتى الاجترار على إحراق كتب الغزالي بخاصة والتهديد بسفك دم كل من وجدت عنده ، وقارن دوزي ، المسلمون في الأندلس ، ج ٣ ص ١٥٥ - حيث النص على أن علي بن يوسف أكثر بنى تاشفين استحقاقا للمديح ، وأنه لم يولد للحكم ، بل الأوفق لو كان راهبا (ناسكا) يكرس أعماله للخير والصلاة والصوم .

(١٠) الحلل ، ص ٨٤ - حيث النص على أن أبا بكر (بيكور) كان ذا حدة ونجدة ، وأن أباه سجنه مكبولا بالجزيرة الخضراء الى أن مات والده ، وهو ابن ١٦ سنة ، وأن إبراهيم هو الوحيد الذي (حج) يذكر له حجة منهم ، أما تميم فقد ثار على أخيه إبراهيم وقتل في حينه ، بينما كانت أم عمر (أصغرهم) رومية تسمى بـ « رياض الحسن » .

٢٠ - أن يهادن بنى هود بالأندلس (بالشغر الأعلى) ، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم (الاسبان) .

٣ - أن يدارى أهل قرطبة فيقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن سيئتهم (١١) . وهو الأمر الذى يذكر فى وصية المعز لدين الله الفاطمى لنائبه فى حكم أفريقية : بلقين بن زيرى مؤسس أسرة بنى زيرى الصنهاجية (١٢) ، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة أن تلك الوصية تعبر عن الصعوبات التى كانت تعرض لها الدولة فى بلاد المغرب وقتئذ ، والمبادئ الأساسية التى ينبغى أن تسير عليها أية حكومة مغربية فى تلك العصور .

أما عن الامبراطورية التى ورثها يوسف لابنه على ، فكانت تحتوى على ثلاثة أقطار عظيمة الجرم ، وهى :

١ - جميع بلاد المغرب ، من : مدينة بجاية (فى المغرب الأوسط) الى بلاد السوس الأقصى .

٢ - جميع بلاد القبلة (الصحراوية) من سجلماسة الى جبل الذهب من بلاد السودان (افليم بامبوك) .

٣ - بلاد الأندلس (الاسلامية) من شرقها الى غربها ، كما ملك الجزائر الشرقية : مبورقة .

وهكذا خطب له على أكثر من ٢٣٠٠ منبر ، على طول تلك البلاد وعرضها (١٣) .

مبايعة رؤساء القبائل لعل ، وتوزيع الحكام على الولايات الهامة :

بعد احتفال الجنازة والدفن الذى أقيم ليوسف بن تاشفين كان على ولى العهد على ابنه ، أن يأخذ البيعة من جديد على زعماء القبائل الموجودين

(١١) الحلل ، ص ٨٢ ، وأنظر فيما يأتى ص ٤٠٣ .
(١٢) أنظر كتابنا ، ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ - حيث تشتمل الوصية على المبادئ اللازمة وقتئذ للحكم ، وهى ألا يرفع بلقين السيف عن البربر ، وألا يرفع الجباية عن أهل البادية ، وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا ، الى جانب ألا يولى أحدا من أخوته أو بنى عمهم .

(١٣) روض انقرطاس ، ص ١٥٧ .

بالعاصمة مراکش ، وأن يقوم بعسد ذلك بجولة تفقدية بصحبة أخيه الأسن : تميم ، على القبائل القريبة من لتونة وغيرهم من قبائل الملثمين ، وكذلك الأمر بالنسبة لقبائل المصامدة في بلاد السوس الأقصى ، حيث نعيًا « أمير المؤمنين ! » الوالد ، وأخذ البيعة لعلي كأمير للمسلمين ، « خليفة » للوالد . وكان علي تميم أن يجدد هو الآخر البيعة لأخيه في حضور زعماء تلك القبائل - أي بشكل نهائي .

وكان أول ما أمضاه الأمير علي بن يوسف هو تقليد كبار القواد (الأمراء) للولايات الهامة وتسييرهم على رأس قواتهم اليها ، لحفظ النظام وإقرار الأمور . وهكذا عين الأمير أبو الطاهر تميم (الأخ الأسن لعلي) واليا لمنطقة مكناسة ، والأمير يحيى بن أبي بكر واليا لمنطقة فاس بالمغرب الأقصى ، والأمير مزدي قائدًا لمنطقة تلمسان بالمغرب الأوسط ، كما جددت ولاية الأمير سير بن أبي بكر الذي كان قد أعلن الطاعة وتجديد البيعة لمنطقة أشبيلية ، بينما أمر الأمير أبو بكر بن ابراهيم (بن تيفلويت) بالاسراع الى مركز ولايته بغرناطة التي وصل اليها في ربيع الأول من السنة (٥٠٠ هـ / أكتوبر ١١٠٦ م) (١٤) .

ومن الواضح أن أبا بكر بن ابراهيم (ابن تيفلويت) كان يشغل ولاية غرناطة كنائب أمير المسلمين على الأندلس ، فهذا ما يفهم من رواية ابن عذاري التي تنص على انه تلقى التهاني بولاية أمير المسلمين علي بن يوسف من زعماء الأقطار والمدايح من الشعراء الذين أجزل لهم العطاء . وإظهار أن احتفالات غرناطة بالحدث السعيد استمرت طوال شهرين ، وذلك أن أبا بكر بن ابراهيم (ابن تيفلويت) لم يخرج من غرناطة الا في شهر رجب/فبراير من السنة (١٥) .

الادارة المدنية بالمغرب والأثر الأندلسي :

والحقيقة أنه اذا كان لأسلوب الحياة الأندلسية الراقية تأثيره على

(١٤) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر الذخيرة ، ج ٦ (ق ٣ م ٢) ص ٥٩٢ والهامش - حيث (ابن تيفلويت) ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وانه ولي غرناطة سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م ثم سرقسطة سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وأنظر ص ٦٢١ - حيث رثاء ابن باجة الفيلسوف الذي كان في خدمته له شعرا .
(١٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ .

المرابطين في الأندلس . فان هذا التأثير كان محدودا في بلاد المغرب ، على كل حال . فاذا كان عدد من وزراء الطوائف كان لهم الظهور على عهد يوسف ابن تاشفين فذلك لأن أحداث الأندلس كان لها الأولوية وقتئذ . ولكنه بعد أن استقرت أوضاع المرابطين في الأندلس عادت الأمور في المغرب لمجاريها الطبيعية على عهد أمير المسلمين الثاني : علي بن يوسف ، وبدأت أخبار العاصمة مراكش من سياسية وعسكرية ومدنية في الظهور في عناوين الأحداث . فابن أبي زرع في تعريفه الأولى بدولة علي بن يوسف ينص على أن كاتبه الذي يظهر وكأن له دور في أخذ البيعة لسيده الأمير في مراكش هو : أبو محمد بن اسباط (١٦) الذي ربما كان من قبيلة الأمير لمتونة . واليه ، علي ما يظهر ، كان واجب الكتابة الى جميع بلاد المغرب والأندلس ، وبلاد القبلة ، يعلمهم (باسم الأمير علي) بموت أبيه واستخلافه . . ويأمرهم بالبيعة (١٧) .

وكذلك الأمر بالنسبة لأول وزراء الأمير علي بن يوسف : ينتيان بن عمر بن ينتيان ، الذي يظهر من اسمه أنه بربري أصيل ، والذي كان يمكن أن يكون باكورة أسرة وزراية مرابطية ، لو قدر لدولة الملثمين أن يطوله عمرها بعض الشيء ، وذلك أنه خلف ينتيان في الوزارة ، على أواخر أيام علي بن يوسف ابنه : اسحاق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان (١٨) .

أما عن أول رياح أندلسية هبت على المجتمع المغربي في مراكش فتمثلت في ظهور الاسبانيات (الروميات) في بلاط الأمير ، حيث كانت أم الأمير علي بن يوسف ، وهي « قمر » الرومية التي كانت تكنى « بأم الحسن » (ص ٣٧٧) ، بينما كانت ظل ابنه عمر (الصغير : أصغر أبنائه سنا) . أسبانيا أيضا ، وهي : « رياض الحسن » (١٩) .

وعلى مستوى نظم الدولة كان الأمير علي بن يوسف أول من استعمل الاسبان (الروم) في المغرب كحرس أميري من الحيلة ، بعد استخدام السودان والأغزاز (جمع غزي) الترك . هذا ، كما عهد اليهم بجباية

(١٦) روض القرطاس ، ص ١٥٢ .

(١٧) روض القرطاس ، ص ١٥٨ .

(١٨) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(١٩) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

الضرائب فى أحواز مراکش العاصمة ، وبلاد السوس - الأمر الذى سيثير نيرة محمد بن تومرت العرقية ، عما قريب . وهنا تحسن الإشارة الى أنه لما كانت تلك الضرائب يطلق عليها البعض اسم المغارم (بمعنى المظالم) (٢٠) ، فكان الدولة المرابطية - فى نظرهم - قد حادت عن سياستها الأصولية فى انكار ما زاد عن الزكاة والحراج من اضرائب ، على اعتبار أنها غير مطلوبة بالنص الشرعى - الا اذا كان ذلك دعاية مفرضة من خصوم الدولة من الموحدىن الذين ظهوروا على عهد على بن يوسف اعتبارا من منتصف العقد الثانى لولايتة .

أحوال الأندلس تثير اهتمام على بن يوسف منذ ولايتة :

والحقيقة أن اهتمام الأمير على بن يوسف الشخصى بشئون الأندلس يظهر منذ بداية ولايتة ، وهو الأمر الذى تكرر لأربع مرات على طول عهده خلال ٣٧ (سبع وثلاثين) سنة ، كما كان الحال على عهد والده يوسف بالأندلس ، على طوال حوالى عشرين سنة . والمهم أنه كان ثمة خلل قد طرأ على أحوال الأندلس وقتما ولى عهد امارة المسلمين فى مراکش ، فى أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦ م . فهناك إشارة فى ابن عذارى الى أن والى قرطبة وقتئذ ، وهو محمد بن الحاج ، ظل خاملا فى بداية عهد الأمير على ، بل انه وقع تحت الاعتقال لفترة من الوقت الى أن رضى عنه الأمير فولاه مدينة فاس فى المغرب ، حيث بقى الى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، عندما أعاده الى الأندلس واليا لمدينة بلنسية (٢١) .

ويشرح ابن الأبار سخط الأمير على بن الحاج والى والقائد الكبير (سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) بأن ابن الحاج تلكأ فى مبايعته ، بل وانه « رام القيام عليه » ، الأمر الذى لقي قبولا من أعيان أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها (٢٢)

(٢٠) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(٢١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ - ٤٩ - حيث توقيت هذا الحدث تحت رواية سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م .

(٢٢) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ١ - حيث الإشارة لرواية ابن الأبار فى « أصحاب الصدفى » . انظر ط . مدريد ١٨٨٥ ، ترجمة رقم ١٢٠ - حيث أبو بكر محمد ابن عبد الملك اللخمى الاشبيلى نزيل قرطبة ، الكاتب الجليل ، المعروف بابن المرخى (ص ١٣٢) . ولأبى بكر أيضا رواية عن أبى على الصدفى الذى لقيه بمرسية وكان سبب ذلك اختصاصه بأمير قرطبة أبى عبد الله محمد بن الحاج داود اللمتونى هو وأبى عبد الله بن أبى الحصال الى أن رام القيام على بن يوسف بد ناشفين . ودفع أمرته -

- دون الإشارة الى السبب ، وهل كان الأمر يتعلق بحدّة مزاج أهل قرطبة ومينهم الى الفتنة ، مما رأيناه في وصية يوسف بن تاشفين الى ولي عهده على ، ام تعلق الأمر بالميل الى أبى الطاهر تميم أخى الأمير على بن يوسف الأسن ؟ . وهنا لا بأس من الإشارة الى أن موقف قرطبة الفاتر وواليتها (ابن الحاج) من على بن يوسف كان من الأسباب التى دفعت الأمير الى تجديد ولاية القائد سير بن أبى بكر على مدينة أشبيلية المجاورة لقرطبة ، ودفعه الى السير بسرعة على رأس قواته الى الأندلس فى ذلك الوقت من فصل الحريف (من أوائل سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) ، حيث كان وصوله الى مفر ولاينه فى شهر ربيع (نوفمبر) . ولا شك أن هذا الأمر أثار قلق الأمير على أحوال الأندلس ، فكان دافعا له على بداية عهده بالجواز الى الأندلس بمجرد تحسن الأحوال الجوية فى الشهور الأخيرة من سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، أول سنّى حكمه - وفى ذلك تقول الرواية انه تحرك الى الأندلس « لتفقد أهلها ، وسد خللها » (٢٣) .

العبور الأول للأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين :

واذا كانت الروايات الخاصة بهذا العبور الأول تكتفى بتحديد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م دون اشارة الى الشهر أو الفصل من السنة ، فمن الواضح أن هذا الجواز كان فى الشهور الأخيرة من ذلك العام ، وأغلب الظن فى شهر شوال بعد عيد الفطر أى فى بداية الصيف من شهر يونيه . وكان خروج الأمير على فيما يشبه الحملة الحربية ، اذ تقدمته الجيوش من المرابطين: أهل الدولة ، والمصموديين أتباعها من أهل السوس ، كما أحاطت به الجنود من الحرس الأميرى الذى دخلت فى تشكيله ، الى جانب الأحباش السود

= وتلكا (ص ١٣٣) عن بيعته لأول ولايته سلطان أبيه ، ومالاه الملا من أهل قرطبة : مشيختها وفقهايا ، وذلك سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، ثم نكب وقبض عليه ، وفسد تدبيره . فهرب أبو بكر حينئذ الى شرق الأندلس وسمع من أبى على كثيرا . ولم يفارقه الى أن رضى على بن يوسف على ابن الحاج وأخيه وقومه ومن عليه وصفح عنه ، وولاه مدينة فاس ، وما اليها من أعمال المغرب ، فلحق به أبو بكر وصحبه هناك ، وسرقسطة اذ وليها مع بنسبته بعد ذلك ، حتى استشهد بالموضع المعروف « بالبورت » وتفسيره بالعربية «الباب» سنة ٥٠٨ هـ / ١١٠٨ م (ص ١٣٤) - توفي ١٧ من ذى الحجة ٥٣٦ هـ / ١٤ يولية ١١٤٢ م ، وهو ابن ٧٠ سنة ودفن بمقبرة أم سلمة وصلى عليه انه أبو الحكم ، وكانت حداثته مشهودة ، وحضرها الرئيس أبو محمد بن الزبير بن عمر اللمتونى ، ومولده فى صفر سنة ٤٦٨ هـ / سبتمبر ١٠٧٥ م ، (ص ١٣٥) .

(٢٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ .

والأغزاز من الترك البيض ، وجماعات من العسكر الاسباني المسيحي ممن عرفوا باسم « الروم » ، كما تبعته أعداد من المتطوعة الوافدين من مختلف القبائل من سائر الأمصار ، ممن عرفوا باسم الحشود .

وكانت المسيرة سريعة نحو سببة من حيث كان العبور الى الجزيرة الخضراء - حيث استقبل أمير المسلمين الجديد : علي بن يوسف بن تاشفين بما يليق به من تبجيل واحترام ، من كل فئات الخاصة من أهل الأندلس على مراتبهم ، وفي طليعتهم رجال الدين ، من : القضاة والفقهاء ، يتبعهم الأعيان المدنيون ، من : الزعماء والرؤساء ثم بطانة هؤلاء ، من : الأدباء والشعراء ، الذين احتفلوا به بمدايحهم ، ونالوا عطاءه . وتبع ذلك أن اجتهد الأمير علي في اكتساب رضا الجميع « فقصي لمن كان ذا ارب اربه ، وسنى لكل ذى مطلب مطلبه » (٢٣ م) ، فكان ذلك مما حقق له الشعبية العارمة ، من : « اتفاق الكلمة واجتماع الأمة » (ما سبق ، ص ٣٧٨) .

وبدأت الحملة التفقدية (الرادعة) في الأندلس بصدور الأمر بتعيين أبي الطاهر تميم ، أخى أمير المسلمين علي بن يوسف (الذى كان موجودا في المغرب كنائب لأمير المسلمين) ، واليا لقرطبة فكانها ظلت محتفظة بمركزها المتفوق كمقر لنيابة الأندلس وولاية العهد ، من حيث كانت قاعدة صنهاجية أصلا . أما عن محمد بن الحاج ، والي قرطبة المنهم بسوء النية ، فانه عزل من موقعه هذا وحل مكانه : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتونى (٢٤) من عصبية الأمير .

هذا ، كما أصدر الأمير قرارا بعزل قاضى أشبيلية ابن منظور اثر التشكيك في ذمته ، من قبل الوزير : الطبيب الشهير أبي العلاء بن زهر (٢٥) .

(٢٣ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وانظر الحلل الموشية ، ص ٨٥ - حيث نفس النص تقريبا .

(٢٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وانظر روض القرطاس ، ص ١٥٩ - حيث الإشارة الى عزل الأمير تميم عن بلاد المغرب في السنة التالية ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م (بدلا من النص على تعيينه على بلاد الأندلس) وتعيين القائد أبي عبد الله محمد مكانه (بدلا من القول بعزله عن قرطبة - مما يأتى ذكره) واليا على فاس وسائر أعمال المغرب لمدة ٦ (ستة) أشهر قبل توليه بلنسية من حيث يكون دخوله الى سرقسطة سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م .

(٢٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ٢ - حيث شرح سبب الخصومة بين الطبيب الوزير ابن زهر والقاضى الشهير ابن منظور ، وهى التى أدت الى عزل الأخير ، نقلا عن كتاب « تقصى =

وهكذا تحققت أهداف بجواز الأمير علي بن يوسف الى الأندلس ، اذ تفقد أمورها « وعت البيعة دانيها وقاصيها ، حسبما سمحت الظروف ، اذ من الواضح أن أمير المسلمين كان في عجلة من أمره خشية نهاية الصيف واقبال فصل الشتاء ، وأنه كان عليه أن يصدر الى سبتة ، قبل نهاية العام (ذو الحجة ٥٠٠ هـ / أغسطس ١١٠٧ م) ، ومنها الى مراكش (العاصمة) (٢٦) .

وبمجرد وصوله الى الحاضرة كان علي أخيه أبي الطاهر - نائب الملك - أن يخرج الى ولايته بقرناطة ، حيث كان وصوله الى الأندلس في مطلع سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م دافعا الى اطمئنان النفوس وراحة البال ، وبذلك تم له الفرح « بمملكته ، وظهر به جمال دولته » (٢٧) . وكان علي أبي الطاهر تميم أن يؤكد ولايته لقرناطة وبالتالي لسلطانه على كل الأندلس بتأكيد سيطرته على بلاد المسلمين ، وفرض هيمنته على الجيران الاسبان المسيحيين .

فتح أقلش :

وهكذا كان عليه أن يهيئ نفسه للغزو ، عن طريق حسن سياسة الجند ، والترتيب للعمل الجماعي مع القريبين منه ، من سائر الفواد ، وكان حسن أقلش (Ucles) من كورة شنتبرية - على منابع وادي آنه قرب وبذه من شرق طليطلة - هو هدف حملته التي قادها في أواخر شعبان / ١٣ ابريل ١١٠٧ من نفس العام . وكانت مدينة جيان مكان التجمع بين قواتها وجيوش الحملة ، وكذلك القوات الوافدة أيضا من قرطبة ، ومن غيرها من البلاد (٢٨) . والتي كان من كبار قادتها عبد الله بن محمد بن فاطمة ، ومحمد بن عائشة اللذين كانا أقرب المستشارين الى الأمير

= الانباء في سياسة الرؤساء ، لابن الصيرفي (الذي لم يصل اليها) ، وفيه ان الطبيب مرض ذات يوم فسخر من ذلك القاضي ابن منظور قائلا : « طبيب ماهر يمرض » ، فما كان من ابن زهر الا ان رد على ذلك بكلام يقول فيه : ان ابا الطب والاطباء جالينوس كان يمرض دائما ، الى جانب شعر ، قال فيه اته :

« كما : قد يعثر من مئى قد يكون من الفقيه اكل الرشا »

(٢٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٩ .

(٢٧) نفسه ، وانظر ما سبق ، ص ٣٨٤ والهامش ٢٤ - حيث الاشارة الى نص روص لطرطاس ، ص ١٥٩ عن عزل الأمير تميم عن المغرب وتولية ابن الحاج فكانه بديل عن القول بعزله عن قرطبة (سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م) .

(٢٨) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٩ - ٥٠ .

تميم (٢٩) .

وخرجت القوات المرابطية بقيادة الأمير تميم ، أخي أمير المسلمين وإلى
غرناطة ونائب الأندلس ، إلى منطقة طليطلة لتضرب الحصار على حصن
أقليش ، وتمكن بعد نزال عنيف من اقتحامه لكي يلجأ سكانه إلى قصبته
الحصينة ، يحتمون بها انتظاراً لمجيء النجدة من قبل الفونس السادس .
ورأى الملك العنيد الذي كان يعيش وقتئذ أيامه الأخيرة ، أن يواجه نائب
الأندلس الأمير تميم بن يوسف بقرين له هو الأمير ولي عهده « الفنت »
(Infante) سانجه (Sancho) ابنه من زوجته زائدة (زوجة
المأمون بن المعتمد بن عباد السابقة) التي كانت قد تنصرت (٣٠) .

ووافى الأمير القشتالي الذي كانت تجري في عروقه بعض الدماء
العربية - في جيش انقاذ مسيحي كبير ، يبلغ عدده حوالي ٧ (سبعة) آلاف
رجل ، على رأس كل ألف منهم واحد من قوادهم المعروفين بالقوامس
(جمع قومس : Comes) أو قومط : كونت) (٣١) . ومن الواضح أن

(٢٩) انظر نظم الجمان لابن القطان ، ص ٨ ، هـ ١ (عن ابن عائشة) صاحب مرسية
وهـ ٢ (عن ابن فاطمة) صاحب بلنسية ، اللذين ينسب اليهما تقويم الموقف عند انهزام
عسكر قرطبة لعدة أميال فقاما بمهاجمة محلة النصارى وطاردوهم ثم تبعهم الأمير تميم (ص ٩) ،
ولجأ الأسبان إلى حصن بلشون (Belinchon) هـ ٣ - حيث رعبتهم من المسلمين ، ولكنهم
أخذوا ابن الفونس وقتل ، روى القرطاس ص ١٦٠ - وقارن الرسالة الرسمية ، نشر حسين
مؤنس ، الثغر الأعلى في عصر المرابطين ، ص ٤٠ وهـ ٢ - حيث النص على أنه « لم نعلم
إلا من هذه الوثيقة أن هذين القائدتين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة » (٩) ، وقارن
ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ - حيث النص : كان مدير الحملة هو أمير قرطبة ابن رنقى ؟
وجماعة عن الرؤساء بالأندلس ، ص ٨ - حيث مشاركة ابن عائشة وابن فاطمة في تلك
الحملة .

(٣٠) انظر القرطاس ، ص ١٩٥ - ١٦٠ - حيث اسم الوقعة اقلبيج ، وناريخها ، في
سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ، وان الفونسو عندما استعد للخروج اغاثة لبلده أشارت عليه زوجته
أن يوجه ولده بدلا عنه فيكون مقابلا لتميم ابن ملك المسلمين وسانشو ابن ملك الروم ،
فبعثه في جيوش كبيرة ، وقارن حسين مؤنس الثغر الأعلى في عصر المرابطين ، ص ٢٠ - حيث
رواية ابن أبي رزق هذه ، وقارن ابن القطان نظم الجمان ، ص ٧ وهـ ٥ - حيث عمر الشاب
ولي العهد ١٥ سنة ، وان رواية القرطاس مقتبسة من نظم الجمان .

(٣١) قارن حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٢٠ - حيث تسمى الوقعة بموقعة الاكناذ
السبعة بالاسبانية (Los Siete Condes) وانظر الرسالة الرسمية الخاصة بالوقعة (الوثيقة
الأولى) ، ص ٣٥ - حيث تبدأ الرسالة بعنوان « رسالة كتب بها ٠٠٠ ابن شرف عن بعض =

المحيطين بالأمير القشتالي الصغير ، من كبار القواد أو المستشارين لم يكن لهم مثل دراية الفونس السادس في أمور الحرب والسياسة . وذلك ان الحرب التي لا نعرف من تفصيلاتها عند المؤرخين سوى أنها كانت طويلة يصعب شرحها (٣٢) . بينما لا تظهر تلك التفصيلات في الرسالة الرسمية بسبب عناية الكاتب بالمحسنات اللفظية والسجع على حساب الموضوع ، الى جانب تحريفات النساخ ، انتهت بهزيمة مؤلة للعسكر الاسباني ، اذ قتل الشاب الصغير سائكو (ولى العهد : الاتقانت) وعدد من كبار القواد (الأقماط) ، منهم : غرسية أوردونش (Ardonez) وغرسية بقبدره (De Carba) بينما أتيح الهرب للقائد البرهانس (Alvar Hanes) ابن عم السيد (El Cid) ونصير الفونس السادس (٣٣) . أما من بقوا في أرض المعركة من الرجال فقد اجتز من رؤوسهم على ٣ (ثلاثة) آلاف رأس ، جمعت أكواما من أجل الأذان عليها (٣٤) ، مما يذكر بمعركة الزلاقة .

رؤساء المغرب . . في فتح اقليش أعادها الله ، وهو العنوان الذي يعلق عليه مؤنس في الهوامش - حيث يقول في (ص ١) ان كلمة « الغرب » تعنى المغرب وانه كان يطلق أيضا على الأندلس في ذلك الحين (؟) ، وفي (هـ ٣) انه لم يتم فتح اقليش في هذه الحملة . اذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ، كما سنرى ولهذا يقول : « أعادها الله » . والذي سراه ان هذا العنوان ليس من صلب الرسالة بل انه من وضع الكاتب الذي نقل الرسالة في وقت متأخر (كما هو الحال بالنسبة للقلقشندى في صبح الأعشى) فهو الذي يدعو : « أعادها الله » . اما تفسير اغفال سقوط القصبة في الرسالة فلان الرسالة يمكن أن تكون كتابتها في اليوم التالي للمعركة : كما يرى مؤنس (ص ٤٢ هـ ٣) ، أى قبل استسلام القصبة صلحا ، كما يشير بعض النصوص التاريخية . وهذا ما يبرره أيضا ، ما كان يصيب مثل هذه الرسالة من الحرم والتحريف والتبديل على أيدي النساخ . (وانظر ص ٣٧ والهوامش) . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧ - حيث نزول عساكر المسلمين على المدينة الحصينة فارس أدفونس ابنه بنحو ١٠ (عشرة) آلاف فارس لاغثة اقليش .

(٣٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٠ ، القرطاس ، ص ١٦٠ ، ابن القطان ، نظم الجمان . ص ٦ - حيث النص على ان اقليش من غر الوقائع وجليلها . . ثم ان عساكر المسلمين اقتجبوها فلجا من كان أسقلها الى القصبة العليا .

(٣٣) الرسالة رقم ١ في الثغر الأعلى لحسين مؤنس ، ص ٣٩ وهـ ٢ . وقارن نظم الجمان لابن القطان ، ص ٧ وهـ ١ .

(٣٤) الرسالة رقم ١ ، حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٤٢ وهـ ٢ . ص ٣٩ وهـ ٣ . وقارن روض القرطاس ، ص ١٦٠ - حيث المبالغة في عدد قتلى العدو الذي بلغ زيادة على ٢٣ (ثلاثة وعشرين) الفا ، نظم الجمان لابن القطان ، ص ٩ - حيث النص على انهزام المشركين الذين قتلوا قتلا قريبا مع ذكر استشهاد الامام الجزولى في الجانب الاسلامي ، وجماعة من الأعيان والعربان (الهلالية) .

وكانت كارثة مؤلة بالنسبة لألفونسو السادس ، إذ ينسب إليها وفاته ،
وان كان في شهر ذي الحجة من سنة ٥٠٢ هـ / يولييه ١١٠٨ م التالية (٣٥) .
أما بالنسبة للجانب الاسلامي فكان هذا النصر في أول حرب ضد الاسبان
المسيحيين ، من بشائر السعد بالنسبة لباكورة عهد علي بن يوسف بن
تاشفين في الأندلس (٣٦) .

العبور الثاني للأمير المسلمين علي بن يوسف الى الأندلس سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م :

وهكذا ، بوفاة كل من يوسف بن تاشفين (سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م)
والفونس السادس (سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) في مطلع القرن السادس
الهجري / ١٢ م . يظهر وكأن الزمن كان يعمل لصالح الدولة المرابطية وذلك
باعتدال ميزان القوى في أول سنة لملك الأمير علي بن يوسف ، وهي السنة
قبل الأخيرة لألفونس . والظاهر أن أمير المسلمين الثاني (علي) استبشر
بما حققه أخوه تميم في أقليمش ، ورأى أن يكون له نصيبه هو الآخر في
أحداث مفاخر الغزو والجهاد في الأندلس ، فقرر أن يكون عبوره الثاني الى
الأندلس في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م التالية - وهو الجواز الذي تحقق فيه
فتح مدينة طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بالنسبة لمنطقة طليطلة
ومدينتها العتيقة . والحقيقة انه اذا صح يوم الخميس ١٣ محرم ٥٠٣ هـ
الذي يعادل ١٢ أغسطس كتاريخ لبدء فتح طليطلة يكون عبور الأمير علي قدم
تم قبل ذلك في شهر ذي الحجة المبارك الذي يعادل يولييه من شهر
الصيف (٣٧) .

(٣٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٠ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦٠ - حيث النص على
ان الفونس اغتتم لقتل ولده وهلاك عسكره ، فمرض بالفقعة ومات لـ ٢٠ (عشرين يوما
من الكاثنة) ، وانظر هـ ٩١ - حيث تصحيح المحقق بالنص على أن وفاته كانت بعدها بنحو
عام (٣ يونيو ١١٠٩ م) .

(٣٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٠ - حيث النص ، ووجع الأمير أبو الطاهر الى غرناطة ،
فكان ذلك حسب مقالة ابن الصيرفي في كتاب « تقى الأنبياء في سياسة الرؤساء » ، دليل
اليمن والبركة ولولاية علي بن يوسف في أول دولته . وقارن هـ ١ - حيث النص على ان
انتصار أبي الطاهر كان في سنة ٥٠٤ هـ / ١١٠ م حسب روض القرطاس ، ونظم الجمان
(هـ ٢) - حيث النص على زائدة زوجة المأمون بن المعتد .

(٣٧) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ - حيث
أصل الرواية ، على أساس ان ١٣ محرم (٥٠٤ هـ) هو يوم الوصول الى طليطلة ، وانه أول

والمهم أن الأمير على خرج من الحاضرة مراکش الى الأندلس في أواخر سنة ٥٠٢ هـ / صيف ١١٠٩ م أو أوائل سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م برسم الغزو الصيفي (الصائفة) ، وأنه بعد أن أجاز يمم شطر غرناطة حيث أقام بعض الوقت ، ريثما تلحق به بقية كتائب الحملة المغربية (العدوئية) ، من العساكر والحشود والمطوعة ، وحتى تتأهب بدورها القوات الأندلسية . ومن غرناطة سارت الجيوش بقيادته نحو قرطبة حيث أقام أياما حين اكتمال تجمع الرجال ، وعندئذ سار بصحبته القاضي ابن حمدين نحو الهدف ، وهو طليبة : بوابة الدخول الى طليطلة (٣٨) .

فتح طليبة واجتياح منطقة طليطلة :

ولا ندري ان كان وصول القوات الاسلامية كان مفاجأة لأهل طليبة ، أم انهم فضلوا عدم مواجهة المرابطين ، تاركين الدفاع عن المدينة لرجال الحامية الذين اكتفوا بدورهم بالنجوء الى القصبية والاعتصام بها . وهكذا سنحت الفرصة بدخول القوات المرابطية طليبة ونهبها واستنقاذ أسرى المسلمين فيها ، بينما هرب العساكر من أفراد الحامية الاسبان ليلا عن طريق النهر الذي كان يحيط بالمدينة كالحندق ، ومن ثم عبر المحلات المحيطة بها وبذلك نجحوا في الافلات من الحصار (٣٩) .

وهكذا كان فتح طليبة سهلا فكانها مدينة مفتوحة ، اذ لا نجد الا ذكرا للمغانم التي امتلأت بها أيدي المسلمين من سقط المتاع ، من : الثياب

= يوم من أيام المعركة التي استغرقت عدة أيام ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦١ - حيث الجواز (دون تحديد) يوم ١٥ محرم / ١٤ غشت أغسطس ١١٠٩ م بدلا من تاريخ الانتصار في طليبة التي تظهر خطأ في شكل مدينة طلابوت ، وانظر ايضا الحلل الموشية ، ص ٨٥ - حيث الجواز الثاني وبرسم الجهاد ونصر الملة وقصد طليبة .

(٣٨) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، ص ١٣ ، القرطاس ، ص ١٦١ - حيث الجواز من سببة ، والاقامة في قرطبة لمدة شهر (الامر الذي يزيد في تاخر الصائفة) ، الحلل ، ص ٨٥ - حيث البدء بقصد طليطلة .

(٣٩) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ - ١٤ - حيث الرواية التفصيلية من احاطة المسلمين بالمدينة ليلا ، وخرقهم الوادي الذي كان يحيط بالمدينة ليهرب الماء ويمكن الوصول الى السور يوم السبت - حيث تم اقتحام المدينة واستفاد أسارى المسلمين . هذا كما كان في صحبة الحملة القاضي ابن حمدين في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، وكان يحرض الناس على القتال ، القرطاس ، ص ١٦١ ، والحلل ، ص ٨٥ - حيث فتحت عنوة بالسيف .

والمباشية والأسلحة . هذا ، كما طهر المسجد الجامع ، ورد الى ما كانت عليه هيئته أيام المسلمين . وبعد أن رتب الأمير علي بن يوسف حامية مناسبة من الرجال والفرسان والرماة تحت امره قائد من المرابطين ، غادر المدينة ، وسار غربا نحو طليطلة (٤٠) .

ومن الواضح أن النزول على طليطلة لم يكن لحربها بل لمجرد ترهيب أهلها ، وبالتالي ردع المسئولين من خلفاء القونس السادس . وذلك أنه بعد الاقامة حولها لمدة ٣ أيام ، عادت الجيوش الاسلامية أدراجها صوب غرناطة بعد أن ساءت ظنون أهل طليطلة - مع ما هي عليه من الحصانة والمنعة (٤١) . وبذلك تكون حملة الأمير علي الثانية بالأندلس قد دامت حوالي ٤٠ (أربعين) يوما ، ويكون الهدف قد تحقق من ردع العدو وترهيبه (٤٢) .

سرقسطة ما بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

الدخول تحت المظلة المرابطية :

ومن المهم أيضا ما حققته القوات المرابطية في منطقة الشرق ، من دخول سرقسطة ، قاعدة الثغر الأعلى في نفس سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، في طاعة المرابطين - رغم ما كان معروفا منذ بدء التدخل المرابطي في شئون الأندلس ، من موافقة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على الحفاظ على استقلال امارة بنى هود في الثغر الأعلى ، متميزة على غيرها من رئاسات الطوائف ، من حيث كونها امارة فاصلة بين الممالك المسيحية في الشمال وبين بلاد المسلمين في الأندلس ، وهو ما أوصى به ولي عهده عليا ، على أنه قاعدة سياسية ذهبية لا يصح الاخلال بها (٤٣) .

(٤٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ .

(٤١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦١ - حيث فتح ٢٧ حصنا من أحواز طليطلة ؛ ثم وصل الى طليطلة وحاصرها شهرا ، وقطع ثمارها ، وبلغ فيها من النكابة كثيرا ، ثم قفل الى قرطبة ، الحلل الموشية ، ص ٨٥ - حيث قصد طليطلة (قبل طليطلة) ونزل على بابها ، وحاز المنية المشهورة بخارجها ، وانتشرت جيوشه على تلك الاقطار ، ودوخ بلاد المشركين ، فلاذوا بالفرار الى المعقل واعتصموا بالحصون المنيعه ؟

(٤٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ - حيث النص على أنه لم يعهد في ذلك الوقت مثل هذه الغزوة قوة وظهورا وعدة ووفورا ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٨٥ - حيث النص على أن غزوة طليطلة لم يعهد مثلها « قوة وظهورا وعدة ووفورا » فكانه منقول عن ابن عذارى .

(٤٣) أنظر الحلل الموشية ، ص ٩٨ - ٩٩ - حيث كتاب عماد الدولة عبد الملك الى أمير المسلمين على مناسبة التفكير في أخذه بلاده وفيه : وكان المستعين بالله خاطب إياك =

ففى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م كان المستعين أحمد بن هود أمير مملكة سرقسطة يتخذ حصن روضة (Rueda) مقرا له ، وعندما قرر فى تلك السنة أن يعهد بولاية عهده الى ابنه عبد الملك نزل الى مدينة سرقسطة حيث جدد البيعة عن أهلها قبل أن يقوم بغزو أراضى مجاوريه من الاسبان المسيحيين ، وذلك فى شهر جمادى الثانى/ديسمبر من تلك السنة .

وكان من بين المدن والقرى المحصنة التى داهمها المستعين أحمد بن هود تطيله وارنيط التى صالحه أهلها على دفع الجزية السنوية وأخذ منهم الرهائن ضمانا لذلك(٤٤) . واذا كان من الواضح أن الرواية تبالح فيما أنزله بهذا الصقع المجاور لمملكة سرقسطة من الهدم والحرق والسبى ، قبل أن يعود الى بلاده ، فلا بأس أن يكون ذلك من الأسباب التى دعت الى ملاحقة كتيبته الفرسان التى تجمعت من أنحاء المنطقة للمستعين ، ونشوب معركة حامية بين الطرفين انتهت بهزيمة مروعة لجيش سرقسطة ، اذ استشهد المستعين أحمد بن هود ، وتبدد رجاله بعد أن بقى الكثير منهم فى أرض المعركة ، وذلك فى أول رجب سنة ٥٠٣ هـ / ٢٤ يناير ١١١٠ م(٤٥) .

ومع أن عبد الملك بن أحمد بن المستعين خلف والده فى امارة سرقسطة متخذاً لقب عماد الدولة الا أن هزيمة أول رجب هذه كانت نذير شؤم لمملكة سرقسطة ، اذ أضعفت موقف الأمير الجديد بالنسبة لأهل سرقسطة ، الأمر الذى مهد لقاعدة الثغر الأعلى الدخول فى طاعة المرابطين بشكل سافر دون موارد أو مداراة . فعندما طلب عبد الملك البيعة من أهل سرقسطة اشترطوا عليه ألا يستخدم عسكريا من الاسبان المسيحيين ، بل وأن يقطع علاقاته بهم(٤٦) . هذا ، فى الوقت الذى كان فيه والى بلنسية المرابطى

= يساله الدعة ويرغب فى الهدوء والاستعانة على العدو ، فأقام واقمنا مريحيين ، ومن تعب النفاق فرحين ، ثم دهمنا من جهتك داهم أبدى صفحته . . . ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا اليكم ، فيتحكم فينا الاذلال والله حسيب من بغى . . . وتنتهى الرواية بالقول ان أمير المسلمين على بن يوسف خاطب قائده أبا بكر بن تيفلويت يأمره بالكف عن بلاده (ابن هود) ذواناه الكتاب وقد أدخلته الرعية مدينة سرقسطة .

(٤٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ - حيث النص على أن أهل أرنيط (فى الأصل : أرنبه ؟) اعتصموا بكنيسة منيعة لديهم ، هى التى ضمنت لهم الصلح .

(٤٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ - حيث النص على انه « بايعه الناس بسرقسطة بعد

ما اشترطوا ألا يستخدم الروم ، ولا يتلبس بشئ من أمرهم » .

يتربص بسرقسطة الدوائر ، وفعلًا قام القائد عبد الله بن فاطمة بعد شهر واحد من مقتل المستعين في واقعة أول رجب ، بالتحرك على رأس حامية نحو سرقسطة ، ولكنه عندما اقترب منها نبهه زعماء المدينة الى خطورة الموقف الذى قد يؤدى الى استنجد عماد الدولة عبد الملك بالاسبان المسيحيين ، ودخول بلدهم فى دوامة الفتنة من جديد ، ونصحوه بناء على ذلك بالانصراف عنهم - ترقبا لما تصير اليه الأمور ، وهو ما استجاب له القائد المرابطى (٤٧) .

ولما كانت الأوضاع فى الثغر الشمالى تفرض ضرورة التعامل بين المسلمين والمسيحيين ان بالحرب أو السلم ، ولما كان استخدام المسيحيين من الاسبان كعسكر فى صفوف الدويلات الاسلامية قد صار أمرا دارجا ، ليس من المستحسن الاخلال به حتى العصر المرابطى ، بل وعند المرابطين أيضا (ما سبق ، ص ٢٦٠) ، لم يكن من المستغرب بعد ، ألا يفى عماد الدولة عبد الملك بشرط عدم استخدام « الروم : الاسبان » ، فى عسكره ، وقطع صلته بهم . وهكذا لم يكن وفاء عبد الملك بهذا الشرط أو عزمه على مداخلتهم (الروم) كافيا لاستدعاء أمير بلنسية الجديد محمد بن الحاج (أمير قرطبة السابق) (٤٨) ، اذ الأقرب أن يكون ذلك أمرا مبيتا من زعماء سرقسطة ، كراهية لأميرهم ابن هود ، تماما كما كان الحال من قبل ، لكل من أهل طليطلة وبلنسية بالنسبة لأميرهم ابن ذى النون (ما سبق، ص ٢٩٢) . وهذا الأمر يعنى أن الحركات الشعبية فى المدن الاسلامية بالأندلس فى ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس وبداية السادس (١١ - ١٢ م) ، كانت أقوى من أن تحجمها سلطات أمراء الطوائف الصغار ، ربما بسبب تأييد المرابطين لتلك الحركات سياسيا ، الى جانب دعايتهم الدينية التى كانت تلقى التأييد شعبيا . وهذا ما يتأكد بعد انفراد المرابطين بالسلطة ، حيث استمر الغليان الشعبى الناتج عن مأزق الضعف السياسى والاقتصادى ، فى مقابل حركة القوة المتصاعدة فى جانب حرب الاسترداد المسيحية (الريكونكستا) ، وبيان عجز حركة الانقاذ المرابطية وحدها عن مواجهتها .

هكذا استجاب القائد محمد بن الحاج أمير بلنسية الجديد من قبل أمير المسلمين على بن يوسف (بعد أن رضى عنه) لدعوة أهل سرقسطة ،

(٤٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ - ٥٥ .

وتقدم اليها في ١٠ من ذي القعدة ٥٠٣ هـ/مايه ١١١٠ م ، حيث فتحت المدينة أبوابها لدخول قواته التي استقرت في موضع المصلى (الشريعة) ، بينما دخل محمد بن الحاج قصور الجعفرية الشهيرة بعمارتها الفاخرة وفنونها الزخرفية الرائعة(٤٩) .

المهم انه حدث ما كان يتوقعه زعماء أهل سرقسطة من قبل ، من استصراخ عماد الدولة عبد الملك ابن المستعين بالفونس بن ردمير (ملك أراجون المعروف بالمحارب) الذي وافاه بحصن تطيلة (Tudela)

وهنا رأى محمد بن الحاج الذي كان قد خرج للتحرش بابن هود أن يعود الى سرقسطة ، ترقبا لتطور الأحداث . وعندما تقدم ابن ردمير نحو سرقسطة حيث توقف على مسافة فرسخين منها خرج له ابن الحاج على رأس المرابطين بينما عهد بقيادة أهل سرقسطة الى ابنه أبى يحيى . ورغم ما بذله ابن الحاج من الجهد في ترتيب أهل سرقسطة في هيئة القتال ، الا أن هؤلاء لم يصمدوا طويلا عندما اندلعت الحرب ، اذ لم يأت آخر النهار حتى أخلوا بنظام التعبئة ، بل وتسلسل كثير منهم الى داخل المدينة . وكانت فرصة انتهزها ابن ردمير الذي قسم قواته الى فرقتين ، وقفت احداها ازاء ابن الحاج بينما صدمت الأخرى عسكر أهل المدينة المختل فحلت بهم الهزيمة وقتل أبو يحيى بن محمد ابن الحاج وكثير من أصحابه السرقسطين ، وذلك عشية يوم الأحد ٥ من ذي الحجة ٥٠٣ هـ/٢٦ يونيه ١١١٠ م(٥٠) .

ذروة الصراع بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

يعتبر انتصار المرابطين على قوات الفونس السادس في أقليمش (شرق طليطنة) سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م في مطلع عهد علي بن يوسف ، ذروة النجاحات التي حققتها حركة الانقاذ المرابطية في الأندلس والتي تتوجت بضم آخر امارات الطوائف في سرقسطة قاعدة الشجر الأعلى ، الى أراضي المسلمين في الأندلس لتتم وحدتها تحت رايات المرابطين . والحقيقة أن الصراع سوف يستمر سجالا طوال عشر سنوات تقريبا ، بين حركتي الانقاذ

(٤٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ - حيث النص على ولاية ابن الحاج بلنسية عوصا عن ابن فاطمة والى غرناطة ، وأنظر القرطاس ، ص ١٦٠ - أحداث سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م - حيث سار محمد بن الحاج من بلنسية الى سرقسطة فدخلها وأخرج عنها بنى هود .
(٥٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ .

المرابطين والاسترداد الاسباني ، عندما يبدأ رجحان كفة « الريكونكيستا » نتيجة فقدان حماس المرابطين الحربي من ناحية ، وافتقار ثقة الأندلسيين في كفايتهم بشكل عام ، الأمر الذي يمكن أن يكون قد ساعد على قيام حركة الموحدون في المغرب ، التي زعزعت قواعد الدولة المرابطية في مهدها من جهة ثالثة في بلاد المصامدة ، وخاصة في منطقة مراكش حاضرة المرابطين ، على مشارف بلاد السوس الأقصى .

وتمثلت علامات التحول الأول في الجانب الأندلسي في وقوف عبد الملك ابن المستعين بن هود صاحب سرقسطة السافر الى جانب ابن ردمير (المجارب) ، الأمر الذي يشبه ما فعله المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس عندما فضل المسير الى أرض يسيطر عليها الفونسو السادس بدلا من مواجهة يوسف بن تاشفين (ما سبق ، ص . .) - الأمر الذي لم يجعل الحرب سجالا فقط بين المرابطين والمسيحيين في ضواحي سرقسطة بل جعلها تصبح في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ميدانا للحرب والمناوشة بين الطرفين صباحا ومساء . واذا كان النص يجعل التفوق (الظهور) لابن ردمير في كثير من الأحيان (٥١) ، فان وصول القائد أبي عبد الله بن عائشة ، والى مرسية ، نجدة الى ابن الحاج بامر من أمير المسلمين ، بدل الموقف فاعتدل ميزان الحرب بين الطرفين ، وهكذا : « لم تزل الحرب بعد ذلك متصلة ، والمضارب مترددة ، وغزوات محمد بن الحاج متوالية » ولكنه عندما زاد ضغط المرابطين في منطقة نفوذ عبد الملك بن المستعين ، اثر توجيه علي بن كنفاط اللمتوني لحصار بعض حصون بني هود في جهة قلعة أيوب ، استغاث عبد الملك بملك أراجون فوجه اليه مددا من العساكر الاسبان (الروم) الذي لم ينجح فقط في الدخول الى الحصن رغم الحصار ، بل نجح أيضا في التسلل خلال المعسكر المرابطي المطمئن ليلا ليأسر قائده « علي بن كنفاط » ، ويعود به رهينة ثمينة الى عبيد الملك بن المستعين بمقر امارته في روضة (Rueda) حيث بقي بيده قبل أن يفك أسره عندما تم توقيع الهدنة بين الطرفين - وان لم يمنع ذلك من معاودة القتال ، « والحرب سجال والنفوس آجال » (٥٢) ، كما حدث في سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ، حيث خرج عماد الدولة من روضة لحرب محمد بن الحاج وانتهى الأمر دون هزيمة أحد ، باكتفاء عماد الدولة بالاياب (٥٣) .

(٥١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٣) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٦ .

والظاهر أن توازن القوى الذى ترجح فيه شيئا ما كفة الاسسبان المسيحيين فى الأندلس على كفة المرابطين لم يكن مقبولا من أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى مراكش ، الأمر الذى جعله يلجأ فى اواخر سنة ٥٠٤ هـ / يونيه ١١١١ م الى تغيير القيادة العليا فى الأندلس ، وذلك بنفل أخيه تميم - نائب الملك - من ولاية غرناطة الى ولاية تلمسان ، قاعدة المغرب الأوسط (٥٤) . ووقع الاختيار على واحد من أكفأ القواد المرابطين الذين عملوا فى الجبهة الأندلسية ، وهو الأمير مزدلى (أبو محمد بن سولنكان : ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين) الذى آلت اليه فى مطلع سنة ٥٠٥ هـ / يوليه ١١١١ م ولاية كل من قرطبة وغرناطة والمرية وما انتظم معها من الحصون والقرى - بمعنى النيابة أو المملكة (٥٥) . والظاهر أن سياسة القوة التى أظهرها الأمير على نالت رضا عاما من بعض الزعماء الذين عملوا فى الجهة الأندلسية ، وهو الأمير مزدلى (أبو محمد بن سولنكان : عاد بعضهم الى الانتظام فى صفوف حزبه الطبيعى ، الاسلامى . ففى هذا الوقت المبكر من سنة ٥٠٥ هـ / صفر / أغسطس ١١١١ م ، كان المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس يرجع من أرض أسبانيا المسيحية الى مدينة أشبيلية - حيث كان الأمير سير بن أبى بكر (منذ فتح المدينة على عهد يوسف) ، الذى رتب توجهه الى حضرة أمير المسلمين بمراكش ، حيث لقي استقبالا حسنا ، وصارت له منزلة رفيعة فى كنف الأمير (٥٦) .

وتظهر سياسة القوة التى انتهجها المرابطون فى العقد الأول من ولاية الأمير على بن يوسف نتيجة طبيعية لتضافر عدد من العوامل التى هيات استقرار الأمور فى كل من المغرب والأندلس . أولها حسن اختيار الأمير على لمساعدته من الرجال الأكفاء من أهل الحرب والسياسة ، من أمثال محمد بن الحاج ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن عائشة وعلى رأسهم مزدلى ، ومن وقف الى جانبهم من الكتاب والوزراء من أهل العلم والأدب والفن : أصحاب الخبرة فى الادارة وشئون الحكم . هذا ، الى جانب التمسك بتطبيق سياسة دينية أصولية مبنية على مبادئ المذهب المالكي وقواعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الأمر الذى أدى أيضا الى تقريب الفقهاء ، والعهد اليهم بالبت فى كل الأمور ، مما جل منها وما صغر (٥٧) .

(٥٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٥٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٥٧) قارن المعجب لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

وهكذا كان للأمير سير بن أبي بكر ، والى أشبيلية من قبل يوسف بن تاشفين منذ ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، أعماله الهامة في اقليم الغرب حتى سنة ٥٠٤ هـ / ١١ - ١١١٠ م ، بل والى وفاته بأشبيلية (جمادى الأولى ٥٠٧ هـ / أكتوبر ١١١٣ م) (٥٨) حيث ينسب اليه فتوح مدن : برتقال (Porto) ويابره (Yavera) والاشبونة (Lisbao , Lisbonne) حتى شريش في الجنوب ، الى جانب تهديد منطقة بطليوس أيضا - حيث كانت هذه الأعمال موضوع كتب رسمية أرسلت باسمه الى أمير المسلمين علي بن يوسف . وبعد الأمير سير آلت ولاية أشبيلية الى القائد محمد بن فاطمة الى حين وفاته في سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م (٥٩) .

هذا كما كانت للقائد مزدلى بصفته والى غرناطة ، ونائب الأمير بالأندلس ، أعماله الحربية المجيدة التي أكدت التفوق المرابطي في تلك الحقبة الأولى من ولاية علي بن يوسف . ففي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م التي تسلم فيها مزدلى ولاية قرطبة وغرناطة خرج على رأس جيش كبير من المرابطين والحرس الأميري (الحشم) ممن حضروا من المغرب ، ومن قوات امارته ، وبما أمده به سير بن أبي بكر من قوات أشبيلية الى جانب المطوعة من الفرسان والرجالة . وكانت وجهة هذا الجيش الكبير منطقة طليطلة - هدف المرابطين وكل المسلمين ، الصعب المنال - « فدوخها واكتسح (مزدلى) به أوديتها ، وأبلغ في نكايتها » ، قبل أن يعود الى قرطبة « ظافرا ، ظاهرا على عدوه » . واذا كانت هذه الأعمال موضوع اتفاق كل من ابن عذارى وابن أبي زرع (٦٠) ، فان الأخير يضيف اليها فتح مزدلى في تلك الغزوة حصن أرهينه (أرينه أو أورينا) عنوة ، « وقتل من كان به من الرجال ،

(٥٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ - حيث يفهم من رواية ابن عذارى ان وفاة سير كانت مفاجئة ليلة خروجه للاحتفال بزفاف ابنته فاطمة الى أمير المسلمين ، وذلك في موضع يسمى بأغرناات قرب اشبيلية . وكان يشيع مع ابنته زوجته حواء (بنت تاشفين : أخى يوسف ابن تاشفين لأمه ، وابن عمه (علي) في نفس الوقت) . وعقب الحفل الكبير الذي استمتع فيه الناس بالموسيقى (اللهو) والأطعمة الفاخرة ، نزل بالأمير سير مفص شديد صار يتزايد عليه حتى قضى عليه عند الفجر ، وشهد جنازته بشر عظيم - بعد ولاية ناهزت الـ ٢٥ سنة . اما عن حواء بنت تاشفين ، زوجة سير فقد عرفت بأنها شاعرة جلييلة ماهرة ، ذات نباهة وخطر ، وأنها كانت تحاضر كثيرا من رجال الدولة من الأدباء والشعراء ، مثل : ابن القصيرة وابن المرخي .

(٥٩) روض القرطاس ، ص ١٦١ - ١٦٢ ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٦٠) البيان ، ج ٤ ص ٥٧ ، القرطاس ، ص ١٦٢ .

وسبى النساء والفدية . هذا ، وتضيف الرواية أن القائد الأسباني الشهير : البرهانس (Alvar Hanez) عندما خرج مسرعا لنجدة أهل المنطقة لم يستطع مواجهة مزدلي في معركة مكشوفة ، بل انه فر عائدا الى بلده مستترا بسواد الليل . وقبل أن يرجع مزدلي الى قرطبة أمر بتحصين أرينه وحمل الميرة اليها ، كمسا رتب بها حامية مناسبة من الفرسان والرجالة (٦١) .

ولا ندرى ان كان من ضمن حظ مزدلي في صائفته تلك (سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) ان شئت النوء العاصف الحملة الصليبية البحرية التي خرجت من فرنسا (الأرض الكبيرة) في نحو ٥٠٠ (خمسمائة) مركب تحمل عشرات الألوف من المقاتلة ، من : الفرسان والرماة والرجالة : والتي كانت تصحبها مراكب الحجاج مشحونة أيضا بالأطعمة والأزواد (٦٢) . وذلك أن مثل هذه الحملة الضخمة عادة ما كانت تقدم المعاونة على طول الطريق ، وأثناء مرورهم بحذاء الساحل الأندلسي الغربي ، اذا ما طلبها منهم محاربوا الاسترداد ، بل وكان يبقى بعضهم في أسبانيا عندما تفوتهم المراكب المتجهة الى بلاد الشام وفلسطين - ومن المعروف أنه كان لذلك أثره في نشأة مملكة البرتغال التي استقلت بجزء من غربي شبه الجزيرة الأيبيرية .

من علامات الهبوط : وفاة مزدلي بالشعر واستشهاد والده محمد :

والظاهر أن أيا من نشاط مزدلي الشخصي أو كفاءته العسكرية لم تكن وحدها ، بل ولا كلاهما كافيتين لتقويم الأمر الواقع وتعديل ميزان القوى الى مصلحة المرابطين . وذلك أنه عندما علم مزدلي بتهديد غرسية بن الرند ، صاحب وادي الحجارة (Guadalajara) المدينة المحصنة في الشعر ، بالاستيلاء على مدينة سالم (Medinaceli) الإسلامية بعد أن حاصرها ، خرج الى لثائه ، ولكن مجرد خبر وصوله الى المنطقة كان كافيا لهرب ابن

(٦١) الزطاس ، ص ١٦٢ ، وقارن ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٧ وهـ ١ - حيث الإشارة الى ان المصادر الأسبانية تذكر أن الأمير مزدلي فتح حصن « أوريخا » الذي يمكن أن يكون اسم أرنيه بحرفا له - عن مجلة تطوان ١٩٥٨ .

(٦٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٨ - حيث الخصى على أنها كانت تحمل نخبة من الفرسان يبلغ عددها ١٥٠٠ فارس ، ومن الرماة ٥٠٠٠ ، وأن الريح الصرصر العافية أغرقتهم فلم تبق منهم باقية .

الرند ، « تاركاً جميع أسبابه وأثقاله ومضاريه ، النى وقعت جميعاً بين يدي مزدلى .

ومع نجاح تلك الحملة التى ربما بدأت فى الربيع أو الصيف المبكر . فانه لم يقدر لمزدلى العودة الى مقر نيابته فى قرطبة وغرناطة ، اذ استمر فى غزو الثغر الأعلى (بلاد الروم) استكمالاً للصبائفة المبكرة ، حيث كانت بداية سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م فى أوائل يونيه ، وهى السنة التى توفى فيها مزدلى ، ربما بسبب الاجهاد ان لم يكن من المرض (٦٣) . وعندما بلغ الخبر الى مراکش (العاصمة) صدر الأمر من ديوان أمير المساحين بتعيين ولدى مزدلى وهما : عبد الله بن مزدلى ومحمد بن مزدلى اللذين كانا فى كنفه بالحضرة مكانه ، فكان لعبد الله غرناطة ولمحمد قرطبة ، وتم لهما الاستقرار بولايتيهما فى آخر ذى القعدة من سنة ٥٠٨ هـ / ٢٧ ابريل ١١١٥ م (٦٤) .

واستمر محمد بن مزدلى فى الغزو بمنطقة الثغر هذه لمدة ٣ (ثلاثة) أشهر أى حتى نهاية الصيف ، ولكنه توفى شهيداً فى ساحة القتال ، فى ظروف صعبة على ما نظن ، وذلك ان الرواية لا تحدد تاريخاً لذلك المصاب خلال سنة ٥٠٨ هـ / ٥ - ١١١٤ م (٦٥) .

وهكذا كانت قائمة وفيات كبار القواد وأسر بعضهم تزداد طولاً مع مرور الوقت خلال العقد الأول من عهد أمير المسلمين على بن يوسف ، الأمر الذى يمكن أن يعتبر سمة مميزة لنهاية عهد الصعود المرابطي فى الأندلس ، وبداية بالتالى لعهد الهبوط ، وهو ما يجعله عبد الواحد المراكشي بداية لعهد الفساد والتردى (٦٦) ، الأمر الذى ينفق مع نظرية ابن خلدون فى أن الحضارة

(٦٣) عن مزدلى : هو : أبو محمد مزدلى بن سولنكان ، ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ووصل جثمانه الى قرطبة شى بداية شهر شوال ، ثانى يوم وفاته ، وصلى عليه أثر صلاة العصر ، الفقيه القاصى أبو القاسم بن حمدين ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٠ والهامش رقم ١ للمحقق ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ - حيث النص على كثرة غزواته فى بلاد النصرانية .

(٦٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٠ ، وقارن المقرطاس ، ص ١٦٢ - حيف خلف والده. مزدلى بشكل عام .

(٦٥) روض القرطاس ، ص ١٦٢ .

(٦٦) أنظر المعجب ، لعبد الواحد المراكشي ، ص ١٧٧ - حيث المص على اختلال البلاد (الأندلس) بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م باستيلاء أكابر المرابطين على البلاد . وأمر المسلمين ٠٠ يتزايد تفاقمه ، ويقوى ضعفه .٠٠ الخ .

ذروة العمران ومؤذنة بضماده (٦٧) .

مظاهر الهبوط والتردى على عهد علي بن يوسف :

والحقيقة أن عهد الواحد المراكشي يبالغ عندما يقرر بشكل عام - أن اختلال الدولة المرابطية بدأ مع عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، فكأنه يجعل عهد يوسف والد علي ، هو ذروة العصر المرابطي . والصحيح أن عهد يوسف بن تاشفين هو عهد التأسيس والقوة العسكرية - والسياسة - أساس حكمه الاستقرار التي تزدهر تحت مظلتها أسباب الحضارة والرقى في جميع أشكالها ، وهو الأمر الذي ظل يتحقق في عهد أمير المسلمين الثاني : علي بن يوسف إلى أن بلغ أوجه حوالى منتصف أمارته (٥١٨ هـ / ١١٢٤ م) وهو التوقيت المقبول كبداية لتفاقم أسباب الهبوط قبل التردى .

وعهد الواحد المراكشي يعدد أسباب الاختلال في كثير من المظاهر التي يطلق عليها اسم « الماكر » (جمع منكر بمعنى الشر ، عكس المعروف بمعنى الخير) كالآتي :

١ - استيلاء أكابر المرابطين على البلاد - فكان القواد والولاة من المرابطين كونوا طبقة أرستقراطية من السادة الجدد الذين حلوا مكان رؤساء الطوائف وأعادوا سيرتهم الأولى من حيث الاستقلال أو الاستبداد أو الافتئات على السلطة المركزية المثلثة في سلطان أمير المسلمين (٦٨) .

٢ - حصول المرأة المرابطية (أى الصنهاجية أو اللمتونية من قبيلة يوسف بن تاشفين - بخاصة) على مركز متميز ، كما هو الحال في المجتمع المغربي البربري حيث نظام الأسرة ذات السيادة الأموية (الماترياركية) ، وخاصة عند الصحراويين المثلثين ، مما يسمح للمرأة بالسفور ، وباجتماع النساء والرجال في العلانية (ما سبق ، ص ٧٤) ، مما لم تعرفه المجتمعات المدنية الإسلامية وخاصة في عواصم المغرب الكبرى والأندلس

(٦٧) المقدمة ، طبعة تجارية ، باب ١ الفصل ١٩ (في ان الحضارة غاية العمران) ، ص ٣٧١ ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ ، عن مزدي وكثرة غزواته ، وعلى بن يوسف وأنه كان خير ملك ، كما كانت أيامه صدر وداعة ..

(٦٨) المعجب ، ص ١٧٧ - حيث النص على استبداد أكابر المرابطين وتناولهم على السلطان على حد التصريح « بأن كل واحد منهم خير من علي أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه » .

حيث حياة السراري والجواري الى جانب الحرات من ذوات الحسب ، في مجتمعات الحرير بالقصور المغلقة ومجالس الخاصة (٦٩) ، الأمر الذي كان يثير مشاعر المتشددين من المصلحين ، مثل محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية المناهضة للمرابطين ، الذي لفت الأنظار الى هذه « البدع » - وهو ما كان يعتبر من حرب الدعاية التي قام بها مختلف الحشود ضد قيام الدولة الفاطمية في أفريقية (ج ٢ ص ٥٦٨ ، ج ٣ ص ٣٥) .

٣ - ويعتبر السبب الثالث والأخير ، وهو الخاضع يتغافل أمير المسلمين أو ضعفه ، مما قدمه عبد الواحد المراكشي لاختلال الدولة المرابطية ، السبب الرئيسي على اعتبار أن غيره من الأسباب توابع له ، إذ يقول ان ضعف علي ابن يوسف كان يتزايد ويقوى مع مرور الوقت ، حتى « قنع باسم أمير المسلمين ، وبما يرجع اليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية ، فاختلف لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود الى حالتها الأولى ، ولا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بلاسوس » (٧٠) .

والذي نراه نراه أن ضعف أمير المسلمين علي بن يوسف أو تبتله وتحوله الى ولي من أولياء الله الصالحين « يقوم الليل ويصوم النهار » ، مهملاً أمور الرعية وخاصة بالنسبة للأندلس ، إنما هو تهرب من مواجهة الموقف الذي أخذ يتأزم وبخاصة في حرب الاسبان المسيحيين (الريبكونكيستا) . والحقيقة أن الأمير علي - الذي خلق لكي يكون كاهناً ، كما يقول دوزي (ص ٣٧٨ ، هـ ٩) - ما كان يصلح لمثل هذا الموقف الذي يحتاج الى نوع آخر من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا عزماً واصراراً ، تماماً كما كان الحال بالنسبة لوالده يوسف : ابن الصحراء الذي تهرس : باختبارات البيئة الصعبة التي لا تسمح بالبقاء الا للعناصر القوية من الناس . وهكذا لم يتحمل الأمير علي فشل قواته أكثر من مرة في مواجهة القوات الاسبانية ، وما كان يصاحب ذلك من استشهاد الشجعان من قواده - فكان تحوله من أمير قائد الى ولي صالح .

(٦٩) المعجب ، ص ١٧٧ - حيث المبالغة في القول : « واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت اليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمونة ومسوفة مشغولة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر ومأخور » .

(٧٠) المعجب ، ص ١٧٧ .

مصاعب الحرب الاسبانية :

وتابعها من الاضطرابات الداخلية والتحديات الخارجية :

ومن سوء حظ الأمير علي بن يوسف أنه لم يواجه في بداية ملكه حرب الاسترداد وحدها في الأندلس ، بل كان عليه أن يواجه ثورات الزناتية ، خصوم المرابطين الأوائل في المغرب ، كما حدث في بلاد الريف وفي المغرب الأوسط بتلمسان ، الى جانب الغارات البحرية التي بدأت تقوم بها أساطيل الجمهوريات الإيطالية البحرية ، سواء على جزر الأندلس الشرقية أو بعض السواحل الليبية .

اضطرابات الزناتية في العدو المغربي :

ففي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ثار الزناتية ببلاد غمارة في الريف ، حيث قام رجل يعرف بابن الزنر الذي ادعى أنه من أبناء معنصر الزناتى ، آخر ملوك فاس السابقين . والظاهر أن الدعوة الى قيام دولة مغراوية من جديد لقي نجاحا لدى زناتية الاقليم ، وذلك أن علي بن يوسف بن تاشفين لم يسد طمع أن يقضى على تلك الثورة بالقوة ، الأمر الذي دعاه الى استخدام بريق الذهب لتهديد الغماريين الذين خلعوه من الشائر ، فقتلوه غدرا وأتوه برأسه .

أما عن ثورة تلمسان حيث قام ماخوخ الزناتى الذي لم يستقر في عاصمة الاقليم بل اتخذ مدينة أميرية خاصة به ، فكان يكفى للقضاء عليها خروج أمير المساميين نحو الشائر لى يفر أمامه ويخرج من بلاده (٧١) .

غارات ردعية للجنوبيين على ميورقة وبرقة :

هذا ، كما واجه الأمير علي بن يوسف تهديد أساطيل جنوة التي بدأت تهيمن على الملاحة في البحر المتوسط ، وتكون امبراطورية تجارية كبرى تستطيع أن تؤمن متاجرها بقوة الأساطيل الحربية اذا لم تجد العلاقات الدبلوماسية ومعااهدات السلام .

وهكذا كان الجنوبيون يهاجمون في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م جزيرة.

حيورقة (البليار) التي كانت بيد الفتى مبشر ، مولى علي بن مجاهد ، ودخلوها عنوة بعد حصار شديد (٧٢) . ومن الواضح أن الغارة الجنوية كانت انتقامية للزدع فقط ، وذلك أن الأسطول المرابطي المكون من ٢٠ (عشرين) مركبا حريبيا ، حشدت من أجل استرجاع ميورقة ، وجدت الجزيرة خالية من العدو عندما وصلت اليها في السنة التالية ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م (٧٣) .

وفي سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م هذه كان الجنويون يهاجمون برقة ويستولون عليها ويخلونها من أهلها . ولكنهم بعد أن تركوها لم يلبث ٤ العمران أن عاد اليها بفضل القائد مرتانا قرطت المرابطي - الأمر الذي يعني أن النفوذ المرابطي كان يصل في بعض الأحيان شرقا الى برقة (٧٤) - أن لم يكن برا فعن طريق الأسطول بحرا .

وقعة قرطبة واستشهاد محمد بن مزدلي :

وهنا نلاحظ أن مظاهر بلوغ عهد الذروة عند المرابطين يتمثل في استخدام الأسطول في الجهاد وخاصة ضد صقلية النورمندية ، حيث تمدنا حوليات ابن عذارى بمعلومات جيدة بهذا الشأن . ففي سنة ٥٠٩ هـ / مايو ١١١٥ م كان الاسبان يردون على غارات محمد بن الحاج ومزدلي على بلادهم في سرقسطة وطليلة بغارات انتقامية على القواعد الاسلامية في قرطبة وأشبيلية . ففي بداية ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م « ضرب العدو على نظر قرطبة » وتعجل محمد بن مزدلي في مواجهة المعتدين . والظاهر أنه تهور بعض الشيء في مطاردته لهم ، الأمر الذي مكنهم من مفاجاته على حين غرة . وانتهت المفاجأة بكارثة كبرى في يوم الخميس مستهل صفر ٥٠٩ هـ / ٢٦ يونيه ١١١٥ م ، يمكن أن تعتبر قرينة وثارا لهزيمة « الفنت سانكو » ولي عهد ألفونس السادس ، وصحبه الأقماط السبعة في أقليش (ما سبق ، ص ٣٨٥) . واذا كانت رواية ابن عذارى تبالغ عندما تحدد عدد القتلى من

(٧٢) ابن عذارى ، نشر كولان وبروفنسال ، ج ١ ص ٣٠٥ ، وقارن ابن القطان نظم الجمال ، ص ١٩ - حيث النص على قتل الرجال وسبي النساء والأطفال .
(٧٣) روض القرطاس ، ص ١٦٢ - حيث النص على ملك أمير المسلمين على الجزائر البحرية شرق الأندلس ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٥ ، ابن القطان ، ص ١٩ - حيث النص على أن ٤لروم ، هاجموا الجزيرة ، والمقصود ، أهل جنوة وبيزة وقطالونيا .
(٧٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ .

الأمراء المسلمين (القواد) بما يناهز الثمانين قائدا ، فان هذا التهويل يعنى فى حقيقة الأمر رسم علامة مميزة على مسار الانتفاذ المرابطى فى الأندلس ، بما يفيد أن وقعة قرطبة هذه يمكن أن تعتبر نذير شؤم على طريق بداية النهاية بالنسبة للوجود المرابطى بالأندلس . فالى جانب استشهاد محمد بن مزدلى يذكر مقتل كل من : أبى اسحق بن غانية (دانية أصلا) وأبى بكر بن واسينوا ، وجملة كبيرة من رجال الحرس الأميرى (الحشم) وأهل الأندلس - « فكان مصابا عظيما ، وخطبا جسيما » (٧٥) .

الهيّاج الشعبى على المرابطين :

ثورة قرطبة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م بداية النهاية للمرابطين :

هذا ، واذا كانت حوليات ابن القطان تذكر غزوة لعبد الله بن فاطمة الذى آلت اليه ولاية أشبيلية فى نفس السنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م (بدلا من فاس) (٧٦) يمكن أن تعتبر انتقاما لوفاة مزدلى واستشهاد ابنه محمد بن مزدلى فى ميدان الجهاد ، فان ثورة قرطبة ، قاعدة البلاد وحاضرة الخلافة العتيدة ، منذ أواخر سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، تعتبر بحق علامة بداية النهاية بالنسبة للمرابطين بالأندلس .

والحقيقة أن ثورة قرطبة هذه كانت نوعا من الهيّاج الشعبى الذى عرفته العواصم الاسلامية ، بعد عهد من الاستقرار تضخم فيه عدد سكانها ، وازدادت فيه رقعتها خارج الأسوار ، أشبه ما يعرف حاليا بالبناء العشوائى خارج المدن ، كما حدث فى بغداد على عهد الأمين والمأمون ، وفى قرطبة أيام الحكم الربضى ، وفيما بينهما بالاسكندرية ثم فى مدن المغرب الكبرى وصقلية ، والأندلس على مر الزمن ، الأمر الذى ينتهى بقيام حكومات مدن الطوائف .

(٧٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦١ - حيث تضيف الرواية الى زمرة القواد الشهداء ، الأمير محمد بن الحاج ربما تحت تأثير ضخامة الكارثة او من أجل الماتنة بحادثة ابن الحاج وهو الأمر المقبول . فمن المعروف أن مجال جهاد محمد بن الحاج كان فى منطقة الثغر الأعلى و برشلونة شمالا ، وأنه استشهد سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (السابقة) فى موقعة البورت (الباب) (هـ ١ - حيث الاشارة الى معجم الصدفى لابن الأبار) التى تعنى ممرات جبال البرانس المعروفة بالبرتات (الأبواب) . وأنظر فيما سبق ص ٢٨٢ و ٢٢ - حيث رواية ابن الأبار (المعجم) ترجمة رقم ١٢٠ ص ١٣٤ - حيث استشهد محمد بن الحاج أثناء ولايته سرقسطة بالبورت (الباب) سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م .

(٧٦) نظم الحمان ، ص ٢١ وهـ ٢ .

ففى خلال احتفالات عيد الأضحى من سنة ٥١٤ هـ / فبراير ١١٢١ م ،
مخرج عامة أهل قرطبة رجالا ونساء الى المنتزهات وشطآن النهر الكبير ،
كان الاغراء أشد من أن يحتمل السكوت عليه بالنسبة لبعض رجال الحرس
الأميرى من العبيد السود ، فامتدت يده الى امرأة وهى تمر بالقرب منه —
الأمر الذى يعنى أن الحدث وقع على الرصيف المواجه لسور القصر على طول
شاطئ النهر ، غير بعيد من القنطرة .

والمهم أن الحدث الفردى هذا ، لم يمر بسلام بل انتهى بقيام العامة
على حرس أبى بكر بن يحيى بن رواد ، والى قرطبة وقتئذ ، ودامت «الفتنة»
العظيمة بين العبيد السودان من رجال الحرس وأهل البلد طوال النهار .
وعندما تدخل زعماء العاصمة من الفقهاء والأعيان ورأوا أن يشتري الوالى
أبو بكر تهدئة العامة بقتل واحد ما ، من عبيده الذين أثاروا الفتنة ، أنف
من ذلك واعتبره تطاولا على سدة الحكم ، واستعد لمواجهة الحامية الذين ردوا
رجالهم الى داخل القصر . وعندما ضيق القرطبيون حصارهم على القصر ،
اضطر الوالى الى الهرب منهم ، فكانت فرصة انتهزها العامة لنهب القصر
ثم تمادوا الى دور المرابطين فأحرقوها وأخرجوا أصحابها من البلد (٧٧) .
وبذلك تكون قرطبة قد قلبت ظهر المجن للمرابطين وعادت جمهورية شعبية ،
كما كان الحال على أيام ابن جهور (ما سبق ، ص ٢٩٣ وهـ ٢١) .

وعندما وصل خبر ثورة قرطبة على المرابطين أرسل أمير المسلمين على
ابن يوسف الى أهلها خطاب تقريع وتهديد ، فلم يؤثر فيهم ذلك الترهيب ،
وعندئذ قرر المسير بنفسه على رأس حملة عبرت الى الأندلس فى ربيع الأول
سنة ٥١٥ هـ / مارس ١١٢١ م قبل أن يزداد الحرق اتساعا . ولكنه رغم
وصوله أمام المدينة لم تفتح له الأبواب . وعندما ضرب جيشه الحصار عليها
وقف أهلها على أهبة الاستعداد للقتال . وأخيرا انتهى الأمر الى المفاوضة
فى الصلح على أساس ما قيل له من وصية والده بالاحسان الى محسنى أهل
قرطبة والعفو عن مسيئتهم — لما لهم من منزلة خاصة (ما سبق ، ص ٣٧٩) ،
واستجاب القرطبيون ، الى ما قرره الأمير (المتبتل) من أن يغرم أهل قرطبة

(٧٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ — حيث النص على ان هياح قرطبة الجديد هذا ،
كان قبل سنة ٥١٣ هـ / ١١٢٠ م ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ — حيث تحديد
حملة الأمير على قرطبة فى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م ، بعد ان لم يستجيبوا الى تهديده فى
السنة السابقة (٥١٤ / ١١٢١ م ، سنة الثورة) .

للمرابطين ما نهبوه من أموالهم ، وعاد من قتالهم (٧٨) . وهنا لا ندرى ان كان يمكن المنارنة بين فتح الأمير على هذا قرطبة وفتحها الاول على عهد أمير المسلمين يوسف ، فالاختلاف واضح بين الترحيب الشعبى الأول وموقف القهر الآتى الذى يجعل من أمير المسلمين الثانى واحدا من موك الطوائف .

والمهم هنا الاشارة الى أن ثورة قرطبة هذه التى بدأت خلال سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م واستمرت الى أوائل سنة ٥١٥ هـ / مارس ١١٢١ م كانت متزامنة مع ظهور دعوة مهدى الموحدين محمد بن تومرت ، وهو التوقيت الذى يعتبر بدء اخلال الأندلس على عهد الأمير على بن يوسف ، بل وأهم أسبابه (٧٩) .

وهكذا يكون موقف المرابطين العسكرى والسياسى قد ضعف فى الأندلس على المستويين الخارجى والداخلى بحكم التداعى ، من حيث أدت نجاحات حركة الريكونكيستا الى افتقاد ثقة أهل البلاد فى قدرة حكامهم الجدد على تحقيق عملية الانقاذ الخارجى ، الأمر الذى أدى بالتالى الى التحول السلبى فى الموقف الأدبى الذى كان يؤدى الى الضعف المعنوى للجبهة الداخلية مما يمكن التعبير عنه بالانفصال الروحى بين الشعب والدولة الحاكمة .

الموقف الدينى والثقافى فى الأندلس والمغرب :

فى أوائل عهد الأمير على بن يوسف :

ويظهر أثر ذلك التحول الأدبى فى الجهة الداخلية نى كل من الأندلس والمغرب فيما طرأ على الفكر الدينى من التطور ، نتيجة طبيعية لتطور الثقافة الاسلامية التى كانت قد بلغت الذروة فى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م فى المشرق

(٧٨) ان الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ .

(٧٩) أنظر ابن القطان ، ص ٢٣ - حيث النص فى أخبار سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م : ثم هاجر الامام أرسده وحل بجبل ايجليز ومع ذلك اتصل بعلى بن يوسف أن أهل قرطبة قاءوا على الملتصين ، أنظر ابن عذارى ، ط ، بيروت ، ج ١ ص ٤٤٣ - حيث النص فى سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م ، وفيها كان حلول ابن تومرت الملتب المهدي بأغصات محرضا على الخروج على السلطان وتفريق الكلمة المنتظمة . وقارن الحلل الموشية ، ص ١٠٢ - حيث النص : وان أمير المسلمين على بن يوسف اضطربت عليه الأمور من لدن ظهور المهدي عليه وبعد هذا الكلام أعرف بالمهدى ، وبداية أمره وأعود الى اتمام دولة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين .

بظهور كبار المفكرين هناك على كل المستويات ، مثل : الفارابي والماوردي ونظام الملك في الفكر السياسي ونظم الحكم ، والفارابي والرازي وابن سينا في الفلسفة والطب ، والماوردي والغزالي والشهرستاني بعدهم ، في علوم الدين والتصوف ، الأمر الذي كانت له أصداءه في القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، في الفكر الاسباني المغربي والحضارة فيما تمثل في أعمال كل من ابن رشد وابن زهر في الفلسفة والطب أو أعمال ابن عربي وابن تومرت في الفكر السياسي والتصوف الديني أو أعمال ابن بصال وابن العوام في فلاحه الأرض والزراعة . وهي الأعمال التي تمثل نهضة الغرب الاسلامي التي بدأت بواكيرها في ذلك الوقت المتقدم من عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، والتي ستبلغ الذروة عما قريب على عهد الموحيدين الذي يعتبر استمرارا طبيعيا لتطور الحضارة المغربية الأندلسية الناشئة في كنف دولة المرابطين .

المالكية المرابطية على عهد علي بن يوسف :

ويظهر التطور الديني على عهد علي بن يوسف بن تاشفين في بلوغ المذهب المالكي الى قمة قوته بفضل مساندة الأمير « المتبتل » الذي أحاط نفسه بفقهاء المالكية ، كما وضعهم على رأس الجهاز الإداري ، حيث شغلوا مناصب القضاء وإقامة الصلاة في المساجد العظمى بالأمصار ، كما شغلوا مناصب الشورى الى جانب أمير المسلمين في مراكش ، وفي نيابة الأندلس وقواعدها الكبرى ، كما في المغرب . الى جانب ما كان لبعضهم ، من وظائف الوزارة والكتابة التي ارتقى بعضهم فيها وبلغ درجة الرشد والكمال (٨٠) .

وأهم المصادر المعتمدة للتعريف بأحوال المالكية في الأندلس على عهد علي بن يوسف وهيمنة المذهب المالكي في تلك الفترة المصيرية من تاريخ الدولة المرابطية هو كتاب ابن الأبار المعروف بمعجم أصحاب الصدفى :

(٨٠) أنظر معجم الصدفى لابن الأبار ، رقم ١٢٠ ص ١٢٣ - حيث ترجمة ابن المرخي : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز الأشبيلي ، الكاتب الجليل ، أحد المقربين من أمير قرطبة محمد بن الحاج ، والذي وصف بأنه أحد رجال الكمال بالأندلس ، رقم ١٢٥ ص ١٤٦ - حيث يوصف محمد بن أبي الحصال (ذو الوزارتين - ت ٤٥٠ هـ / ١١٤٥ م) بأنه أحد رجال الكمال ، وأنظر أيضا رقم ١٤٤ ص ٢٠٣ - حيث رسالة من أبي علي الصدفى الى صديقه صاحب الترجمة : الركني السرقسطي (عبد الله بن دري - ت ٥١٣ هـ) يخبره انه لو كان معه في بغداد أثناء رحلته الشرقية ، أذن لعرف الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك له قدره ووفاء حقه وقسطه « اذ يقل وجود مثلك وكثير حاجاتهم الى من دونك فكيف بهم لو ظفروا بك ... هو أو من كنت تتصل به من أهل الدولة العباسية » .

شيخ مرسية ، شهيد موقعة كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م (٨١) . ويظهر الاهتمام بالمذهب المالكي فى عناية أفراد الأسرة الحاكمة - اقتداء برأس الأسرة أمير المسلمين على بن يوسف . وهذا ما يتضح فى ترجمة الأمير أبى اسحق ابراهيم بن يوسف (المعروف بابن تغيثت - اسم أمه) ، أخى الأمير على الذى دخل فى زمرة تلاميذ أبى على الصدفى بحكم موقعه فى امارة مرسية . والذى استشهد معه أبو على الصدفى فى كتندة (٨٢) . والمهم أن ابن الأبار يختم ترجمة الأمير ابراهيم الذى ولى مرسية بعد أشبيلية ، مؤكدا سيادة العلم والايمان وقتئذ ، قائلا : وفى دولة أخيه (أمير المسلمين على) نفقت العلوم والآداب ، وكثر النباه ، وخصوصا الكتاب (٨٣) .

والحقيقة أنه رغم أن المشرق ظل حتى ذلك الوقت من بداية القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م منهل العلم والثقافة بالنسبة لعلماء المغرب الاسلامى ، فإن حواضر الأندلس كانت قد أصبحت مراكز علمية مرموقة بفضل أبنائها الرحالة الذين أصبح يشهد اليهم الرحال بدورهم - حتى أصبح اسم « الرحالة » يطلق على من كان لهم تجوال فى عواصم الأندلس العلمية أيضا (٨٤) .

أما عمن أخذ عنهم من مشاهير الأندلسيين من المشارقة فى ذلك

(٨١) أنظر المعجم فى أصحاب الصدفى لابن الأبار ، مدريد (مجريط) ١٨٨٥ .
(٨٢) معجم الصدفى ، ترجمة ابراهيم بن يوسف ، رقم ٤٠ ص ٥٥ - ٥٦ - حيث أرسل ابراهيم وزيره يطلب مد الصدفى أن يسمع عليه فى منزله فرحب الشيخ بذلك على أن يصل اليه بعد الفراغ من اسماع أصحابه - وان طمع فى البداية فى تشريف الأمير له مجلسه . وعن استشهاد أبى على مع الأمير ابراهيم فى كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، أنظر ترجمة رقم ٣ ص ٨ ، ٢ - ٤١ (عن كاتبة ابن قزمان) ، ص ٣٠٦ (عن سماع كبار المرابطين) .

(٨٣) معجم الصدفى ، ص ٥٦ - حيث النص على أن أبا بكر الصدفى حكى فى تاريخه أن على بن يوسف استجاز أبا عبد الله أحمد بن محمد الحولانى جميع رواياته لعلو اسناده فأجاز له ، وأضاف الى ذلك ، وأبوه (على بن يوسف) أبو يعقوب (يوسف بن تاشفين) مع نشأته فى الصحراء ، كان لا يمضى أمرا الا بمشورة الفقهاء .

(٨٤) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢٤ ص ١٤٠ - ١٤١ - حيث أبو الطاهر السرقسطى ، الاشتراكوى الذى يوصف بأنه كان رحالة فى طلب العلم ببلنسية وشاطبة وقرطبة ومرسية وغرناطة ومالطة وأشبيلية . كما ينسب اليه التضلع فى عدد من العلوم ، من : اللغات والآداب والمسلسل (من الحديث عن طريق علماء الأندلس فيما بينهم) والمقامات اللزومية والقراءة والحديث .

الوقت ، فمنهم : أبو الطاهر السلفي (الشافعي) الذي جعل من الاسكندرية واحدة من أهم مراكز علم الحديث اعتبارا من سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، وحتى وفاته في ٥ ربيع الآخر ٥٧٦ هـ / أغسطس ١١٨٠ م (٨٥) . وكان عسدد تلاميذ السلفي من الأندلسيين الذين أخذوا عنه لا يحصون كثرة ، كما كان كثير من المعاصرين للأمير علي بن يوسف بن تاشفين قد تتلمذوا عليه بطريق المراسلة (المكاتبه) ، مثل : أبي عمران بن أبي تليد ، وأبي الوليد بن رشد ، وأبي علي بن سكرة الصدفى (صاحب المعجم) (٨٦) .

وأخذ الأندلسيون بالاسكندرية أيضا عن أبي بكر الطرطوشي ، صاحب أول مدرسة مالكية بالاسكندرية (٨٧) وأبي الحسن الخلعى ، وأبي الحسن بن داود الفارسي بمصر ، وابن أبي العالم (أبي القاسم) وابن أبي الحديد (أبي عبد الله) والمقدسى (أبي الفتح نصر) ، والاسفرايينى (أبي الفرج بن سهل) بدمشق (٨٨) والبيضاوى (أبي الفتح) ، والنهاوندى

(٨٥) معجم الصدفى ، رقم ٣٦ ص ٤٨ - حيث صلى عليه أبو الطاهر بن عوف بجامع عبد الله بن عمر بن العاص ، وكان دفنه فى مقبرة وعلة (مقبرة كوم الدكة) .

(٨٦) معجم الصدفى ، رقم ٣٦ ص ٣٦ ، ٤٨ - ٥١ - حيث النص على ان السلفى قدم الاسكندرية سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م للسمع من الرازى (أبو عبد الله بن الخطاب) وفى نيته اختراق بلاد المغرب والأندلس للأخذ عن أصحاب أبي عمر بن عبد البر وغيرهم ثم العودة الى أصبهان بلده ولكنه انشغل بسمع السكندريين منه ، وبإحسانهم اليه فأقام بالشعر الى أن مات الرازى سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م وله من العمر ١٠٠ (مائة) سنة ، فخلقه فى الأسماع . وطال عمر السلفى الذى زاد شيوخه على الألف (٩) ليطول الانتفاع به . وينص ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) على أنه تتلمذ على أكثر من ٢٠ (عشرين) شيخا من تلاميذ الرازى من الأندلسيين والمشرقيين ، سمع منهم جميع رواياته وتوالياه ، ص ١٤٢ - حيث ينص محمد بن أحمد بن موسى ، من أهل مرسية على سماعه من الرازى والسلفى ، وأنه جلب الى المغرب فوائد جمة عند مقدمه من المشرق ، ص ١٧٩ - حيث كنب اليه السلفى والمازرى من المشرق ، ص ٢٤١ (عن السلفى) ، ص ٢٥٣ (عن السلفى والمازرى) .

(٨٧) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١١٦ ص ١٢٦ - حيث محمد بن ابراهيم (أبو بكر الفسائى - من أهل المرية) الذى أخذ أيضا بالاسكندرية من ابن الحضرمى الذى كان من رحالة الفقهاء المشاورين والذى ولى قضاء مرسية بعد وروده من المرية فى شعبان ٥٢٧ هـ / يونيه ١١٢٣ م الى المحرم سنة ٥٢٩ هـ / أكتوبر ١١٣٤ م ، وتوفى منكوبا فى مراكش سنة ٥٣٦ هـ / أغسطس .

(٨٨) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢١ ص ١٣٥ - حيث محمد بن يحيى (أبو المعالى : الفرس : ابن الصايغ) قاضى دمشق وخال ابن عساكر ، ص ٢٣٦ (الخلعى) .

(أبى نصر) فى مكة (٨٩) ، وابن طرخان التركى (أبى بكر) بدمشق (٩٠) .

أما عن أهم الكتب الدارجة فى حلقات هؤلاء العلماء مما كان يمثل مقررات الدراسة فى هذا الوقت من امارة على بن يوسف ، فمنها القديم المتواتر بين الأجيال ، ومنها الحديث المؤلف بمعرفة رجال العصر المحدثين . وأشهر تلك الكتب التى كان يدرسها كبار العلماء وقتئذ من أهل المشرق أو من تلاميذ الأندلس الذين عرفوا بأنهم من رجالات الأندلس ، بل ومن أصحاب الكمال منهم ، سواء بالسمع أو القراءة أو الرواية أو الكتابة أو الاجازة ، هى كتب الحديث بطبيعة الحال .

ويأتى فى المقام الأول بعد الصحاح كتب الدارقطنى (ت ببغداد ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) ، من : السنن ، والمؤتلف والمختلف ، والاستدراكات على البخارى ومسلم والتتبع والالزامات (٩١) ، وبعدها يأتى رياضة المتعلمين لأبى نعيم (٩٢) وجامع الترمذى (٩٣) ، ثم كتب أبى عمر بن عبد البر ، مثل الوسيط والتقى (٩٤) ثم مشتببه النسبة لابن عبد الغنى (٩٥) .

وأهم كتب المعاصرين ، هى : الاستدراك على أبى عمر بن عبد البر فى الصحابة ، لأبى اسحق ابراهيم بن يحيى (ابن الأمين ت ٥٤٤ هـ /

(٨٩) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢٣ ص ١٢٩ - حيث محمد بن الحسين الأنصارى (أبو عبد الله الميورقى) الذى سكن غرناطة ، والذى امتحن بالقبض عليه من ابن رجال (أبو الحكم) ، وابن العريف (أبو العباس) ، فقصده المشرق ثانية ، وأقام بمدينة بجاية برهة وحدث بها فى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م .

(٩٠) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ٢١٨ ص ٢٣٨ - حيث ترجمة عبد الرحمن بن محمد النفطى (أبو القاسم بن الصايغ) الذى خرج من دمشق الى نفطة ببلده سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م فولى الصلاة والخطبة بتوزر .

(٩١) معجم الصدفى ، ص ٨٩ (السنن) ، ص ١١٩ (المؤتلف والمختلف) ، ص ٢٩٥ (الاستدراكات والتتبع والالزامات) . وعن الدارقطنى الذى أخرج ٢٠٠ (مائتى) حديث من صحيح البخارى « ذهب الى أنها ضعيفة » ، أنظر تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ، مراجعة حسين مؤنس ، ج ٣ ص ٧٥ - ٧٦ .

(٩٢) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٧١ ، وكذلك حلية الأولياء ، ص ١٢٦ .

(٩٣) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ .

(٩٤) المعجم ، ص ١٢٨ (الوسيط) ، ٢٠٩ (التقى) .

(٩٥) المعجم ، ص ١٤٥ ، ٢٩٥ .

١١٤٩ م) (٩٦) ، وكتاب الاهتداء بمصاييح السماء لموفق المسنالي (من أهل المرية) (٩٧) . أما تواليف « المرسى » : أبو محمد عبد الله بن محمد النفزي (٤٥٣ هـ / ١١٦١ م - ربيع الثاني ٥٣٨ هـ / سبتمبر ١١٤٣ م) ، فهي : الفوايد المبسوطة وبستان المتيقن ورياض العابدين وسبيل الهدى ، الأمر الذي يؤكد اتجاهاته في الزهد والتصوف (٩٨) - الذي كان قد بلغ الغاية في هذا الوقت الموصل ما بين القرن الـ ٥ هـ والـ ٦ هـ / ١١ - ١٢ م ، حيث بدأ دمج الاسلام بطابع الطرق الصوفية - علامة التوكل والسلب : نذير الاضمحلال والضعف . أما عن أعمال الرشاطي : أبو محمد عبد الله بن علي الحافظ النابه - الأريولي ساكن المرية - ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م - ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) ، الممدود من رجالات الأندلس العلماء ، فله عدة تآليف في علم الحديث ، منها : كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار » وكتابان في نقد الحديث ، أولهما في نقد كتاب الدارقطني : « المؤتلف والمختلف وما فيه من الأوهام » ، والثاني فيه رد على القاضي ابن عطية (أبي محمد عبد الحق) في نقده لكتابه هو (أي الرشاطي) « الكبير في النسب » (٩٩) .

غريب الحديث والتسامح الديني :

ومما يثير الانتباه في معجم الصدفى هو اهتمام علماء الحديث في تلك الفترة الأولى من عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بدراسة التاريخ كعلم

(٩٦) معجم الصدفى ، ص ٤ .

(٩٧) معجم الصدفى ، ص ٢ - ١٩ - حيث سماعه من أبي علي سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وسنة ٥٠ م / ١١١٢ م بمروسة .

(٩٨) معجم الصدفى ، ترجمة ١٩٨ ص ٢١٥ .

(٩٩) معجم الصدفى ، لابن الأبار ، ترجمة رقم ٢٠٠ ص ٢١٧ وما بعدها - حيث النص على أن الرشاطي كان مشاركاً في اللغات والآداب ، ومحققاً بالآثار والأنساب ، وله كتب : « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أسماء الصحابة ورواة الآثار » ، وهو في تقدير ابن الأبار طراز جديد « لم يسبق إلى مثله » ، « الاعلام بما في كتاب المؤتلف والمختلف للدراقطني من الأوهام » ، « اظهار فساد الاعتقاد ببيان سوء الانتقاد » ، الذي رد فيه على القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية . وانتصر فيه لنفسه لما تعقب عليه مواضع من كتابه الكبير في النسب ، وعابه أشياء أوردها في تضاعيفه لم يخل فيها من تحامل وتعسف كان تركها أولى ، حسبما يقول ابن الأبار (ص ٢١٨) - وتوفي الرشاطي شهيداً في المرية عندما تغلب عليها الروم (الأسبان) صبيحة الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ٥٤٢ هـ / ١٨ أكتوبر ١١٤٦ م) .

مساعدة للحديث (١٠٠) مع اهتمام خاص بغريب الحديث (١٠١) ، حيث تنتهى تراجم كبار العلماء بما أخذ عنهم فى مسلسلاتهم التى يؤخذ فيها الحديث فيما بينهم أخذاً باليد - زيادة فى التأكيد والاطمئنان (١٠٢) .

ولا بأس أن يكون أول الغريب من الحديث فى ذلك المجتمع الذى تسود فيه السنية المالكية هو الأحاديث الشيعية ، حيث يشار فى بعض الأحيان . الى عدم صحتها لفساد اسنادها ، ويسكت عن ذلك مواضع أخرى (١٠٣) . ومما يسترعى الانتباه عناية الأندلسيين فى ذلك الوقت باستخراج الغريب من الأحاديث ذات الموضوعات الأخلاقية مما تدعو الى الفضيلة ، والتحلى

(١٠٠) انظر معجم الصدفى لابن الأبار - حيث الاشارات الى تاريخ البخارى (التاريخ الكبير) ، ص ٨٦ ، وصحيح مسلم فى التاريخ ، ص ٢٠٩ ، وتاريخ ابن خيثمة ، ص ١١٩ ، ٢٧٦ ، وتاريخ أبى بكر بن الخطيب ، ص ١٢٦ .

(١٠١) معجم الصدفى لابن الأبار - حيث غريب الحديث لأبى عبيد ، ص ١٢٨ ، ٢١٥ ، وكتاب العريبيين ، ص ٢٠٣ ، وغريب الصحيح للبخارى ، ص ٢٠٣ ، وانظر ايضا ص ٢٠٤ (ترجمة ١٨٤) لعبد الله بن درى : الركنى السرقسطى (ت ٥١٢ هـ / ١١١٩ م) الذى كان أبو على كثيراً ما يحضه على تخريج غريب الصحيح للبخارى ، اشادة بتقدمه الشهير فى الآداب واللغات ، وانظر ص ٢٠٩ - حيث الحديث المسلسل فى الأخذ باليد الذى حمله الناس وسلسلوه من حيث القوة فى الأندلس وتقييد المهمل (لأبى على الفسائى) ص ٢٠٦ وكمشكل الحديث (لابن مدرك) ص ٢١٥ ، وغرائب الحديث للخطابى ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) المسلسل من الحديث بمعنى المسند أو المأخوذ باليد بين علماء الأندلس . انظر معجم الصدفى لابن الأبار ، ص ١٤١ - حيث النص على أن الاشتراكى : محمد بن يوسف السرقسطى (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م) وهو آخر من روى عن الصدفى ، ألف المسلسل الى جانب المقامات اللزومية ، ص ٢٠٩ ، ترجمة رقم ١٩٥ (لاسى محمد عبد الله بن أيوب - الشاطبى - ت ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م) - حيث السماع بشاطبة (من الصدفى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م) الحديث المسلسل فى الأخذ باليد ، ص ٢١٠ - حيث يرى ابن الأبار أن الحديث المسلسل هو الذى ينادى أخذه مع الترحيب بالأخذ باليد تبعاً لقول الرسول ، وهو يرحب ببراءة ويأخذ بيده ، ويقول له : « لا يلقى مسلم مسلماً فيهنش به ويرحب به ويأخذ بيده الا تناثر الذنوب بينهما » كما يتناثر (ورق الشجر اليابس) ، حسبما كتبه من خط ابن أيوب ، وانظر ايضا ، ص ٢٩٧ - حيث يفهم أن المقصود بالتسلسل هو الأستاذ بين مشايخ أهل العصر الأندلسيين المعروفين قبل تسجيل المتن .

(١٠٣) انظر معجم الصدفى ، ص ١٢٥ - حيث حديث مسند عن على بن موسى الرضا . عن على بن أبى طالب ، عن النبى ، يقول فيه : « الايمان اقرار باللسان ومعرفة بالقلب . وعمل بالأركان » فرغم جودة المتن ووضع الدار قطنى بين المسندين فانه (الدار قطنى) يصفه بأنه لا يصح بسبب الاسناد ، وانظر ص ١٢٧ - حيث حديث : « ومن يبغض آل محمد يدخل النار » ، ص ٣١٧ - حيث الحديث : « النظر الى وجه على بن أبى طالب عبادة » .

بحسن الخلق ، والحلم ، والود ، والنصح ، والكرم ، والتعاون ،
والرحمة (١٠٤) ، ومما ينهى عن الرذيلة ، من : من الكسل والجبن والكراهية
والفجور والغضب والبخل والهجر (١٠٥) .

ومما خرج علماء الأندلس من غريب أحاديث الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ما يتراوح ما بين الإفراط في شدة والتفريط تساهلا ، ان لم يكن
في النص ففى التطبيق ، مثل التشدد مع قاطع الطريق ، والتساهل نوعا
ما مع شارب الخمر (١٠٦) .

(١٠٤) معجم الصدقى ، ص ١٢٢ - حيث : « خير ما أعطى العبد الخلق الحسن » ،
ص ١٤٠ - حيث « وجبت محبة الله على من أغضب فحلم » ، ص ٢٠٩ - ٢١١ - حيث :
« لا يلقي مسلم مسلما فيهبش به ، ويرحب به ، ويأخذ بيده ، الا نناثرت الذنوب بينهما »
كما يتناثر ورق الشجر اليابس ، وهنا يقول ابن الأبار ، انه حديث مسلسل كنيه من
خط ابن أيوب ، ولا بأس فى إيراد مع ذكر طائفة من رواه بالاندلس وبلادها ، وص ٢١٨ -
حيث حديث : « شرط النصح لكل مسلم » ، ص ٢٣٧ - حيث : الكرم بتقديم الهدية للأهل
حين العودة من السفر مهما قل قدرها ، ص ٢٤٧ - حيث « طعام السخي شفاء » ، ص ٢٦٢ -
حيث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، ص ٢٦٧ - حيث أول حديث
قصد به التسلسل : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى
السماء » (هكذا) .

(١٠٥) أنظر معجم الصدقى ، ص ١٢٩ - حيث النص : « اللهم انى أعوذ بك من الكسل
والهرم والجبن والبخل وفتنة الرجال ، وعذاب القبر ، وقارن ص ٢١٧ - حيث « اللهم انى
أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل (وضلع) الدين وغلبة الرجال » .
وبالمقارنة يتضح أن نص الى (فتنة ؟) ، نقصت منه كلمات (الحزن) و (العجز) ، وأضيفت
اليه - بما قد لا يتفق مع السباق - (وعذاب القبر) ، بينما نرى أن تصحح (فى النص
الثانى) « (ضلع ؟) الدين » الى ضعف الدين . وأنظر ص ١٣٦ - حيث : « المعروف
كله صدقه » ، وان آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوة : « اذا لم تستحى فاصنع
ما شئت » ، ص ٢٤٧ - حيث : « طعام البخيل داء » .

(١٠٦) أنظر معجم الصدقى ، ص ٢٤٨ - « ولا يدخل الجنة قاطع » ، بينما يظهر التساهل
فى الخمر وهى « عصارة أهل النار فى النار » (ص ٢٢١) ، - حيث يعرض حديث : « وجوب
النصح لكل مسلم ، كما ينسب الى عمر بن عبد العزيز : مطالبته رجال شرطته (من العسس)
بتطبيق حديث : « ادروا الحدود بالشبهات » بالنسبة للشيخ « السكير » ، حسن الهيئة ،
الذى ضبط أكثر من مرة متلبسا ، والذي أنزلت به ضعف عقوبة الجلد المستحقة خطأ ،
لانه كان عبدا - وذلك فى قصة هزلية انتقدها ابن عطية واعتبرها من الفكاهات أو الحكايات
الغثة ، ص ٢٢٢ . ومثل هذا يمكن أن يقال عن حديث : « انك لتنظر الى الطير فى
الجنة فتشتبهه فيخر بين يديك مشويا » . الأمر الذى جعل الصغير الذى كان يسمع بصحبة
والده أن يضيف من عنده « والقرصة » (الرغبة) حتى تكتمل الوجبة - وهو ما أثار إعجاب
لحاضرين (لحضور ذهنه) - ص ٢٨٧ .

وهنا تحسن الاشهاد بذلك الاتجاه نحو التسامح الدينى من جانب المحدثين الأندلسيين فى بعض ما استخرجوه من الغريب ، الأمر الذى يمكن أن ينسب الى البيئة الاجتماعية والأوضاع الخاصة التى تجعل من التعامل مع أصحاب الديانات الأخرى من اليهود والنصارى بالأندلس أمرا مقبولا .
والمثل العام هنا هو الحديث الذى لا يفرق بين الناس جميعا الا بأعمالهم فى حياتهم اليومية ، حيث ينسب الى النبى حديث ينص فيه على أن : « أهل الممرور فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة » (١٠٧) ، الأمر الذى يشبه آراء القدرية الذين يقولون : السعيد سعيد وهو فى بطن أمه والشقى شقى وهو فى بطن أمه - دونما تفرقة عرقية أو مذهبية . وعلى هذا النسق يأتى حديث التسامح الدينى حقيقة ، الذى يعبر عن المحبة والأخوة فى الانسانية ، دونما حقد أو ضغينة فكأنه من مبادئ حقوق الانسان الحديثة أو أزيد . ففى ذلك الحديث يقول الرسول : « ان هذه الأمة مرحومة لا عذاب عليها ، عذابها بأيديها ، فإذا كان يوم القيامة أعطى كل رجل منهم رجلا من أهل الأديان فكان فكاكه من النار » (١٠٨) .

وهكذا كون فقهاء الأندلس مدرسة حديث لا تكتفى بالنقل من مجموعات الصحيح الدارجة ، بل تجتهد فى البحث عن الجديد فى علم الحديث ، ليس على سبيل الجمع والاستقصاء فقط ، بل من أجل التصنيف النوعى أيضا ، فكان اجتهادهم فى البحث عن الغريب الذى صنف بدوره ما بين : « عال » والجمع « عوالى » ، « وما لا يصح » (١٠٩) .

وارتفع شأن مدرسة الحديث الأندلسية المالكية هذه ، وكان لها

(١٠٧) معجم الصدفى ، ص ٢٧٣ .

(١٠٨) معجم الصدفى ، ص ١٥٢ - حيث النص على انه غريب من حديث أبى بكر بن

أبى بردة ، تفرد به عروة بن عبد الله ، ولم يروه عنه بهذا الاسناد غير الأشهب .

(١٠٩) أنظر معجم الصدفى - حيث العوالى من الأحاديث الخاصة بالعبادات ، مثل

عوالى بن خيرون ، (ص ٦٧) وبكيفية أداء الصلاة ، كتلك الأحاديث التى صافح أبو على (الصدفى) فيها : الامامين البخارى ومسلم (ص ٢٠٩) . ومنه الأحاديث الآحادية السند

التي لا يعرف لها الا رواية واحدة (ص ٢٠٦) ، مثل الحديث الذى ينص على أن النبى اطعم اعرابيا لقيمات ، فقال له « انك رجل صالح » مكتفيا بتكرارها دون الدخول فى الاسلام -

وفيه يقال : « لا نعلم رواه الا حفص بن غياث » (ص ٢٠٧) ، ومنه ما كان عرضة للنقد حتى وضع فى مرتبة الفكاهات أو الحكايات الغثى (ما سبق ص ٤١٢ وه ٦) الى جانب الأحاديث

الشيعية مما سبقت الاشارة اليه (ص ٤١٠ وه ١٠٣) .

الذكر في المشرق بفضل علمائها الرحالة الذين جعلوا من أداء الحج والزيارة رحلة للعلم والثقافة ، اختصوا بها تبعاً لامكاناتهم المادية التي لم تكن تتوفر لغيرهم من أهل الأقطار الأخرى بنفس السهولة ، وهكذا لم يكن في نية الفقيه الشافعي أبي الطاهر السلفي الإقامة في الاسكندرية - التي صار شيخها الأول - عندما وصلها في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، بل للأخذ عن الرازي (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م) الذي كان يدرس هناك ، على أن يقوم بعد ذلك - كما يقول ابن الأبار - باختراق المغرب والأندلس للأخذ من علماء الأندلس من تلاميذ أبي عمر بن عبد البر (١١٠) .

اتجاهات مالكية متشددة على المستوى الرسمي :

رغم انفتاح مدرسة الحديث المالكية الأندلسية على ثقافة المشرق الإسلامي المزدهر في ذلك الوقت من نهاية القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، ممثلة في مذاهب أهل السنة والشيعة وما عاصرها من أفكار الحكماء والفلاسفة والمتصوفة ، وأخذها بطرف من كل ذلك ، الأمر الذي يعبر عن اتجاهات تسامحية تستحق الإشادة بها . ولكن الحال لم تكن دائماً على هذا المنوال ، فإلى جانب التسامح ظهرت في المقابل اتجاهات متشددة أخرى بالنسبة لأصحاب المذاهب والديانات المخالفة (١١١) ، إلى جانب أحاديث آخر مما يظهر فيما يسمى بالطب النبوي ، والتي لا بأس في السكوت عنها (١١٢) .

ويظهر التشدد بصفة خاصة على المستوى الرسمي ، لدى العاملين في الدولة على مستوى الدواوين أو حاشية الأمير ، حيث رفضت الأفكار الدينية السياسية المخالفة ، وخاصة عندما يستشعر خطرهما على أمن الدولة أو النظام العام أو سلامة الأمير . ولا يظهر ذلك في مقاومة الدولة فقط لبعض

(١١٠) معجم الصدفى ، ص ٤٩ - حيث النص على أن السلفي كان ينوى بعد رحلة الأندلس العودة إلى بلده أصبهان لولا أن شغله السكندريون بالأخذ عنه والاحسان إليه ثم جلوسه مكان الرازي بعد وفاته (وما سبق ، ص ٤٠٨ وهـ ٨٦) .

(١١١) معجم الصدفى ، ص ١٣٢ - حيث الحديث المردود في سبائيات أبي علي الصدفى ونصه : « أنا أول شفيح يوم القيامة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، أن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ما معه مصدق غير واحد » .

(١١٢) معجم الصدفى ، ص ١٩٥ - حيث حديث : « من قرأ ياسين عدلت له ٢٠ (عشرين) حجة ، ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف يقين وألف رحمة ، ونزعت منه كل غل وداء ، مع النص على أنه : غريب من خط أبي علي (الصدفى) ، وقارن الطب النبوي لابن الجوزي .

حركات المتصوفة - التي بدأت تستشرى فى أرجاء عالم الاسلام - بل وفى الشك فى مواقف المقربين من أعيان المستشارين كالفقيه القرطبي الشهير ابن رشد الجد (أبو الوليد) .

والحقيقة أنه يمكن القول ان الفتور كان قد اعتري العلاقة بين أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، ورعيته من الأندلسيين اعتباراً من السنة العاشرة لولايته وهى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م . ففى تلك السنة حسبما تنص رواية ابن عذارى ، سرت بين العامة من الناس شائعات تتنبأ بقرب نزول كوارث خطيرة بالبلاد ، أعظمها اختلال أمر الدولة بموت الأمير السلطان فى شهر رمضان (٥١٠ هـ / يناير ١١١٧ م) (١١٣) ، الأمر الذى يمكن أن يكون دعاية سوداء من بعض المدعين بالولاية أو الكرامات من أدعياء السوء .

وهنا كان على الأمير أن يواجه تلك الفرية بما يليق بها من محاولة تهدئة خواطر الناس عن طريق دعوة المسئولين ، من الحكام والقواد الى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن طريق اقامة الحق والالتزام بالعدل والبعد عن الشبهات ، مع اللاحاح على مدارة الرعية ورفع الغبن عن الناس ، واغاثة الملهوف منهم (١١٤) .

احراق كتب الغزالي : بشارة قيام مذهب التوحيد :

أما ما يعبر حقيقة عن تسلط المرابطين المذهبي ، فهو ما يؤخذ على مالكية الأندلس على عهد متبتلهم أو كاهنهم الأمير على ، الأمر الذى يمكن أن ينسحب على المالكية بعامة ، ويسمهم بالتعصب الذميم ، وهو احراق كتب الغزالي التى يقصد بها احياء علوم الدين على وجه الخصوص . وهذا الأمر الذى يمثل نوعاً من التناقض مع مسار الفكر الاسلامى الذى كان قد بلغ اندروة بفضل كبار العلماء والمفكرين من أمثال الفارابى وابن سينا والماوردي ، وكذلك الغزالي ، مما لم يكن يخفى على رحالة الأندلس من العلماء - وهو ما سوف تظهر تباشيره عما قريب ، على عهد الموحدين خلفاء

(١١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٢ .

(١١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٣ - ٦٤ - حيث نص الرسالة الموجهة الى الولاة بضرورة الالتزام بحسن السيرة والاستقامة وتهديد المخالفين منهم بالخلع .

المرابطين ، حيث يتم نضج الحضارة المغربية - الاسبانية المعبرة عن تكامل
وحدة الغرب الاسلامي .

والمهم هنا هو أن احراق كتب الامام الغزالي في الأندلس يعبر عن
المقدمات التاريخية لقيام دولة الموحدين ، بمعنى أن فترة الصراع بين
الدولتين المرابطية والموحدية ، وهي فترة « المطاولة » عند ابن خلدون ،
تمتد الى هذا الوقت المبكر من العقد الاول لولاية الأمير علي بن يوسف بن
تاشفين - حيث بدأ ظهور منظر حركة التوحيد محمد بن نومرت ، في رحلته
العلمية المشرقية التي بدأت بمراكز العلم الأندلسية قبل السفر بحرا نحو
المشرق ، على أواخر أيام الامام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) ، أشهر
أساتذة النظامية سواء في بغداد أو نيسابور ، وصاحب احياء علوم الدين
أكثر الكتب الاسلامية رقة وروحية وشفافية عند كبار علماء المسلمين ، كما
هو عند المستشرقين - رغم أصوليته الدفينة .

والحقيقة أن كتاب الاحياء هو الذي رفع من شأن الغزالي وسما به الى
درجة الحجية في الاسلام ، فهو يبين من ناحية تبحر الغزالي في معرفة
المذاهب الاسلامية المختلفة ، من مذاهب أهل السنة الخمسة (حيث يجعل
خامسها مذهب سفيان الثوري) والشيعة (التي يميل الى المعتدل منها
ويكره الباطنية) ، والمتكلمين (فلاسفة الاسلام المدافعين عنه) ثم الصوفية .
وهو من ناحية أخرى يمثل مشروع الغزالي الاصلاحى الذي يهدف الى لم
شمل الفرق الاسلامية المختلفة تحت مظلة واحدة تعيد الى الدين شبابه
وحيويته بفضل التفكير المنطقي سمة المعرفة العقلية ، والشفافية الروحية
سمة الوعي القلبي (الصوفى) ، وعن طريق التمسك بالعلم الأخرى ،
ونبذ كل ما دونه من العلم الدنيوى الذى لا يبتغى به وجه الله ، بل ارضاء
السلطين والملوك (١١٥) . كان الخلاف بين الغزالي وبين فقهاء الأندلس من

(١١٥) أنظر احياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ٢ - حيث النص على أنه سلك في
إخراج الحديث وبيان صحته أو حسنه أو ضعفه فخرجه ٠٠ وهو المقصود الأعظم عند أبناء
الآخرة ، ص ٥ - حيث النص على أن ثمره هذا العلم : طب القلوب والأرواح المتوصل به
الى حياة تدوم أبد الآباد ، ص ١٣ - حيث تفصيل علم الآخرة الذى يعتبره الغزالي فرض عين ،
ص ٢١ - حيث الاجماع على أن تقدم أبى بكر لم يكن بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية
ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشئ وقر في صدره ، كما شهد له سيد المرسلين ، فليكن حرصك
فى طلب ذلك الشئ ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ٠٠٠ ، ص ٢٢ - حيث زعماء العلم
الخمسة ، وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الخلق فى الدنيا ، ومريدا بفتوئه =

المخالفة الذين كانوا في خدمة المرابطين ، والذين كانوا يقفون مع من يصنفهم الغزالي من فقهاء العصر من طلاب الدنيا ، من : المال والجاه والسلطة ، فهم من هذا الوجه من خصوم أهل الآخرة من : الفقهاء الأوائل (١١٦) .

والى جانب اتهام فقهاء العصر بأنهم طلاب مال وسلطان وجاه ، الأمر الذى كان يثيرهم من غير شك ، فلا بأس أن كان تبهر الغزالي فى العلم ومعالجته لموضوعات شتى من الفلسفة كالكلام ونظريات الفيض الصوفية ، أو « معنى النفس والروح والقلب والعقل » (ج ٣ ص ١٢) ، الى جانب تعرضه لأمر تفصيلية غير معهودة فى عدد من المعاملات ، كما فى الحب والعشق وآداب النكاح (ج ٢ ص ١٩) ، بل وفى محاولة تأييد آرائه بغريب الحديث - كما فعل تلاميذه الروحيون من الرحالة الأندلسيين (ص ٤١٣) - حتى فى تفسير القرآن (١١٧) الذى كان يثير فقهاء المحدثين (من

= وجه الله تعالى ، ص ٤٣ - حيث العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله تعالى ، وأنظر عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم ، بغداد . ١٩٧٧ ، ج ١٢ ص ٤ - حيث القول عن الغزالي انه « وزع أوقاته على وظائف الخير ، ثم ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب » . وحيث القول عن الأحياء : انه « أجل الكتب وأعظمها حتى قيل انه لو ذهبت كتب الاسلام وبقي الأحياء لا غنى عما ذهب » ، وأنظر فتح الله خليف ، فلاسفة الاسلام (ابن سينا ، والغزالي والفخر الرازى) ، الاسكندرية بدون تاريخ ، ص ٢٦٥ - حيث موقف الغزالي من الصوفية .

(١١٦) أنظر أحياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ٣ - حيث النص على أن أدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغل منهم الزمان ٠٠٠ ولم يبق الا المتمرسون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ٠٠٠ ، ص ١٩ - ٢٠ - حيث تفسير أعراض المسلمين عن الاشتغال بالطب لانه فرض كفاية قد قام به جماعة (خصوصا أهل الذمة) ، ولأن الطب ليس يتيسر الوصول به الى تولى الأوقاف والوصايا أو حيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على أعداء هيئات هيئات ، قد أندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء ، فأنه تعالى المستعان ، واليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الفرور ، ص ٢٢ - حيث ونحن نذكر من أحوال فقهاء الاسلام ما تعلم به ما ذكرناه ليس طعنا فيهم ، بل هو طعن فيمن أشرف الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم ، وهو مخالف لم فى أعمالهم وسيرهم ، ص ٣٧ - حيث أصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبيين ، وبعد أن كانوا أعزة بالأعراض عن السلاطين أذلة بالأقبال عليهم الا من وفقه الله تعالى فى كل عصر .

(١١٧) أنظر أحياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ١٣٤ - حيث تفسير « لا تقربوا الصلاة وإنتم سكارى » ، بالقول : سكارى من كثرة الهم ، أو من حب الدنيا ، وشرح ذلك بـ « كم ممن حصل لم يشرب خمرًا وهو لا يعلم ما يقوله فى صلاته » ، ج ٢ ص ٨٦ - حيث شرح : « ومن شر غاسق إذا وقب » بأنه « قيام الذكر أو اذا دخل » ، استنادا الى ابن عباس ، « من كان المحقق فى ما يقول : بهذا حديث لا أجل له » .

الظاهرية) الأندلسيين ضد آراء « حجة الاسلام » المغاربة لهم - دون موارد . ولا شك أن غزارة علم الغزالي وجراته من حيث عدم الخشية في سبيل معرفة الحقيقة لومة لائم يمكن أن تكون مبررا كافيا لكراهية « احياء علوم الدين » - الذي يظهر في بعض المواضع وكأنه دعوة الى العودة بالاسلام الى نقائه الأول أي الى سذاجته الأولى ، دون اعتبار لسنة التطور والتجدد - ولكن ليس الى درجة الاعداء حرقا ، على ما نظن (١١٨) .

والمهم أن مجلس شورى فقهاء قرطبة انعقد في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٥ م برئاسة القاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين وقرر احراق كتاب احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ، الأمر الذي تم تنفيذه علنا فيما كان لديهم من النسخ ، وذلك في رحبة المسجد الجامع ، المواجهة للباب الغربي للجامع .

وإذا كان ابن القطان القتي يسجل قصة حرق الاحياء في خبر غريب يجمع ما بين تفصيلات المذكرات الشخصية وخيالات القصة الأسطورية يجعل وقوع الحرق بأمر من الأمير علي بن يوسف بن تاشفين في تلك السنة المبكرة من أوائل حكمه (١١٩) ، فالذي يفهم من بعض روايات ابن الأبار أن مناهضة كتاب الاحياء كانت متدرجة ، حيث بدأ القاضي ابن حمدين بمنع الرجوع الى كتاب الاحياء قبل الاقدام على حرقه (١٢٠) . هذا ، كما كان لأمر حرق

(١١٨) انظر الاحياء ، ج ٤ ص ٤١٩ - عن الموت والحساب والسرط بتفصيلاتها المذهلة ، فكانها شهادة شاهد عيان ، عن : حقيقة الموت وما يلبس الميت في القبر من الاستجواب مع استخدام الميزان في شكل مادي عجيب حسب تصور أهل أواخر القرن الـ ٥ هـ / ١٢ م . ، تماما كما الفنانون المسيحيون في نفس هذا الوقت ، في تصوير يوم الحساب على واجهات الكاتدرائيات الرومانسكية في فرنسا واسبانيا - الأمر الذي كان يثير البعض ، كما سنرى عند ابن تومرت .

(١١٩) انظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٤ ، ١٥ وهـ ٢ ، ٣ - حيث أخذت نسختي ميمون بن ياسين (أبو عمر اللمتوني) الذي سكن المرية وعنى بجمع الكتب ، وكانت له رحلة حج (ت ٣٥٠ هـ / ١١٣٥ م) ، وابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله المافري الاشبيلي) (٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م - ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) الذي كانت له رحلة سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م أخذ فيها عن الطرطوشي بمصر ، والغزالي ، وعاد سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م الى الأندلس والمغرب حيث دفن بفاس .

(١٢٠) انظر معجم الصدفى ، ص ٢٣٢ - حيث ترجمة أبي الحسن عبد الرحمن بن أحمد ابن طاهر (من أهل مرسية) - حيث النص على انه لما جاورهم هذا الشيخ الذي زخر علمه لجة ، وجعل ابن حمدين تركه الأخذ عن أبي حامد حجة الاسلام ، قد قدروا قدره فأكبروه مكانه - وعمرؤا ازدحاما عليه وابتدروا (واستدارا) اليه زمانه وتنافس فيه أولو احسابهم ... الأمر الذي يعنى ان ابن حمدين بدأ بترك الأخذ عن الغزالي (قبل تقرير حرفة الاحياء) .

الاحياء معارضة قوية ، وخاصة من أولئك الذين جلبوه معهم من المشرق ،
أو الذين درسوا على أيديهم في الأندلس ، مثل : الفقيه أبي الحسن علي بن
محمد البرجي (ت ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م) الذي كان يرى انزال عقوبتي التأديب
والغرامة المالية بمن أحرق كتب الغزالي (١٢١) .

وهكذا تكون السلطة المراكشية ممثلة في شخص أمير المسلمين علي بن
يوسف بن تاشفين قد استجابت لمطالب فقهاء الأندلس ، وعن هذا الطريق
انتشرت عملية الرقابة الدينية في شكل محكمة تفتيش قرطبية نشرت ظلالها
القائمة على أهل البلاد ، ولم تفرق في بحثها الباطني عما يدور في القلوب
والنفوس أو العقول ما بين المسلمين ، بل والمعاهدين ، الأمر الذي استمر
ثم استشرى على عهد تاشفين بن علي مع ازدياد خطر الدعوة الموحدية التي
ارتبطت بفكر الغزالي .

وعن هذا الطريق كان الأمير تاشفين الذي كانت له نيابة الأندلس
سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م قبل أن تؤول اليه الامارة سنة ٥٣٧ هـ /
١١٤٢ م (١٢٢) يصدر الأوامر في السنة التالية ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م الى الولاة
والفقهاء ، مثل : يحيى بن علي بن الحجاج أمير بلنسية ، وكذلك قاضيها
أبي محمد بن جحاف ، يأمرهم بالبحث عن كتب البدع ، وعلى الأخص كتب
الغزالي التي يجب استئصالها بالحرق المتتابع (١٢٣) .

(١٢١) انظر معجم الصدفى ، رقم ٢٥٣ ص ٢٧١ - ٢٧٢ - حيث ترجمة البرجي الذي
« أوجب في كتب أبي حامد الغزالي حين أحرقها أبو عبد الله بن حمدين بأمر تاشفين (هكذا)
تأديب محرقها وتضمينه قيمتها لأنها مال مسلم (وعندما) قيل له أكتب بما قلته من خط
يدك ، قال : « سبحان الله ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . وفعلت كتب البرجي
فتياه هذه ووافقه عليها عدد من فقهاء المرية ومشايخها الذين وقعوها بخطوطهم ، ومنهم القاضي
أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك ، الأمر الذي غاظ ابن حمدين فكتب الى القاضي الزاهد
الذي قبل العزل راضيا .

(١٢٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ - حيث النص على عظم شأن علي بن يوسف وأنه
« قد لابنه تاشفين على غرب الأندلس ، وأنزله قرطبة واشبيلية ، وأنه عقد في نفس الوقت
لأبي بكر بن ابراهيم المسوفى على شرق الأندلس ، بينما عقد لابن غانية على الجزائر الشرقية :
دانية وميورقة - واستقامت أيامه » .

(١٢٣) انظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٦ - حيث النص (تحت أحداث سنة
٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م) على توالى الاحراق على ما اشترى منه (الاحياء) في المغرب ، وقارن
« بن عذارى ، ج ٤ ص ٥٩ - حيث رواية ابن القطان التي تنص على أن الاحراق كان بأمر
علي بن يوسف الذي وجه الى جميع بلاده يأمر باحراقه » . وانظر هـ ١ - حيث الإشارة الى رسالة =

ولا ندرى ان كان يمكن أن يذكر الى جانب أعمال التفتيش عن كتابه الاحياء منذ العقد الأول من ولاية الأمير علي بن يوسف ، ما حدث في أواخر العقد الثاني من ولايته ، مما شارك فيه (بعد ابن حمدين) ، قاضى قرطبة الشهير أبو الوليد بن رشد (المعروف بابن رشد الجد) في أواخر أيامه ، من الفتوى بتغريب جماعات المعاهدين من نصارى غرناطة واعماها وتغريمهم بحجة تورطهم فيما قام به ابن ردمير الطاغية (الفونس السابع) الذى حل محل الفونس السادس فى تحدى المرابطين واكتساح الأراضى الإسلامية فى أواخر سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م وأوائل سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م . فلقد تجشم ابن رشد مشقة الرحلة من قرطبة الى مراكش حيث التقى بالأمير علي بن يوسف الذى قبل فتواه ، وأصدر أوامره بإجلاء معاهدى الأندلس عن أوطانهم الى العدو المغربية . وفعلوا تم نفي عدد كبير منهم الى المغرب حيث تعرضوا أثناء المسيرة التى بدأت فى شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ / أكتوبر ١١٢٥ م ، لكثير من أعمال النهب والسلب والتدمير (١٢٤) . الأمر الذى يضع علامة استفهام أمام ما يعزى الى المجتمع الإسلامى من أعمال إنسانية فى أمور التسامح مع الأقليات العرقية والدينية ، مما لا يعرف له نظير لدى المجتمعات الأخرى الا فى اعلانات حقوق الانسان التى نعيشها الآن .

والمهم أن الفقيه المالكي الكبير (ابن رشد) لم يقصر فتواه على نقض المستعربين الأندلسيين للعهد ، بل كانت له تنبيهاته الخاصة بالاجراءات العسكرية الكفيلة بالوقوف أمام الخطر الموحى فى المغرب . فلقد نصح الأمير علي بن يوسف باتخاذ أساليب الدفاع المعروفة فى الأندلس ، من الأسوار والبوابات الحصينة للعاصمة مراكش . والأمر الذى يلفت النظر هو أن تلك الأساليب الدفاعية المستوحاة من الأندلس تقرر تعزيزها هناك أيضا حيث عرفت عملية التحصين فى الأندلس بالتعتيب ، وإن وقع عبثه.

= الأمير تاشفين (بن علي أمير المسلمين) الى ابن الحاج وابن جحاف فى سنة ٥٢٨ هـ / ١١٤٣ م (١) ،
والتي ينص فيها على البحث عن كتب البدعة وخاصة كتب الغزالي ، وتتبع أثرها وقطع خبرها
بالحرق المتتابع . وانظر عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، ج ١٢ ص ٤ - حيث النص على انه
عندما دخل الاحياء المغرب أنكروا ما فيه وصنفوا عليه : « الاملاء فى الرد على الاحياء » ،
ص ٥ - حيث القول : « وأنكروا عليه (الغزالي) ما فيه من الأحاديث التى لم تصح » ، مع
التعليق بالقول : « ومثل هذا يجوز الترغيب والترهيب ، والكتاب فى غاية النفاسة .

هناك على أهل كل مدينة أو حصن ، الأمر الذى كان يمثل عبئا ماليا جديدا تنوء به مقدرة أهل البلاد فى تلك الظروف الصعبة التى كانت تتعرض فيها البلاد لاجتياحات العدو (١٢٥) .

والمهم فى النهاية هو أن محاولة استئصال أحياء علوم الدين ، أهم أعمال الغزالي ، وأحد دواوين الفكر الإسلامى فى عصر نهضته فى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، كان علامة مميزة فى طريق الدولة المرابطية نحو الأضمحلال . فالحقيقة أن هناك نوعا من الربط بين إحراق كتاب الأحياء وبين قيام حركة التوحيد التى قامت عليها دولة الموحدين خلفاء المرابطين فى المغرب والأندلس . وفى ذلك تريد الرواية الموحدية - رمزا أن لم يكن واقعا - أن يكون الامام الغزالي قد « أجاز » تلميذه محمد بن تومرت ، الفقيه السوسى (قبل سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م - تاريخ وفاة الغزالي) فى الشار لذلك العمل الهمجى الذى قامت به دولة لمتونة المرابطية ضد مشروع تجديد الاسلام الذى كان يعده الامام ، فكانت تلك الاجازة بمثابة المحرك لقيام ابن تومرت بحركة التوحيد . وبذلك يرتفع عبء العمل الحضارى فى كل من المغرب والأندلس ، عن كاهل أهل الصحراء الملتئمين ليقع على عاتق أهل السوس الجبليين اعتبارا من مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، مما يكون موضوعا للجزء الخامس من الكتاب ، ان شاء الله .

(١٢٥) ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٩٧ - ٩٨ (عن ابن رشد) ص ٩٠ (عن تسوير مراكش) والعتبة وجمعها أعتاب تعنى أسفل مدخل الباب وأعله ، والتعتيب تعنى التثقيب المعقود . والمتستعب هو المسكن المسجل الذى يخضع للضريبة (كما فى حالة التحصينات الأندلسية هنا) - انظر دوزى ملحق القواميس العربية ، ج ٢ ص ٩٣ .



خريطة رقم ١٧ - المواقع التاريخية ومحطات الطرق التجارية
عبر الصحراء الافريقية

فهرس المصادر والمراجع المذكورة فى الهوامش

- ابن الآبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :
 - كتاب الحلة السراء فى ٢ ج ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، ١٩٦٣ .
 - أصحاب الصدفى ، مجريط (مدررو) ، ١٨٨٥ .
- ابراهيم بن محمد الساسى العوامر :
 - الصروف فى تاريخ الصحراء وسوف ، تونس ، ١٩٧٧ .
- ابن الأثير :
 - الكامل فى التاريخ (ج ٩ ، ج ١٠) ، الطبعة الأوروبية ، فى ١٣ ج .
- أحمد ابو زيد :
 - المجتمعات الصحراوية فى : مصر شمال سيناء • دراسة اثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعية ، القاهرة ١٩٩١ .
- أحمد فكرى :
 - المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ .
- أحمد مختار العبادى :
 - الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ،
 - مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية العدد ٢١ ، سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .
 - دراسات فى تاريخ المغرب ، ١٩٦٨ .
- الادريسى :
 - المغرب العربى - من كتاب نزهة المشتاق • حققه ونقله الى الفرنسية، محمد حاج صادق ، ط ١٩٨٣ .

- الاستبصار (كتاب) :

- وصف مكة والمدينة ومصر والمغرب والسودان في القرن ٦ هـ / ١٢ م .
تحقيق المؤلف ، نشر جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٨ .

- اسماعيل العربي :

- الصحراء الكبرى وشواطئها ، الجزائر ، ١٩٨٣ .

- الاصطخرى :

- المسالك والممالك ، القاهرة ، ١٩٦١ .

- اطلس التاريخ الافريقى :

- تأليف كولن ماكيفيدى ، ترجمة مختار السويفى ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

- اطلس مصر والعالم :

- جيوبرجكتس ، انجلترا ، ط ١٠ ، ١٩٨٧ .

- امين توفيق طيبى :

- تأثير الاسلام فى غانا ومالى فى العصور الوسطى (قرن ١٠ - ١١ م) ،
بحث بالانجليزية فى مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ،
صيف ١٩٨٤ .

AMIN TAWFIQ TIBI, The impact of Islam on Medieval Ghana and Mali (10-14th C.)

Arab Journal for Humanities, Kuwait University, 1984.

- بدرى محمد فهد :

- العمامة ، بحث منشور فى ١٩٦٨ .

- ابن بسام (ابو الحسن الششترينى - ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) :

- الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، كتاب فى ٤ اقسام ، فى ٧ مجلدات
بمعدل مجلدين للأقسام الثلاثة الاولى وواحد للآخر ، تحقيق احسان
عباس ، بيروت ١٩٧٩ .

- ابن بشكوال :

كتاب الصلة ، فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم
وأدبائهم ، ٢ ج ، ط ، مجريط (مدريد) ، ١٨٨٢ .

- ابن بطوطة :

الرحلة ، تحقيق على الكتانى ، ٢ ج .

- البكرى :

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر دسلان ، مع تعريف
بالبكرى بالفرنسية وبالكتاب الذى يعنون ب : وصف أفريقيا الشمالية
(Description de l'Afrique Septentrionale) ، الجزائر ، ١٨٥٧ .

- هـ . تراس وباسيه (H. Terrasse et Basset) :

بيوت عبادة وقلاع موحدية ، دراسة فى مجلة هسبيرس ، عدد
١٩٢٤ ، ١٩٢٥ تحت عنوان :

Sanctuaires et Fortersess Almohades, 1926.

- الجاحظ :

رسالة مناقب الترك ، فى رسائل الجاحظ ، نشر عبد السلام هارون .

- جروسيه (رينيه) :

امبراطورية السهوب ، باريس ، ١٩٣٩ .
R. Grousset, l'Empire des Steppes, Paris, 1939.

- الجزنائى (أبو الحسن على) :

كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشر الفراد بيل ، الجزائر
١٩٢٢ .

- جمال الدين الشيال :

أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، مصر - دار المعارف ، ١٩٦٥ .

- جوتييه :

- ماضى شمال افريقية ، بالفرنسية ، ١٩٤٢ .
E.F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1942.
- الصحراء ، بالفرنسية ، بايو ، باريس ، ١٩٤٦ .
E.F. Gautier, Le Sahara, Payot, Paris, 1946.

- جودة حسنين :

- وحسن أبو العيون ، سطح هذا الكوكب ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- جوليان (ش . أ .) :

- تاريخ أفريقيا الشمالية بالفرنسية ، باريس ، ١٩٣١ .
Ch-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie — Algerie — Maroc, Payot, Paris, 1931.
- والترجمة العربية تحت عنوان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ج ٢ (من الفتح الاسلامى الى سنة ١٨٣٠) • تعريب : محمد مزالى ، البشير بن سلامة .

- الحبيب الجنحاني :

- المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق ٣ - ٤ هـ / ٩ - ١٠ م) ، الجزائر ، ١٩٧٨ .

- حتى (فيليب) :

- تاريخ العرب المطول ، ج ٢ ، ١٩٦٥ .
- حسن أبو العيون ، أنظر جودة حسنين .

- حسن أحمد محمود :

- قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ ، ج ٦ ، القاهرة ١٩٦٥ .

- **حسين مؤنس :**
 - الثغر الأعلى في عصر المرابطين
- **الخلل الموشية لمجهول ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .**
- **ابن حوقل :**
 - صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ
- **ابن الخطيب :**
 - أعمال الأعمال ، نشر بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦
- **ابن خلدون :**
 - العبر ، ج ٦ (بيروت ، مصور عن بولاق) ، ١٩٧١
 - ترجمة دسلان (De slone) تحت عنوان : تاريخ البربر (Hist. des Berbères) بالفرنسية ، ١٩٢٧
 - المقدمة ، ط التجارية ، القاهرة ، بدون تاريخ
- **ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ .**
- **دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال Lexicon Universal**
 - أفريقيا (Africa) والساحل (Steppes) ، نيويورك ، ١٩٧٥
- **درش (جان) :**
 - أصل تاريخ التسميات في جبال أطلس العليا ، مجلة الدراسات الإسلامية ، بالفرنسية ، كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩
 - Contribution a une étude de la Toponymie de Haut Atlas, Adrar Deren, d'après les cartes de Jean Dresch, Revue des Etudes Islamiques, 1939 — Cahier 3-4, P. 201-312.
- **دوذي Dozy :**
 - ملحق القواميس العربية بالفرنسية ، لندن ، ١٩٦٧
 - تاريخ المسلمين في اسبانيا ، ج ٣ ، بالفرنسية

- **ديفردان** G. Deverdun :
 - مراکش (المدينة) ، بالفرنسية ، الرباط ، ١٩٥٩ .
- **ديلافوس** :
 - الزنوج ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٢٧ .
 - Delafosse (Maurise), Les Nègres, Reider, Paris, 1927.
- **ابن رسته** :
 - العلق النفيس ، ليدن ، ١٨٩١ .
- **زامباور** :
 - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة واخراج زكى محمد حسن ، ١٩٥١ .
- **ابن أبى ذرع** :
 - الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، ١٩٧٣ .
- **سالم ، السيد عبد العزيز** :
 - تاريخ المغرب الاسلامى .
- **سالم ، سحر السيد عبد العزيز** :
 - مدينة قادس (بالأندلس) ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ .
- **سعد زغلول عبد الحميد** :
 - تاريخ المغرب العربى ،
 - ج ١ (فتح المغرب) - ج ٢ (الأغالبة الرستمبول الأدارسة) - ج ٣ (الفاطميون والزيريون) .
 - الماوردى بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ، الاسكندرية ، ١٩٧٠ .
 - الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد ١٠ ، العدد ٢ ، ١٩٧٩ .

الترك والمجتمعات التركية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ،
عدد ١٩٥٦ .

ـ سيليريه (جان) :

مراكش (مجموعة الاتحاد الفرنسي) بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٨ .
Jean Célérier, Maroc, Paris, 1948.

ـ ابن شاعر الكتبي :

عيون التواريخ ج ١٢ ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم ،
بغداد ، ١٩٧٧ .

ـ شعيرة ، محمد عبد الهادي :

المرابطون : تاريخهم السياسي (٤٣٠ هـ - ٥٣٩ هـ) ، القاهرة ،
١٩٦٩ .

ـ عبد اللطيف البغدادي :

كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المماينة بأرض
مصر ، لندن ، ١٨٠٠ .

ـ عبد الله كنون :

عبد الله بن ياسين ، مجلة الثقافة المغربية ، العدد ٤ ، ابريل ١٩٧١ .
أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ - يناير - فبراير ،
١٩٧٠ .

ـ عبد المنعم الحميري :

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ، جمع سنة ١٨٦٦ هـ / ١٩٦١ م ،
نشر وتصحيح بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

ـ ابن عذارى المراكشي :

البيان المغرب في أخبار المغرب ، ٤ مج ، نشر احسان عباس ، بيروت .

- عصمت دندش :

دور المرابطين في غرب أفريقيا ، ١٩٧٤ م .

- علال الفاسي :

التصوف الاسلامي في المغرب ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ يناير ١٩٧٠ .

- العمري (ابن فضل الله) - ت ٧٤٩ هـ / بداية ١٣٩٤ م .

مسالك الابصار - القسم الخاص بشمال افريقية ، ترجمة ج . ديمومبين ، G. Demombynes ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٢٧ م .

- العمري :

مسالك الابصار ، نشر أبو ضيف .

- عياض (القاضي) :

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك (المدارك) ، تحقيق ابن تاويت الطنجي ، الرباط (١ - ٣ ج الأولى - مكتبة د . سالم) + نسخة ثانية ، ط بيروت ، الجزء الرابع .

- بنو عيد :

التاريخ الصغير لبنى عيد ، ترجمة فرنسية مع دراسة ، مجلة الدراسات الاسلامية ، ١٩٣٧ (كراسة ١) .

- ابن الفرضي :

تاريخ علماء الأندلس ، ٢ ج ، ط مجريط (مدريد) ١٨٩٠ م .

- الغزالي :

احياء علوم الدين ، ٤ ج ، ط . محمد صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- فتح الله خليف :

فلاسفة الاسلام (انظر الغزالي) ، الاسكندرية ، بدون تاريخ .

— فيدج :

مقدمة في تاريخ غرب أفريقيا ، بالانجليزية ، كامبريدج ، ١٩٦٢ .

— ابن القاضي (أحمد المكناسي) :

جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، ٢ قسم ،
الرباط ، ١٩٧٣ .

— ابن القطان :

نظم الحمان ، تحقيق محمود علي مكي ، الرباط .

— القلقشندي :

صبح الأعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ،
في ١٤ ج ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

كولي (Cooley) ، تاريخ وجغرافية أفريقيا في العصر الوسيط ،
بالانجليزية ، ط ١٩٦٦ .

كولين ماكيفيدي ، أنظر أطلس .

— لارنود (مارسل) :

الجزائر (مجموعة الاتحاد الفرنسي) ، بالفرنسية ، باريس ١٩٥٠ .
Marcel Larnaud, Algerie, Paris, 1950.

— لشار :

سجل ماسة : المدينة وعلاقاتها التجارية في القرن الحادي عشر عند
البكري .

J.M. Lessard, Sijilmasa : La ville et ses relations commerciales au
XIe siecle d'après El-Bakri. • مجلة هسبيريس (Hespéris) ١٩٦٩ .

— أ . و . لين E.W. Lane :

عادات وتقاليد المصريين المحدثين Manners and Customs of the
Modern Egyptians ، انجلترا ، ١٩٥٤ .

— ليون الافريقي :

الحسن الوزان ، وصف افريقيهما ، ترجمة عن الفرنسية بمعرفة
عبد الرحمن حميلة ، السعودية .

- ج. مارسيه G. Marçais :
المجمل فى الفن الاسلامى
Mannuel d'Art Musulman
٢ ج ، بالفرنسية ، ١٩٢٦ .
شمال افريقيا والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط ، بالفرنسية .
والترجمة العربية بمعرفة م. هيكل ، تحت عنوان : بلاد المغرب
وعلاقتها بالمشرق فى العصور الوسطى .
- الماوردى :
أدب الدنيا والدين ، ط . القسطنطينية ، ١٢٩٩ هـ .
- محمد توفيق بلبع :
نشأة الرباط وتطوره ، مطبوعات جمعية الآثار بالاسيكتدرية ، ١٩٦٨ .
- محمد سعيد القشاط :
التوارق : عرب الصحراء الكبرى ، ليبيا ، ١٩٨٩ .
- محمد بن شاكر الكتبى :
عيون التواريخ ، ج ١٢ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ،
العراق ، ١٩٧٧ .
- محمد عبد الله عنان :
عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول : عصر
المرابطين (وبداية الموحدين) ، ط . القاهرة ١٩٦٤ .
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ١٩٦٩ .
- محمد الميلى :
تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ .
- مذكرات الأمير عبد الله (كتاب التبيان) :
نشر وتحقيق بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

- مرميسى (فاطمة) Mermissi :
جنس ، فكر ، اسلام (مجموعة المرأة والمجتمع) ، ترجمة فرنسية من
الامريكية .
- المسعودى :
مروج الذهب ، ٤ ج ، ط . بيروت .
- ابن منظور :
لسان العرب ، ط . بيروت ، ١٥ ج .
- مولار (جاك ريشار) :
افريقيا الغربية الفرنسية ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٩ .
Jacque Richard — Molard, Afrique Occidentale Francaise, Paris, 1949.
- نبيلة حسن محمد :
انتشار الاسلام فى غرب أفريقيا (ق ٣ - ٩ هـ / ٩ - ١١ م) رسالة.
ماجستير ، مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧١ .
- النويرى (احمد بن الوهاب - ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :
الجزء ٢٢ من مخطوط موسوعة نهاية الأرب (دار الكتب المصرية
بالقاهرة) ، تحقيق مصطفى أبو ضيف ، تحت عنوان : تاريخ الغرب
الاسلامى فى العصر الوسيط (٢٧ - ٧١٩ هـ / ٦٤٩ - ١٣١٩ م) ،
الدار البيضاء .
- نسخة ثانية بتحقيق حسين نصار ، ومراجعة عبد العزيز الأهوانى -
وهى الجزء ٢٤ من موسوعة النويرى (نشر دار الكتب المصرية) ،
١٩٨٣ .
- هاينز D.E.L. Haynes :
طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، طرابلس ، ليبيا ، بدون
تاريخ .

- هوباك (بير) :

- تونس (مجموعة الاتحاد الفرنسي) ، باريس ، ١٩٤٨ .
Pierre Hubac, Tunisie, Paris, 1948.

- والطن كنيث :

- الأراضي الجافة ، ترجمة على عبد الوهاب شاهين ، مصر ، ١٩٧٢ .

- قازان (وليم) :

- المسكوكات الاسلامية ، مجموعة خاصة ، بيروت ١٩٨٤ .

- عبد الواحد المراكشي :

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان
ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

- اليعقوبي :

- كتاب البلدان ، لندن ١٨٩١ .

- يوسف اشياخ :

- المرابطون والموحدون ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ١٩٤١ .

- يوسف بن حواله :

- بنو عباد في اشبيلية - دراسة سياسية وخطابية ، ١٩٨٩ .

أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

| (١) | - ابن أزرقي (الكاتب) |
|------------------------------------|---------------------------------|
| - الأباضية | ٣٥ |
| ١٢٣ | - أحمد بن هود (المستعين) |
| - إبراهيم بن أحمد (القاضي بسبته) | ٣٦٥ |
| ٣٧١ | - الأدفوي |
| - إبراهيم بن اسحق اللمتوني | ١٤٦ - ١٤٧ |
| ٣٤٤ | - ابن أدهم (عبد الله بن محمد) |
| - إبراهيم بن أبي بكر بن عمر | ٢٩٥ |
| ٢٦٦ | - الأسبان (الروم) |
| - إبراهيم بن تاشفين بن علي | ٤١ - ٣٠٢ - ٣١١ - ٣١٨ - |
| ٣١ | ٣٥٠ |
| - إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم | - اسحاق بن ينتيان |
| ١١٣ | - اسحق بن يعقوب المنصور |
| - إبراهيم بن يوسف بن تاشفين | (الموحدى) |
| ٤٠٧ | ٤٠ |
| - ابن الأثير | - الاسكندرية (أهل) |
| ٢٩ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - | ١٣٢ - ١٤٩ - ١٥٧ - ٤٠٣ - |
| ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٩٦ - | - الأغزاز (الغز) |
| ٢٠٦ - ٢١٣ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - | ٢٥٦ |
| ٢٧٣ - ٢٩٤ - ٣١٧ - ٣٤٥ - | - ابن افرانك (الجذامى) |
| ٣٥٢ | ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٩ - ١٥١ - |
| - الأثيوبون (الأحباش) | ١٥٣ |
| ٤٦ - ١٠١ - ١٠٢ - | - ابن الأفطس |
| - الآجرى (أبو بكر) | ٢٨٩ - ٣٤٠ |
| ١٤١ | - الأقماط (الكونتات) |
| - الأدارسة | ٣٨٧ - ٤٠٢ |
| ٣١ - ١٠٥ - ١٣٤ - ١٣٥ - | - البرهانس |
| - الأدريسى | ٣٠٤ - ٣٠٩ - ٣٤٤ - ٣٨٧ - |
| ٢٨ - ١٠٤ - ١٢٨ - ١٣٦ - | ٣٩٦ |

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤١٥ | الفنت (ولى عهد) |
| أمر المؤمنين العباسي | ٣٨٦ |
| ٣٧٢ | الفونس ٦ (السادس) |
| أمينوكال (الأمير) | ٢٩ - ٣٢ - ٣٣ - ٢٨٦ - ٢٨٧ |
| ١٢١ | ٢٨٨ - ٢٩٢ - ٢٩٤ - ٢٩٦ |
| الأندلسيون (أهل الأندلس) | ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ |
| ٣٣ - ٣٥ - ١٤٢ - ١٤٤ | ٣٠٤ - ٣٠٩ - ٣١٢ - ٣١٩ |
| ١٤٨ - ١٥٢ (طلاب) - ٢١٨ | ٣٢٤ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ |
| ٢٨٦ - ٢٩٤ - ٢٩٦ - ٢٩٩ | ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٧ - ٣٤٠ |
| ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١٢ | ٣٤٣ - ٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥٥ |
| ٣١٩ - ٣٢٥ - ٣٨٤ | ٣٦٠ - ٣٦٢ - ٣٦٧ - ٣٦٨ |
| (ب) | ٣٦٩ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ |
| أبو الوليد الباجي | ٣٩٣ - ٣٩٤ |
| ٣١٣ | الفونس (المحارب بن رديم) |
| البافلاتي (أبو بكر) | ٣٩٣ - ٣٩٤ |
| ١٦١ | الأمويون |
| البجاء | ٤٤ - ١٣٩ - ١٤٥ (الأموي) |
| ١٢٣ - ١٢٦ | أمر المسلمين (وناصر الدين) |
| البجليون | لقب يوسف بن تاشفين (|
| ١٣٥ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ | ٣٤ - ٢٨٦ - ٣١٤ - ٣١٥ |
| بربر الصحراء | ٣١٦ - ٣٢٠ - ٣٢٢ - ٣٢٣ |
| ٢٦ - ٢٨ - ٣٢ - ٦٩ - ٧٠ | ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ |
| ٧٤ - ٧٥ - ٧٨ - ١٠١ - ١٠٢ | ٣٢٩ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ |
| ١٠٦ - ١٠٧ - ١١٦ - ١١٩ | ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ |
| ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٨ | ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٥٢ |
| ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٧ - ١٧٢ | ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٨ |
| ٢٥٢ - ٢٧٩ | ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٧ |
| برغواطية | ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٢ |
| ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ | علي بن يوسف بن تاشفين |
| ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٥ | أمر المسلمين ، الأمير |
| ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ | ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ |
| ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٨ - ٢٨١ | ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٨ - ٣٩٠ |
| ٣٢٥ | ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٥ - ٣٩٦ |

- بروفنسال ٣٠ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٧
٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٧ - ٢١٣ -
٢١٦ - ٢١٨ - ٢٢٠ - ٢٢٦ -
٢٣٣ - ٢٣٦ - ٣١٥ -
- ابن بسام (الشمتري) ٣٥ - ٣٧ - ٣٨ - ٢٩٢
- ابن بشكوال ١٦٠
- بطى بن اسماعيل ٢٧٥ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤
- أبو بكر بن ابراهيم اللمتوني ٣٥٧
- أبو بكر بن ابراهيم (بن تيفلويت) ٣٨٠
- أبو بكر الطرطوشي ٤٠٨
- أبو بكر بن عمر ٣٠ - ٣٣ - ٣٤ - ١٢٦ - ١٩٦
١٩٧ - ٢٠٠ - ٢٠٩ - ٢١٠ -
٢١١ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ -
٢٢٩ - ٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٤ -
٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ -
٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ -
٢٤٣ - ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -
٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٥ - ٢٥٦ -
٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ -
٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٩ -
٢٧٠ - ٣١٤ -
- أبوبكر: سير بن يوسف بن تاشفين ٣٠٣
- البكرى ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٣١ - ٣٢ -
٣٣ - ٦٢ - ٧٠ - ٩٦ - ١١٢ -
١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٧ - ١٨٩ -
٣٣٦ - ٣٣١ -
- تميم بن بلقين
- تاشفين بن علي بن يوسف ٣١
- التبو ١٢٣ - ١٠٥
- الترك (الأتراك) ٢٦ - ٤٣ - ٧٥ - ١٢٤
١٢٦
- ترکان خاتون ١٢٦
- تکرور (شعب) ١١٩ - ١٢٩ - ١٨٨ - ٢٧٠
- تلکاکون (تلجاجون) ١١٠ - ١١١
- ابن التمار ١٤٦ - ١٤٩
- تميم بن بلقين ٣٣٦ - ٣٣١

- تميم بن يلتان ١١١ - ١١٢ - ١١٧
- تميم بن يوسف بن تاشفين (أبو الطاهر) ٢٨٠ - ٣٦٤ - ٣٦٩ - ٣٨٠
- ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦
- ٣٩٥
- تميم بن معنصر ٢٥٧
- التوابون ١٩٠
- تونكا (الأمير) ١١٨
- تيزكى (أم صنهاجة) ١٢٠
- ابن تيفاوت ١١٢
- تيلوتان ١١٠
- تينبروتان (تنبروتان) ١١٢ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢١
- تينزو ابن وانشق ٣٢
- تين يازامارن (أم ابن ياسين) ١٧٤
- (ج)
- جالينوس ١٢٣
- ابن جحاف ٣٠ - ٣١ - ٣٥٦ - ٣٥٨ - ٣٦٠
- جدالة (كدالة) ٦٣ - ٦٩ - ٧٠ - ٩٤ - ١٠٧
- ابن جرج « أبو المطرف
- عبد الرحمن (١٥١ - ١٥٤ - ١٥٥
- ١٠٨ - ١١٩ - ١٦٥ - ١٦٧ -
- ١٦٨ - ١٧٤ - ١٧٦ - ١٧٧ -
- ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٥ - ١٨٧ -
- ١٨٨ - ١٩٤ - ١٩٥ - ٢٠٣ -
- ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٤ -
- ٢٤٩
- الجرمنتيون ١١٦
- جزولة (كزولة) ٢٣١
- ١٣٧ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٢١٣ -
- جعفر بن الحسن ١٤٥
- جنكيز خان ٣٩
- ابن جهضم (أبو الحسن) ١٤٢ - ١٤٣
- ابن جهور (المرشاني) ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤
- جهور بن محمد بن جهور (أبو الحزم) ٣٧ - ٤١
- الجوهر (بن سكم) ١٦٦ - ١٧٠ - ١٨٢
- الجوهرى ١٤٦ - ١٤٨
- الجنويون ٤٠١
- جودفروا - ديمومبين ٢٤٤
- جوتيه

- ٢٨ - ٣١ - الحماديون -
 ٤٤ - ٦٨ -
 - ابن حمدين (القاضي) ٣٣٧
 ٣٨٩ - الجيلي (أبو القاسم) ١٤٥
 - الحميدى (مؤرخ الأندلس) ٤٠
 - الحميرى (عبد المنعم) (ح) ٤١
 - ابن الحاج (أبو عبد الله محمد) ٣٣٧ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ -
 - ابن حوشب ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ -
 - ابن حوقل ٣٦٤ - ٣٦٧ - ٣٦٩ -
 - الحبشة (الأثيوبيون) ١٠٢ - ١٢٣ - ١٢ - ٣٨٤ -
 - بنو حبيب ١٠٥ - ١٠٩ -
 - ابن الحداد (الطليطلى) ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ -
 - ابن الحديدى (الفقيه) ٢٩٢
 - ابن حزم ٢٩٠ - ٢٩٢ -
 - الحسن الوزان (ليون الافريقى) ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٦ - ١٣٧ -
 ١٨٧
 - الحسن بن شعبان ١٤٦ - ١٤٩ -
 - حسين نصار ٢٩
 - أهل الحق (دعوة) ٢٢٤
 ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ (معسكر) - خوارزمشاه ٣٩
 ١٨٢ - ١٨٦ - ١٩٠ - ١٩٣ -
 ١٩٤ - ١٩٩ - ٢١٢ - ٢١٣ - الحير بن خزر الزناتى ٢٢٩
 ٢٧٥ - ٢٧٦ -

(أم عمر بن علي بن يوسف)

٣٨١

(ذ)

- زائدة (زوجة المأمون بن المعتمد)

٣٨٦

- ابن زاهر (أبو حفص عمر)

١٦٣

- ابن أبي زرع

٣١ - ٣٢ - ١٦٦ - ١٦٨ - ١٧١

١٧٨ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧

١٨٩ - ١٩٤ - ٢١٤ - ٢١٥

٢١٨ - ٢٢٦ - ٢٣٤ - ٢٣٦

٢٤٧ - ٢٥٢ - ٢٦٥ - ٢٧٣

٢٧٧ - ٢٨٠ - ٣١١ - ٣٢١

٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤٣ - ٣٥٣

٣٨١

- أبو زكريا بن واسينوا

٣٣٧

- زمور البرغواطى (أبو صال)

٢١٩ - ٢٢٠

- زنادة

٤٤ - ٦٨ - ١٠٣ - ١١٥ - ١١٩

١٢٤ - ١٢٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨

٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٣ - ٤٥١

٢٥٤ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٤٠١

- زناجة (زناقة) صنهاجة

٧٠ - ٧٥

- الزنوج (الزنج)

٧٣ - ٨٣ - ٨٤ (البانتو) - ١٠٦

١١٧ - ١٢١ - ١٢٦

- زياد بن يونس

١٥٠

- ابن أبي زيد (أبو محمد)

١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤

(د)

- أبو بكر الداني

٣٤٩

- داود بن عكاشة (أبوسليمان)

٢٨٠ - ٣٠٦ - ٣٠٨

- الداودى (أحمد بن نصر)

١٥١ - ١٥٥

- ابن الدباغ

١٤٩

- ابن دحون (أبو جعفر أحمد بن ثابت)

١٥٠ - ١٥١

- دسلان

٢٧ - ٢٨ - ١١٢ - ١٨٨ - ٢١٤

- دوزى

٣٠

- الدينورى (أبو اسحق)

١٤١

(ذ)

- ابن ذنين الصدفى (الطليطلى)

١٤٢ - ١٤٤ - ١٤٧ - ١٤٨

١٤٩ - ١٥١ - ١٥٣

(ر)

- بنو رزين

٣٥٩ - ٣٦٥

- أبو رستم النفوسى

١٣٥

- ابن رشد (الفيلسوف)

٣٥ - ٤٢٠

- ابن رشيق (أبو الحسن)

١٤٥ - ١٤٦

- الرقيق

٢٩

- رياض الحسن

- ١٥٥
- الزيريون (بنو زيري)
٢٩ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٨ - ١٢٠ - ٣٧٠
٣٥ - ٢٨٥ - ٢٨٧ - ٣٠٤
٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٥٥ - ٣٥٧
٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١
٣٦٧
- زيري مناد
٤٤
- زينب النفراوية
١٢٦ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٥١
٢٥٤ - ٢٦٠ - ٢٦٢ - ٢٦٧
٣٨٠ - ٣٨٣ - ٣٩٥
(س)
- سرطة (سرطة)
٧١ - ١٢١
- ابن سعيد الخزرجي
(أبو القاسم عبد الرحمن)
١٥١ - ١٥٣
- ابن السرور
١٥٠
- ابن سعيد السجزي
١٥٠
- السقطي
١٤٣
- ابن سكرة (أبو علي)
١٤٩
- السلاجقة
٤٣
- ابن سلام
١٤١
- بنو سليم (عزب)
٤٣
- سمسطة
٧١ - ١٢١
- السونينك (شممب)
٦٤ - ٧٦ - ١١٧ - ١١٨ - ٢٦٩
- السيد
٣٥ - ٢٨٥ - ٢٨٧ - ٣٠٤
٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٥٥ - ٣٥٧
٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١
٣٦٧
- سير بن أبي بكر اللمتوني
٢٧٣ - ٢٨٠ - ٣١٧ - ٣١٨
٣٢٣ - ٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٣٧
٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤٢ - ٣٤٤
٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥٢ - ٣٥٣
٣٨٠ - ٣٨٣ - ٣٩٥
(ش)
- شجر الدر
١٢٦
- ابن شداد (عبد العزيز الزيري)
١٦٧ - ١٧٠ - ١٩٦ - ٢١٣
٢٢٦
- ابن شرف
(الشاعر : أبو عبد الله محمد
القيرواني)
١٥٥ - ١٦٤
- شرف الدولة بن المعتمد
٣٤٩
- الشنتجالي (الأموي)
١٤٣ - ١٤٤
- الشنياطي
٣٥٩
- الشيعة
١٣٦ - ١٤٠ - ١٥٠ - ٢١٥
٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٧٠
- شيمين (أرملة السيد)
٣٦٢
(ص)
- ابن صالح (أبو حفص عمر)

| | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| ١٦٣ | - طليطلة (أهل) |
| - صدينة | ٢٩٢ - ٣٥٥ - ٣٨٨ |
| ٢٥٦ | - الطوارق |
| - الصقالبة (البيض) | ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٩ - ٦١ - |
| ٢٦٠ - ٢٧٢ | ٦٢ - ٧١ - ٧٧ - ٧٨ - ٨٩ - |
| - صنهاجة | ٩٥ - ١٠٩ - ١١٦ - ١٢٢ - |
| ٢٦ - ٢٨ - ٣٢ - ٤٣ - ٤٤ - | (حاليا هـ ٥٢) - ١٢٣ - ١٢٤ - |
| ٤٥ - ٤٦ - ٦٣ - ٦٨ - ٦٩ - | ١٢٨ - ١٣٠ - (المعاصرون) - |
| ٧٠ - ٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٨ - | ١٣٢ - ١٣٤ - ١٧٤ |
| ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ - | (ع) |
| ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٩ - ١١١ - | - ابن عائشة (محمد) |
| ١١٢ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - | ٣٤١ - ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - |
| ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - | ٣٨٦ - ٣٩٤ |
| ١٢٦ - ١٣٥ - ١٦٥ - ١٦٦ - | - العامريون (بنو عامر المنصور) |
| ١٧٢ - ١٨١ - ١٨٩ - ١٩٥ - | ٣٥٤ |
| ١٩٦ - ٢١٠ - ٢٣١ - ٢٥٦ - | - العباديون (أصحاب اشبيلية) |
| ٣٢٦ | ٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤١ |
| - ابن الصقلي | - أبو العباس (الأقلشى) |
| (أبو القاسم عبد الرحمن البكرى) | ١٤٧ - ١٤٨ |
| ١٥٠ | - العباس بن يحيى |
| - الصوفية (اخوان الطرق) | ٢٧٧ - ٢٧٨ |
| ١٦٠ | - العباس بن عمر بن الأفتس |
| - ابن الصيرفى | ٤١ |
| ١٤٤ - ١٤٩ - ١٥٥ | - ابن عبد البر (أبو عمر) |
| - الصينيون | ١٥٨ - ١٦٧ |
| ١٤٤ | - عبد الجبار بن أبى بكر بن حمديس |
| (ط) | ٣٤٨ |
| - طارق بن زياد | - عبد الحميد العبادى |
| ٧١ | ٣٣٤ |
| - أبو الطاهر السلفى | - عبد الرحمن بن رشيق |
| ٤٠٨ | (صاحب مرسية) |
| - ابن الطرابلسى (أبو حاتم) | ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٧ - |
| ١٦٨ | ٣٣٦ - ٣٥٠ - ٣٥٣ - ٣٥٤ |

- عبد العزيز بن شداد
٢٦ - ٢٩ - ٣٢
- عبد الله بن ادريس
١١٣
- عبد الله بن بلقين
(الأمير - الصنهاجي - ابن حبوس)
٣٥ - ٣٦ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٢٦
- ابن عذاري
٣٠ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٤٠
- ابن عذاري
٢٦٩ - ٢٧٣ - ٢٧٨ - ٢٦١
- العجم
٢٦
- العرب
٢٦ - ٣٥ - ٣٩ - ٤٨ - ٧٥
- ابن عزرة
١٥٠
- ابن عقاب (أبو بكر)
٣١٧
- ابن أبي عقبة التميمي
(هبة الله بن محمد أبو بكر)
١٥٠
- عقبة بن نافع
٢١٧
- الملاف (أبو القاسم)
١٤٩
- أبو علي الصدفي
٤٠٧
- علي بن كنفاط اللمتوني
٣٩٤
- (أبو الحسن) علي بن محمد البرجي
- عبد الله بن بلقين
(الأمير - الصنهاجي - ابن حبوس)
٣٥ - ٣٦ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٢٦
- عبد الله بن بلقين
٣٢٧ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣٢
- عبد الله بن بلقين
٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨
- عبد الله بن بلقين
٣٤٣ - ٣٤٧
- عبد الله بن مزدلي
٣٩٨
- عبد الله بن ياسين
١٦٥ - ١٦٦ - ١٧٤ - ١٧٥
- عبد الله بن ياسين
١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩
- عبد الله بن ياسين
١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٦
- عبد الله بن ياسين
١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠
- عبد الله بن ياسين
١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤
- عبد الله بن ياسين
١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٩
- عبد الله بن ياسين
٢٠٠ - ٢٠٤ - ٢٠٨ - ٢٠٩
- عبد الله بن ياسين
٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤
- عبد الله بن ياسين
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٨ - ٢٢٠
- عبد الله بن ياسين
٢٢١ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨
- عبد الله بن ياسين
٢٣٤ - ٢٣٨ - ٣٧٠
- عبد الملك بن أحمد بن هود
(عماد الدولة)
٣٦٥ - ٣٩٢
- عبد الواحد المراكشي
٣٥ - ٤٠ - ٣٧ - ٣٧٧ - ٢٩٨
- بنو عبد الوارث
٦٢ - ١١٣ - ١٢٠ - ١٢١
- ابن عبدون
٤١

- | | |
|---------------------------------------|-----------------------------------|
| ٤١٦ | ٤١٩ |
| - غفجومة (قبيلة) | - علي بن مجاهد |
| ١٥٨ - ١٥٧ | ٤١ |
| - ابن غلبون (الأب والابن) | - علي بن يوسف بن تاشفين |
| ١٥١ - ١٤٧ - ١٤٦ | ٣١ - ٣٢ - ٣٥ - ٤١ - ٣٦٤ |
| - ابن غلبون الحولاني (أبو عبدالله) | ٣٦٥ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ |
| ١٦٩ | ٣٧٧ - ٣٧٨ |
| (ف) | - عمر بن الأفطس (المتوكل) |
| - الفارابي (الفيلسوف) | ٣٤ - ٤١ |
| ٣٦ | - عمر بن الخطاب |
| - ابن فاطمة (عبد الله) | ١٨١ - ٣٧٤ |
| ١٢٦ - ٣٦٣ - ٣٦٦ - ٣٨٦ | - عمر بن عبد العزيز |
| ٣٩٦ - ٣٩٢ | ٣٧٤ |
| - الفاطميون | - عمر بن سليمان المسوفي |
| ٤٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١٣٥ | ٢٧٣ - ٢٨٠ |
| ١٣٩ - ١٤٠ - ١٧٢ - ٢١٥ | - أبو عمران الفاسي |
| - ابن فانو | ١١٩ - ١٥٠ - ١٥٧ - ١٥٨ |
| ١٢٦ | ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ |
| - ابن الفرضي (أبو الوليد - الفرطبي) | ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ |
| ١٤٣ - ١٤٤ - ١٥١ - ١٥٣ | ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ |
| - فرناندو | ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٥ |
| (ملك غاليسيا وليون وقشتالة) | ٢٠٨ |
| ٢٨٩ | - عنان (محمد عبد الله) |
| - الفضل بن عمر بن الأفطس | ٣٥ - ٣٣٤ |
| ٤١ | - عيسى بن أبي الأنصار (أبو منصور) |
| - الفلسطينيون | ٢١٩ |
| ٨٠ | (غ) |
| - الفينيقيون | - ابن غانية |
| ١٣٢ | ١٢٦ |
| (ق) | - غرسيه بن الرند |
| - القابسي (أبو الحسن) | ٣٩٧ - ٣٩٨ |
| ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ | - الغزالي |
| ١٥٥ - ١٥٧ - ١٦٠ - ١٦٣ | ٣٠ - ٣٢ - ١٦٠ - ١٩٥ - ٤١٥ |

- (ل)
- القادر بن ذى النون - ٣٠ - ٢٨٧ - ٢٩٢ - ٣٥٥ -
 لبي بن وارجابي (وازجاي) - ٣٥٦ - ٣٦٠
 ٢١١
- أبو القاسم العجيبى (الاشبيلي) - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٣
 ابن اللبانة (أبو بكر محمد) - ١٤٨
 لقوط البرغواطى (لكوت ، لجوت ،
 سكوت) - ٣٢ - ٢٣ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢٨٠
 ٢٨١
- ابن قرلمان (الطلمنكى) - ١٤٢ - ١٤٨ - ١٥١ - ١٥٤
 قرور (أمين السر) - ٣٣٠
 ٢٨ - ٣٢ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ -
 ٩٢ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ -
 ١٢١ - ١٢٩ - ١٧٨ - ١٧٩ -
 ١٨١ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ -
 ١٨٩ - ١٩٥ - ٢٠٣ - ٢١٢ -
 ٢٣٥ - ٢٤٠ - ٢٤٣ - ٢٤٩ -
 ٢٥٠ - ٢٥٤ - ٢٦٧ - ٢٧٠ -
 ٢٧١ - ٢٧٣ - ٣٢٦ - ٣٣١ -
 ٣٨٠
- لطة -
 ٢٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٤ - ٩٢ -
 ١١٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٣٧ -
 ١٦٥ - ١٧٨
- (ك)

- الكتاميون - ٤٣
 الكنانى (حمزة بن اسحق الحافظ) - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٦٣
 كوار (أهل) - ١٢٣
 كولان - ٣٠
 كولى - ٢٨
- (م)
- المأمون بن المعتمد - ٣٤٢ - ٣٤٣
 الماندنج - ١١٧
 الماوردى (قاضى قضاة بغداد) - ٣٦
 ماخوخ الزناتى - ٤٠١
 ابن ماهان -

- ٣٣
- ١٤٨ - ١٤٦
- المتوكل بن الأفتس (عمر)
٢٩٢ - ٣٠٣ - ٣٣٢ - ٣٤٩ - ٣٥٠
- محمد بن اسباط
٣٨١
- محمد بن اسماعيل بن عباد
(القاضي)
٣٥٦
- (أبو عبد الله) محمد بن تاشفين
٣٥٩ - ٣٦٠
- محمد بن امبارك اللمتوني
٦٩
- محمد بن تميم الجدالي
٢٧٣
- (أبو عبد الله) محمد بن أبي بكر
اللمتوني
١٨٤
- محمد بن تومرت (المهدي)
٣٠ - ٣٢ - ١٦٠ - ٢١٣ - ٢٦١
- محمد حاج صادق
٣٣٨ - ٤٠٠
- محمد بن الحلف
٢٨
- (صاحب البيان الواضح)
٣٣ - ٣٧٣
- محمد بن صمادح
١٤١
- محمد (انظر ابن عائشة)
- محمد بن عبد الرحمن
ابن أبي العافية (أبو القاسم)
٢٧٨
- محمد بن عبد العزيز بن الامام
- محمد بن مزدلي
٣٩٨ - ٤٠٢ - ٤٠٣
- بنو (آل) مدرار
١١٥ - ١٣٥
- مدرك التلكاتي
٢٧٤
- المرابطون
٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩
- ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤
- ٣٥ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣
- ٤٥ - ٤٦ - ٦٧ - ٦٩ - ٨٤
- ١٠١ - ١٠٧ - ١١٧ - ١١٨
- ١١٩ - ١٢٠ - ١٤٠ - ١٥٠
- ١٧٤ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٩
- ١٩٠ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧
- ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٣ - ٢٠٤
- ٢٠٧ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٢
- ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢٢٠
- ٢٢٢ - ٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٣٠
- ٢٣١ - ٢٣٤ - ٢٤١ - ٢٤٦
- ٢٥٢ - ٢٥٨ - ٢٨١ - ٢٨٣
- ٢٩١ - ٢٩٤ - ٢٩٦ - ٣٠٢
- ٣٠٨ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٥
- ٣١٨ - ٣٢٠ - ٣٣٢ - ٣٣٥
- ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤١
- ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٥٠
- ٣٥٢ - ٣٥٤ - ٣٥٩ - ٣٦٠
- ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ - ٣٦٨
- ٣٧٥ - ٣٨١ - ٣٨٤ - ٣٩٢
- ٣٩٦ - ٤٠٥
- المرينيون (بنو مرين)
٤٣ - ١٦٦

- مزدلى بن سولنكان
— ٢٦٦ — ٢٧٧ — ٢٧٨ — ٣٦١ — ٣٦٢ — ٣٦٣ — ٣٨٠ — ٣٩٥ — ٣٩٦ — ٣٩٨
- المستعين أحمد بن هود
— ٣٩١ — ٣٩٢
- المستنصر (الأموى)
— ١١٢ — ٢١٩
- مسعود بن وانودين
— ٢٠٦ — ٢٠٧
- المسلمون
— ٢٥ — ٢٦ — ٤٤ — ١١٧ — ٣٠٢ — ٣١٤ — ٣٢٠ — ٣٢٥ — ٣٥١ — ٣٦٠ — ٣٦١ — ٣٦٢ — ٣٩٢
- مسلمة السودان
— ٢٠٩ — ٢١١ — ٢٧٠
- مسوفة
— ٣٢ — ٧٠ — ٧١ — ١٢١ — ١٧٨ — ١٩٥ — ٢٠٣ — ٢٧١
- المسيحيون (الحلفاء)
— ٣٧ — ٣٥١ — ٣٦٢ — ٣٨٥ — ٣٩٢ — ٣٩٥
- المشاركة
— ٢٩
- المصامدة (مصمودة)
— ١١٣ — ١٧٣ — ٢١٨ — ٢٣١ — ٢٥٦ — ٢٧٩ — ٢٨٠ — ٣٩٤
- مصطفى أبو ضيف
— ٢٩
- المعتضد بن عباد
— ٢٨٩
- المعتمد بن عباد
— ٣٣ — ٣٤ — ٤٠ — ٤١ — ٢٨٠
- المعز لدين الله الفاطمى
— ٣٧٩
- المعز بن يوسف بن تاشفين
— ٢٩٧
- مغراوة
— ٣٢ — ٢٠٧ — ٢٠٨ — ٢١٠ — ٢١٤ — ٢١٧ — ٢٥٢
- المغول
— ٢٦ — ٨١
- مغيرة
— ٢٧٦
- المقرئ (أبو عمرو)
— ١٦٧
- مكى (محمود)
— ٢٩ — ٣٥
- الملتزمون
— ٢٦ — ٢٧ — ٢٨ — ٣٢ — ٣٣ — ٤٣ — ٤٥ — ٤٦ — ٦٨ — ٧٣ — ٧٧ — ٨٠ — ٨٤ — ١٠١ — ١٠٤ — ١٠٧ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١٥ — ١١٧ — ١٢٠ — ١٢١ — ١٢٤ — ١٢٦ — ١٢٩ — ١٣٠ — ١٣٤ — ١٤٠ — ١٥٦ — ١٥٧ — ١٦٥ — ١٦٧ — ١٧٠ — ١٧٢ — ١٧٤ — ٢٠٩ — ٢١٢ — ٢٣٥ — ٢٨٠ — ٢٩٤ — ٣٧٥

- ٣٩٩ - المهندس (أبو بكر)
١٤٦ - ١٤٨
١٢١ - ٤٩ هـ - ١٢٢ - ١٢٣ - الموحدون
١٣٧ - ٢٦ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٤
٢٦١ - ١٥٥ - ٤٣ - ٤٠ - ٣٥
٣١١ - ٣٠٨
٣٣٤ - ٣٥ - مؤنس (حسين)
١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٥ - ابن ميمون (الطليطلي)
١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٠
١٥٧ - أبو ميمونة (دراس بن اسماعيل)
(ن)
٣٢ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٩ - نارشت (نارشي - تارشي)
٢٧ - ١١٢ - ١٥٧ - ٣١٦ - الناصر (الأموي)
٤٠ - الناصر (محمد الموحدى)
١٤٦ - ١٤٩ - ابن النحاس
٤٤ - ١٢٣ - النورماند (ديون)
٣٢٠ - ابن ذى النون
النويرى - ٢٩ - ١٦٨ - ١٧١ - ١٩٦
٢٢٦ - ٢٧٣ - ٣١٧ - ٣٥٢
(هـ)
٤١ - هارون الرشيد
٥٨ - المهدي بن يوسف الجزناتى
٣٩٢ - ٣٦٤ - بنو مولان
٣٢ - المنذر بن أحمد المقتدر بن هود
٣٥٤ - المنصور (محمد) بن أبى عامر
٢٧ - ٣٦ - ١١٨ - ٣١٦ - المنصور بن الناصر بن علناس
١٤١ - المنصور عمر بن الأفتس
(ابن المتوكل)
٣٩٤ - ٣٩٥ - ابن منظور (القاضى باشبيلية)
٢٨٤ - منغفاد بن العزيز الزناتى
٢٧٥ - ابن المنير
١٤٩ - هبة الله بن محمد (أبو بكر)

| | |
|--------------------------------|---------------------------|
| الوندال - | ابن أبي عتبة التميمي |
| ١٠٣ - ١٠٤ - ١٢٣ | ١٥٠ |
| ويثي ميراندا - | الهروي (أبو الفضل أحمد) |
| ٣٠ | ١٤٤ |
| (ي) | الهروي (أبو زر عبيد) |
| | ١٤٤ - ١٥٩ |
| يتلوتان - | هزيمة - |
| ٣٢ | ٢٤٠ - ٢٤١ |
| بنو يفرن - | هشام المؤيد - |
| ٢٢ | ٣٧ |
| يحيى بن ابراهيم الجدالي - | الهلالية (العرب) |
| ١١٢ - ١١٣ - ١٣٧ - ١٦٥ - | ٢٩ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٩ - ٢٠٨ - |
| ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - | ١٦٤ - ٣٩٤ |
| ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - | الهنهيين - |
| ١٧٧ - ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨٤ - | ١٠٥ |
| ١٨٥ - ٣٧٠ - ٣٧١ | ابن هود (بنو) |
| يحيى بن أبي بكر - | ٢٨٩ - ٣١٩ - ٣٣٧ - ٣٥٨ - |
| ٣٨٠ | ٣٦٣ - ٣٦٥ - ٣٧٩ - ٣٩٠ - |
| يحيى بن بكير - | ٣٩١ |
| ١٤١ | الهوسا - |
| يحيى بن ذى النون - | ٧٣ - ٨٤ - ٩٥ |
| ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ | (و) |
| يحيى بن عمر (بن تلاجاجين) | وارجابي (ورجاي - ورجاي) |
| ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٩ - ٢٠٩ - | ١١٩ |
| ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ | وجاج بن زللو - |
| (ضياء الدولة) يحيى بن لكوت - | ١٦٥ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - |
| ٢٨١ | ١٨٨ |
| يحيى بن هذيل (بن خلف) | بنو وانودين - |
| ٣٦٥ | ٢٠٤ - ٢٠٦ - ٢١٥ - |
| أبو يحيى بن محمد بن الحاج - | بنو ورتنطق - |
| ٣٩٣ | ٧٠ |
| يحيى بن مزدلي - | الولوف - |
| ٢٧٨ | ٦٥ |
| يحيى بن واسينوا اللمتوني - | |

| | |
|-----------------------|---------------------------------|
| ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ | ٢٧٦ |
| ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ | - يحيى بن يحيى |
| ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ | ١٤١ |
| ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ | - أبو يحيى بن اليسع |
| ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ | ٣٣ |
| ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٩ | - اليعقوبى |
| ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ | ١٣٨ |
| ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٩ - ٢٨٠ | - أبو يعلى الزناتى |
| ٢٨١ - ٢٨٣ - ٢٩٤ - ٢٩٧ | ٢٧٨ |
| ٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٥ | - يعلى بن يوسف |
| ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١٢ | ٢٥٩ |
| ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ | - سنو يفرن |
| ٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٢ - ٣٢٥ | ٢١٦ - ٢١٩ - ٢٢٧ - ٢٣٣ |
| ٣٢٦ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ | ٢٥٢ - ٢٥٨ |
| ٣٣٢ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ | - يلتان (يروتان) |
| ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٦ - ٣٥٢ | ١١١ - ١١٨ |
| ٣٥٣ - ٣٥٥ - ٣٥٧ - ٣٥٩ | - ينتيان بن عمر ينتيان |
| ٣٦٠ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ | ٣٨١ |
| ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٧٠ - ٣٧١ | - اليهود |
| ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ | ٣٦٦ |
| ٣٨١ - ٣٨٣ - ٣٨٨ - ٣٩٤ | - يوسف بن تاشفين (أمير الملمين) |
| ٣٩٩ | ٢٥ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ |
| - يوسف باكين بن زيرى | ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٤٠ - ٤١ |
| ١٢٠ | ٩٩ - ١٢٦ - ٢١٥ - ٢٣٣ |
| - اليونان والرومان | ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ |
| ١٢٩ | ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤٢ |

أسماء المدن والجبال والأنهار والأماكن والمواضع

| ٣٥١ | (١) |
|-----------------------------|---------------------------|
| - أضفاغ (كيدال) | - أدرار (أفوراس) |
| ٥٩ | ٤٥ - ٥٠ - ٥٤ - ٦١ - ٩٧ - |
| - اطار | ١٠٤ - ١٠٦ |
| ٤٥ | - أرض الروم |
| - الأطلنطى (محيط) | ٤٣ |
| ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٤ - | - أزواغ |
| ٦٨ - ٢٢٧ | ٥٩ |
| - أعمدة هرقل | - الأخدود |
| ٤٨ | ٥٢ |
| - أغادير | - أرتننى (مدينة) |
| ٥٠ | ١٨١ - ١٨٤ - ١٨٨ - ١٨٩ |
| - أجاديس (أجاديس) | - أزقى (قوقدم) |
| ٤٥ - ٥٠ - ٧١ | ٧٠ - ١٢٩ - ٢٠٩ |
| - أغرغار (وادى) | - أسبانيا |
| ٦١ - ٦٢ (إيفار غار) | ٢٥ - ٤٣ - ٣٦٠ |
| - أغمات | - آسيا |
| ٣٢ - ٣٦ - ٩٧ - ١١٣ - ١١٥ | ٢٦ - ٣٩ - ٤٣ - ١٠٨ |
| ١٢٦ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٧ - | - اشبيلية |
| ٢٢٧ - ٢٣١ - ٢٣٥ - ٢٣٨ - | ٣٨ - ٤٠ - ٢٨٠ - ٢٨٦ - ٣٠٢ |
| ٢٤٠ - ٢٤٥ - ٢٥١ - ٢٦٦ - | ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣١١ - ٣١٨ - |
| ٢٦٧ - ٢٨٠ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - | ٣٢٠ - ٣٣٢ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - |
| - الأغوار (جنوب الجزائر) | ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - |
| ٤٨ | ٣٤٢ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - |
| - أفريقيا | ٣٤٧ - ٣٤٩ - ٣٥٢ - ٣٦٦ - |
| ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٨ - ٤٣ - | ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٨٠ - ٣٨٣ - |
| ٤٤ - ٦١ - (الوسطى) - ٨٤ - | ٣٩٥ |
| ٩٠ - ٩٥ - ١٠٣ - ١١٧ - ١٢٠ - | - أشتوريش |

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| ٢٨٥ - ٢٨٣ - ٢٨٢ - ٢٨١ | ٢٣٨ - ٢٤٥ - ١٣٨ |
| ٢٨٩ - ٢٨٨ - ٢٨٧ - ٢٨٦ | - أفريقيا الغربية (السودان) |
| ٣٩٥ | ٤٨ - ٥٦ - ٥٩ - ٦١ - ٦٦ |
| - أودغشت (أودغشت) | ٦٧ - ٨٤ |
| ٤٥ - ٦٢ - ٦٣ - ٧٤ - ٧٦ | - أفيدو |
| ٩٠ - ٩٧ - ١١٢ - ١١٤ - ١١٥ | ٣٥١ |
| ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ | - أقليش |
| ١٢٠ - ١٢١ - ١٣٠ - ١٣٧ | ٣٠ - ٣٥ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٩٣ |
| ١٣٨ - ٢٠٧ | ٤٠٣ |
| - الأوراس (جبال) | - اليسانة |
| ٦٢ | ٣٢٩ |
| - أوروبا | - المرية |
| ٥٦ - ٩٥ - ١٢٣ | ٣٢٠ |
| - أوغام (مقاطعة) | - أقرتندى |
| ١١٨ | ٨٩ |
| - أوليل | - أمريكا |
| ٤٥ - ٥٠ - ٧٠ - ٩٧ | ٥٦ |
| - أوكار (منطقة) | - الأندلس |
| ١١٧ - ١١٨ | ٢٥ - ٢٦ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ |
| - ايجلى | ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٨ |
| ٧٠ - ٨٦ - ٨٨ - ٩٧ | ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤ |
| - أيونى (جزيرة) | ٦٩ - ١٠٨ - ١١٢ - ١٢٠ |
| ٩٤ - ٩٧ - ٩٨ - ١٨٧ | ٢٣٠ - ٢٣٥ - ٢٤٥ - ٢٨٠ |
| - آير (هضبة) | ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٦ |
| ٤٥ - ٤٦ - ٥٤ - ٥٩ - ٦١ | ٢٩٣ - ٢٩٦ - ٣٠٠ - ٣٠٢ |
| ٧١ - ١٢٢ (آهير) - ١٢٣ | ٣٠٣ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ |
| (ب) | ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ |
| - بامبوك | ٣٢١ - ٣٢٥ - ٣٣٢ - ٣٣٣ |
| ٦٦ - ٧٦ - ١١٩ - ٢٧٠ | ٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ |
| - بانكلاين (مدينة) | ٣٣٩ - ٣٤٤ - ٣٤٧ - ٣٥١ |
| ١١٣ - ١٢٠ | ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٦ - ٣٥٧ |
| - بجاية | ٣٥٩ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ |
| ٤٤ - ٦٩ - ١٤٢ | ٣٦٦ - ٣٦٨ - ٣٧١ - ٣٧٩ |

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| - ٣٥٥ - ٣٣٩ - ٣٣٨ - ٣٢٤ | - بحر الغزال |
| - ٣٦٠ - ٣٥٩ - ٣٥٧ - ٣٥٦ | ٦٢ |
| - ٣٦٧ - ٣٦٣ - ٣٦٢ - ٣٦١ | - البحر المتوسط |
| ٣٩٢ | ٤٨ - ٥٦ - ٥٨ - ١٠١ - ١٢٢ |
| - بنبلونة | ١٣٤ - ٢٠٤ - ٣٥١ |
| ٣٠٤ | - البحر المحيط (الأطلنطى) |
| - بوغرات (مدينة) | ٣٨ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨ - ٦٣ |
| ١٣٥ | ٦٥ - ٧٠ - ٩٤ - ٩٧ - ٩٨ |
| - بورجرج (أبو الرقراق) | ١٠٤ - ١١٤ - ١٦٦ - ١٧٦ |
| ٢٢٧ - ٢١٨ | ١٨٢ - ١٨٧ - ١٨٨ - ٢٠٤ |
| - بولاق | ٣٥١ |
| ٢٢ | - البرتغال |
| (ت) | ٣٩٧ |
| - تانتال | - برشلونة |
| ٩٧ | ٣٢٠ |
| - ناجة (وادى) | - برقة |
| ٣٣٥ - ٣٠٤ | ٤٤ - ١٠٤ - ١١٥ - ٤٠٢ |
| - تادلا | - بسطة |
| - ٢٢٨ - ٢٢٧ - ٢٢٠ - ٢١٦ | ٣٥٣ - ٣٢٠ |
| ٢٣١ - ٢٢٩ | - بسكرة |
| - تادمكة | ٦٢ |
| - ٩٧ - ٧٨ - ٧٤ - ٤٦ - ٤٥ | - البصرة |
| - ١٢٩ - ١٢٢ - ١٢٠ - ١١٥ | ١١٤ |
| ٢٦٩ - ١٣٨ | - بطليوس |
| - تارودانت | ٣٠٣ - ٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٤٩ |
| ٢١٥ - ١٣٥ - ٨٩ - ٥٩ - ٥٠ | ٣٥٠ - ٣٥٢ - ٣٦٨ - ٣٩٦ |
| ٢٣٣ - ٢١ | - البطن |
| - تاركا : طارقه ، تارغه ، ترغه | ٥٢ |
| - ٨٨ - ٧٣ - ٧١ - ٦٩ - ٣٢ | - بغداد |
| ١٣٤ - ١٢١ - ١٠٩ - ١٠٥ | ٣٩ - ٤٠ - ٤٣ - ١٣٩ - ١٥٩ |
| - تازا | ١٦١ - ١٦٢ - ٣١٥ - ٤٠٣ |
| ١١٥ - ٢٧٩ (أحواز) | - بلنسية |
| - تافساسيت (أودية) | ٣٠ - ٣٣ - ٣٥ - ٣٠٤ - ٣١٩ |

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| ٦١ | - تمنغست |
| - تاليوين (قرية) | ٨٩ - ٥٩ |
| ٢١١ | - تندوف (نول) |
| - تامدلت (تماذلت) | ٥٤ - ٥٢ |
| ٦٢ - ٩٧ - ١١٣ - ١٣٤ - ٢١٠ | - تنسيفت (وادي) |
| - تامسنا | ٢٤٠ |
| ٢١٦ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ | - توات (عين صالح) |
| - تامنرست | ٤٥ - ٤٨ - ٦١ - ٦٢ - ٧١ |
| ٦١ | ١١٤ |
| - تاهرت | - تومبوكتو |
| ١٠٥ - ١١٥ - ١٣٥ | ٤٥ - ٥٠ - ٦٥ - ٨٣ (جنيوة) |
| - تاوديني (حوض) | ١٠١ - ١٠٣ - ٢٧١ |
| ٥٤ | - تونس |
| - تبفريلى (موقعة) | ٦٨ - ١١٥ |
| ٢١٠ - ٢١٢ | - تيبستى |
| - الترکستان | ٤٥ - ٥٤ - ٦١ - ٦٢ - ١٠٤ |
| ٤٣ | ١٢٣ |
| - تساليت | - تيدال |
| ٤٥ | ٥٨ |
| - تطيلة | - تيويوين |
| ٣٦٨ - ٣٩٣ | ١٣٥ |
| - تشاد | (ث) |
| ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨ - ٥٩ | - الثغر الأعلى |
| ٦٠ - ٦٢ - ١٠٤ - ١١٤ - ١١٥ | ٣٥ - ٣٧ - ٢٨٨ - ٢٣٧ - ٢٤٤ |
| ١٢٣ | ٣٥١ - ٣٥٩ - ٣٦٣ - ٣٦٥ |
| - تغازة | ٣٦٨ - ٣٩١ |
| ٤٦ | - الثغر الأدنى |
| - تلمسان | ٣٥١ |
| ٣٢ - ٥٠ - ١١٤ - ١١٥ - ٢٣٨ | - ثغور الأندلس |
| ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٣٨٠ - ٣٩٥ | ٤٤ - ١٥٠ - ٣٣٩ - ٣٦٦ |
| ٤٠١ | ٣٦٧ |
| - تامانوات (قرية) | (ج) |
| ١٧٤ | - جامبيا (نهر) |

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| ٦٠٠ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٨٨ - | الجزيرة الخضراء |
| ٨٩ - ٩٤ - ١٣٠ | ٢٨٦ - ٢٩٩ - ٣٢٠ - ٣٣٥ - |
| جامع القرويين | ٣٤٠ - ٣٦٧ |
| ٣١ - ١٣٩ | الجزيرة (الأندلس) |
| جامع القيروان | ٣٧ - ٤٣ |
| ١٣٩ - ١٧٠ | جنى (جنة) |
| جامع ابن لهيعة | ٨٣ - ١٠٣ |
| ١٤٩ | جيان |
| جامع سبتة | ٣٢٠ - ٣٤٢ - ٣٨٥ |
| ٣٣٣ | جيد مكة |
| جامع الكتبية | ٦٠ |
| ٢٤٤ - ٢٤٥ | |

(ح)

| | |
|-------------------|---------------------------------|
| ٢٩ - ٧٠ - ٧٧ - ٨٦ | جبل كزولة (جزولة) |
| جبل لتونة | ١٢٣ - ٥٤ - ٥٩ - ٦١ - ٦٢ - ١٠٤ - |
| ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٣ | الحجاز |
| جبل المصاعدة | ١٣٩ - ١٤٠ |
| ٢١٦ - ٢٣٨ | الحمادة |
| جبل علودان | ٥٢ - ٦٥ |
| ٢٧٩ | الحوض |
| جبل غيابة | ٦٠ |
| ٢٧٩ | |

(خ)

| | |
|------------------------|------------------|
| جبال المغرب الأقصى | الخارجة (واحة) |
| ٢٢٤ | ٥٠ |
| جرسيف | خراسان |
| ٢٨١ | ١٣٠ |
| الجريد (بلاد) | خليج غينيا |
| ٥٩ - ٦١ - ٦٢ - ٧١ - ٨٦ | ٤٨ - ٦٥ |

(د)

| | |
|----------------------------|---------|
| الجزائر الشرقية (ميورقة) | دارفور |
| ٣٥٤ - ٣٥١ | ٥٠ |
| الجزائر | داكار |
| ٤٥ - ٦٢ - ٦٨ - ٧١ - ١٢٤ - | ٥٤ - ٦٥ |
| ١٦٥ | |

| | |
|--------------------------------------|----------------------------|
| ٣٣٥ - ٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤٣ | - دانية |
| ٤١ - ٣٣٨ - ٣٥٤ - ٣٥٥ | - ريغ (وادى) |
| ٣٥٨ - ٦١ - ٦٢ | - ربه |
| ٥٠ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٥ - ٧١ | - درعة |
| ٧٣ - ٨٦ - ٨٨ - ٩٠ - ٩٨ | - (ز) |
| ١٠٥ - ١١٣ - ١٢١ - ١٦٥ | - الزاب (بلاد) |
| ١٨٥ - ٢٠٤ - ٢١٣ - ٢٤٨ | - الزلاقة |
| ٢٨٠ | - درن (جبل الأطلس) |
| ٤٦ - ٥٤ - ٥٩ - ٦١ - ٦٢ | - ٤٣ - ٣٠٤ - ٣٠٢ - ٣١٠ |
| ٦٨ - ٧٦ - ٩٧ - ١٠٢ - ١٣٦ | - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ |
| ٢٠٤ - ٢١٤ - ٢٣١ - ٢٤١ | - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ |
| ٣٧٩ | - ٣٢٠ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٨ |
| - الدمدم (بلاد) | - ٣٣٥ - ٣٣٩ - ٣٤٦ - ٣٥٢ |
| ٩٩ | - ٣٥٦ |
| - زويلة | - ٤٥ - ١٢٣ |
| (د) | |
| - الرأس الأخضر | (س) |
| ٥٨ - ٥٤ | - الساحل (اقليم) |
| - الرباط | - ٥٨ - ٥٩ - ٦١ - ٦٤ - ٧٣ |
| ٢٩ - ٣١ - ٣٤ (١٧٥ رباط) | - ٨٤ - ٨٦ - ٨٩ - ١١٥ - ١٢٤ |
| ١٨١ - ١٧٦ - ١٧٥ (وجاج) | - ٢٧١ |
| ١٨٢ (وجاج) - ١٨٣ (رباط بن ياسين) | - السالون (نهر السنغال) |
| ١٨٧ - ١٨٦ - ١٨٥ - ١٩١ - ١٩٠ - ١٨٩ | - ٦٥ |
| ١٩٢ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ | - سان لوى (بالسنغال) |
| ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ | - ٦٥ - ٦٦ |
| ٢٠٩ - ٢١٢ - ٢١٣ | - الساورة (نهر) |
| - الرباط (مدينة رباط الفتاح) | - ٥٩ - ٦٢ |
| ١٨٤ - ٢٢٨ - ٢٢٩ | - السنجة |
| - رباط قوز (جوز) | - ٦٥ |
| ٢٢٧ | - سبتة |
| - رندة | - ٣٢ - ٢١٦ - ٢٨٠ - ٢٨٢ |
| | - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣٠٣ - ٣٢٦ |

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| — ١١١ — ١٠٩ — ١٠٨ — ١٠٦ | — ٢٢٨ — ٢٢٣ — ٢٢٦ — ٢٢٧ |
| — ١٢٢ — ١٢٠ — ١١٨ — ١١٦ | — ٢٢٩ — ٢٤٠ — ٢٤٧ — ٢٥٩ |
| — ١٢٨ — ١٢٦ (صفاتهم) — ١٢٣ | ٢٨٤ |
| — ١٣٧ — ١٣٤ — ١٣٠ — ١٢٩ | — سجامة (تافلت) |
| — ١٧٤ — ١٦٥ — ١٥٠ — ١٣٨ | — ٢٨ — ٤٦ — ٦٢ — ٦٣ — ٧١ |
| — ١٨٨ — ١٨٦ — ١٧٧ — ١٧٥ | — ٧٤ — ٨٦ — ٨٨ — ٩٠ — ٩٤ |
| — ٢٠٩ — ٢٠٧ — ٢٠٤ — ٢٠١ | — ٩٧ — ١٠٩ — ١١٣ — ١١٤ |
| — ٢٤٩ — ٢١٣ — ٢١١ (مساحة) | — ١١٥ — ١١٦ — ١٢١ — ١٣٥ |
| — ٣٠١ — ٢٧٠ — ٢٦٦ — ٢٥١ | — ١٣٧ — ١٣٨ — ١٦٥ — ١٧٥ |
| ٤٠٤ — ٣٨١ — ٣٠٩ | — ١٨٥ — ٢٠٤ — ٢٠٦ — ٢٠٧ |
| — السورو (نهر) | — ٢٠٨ — ٢٠٩ — ٢١٠ — ٢١٣ |
| ٦٥ | — ٢١٤ — ٢١٥ — ٢٢٧ — ٢٢٨ |
| — السوس الأدنى | ٢٦٦ |
| — ٢٣٦ — ٢٣٥ — ٢٣٤ — ٢٣٣ | — سجو (نهر) |
| ٢٧٤ — ٢٧٣ — ٢٦٨ | ٦٠ |
| — السوس الأقصى | — سرقسطة |
| — ٧٠ — ٦٨ — ٥٩ — ٤٦ — ٤٥ | — ٣٥ — ٢٨٧ — ٢٨٨ — ٢٢٨ |
| ١١٣ — ٩٤ — ٨٩ — ٨٦ — ٧٦ | — ٣٣٧ — ٣٦٣ — ٣٦٥ — ٣٩٠ |
| — ٢٠١ — ١٦٤ — ١٣٦ — ١٣٥ | ٣٩٣ — ٣٩١ |
| — ٢١٦ — ٢١٤ — ٢٠٦ — ٢٠٤ | — السعودية |
| — ٢٢٨ — ٢٢٧ — ٢١٨ — ٢١٧ | ٢٨ |
| — ٢٣٩ — ٢٣٦ — ٢٣٤ — ٢٣١ | — سلا |
| ٣٨٠ — ٣٢٥ — ٢٦٨ — ٢٤٥ | ٢١٨ — ٢٧٣ |
| — سوسة (باط) | — السنغال |
| ١٨٣ | — ٤٦ — ٥٢ — ٦٠ — ٦٤ — ٦٥ |
| — سوف (جنوب شرق الجزائر) | — ٦٦ — ٦٨ — ٩٠ — ٩٤ — ١٨٨ |
| ٩٢ — ٨٦ — ٨٣ — ٤٨ | — وانظر نهر |
| — سيراف | — السودان |
| ١١٤ | — ٢٥ — ٣٣ — ٤٣ — ٤٤ — ٤٥ |
| — السين (نهر السنغال) | — ٤٨ — ٥٠ — ٥٤ — ٥٨ — ٥٩ |
| ٦٥ — ٦٠ | — ٦٢ — ٦٣ — ٦٩ — ٧٠ — ٧٣ |
| (ش) | — ٧٦ — ٨١ — ٨٣ — ٨٤ — ٩٥ |
| — شاري (نهر) | — ٩٦ — ١٠١ — ١٠٣ — ١٠٥ |

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| ١٧٦ - ١٧٥ - ١٧٤ - ١٧٢ | ٦٢ - ٤٥ |
| ١٨٥ - ١٨١ - ١٨٠ - ١٧٧ | شاطبة |
| ١٩٢ - ١٩٠ - ١٨٨ - ١٨٦ | ٣٥٧ - ٣٥٤ - ٣٢٨ |
| ٢٠٨ - ٢٠٤ - ٢٠١ - ١٩٣ | الشام |
| ٢٤٩ - ٢٣٧ - ٢٢٦ - ٢٠٩ | ٣٨ - ١٠٥ - ١٣٩ |
| ٢٧١ - ٢٦٤ - ٢٥٦ - ٢٥٢ | الشرق (من البلاد الأندلسية) |
| ٣٩٩ - ٣٧٩ - ٣٢٦ - ٢٧٢ | ٣٠ - ٢٨ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٤ |
| صقلية | ٣٥٩ - ٣٦٣ - ٣٦٧ - ٣٦٩ |
| ٤٤ - ٣٥١ | شقورة |
| صنغانة (صونفاي) | ٣٢٠ - ٣٣٨ |
| ٧١ - ٦٤ - ٦٣ | شقندة |
| (ط) | ٣٥٣ |
| طبرستان | شنتبرية |
| ١٣٠ | ٣٥١ - ٣٥٩ - ٣٦٥ - ٣٨٥ |
| طرابلس | شنت ياقب |
| ١١٥ - ١١٤ - ٩٥ - ٦٨ - ٤٥ | ٣٥١ |
| طرطوشة | شيشاوة (مدينة) |
| ٣٥٤ - ٣٣٨ - ٣٠٤ | ٢١٧ |
| طريفة | (ص) |
| ٣٥١ | الصحراء (صحراء المغرب) |
| طريق الحرير | ٢٥ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٠ - ٤٣ |
| ١٨٤ | ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ |
| طنبيرة | ٥٢ - ٥٤ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٩ |
| ٣٨٩ - ٣٨٨ - ٣٠ | ٦٠ - ٦١ (وهران) - ٦٢ |
| طليطنة | ٦٤ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٤ - ٧٨ |
| ٢٨٧ - ٢٨٦ - ٢٨١ - ٤١ - ٣٥ | ٨١ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٩٠ |
| ٢٩٣ - ٢٩٢ - ٢٩٠ - ٢٨٩ | ٩٢ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٧ - ٩٨ |
| ٣٣٠ - ٣٢٤ - ٣١٩ - ٣٠٣ | ٩٩ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٤ |
| ٢٦٠ - ٣٥٥ - ٣٥٢ - ٣٣١ | ١٠٥ - ١٠٦ - ١١٠ - ١١١ |
| ٣٩٠ - ٣٨٩ - ٣٨٥ - ٣٦٦ | ١١٣ - ١١٦ - ١١٩ - ١٢٠ |
| طنجة | ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٦ - ١٣١ |
| ٢٨٣ - ٢٨١ - ٢٨٠ - ٢١٦ | ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ |
| ٢٨٥ | ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٥ - ١٧٠ |

| | | |
|-------------------------|-------------------------|-------------------------|
| ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ - ٣٦٨ | (ع) | العدوة |
| ٣٦٩ - ٣٨٠ - ٣٨٥ - ٣٨٦ | ٤١ - ٣١٧ - ٣٣٧ - ٣٧٥ | ٤٠١ |
| ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩٨ | العراق | ٣٨ - ٥٤ - ١٣٠ |
| الغرود (كتيبان الرمل) | العرق | ٥٢ - ٦٠ - ٦٥ |
| ٥٠ | عين صالح (توات) | ٤٥ |
| غمارة | (غ) | غاليسيا |
| ٢١٧ - ٢٥٧ - ٢٧٩ - ٢٨٣ | ٣٠٤ - ٣٥١ | غانة |
| (ف) | ٢٥ - ٦٠ - ٦٤ - ٧١ - ١٠٣ | ١٠٥ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ |
| فارسي | ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ | ١٢٩ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٢٠٤ |
| ١٣٠ | ٢٦٩ - ٢٧١ | غدامس |
| فاس | ٤٦ - ٦٨ - ٨٦ - ٨٩ - ٩٧ | ١٣٨ |
| ٣١ - ٣٢ - ٥٠ - ٦٢ - ١٠٤ | الغرب (غرب الأندلس) | ٣٨ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٩ |
| ١١٥ - ١٢٨ - ١٣٩ - ١٥٧ | ٣٦٦ - ٣٦٨ - ٣٦٩ | غرب أفريقيا |
| ١٥٨ - ١٦٠ - ٢٣٥ - ٢٣٦ | ٢٥ | غرب أوروبا |
| ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٦٨ | ٢٥ | غرناطة |
| ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٨٠ | ٤٤ - ٣٢٠ - ٣٢٣ - ٣٢٦ | ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣١ |
| ٢٨٣ - ٣٨٠ - ٣٨٢ | ٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٣٨ - ٣٣٩ | ٣٥٢ - ٣٥٥ - ٣٥٩ - ٣٦٠ |
| الفجارات | القاهرة | ٢٩ - ٣٥ - ٤٣ - ٥٠ - ١٤٠ |
| ٦٢ | (ق) | |
| فحص البرنس | | |
| ٢٦٤ | | |
| الفرلو (الشرقي) | | |
| ٦٥ - ٦٠ | | |
| الفرنيج (بلاد) | | |
| ٣٥٣ | | |
| فزان | | |
| ٤٥ - ٤٨ - ٥٩ - ٧٤ - ١١٥ | | |
| ١١٦ | | |
| فولتا (نهر) | | |
| ٦٥ | | |

| | |
|-------------------------------|----------------------------|
| - قلعة مهدى | - قبرة |
| ٢٥٣ | ٣٥٣ - ٣٥٤ |
| - قلييرة | - قرطبة |
| ٣٦٢ | ٢٧ - ٢٩ - ٣٤ - ٣٦ - ٣٧ |
| - قنقارة (جنجارة) | ٣٨ - ٣٩ - ٤١ - ١٤٢ - ١٥٧ |
| ١٢٠ - ١١٣ | ١٥٨ - ٢٩٥ - ٣٠٣ - ٣٣٥ |
| - القيروان | ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٩ - ٣٤٢ |
| ٢٩ - ٤٣ - ١٠٩ - ١١٣ | ٣٤٣ - ٣٥٣ - ٣٦٦ - ٣٦٧ |
| ١١٥ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ | ٣٧٩ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٥ |
| ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٧ - ١٥٩ | ٣٨٩ - ٣٩٦ - ٣٩٨ - ٤٠٢ |
| ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٣ - ١٦٤ | ٤٠٣ - ٤٠٤ |
| ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٩ - ١٧١ | - قرمونة |
| ١٧٢ - ١٧٥ - ١٧٦ | ٣٠٣ - ٣٣٥ - ٣٤٠ - ٣٤٣ |
| (ك) | ٣٤٧ |
| - كاكدم (قاقدم أو قوقدل) | - قسطبلية |
| أنظر أزقى | ٨٨ |
| ٣٢ - ٧٠ - ١٠٦ - ١٢٩ (قوقدم) | - قسنطينة |
| - الكانارى (جزر) | ٦٩ |
| ١٣١ | - قشتالة (والقشتاليون) |
| - الكانم | ٤٣ - ٢٨٠ - ٣٠٤ |
| ٥٠ - ١١٤ - ١١٥ | - قصر الحجر (دار) |
| - كاييس (منطقة) | ٢٤٤ |
| ١١٩ | - القطب |
| - كربلاء | ٥٧ |
| ٩٧ - ١٠٦ | - قفصة |
| - كتندة | ٧١ |
| ٤٠٧ | - القلعة (بالأندلس) |
| - كريفلة (موقعة) | ٣٥ |
| ٢٢٨ | - قلعة رباح |
| - كوغة (مدينة) | ٣٣٥ - ٣٤٥ - ٣٥١ |
| ١١٧ | - القلعة (قلعة بنى حماد) |
| - كومبى صالح (كومبى بيشار) | ٤٤ |
| ٦٤ | - قلعة بهت |

(ل)

| | |
|-------------------------------|----------------------------|
| مرسية - | لبنة - |
| ٤١٩ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٥٣ - | ٤٨ |
| ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٨ - ٣٦١ - | لشبوقة (اشبوقة) - |
| ٣٩٤ | ٣٩٦ - ٣٥١ |
| مراكش (بلاد) - | لواتة (بلاد) - |
| ٢٥ - ٩٥ - ١٣٠ - ١٥٥ - ١٧٥ - | ٢٣٦ - ٢٣٣ |
| ٣٣٦ | أورقة - |
| مراكش (المدينة) - | ٣٥٣ |
| ٣٥ - ٤٠ - ٤٥ - ٢١٤ - ٢٢٦ - | ليبيا - |
| ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - | ٤٥ - ٤٦ - ٥٠ - ٥٩ |
| ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٥٤ - ٢٦٠ - | ليون - |
| ٢٦١ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٣١١ - | ٣٥١ |
| ٣١٦ - ٣٣٣ - ٣٥٨ - ٣٦٤ - | ليبس (حصن) - |
| ٣٦٦ - ٣٦٩ - ٣٨١ - ٣٨٢ - | ٣١٨ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٤ - |
| ٣٨٥ - ٣٨٩ - ٣٩٤ - ٣٩٨ - | ٣٢٥ - ٣٢٧ - ٣٣٩ - ٣٥٢ - |
| المرية - | ٣٥٣ - ٣٦٢ |
| ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٤١ - | |
| المشرق (الايراني) - | (م) |
| ٨٦ - ١٣٢ (الايراني) - ١٣٩ - | ماسيت « ماسة السوس » - |
| ١٤٠ - ١٤٢ - ١٥٦ - ١٦٠ - | ١٧٥ - ١٨٢ - ١٨٤ (رباط) - |
| ١٦١ - ١٦٢ - | ١٨٧ - ٢٧٥ |
| المشرق - | مالطة - |
| ٢٧ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - | ٣٢٠ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٣٦ |
| مصر - | مالى - |
| ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ١١٥ - ١٣٢ - | ٤٥ - ٤٦ - ٦٠ |
| ١٤٥ - ١٤٩ - ١٥٦ - ١٥٨ - | مدريد - |
| المضيق (جبل طارق) - | ٣٥ |
| ٢٥ - ٢٦ - | المدينة الاسلامية - |
| المغرب - | ١٨١ |
| ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٩ - ٣٠ - | المدينة المنورة - |
| ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٤٠ - | ١٤٥ |
| ٤٣ - ٤٤ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٦ - | مدينة سالم - |
| ٧٧ - ٨٣ - ٨٦ - ٩٠ - ١٠٢ - | ٢٩٠ |

| | |
|-------------------------|----------------------------|
| ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - | ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ - |
| ١٠٨ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - | ٥٢ - ٥٤ - ٩٢ - ١٠٣ - ٢٧٠ - |
| ١٢٠ - ١٣٠ - ١٣٤ - ١٣٨ - | المهدية - |
| ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٥ - | ٤٤ - ٣٤٨ - |
| ١٤٩ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٩ - | ملوية (بلاد) - |
| ١٦١ - ١٦٦ - ١٧٤ - ١٨٣ - | ٢٣٦ - ٢٥٦ - ٢٧٤ - |
| ٢٠١ - ٢١٢ - ٢٢٦ - ٢٣٣ - | ميورقة - |
| ٢٣٦ - ٢٤٥ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - | ٣٥ - ٤١ - ٤٠١ - |
| ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - | (ن) |
| ٢٥٦ - ٢٦٤ - ٢٦٨ - ٢٧٢ - | |
| ٢٧٣ - ٣٣١ - ٣٣٥ - ٣٦٥ - | النخل - |
| ٣٧٠ - ٣٧٩ - ٣٨١ - ٣٩٥ - | ٥٩ - ٨٨ - ٨٩ - ١٠٢ - ١١٥ - |
| المغرب الأقصى - | نهر السنغال - |
| ٤٤ - ٢١٣ - ٢١٥ - ٢١٨ - | ٤٥ - ٥٩ - ٦٤ - ٦٥ - ١٠٣ - |
| ٣١٧ | ١١٩ - ١٨٧ - ١٨٩ - ١٩٤ - |
| المغرب الأوسط - | ٢٦٩ |
| ٣٢ - ٢٣٥ - | نجامينا - |
| مكناس (مكناسة) - | ٤٥ |
| ٢٥٧ - ٢٧٤ - ٢٨٠ - ٢٣١ - | نفوسة (بلد) - |
| ٣٨٠ - ٣٤٧ - | ٥٠ |
| مكة - | نفيس (وادي ، بلاد) - |
| ١٤٠ - ١٤١ - ١٥٨ - | ١٧٢ - ١٧٥ - ٢١٧ - ٢٤٠ - |
| ملازكرد - | نواكشوط - |
| ٤٣ | ٤٥ |
| ملكوس - | نول (لمطة) : (تندوف) - |
| ١٧٣ - ١٧٥ - | ٢٨ - ٤٥ - ٥٠ - ٧٠ - ١١٤ - |
| مليلة - | ١٣١ - ٢٠٤ - |
| ٢٨١ | نيامي - |
| ٤٣ - ٣٧ | ٤٥ |
| المنستير (رباط) - | النيجر (جمهورية) - |
| ١٨٣ | ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ - ٥٢ - |
| موريتانيا - | ٥٨ - ١١٤ - |
| | النيجر (نهر) - |
| | ٦٢ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٧٦ - |

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| (و) | ٩٠ - ١٠٣ - ١٨٦ - ١٦٩ |
| - واحات مصر | - نيجيريا |
| ٥٠ - ٥٩ - ٨٩ - ١١٥ | ٤٥ - ٦٠ - ٦٦ - ٦٧ |
| - وادى آش | - نيسابور |
| ٣٦٠ | ١٦١ |
| - وادى تنسيفت | - النيل (السودانى) |
| ١٧٥ | ٦٣ - ٦٤ - ٩٥ - ١٨ - ١٨٨ |
| - وادى نون | - نيما (مدينة) |
| ٥٤ | - نيورو |
| - وارجلان | ٦٠ |
| ٤٥ - ٤٦ - ٥٩ - ٦١ - ٨٦ - | |
| ٨٨ | (ه) |
| - الوالو (سهل) | |
| ٦٥ | - هرمز |
| - وهران | ١١٤ |
| ١١٤ | - الهند |
| (ى) | ١١٤ |
| - اليسانة | - هيلانة |
| ٣٦٦ | ٢٤٠ - ٢٤١ |

رقم الايداع ١٩٩٥/٤٩٩٩



I. S. B. N

977 — 03 — 0194 — 9

مطبعة أطلس

١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية

تليفون : ٥٧٨٧٧٩٧ - القاهرة

 **Bibliotheca Alexandrina**
مكتبة الإسكندرية
 **0228953**

٥٥٣/٣٧